فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيرات

٤

(الكون البشري)

القلعة

رواية

ترجمها عن الألمانية

ابراهيم وطفي

القلعة

منشورات وطفي

gibran.watfe@gmail.com

www.kafkarabic.com

التوزيـــــــــــــع:
دار الكلمة ودار الحصاد
سورية ـ دمشق ـ برامكة
kalemah@scs-net.org.sy
هـاتـــف: ٢١٢٦٣٢٦
فـاكـــس: ٢١٢٦٣٢٦

الطبعـــة الأولـــــى

عام ٢٠١٤

م. و. إ. ع. ط: ١١١٧٧٢
تاريخ: ٠٢ ـ ٠٩ ـ ٢٠١٤

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيرات

٤

(الكون البشري)

القلعة

رواية

ترجمها عن الألمانية

ابراهيم وطفي

،على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا،

(كافكا)

،إن كتابات كافكا هي ضربة فأس ضد البحر المتجمد فينا،

(نـاقــد)

إلى

أنّي

كاتارينا جبرانا

زكية ميلينا

وجبران خليل

الفهرس

عن هذه الطبعة

هذا الشكل لنص رواية «القلعة» قد يثير في بادئ الأمر استغراباً - قبل كل شيء بسبب قلة علامات الوقف، وطريقة الكتابة غير المنتظمة في بعض الأحيان. لكن التقديم هنا يطابق الشكل غير المألوف الذي وصلنا، ذلك أن كافكا لم يكمّل الرواية ولم يعدّها بأية طريقة من أجل النشر؛ إنه بالأحرى لم يقم بتطوير النص على ما يبدو إلا كي يستطيع أن يقرأه بخط يده بسهولة ويتلو منه على آخرين إذا أراد. ومن المعروف أنه تلا على صديقه ماكس برود الصفحات الأولى على الأقل. إن طبيعة النص الشخصية إلى حد ما والوقتية، تظل هنا محافظاً عليها للأمانة والدقة؛ فلم تجر محاولة تنظيفه أو صقله بإجراء تصحيحات عليه بالمعنى الذي كان الكاتب قد يعنيه.

قد تبدو علامات الوقف من النظرة الأولى عشوائية أيضاً، لأن المرء يفتقد استخدام القواعد التي تعلمها، لكنه يدرك نتيجتها، حالما يشرع في القراءة بمعونة الأذن إذا صح هذا التعبير؛ إذ إن وضع كافكا لعلامات الوقف لا يرمي كثيراً إلى توضيح البنية النحوية للجمل بل بالأحرى إلى إدراك معناها بسهولة أكبر وتحديد الإيقاع والنغمة. عندما كان كافكا يتلو، يكتب صديقه الضرير أوسكار باوم، «كان تعبير الكلمة المفردة لدى وضوح كل لفظ وضوحاً تاماً، بسرعة لسان جنونية بين الحين والآخر، يتبع اتباعاً كلياً عرضاً موسيقياً - ... نفس طويل لامتناه، لامتناه وتصاعد صوت تصاعداً شديداً للأدراج الديناميكية - كما يملكه نثره أيضاً - ...» كان له، كما يلمح باوم، بصفته كاتباً أيضاً، هذا «النفس الطويل اللامتناه»، فإنه يتعيّن على الناشر هنا أن يسأل نفسه كم يحق له أن يقطع أنفاس الخطاب السردي بعلامات وقف؟ انطلاقاً من وجهة النظر البيانية هذه تكتسب بعض التأرجحات في كتابة كافكا معناها الحميد.

فوق ذلك يُظهر خط اليد، في ضبط الكتابة كما في المفردات والمصطلحات، بعض الخواص المميزة مشروطة محلياً أو شخصياً: هي أيضاً لم تُمسّ في هذه الطبعة حتى مع خطر أن تزعج لدى القراءة. يتعلق الأمر هنا بأشكال كانت مستخدمة في كامل مجال الإمبراطورية النمساوية أو في مملكة بوهيميا أو في براغ. لو كان أُتيح لكافكا أن يعدّ رواية «القلعة» للطباعة،

وينسخها من جديد، كان خليقاً على الأرجح كثيراً أن يزيل من النص جلّ هذه الانحرافات، إذ إنه كان يأخذ أهمية كبرى للغة المتداولة حالما يظهر أمام الملأ. لكن إذ إن هذا لم يحدث، يتعيّن أن يبقى كل شيء على حاله كما يُقرأ في خط اليد.

ملكولم باسلي[*]

عن هذه الطبعة تمّت الترجمة هنا، مع محاولة الحفاظ على «روح» كافكا وأسلوبه وشكل كتابته (ا. و.).

(*) ملكولم باسلي (MalcolmPasley، ١٩١٦ ـ ٢٠٠٤) أستاذ الأدب الألماني في جامعة أكسفورد، خبير في أدب كافكا، وأحد علماء الأدب المشاركين في تحقيق الطبعة النقدية ـ التاريخية لآثار كافكا في الألمانية.

القلعة

١

وصول

كان الوقت متأخراً مساء حينما وصل ك. كانت القرية غارقة في الثلج. لم يكن يُرى شيء من جبل القلعة، كان الضباب والظلام يحيطان بها، ولا حتى بصيص ضوء كان يشير إلى وجود القلعة الكبيرة. وقف ك. مدة طويلة على الجسر الخشبي الذي يؤدي من الطريق العام إلى القرية وهو يرفع بصره إلى ما يبدو فراغاً.

ثم سار يبحث عن مكان مبيت؛ في النزل كان المرء ما زال مستيقظاً، صحيح أنه لم يكن لدى صاحب النُزْل غرفة لتأجيرها، بيد أنه أراد، وقد فوجئ إلى أقصى حد وارتبك من الضيف المتأخر، أن يدع ك. ينام في الحانة على مرتبة قش، وقد وافق ك. على ذلك. كان بعض الفلاحين ما زالوا يحتسون البيرة في الحانة لكنه لم يرغب في التحدث مع أحد، أحضر بنفسه مرتبة القش من حجرة الخزين تحت السقف المائل واستلقى بالقرب من المدفأة. كان الجو دافئاً، وكان الفلاحون صامتين، تفحصهم بعض الشيء بعينين متعبتين، ثم أخلد إلى النوم.

لكن بعد فترة وجيزة أوقظ. كان ثمة شاب يرتدي ملابس ابن مدينة ذو وجه كأنه وجه ممثل وعينين ضيقتين وحاجبين كثّين يقف إلى جانبه مع صاحب النزل. كان الفلاحون ما زالوا هنا، وكان بعضهم قد أداروا كراسيهم كي يروا ويسمعوا على نحو أفضل. اعتذر الشاب بلطف زائد لإيقاظه ك.، وقدم نفسه بصفته ابن أمين القلعة، وقال من ثم: «هذه القرية هي مِلْك القلعة، من يسكن هنا أو يبيت، يسكن أو يبيت في القلعة إلى حد ما. هذا لا يجوز لأحد دون إذن من الغراف. أما أنت فإنك لا تملك مثل هذا الإذن أو أنك على الأقل لم تبرزه.»

كان ك. قد اعتدل من رقاده نصف اعتدال وسوّى شعره، تطلع إلى الناس من أسفل إلى أعلى وقال: «في أية قرية ضللت طريقي؟ هل يوجد هنا قلعة؟»

«بلا شك»، قال الشاب بتأنّ، في حين راح أحدهم هنا وهناك يهزّ رأسه على ك.، «قلعة السيد الغراف(*) فستفست.»

«ويتعيّن على المرء أن يملك إذناً للمبيت؟»، سأل ك.، وكأنه يريد أن يقنع نفسه بأنه قد يكون ربما حلم بالتبليغات السابقة.

«يتعيّن أن يكون في حوزة المرء إذن»، كان الجواب وكان ثمة سخرية قاسية بالنسبة لـ ك. عندما سأل الشاب صاحبَ النزل والضيوف وهو يمدّ ذراعه: «أم أنه لا يتعيّن على المرء أن يملك الإذن؟»

«إذاً سوف يتعيّن عليّ أن أجلب الإذن»، قال ك. وهو يتثاءب وأزاح الغطاء عن نفسه وكأنه يريد أن ينهض.

«نعم مِمَّن إذاً؟»، سأل الشاب.

«من السيد الغراف»، قال ك.، «لن يبقى شيء آخر سوى فعل ذلك.»

«الآن في منتصف الليل إحضار الإذن من السيد الغراف؟»، نادى الشاب وهو يعود خطوة إلى الوراء.

«هل هذا غير ممكن؟»، سأل ك. ثابت الجأش، «لماذا أيقظتني إذاً؟»

لكن هنا فقد الشاب أعصابه، «هذا سلوك متشردين»، نادى، «إنني أطلب احترام سلطة الغراف! لقد أيقظتك كي أعلمك أنه يتعيّن عليك أن تغادر أراضي الغراف على الفور.»

«يكفي كوميديا»، قال ك. بصوت خافت على نحو لافت للنظر، اضطجع وسحب اللحاف فوقه، «أيها الشاب! إنك تجاوز حدّك بعض الشيء وغداً سوف أعود إلى تصرفك. صاحب النزل والسادة هناك هم شهود، إذا كنت أحتاج إلى شهود أصلاً. لكن ما عدا ذلك دع الأمر يقال إنني مسّاح الأراضي، الذي دعاه الغراف للحضور. مساعداي سيحضران غداً بالعربة مع الأجهزة. وقد أردت ألا يفوتني المسير في الثلج، غير أنني يا للأسف ضللت الطريق بضع مرات، لهذا السبب لم أصل إلا متأخراً هكذا. وكنت أعلم من ذاتي قبل تعليم منك أن الوقت الآن أصبح متأخراً كي أبلغ حضوري في القلعة. ولذا اكتفيت أيضاً بهذا المكان للمبيت هنا، وكنت تملك عدم اللباقة ـ بتعبير مهذب مني ـ لتزعجني. بهذا تنتهي توضيحاتي. تصبحون على خير يا حضرات السادة». واستدار ك. نحو المدفأة.

«مسّاح أراض؟» سمع أحدهم وراء ظهره يسأل بتردد، ثم ساد سكون شامل. غير أن

(*) Graf غراف لقب من ألقاب طبقة النبلاء يعادل لقب كونت الفرنسي والإيطالي (ا. و.).

الشاب سرعان ما تمالك نفسه وقال لصاحب النزل بصوت خافت على نحو يكفي لاعتباره مراعاة لنوم ك.، وعال على نحو يكفي لكي يفهمه: «سوف أسأل هاتفياً.» كيف؟ هل كان ثمة هاتف أيضاً في هذا النزل القروي؟ كان المرء مجهّزاً على خير وجه. لقد فوجئ ك. بالتفاصيل، لكنه طبعاً كان يتوقع المجموع. لقد تبيّن أن الهاتف كان مثبّتاً فوق رأسه تقريباً وكان في نعاسه قد سها عنه. وإذا كان يتعيّن على الشاب أن يهاتف الآن، فإنه لن يستطيع أن يراعي نوم ك. مهما رغب في ذلك، كان الموضوع لا يتعلق إلا في ما إذا كان على ك. أن يسمح له بإجراء المخابرة، وقد قرر أن يسمح له. لكن طبعاً لم يعد ثمة جدوى أن يقوم بتمثيل دور النائم، ولذا فقد عاد إلى وضعية الاستلقاء على ظهره. وقد رأى الفلاحين يقتربون بعضهم من بعض على نحو خجول ويتحادثون، إن وصول مسّاح أراضٍ لم يكن أمراً قليل الأهمية. كان باب المطبخ قد فتح، وملأت صاحبة النزل فتحته بجسمها الضخم، وعلى أطراف أقدامه اقترب منها صاحب النزل لكي يروي لها. والآن بدأت المحادثة الهاتفية. كان أمين القلعة نائماً، لكن أميناً ثانوياً، واحداً من أمناء ثانويين، السيد فريتز كان موجوداً. روى الشاب، الذي قدم نفسه باسم شفارتسر، كيف وجد ك.، رجل في الثلاثين من عمره، رث الثياب، نائم بهدوء على مرتبة قش، بحقيبة صغيرة جداً كوسادة، وإلى جانبه عصا كثيرة العقد. وطبعاً بدا له مريباً، وإذ إن صاحب النزل كان على ما يبدو قد أهمل واجبه، كان من واجبه هو، شفارتسر، أن يتقصى حقيقة الأمر. الإيقاظ، الاستجواب، التهديد، طبقاً للواجب، بالطرد، تلقّاها ك. على نحو غير وديّ بتاتاً، وبالمناسبة، قد يكون، كما تبيّن أخيراً، على حق ربما، حيث إنه يدعي أنه مسّاح أراضٍ استدعاه الغراف. وطبعاً من الواجب الشكلي على الأقل التحقق من هذا الادعاء، لذا يرجى من السيد فريتز الاستعلام في المكتب المركزي عما إذا كان مسّاح أراضٍ من هذا النوع يُنتظر فعلاً، وإعلام الجواب هاتفياً على الفور.

ثم ساد سكون، فريتز راح هناك يستعلم، وهنا طفق المرء ينتظر الجواب، ك. ظل على حاله، بل إنه لم يستدر، وبدا أنه غير فضولي قط، وطفق ينظر أمامه. إن قصة شفارتسر في مزيجها من الخبث والحذر أعطته تصوراً عن التعليم الدبلوماسي نوعاً ما الذي يملكه بسهولة في القلعة حتى الناس الصغار مثل شفارتسر. كذلك لم يقصّروا في النشاط، فقد كان لدى المكتب المركزي خدمة ليلية. وأعطى جواباً، بسرعة فائقة على ما يبدو، فها هو فريتز يخابر. لكن هذا التقرير بدا في غاية الاقتضاب، إذ إن شفارتسر ألقى السماعة غاضباً. «هذا ما قلته حقاً»، صرخ، «ما من أثر لمسّاح أراضٍ، إنه متشرد كاذب وضيع، بل أكثر سوءاً على الأرجح.» طوال لحظة فكرَ ك.، كلهم؛ شفارتسر، الفلاحون، صاحب النزل وصاحبته، سوف ينقضّون عليه، ولكي يتفادى الهجوم الأول على الأقل، زحف كلياً تحت اللحاف، هنا ـ وأخرج رأسه ببطء ـ رنّ الهاتف ثانية بصوت عال على نحو مخصوص كما بدا لـ ك. ومع أنه كان من غير المرجح

أن يكون الأمر يتعلق بـ ك.، فقد توقف الجميع وعاد شفارتسر إلى الهاتف. هناك استمع إلى تصريح طويل من ثم قال بصوت خافت: «خطأ إذاً. هذا يحرجني للغاية. رئيس المكتب بنفسه خابر؟ غريب، غريب. لكن كيف يمكنني الآن أن أوضح الأمر للسيد مسّاح الأراضي؟».

أصاخ ك. السمع. كانت القلعة إذاً قد عيّنته مسّاح أراض. كان هذا، من طرف، أمراً غير مناسب له، إذ إنه بيّن أن المرء في القلعة يعرف عنه كل ما هو ضروري، وأنه وازن ظروف القوى وقبل الصراع مبتسماً. لكن من طرف آخر كان الأمر مناسباً، إذ إنه دلّ حسب رأيه على أن المرء إنما كان قد استهان به وأنه سوف يملك حرية أكثر مما كان من شأنه أن يجوز له أن يأمل من أول الأمر. وإذا كان المرء يظن بأنه يمكنه، من خلال هذا الاعتراف بمهنته مسّاحاً للأراضي، هذا الاعتراف المتفوق فكرياً ولا ريب، أن يبقيه طيلة الوقت في حال من الذعر، فإن المرء يخطئ الظن، لقد أصابته رعشة خفيفة، لكن كان هذا كل شيء.

وإذ راح شفارتسر يقترب من ك. في حياء، أشار له هذا بالابتعاد. ورفض ك. أن ينتقل إلى غرفة صاحب النزل، الأمر الذي ألحّوا عليه فيه، أخذ من صاحب النزل فقط جرعة منومة، ومن صاحبة النزل حوض اغتسال مع قطعة صابون ومنشفة، ولم يكن عليه حتى أن يطلب إخلاء القاعة، إذ إن الجميع تدافعوا إلى خارجها وقد أشاحوا بوجوههم لكي ربما لا يتعرفهم في الغد. أطفئ المصباح ونعم ك. أخيراً بالهدوء. نام نوماً عميقاً حتى الصباح، ومرة أو مرتين أزعجته فئران مرقت بسرعة خاطفة.

بعد تناول طعام الفطور، الذي ستدفع القلعة ثمنه كما ثمن كل طعام ك.، حسب كلام صاحب النزل، أراد أن يذهب إلى القرية في الحال. لكن إذ إن صاحب النزل، الذي لم يكن قد تكلم معه سوى ما هو ضروري، متذكراً تصرفه في الليلة الفائتة، طفق يدور حوله برجاء صامت، فقد رقّ قلبه له ودعاه يجلس إلى جانبه هنيهة.

«ما زلت لا أعرف الغراف»، قال ك.، «قيل إنه يدفع أجراً جيداً لقاء عمل جيد، هل هذا صحيح؟ عندما يرحل المرء مثلي بعيداً عن المرأة والولد، فإنه يريد أيضاً أن يأخذ معه إلى البيت شيئاً ما.»

«من هذه الناحية لا ينبغي على السيد أن يشغل باله، فالمرء لا يسمع شكوى من أجر سيئ.»

«ثم»، قال ك.، «إنني لست من الخجولين، وفي مقدوري أن أقول رأيي لغراف أيضاً، لكن من الأفضل كثيراً طبعاً تدبير الأمور مع السادة بسلام.»

كان صاحب النزل يجلس قبالة ك. على طرف حافة النافذة، ولم يكن يجرؤ على الجلوس براحة أكثر، وراح ينظر طوال الوقت إلى ك. بعينين واسعتين سمراوين قلقتين. كان في البداية قد زحم نفسه مقترباً من ك. والآن بدا الأمر وكأنه يريد والأحب إليه أن يجري بعيداً. هل

كان يخشى من أن يُسأل عن الغراف؟ هل كان يخاف عدم أمان جانب «السيد» الذي اعتبره ك.؟ كان يتعيّن على ك. أن يحوّل نظره. نظر إلى الساعة وقال: «قريباً يصل مساعداي، هل ستتمكن من إيوائهما هنا؟»

«بالتأكيد، أيها السيد»، قال، «لكن ألن يقيما معك في القلعة؟»

هل كان يستغني عن الضيوف بسهولة وعن طيب خاطر وعن ك. خاصة، الذي يحيله إلى القلعة بهذه السهولة؟

«ما زال هذا غير مؤكد»، قال ك.، «ينبغي عليّ أولاً أن أعلم ما هو عملي. إذا كان عليّ مثلاً أن أعمل هنا تحت، فإنه سيكون من الصائب أن أسكن هنا تحت. كما أنني أخشى أن لا تروق لي الحياة فوق في القلعة. إنني أبغي دائماً أن أكون حراً.»

«إنك لا تعرف القلعة»، قال صاحب النزل بصوت منخفض.

«طبعاً»، قال ك.، «على المرء أن لا يحكم قبل الأوان. حالياً لا أعرف شيئاً عن القلعة سوى أن المرء هناك يفهم أن يبحث لنفسه عن مسّاح الأراضي الصحيح. ربما كان يوجد هناك فضائل أخرى.» ونهض كي يخلص منه صاحب النزل الذي كان يعض على شفتيه في غير ارتياح. لم يكن من السهل كسب ثقة هذا الرجل.

لدى انصرافه لفت نظر ك. على الجدار صورة قاتمة ضمن إطار قاتم. كان قد لاحظها من مرقده، غير أنه في البُعد لم يكن قد ميّز التفاصيل وظن أن الصورة الحقيقية كانت قد انتزعت من الإطار ولم يكن يُرى سوى الخلفية السوداء. إلا أنها كانت صورة، كما تبيّن الآن، صورة نصفية لرجل في نحو الخمسين من عمره. كان خافضاً رأسه فوق صدره على نحو شديد بحيث أنه لا يكاد المرء يرى عينيه، وبدا أن الأمر الحاسم بالنسبة للخفض هو الجبين المرتفع الجاثم والأنف المقوس نحو الأسفل. ونتيجة وضع الرأس مضغوطاً على الذقن، فإن اللحية كانت منحنية في الأسفل. كانت اليد اليسرى تندس منفرجة الأصابع في الشعر الكثيف، لكنها لم تكن تقوى بعد على رفع الرأس. «من هذا؟»، سأل ك.، «الغراف؟» كان ك. يقف أمام الصورة ولم يلتفت قط إلى صاحب النزل. «كلا»، قال صاحب النزل، «أمين القلعة.» «لديهم في القلعة أمين بهيّ الطلعة بمعنى الكلمة»، قال ك.، «خسارة أن له ابناً غير مؤدب.» «لا»، قال صاحب النزل، وسحب ك. إليه قليلاً وهمس في أذنه: «شفارتسر بالغَ يوم أمس، فوالده ليس سوى أمين ثانوي، بل إنه واحد من أواخر الأمناء الثانويين.» في هذه اللحظة بدا صاحب النزل لـ ك. وكأنه طفل. «الوغد!» قال ك. وهو يضحك، لكن صاحب النزل لم يشاركه الضحك، بل قال: «والده أيضاً قوي.» «اذهب!» قال ك.، «أنت تعتبر كل امرئ قوياً. هل تعتبرني أنا أيضاً مثلاً؟» «أنت»، قال على استحياء لكن بجدّ، «لا أعتبرك قوياً» «إنك تفهم

إذاً كيف تحسن الملاحظة»، قال ك.. «أسرّ لك بأنني فعلاً لست قوياً، ومن ثمّ فإن احترامي للأقوياء لا يقل على الأرجح عن احترامك لهم، بيد أنني لست صادقاً مثلك ولا أريد أن أعترف دائماً بالأمر.» وربت ك. على وجنة صاحب النزل برفق كي يواسيه ويستميله إليه أكثر. فابتسم هذا ابتسامة خفيفة. كان فعلاً صبياً بوجهه الغضّ الأمرد تقريباً. كيف كان قد وصل إلى زوجته العريضة المتقدمة في السن، التي كان المرء يراها في الجوار وراء الكوّة وهي تعمل في المطبخ وقد باعدت مرفقيها عن جسمها. لكن ك. لم يعد يريد أن يلحّ عليه أكثر ولا يطرد الابتسامة التي كانت قد ارتسمت بجهد، فأعطاه إشارة وحسب كي يفتح له الباب وخرج إلى الصباح الشتوي الجميل.

والآن شاهد القلعة في الأعلى واضحة المعالم في الجو الصافي وقد توضحت أكثر من خلال الثلج المتراكم في كل مكان في طبقة خفيفة عاكساً مختلف الأشكال. وقد بدا أن الثلج على الجبل في الأعلى أقل منه هنا في القرية، حيث راح ك. يتقدم بمشقة لا تقلّ عن المشقة يوم أمس على الطريق العام. هنا كان الثلج يصل إلى نوافذ الأكواخ ويثقل على الأسطح المنخفضة، لكن على الجبل في الأعلى كان كل شيء يبرز طليقاً وخفيفاً، على الأقل هكذا كان الحال يبدو من هنا.

كانت القلعة في المجموع تطابق توقعات ك. كما استبانت هنا من بعيد. لم تكن قلعة فرسان ولا مبنى فخماً جديداً، بل منشأة تتألف من بضعة أبنية ذات طابقين والعديد من الأبنية الوطيئة المتلاصقة معاً؛ لو لم يكن المرء يعلم أنها قلعة، كان من شأنه أن يستطيع اعتبارها مدينة صغيرة. ولم ير ك. سوى برج واحد، ولم يتبيّن له إذا ما كان يخص مبنى سكنياً أم كنيسة. وكان ثمة أسراب من الغربان تحوم حوله.

مصوّباً عينيه على القلعة استمر ك. في المسير دون أن يهمّه شيء آخر. لكن عند الاقتراب خيّبت القلعة أمله، فهي لم تكن إلا مدينة صغيرة بائسة حقاً، جمعت من بيوت قروية، لا يميزها سوى أن كل شيء ربما كان مبنياً من حجر، لكن الطلاء كان قد زال منذ مدة طويلة، والحجر بدا أنه يتفتت. على نحو عابر تذكر ك. مدينته الصغيرة في الوطن، كانت لا تكاد تقلّ عن هذه القلعة المزعومة. لو كان الموضوع بالنسبة إلى ك. لا يتعلق إلا بزيارة القلعة ومشاهدتها، لكان تجواله الطويل خسارة ولكان عليه أن يتصرف تصرفاً عقلانياً أكثر ويزور بلده القديم حيث لم يكن منذ زمن بعيد. وراح يقارن في أفكاره برج الكنيسة في بلده بالبرج هناك في الأعلى. ذلك البرج، محدد، دون تردد، مجدداً حيويته مباشرة إلى الأعلى، منتهياً بسطح عريض وقرميد أحمر، بناء دنيويّ - ماذا في مقدورنا أن نبني شيئاً آخر؟ - لكن بهدف أسمى من الخليط من الأبنية المنخفضة وبتعبير أكثر وضوحاً مما يملك يوم العمل الكالح. البرج هنا في الأعلى - كان الوحيد المرئي -، برج مبنى سكنيّ، كما تبيّن الآن، ربما برج القلعة

الرئيسية، كان مبنى دائرياً على وتيرة واحدة، مغطى جزئياً باللبلاب رحمةً، له نوافذ صغيرة تلمع الآن في الشمس لمعاناً ساطعاً ـ كان هذا يملك شيئاً جنونياً ـ ونهاية أسوارها المسننة مترددة غير منتظمة، هشة ترتفع مسننة نحو السماء الزرقاء كأنما رسمتها يد طفل خائفة أو متهاونة. كان الحال وكأنما ساكن ما مكتئب كان عليه بحق أن يحبس نفسه في أقصى غرفة من غرف البناء ثقب السطح وقام واقفاً كي يُري نفسه للعالم.

مرة أخرى وقف ك. ساكناً وكأن من شأنه في الوقوف الساكن أن يملك مزيداً من القدرة على الحكم. لكنه أُزعج. وراء كنيسة القرية، التي كان قد ظل واقفاً لديها ـ كانت في الواقع مجرد كنيسة صغيرة، جرى توسيعها حتى صارت على شكل مخزن غلال كي تتسع للمصلين ـ كانت المدرسة. بناء طويل منخفض يجمع على نحو غريب بين صفة المؤقت والقديم جداً، كان يقع خلف حديقة مسوّرة كانت الآن حقل ثلج. في هذه اللحظة خرج الأطفال مع المعلم. كانوا يحيطون به متزاحمين حوله، وكل العيون كانت تنظر إليه، وبلا توقف كانوا يثرثرون من كل الجوانب، ولم يفهم ك. كلامهم السريع. كان المعلم إنساناً صغير السن، قصير القامة، ضيق المنكبين، لكن منتصباً للغاية دون أن يصبح الأمر مضحكاً، وكان قد شاهد ك. من بعيد، على كل حال كان ك. بالإضافة إلى مجموعة الأطفال هو الإنسان الوحيد الموجود بالقرب وبالبعد. بصفته غريباً ألقى التحية أولاً على رجل صغير محب للسيطرة هكذا. «طاب يومك أيها السيد المعلم»، قال. دفعة واحدة سكت الأطفال، وهذا الهدوء المفاجئ أعجب المعلم كتمهيد لكلماته. «إنك تتطلع إلى القلعة؟» سأل بدماثة أكثر مما كان ك. يتوقع لكن بنبرة وكأنه لا يوافق على ما يفعله هذا. «نعم»، قال ك.، «أنا هنا غريب، في المكان منذ مساء أمس وحسب.» «القلعة لا تعجبك؟» سأل المعلم بسرعة. «كيف؟» ردّ ك. سائلاً وقد دهش بعض الشيء وكرر السؤال على شكل أكثر لطفاً: «إذا ما كانت القلعة تعجبني؟ لماذا تفترض أنها لا تعجبني؟» «إنها لا تعجب أي غريب»، قال المعلم. لكي لا يقول هنا ما هو غير مرحّب به، حوّل ك. الحديث وسأل: «إنك تعرف الغراف ولا شك؟» «كلا»، قال المعلم وأراد أن يبتعد، غير أن ك. لم يتراجع وسأل مرة أخرى: «كيف؟ أنت لا تعرف الغراف؟» «كيف عليّ أن أعرفه؟» قال المعلم بصوت منخفض وأضاف بصوت عال بالفرنسية: «راعِ حضور أطفال أبرياء.» من هذا استمدّ ك. الحق أن يسأل: «هل أستطيع أن أزورك ذات مرة أيها السيد المعلم؟ سوف أمكث هنا مدة طويلة وأشعر منذ الآن بالوحشة بعض الشيء، للفلاحين لا أنتمي، وفي القلعة أيضاً ليس مكاني الطبيعي.» «بين الفلاحين والقلعة لا يوجد فرق»، قال المعلم. «ممكن»، قال ك.، «هذا لا يغيّر شيئاً من وضعي. هل يمكنني أن أزورك ذات مرة؟» «أسكنُ في شارع البجع عند الجزار.» صحيح، كان هذا بيان عنوان أكثر منه دعوة، مع ذلك قال ك.: «حسناً، سوف أحضر.» هزّ المعلم رأسه بالموافقة واستأنف السير مع مجموعة الأطفال الذين عادوا في الحال إلى التصايح. وسرعان ما اختفوا في زقاق منحدر فجأة.

بيد أن ك. كان مشتت الفكر مستاء من المحادثة. لأول مرة منذ قدومه شعر بتعب حقيقي. لم يكن الطريق الطويل إلى هنا يبدو أنه أضناه أصلاً - كيف كان قد تجول عبر الأيام، بهدوء خطوة خطوة! - لكن الآن ظهرت عواقب الإجهاد المفرط، طبعاً في الوقت غير المناسب. لقد انجذب على نحو لا يقاوم كي يبحث عن معارف جدد، غير أن كل تعارف جديد زاد من التعب. وإذا ما أرغم نفسه في حالته اليوم على مواصلة تنزّهه على الأقل إلى مدخل القلعة، فيكون قد أنجز ما هو أكثر من كاف.

هكذا استمر في المسير إلى الأمام، غير أن الطريق كان طويلاً. ذلك أن الشارع، شارع القرية الرئيسي، لم يكن يؤدي إلى جبل القلعة، كان يؤدي إلى قربها وحسب، لكنه من ثم كان ينعطف وكأنه يفعل ذلك عمداً، وإن كان لا يبتعد عن القلعة، فإنه مع ذلك لم يكن أيضاً يقترب منها. وطفق ك. يتوقع دائماً أنه لا بدّ للشارع من أن ينعطف أخيراً باتجاه القلعة، وفقط لأنه كان يتوقع ذلك، فإنه استمر في السير؛ والظاهر أنه نتيجة تعبه تردد في مغادرة الشارع، كما أنه دهش من طول القرية، التي لم تنته، دائماً وأبداً البيوت الصغيرة وزجاج نوافذ يغطيه الجليد وثلوج وخلوّ من الناس - وأخيراً انتزع نفسه من هذا الشارع المتشبث، واستقبله زقاق ضيق، وكان الثلج فيه أكثر عمقاً، وكان إخراج القدمين الغائرتين عملاً صعباً، وتصبب عرقاً، وعلى حين غرة توقف ساكناً ولم يعد في مقدوره أن يتابع السير.

لم يكن الآن مهجوراً، فعلى اليمين واليسار كانت أكواخ الفلاحين، صنع كرة ثلج وألقاها على نافذة. وعلى الفور فتح الباب - الباب المفتوح الأول أثناء كامل طريق القرية - وظهر فيه فلاح كهل، ودود وضعيف يرتدي جاكتة فراء بنيّة، يحني رأسه جانباً. «هل يجوز لي أن آتي إليكم بعض الوقت؟»، قال ك.، «إنني متعب للغاية.» لم يسمع أبداً ما قاله الكهل، شاكراً تقبّل اللوح الذي دُفع نحوه وأنقذه في الحال من الثلج وببضع خطوات بات واقفاً في الحجرة.

كانت حجرة واسعة خافتة الضوء. في البداية لم ير القادم من الخارج أي شيء. ترنح ك. باتجاه حوض اغتسال، فأمسكت به يد امرأة. من إحدى الزوايا تناهى صراخ أطفال شديد، ومن زاوية أخرى تصاعد دخان محيلاً الضوء الخافت إلى ظلمة، ووقف ك. وكأنه يقف وسط غيوم. «إنه لثمل»، قال أحدهم. «من أنت؟» نادى صوت آمر ولا شك متوجهاً إلى الكهل: «لماذا أدخلته؟ هل يمكن للمرء إدخال كل من يجوس في الشوارع؟» «أنا مسّاح أراض عند الغراف»، قال ك. وهو يحاول أن يعرّف بنفسه أمام الذي ما زال غير مرئي. «آه، إنه مسّاح الأراضي»، قال صوت نسائي ساد بعده سكون مطبق. «إنكم تعرفونني؟» سأل ك. «بالتأكيد»، قال الصوت نفسه باقتضاب. كونهم كانوا يعرفون ك. بدا أنه أمر غير مستحسن.

أخيراً تبدد الدخان بعض الشيء واستطاع ك. أن يتبين الأمور ببطء. كان اليوم يبدو يوم غسيل عام. بالقرب من الباب كان غسيل يُغسل. لكن الدخان كان يأتي من الزاوية اليسرى،

حيث كان برميل خشبي، ذو حجم هائل لم يكن ك. قد شاهد مثله قط، كان حجمه يبلغ حجم سريرين، فيه كان يستحمّ رجلان في ماء يتصاعد منه البخار. لكن الأمر الأكثر مفاجأة، دون أن يعلم المرء أين بالدقة تكمن المفاجأة، كانت الزاوية اليمنى. من كوّة كبيرة، هي الوحيدة في جدار الحجرة الخلفي، كان يدخل من الفناء على الأرجح ضوء ثلج خافت أضفى على ثوب امرأة كانت ترقد تقريباً متعبة على أريكة عالية تقع في عمق الزاوية، مظهراً كأنه من حرير. كانت تحمل رضيعاً إلى صدرها. حولها كان بضعة أولاد يلعبون، أبناء فلاحين كما كان يُرى، لكنها هي لم تبدُ أنها تنتمي إليهم، طبعاً المرض والتعب يضفيان على الفلاحين أيضاً رقة ونعومة.

«اجلس!» قال أحد الرجال بلحية كثة وشارب يُبقي الفم تحته مفتوحاً دائماً وهو يلهث ويشخر، قال وهو يشير، الأمر المثير للضحك، بيده فوق حافة البرميل، إلى صندوق ورشّ أثناء ذلك وجه ك. بالكامل بماء ساخن. على الصندوق كان يجلس غائباً عن الوعي الكهل الذي كان قد أدخل ك. وكان ك. شاكراً على أنه يجوز له أخيراً أن يجلس. والآن لم يعد أحد يهتم به. كانت المرأة لدى حوض الاغتسال، وهي امرأة شقراء ذات بدانة فتيّة، تغني بصوت خافت وهي تعمل، وكان الرجلان في الحمام يطآن ويدوران، وكان الأولاد يريدون الاقتراب منهما، لكن كان يجري إبعادهم مرة بعد مرة برشاشات ماء شديدة لم توفر حتى ك.، وكانت المرأة على الأريكة ترقد وكأنها ميتة، ولم تكن تنظر حتى إلى الطفل إلى صدرها، بل إلى الأعلى على نحو غير محدد.

كان ك. ـ ولا بدّ ـ قد تمعّنها مطولاً، هذه الصورة الجميلة الحزينة غير المتبدلة، من ثم كان لا بدّ أنه أخلد إلى النوم، إذ حين فزع من نومه وقد نادى عليه صوت مرتفع، كان رأسه على كتف الكهل إلى جانبه. كان الرجلان قد فرغا من الاستحمام، وطفق الأولاد يلعبون الآن في الحوض تحت مراقبة المرأة الشقراء، ووقفا أمام ك. وقد ارتديا ملابسهما. لقد تبيّن أن ذا اللحية الكثة الصيّاح هو أقل الاثنين شأناً. إذ إن الآخر، الذي لم يكن أطول قامة من ذي اللحية الكثة وبلحية أخف كثيراً، كان رجلاً هادئاً يفكر ببطء ذا جسم عريض ووجه أيضاً عريض، وكان يطأطئ رأسه. «السيد مسّاح الأراضي»، قال، «هنا لا يمكنك البقاء. اعذر عدم اللباقة.» «أنا أيضاً لم أكن أرغب في البقاء»، قال ك.، «أن أستريح بعض الشيء. وهذا ما حدث والآن أنا ذاهب.» «إنك تعجب على الأرجح من قلة حسن الضيافة»، قال الرجل، «لكن الضيافة ليست عادة لدينا، إننا لا نحتاج إلى ضيوف.» منعشاً بعض الشيء بسبب النوم، مرهف السمع أكثر من السابق، فرح ك. بالكلمات الصادقة. بات يتحرك بحرية أكثر، صار يسند عصاه مرة هنا ومرة هناك، اقترب من المرأة على الأريكة، وبالمناسبة، كان أيضاً الأكبر جسدياً في الحجرة.

«بالتأكيد»، قال ك.، «فيمَ تحتاجون إلى ضيوف؟ لكن بين الحين والآخر يحتاج المرء لا شك

إلى ضيف، مثلي على سبيل المثال، أنا مسّاح الأراضي.» «هذا ما لا أعرفه»، قال الرجل بتؤدة، «إذا كانوا قد استدعوك، فإنهم يحتاجون إليك على الأرجح، وهذا هو استثناء ولا شك؛ أما نحن، نحن صغار الناس، فإننا نتمسك بالقاعدة، ولا يمكنك أن تؤاخذنا.» «لا، لا»، قال ك.، «لا يسعني سوى أن أشكركم، جميعكم هنا.» على نحو غير متوقع بالنسبة للجميع استدار ك. بما يشبه القفزة ووقف أمام المرأة. نظرت إليه بعينين زرقاوين متعبتين، وكان غطاء رأس حريريّ شفاف يصل إلى منتصف جبينها، وكان الرضيع ينام على صدرها. «من أنتِ؟» سأل ك. قالت باستهزاء، وكان من غير الواضح إذا ما كان الازدراء موجهاً إلى ك. أم إلى جوابها نفسها: «فتاة من القلعة.»

كل هذا لم يستغرق سوى لحظة، وفي الحال كان على يمين ك. ويساره أحد الرجلين، وكأنه لا يوجد وسيلة تفاهم أخرى تم سحبه إلى الباب بصمت لكن بكل قوة. وفرح الكهل بشيء ما في ذلك وصفق بيديه. كذلك الغسالة ضحكت لدى الأطفال الصاخبين فجأة كما في هيجان.

لكن ك. سرعان ما وقف في الشارع، وراقبه الرجلان من العتبة، وكان الثلج قد عاد إلى السقوط، مع ذلك بدا له الجو نيّراً أكثر بعض الشيء. ذو اللحية الكثة نادى بنفاد صبر: «إلى أين تبغي الذهاب؟ هنا يفضي الطريق إلى القلعة، وهنا إلى القرية.» ولم يردّ ك. على هذا، لكنه قال للآخر الذي رغم تفوقه بدا له أرقّ معشراً: «من أنتما؟ من عليّ أن أشكر على إقامتي؟» «أنا معلم الدباغة لازيمان»، كان الجواب، «لكن ليس عليك أن تشكر أحداً.» «حسناً»، قال ك.، «ربما سوف نلتقي ثانية.» «لا أظن»، قال الرجل. في هذه اللحظة نادى ذو اللحية الكثة وقد رفع يده: «طاب يومك آرتور، طاب يومك يريمياس!» واستدار ك.، ما زال يظهر في هذه القرية بعض الناس في الشارع! كان ثمة شابان قدما من جهة القلعة، وكانا ذوي قامة متوسطة، رشيقين للغاية، يرتديان ملابس ضيقة، متشابهين كثيراً في الوجه أيضاً، كان لون الوجه أسمر غامقاً يبرز منه مع ذلك لحية مدببة ذات سواد خاص. كانا يسيران بسرعة مدهشة قياساً إلى ظروف الشارع هذه، وكانا يطوحان سيقانهما الرشيقة بإيقاع منتظم. «ما وراءكما؟» نادى ذو اللحية الكثة. لم يكن بالإمكان التفاهم معهما سوى مناداة، كانا يسيران بسرعة كبيرة هكذا ولم يتوقفا. «أعمال»، أجابا ضاحكين. «أين؟» «في النزل.» «أنا أيضاً ذاهب إلى هناك»، صاح ك. على حين غرة بصوت أعلى من أصوات الآخرين جميعاً، كان لديه رغبة كبيرة في أن يأخذه الاثنان معهما؛ صحيح أن تعرفهما بدا له غير ذي جدوى كبيرة، لكنهما كانا رفيقي طريق مسليّين على ما يبدو. سمعا كلمات ك.، أومأا برأسيهما وحسب ومضيا.

كان ك. لا يزال يقف في الثلج وليس لديه رغبة في أن يرفع قدمه من الثلج كي يدسها في

العمق بعد قليل؛ كان معلم الدباغة ورفيقه، مسرورين للتخلص من ك. نهائياً، وقد دلفا ببطء، وهما يعاودان النظر إليه دائماً، إلى البيت عبر الباب المفتوح قليلاً وحسب، وبات ك. وحيداً مع الثلج الذي يغشاه. «مناسبة إلى يأس صغير»، خطر في باله، «لو كنت أقف هنا بالمصادفة وليس عمداً.»

هنا فتحت في الكوخ من جهة اليسار نافذة صغيرة جداً، كانت وهي مغلقة تبدو بلون أزرق غامق، ربما في ضوء الثلج المنعكس، وكانت ضئيلة إلى درجة أنه حين فتحت الآن لم يُر كل الوجه الناظر منها إلى الخارج، بل العينان وحدهما، عينان عسليتان شائختان. «هناك يقف»، سمع ك. صوتاً نسائياً مرتعشاً يقول. «إنه مسّاح الأراضي»، قال صوت رجالي. من ثم أقبل الرجل إلى النافذة وسأل بنبرة ليست غير ودّية، لكن على نحو كأن الأمر يهمه بأن يكون كل شيء في الشارع أمام بيته على ما يرام: «من تنتظر؟» «زحّافة تأخذني معها»، قال ك. «هنا لا تأتي زحّافة»، قال الرجل، «هنا لا يوجد حركة مرور.» «إنه الطريق الذي يؤدي إلى القلعة»، قال ك. معترضاً. «مع ذلك، مع ذلك»، قال الرجل بصرامة إلى حد ما، «هنا لا يوجد حركة مرور.» من ثم لاذ الاثنان بالصمت. غير أن الرجل فكر في شيء ما على ما يبدو، إذ إنه ترك النافذة التي كان الدخان يتدفق منها مفتوحة. «طريق سيئ»، قال ك. كي يساعده. أما هو فلم يقل سوى: «نعم طبعاً.» لكن بعد هنيهة قال: «إذا أردتَ، أنقلك بزحافتي.» «أرجو أن تفعل ذلك»، قال ك. فرحاً كل الفرح، «كم تطلب لقاء ذلك؟» «لا شيء»، قال الرجل. ك. تعجب للغاية. «إنك مسّاح الأراضي»، قال الرجل موضحاً، «وتنتمي إلى القلعة. إلى أين تريد أن تسافر إذاً؟» «إلى القلعة»، قال ك. بسرعة. «في هذه الحال لن أسافر»، قال الرجل على الفور. «إنني لأنتمي إلى القلعة»، قال ك. مكرراً كلمات الرجل. «قد يكون»، قال الرجل صادّاً. «إذاً انقلني إلى النزل»، قال ك. «حسناً»، قال الرجل، «سآتي على الفور مع الزحافة». كل هذا لم يعط انطباعاً عن ودّ مخصوص، بل بالأحرى عن نوع من السعي الأناني الخائف ذي الدقة المبالغ فيها تقريباً لإبعاد ك. من المكان أمام البيت.

انفتح باب الفناء وظهرت زحافة صغيرة تستعمل في نقل الأثقال الخفيفة، مسطحة كلياً دون أي مقعد، يجرها حصان واهن، وخلفها الرجل، غير طاعن في السن لكنه ضعيف، محني الظهر، أعرج، ذو وجه نحيل أحمر مزكوم، والذي بدا صغيراً على نحو خاص من خلال شال من الصوف يلف العنق لفاً محكماً. كان الرجل مريضاً بشكل ملحوظ، ولا بدّ أنه لم يخرج إلا ليتمكن من نقل ك. بعيداً. وذكر ك. شيئاً من هذا القبيل، غير أن الرجل أشار بالنفي. وعلم ك. أن الرجل كان الحوذي غرشتكر، وأنه أخذ هذه الزحافة غير المريحة، لأنها كانت جاهزة الآن، وأن سحب زحافة أخرى من شأنه أن يحتاج إلى وقت طويل. «اجلس»، قال وهو يشير بالسوط إلى مؤخرة الزحافة. «سوف أجلس إلى جانبك»، قال ك. «سوف

أمشي»، قال غرشتكر. «لماذا إذاً؟» سأل ك. «سوف أمشي»، كرر غرشتكر وهو يتلقى نوبة سعال هزّته إلى درجة اضطر معها إلى أن يثبت ساقيه في الثلج وأن يتمسك بيديه بحافة الزحافة. ولم يقل ك. شيئاً آخر، وجلس على الزحافة من الخلف، هدأ السعال تدريجياً، وانطلقا.

القلعة هناك في الأعلى داكنة على نحو يدعو للاستغراب، والتي كان ك. يأمل أن يصل إليها اليوم، ابتعدت مرة أخرى. لكن وكأن ثمة إشارة تُعطى له بمناسبة الوداع المؤقت، انطلق هناك صوت ناقوس بهيج يدع القلب يرتعش طوال لحظة على الأقل، كأنما يهدده ـ حيث إن الرنين كان مؤلماً أيضاً ـ أن يتحقق ما كان يصبو إليه على نحو غامض. لكن هذا الناقوس الكبير سرعان ما صمت وحلّ محله ناقوس صغير واهن رتيب، ربما في الأعلى، لكن ربما في القرية. كان هذا الرنين يناسب طبعاً على نحو أفضل السفرة البطيئة والحوذي البائس لكن الصارم.

«أنت»، نادى ك. على نحو مفاجئ ـ كانا قد وصلا إلى قرب الكنيسة، ولم يعد الطريق إلى النزل بعيداً، فسمح ك. لنفسه أن يخاطر بشيء ـ «أعجب كل العجب من أنك تجرؤ على التجول بي على مسؤوليتك الخاصة. هل يسمح لك بهذا؟» لم يهتم غرشتكر بذلك وواصل خطواته بهدوء إلى جانب الحصان الصغير. «هه»، نادى ك.، كوّر شيئاً من الثلج من على الزحافة وأصاب به غرشتكر في أذنه على نحو كامل. هنا توقف هذا واستدار؛ لكن إذ رآه ك. الآن قريباً منه هكذا ـ كانت الزحافة قد واصلت التحرك بعض الشيء ـ هذا الشخص محنيّ الظهر، المعذّب إلى حد ما، الوجه الأحمر المتعب الناحل بخدّين مختلفين بطريقة ما، أحدهما مسطّح، والآخر أجوف، الفم المفتوح المتنصت الذي لم يكن يحوي سوى بضعة أسنان متفرقة، وجب عليه الآن أن يكرر إشفاقاً ما كان قد قاله سابقاً خبثاً، إذا ما كان يمكن لغرشتكر أن يلقى عقوبة على نقله ك. «ماذا تبغي؟» سأل غرشتكر قاصراً عن الفهم، كما أنه غير متوقع لأي إيضاح آخر، صاح بالحصان واستأنفا طريقهما.

حين كادا يصلان إلى النزل ـ ك. تعرّفه بواسطة منحنى طريق ـ، كان الظلام، لدهشته، يخيم على نحو شامل. هل غاب مدة طويلة هكذا؟ فقط نحو ساعة أو ساعتين، طبقاً لحسابه. وكان قد خرج في الصباح. ولم يستشعر حاجة إلى طعام. وإلى قبل مدة قصيرة كان ثمة ضوء نهار متساو، والآن الظلمة. «أيام قصيرة، أيام قصيرة»، قال لنفسه، انزلق من فوق الزحافة واتجه نحو النزل.

فوق؛ على السلم الأمامي الصغير كان يقف صاحب النزل، الأمر الذي استحسنه كل الاستحسان، ويضيء له بمصباح رفعه إلى أعلى. توقف ك. متذكراً الحوذيّ على نحو عابر، وفي مكان ما في الظلمة سعل أحدهم، كان هذا الحوذي. من شأنه أن يراه ثانية في وقت

قريب. وفقط عندما صار لدى صاحب النزل، الذي حيّاه في خشوع، لاحظ رجلاً على كل جانب من جانبي الباب. تناول المصباح من يد صاحب النزل وأضاء الرجلين؛ كانا الرجلين اللذين كان قد قابلهما، واللذين نودي عليهما باسمي آرتور ويريمياس. والآن أدّيا التحية. ضحك متذكراً أيام خدمته العسكرية، هذه الأيام السعيدة. «من أنتما؟» سأل وهو ينظر من أحدهما إلى الآخر. «مساعداك»، أجابا. «إنهما المساعدان»، صادق صاحب النزل بصوت منخفض. «كيف؟» سأل ك.، «أنتما مساعداي القديمان اللذان دعوتهما للحاق بي، واللذان أنتظرهما؟» فأجابا بالإيجاب. «هذا أمر حسن»، قال ك. بعد هنيهة، «إنه أمر حسن أنكما حضرتما.» «بالمناسبة»، قال ك. بعد هنيهة أخرى، «لقد تأخرتما كثيراً، إنكما مقصّران كل التقصير.» «كان طريقاً طويلاً»، قال أحدهما. «كان طريقاً طويلاً»، كرر ك.، «لكنني قابلتكما وأنتما قادمان من القلعة.» «نعم»، قالا دون إيضاح آخر. «أين الأجهزة؟» سأل ك. «ليس لدينا أجهزة»، قالا. «الأجهزة التي عهدت بها إليكما»، قال ك. «ليس لدينا أجهزة»، كررا. «آه، إنكما لشخصان!» قال ك.، «هل تفهمان شيئاً من مسح الأراضي؟» «كلا»، قالا. «لكن إذا كنتما مساعديّ القديمين، فلا بدّ أنكما تفهمان هذا»، قال ك. لاذ الاثنان بالصمت. «تعالا إذاً»، قال ك. ودفعهما أمامه إلى النزل.

٢

بَرْناباس

من ثم جلسوا ثلاثتهم صامتين إلى حد ما إلى طاولة صغيرة في صالون النزل يحتسون بيرتهم، ك. في الوسط والمساعدان على يمينه ويساره. ما عدا ذلك لم تكن سوى طاولة واحدة مشغولة يجلس إليها فلاحون، مثلما كان الحال في المساء الفائت. «إن الأمر صعب معكما»، قال ك. وهو يقارن وجهيهما كما فعل مراراً، «كيف يمكنني أن أميّز بينكما. إنكما لا تختلفان إلا بالاسم، ما عدا ذلك إنكما متماثلان مثل» ـ تلعثم، من ثم واصل كلامه على نحو لا إرادي ـ «إنكما لمتماثلان مثل الأفاعي.» ابتسما. «يميّزنا المرء في غير ظرف على نحو جيد»، قالا على سبيل التبرير. «أظن ذلك»، قال ك.، «كنت بنفسي شاهداً على ذلك، غير أنني لا أرى إلا بعينيّ وبهما لا أستطيع التمييز بينكما. لذا سوف أعاملكما كرجل واحد وحيد وأدعو كلاً منكما آرتور، هكذا يدعى واحد منكما، أنت مثلاً؟» سأل ك. أحدهما. «كلا»، قال هذا، «أنا أدعى يِرمياس.» «حسناً، إن الأمر سيّان»، قال ك.، «سوف أسمّي كلاً منكما آرتور. إذا أرسلت آرتور إلى مكان ما فتذهبان كلاكما، إذا أعطيت آرتور عملاً، فتقومان به كلاكما، صحيح أن هذا يعود عليّ بضرر كبير هو أنني لا أستطيع استخدامكما في عمل منفصل، لكن هذا يعود عليّ مقابل ذلك بمنفعة كبيرة هي أنكما تتحملان المسؤولية معاً ودون تقسيم لكل ما أكلفكما به. وسيّان عندي كيف تقسمانِ العمل بينكما، فقط لا يجوز أن يحتجّ أحدكما بالآخر، أنتما في نظري رجل واحد.» فكرا بذلك وقالا: «من شأن هذا أن يكون أمراً غير مريح لنا.» «كيف لا إذاً»، قال ك.، «طبعاً يجب أن يكون هذا غير مريح لكما، لكن الأمر يبقى هكذا.» طوال مدة وجيزة كان ك. قد رأى واحداً من الفلاحين وهو يسترق الخطو حول الطاولة، أخيراً عقد العزم وتوجه نحو أحد المساعدين راغباً في أن يهمس له شيئاً ما. «المعذرة»، قال ك. وهو يضرب بيده على الطاولة وينهض، «هذان مساعداي ولدينا الآن اجتماع. وما من أحد يملك الحق بأن يزعجنا.» «أوه رجاء، أوه رجاء»، قال الفلاح خائفاً وعاد القهقرى إلى

جماعته. «يتعيّن عليكما مراعاة هذا قبل كل شيء»، قال ك. من ثم تابع وهو جالس، «لا يجوز لكما التحدث مع أحد دون موافقتي. أنا هنا غريب، وإذا كنتما مساعديّ القديمين، فتكونان غريبين أيضاً. لذا فإنه يتعيّن علينا نحن ثلاثتنا أن نتماسك، هيا نتعاهد على ذلك.» بكل طيب خاطر مدّا يديهما. «اتركا مخالبكما»، قال، «لكن أمري قائم. سأذهب الآن إلى النوم، وأنصحكما أن تفعلا ذلك أيضاً. اليوم ضاع منا يوم عمل، غداً يجب أن يبدأ العمل باكراً جداً. عليكما تأمين زحافة من أجل السفر إلى القلعة وأن تكونا واقفين جاهزين معها في الساعة السادسة صباحاً هنا أمام النزل.» «حسناً»، قال أحدهما. لكن الثاني قاطعه قائلاً: «تقول: حسناً مع أنك تعلم أن هذا غير ممكن.» «هدوء»، قال ك.، «لا بدّ أنكما تريدان أن تبدأا بالتمايز.» لكن الآن قال الأول أيضاً: «الحق معه، إن الأمر مستحيل، دون ترخيص لا يجوز لغريب أن يدخل القلعة.» «أين يتعيّن على المرء أن يطلب الترخيص؟» «لا أدري، ربما لدى أمين القلعة.» «سوف نطلب إذاً هاتفياً هناك، اتصلا فوراً بأمين القلعة، كلاكما.» جريا إلى الهاتف، حصلا على الاتصال ـ كيف تزاحما هناك، في الظاهر كانا مطيعين على نحو مضحك ـ وسألا إذا ما كان يُسمح لـ ك. أن يحضر معهما غداً إلى القلعة. وسمع ك. وهو إلى طاولته كلمة «لا» الجواب، لكن الجواب كان أكثر تفصيلاً، كان: «لا غداً ولا في مرة أخرى.» «سأخابر بنفسي»، قال ك. وهو ينهض. في حين أن الآخرين لم يكونوا حتى الآن، باستثناء حادثة الفلاح، قد اكترثوا كثيراً بـ ك. ومساعديه، فقد أثارت ملاحظة ك. الأخيرة اهتمام الجميع. نهضوا معه وتجمعوا حوله لدى جهاز الهاتف في نصف دائرة ضيقة، مع أن صاحب النزل حاول أن يردّهم. وقد رجح الرأي بينهم بأن ك. لن يحصل على جواب قط. وكان على ك. أن يرجوهم التزام الهدوء، فهو لم يطلب أن يسمع آراءهم.

من سماعة الهاتف كانت تنبعث دندنة لم يكن ك. قد سمع مثلها قط لدى التخابر. كان الحال كأن من دندنة أصوات أطفال لا يحصون ـ لكن هذه الدندنة لم تكن دندنة، بل كانت غناء أصوات بعيدة كل البعد ـ كأن من هذه الدندنة يتشكل، بطريقة غير معقولة، صوت واحد وحيد مرتفع لكنه قوي، صوت يصفع الأذن وكأنه يطلب التغلغل إلى عمق أعمق من مجرد الوصول إلى السمع المسكين. وراح ك. يصغي دون أن يخابر، وكان قد اعتمد بذراعه الأيسر على منصة الهاتف وراح يصغي هكذا.

لم يعلم كم طال إصغاؤه، لقد طال حتى شدّه صاحب النزل من سترته وأعلمه أن رسولاً قد حضر إليه. «ابعد»، صرخ ك. دون أن يتمالك نفسه، صرخ ربما إلى داخل الهاتف، إذ إن أحدهم كان الآن قد أجاب. هنا تطورت المحادثة التالية: «هنا أوسفلد، من هناك؟» نادى صوت صارم مترفّع ذو عيب صغير في النطق، كما بدا لـ ك.، حاول أن يعوّضه خارج نفسه

بإضافة أخرى من الصرامة. وتردد ك. في تقديم نفسه، إزاء الهاتف كان أعزل، وكان في مقدور الآخر أن يزمجر، أن يضع السماعة جانباً ويكون ك. قد أوصد طريقاً ربما يكون ليس غير ذا أهمية. وسبّب تردد ك. نفاد صبر الرجل. «من هناك؟» كرر وأردف قائلاً: «سيكون الأحب إليّ إذا لم تكثر المخابرات الهاتفية من هناك، فقط قبل لحظة جرت مخابرة.» لم يهتم ك. بهذه الملاحظة وأعلم بقرار مباغت: «هنا مساعد السيد مسّاح الأراضي.» «أي مساعد، أي سيد؟ أي مسّاح أراض؟» وخطر ببال ك. المكالمة الهاتفية في اليوم الفائت، «اسأل فريتز»، قال باقتضاب. ولدهشته كان ثمة جدوى. لكن أكثر من دهشته من نفع كلمته، دهش من وحدة الخدمة هناك. كان الجواب: «أدري. مسّاح الأراضي الأبدي. نعم، نعم. ثم ماذا؟ أي مساعد؟» «يوزف»، قال ك. بعض الشيء أزعجه وراء ظهره غمغمة الفلاحين، كانوا على ما يبدو غير موافقين على أنه لم يقدم نفسه بشكل صحيح. لكن ك. لم يكن لديه وقت ليشغل نفسه بهم، إذ إن المحادثة شغلته كلياً. «يوزف؟» عاد الصوت يسأل. «المساعدان يدعيان» ـ فترة توقف قصيرة، على ما يبدو طلب الاسمين من أحد ما ـ «آرتور ويرمياس.» «هذان هما المساعدان الجديدان»، قال ك. «لا، هذان هما القديمان.» «إنهما الجديدان، لكنني أنا القديم، الذي لحق اليوم بالسيد مسّاح الأراضي.» «كلا»، صرخ الصوت. «من أنا إذاً؟» سأل ك. بهدوء كما كان قد فعل حتى الآن. وبعد فترة توقف قصيرة قال الصوت نفسه بعيب النطق نفسه ومع ذلك كان كأنه صوت آخر أكثر عمقاً وأكثر جدارة بالاحترام: «أنت المساعد القديم.»

راح ك. ينصت إلى نبرة الصوت وهو يكاد يغفل عن السؤال: «ماذا تريد؟» وكان الأحب إليه أن يضع السماعة بعيداً. من هذه المحادثة لم يعد ينتظر شيئاً. على كره وحسب سأل على عجل: «متى يجوز لسيدي أن يحضر إلى القلعة؟» «ليس في أي يوم من الأيام، أبداً»، كان الجواب. «حسناً»، قال ك. وعلّق السماعة.

وراءه كان الفلاحون قد اقتربوا منه اقتراباً شديداً. وكان المساعدان بنظرات جانبية كثيرة إليه مشغولين بالحيلولة بين الفلاحين وبينه. غير أن الأمر بدا مجرد كوميديا، كما أن الفلاحين، الذين كانوا راضين عن نتيجة المحادثة، تراجعوا ببطء. هنا شُقّت مجموعتهم من الخلف بخطوة سريعة من قبل رجل انحنى أمام ك. وسلمه رسالة. احتفظ ك. بالرسالة في يده ونظر إلى الرجل، الذي بدا له في هذه اللحظة أكثر أهمية. كان ثمة تشابه كبير بينه وبين المساعدين، كان رشيقاً مثلهما، كما أن ملابسه ضيقة بالمثل، مرناً وخفيف الحركة مثلهما، مع ذلك كان مغايراً كل المغايرة. كان الأحب لـ ك. أن يكون هذا الرجل مساعداً له! لقد ذكّره بعض الشيء بالمرأة التي تحمل الرضيع، التي كان قد رآها لدى معلم الدباغة. كان يرتدي ملابس بيضاء تقريباً، لم يكن الرداء من حرير، كان رداء شتوياً مثل كل الأردية الأخرى، غير أنه كان يملك نعومة وبهاء رداء من حرير. كان وجهه مشرقاً ومنفتحاً، وكانت عيناه واسعتين على نحو

مفرط. كانت ابتسامته مستبشرة على نحو بالغ؛ مسح بيده على وجهه، وكأنه يبغي أن يبدد هذه الابتسامة، غير أنه لم يفلح في ذلك. «من أنت؟» سأل ك.، «بَرْناباس هو اسمي»، قال، «أنا ساع.» برجولة ومع ذلك بنعومة كانت شفتاه تنفتحان وتنغلقان لدى الكلام. «هل يعجبك الحال هنا؟» سأل ك. وأشار إلى الفلاحين، الذين ما زال لم يفقد اهتمامه بهم، الذين كانوا بوجوههم المعذبة بكل معنى الكلمة ـ كانت الجمجمة تبدو وكأنها مسطحة بضربة وكانت قسمات الوجه كأنها تشكلت في آلام الضرب ـ بشفاههم الغليظة وأفواههم المفتوحة ينظرون لكن مع ذلك لا ينظرون أيضاً، إذ كانت نظرتهم تتوه أحياناً وتعلق طويلاً بأي غرض لا أهمية له قبل أن تعود، من ثم أشار ك. إلى المساعدين أيضاً اللذين كان كل منهما يضمّ الآخر ويسندان خداً إلى خد وهما يبتسمان، ولم يكن المرء يدري إذا ما كان ذلك تواضعاً أم تهكماً، قدّم هؤلاء جميعاً وكأنه يقدم أتباعاً فُرضوا عليه في ظروف خاصة وهو ينتظر من برناباس ـ هنا كان ثمة رفع كلفة وهذا مهم لـ ك. ـ أن يميّز بينه وبينهم بحكمة. لكن برناباس ـ بكل براءة طبعاً، كان هذا واضحاً ـ لم يتلقَّ السؤال أبداً، تحمّله مثلما يتحمل خادم مؤدب كلمة من كلمات السيد موجهة إليه ظاهرياً وحسب، وجال بناظريه بمعنى السؤال، وحيّا بإشارة من يده معارف من بين الفلاحين وتبادل بضع كلمات مع المساعدين، كل هذا بحرية واستقلالية دون أن يختلط بهم. عاد ك. ـ وقد صُدّ لكن دون أن يشعر بخجل ـ إلى الرسالة في يده وفتحها. كان نصها: «السيد المحترم! كما تعلم تمّ قبولك في خدمة السادة. رئيسك المباشر هو عمدة القرية، الذي سيعلمك كل التفاصيل عن عملك وشروط الأجر والذي ستكون مسؤولاً أمامه. لكن مع ذلك لن أصرف نظري عنك ولن أقطع الصلة بك. برناباس، ناقل هذه الرسالة، سوف يسألك بين الحين والآخر ليعلم رغباتك ويبلغني إياها. سوف تجدني دائماً على استعداد، قدر الإمكان، لتقديم ما يرضيك. يهمني أن يكون لديّ عمال راضون.» كان التوقيع غير مقروء، لكن بجواره كان مطبوعاً: رئاسة المكتب العاشر. «انتظر!» قال ك. لبرناباس الذي انحنى أمامه، ثم نادى صاحب النزل كي يريه غرفته، إذ أراد أن يكون وحده مع الرسالة بعض الوقت. هنا تذكر أن برناباس مع كل مودته له لم يكن شيئاً آخر سوى ساع وطلب له كأساً من البيرة. وانتبه كيف سيقبله، لقد قبله بكل سرور على ما يبدو واحتساه على الفور. ثم ذهب ك. مع صاحب النزل. في المبنى الصغير لم يتمكن المرء من إعداد شيء آخر لـ ك. سوى غرفة صغيرة على السطح، وحتى هذا كان قد أثار صعوبات، إذ اضطر المرء إلى إسكان خادمتين في مكان آخر كانتا تنامان فيها. في الحقيقة لم يفعل المرء شيئاً آخر سوى نقل الخادمتين، ما عدا ذلك ظلت الغرفة على حالها، وما من شراشف في السرير الوحيد، فقط بضع وسائد ولبّادة في حالة كما كان كل شيء قد بقي حيث هو بعد الليلة الأخيرة، على الحائط بضعة صور قديسين وصور فوتوغرافية لجنود، ولم يكن قد جرى حتى تهوية الغرفة، يبدو أن المرء كان يأمل أن الضيف الجديد لن يمكث طويلاً ولم يفعل شيئاً كي يبقيه. غير أن

ك. كان راضياً بكل شيء، لفّ نفسه باللبّادة، جلس إلى الطاولة وبدأ على ضوء شمعة يقرأ الرسالة مرة أخرى.

لم تكن منتظمة، كانت تحوي مواضع يجري الحديث فيها معه مثلما يجري مع رجل حر، يعترف المرء بإرادته الخاصة به، هكذا كانت المخاطبة، هكذا كان الموضع الذي يخص رغباته. لكن كان هناك أيضاً مواضع يُعامل فيها على نحو مكشوف أو مستتر بصفته عاملاً صغيراً يكاد لا يلاحظ انطلاقاً من مقر تلك الرئاسة، كان لا بدّ للرئاسة أن تبذل جهداً حتى «لا تصرف نظرها عنه»، رئيسه كان مجرد عمدة القرية، والذي حتى سيكون مسؤولاً أمامه، زميله الوحيد كان ربما شرطي القرية. كانت تلك تناقضات لا ريب فيها، كانت بيّنة إلى درجة أنها كانت ولا بدّ مقصودة. الفكرة الجنونية إزاء مثل هذه السلطة بأن تردداً هنا شارك في التأثير لم يكد يخطر على بال ك.، بل إنه بالأحرى رأى في ذلك خياراً معروضاً عليه بصراحة، كان الأمر متروكاً له ما يريد أن يعمل من تعليمات الرسالة، إذا ما كان يريد أن يكون عامل قرية بعلاقة مميزة على كل حال لكنها صورية وحسب مع القلعة أم أنه يريد أن يكون عامل قرية صورياً يترك في الواقع كامل علاقة عمله تحددها أخبار برناباس. ولم يتردد ك. في الاختيار، ولم يكن خليقاً أن يتردد حتى بدون التجارب التي كان قد مرّ بها. عامل قرية فقط، بعيد قدر الإمكان عن السادة في القلعة، كان في وسعه أن يبلغ شيئاً في القلعة، هؤلاء الناس في القرية، الذين كانوا سيئي الظن إزاءه، سيكون من شأنهم أن يبدؤوا يتحدثون، فهو وإن لم يكن أصبح صديقاً لهم، فقد أصبح واحداً من مواطنيهم، وإذا أصبح ذات يوم لا يُميَّز عن غرشتكر مثلاً أو لازيمان ـ ولا بدّ لهذا من أن يحدث بسرعة فائقة، كل شيء يتعلق بهذا الأمر ـ فإنه من المؤكد أن كل الطرق تفتح له دفعة واحدة، هذه الطرق التي كانت جديرة، لو كان الأمر لا يتعلق إلا بالسادة في الأعلى وبرحمتهم، أن لا تظل مغلقة أمامه دائماً وحسب، بل كانت تظل غير مرئية. طبعاً كان ثمة خطر قائم، وكان قد تمّ إبرازه في الرسالة على نحو كاف، وكان قد عُرض بنوع من السرور، وكأنه لا مهرب منه. كان هذا الخطر هو كون المرء عاملاً. خدمة، رئيس، عمل، شروط الأجر، مسؤولية، عامل، بهذه الأمور كانت الرسالة مليئة وحتى لو كان قد قيل شيء آخر، شيء شخصي، كان قد قيل من وجهة النظر تلك. إذا كان ك. يريد أن يصبح عاملاً، فبمقدوره أن يصبح ذلك، لكن من ثم بكل جدية مخيفة وبدون النظر إلى أي مكان آخر. كان ك. يدري أنه لم يجر تهديد بإرغام حقيقي، هذا لم يكن يخشاه وهنا هو أقل مكان يخشاه فيه، لكن قوة البيئة المثبِّطة، الاعتياد على خيبات الأمل، قوة التأثيرات غير الملحوظة لكل لحظة من اللحظات، هذا كله كان يخشاه، لكن مع هذا الخطر كان لا بدّ له من أن يخاطر بالكفاح. فالرسالة لم تخفِ أيضاً بأنه إذا ما وصل الأمر إلى كفاح، فإن ك. كان قد ملك الجرأة على أن يبدأ بذلك، كان هذا قد قيل بنعومة وفقط ضمير قلق ـ قلق وليس معذباً ـ يمكنه أن يلاحظ الأمر، كانت الكلمتان «كما تعلم» بخصوص

قبوله في الخدمة. كان ك. قد تقدم للعمل ومذ ذاك بات يعلم، كما عبّرت الرسالة، أنه قد تمّ قبوله.

أزاح ك. صورة من على الجدار وعلّق الرسالة على المسمار، في هذه الغرفة سوف يسكن وهنا يجب أن تعلّق الرسالة.

من ثم نزل إلى الحانة، وكان برناباس يجلس مع المساعدين إلى طاولة صغيرة. «آه، ها أنت هنا»، قال ك. دون مناسبة، فقط لأنه سُرّ برؤية برناباس. قفز هذا على الفور. ما كاد ك. يدخل، حتى نهض الفلاحون ليقتربوا منه، لقد أصبحت عادتهم أن يجروا دائماً وراءه. «ماذا تريدون دائماً مني؟» نادى ك. لم يستاؤوا منه واستداروا على مهل عائدين إلى أماكنهم. أحدهم قال أثناء الذهاب على سبيل الشرح ببساطة وبابتسامة غير قابلة للتفسير لاحظها بعض الآخرين: «نسمع دائماً شيئاً جديداً» ولعق شفتيه وكأن الجديد كان طعاماً. لم يقل ك. شيئاً مسترضياً، كان الأمر حسناً إذا شعروا ببعض الاحترام إزاءه، غير أنه ما كاد يجلس إلى برناباس، حتى أحس نفَس أحد الفلاحين في قفاه، قال إنه جاء ليحضر الملّاحة، لكن ك. ضرب الأرض برجله، فانصرف الفلاح دون أن يأخذ الملّاحة. كان من السهل حقاً مواجهة ك. ما على المرء مثلاً سوى تحريض الفلاحين ضده، مشاركتهم العنيدة بدت له أسوأ من تحفظ الآخرين، وبالإضافة إلى ذلك كان الأمر أيضاً تحفظاً، إذ لو كان ك. قد جلس إلى طاولتهم، لما ظلوا جالسين هناك بالتأكيد. وفقط حضور برناباس منعه من إثارة ضوضاء. لكنه مع ذلك استدار نحوهم مهدداً، وهم أيضاً كانوا قد التفتوا إليه. بيد أنه كيف رآهم يجلسون هكذا، كل في مكانه، دون أن يتحادثوا معاً، دون اتصال منظور فيما بينهم، لا يتصلون معاً إلا من خلال كونهم جميعاً يحدقون به، بدا له أن الأمر ليس خبثاً أبداً ما دعاهم لملاحقته، ربما كانوا يريدون حقاً شيئاً ما منه ولم يقدروا على قوله وحسب، وإذا لم يكن الأمر هكذا، فإنه كان ربما مجرد سذاجة، سذاجة تبدو أنها مستوطنة هنا؛ ألم يكن صاحب النزل أيضاً ساذجاً، الذي كان عليه أن يجلب لضيف ما كأساً من البيرة، أمسكه بكلتا يديه، وقف ساكناً، تطلع نحو ك. وغفل عن نداء قادم من زوجته، التي كانت تنحني من كوة المطبخ الصغيرة.

بهدوء أكثر التفت ك. إلى برناباس، كان بودّه أن يُبعد المساعدَين، غير أنه لم يجد ذريعة، على أية حال كانا يشخصان ببصرهما إلى كأسيهما وهما ساكنان. «الرسالة»، بدأ ك. قائلاً، «قرأتها. هل تعرف المضمون؟» «لا»، قال برناباس. ولاحت نظرته تقول أكثر من كلماته. ربما كان ك. قد أخطأ الظن هنا بالخير، مثلما فعل لدى الفلاحين بالشر، لكن المريح في حاضره ظل قائماً. «عنك أيضاً جاء الحديث في الرسالة، إذ عليك بين الحين والآخر أن تنقل أخباراً بيني وبين الرئيس، لذا ظننت أنك تعرف المضمون.» «كُلّفت»، قال برناباس، «بتسليم الرسالة وحسب، وبأن أنتظر حتى تُقرأ و، إذا بدا لك الأمر ضرورياً، أن أعود بجواب شفهي أو

خطي.» «حسناً»، قال ك.، «لا يحتاج الأمر إلى رسالة، بلّغ السيد الرئيس ـ ما اسمه إذاً؟ لم أتمكن من قراءة التوقيع.» «كلمّ» Klamm، قال برناباس. «أبلغ إذاً السيد كلمّ شكري على القبول كما هو على لطفه الخاص، هذا اللطف الذي أعرف كيف أقدّره، بصفتي شخصاً ما زال لم يثبت هنا جدارته أبداً. سوف أتصرف تماماً طبقاً لمراميه. رغبات خاصة ليس لديّ اليوم.» برناباس، الذي كان قد أصغى كل الإصغاء، رجا أن يسمح له بأن يكرر المهمة أمام ك.، ك. سمح بذلك، فأعاد برناباس كل شيء حرفياً. من ثم نهض ليستأذن بالانصراف.

كان ك. قد فحص وجهه طوال الوقت، والآن فعل ذلك للمرة الأخيرة. كان برناباس بطول ك. تقريباً، مع ذلك بدت نظرته تنخفض إلى ك.، لكن هذا كان يحدث بخشوع تقريباً، كان من المحال أن يُخجل هذا الرجل أحداً. طبعاً، لم يكن سوى ساع، لم يكن يعرف مضمون الرسائل التي كان عليه أن يوزعها، لكن نظرته أيضاً، ابتسامته، مشيته كانت تبدو كرسالة، ومن هذه أيضاً لم يكن يعرف شيئاً. مدّ ك. له يده، الأمر الذي فاجأه على ما يبدو، حيث إنه لم يكن يريد إلا أن ينحني.

فور ذهابه ـ قبل أن يفتح الباب كان قد استند قليلاً إليه بكتفه وشمل القاعة بنظرة لم تعد تخص أي فرد ـ قال ك. للمساعدَين: «سأحضر ملاحظاتي من الغرفة، من ثم نتحدث عن العمل القادم.» أرادا الذهاب معه. «ابقيا!» قال ك. ما زالا يريدان الذهاب معه. بصرامة أكثر وجب على ك. أن يكرر الأمر. في الممر لم يكن بعد. لكنه كان قد انصرف لتوّه. لكن أمام النزل أيضاً ـ كان ثلج جديد قد هطل ـ لم يره ك. نادى: برناباس! ما من جواب. أما زال في النزل؟ بدا أنه لا يوجد إمكانية أخرى. مع ذلك صاح ك. بالاسم بكل قوة، دوى الاسم عبر الليل. ومن بعيد أتى جواب خافت، كان برناباس قد ابتعد هكذا إذاً. ك. ناداه وهو يمشي في الوقت نفسه للقائه؛ من النزل لم يعد بالإمكان رؤية أين التقيا.

«برناباس»، قال ك. وهو لا يستطيع التغلب على رعشة صوته، «أردت أن أقول لك شيئاً آخر. هنا ألاحظ أنه تدبير سيئ أنني لا أعتمد إلا على مجيئك عن طريق المصادفة، إذا احتجت شيئاً من القلعة. لو لم أكن الآن أدركتك بالمصادفة ـ كيف تطير، ظننت أنك ما زلت في النزل ـ من يدري كم كان يتعيّن عليّ أن أنتظر حضورك المرة القادمة.» «إنه ليمكنك»، قال برناباس، «أن ترجو الرئيس أن أحضر دائماً في أوقات محددة من قبلك.» «حتى هذا لن يكون من شأنه أن يكفي»، قال ك.، «ربما أريد طوال عام أن لا يقال لي شيء، لكن بالذات بعد ربع ساعة من ذهابك ثمة شيء لا يمكن تأجيله.» «هل عليّ إذاً»، قال برناباس، «أن أقول للرئيس إنه يجب إقامة اتصال آخر بينه وبينك غير الاتصال عبري؟» «لا، لا»، قال ك.، «أبداً، أبداً، إنني لا أذكر هذا الموضوع إلا على نحو عابر، في هذه المرة لحقت بك بسلام.» «هل نريد»، قال برناباس، «أن نعود إلى النزل كي تستطيع هناك أن تعطيني المهمة الجديدة؟» وكان قد

خطا خطوة باتجاه النزل. «برناباس»، قال ك.، «ليس ضرورياً، سأمشي معك مسافة من الطريق.» «لماذا لا تريد الذهاب إلى النزل؟» سأل برناباس. «الناس يزعجونني هناك»، قال ك.، «لقد لاحظت بنفسك إلحاح الفلاحين.» «يمكننا أن نذهب إلى غرفتك»، قال برناباس. «إنها غرفة الخادمتين»، قال ك.، «متسخة ورطبة؛ لكي لا أضطر إلى البقاء هناك، أردت أن أمشي معك قليلاً، عليك وحسب»، أضاف ك. لكي يتغلب نهائياً على تردده، «أن تدعني أتأبط ذراعك، إذ إنك تمشي بثبات أكثر.» وتأبط ك. ذراعه. كان الظلام حالكاً، ولم يكن ك. يرى وجهه أبداً، وكان يرى هيئته غير واضحة، وكان قبل هنيهة قد حاول أن يتحسس الذراع.

نزل برناباس عند إرادته، وابتعدا عن النزل. طبعاً شعر ك. أنه غير قادر رغم أقصى جهد على مسايرة برناباس في خطوته، وأنه يعرقل حركته الحرة وأنه في ظروف عادية لا بدّ لكل شيء أن يفشل نتيجة هذا الأمر الثانوي، حتى في تلك الأزقة الجانبية مثل ذلك الزقاق الذي غاص ك. في ثلجه صباح اليوم ولم يمكنه الخروج منه إلا محمولاً من قبل برناباس. غير أنه أبعد عن نفسه الآن مثل هذه الهموم، كما خفف عنه أن برناباس قد لاذ بالصمت؛ عندما يسيران صامتين، فإن مواصلة السير وحدها يمكنها نفسها أن تشكّل لبرناباس أيضاً هدفاً كونهما معاً.

سارا، بيد أن ك. لم يكن يعرف إلى أين، ولم يتمكن من أن يتبيّن أي شيء، ولم يعرف حتى إذا كانا قد مرّا على الكنيسة. نتيجة الجهد الذي كان مجرد السير يسببه له، حدث أنه لم يعد يتمكن من السيطرة على أفكاره. فقد تبلبلت بدلاً من أن تظل موجهة إلى الهدف. كان الوطن لا يفتأ يخطر بباله وتملؤه ذكرياته. هناك أيضاً كان ثمة كنيسة في الميدان الرئيسي، وجزئياً كانت محاطة بمقبرة قديمة وهذه محاطة بسور عال. وفقط عدد قليل من الفتيان كانوا قد تسلقوا هذا السور، وكذلك ك. لم يكن قد نجح في ذلك. لم يكن الفضول هو الذي يدفعهم إلى ذلك، فالمقبرة لم تعد تملك أسراراً عليهم، فعبر بابها الحديدي الصغير كانوا قد دخلوا إليها كثيراً، فقط أرادوا أن يقهروا السور العالي الأملس. ذات صباح ـ الميدان الهادئ الخالي كان طافحاً بالضوء، متى كان ك. في أية مرة سابقاً أو لاحقاً قد رآه هكذا؟ ـ تمّ له الأمر بسهولة على نحو مفاجئ؛ في موضع كان قد ارتدّ منه مرات ومرات تسلق السور، وعلم صغير بين أسنانه، منذ المحاولة الأولى. كان الدبش ما زال يتساقط تحته حين وصل إلى الأعلى. دكّ العلم، الريح شدّت القماش، نظر إلى الأسفل وإلى الجمع المصطف في دائرة، كذلك من فوق الكتف إلى الصلبان المغروسة في الأرض، ما من أحد كان الآن وهنا أكبر منه. بالمصادفة مرّ المعلم،أنزل ك. بنظرة غاضبة، وعند القفز جرح ك. ركبته، ولم يصل إلى البيت إلا بجهد، لكنه كان فوق السور، الشعور بهذا النصر بدا له آنذاك يعطيه سنداً طوال حياة، الأمر الذي لم يكن سخيفاً كلياً، إذ الآن بعد سنوات عديدة في ليلة الثلج على ذراع برناباس جاء ذلك يمدّه بالعون.

تأبط بثبات أكثر، كاد برناباس يجرّه، الصمت لم ينقطع، عن الطريق لم يعرف ك. سوى أنهما استنتاجاً من حالة الشارع لم يكونا قد انحرفا بعد إلى شارع جانبي. تعهد لنفسه بأن لا يدع صعوبة من صعوبات الطريق أو حتى الخوف من طريق العودة أن توقفه عن مواصلة السير؛ وطاقته سوف تكفي لكي يمكن الاستمرار في جرّه آخر الأمر. وهل يمكن للطريق إذاً أن يكون لانهائياً؟ نهاراً كانت القلعة تقع أمامه مثل هدف سهل ولا ريب أن الساعي كان يعرف الطريق الأقصر.

هنا توقف برناباس. أين كانا؟ ألم يعد بالإمكان متابعة الطريق؟ هل من شأن برناباس أن يودّع ك.؟ لن يكون من شأنه أن ينجح في ذلك. كان ك. متشبثاً بذراع برناباس إلى درجة أن الأمر كاد يؤلمه نفسه. أم هل يكون الأمر الذي لا يصدق قد حدث ويكونان قد وصلا ودخلا إلى القلعة أو يكونان أمام أبوابها؟ غير أنهما لم يصعدا بقدر ما كان ك. يعرف. أم أن برناباس كان قد قاده على طريق متصاعد تدريجياً على نحو غير ملحوظ؟ «أين نحن؟» سأل ك. بصوت خافت نفسه أكثر من الآخر. «في البيت»، قال برناباس بصوت خافت أيضاً. «في البيت؟» «لكن انتبه الآن، أيها السيد، بأن لا تنزلق. الطريق ينحدر.» ينحدر؟ «إنها بضع خطوات وحسب»، أضاف وعلى التوّ قرع باباً.

فتحت فتاة، كانا يقفان على عتبة حجرة كبيرة يسودها الظلام تقريباً، حيث لم يكن سوى مصباح زيت صغير جداً معلقاً فوق طاولة على اليسار في الخلفية. «من يأتي معك، برناباس؟» سألت الفتاة. «مسّاح الأراضي»، قال. «مسّاح الأراضي»، كررت الفتاة بصوت أعلى نحو الطاولة. بناء على ذلك نهض هناك شخصان متقدمان في السن، رجل وامرأة، ثم فتاة أخرى. ألقوا التحية على ك. وبرناباس قدمه لهم جميعاً، كانوا والديه وأختيه أولغا وأماليا. بصعوبة نظر ك. إليهم، أخذوا منه المعطف المبلل لتجفيفه عند المدفأة، ك. ترك الأمر يحدث.

لم يكن إذاً في البيت، برناباس وحده كان في البيت. لكن لماذا كانا هنا؟ أخذ ك. برناباس جانباً وقال: «لماذا ذهبت إلى البيت؟ أم أنكم تسكنون في مجال القلعة؟» «في مجال القلعة؟» كرر برناباس، وكأنه لا يفهم ك. «برناباس»، قال ك.، «كنت تريد أن تذهب من النزل إلى القلعة.» «لا، أيها السيد»، قال برناباس، «كنت أريد أن أذهب إلى البيت، لا أذهب إلى القلعة إلا في الصباح الباكر، إنني لا أنام هناك أبداً.» «هكذا»، قال ك.، «لم تكن تريد الذهاب إلى القلعة، فقط إلى هنا» ـ بدت له ابتسامته أكثر وهناً وبدا نفسه أكثر بساطة ـ «لماذا لم تقل لي هذا؟» «لم تسألني، أيها السيد»، قال برناباس، «لم تكن تريد سوى أن تكلفني بمهمة، لكن لم تشأ أن تفعل ذلك لا في النزل ولا في غرفتك، ففكرتُ أنه يمكنك أن تكلفني بالمهمة دون إزعاج هنا عند والديّ ـ سوف يبتعدون جميعاً إذا أمرتَ بذلك ـ في مقدورك أيضاً، إذا كان الوضع لدينا يعجبك أكثر، أن تبيت لدينا. ألم أفعل ما هو صحيح؟» لم يتمكن ك. أن يجيب.

كان الأمر إذاً سوء فهم وك. كان قد استسلم له كلياً. كان قد ترك سترة برناباس الضيقة اللامعة مثل حرير تخلب لبه، هذه السترة التي فك صاحبها أزرارها الآن والتي بدا تحتها قميص خشن متسخ رمادي مرقّع كثيراً فوق الصدر القوي حادّ الحواف، صدرخادم. وكان كل شيء حوله لا يتفق وهذا فحسب، بل يزيد عليه، الأب العجوز المصاب بالتهاب مفصلي، الذي كان يتقدم بمعونة اليدين المتلمستين أكثر مما يتقدم بمعونة الساقين المتصلبتين الزاحفتين ببطء، الأم باليدين المشبكتين فوق الصدر، والتي لم تكن تقدر، بسبب جسامتها، أن تقوم إلا بأقصر الخطوات، كلاهما، الأب والأم، كانا قد خرجا من ركنهما منذ أن دخل ك. وتوجها إليه وكانا ما زالا لم يصلا إليه بعد. الأختان، شقراوان، تشبه كل منهما الأخرى وتشبهان برناباس، لكن بقسمات أكثر صرامة من قسماته، خادمتان فارعتان قويتان، أحاطتا بالقادمين وانتظرتا أية كلمة تحية من ك.، لكنه لم يستطع أن يقول شيئاً، كان يظن أن كل فرد هنا في القرية ذو أهمية له، وكان الحال هكذا أيضاً، لكن بالذات هؤلاء الناس هنا كانوا لا يهمّونه على الإطلاق. لو كان قادراً على أن يقطع الطريق إلى النزل وحده، لكان خليقاً أن ينصرف في الحال. وإمكانية الذهاب باكراً مع برناباس إلى القلعة لم تكن مغرية له قط. الآن في الليل، دون أن يؤبه به، كان يريد أن يتسلل إلى القلعة يقوده برناباس، لكن برناباس كما كان قد بدا له حتى الآن، والذي كان أقرب إليه من جميع من كان قد رآهم هنا حتى الآن، والذي كان في الوقت نفسه يعتقد عنه أنه متجاوز كثيراً رتبته الظاهرة يرتبط بالقلعة ارتباطاً وثيقاً. لكن مع ابن هذه الأسرة التي ينتمي إليها كلياً والتي كان يجلس معها إلى الطاولة، مع رجل لا يجوز له، مما له دلالة، حتى أن ينام في القلعة، متعلقاً بذراعه في وضح النهار كان الذهاب إلى القلعة أمراً غير ممكن، كان محاولة يائسة على نحو مضحك.

جلس ك. على حافة نافذة وقد عقد العزم على تمضية الليلة هناك وعلى أن لا يتلقى ما عدا ذلك أية خدمة من الأسرة. إن الناس من القرية الذين صرفوه أو الذين كانوا قد خافوا منه، لاحوا له أقل خطراً، إذ إنهم أحالوه في واقع الأمر إلى نفسه وحسب، وساعدوه على تجميع قواه، لكن مثل هؤلاء المساعدين الصوريين الذين بدلاً من قيادته إلى القلعة، اقتادوه إلى أسرتهم في حركة تنكرية صغيرة، كانوا يلهونه أرادوا ذلك أم لا، ويعملون على تحطيم قواه. ولم يكترث قط بنداء دعوة قادم من طاولة الأسرة، بل ظل جالساً على حافته مطأطئ الرأس.

هنا نهضت أولغا، الأكثر وداعة من الأختين، وقد بدت عليها أيضاً أمارة من أمارات ارتباك فتيات، جاءت إلى ك. ورجته أن يأتي إلى الطاولة، حيث ثمة خبز وشحم، وسوف تحضر بيرة. «من أين؟» سأل ك. «من الحانة»، قالت. كان هذا مرحّباً به من قبل ك. كل الترحيب، رجاها أن لاتحضر بيرة لكن أن ترافقه إلى النزل، حيث ما زال لديه هناك أعمال هامة. لكن تبيّن الآن أنها لا تريد أن تذهب بعيداً هكذا، ليس إلى نزله، بل إلى آخر أكثر قرباً بكثير، حانة

السادة. مع ذلك رجاها ك. أن تسمح له بمرافقتها، ربما، هكذا فكر، يمكن العثور هناك على إمكانية للمبيت، مهما كانت أيضاً، كان خليقاً أن يفضّلها على أفضل فراش هنا في البيت. لم تجب أولغا على الفور، تطلعت نحو الطاولة. هناك كان الأخ قد نهض، أومأ مرحّباً وقال: «إذا كانت تلك هي رغبة السيد ـ .» كادت هذه الموافقة تدفع ك. إلى سحب طلبه، لم يكن ذاك يوافق إلا على ما لا قيمة له. لكن حين نوقش من ثم موضوع إذا ما كان المرء سيسمح بدخول ك. إلى النزل، وشكّ جميعهم بذلك، أصرّ مع هذا بإلحاح على الذهاب، لكن دون أن يبذل جهداً لاختلاق سبب مفهوم لرجائه؛ كان على هذه الأسرة أن تقبله كما كان، لم يكن لديه نوعاً ما شعور بالحياء أمامها. في هذا حيّرته أماليا وحدها بعض الشيء بنظرتها الجادة المستقيمة غير القابلة للحركة وربما أيضاً التي لا تقول شيئاً.

في الطريق القصير إلى النزل ـ كان ك. قد تعلق بذراع أولغا ولم يكن يستطيع أن يساعد نفسه بطريقة أخرى فكانت تسحبه تقريباً كما كان أخوها يفعل سابقاً ـ علم أن هذا النزل مخصص في الحقيقة فقط للسادة من القلعة، الذين، عندما يكون لديهم عمل ما في القرية، يتناولون فيه طعامهم أو حتى أحياناً يبيتون. تحدثت أولغا مع ك. بصوت منخفض وكأنها تتحدث بودّ، كان الذهاب معها أمراً مريحاً، تقريباً مثلما هو الحال مع الأخ، كان ك. يصدّ شعور الارتياح هذا، لكنه كان قائماً.

كان النزل من الخارج يشبه أشد الشبه النزل الذي كان ك. يقيم فيه، لم يكن يوجد في القرية فروق كبيرة ظاهرية إطلاقاً، لكن كان يمكن على الفور ملاحظة وجود فروق صغيرة، الدرج الأمامي كان له درابزين، كان ثمة مصباح جميل مثبّت فوق الباب، عندما دخلا رفرفت قطعة قماش فوق رأسيهما، كانت علماً بألوان غرافية. في الممر قابلهما حالاً صاحب النزل الذي كان على ما يبدو في جولة تفتيشية؛ بعينين صغيرتين، متفحصاً أو ناعساً، نظر إلى ك. عند المرور به وقال: «يجوز للسيد مسّاح الأراضي أن يذهب إلى المشرب وحسب.» «بالتأكيد»، قالت أولغا، التي اهتمت بـ ك. على الفور، «إنه يرافقني وحسب.» لكن ك.، تخلص من أولغا جاحداً وأخذ صاحب النزل جانباً، وراحت أولغا تنتظر بصبر أثناء ذلك في نهاية الممر. «أودّ أن أبيت هنا»، قال ك. «هذا للأسف غير ممكن»، قال صاحب النزل، «يبدو أنك ما زلت لا تعلم الأمر»، «النزل مخصص للسادة من القلعة وحدهم دون غيرهم.» «يمكن أن تكون هذه تعليمات»، قال ك.، «لكن تركي أنام في مكان ما في زاوية هو أمر ممكن بالتأكيد.» «من شأني أن أقابلك في منتصف الطريق بفائق السرور»، قال صاحب النزل، «لكن أيضاً بغض النظر عن صرامة التعليمات، التي تتحدث عنها على طريقة غريب، لا يمكن تنفيذ الأمر أيضاً لأن السادة حسّاسون إلى أقصى درجة، وأنا على قناعة أنهم غير قادرين على تحمّل منظر شخص غريب، على الأقل إذا كانوا على غير استعداد؛ إذا تركتك إذاً تنام هنا وتمّ

اكتشافك عن طريق المصادفة ـ والصدف هي دائماً إلى جانب السادة ـ فلن أضيع وحدي بل تضيع أنت أيضاً. يبدو الأمر مضحكاً، لكنه حقيقة.» هذا السيد الرفيع المتحفظ تقريباً، الذي كان يثبّت إحدى يديه في الجدار والأخرى في خاصرته، ويصالب ساقيه، وينحني قليلاً إلى ك. ويتحدث إليه بودّ، بدا أنه لا يكاد ينتمي إلى القرية، حتى لو بدت سترته القاتمة احتفالية فقط بطريقة فلاحية. «أصدّقك كلياً»، قال ك.، «وكذلك أهمية التعليمات لا أقلل من شأنها إطلاقاً، وإن كنت قد عبّرت بطريقة غير حاذقة. فقط إلى أمر واحد أريد أن ألفت انتباهك، لديّ في القلعة علاقات قيّمة وسوف أحصل على اتصالات قيّمة أكثر، تحميك من كل خطر قد ينشأ نتيجة مبيتي هنا وتضمن لك أنني قادر على الشكر كاملاً على صنيع صغير.» «أعرف هذا»، قال صاحب النزل وكرر مرة أخرى: «أعرف هذا.» الآن كان في مقدور ك. أن يقدم مطلبه بإلحاح أكثر، لكن جواب صاحب النزل، هذا الجواب بالذات شتت فكره، لذا سأل فقط: «هل يبيت الليلة هنا سادة كثيرون من القلعة؟» «من هذه الناحية الأمر مفيد اليوم»، قال صاحب النزل مغرياً إلى حد ما، «لم يبق هنا سوى سيد واحد». ظل ك. غير قادر على أن يلحّ وبات يأمل أنه كاد أن يُقبل، وهكذا لم يسأل إلا عن اسم السيد. «كلمّ»، قال صاحب النزل عَرَضاً وهو يستدير نحو زوجته، التي كانت قد دخلت متبخترة بملابس عتيقة مهلهلة على نحو غريب مليئة بكشكشات وثنايا لكنها كانت ملابس مدنية أنيقة. كانت تريد إحضار زوجها، فلدى السيد رئيس مجلس الإدارة مطلب ما. لكن قبل أن يذهب صاحب النزل التفت إلى ك. وكأنه لم يعد هو نفسه بل ك. هو الذي يقرر بخصوص المبيت. غير أن ك. لم يستطع أن يقول شيئاً؛ وقد أذهله خاصة أن رئيسه بالذات كان موجوداً هنا؛ ودون أن يستطيع أن يوضح الأمر كلياً لنفسه، أحس أنه غير حر هكذا إزاء كلمّ كما هو إزاء القلعة في ما عدا ذلك، إذا بوغت هنا من قبله، فلن يرعبه ذلك كما يرى صاحب النزل، لكن ذلك سيكون ولا ريب أمراً محرجاً، مثلما لو كان من شأنه أن يسبب على نحو مستهتر ألماً لشخص يدين له بالشكر، لكن أثقل عليه كثيراً لدى ذلك وهو يرى أنه في مثل هذا الحرج تظهر على ما يبدو النتائج التي يُخشى منها للتبعية وكون المرء عاملاً، وأنه ليس حتى هنا حيث تظهر بوضوح كان قادراً على أن يتغلب عليها. هكذا وقف، عضّ على شفتيه ولم يقل شيئاً. قبل أن يتوارى صاحب النزل وراء باب، نظر إلى ك. مرة أخرى، هذا تبعه بنظره ولم يتحرك من موضعه، حتى جاءت أولغا وسحبته بعيداً. «أردت أن أبيت هنا»، قال ك. «سوف تبيت لدينا»، قالت أولغا متعجبة. «نعم، بالتأكيد»، قال ك. وترك لها تفسير الكلمات.

٣

فْريدا

في مشرب الحانة، وهي حجرة كبيرة فارغة في وسطها كلياً، كان يجلس إلى الجدران، إلى براميل وعليها بعض الفلاحين، لكن الذين كان مظهرهم يختلف عن مظهر الناس في نزل ك. كانوا يرتدون ملابس أكثر نظافة ومتشابهة من قماش خشن بلون أصفر رمادي، كانت السترات منتفخة والسراويل ضيقة. كانوا رجالاً قصار القامة متشابهين كل الشبه من النظرة الأولى، بوجوه منبسطة ذات عظام بارزة، ومع ذلك ذات وجنات ممتلئة. كانوا جميعاً ساكنين ولا يكادون يتحركون، فقط بنظراتهم كانوا يتابعون الداخلين، لكن ببطء وبلا اكتراث. مع ذلك مارسوا، لأنهم كانوا كثيرين ولأنه كان ثمة هدوء كبير، نوعاً من التأثير على ك. أمسك ذراع أولغا من جديد لكي يوضح بذلك للناس وجوده هنا. في زاوية نهض رجل، واحد من معارف أولغا، وأراد أن يتجه إليها، لكن ك. أدارها بالذراع المتعلقة إلى اتجاه آخر، ما من أحد غيرها أمكنه أن يلاحظ الأمر، وقد احتملت الأمر بنظرة جانبية باسمة.

البيرة كانت تصبّها فتاة شابة تدعى فْريدا. فتاة شقراء قصيرة القامة بسيطة بملامح حزينة ووجنتين ضامرتين، لكنها كانت تفاجئ من خلال نظرة، نظرة ذات تفوق خاص. عندما وقعت هذه النظرة على ك. لاح له أن هذه النظرة قد أنجزت أموراً متعلقة به ما زال نفسه لا يعرف بوجودها قط، لكن هذه النظرة أقنعته بوجودها. لم يتوقف ك. عن النظر إلى فريدا من الجانب، حتى عندما تحدثت مع أولغا. لم يبدُ أن أولغا وفريدا كانتا صديقتين، لقد تبادلتا بضع كلمات باردة وحسب. أراد ك. أن يقدم عوناً، لذا سأل على نحو مفاجئ: «هل تعرفين السيد كلمّ؟» ضحكت أولغا. «لماذا تضحكين؟» سأل ك. متضايقاً. «إنني لا أضحك»، قالت، لكنها واصلت الضحك. «أولغا ما زالت فتاة صبيانية حقاً»، قال ك. وانحنى بعيداً فوق منصة صبّ الشراب كي يسحب نظرة فريدا مرة أخرى إليه وتثبتها عليه. لكنها أطرقت الطرف وقالت بصوت منخفض: «هل تريد أن ترى السيد كلمّ؟» ك. رجا ذلك. أشارت إلى باب على

يسارها مباشرة. «هنا عين سحرية صغيرة، هنا يمكنك أن تتطلع.» «والناس هنا؟» سأل ك. مطّت شفتها السفلى وسحبت ك. إلى الباب بيد لدنة على نحو بالغ. من خلال الثقب الصغير، الذي كان قد ثُقب لأغراض المراقبة على ما يبدو، شمل بنظرته كامل الغرفة الجانبية تقريباً. إلى طاولة مكتب في وسط الغرفة على كرسي مستدير ذي مسند كان السيد كلمّ جالساً يضيئه مصباح كهربائي يبهر الأعين معلق أمامه. كان رجلاً متوسط القامة بديناً متثاقلاً. كان الوجه ما زال مستوياً، لكن الوجنتين كانتا منخفضتين بعض الشيء مع ثقل الشيخوخة. كان الشارب الأسود قد مُدّ طويلاً. وكانت نظارة قمّاطة عاكسة وضعت على نحو مائل تحجب العينين. لو كان السيد كلمّ يجلس إلى الطاولة تماماً لما كان ك. ليرى سوى مقطع جانبي منه، لكن إذ كان كلمّ مستديراً إليه كلياً، فقد رأى وجهه كاملاً. كان كلمّ قد وضع مرفقه الأيسر على الطاولة، وكانت يده اليمنى، التي يمسك بها سيجار فيرجينيا، تستريح على الركبة. على الطاولة كان ثمة كأس بيرة؛ لأن حافة الطاولة كانت عالية، لم يتمكن ك. من أن يرى بدقة في ما إذا كانت أية مخطوطات توجد هناك، لكن بدا له أن الطاولة فارغة. للتأكد طلب من فريدا أن تنظر عبر الثقب وتعلمه عن ذلك. لكنها إذ كانت في الغرفة قبل قليل، استطاعت أن تؤكد له بسهولة أنه لم يكن هناك مخطوطات. سأل ك. فريدا في ما إذا كان يتعيّن عليه أن ينصرف، لكنها قالت إنه يستطيع أن ينظر من خلال الثقب ما دام يرغب في ذلك. كان ك. الآن مع فريدا وحده، كانت أولغا، كما ثبت له على نحو عابر، قد وجدت طريقها إلى الرجل الذي تعرفه، كانت تجلس فوق برميل وتخبّط بقدميها. «فريدا»، قال ك. هامساً، «هل تعرفين السيد كلمّ معرفة جيدة جداً؟» «آه نعم»، قالت، «جيدة جداً.» استندت إلى جانب ك. ورتّبت على نحو لعوب، كما لاحظ ك. الآن وحسب، بلوزتها الخفيفةَ ذات الفُتحة الواسعة ولون الكريم. ثم قالت: «ألا تتذكر ضحكة أولغا؟» «أجل، الشقية»، قال ك. «والآن»، قالت متلطفة، «كان ثمة سبب يدعو للضحك، سألتَ فيما إذا كنت أعرف كلمّ وأنا» - هنا اعتدلت بعض الشيء في حركة غير إرادية ومرة أخرى مرّت نظرتها التي لا علاقة لها البتة بما جرى الحديث به فوق ك. - «وأنا عشيقته.» «عشيقة كلمّ»، قال ك. فأومأت برأسها. «إذاً أنت»، قال ك. وهو يبتسم، كي لا يدع كثيراً من الجد يظهر بينهما، «بالنسبة لي شخص محترم للغاية.» «ليس بالنسبة لك وحدك»، قالت فريدا بلطف، لكن دون أن ترد على ابتسامته. كان ك. يملك وسيلة ضد غطرستها وقد استخدمها، سأل: «هل كنت ذات مرة في القلعة؟» غير أن الوسيلة لم تنطل، إذ أجابت فريدا: «لا، لكن ألا يكفي أن أكون هنا في المشرب؟» كان طموحها كبيراً على ما يبدو، وبالذات في ك. - هكذا بدا الأمر - أرادت أن تشبعه. «طبعاً»، قال ك.، «هنا في المشرب تقومين بعمل صاحب المحل.» «هكذا هو الحال»، قالت، «وبدأتُ كخادمة إسطبل في نزل الجسر.» «بهذه الأيدي الناعمة»، قال ك. نصف سائل وهو نفسه لا يدري أكان يجامل أم أنها أيضاً قد انتصرت عليه حقاً. لكن يديها كانتا

صغيرتين وناعمتين، بيد أنه كان يمكن أيضاً اعتبارهما ضعيفتين ولا تقولان شيئاً. «آنذاك لم يلتفت أحد إلى ذلك»، قالت، «وحتى الآن» نظر إليها ك. متسائلاً، هزت رأسها ولم تشأ أن تستمر في الكلام. «لديك طبعاً»، قال ك.، «أسرارك ولن تتحدثين عنها مع شخص تعرفينه منذ نصف ساعة، لم تتح له فرصة بعد ليحدثك كيف هي أحواله في حقيقة الأمر.» لكن تبيّن الآن أن هذه الملاحظة كانت غير ملائمة، كان الحال وكأنه قد أيقظ فريدا من غفوة مواتية له، تناولت من حقيبة جلدية كانت قد علقتها بالحزام قطعة خشبية صغيرة وسدّت بها العين السحرية، قالت لـ ك. وهي تتمالك نفسها بصورة ملحوظة لكي لا تدعه يلاحظ شيئاً من تغيير مقصدها: «ما يتعلق بك، فإنني أعرف كل شيء، إنك مسّاح الأراضي»، ثم أضافت: «لكن الآن ينبغي عليّ أن أعمل»، وذهبت إلى مكانها خلف منصة صبّ الشراب، في حين كان أحد الناس ينهض بين الفينة والأخرى لكي يدعها تملأ كأسه الفارغ. أراد ك. أن يتحدث معها مرة أخرى على نحو لا يلفت النظر، لذا تناول من حامل كأساً فارغاً وذهب إليها: «شيء واحد آخر آنسة فريدا»، قال، «إنه أمر استثنائيّ ويحتاج إلى طاقة عظيمة أن يرتقي المرء من خادمة إسطبل إلى فتاة مشرب، لكن أبهذا يكون الهدف النهائي قد تحقق لمثل هذا الإنسان؟ سؤال لا معنى له. من عينيك، لا تضحكي عليّ، آنسة فريدا، لا يتحدث الكفاح الماضي كثيراً جداً هكذا مثلما يتحدث الكفاح المقبل. لكن مقاومات العالم كبيرة، وهي تصبح أكبر مع الأهداف الأكبر، وليس عيباً ضمان معونة حتى رجل صغير لا نفوذ له لكنه هو أيضاً مكافح. ربما يمكننا أن نتحدث معاً ذات مرة بهدوء، دون أن تحدق بنا عيون كثيرة هكذا.» «لا أدري ماذا تريد»، قالت وفي نبرتها لم تظهر هذه المرة ـ على عكس إرادتها ـ انتصارات حياتها، بل الخيبات اللانهائية، «هل تريد ربما سحبي من كلمّ؟ أيتها السماء الطيبة!» وضربت كفاً بكف. «لقد سبرت غوري»، قال ك. وكأنه تعب من مدى سوء الثقة، «بالذات هذا كان مقصدي الأكثر سرية. عليك أن تهجري كلمّ وتصبحي عشيقتي. والآن أستطيع أن أذهب. أولغا!» نادى ك.، «سنذهب إلى البيت.» طائعة انزلقت أولغا من على البرميل، لكنها لم تتخلص في الحال من الأصدقاء المحيطين بها. هنا قالت فريدا بصوت منخفض وهي تنظر إلى ك. نظرة تهديد: «متى أستطيع أن أتحدث معك؟» «هل أستطيع أن أبيت هنا؟» سأل ك. «نعم»، قالت فريدا. «هل أستطيع أن أبقى هنا حالاً؟» «انصرف مع أولغا، حتى أتمكن من إبعاد الناس هنا. بعد هنيهة يمكنك من ثم أن تعود.» «حسناً»، قال ك. وراح ينتظر أولغا بنفاد صبر. لكن الفلاحين لم يتركوها، لقد ابتكروا رقصة كانت أولغا مركز الصدارة فيها، وراحوا يرقصون في حلقة ودائماً عند صرخة مشتركة كان أحدهم يتقدم إلى أولغا، يمسك خصرها بيد على نحو ثابت ويدور بها بضع مرات، وتسارع الرقص دائماً أكثر، وكادت الصيحات، الجائعة المتحشرجة، تصبح تدريجياً صيحة واحدة، أولغا، التي كانت تريد سابقاً أن تخترق الدائرة مبتسمة، راحت الآن بشعر مسترسل تترنح من أحدهم إلى آخر. «مثل هؤلاء الناس يبعثون لي

هنا»، قالت فريدا وهي تعضّ غضباً على شفتيها الرقيقتين. «من هم هؤلاء؟» سأل ك. «خدم كلمّ»، قالت فريدا، «مراراً وتكراراً يجلب معه هذا القوم، الذي يهدّني حضوره. لا أكاد أعرف ما تحدثت به اليوم معك يا سيد مسّاح الأراضي، إذا كان سيئاً، اعذر الأمر، إن وجود هؤلاء الناس هو السبب، إنهم الأكثر جدارة بالازدراء والمقت مما أعرفه، ولهم يجب عليّ أن أملأ البيرة في الكؤوس. كم مرة رجوت كلمّ أن يتركهم في البيت، هل ينبغي عليّ أن أتحمّل خدم سادة آخرين، في مقدوره ولا ريب أن يراعيني، لكن كل الرجاءات بلا طائل، قبل ساعة من وصوله يقتحمون الحانة دائماً مثلما تقتحم الحيوانات الحظيرة. لكن الآن عليهم أن يذهبوا فعلاً إلى الحظيرة، التي يخصّونها. لو لم تكن هنا، كنت سأفتح الباب هنا على مصراعيه وعلى كلمّ نفسه أن يطردهم.» «ألا يسمع إذاً؟» سأل ك. «لا»، قالت فريدا، «إنه نائم.» «كيف!» سأل ك.، «نائم؟ عندما نظرت إلى داخل الغرفة كان ما زال مستيقظاً ويجلس إلى الطاولة.» «ما زال جالساً هكذا»، قالت فريدا، «أيضاً عندما رأيته، كان نائماً ـ هل كان من شأني في ما عدا ذلك أن أدعك تنظر إلى الداخل؟ ـ كان هذا هو الوضع الذي يتخذه في النوم، السادة ينامون كثيراً جداً، يكاد المرء لا يستطيع أن يفهم هذا. للعلم، لو لم يكن ينام كثيراً هكذا، كيف كان في مقدوره أن يحتمل هؤلاء الناس. لكن الآن ينبغي عليّ أن أخرجهم بنفسي من هنا.» تناولت سوطاً من الزاوية وقفزت قفزة واحدة عالية غير واثقة كل الثقة، هكذا مثلما يقفز حمل صغير، متجهة نحو الراقصين. في البدء توجهوا نحوها وكأن راقصة جديدة قد وصلت، وفعلاً بدا الحال هكذا طوال لحظة وكأن فريدا تريد أن تترك السوط يسقط، غير أنها رفعته من جديد، «باسم كلمّ»، صاحت، «إلى الحظيرة، الجميع إلى الحظيرة»، والآن رأوا أن الأمر جديّ، بخوف غير مفهوم من قبل ك. بدؤوا يندفعون إلى الخلفية، تحت دفعة الأوائل انفتح باب هناك، نسمة ليل هبّت إلى الداخل، توارى الجميع مع فريدا، التي يبدو أنها ساقتهم عبر الفناء إلى الحظيرة. لكن ك. سمع في السكون الذي خيّم فجأة خطوات قادمة من الردهة. لكي يحمي نفسه على نحو من الأنحاء، قفز إلى خلف منصة صبّ الشراب، التي كان تحتها الإمكانية الوحيدة للاختباء، صحيح أن التوقف في المشرب لم يكن محظوراً عليه، لكنه إذ كان يريد أن يبيت هنا، فقد كان عليه أن يتجنب أن يراه أحد الآن. لذا فإنه، إذ فتح الباب فعلاً، انزلق إلى تحت المنصة. أن يجري اكتشافه هناك لم يكن أيضاً طبعاً أمراً غير محفوف بالخطر، ومن ثم على كل حال، لم يكن العذر أنه إنما اختبأ عن الفلاحين الذين توحشوا غير جدير بالتصديق. كان القادم صاحب النزل، «فريدا»، نادى وطفق يقطع القاعة ذهاباً وإياباً بضع مرات، من حسن الحظ أتت فريدا بعد قليل ولم تذكر ك.، اشتكت من الفلاحين وحسب، وذهبت إلى خلف المنصة ساعية للبحث عن ك.، هناك استطاع ك. أن يمسّ قدمها وأحس اطمئناناً من الآن فصاعداً. إذ لم تذكر فريدا ك.، وجب على صاحب النزل أن يفعل ذلك. «وأين هو مسّاح الأراضي؟» سأل. كان رجلاً مهذباً عموماً وقد اكتسب أدباً رفيعاً من

تعامله المتواصل والحر نسبياً مع ذوي المستوى الأعلى، لكن مع فريدا كان يتحدث بطريقة خاصة تنمّ عن فائق احترام، وهذا كان يثير الانتباه قبل كل شيء؛ لأنه مع ذلك لم يكن يكف في الحديث عن كونه صاحب عمل إزاء مستخدمة، إزاء مستخدمة جسورة غير هيّابة فوق هذا كله. «مسّاح الأراضي نسيته كلياً»، قالت فريدا وهي تضع قدمها الصغيرة على صدره. «لا بدّ أنه انصرف منذ مدة طويلة.» «لكنني لم أره»، قال صاحب النزل، «وكنت طوال الوقت تقريباً في الردهة.» «لكنه ليس هنا»، قالت فريدا ببرود. «ربما يكون قد اختبأ»، قال صاحب النزل، «حسب الانطباع الذي كنت قد أخذته عنه، فإنه يمكن توقّع بعض الأمور منه.» «هذه الجرأة لن تكون لديه أبداً»، قالت فريدا وهي تضغط قدمها بشدة أكثر على ك. شيء ما بهيج، حر كان في طبيعتها، الأمر الذي لم يكن ك. قد لاحظه سابقاً وطغى على نحو بعيد الاحتمال كلياً، إذ انحنت فجأة إلى ك. وهي تضحك بالكلمات: «ربما يكون مختبئاً هنا تحت»، وقبلته عَرَضاً وانتفضت واقفة ثانية وقالت في كآبة: «لا، إنه ليس هنا.» لكن صاحب النزل أيضاً أعطى سبباً للدهشة، إذ قال الآن: «يضايقني كثيراً أنني لا أعرف علم اليقين في ما إذا كان قد انصرف. إن الأمر لايتعلق بالسيد كلمّ وحده، الأمر يتعلق بالتعليمات. لكن التعليمات تنطبق عليك، آنسة فريدا، كما تنطبق عليّ. عن المشرب أنت مسؤولة، وسوف أفتش بقية البيت. تصبحين على خير! أتمنى لك نوماً مريحاً!» لم يكن قد تمكن من مغادرة الغرفة بعد حتى أطفأت فريدا الضوء الكهربائي، وباتت عند ك. تحت الطاولة، «حبيبي! حبيبي الحلو!» همست، لكنها لم تمسّ ك. قط، كأنه مغمى عليها من الحب استلقت على ظهرها وبسطت ذراعيها، كان الوقت ولا ريب لانهائياً أمام حبها السعيد، طفقت تتنهد أكثر مما كانت تغني أية أغنية صغيرة. من ثم هبّت مذعورة، إذ ظل ك. ساكناً في أفكاره، وبدأت تسحبه مثل طفل: «تعال، إننا نختنق هنا تحت»، تعانقا، الجسد الصغير احترق بين يديّ ك.، تدحرجا في إغماءة، راح ك. يحاول باستمرار لكن عبثاً أن ينقذ نفسه منها، بعد بضع خطوات ارتطما بباب كلمّ بصوت خافت، ورقدا من ثم في بِرَك البيرة الصغيرة وما عداها من القاذورات التي تغطي الأرضية. هناك انقضت ساعات، ساعات من الأنفاس المشتركة، ومن خفقات القلب المشتركة، ساعات كان يستحوذ فيها دونما انقطاع على ك. الشعور بأنه يضلّ طريقه، أو أنه يوجد في الغربة بعيداً هكذا كما لم يكن إنسان قبله، غربة لا يملك فيها حتى الهواء عنصراً من هواء الوطن، غربة لا بدّ للمرء من أن يختنق فيها من عمق الوحشة والتي لا يمكن للمرء أن يفعل شيئاً في إغراءاتها العبثية سوى أن يواصل الذهاب وأن يواصل ضلال الطريق. وهكذا لم يكن رعباً له في بادئ الأمر على الأقل، بل عودة إلى الوعي مريحة، حين نودي على فريدا من غرفة كلمّ بصوت آمر ـ لا مكترث. «فريدا!»، قال ك. في أذن فريدا وأبلغها هكذا النداء. في امتثال غريزي أرادت فريدا أن تقفز، غير أنها من ثم تذكرت أين هي، تمطّت، ضحكت بهدوء وقالت: «لن أذهب طبعاً، أبداً لن أذهب إليه.» أراد ك. أن يعترض

على ذلك، أراد أن يدفعها للذهاب إلى كلمّ، شرع يبحث عن بقايا بلوزتها، غير أنه لم يستطع أن يقول شيئاً، كان في غاية السعادة أنه يمسك فريدا بيديه، أيضاً سعيداً شديد الخوف كان إلى أقصى درجة، إذ بدا له أنه إذا تركته فريدا، يتركه كل شيء يملكه. وكأن موافقة ك. قد شدّت عضد فريدا، جمّعت قبضتها، طرقت بها الباب ونادت: «أنا لدى مسّاح الأراضي! أنا لدى مسّاح الأراضي!» غير أن كلمّ لزم الهدوء. لكن ك. نهض، ركع جانب فريدا وجال بنظره في ضوء الفجر المغبَّش. ماذا كان قد حدث؟ أين كانت آماله؟ ماذا كان في مقدوره الآن أن ينتظر من فريدا، حيث انكشف كل شيء؟ بدلاً من التقدم بأكبر حذر يناسب ضخامة العدو وضخامة الهدف، فإنه كان قد تمرغ هنا طوال ليلة في بِرَك البيرة، التي كانت رائحتها الآن مخدّرة. «ماذا فعلتِ؟» غمغم قائلاً. «لقد ضعنا كلانا.» «لا»، قالت فريدا، «أنا وحدي ضعت، لكنني كسبتك. اهدأ، لكن انظر، كيف يضحكان.» «من؟» سأل ك. وهو يلتفت. كان مساعداه جالسين على الطاولة، مسهدان بعض الشيء لكنهما مرحان، كان المرح الذي تعطيه تأدية واجب بإخلاص. «ماذا تريدان هنا؟» صرخ ك. وكأنهما السبب في كل شيء، طفق يبحث عن السوط من حوله، الذي كان لدى فريدا مساء. «كان يتعيّن علينا أن نبحث عنك»، قال المساعدان، «لأنك لم تنزل إلينا في قاعة الحانة، بحثنا عنك لدى برناباس وعثرنا عليك أخيراً هنا، إننا نجلس هنا طوال الليل. حقاً إن الخدمة ليست سهلة.» «أحتاجكما نهاراً وليس في الليل»، قال ك.، «انصرفا!» «الآن نهار»، قالا دون أن يتحركا. كان الوقت نهاراً فعلاً، وقد فتح باب الفناء، واندفع الفلاحون مع أولغا، التي كان ك. قد نسيها، إلى الداخل، كانت أولغا حيوية مثلما كانت في المساء، مهما كان شعرها ومهما كانت ملابسها ملخبطة، وهي ما تزال في الباب راحت عيناها تبحثان عن ك. «لماذا لم تذهب معي إلى البيت؟» قالت وهي تكاد تذرف دموعها. «بسبب مثل هذه الامرأة!» قالت من ثم وكررت ذلك بضع مرات. فريدا، التي كانت قد اختفت هنيهة، عادت وهي تحمل صرة غسيل صغيرة، أولغا انتحت جانباً وهي مكتئبة. «الآن نستطيع أن نذهب»، قالت فريدا، كان من الواضح أنها تقصد نزل الجسر، الذي عليهم أن يذهبوا إليه. ك. مع فريدا، خلفهما المساعدان، هذا كان الركب، أظهر الفلاحون كثيراً من الازدراء لفريدا، كان هذا أمراً مفهوماً لأنها كانت حتى الآن قد هيمنت عليهم بصرامة، حتى إن أحدهم تناول عصا وتظاهر بأنه يريد أن لا يدعها تنصرف قبل أن تقفز فوق العصا، لكن نظرتها كانت كافية لإبعاده. في الخارج في الثلج تنفس ك. الصعداء بعض الشيء، الغبطة بأن يكون في الهواء الطلق كانت كبيرة إلى درجة أنها في هذه المرة جعلت صعوبة الطريق تهون، لو كان ك. وحده، لكان الحال أفضل. في النزل ذهب فوراً إلى غرفته واستلقى على السرير، فريدا أعدّت لنفسها قريباً منه مضجعاً على الأرض، كان المساعدان قد ولجا معهما، وطردا، لكنهما دخلا ثانية من النافذة. كان ك. متعباً للغاية كي يطردهما مرة أخرى. صاحبة النزل صعدت خصيصاً لكي تحيي فريدا، هذه نادتها

بنبرة تحبب أميمة، كان ثمة سلام ودّي على نحو غير مفهوم بقبلات وعناق طويل. لم يسد هدوء كثير عموماً في الغرفة الصغيرة، كانت أيضاً الخادمتان تحضران المرة بعد الأخرى، وهما تحدثان ضجيجاً بأحذيتهن الرجالية، لكي تجلبا أو تأخذا شيئاً ما. كانتا إذا احتاجتا شيئاً من السرير المكتظ بشتى الأشياء، تسحبانه من تحت ك. دون مراعاة. وقد قامتا بتحية فريدا بصفتها مثلهما. مع هذا الاضطراب ظل ك. راقداً في السرير طوال النهار وطوال الليل. كانت فريدا تؤمّن له بعض الخدمات. حين نهض أخيراً في الصباح التالي وهو في غاية الانتعاش، كان ذلك هو اليوم الرابع لإقامته في القرية.

٤

حديث أول مع صاحبة النُزْل

كان بودّه أن يتحدث سراً مع فريدا، لكن المساعدَين، اللذين كانت فريدا بين الحين والآخر تمزح معهما أيضاً وتضحك، أعاقاه عن ذلك بمجرد حضورهما المتطفل. لكنهما لم يكونا ذوي مطالب كثيرة، فقد كانا يجلسان في ركن على الأرض فوق تنورتين نسائيتين قديمتين، كان طموحهما، كما تحدثا مراراً مع فريدا، هو أن لا يزعجا السيد مسّاح الأراضي وأن يشغلا أقل ما يمكن من المكان، في هذا الخصوص كانا يقومان بمحاولات متنوعة، دائماً طبعاً مع لثغ وضحك صبياني، يشبكان أذرعهما وسيقانهما، يتكوّران، في الفجر والغسق كان المرء يرى في ركنهما مجرد كتلة كبيرة. لكن مع ذلك كان المرء يعلم مع الأسف من التجربة في ضوء النهار أنهما كانا مراقبَين شديدي الانتباه، يحدقان باستمرار باتجاه ك.، سواء استخدما مثلاً يديهما كمناظير ومارسا سخافات مشابهة أو راحا يرمشان وحسب باتجاه ك. وهما يبدوان أنهما مشغولان بصورة رئيسية بالعناية بلحيتيهما، اللتين كانا يوليانهما عناية كبرى ويقومان مرات لا تحصى بالمقارنة بينهما طولاً وكثافة ويحتكمان إلى فريدا. غالباً ما كان ك. وهو في فراشه يراقب أعمال الثلاثة بعدم اكتراث مطلق.

حين أحس الآن أنه قويّ بما فيه الكفاية ليغادر الفراش، أسرع الثلاثة إليه كي يخدمونه. كانت قوته ما زالت غير كافية كي يتمكن من صدّ خدماتهم، لاحظ أنه بهذا قد وقع في شيء من التبعية لهم، التي يمكن أن يكون لها نتائج سيئة، لكنه اضطر أن يترك الأمر يحدث. كما أنه لم يكن من غير المريح أبداً على مائدة الطعام احتساء القهوة الطيبة التي كانت فريدا قد أحضرتها، التدفؤ إلى المدفأة التي أوقدتها فريدا، ترك المساعدَين في حماستهما وعدم حذاقتهما يقطعان الدرج عشر مرات هبوطاً وصعوداً، كي يجلبا ماء، صابوناً، مشطاً ومرآة وأخيراً، لأن ك. كان قد عبّر عن رغبة خفيفة قابلة للتفسير في هذا الاتجاه، كأساً من مشروب الروم أيضاً.

في وسط هذه الإيعازات وتقبّل الخدمات قال ك. بمزاج ارتياح أكثر من أن يكون أملاً بتحقيق نجاح: «انصرفا الآن، أيها الاثنان، حالياً لا أحتاج إلى شيء آخر، وأريد أن أتحدث وحدي مع الآنسة فريدا»، وإذ لم ير مقاومة واضحة على وجهيهما، استمر قائلاً كي يعوض لهما: «نحن ثلاثتنا سوف نذهب إلى عمدة القرية، انتظراني تحت في القاعة.» من الغريب أنهما استجابا، لكنهما قالا قبل انصرافهما: «يمكننا أن ننتظر هنا أيضاً» وأجاب ك: «أدري ذلك، لكنني لا أريده.»

بيد أن الأمر كان مضايقاً، وبمعنى ما مستحسناً أيضاً لـ ك. حينما جلست فريدا على حضنه فور انصراف المساعدَين، قالت: «ماذا لديك يا حبيبي ضد المساعدَين؟ أمامهما لا يجب أن يكون لدينا أسرار. إنهما مخلصان.» «آه مخلصان»، قال ك.، «إنهما يترصدانني على نحو متواصل، لا جدوى من ذلك، لكنه بغيض.» «أظن أنني أفهمك»، قالت وهي تتعلق بعنقه وأرادت أن تقول شيئاً آخر، لكنها لم تقو على الاستمرار في الكلام. ولأن الكرسي كان إلى جانب السرير، فقد تمايلا ووقعا عليه. هناك رقدا، لكن ليس باستغراق مثلما كان الحال في الليل. كانت تبحث عن شيء وكان يبحث عن شيء، بغضب، بتكشير، بغرس الرأس في صدر الآخر طفقا يبحثان ومعانقاتهما وجسداهما الملقى كل منهما على الآخر لم يدعاهما ينسيان، بل ذكّراهما بالواجب أن يبحثا، كما تنبش الكلاب في الأرض على نحو ميئوس منه هكذا طفقا ينبشان في جسديهما وهما خائبان بعجز، كي يجلبا آخر غبطة، كان لسان كل منهما يمسح أحياناً كامل وجه الآخر. فقط التعب تركهما هادئين وكل منهما شاكر للآخر. من ثم صعدت الخادمتان أيضاً، «انظري كيف يستلقيان»، قالت إحداهما وهي تلقي ملاءة عليهما رأفة بهما.

حين تخلص ك. من الملاءة لاحقاً ونظر حوله، كان المساعدان قد عادا إلى ركنهما ـ هذا لم يدهشه ـ وكل منهما، مشيراً بإصبعه إلى ك.، يحثّ الآخر على الجدّ وألقيا التحية ـ لكن بالإضافة إلى ذلك كانت إلى جانب الفراش مباشرة تجلس صاحبة النزل وهي تحيك جورباً، عمل صغير لم يكن يناسب كثيراً هيئتها الضخمة التي تكاد تعتّم الغرفة. «إنني أنتظر منذ مدة طويلة»، قالت وهي ترفع وجهها العريض الذي ملأته تجاعيد الشيخوخة لكنه في كتلته الكبيرة ما زال، مع ذلك، أملس، وربما كان ذات يوم وجهاً جميلاً. كانت الكلمات تنمّ عن لوم، لوم غير مناسب، إذ إن ك. لم يكن قد طلب أن تأتي. لذا لم يصادق على كلماتها إلا بهزة رأس واعتدل في جلسته، فريدا أيضاً نهضت، لكنها غادرت ك. واستندت إلى كرسي صاحبة النزل. «ألا يمكن، أيتها السيدة صاحبة النزل»، قال ك. مشتت الفكر، «تأجيل ما تبغين أن تقوليه لي، حتى أعود من عند العمدة؟ لديّ محادثة مهمة هناك.» «هذه أكثر أهمية، صدقني أيها السيد مسّاح الأراضي»، قالت صاحبة النزل، «هناك يتعلق الموضوع على الأرجح بعمل فقط، هنا يتعلق الأمر بإنسان، بفريدا، خادمتي العزيزة.» «آه هكذا»، قال ك.، «طبعاً إذاً،

لكنني لا أعلم لماذا لا يترك المرء هذه المسألة لنا كلانا.» «حباً، خوفاً»، قالت صاحبة النزل وهي تسحب إليها رأس فريدا، التي كانت واقفة لا تصل إلا إلى كتف صاحبة النزل الجالسة. «إذ إن لفريدا مثل هذه الثقة بك»، قال ك.، «لا أستطيع أنا أيضاً شيئاً آخر. ولأن فريدا اعتبرت قبل قليل مساعديّ مخلصَين، فإننا نكون هكذا أصدقاء فيما بيننا. فيمكنني إذاً، أيتها السيدة صاحبة النزل، أن أقول لك إنني أرى أن من الأفضل أن نتزوج فريدا وأنا، بل وقريباً جداً. للأسف، للأسف لن يمكنني بهذا أن أعوّض لفريدا ما فقدته بسببي، العمل في حانة السادة وصداقة كلمّ.» رفعت فريدا وجهها، كانت عيناها مغرورقتين بالدمع، ولم يكن فيهما أي تعبير عن ظفر. «لماذا أنا؟ لماذا تمّ اصطفائي أنا بالذات لهذا الأمر؟» «كيف؟» سأل ك. وصاحبة النزل في الوقت نفسه. «إنها مرتبكة، الطفلة المسكينة»، قالت صاحبة النزل، «مرتبكة من التقاء أكثر مما ينبغي من السعادة مع أكثر مما ينبغي من التعاسة.» وكأن الحال مصادقة على هذه الكلمات ألقت فريدا الآن بنفسها على ك.، قبّلته بعنف، وكأن ما من أحد في الغرفة، وركعت من ثم أمامه وهي ما طفقت تبكي مستمرة في احتضانه. في حين كان ك. يمسّد شعر فريدا بكلتا يديه، سأل صاحبة النزل: «يبدو أنك تعطيني الحق؟» «أنت رجل فاضل»، قالت صاحبة النزل، والدموع تحبس صوتها هي الأخرى، وقد بدت متداعية بعض الشيء وكانت تتنفس بصعوبة، مع ذلك وجدت القوة لتقول: «ينبغي الآن التفكير وحسب ببعض الضمانات التي يتعيّن عليك أن تقدمها لفريدا، إذ مهما كان احترامي لك كبيراً، فإنك تظل مع ذلك غريباً، لا تستطيع أن ترجع إلى أحد، ظروفك العائلية غير معروفة هنا، الضمانات ضرورية إذاً، سوف تفهم ذلك، أيها السيد مسّاح الأراضي العزيز، لقد أبرزت بنفسك كم ستخسر فريدا أيضاً على كل حال نتيجة العلاقة معك.» «بالتأكيد، ضمانات، طبعاً»، قال ك.، «من الأفضل طبعاً أن يجري تقديمها أمام الكاتب بالعدل، كما أن دوائر غرافية أخرى قد تتدخل أيضاً. للعلم، يتعيّن عليّ أنا أيضاً أن أنجز بعض الأمور بالضرورة. يجب عليّ أن أتحدث مع كلمّ.» «هذا غير ممكن»، قالت فريدا، نهضت قليلاً وضغطت نفسها على ك.، «أية فكرة!» «يجب أن يتمّ الأمر»، قال ك.، «إذا كان الحصول على إذن بذلك غير ممكن لي، فيجب عليك تأمين ذلك.» «لا أستطيع، ك.، لا أستطيع»، قالت فريدا، «كلمّ لن يتحدث معك إطلاقاً. كيف يمكنك أن تظن وحسب أن كلمّ سيتحدث معك!» «ومعك حريّ أن يتحدث؟» سأل ك. «ولا معي»، قالت فريدا، «لا معك ولا معي، إنها محض مستحيلات.» توجهت نحو صاحبة النزل وهي تبسط ذراعيها: «انظري فقط أيتها السيدة صاحبة النزل، ما يطلبه.» «إنك ذات خاصية فريدة، أيها السيد مسّاح الأراضي»، قالت صاحبة النزل وكانت مثيرة للخوف وهي تجلس الآن معتدلة، وقد باعدت بين ساقيها ودفعت ركبتيها الضخمتين إلى الأمام عبر التنورة الخفيفة، «إنك تطلب مستحيلاً.» «لماذا هو مستحيل؟» سأل ك. «سأوضح لك هذا»، قالت صاحبة النزل بنبرة وكأن هذا الإيضاح ليس مثلاً معروفاً أخيراً، بل العقوبة الأولى التي تفرضها، «سوف أوضح لك هذا

بسرور. صحيح أنني لا أنتمي إلى القلعة، وأنا مجرد امرأة، وأنا مجرد صاحبة حانة هنا في نزل من الدرجة الأخيرة ـ ليس من درجة أخيرة، لكن ليس بعيداً عن ذلك ـ وهكذا يمكن أن يكون الحال أن لا تعطي كثير أهمية لإيضاحي، لكنني كنت في حياتي أفتح عينيّ والتقيت كثيراً من الناس، وحملت وحدي كامل عبء المحل، فصحيح أن زوجي هو فتى طيب، غير أنه ليس صاحب محل محترفاً، ولن يفهم أبداً ما هي المسؤولية. أنت على سبيل المثال تدين لإهماله فقط ـ كنتُ في ذلك المساء مرهقة لدرجة الانهيار ـ بأنك هنا في القرية، بأنك هنا تجلس على السرير بسلام وراحة.» «كيف؟» سأل ك. صاحياً من شيء من شرود بال، منفعلاً فضولاً أكثر منه انزعاجاً. «فقط لإهماله أنت مدين»، صاحت صاحبة النزل مرة أخرى وهي ترفع سبابتها على ك. حاولت فريدا تهدئتها. «ماذا تريدين؟»، قالت صاحبة النزل مع دوران سريع لكامل الجسد، «السيد مسّاح الأراضي سألني، ويتعيّن عليّ أن أجيبه. كيف عليه إذاً في ما عدا ذلك أن يفهم ما هو بديهيّ لنا، بأن السيد كلمّ لن يتحدث معه أبداً، ما أقول (لن)، أبداً ولا في يوم من الأيام يستطيع أن يتحدث معه. اسمع أيها السيد مسّاح الأراضي. السيد كلمّ هو سيد من القلعة، هذا يعني في حد ذاته، بغض النظر كلياً عن مركز كلمّ في ما عدا ذلك، رتبة عالية جداً. لكن الآن ماذا تكون أنت، أنت الذي نتقدم له هنا بخضوع طالبين موافقته على الزواج؟ نحن لسنا من القلعة، أنت لست من القرية، أنت لاشيء. غير أنك للأسف شيء مع ذلك، غريب، واحد زائد عن العدد وفي كل مكان يعترض الطريق، واحد بسببه يلقى المرء دائماً مضايقات، بسببه يضطر المرء إلى إخراج الخادمتين من مسكنهما، واحد مقاصده مجهولة، واحد أغوى فريدانا الصغيرة الأحب إلينا والذي يجب على المرء للأسف أن يعطيها له زوجة. بسبب كل هذا فإنني في حقيقة الأمر لا آخذ عليك شيئاً؛ إنك أنت ما أنت؛ لقد رأيت في حياتي أكثر من اللازم، أكثر من أن لا أحتمل هذا المنظر أيضاً. لكن تصور الآن ماذا تطلب في الواقع. رجل مثل كلمّ عليه أن يتحدث معك. بألم سمعت أن فريدا تركتك ترى من خلال العين السحرية، وهي تفعل ذلك كانت قد أُغويت. لتقل، كيف احتملت منظر كلمّ أصلاً. لا ينبغي عليك أن تجيب، أعرف الأمر، لقد احتملته على نحو جيد جداً. أنت غير قادر على أن ترى كلمّ في حقيقة الأمر، هذا ليس تعالياً من طرفي، إذ أنا نفسي غير قادرة أيضاً. على كلمّ أن يتحدث معك، بيد أنه لا يتحدث حتى مع ناس من القرية، ما من مرة قط تحدث بنفسه مع أحد من القرية. كان امتياز فريدا الكبير، امتياز سيبقى فخري حتى نهايتي، أنه على الأقل اعتاد على نداء اسم فريدا، وأنه كان في مقدورها أن تتحدث إليه كما يطيب لها، وأنها حصلت على إذن العين السحرية، لكنه لم يتحدث معها هي أيضاً. أما أنه كان ينادي فريدا أحياناً، فإن هذا لا يجب أن يعني بتاتاً الأهمية التي يحب المرء أن ينسبها إلى هذا النداء، كان ينادي ببساطة اسم فريدا ـ من يعرف مراميه؟ ـ كون فريدا كانت تأتي طبعاً مسرعة كان هذا شأنها، والسماح لها دون اعتراض بالدخول إليه كان طيبة من كلمّ، لكن أنه ناداها حقاً، هذا أمر لا

يمكن للمرء أن يدّعيه. الآن طبعاً ما كان ذهب إلى غير رجعة. ربما سيبقى كلمّ ينادي اسم فريدا، هذا ممكن، لكن يقيناً لن يسمح لها بعد الآن بالدخول إليه، فتاة تعاملت معك. وفقط شيء واحد، شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه برأسي المسكين، أن فتاة، يقال عنها إنها عشيقة كلمّ - للعلم، أعتبر هذا وصفاً مبالغاً فيه كل المبالغة - تدع نفسها تمسّ من قبلك مجرد مسّ.»

«يقيناً هذا أمر غريب»، قال ك. وهو يأخذ فريدا، التي استسلمت على الفور ولو برأس مطأطأ، إليه إلى الحضن، «لكن هذا يثبت، على ما أظن، أن ما عدا ذلك أيضاً ليس كل شيء هو تماماً كما تعتقدين. هكذا على سبيل المثال أنت على حق يقيناً عندما تقولين إنني لا شيء أمام كلمّ وعندما أطلب الآن أيضاً أن أتحدث مع كلمّ ولا أكون قد أثنيت عن ذلك حتى من خلال إيضاحاتك، فبهذا لم يقل بعد إنني قادر على مجرد أن أحتمل منظر كلمّ دون الباب القائم بيننا ولن أجري من الغرفة فور ظهوره. لكن مثل هذا التخوّف وإن كان مسوّغاً أيضاً، ما زال ليس سبباً لي أن لا أقدم على الموضوع. أما إذا تمّ لي أن أثبت أمامه، فإنه ليس من الضروري أبداً أن يتحدث معي، إنه يكفيني عندما أرى الانطباع الذي تحدثه فيه كلماتي، وإذا لم تحدث انطباعاً أو أنه حتى لا يسمعها، فأكون مع ذلك قد حصلت على مكسب أنني تحدثت بحرية أمام قويّ. أما أنت أيتها السيدة صاحبة النزل بمعرفتك الكبيرة للحياة والبشر وفريدا، التي كانت حتى يوم أمس عشيقة كلمّ - لا أرى سبباً للتخلي عن هذه الكلمة - يمكنكما بالتأكيد وبسهولة تأمين الفرصة لي أن أتحدث مع كلمّ، وإذا لم يكن هذا ممكناً بطريقة أخرى، إذاً في حانة السادة، ربما ما زال هناك اليوم أيضاً.»

«غير ممكن»، قالت صاحبة النزل، «وأرى أنه تنقصك القدرة على فهم الأمر. لكن أفصح مع ذلك عما تريد أن تتحدث به إذاً مع كلمّ؟»

«عن فريدا طبعاً»، قال ك.

«عن فريدا؟» سألت صاحبة النزل غير فاهمة وهي تلتفت إلى فريدا. أتسمعين يا فريدا، عنك يريد أن يتحدث مع كلمّ، مع كلمّ.»

«آه»، قال ك.، «إنك أيتها السيدة امرأة ذكية توحين بالاحترام ومع هذا تخيفك كل صغيرة. الآن إذاً، أبغي أن أتحدث معه عن فريدا، هذا ليس عملاً منكراً للغاية بل هو بالأحرى عمل بديهي. إذ إنك تخطئين بالتأكيد أيضاً عندما تظنين أن فريدا منذ اللحظة التي ظهرتُ فيها إنما أصبحت غير ذات أهمية لكلمّ. إنك تقللين من شأنه، إذا كنت تظنين ذلك. أحس جيداً أنه تطاولٌ مني أن أبتغي تعليمك في هذا الخصوص، لكن يجب عليّ أن أفعل ذلك. من خلالي لا يمكن أن يكون قد تغير شيء في علاقة كلمّ بفريدا. إما أنه لم تكن ثمة علاقة جوهرية قائمة - هذا ما يقوله في الحقيقة أولئك الذين يجرّدون فريدا من اسم الشرف عشيقة - فمن ثم لا تكون اليوم أيضاً قائمة، أو أنها كانت موجودة، فكيف يمكنها بسببي، أنا، كما

قلتِ على نحو صحيح، اللاشيء في عينيّ كلمّ، كيف يمكنها أن تضطرب بسببي. مثل هذه الأشياء يصدقها المرء في لحظة الرعب الأولى، لكن أقل تمعّن يجب أن يصحح هذا. للعلم، لندع فريدا تقول رأيها في هذا.»

بنظرة شاردة في البعد، وهي تضع خدّها على صدر ك. قالت فريدا: «من المؤكد أن الحال هكذا كما تقول الأم: كلمّ أعرض ولا يريد أن يعلم شيئاً عني. لكن طبعاً ليس لأنك، يا حبيبي، أتيت، لا شيء مثل هذا يمكنه أن يهزّه. بل إنني أعتقد أن لقاءنا تحت المنصة كان من صنيعه، بوركت تلك الساعة ولا لعنت.»

«إذا كان الحال هكذا»، قال ك. بتؤدة، إذ كانت كلمات فريدا حلوة، أغلق عينيه طوال بضع ثوان، كي يدع الكلمات تتغلغل إلى أعماقه، «إذا كان الحال هكذا، فثمة سبب أقل للخوف من محادثة مع كلمّ.»

«حقاً»، قالت صاحبة النزل وهي تنظر إلى ك. من عل، «إنك تذكرني أحيانا بزوجي، عنيد وصبياني هكذا مثله أنت أيضاً. إنك منذ بضعة أيام في المكان وفي الحال تريد أن تعرف كل شيء أفضل مما يعرفه السكان الأصليون، أفضل مني أنا المرأة المسنّة ومن فريدا، التي شاهدت وسمعت كثيراً هكذا في حانة السادة. إنني لا أنكر أن من الممكن بلوغ شيء ما أيضاً ذات يوم ضد التعليمات وضد التقاليد، أنا لم أشهد شيئاً من هذا القبيل، لكن هناك كما يقال أمثلة على ذلك، هذا ممكن، لكن الأمر لا يحدث بالتأكيد بالطريقة التي تقوم بها، بأن يقول المرء على الدوام لا لا ولا يثق إلا برأسه وحده، ويتجاهل النصائح المخلصة. هل تظن إذاً أن اهتمامي ينصبّ عليك؟ هل اهتممت بك ما دمت كنت وحيداً؟ مع أن الأمر كان خليقاً أن يكون حسناً وأن يمكن تجنّب بعض الأمور. الشيء الوحيد الذي قلته آنذاك لزوجي عنك، كان: 'ابتعد عنه.' وهذا خليق أن يكون اليوم أيضاً صحيحاً لي، لو لم تُقحم فريدا الآن في قدرك. أنت تدين لها ـ أعجبك هذا أم لم يعجبك ـ بعنايتي، لا بل حتى اهتمامي. ولا يجوز لك أن تردّني ببساطة، وذلك لأنك مسؤول أمامي كل المسؤولية، أنا الوحيدة التي تحرس فريدا الصغيرة بحدب الأم. ممكن أن تكون فريدا على حق ويكون كل ما حدث هو مشيئة كلمّ، لكن عن كلمّ لا أعرف الآن شيئاً، لن أتحدث معه إطلاقاً في يوم من الأيام، إنه بعيد المنال عليّ كل البعد، لكن أنت تجلس هنا، تمسك فريداي و ـ لماذا عليّ أن أكتم الأمر؟ ـ لكنني أمسك بك، أجل أمسك بك. أجل، تُمسك من قبلي، إذ حاول أيها الشاب، عندما أطردك من البيت أن تجد في أي مكان في القرية مأوى، ولو كان عشّة من عشش الكلاب.»

«شكراً»، قال ك.، «هذه كلمات صريحة وأصدقك على نحو كامل. هكذا غير مضمون هو وضعي إذاً، وبارتباط معه وضع فريدا أيضاً.»

«لا»، قاطعته صاحبة النزل وهي تصيح غاضبة، «إن وضع فريدا لا علاقة له بتاتاً في هذا الخصوص بوضعك. فريدا من عداد أفراد بيتي ولا يحق لأحد تسمية وضعها هنا أنه غير مضمون.»

«حسناً، حسناً»، قال ك.، «أعطيك الحق بهذا أيضاً، لا سيما أن فريدا تبدو لأسباب أجهلها أنها تخاف منك كثيراً كي تتدخل. لنبقى إذاً مؤقتاً لديّ. وضعي هو لأقصى حد غير مضمون، إنك لا تنكرين هذا، بل تجهدين بالأحرى لإثبات ذلك. كما هو الحال لدى كل ما تقولينه فهذا أيضاً هو صحيح فقط بمعظمه لكن ليس كله. هكذا أعرف على سبيل المثال عن مكان مبيت جيد، وهو تحت تصرفي.»

«أين إذاً؟ أين إذاً؟»، صاحت كل من فريدا وصاحبة النزل، في الوقت نفسه وبشوق شديد، كأنهما تملكان الدوافع نفسها لسؤالهما.

«عند برناباس»، قال ك.

«الأوغاد!»، صاحت صاحبة النزل، «الأوغاد المحتالون! عند برناباس! أتسمعان؟» والتفتت نحو ركن المساعدَين، لكنّ هذين كانا قد ظهرا منذ مدة طويلة ووقفا ذراعاً بذراع خلف صاحبة الحانة، التي وكأنها الآن تحتاج إلى سند أمسكت بيد أحدهما، «هل تسمعان أين يتسكع السيد، في أسرة برناباس! طبعاً هناك يحصل على مأوى، آه ليته حصل عليه هناك وليس في حانة السادة. لكن أين كنتما؟»

«السيدة صاحبة النزل»، قال ك.، حتى قبل أن يجيب المساعدان، «إنهما مساعداي، غير أنك تعاملينهما كما لو كانا مساعديك لكن حارسيّ. في كل شيء آخر أنا مستعد على الأقل لإجراء نقاش بلطف حول آرائك، لكن ليس بخصوص مساعديّ، إذ إن المسألة هنا واضحة كل الوضوح. لذا أرجوك أن لا تتحدثين مع مساعديّ وإذا لم يكفي رجائي، فإنني أمنع مساعديّ من أن يجيباك.»

«لا يجوز لي إذاً أن أتحدث معكما»، قالت صاحبة النزل وكل الثلاثة ضحكوا، صاحبة النزل بسخرية لكن برقة أكثر مما كان ك. قد توقع، والمساعدان بطريقتهما المألوفة، التي تعني الكثير ولا شيء، والرافضة لكل مسؤولية.

«إياك والسخط»، قالت فريدا، «عليك أن تفهم انفعالنا على نحو صحيح. إن شئنا، إننا ندين لبرناباس وحده لأننا الآن يخص بعضنا بعضاً. عندما رأيتك لأول مرة في المشرب - دخلتَ متأبطاً ذراع أولغا - صحيح كنت أعرف بعض الأمور عنك، لكن في المجموع كنتَ سيّان لديّ كلياً. لم تكن وحدك سيّان لديّ، كل شيء تقريباً، كل شيء تقريباً كان سيّان لديّ. كنتُ أيضاً آنذاك غير راضية عن أمور كثيرة وبعض الأمور كانت تزعجني، لكن ماذا كان عدم الرضى هذا وماذا كان هذا الانزعاج؟ على سبيل المثال أهانني أحد الزبائن في

المشرب ـ كانوا دائماً يجرون ورائي، لقد رأيتَ الفتيان هناك، لكن جاء من هو أسوأ بكثير، خدم كلمّ لم يكونوا الأسوأ ـ إذاً أحدهم أهانني، ماذا كان هذا يعني لي؟ بدا لي كأنه حدث قبل أعوام طويلة أو أنه لم يحدث لي قط أو أنني سمعته وحسب أو كأنني نسيته بنفسي. بيد أنني لا أستطيع وصفه، حتى إنني لم أعد أستطيع تصوره، هكذا تغيّر كل شيء منذ أن هجرني كلمّ».

وقطعت فريدا قصتها، طأطأت رأسها بحزن، واحتفظت بيديها مشبوكة في حضنها.

«انظر»، نادت صاحبة النزل وقد فعلت ذلك هكذا كأنها لا تتحدث نفسها بل تعير فريدا صوتها وحسب، كما أنها اقتربت أيضاً وجلست إلى جانب فريدا تماماً، «انظر الآن أيها السيد مسّاح الأراضي عواقب أفعالك، ومساعداك أيضاً، اللذان لا يجوز لي أن أتحدث معهما، علّهما يراقبان كي يتعظا. لقد انتزعت فريدا من الحالة الأكثر سعادة التي أتيحت لها في يوم من الأيام وقد تمّ لك هذا قبل كل شيء لأن فريدا بشفقتها المبالغ بها على نحو طفولي لم تستطع أن تتحمل أنك كنت تتأبط ذراع أولغا وهكذا بدوت تحت رحمة أسرة برناباس. لقد أنقذتك وفي هذا ضحّت بنفسها. والآن إذ إن الأمر قد حدث، وفريدا استبدلت كل ما كانت تملكه لقاء سعادة الجلوس على ركبتك، الآن تأتي وتلعب ورقتك الرابحة الكبرى أنك كنت ذات يوم تملك الإمكانية التي تسمح لك أن تبيت لدى برناباس. بهذا تبغي ـ ولا ريب ـ أن تثبت أنك مستقل عني. يقيناً، لو كنت حقاً قد بتّ لدى برناباس، لكنت خليقاً أن تكون مستقلاً عني استقلالاً يحتّم عليك أن تغادر بيتي في لمح البصر وبأسرع ما يمكن.»

«لا أعرف خطايا أسرة برناباس»، قال ك. وهو يرفع فريدا، التي كانت كأنها ميتة، بحذر ويضعها ببطء على السرير وينهض هو، «ربما كنتِ على حق في هذا، لكن بكل تأكيد كنتُ على حق إذ طلبت منك أن تتركي مسائلنا، مسائل فريدا ومسائلي، لنا وحدنا. لقد ذكرتِ آنذاك شيئاً عن حب ورعاية، لكن من هذا لم ألاحظ شيئاً كثيراً، لكن كثيراً من الكراهية والسخرية والطرد من البيت. إذا كنت قد استهدفت ثنيي عن فريدا أو ثني فريدا عني، فإنك قد فعلت ذلك بمهارة، لكن الأمر لن يتمّ لك كما أعتقد، وإذا ما تمّ لك ذلك، فإنك سوف ـ اسمحي لي أيضاً مرة بتهديد غامض ـ تندمين كل الندم. في ما يخص المسكن الذي تعطينني إياه ـ لا يمكن أن تكوني تقصدين سوى هذا الجحر الكريه ـ فإنه ليس من المؤكد ـ ولا ريب ـ أنك إنما تفعلين ذلك بإرادتك، بالأحرى يبدو أنه يوجد إيعاز من سلطة من سلطات الغراف. سوف أبلغ الآن هناك أنه تمّ إنذاري هنا وإذا خصص المرء لي من ثم مسكناً آخر، فإنك سوف تتنفسين بارتياح، أما أنا فسأتنفس بارتياح أكثر. والآن أنا ذاهب في هذه المسألة وفي مسائل أخرى إلى العمدة، رجاء، اعتني على الأقل بفريدا، التي جرحتِ مشاعرها بسوء كاف بكلامك الذي تسمّينه كلام أم.»

ثم توجه إلى المساعدَين. «تعالا»، قال وهو يأخذ رسالة كلمّ من الكلّاب وأراد أن يذهب. كانت صاحبة النزل قد راقبته بصمت، وفقط بعد أن كان قد وضع اليد على مقبض الباب، قالت: «أيها السيد مسّاح الأراضي، ما زال ثمة شيء أزوّدك به في طريقك، إذ مهما تحدثت من أحاديث وكيف تريد أيضاً إهانتي، أنا المرأة المسنّة، فإنك مع ذلك زوج فريدا المقبل. لهذا فقط أقول لك إنك فيما يخص الظروف المحلية جاهل على نحو مخيف، يدور الرأس عندما يستمع المرء لك وعندما يقارن المرء في أفكاره بين ما تقوله وتعنيه وبين الوضع الحقيقي. لا يمكن تحسين هذا الجهل دفعة واحدة وربما مطلقاً، لكن يمكن لكثير أن يصبح أفضل، إذا صدقتني بعض التصديق فقط وأن تضع هذا الجهل نصب عينيك دائماً. سوف تصبح، من ثم، على سبيل المثال، وعلى الفور، أكثر إنصافاً لي وتبدأ تحس، أي رعب عانيتُ منه - وعواقب الرعب ما فتئت قائمة - عندما أدركت أن صغيرتي الأعزّ إنما قد هجرت على نحو ما النسر كي ترتبط بالثعبان، بيد أن العلاقة الحقيقية هي أكثر سوءاً بكثير، ويتعيّن عليّ على الدوام أن أحاول نسيانها، وإلا لما كان في مقدوري أن أتحدث معك كلمة هادئة. آه ها أنت مستاء مرة أخرى. لا لا تذهب بعد، اسمع هذا الرجاء فقط: حيثما وصلت، ابق واعياً أنك هنا الأكثر جهلاً وكن حذراً؛ هنا لدينا حيث يحميك وجود فريدا من الضرر، فلتثرثر بحرية ما في قلبك، هنا في مقدورك من ثم أن تبيّن لنا مثلاً كيف تنوي أن تتحدث مع كلمّ، فقط في الواقع، فقط في الواقع، رجاء، رجاء، لا تعمل ذلك.»

نهضت وهي تتمايل بعض الشيء نتيجة الانفعال، ذهبت إلى ك.، أمسكت يده ونظرت إليه نظرة رجاء. «أيتها السيدة صاحبة النزل»، قال ك.، «إنني لا أفهم لماذا بسبب مثل هذه المسألة تذلين نفسك وترجينني. إذا كان، كما تقولين، غير ممكن لي أن أتحدث مع كلمّ، فإنني لن أبلغ ذلك إذا رجاني المرء أم لم يرجوني. أما إذا كان الأمر ممكناً، فلماذا لا أفعل ذلك إذاً، لا سيما أنه مع زوال اعتراضك الرئيسي تصبح مخاوفك الأخرى موضع شك للغاية. والحق يقال إنني جاهل، الحقيقة تظل على كل حال قائمة وهذا أمر محزن جداً لي، لكنه يملك أيضاً حسنة أن الجاهل يخاطر أكثر، ولهذا أريد عن طيب خاطر أن أحمل الجهل وعواقبه السيئة حتماً برهة أخرى من الزمن، ما دامت القوى تكفي. لكن هذه العواقب لا تصيب في الأساس سواي، ولذا قبل كل شيء لا أفهم لماذا تقدمين رجاء. يقيناً سوف تعتنين دائماً بفريدا وإذا ما اختفيت كلياً من مجال بصر فريدا، فإن هذا لا يمكن أن يعني من وجهة نظرك سوى حظ سعيد. ماذا تخشين إذاً؟ إنك لا تخشين مثلاً - للجاهل يبدو كل شيء ممكناً - هنا كان ك. قد فتح الباب - «إنك لا تخشين مثلاً من أجل كلمّ؟» أتبعت صاحبة النزل نظرها ك. صامتة، وهو ينزل الدرج مسرعاً وقد تبعه المساعدان.

٥

لدى العمدة

لم تشغل المحادثة مع العمدة بال ك. كثيراً، الأمر الذي كاد يثير استغرابه. وقد حاول أن يفسر ذلك بأن التعامل الرسمي حسب تجربته حتى الآن مع السلطات الغرافية كان في غاية السهولة بالنسبة له. كان هذا يعود من طرف إلى أنه كان بخصوص معالجة مسائله قد صدر على ما يبدو وعلى نحو نهائي مبدأ ما ملائم له ظاهرياً كل الملاءمة، ومن طرف آخر كان يعود إلى توحّد الخدمة الجدير بالإعجاب، والذي كان المرء لا سيما حيث لم يكن موجوداً ظاهرياً يحدسه توحداً كاملاً على نحو مخصوص. كان ك.، عندما كان يفكر أحياناً بهذه الأمور وحدها، لا يبتعد كثيراً عن أن يجد وضعه على ما يرام، مع أنه كان يقول لنفسه دائماً بعد مثل نوبات الارتياح هذه إنه بالذات في هذا إنما يكمن الخطر. إن التعامل المباشر مع السلطات لم يكن صعباً للغاية، حيث كان على السلطات، مهما كان يمكن أن تكون منظّمة أيضاً خير تنظيم، أن تدافع دائماً فقط باسم سادة بعيدين غير مرئيين عن أشياء بعيدة غير مرئية، في حين أن ك. كان يكافح من أجل شيء قريب حيوي إلى أقصى درجة، من أجل نفسه، وبالإضافة إلى ذلك على الأقل في أول الوقت بإرادته، إذ إنه كان هو المهاجِم، وليس وحده كان يكافح من أجل نفسه، بل على ما يبدو قوى أخرى أيضاً لم يكن يعرفها، لكنه استطاع أن يؤمن بوجودها نتيجة إجراءات السلطات. لكن من خلال أن السلطات منذ البداية قد تساهلت معه إلى أبعد حد في الأمور غير الجوهرية - بأكثر من ذلك لم يكن الموضوع قد تعلق حتى الآن - فقد حرمته إمكانية انتصارات صغيرة خفيفة، ومع هذه الإمكانية أيضاً الارتياح التابع لذلك، واليقين الناتج عنه والمعلل على نحو جيد بكفاحات أخرى أكبر. بدلاً من ذلك تركت ك. ينزلق في كل مكان يريده، لكن داخل القرية فقط، وبهذا دللته وأضعفته، وألغت هنا عموماً كل كفاح، ونقلته نظير ذلك إلى الحياة غير الرسمية المضطربة كلياً الكئيبة العجيبة. بهذه الطريقة أمكن أن يحدث ولا ريب، إذا لم يكن حذراً على الدوام، أنه ذات يوم، على الرغم

من كل تعطف جميل من قبل السلطات وعلى الرغم من كل تأدية كاملة لكل الواجبات الرسمية السهلة على نحو مبالغ فيه، مضللاً من خلال الحظوة الظاهرية المسداة له عاش حياته فيما عدا ذلك في غير ما حيطة، قد انهار هنا وترّتب على السلطة، التي ما زالت وديعة ودودة، في الوقت نفسه، ضد إرادتها لكن باسم أي نظام عام مجهول له، أن تأتي وتزيله من الطريق. وماذا كانت هنا في الحقيقة، تلك الحياة الأخرى؟ ولا في أي مكان آخر كان ك. قد شاهد الوظيفة والحياة متشابكتين هكذا مثلما هو الحال هنا، بحيث أنه يمكن أن يبدو أحياناً أن الوظيفة والحياة إنما تبادلتا مكانيهما. ماذا كانت تعني على سبيل المثال السلطة الشكلية وحسب حتى الآن التي كان كلمّ يمارسها على عمل ك.، مقارنة بالسلطة التي كان كلمّ يملكها في غرفة نوم ك. في حقيقة الأمر كلياً. هكذا حدث أن هنا نهجاً أهوج بعض الشيء، انفراجاً ما إزاء السلطات مباشرة فقط كان في محله، لكن في حين أن حذراً كبيراً دائماً كان ضرورياً، تجوال نظر إلى كل الجهات قبل كل خطوة.

فهمه للسلطات المحلية وجده ك. أولاً عند العمدة مصادقاً عليه جداً. العمدة، رجل لطيف بدين حليق الذقن، كان مريضاً كانت أصابته نوبة التهاب مفصلي واستقبل ك. وهو في الفراش. «ها هو إذاً السيد مسّاحنا»، قال وقد أراد أن يعتدل للتحية، غير أنه لم يوفق في ذلك وألقى نفسه، معتذراً ومشيراً إلى الساقين، في الوسادات ثانية. امرأة صامتة تكاد تكون غير واضحة في غسق الغرفة ذات النوافذ الصغيرة، التي ما زالت معتمة من الستائر، جلبت كرسياً ووضعته إلى جانب الفراش، «اجلس، اجلس أيها السيد مسّاح الأراضي»، قال العمدة، «وقل لي طلباتك.» تلا ك. رسالة كلمّ وأضاف بضع ملاحظات. مرة أخرى تملكه إحساس السهولة فوق العادية للتعامل مع السلطات. كانت تحمل بمعنى الكلمة كل عبء، كان في مقدور المرء أن يفرض عليها كل شيء ونفسه يظل لا يُمسّ وحرّاً. وكأن العمدة أيضاً يحس هذا على طريقته، استدار في الفراش غير مرتاح. أخيراً قال: «لقد عرفتُ المسألة كلها، أيها السيد مسّاح الأراضي، كما لاحظتَ. أنني بنفسي ما زلت لم أتخذ أي إجراء يكمن سببه أولاً في مرضي ومن ثم في أنك تأخرت بالمجيء، لقد ظننت أنك تخليت عن المسألة. لكن إذ إنك لطيف هكذا وتقوم أنت نفسك بزيارتي، يتعيّن عليّ طبعاً أن أقول لك الحقيقة الكاملة غير المريحة. لقد قُبلتَ كمسّاح أراض، كما تقول، لكن، يا للأسف، نحن لا نحتاج إلى مسّاح أراض. ما من أقل عمل خليق أن يكون له هنا. إن تخوم أراضينا محددة، كل شيء مسجل على نحو نظامي، تغيير ملكية لا يكاد يحدث، ونزاعات تخوم صغيرة نحلها بأنفسنا. ماذا يعني مسّاح أراض لنا إذاً؟» كان ك.، لكن دون أن يكون سابقاً قد فكر بذلك، مقتنعاً في أعماقه أنه كان يتوقع تبليغاً مشابهاً. لهذا السبب كان في مقدوره أن يقول على الفور: «هذا يفاجئني للغاية. هذا يقلب جميع حساباتي رأساً على عقب. لا أستطيع سوى أن آمل أن هنا ثمة سوء فهم.»

«للأسف لا»، قال العمدة، «إن الحال هو كما أقول.» «لكن كيف يكون هذا ممكناً»، صاح ك.، «إنني لم أقم بهذه السفرة اللانهائية، لكي أُعاد مرة أخرى.» «هذه مسألة أخرى»، قال العمدة، «لا يتعيّن عليّ أن أبتّ فيها، لكن كيف كان سوء الفهم ذاك ممكناً، أستطيع أن أشرحه لك حقاً. في دائرة كبيرة مثل الدائرة الغرافية يمكن أن يحدث ذات مرة أن يصدر قسم هذا الأمر وقسم ذاك، ولا أحد يعرف من الآخر، صحيح أن المراقبة العليا دقيقة كل الدقة، غير أنها تأتي طبقاً لطبيعتها متأخرة، وهكذا يمكن على كل حال أن ينشأ اضطراب طفيف. دائماً هي طبعاً صغائر متناهية الضآلة، مثل حالتك على سبيل المثال، في أمور كبيرة أجهل وقوع أي خطأ، غير أن الأمور الصغيرة غالباً ما تكون أيضاً محرجة بشكل كاف. في ما يتعلق بحالتك، أريد دون أن أعمل أسراراً رسمية ـ من أجل هذا لست موظفاً بما فيه الكفاية، أنا فلاح والأمر يظل هكذا ـ أن أروي لك مجرى الحدث بصراحة. قبل مدة طويلة، كنت آنذاك عمدة منذ بضعة أشهر وحسب، جاء أمر إداري، لا أدري بعد من أي قسم، يجري الإعلام فيه بالطريقة الغريبة القاطعة التي يتميّز بها السادة هناك، أنه سيجري استدعاء مسّاح أراض وجرى تكليف البلدية بأن تجهّز جميع الخطط والقيود الضرورية لأعماله. لا يمكن لهذا الأمر الإداري طبعاً أن يتعلق بك، حيث كان هذا قبل أعوام طويلة، وأنا ما كنت سأتذكر ذلك لو لم أكن الآن مريضاً وفي الفراش أملك وقتاً كافياً للتفكير في أكثر الأشياء سخافة.» «ميتزي»، قال، قاطعاً تقريره فجأة، للمرأة التي ما فتئت تمرق بسرعة خاطفة عبر الغرفة في شغل غير مفهوم، «رجاء انظري هناك في الخزانة، ربما تجدين الأمر الإداري.» «إذ إنه»، قال موضحاً لـ ك.، «من فترة عملي الأولى، كنت آنذاك ما زلت أحتفظ بكل شيء.» فتحت المرأة الخزانة في الحال. وتطلع ك. والعمدة. كانت الخزانة تعجّ بالأوراق، لدى الانفتاح تدحرجت رزمتان من الورق كانتا مربوطتين على نحو دائري هكذا مثلما اعتاد المرء أن يربط الحطب؛ قفزت المرأة مرعوبة إلى الجانب. «في الأسفل من المفروض أن يكون، في الأسفل»، قال العمدة موجهاً من الفراش. مطيعة ألقت المرأة، وقد ضمّت الملفات بكلتا يديها، كل شيء من الخزانة، كي تصل إلى الأوراق السفلى. وغطت الأوراق نصف الغرفة. «كان عمل كثير قد أُنجز»، قال العمدة وهو يومئ برأسه، «وهذا هو مجرد قسم صغير. الكمية الرئيسية حفظتها في مخزن الغلال ولكن القسم الأعظم كان قد ضاع. من يستطيع أن يحتفظ بكل هذا! لكن في مخزن الغلال ما زال هناك الكثير.»

«هل سيمكنك العثور على الأمر الإداري؟» توجه من ثم ثانية إلى زوجته، «عليك أن تبحثي عن ملف عليه كلمة 'مسّاح أراض' بخط أزرق تحتها.» «هنا ظلام شديد»، قالت المرأة، «سأحضر شمعة»، وخرجت من الغرفة سائرة فوق الأوراق. «زوجتي سند كبير لي»، قال العمدة، «في هذا العمل الرسمي الصعب والذي مع ذلك يجب إنجازه على نحو جانبيّ

وحسب، نعم من أجل الأعمال الكتابية لديّ معاون، المعلم، لكن مع ذلك إنه من غير الممكن إنجاز العمل، دائماً يبقى عمل كثير غير منجز، وهذا مجموع في تلك الخزانة» وأشار إلى خزانة أخرى. «وحتى عندما أكون الآن مريضاً، فإنه يزيد عن حدّه»، قال وهو يرقد متعباً لكنه كان فخوراً أيضاً. «أليس في مقدوري»، قال ك.، حين كانت المرأة قد عادت مع الشمعة وراحت تبحث عن الأمر الإداري راكعة أمام الخزانة، «أن أساعد زوجتك لدى البحث؟» مبتسماً هز العمدة رأسه: «كما قلت، ليس لديّ أسرار رسمية أمامك، لكن أن أتركك تبحث في الملفات بنفسك، فإنني لا أستطيع أن أذهب إلى هذا الحدّ.» وساد الهدوء الآن في الغرفة، ولم يسمع سوى حفيف الأوراق، بل إن العمدة قد يكون أغفى قليلاً. طرق خفيف على الباب دعا ك. أن يستدير. كانا المساعدين طبعاً. على كل حال كانا مهذبين بعض الشيء، فلم يندفعا إلى الغرفة اندفاعاً، بل همسا أولاً عبر الباب المفتوح قليلاً: «لقد زاد البرد علينا في الخارج.» «من هذا؟» سأل العمدة فزعاً. «إنهما مساعداي وحسب»، قال ك.، «لا أدري أين عليّ أن أدعهما ينتظرانني، في الخارج برد شديد وهنا يزعجان.» «إنهما لا يزعجانني»، قال العمدة بلطف، «دعهما يدخلان. للعلم، إنني أعرفهما. إنهما من معارفي القدامى.» «لكن بالنسبة لي هما مزعجان»، قال ك. بصراحة، وترك نظره يتجول من المساعدين إلى العمدة ومنه مرة أخرى إلى المساعدَين، ووجد أن كل الابتسامات الثلاث هي نفسها على نحو لا يمكن التمييز بينها. «لكن إذ إنكما هنا الآن»، قال على سبيل التجربة، «فابقيا وساعدا هناك السيدة زوجة العمدة في البحث عن ملف عليه كلمة مسّاح أراض بخط أزرق تحتها.» لم يقدم العمدة اعتراضاً؛ ما لا يجوز لـ ك.، يجوز للمساعدَين، كما أنهما انكبّا في الحال على الأوراق، غير أنهما راحا ينبشان في الكومة أكثر مما يبحثان، وحين كان أحدهما يقوم بتهجئة مخطوطة، يقوم الآخر دائماً بانتزاعها من يده. على عكس ذلك كانت المرأة تركع أمام الخزانة الفارغة، وبدا عليها أنها لم تعد تبحث، على كل حال كانت الشمعة بعيدة جداً عنها.

«المساعدان»، قال العمدة وهو يبتسم ابتسامة رضى عن نفسه، وكأن كل شيء إنما يعود إلى تعليماته، لكن ما من أحد قادر حتى على تخمين ذلك، «يزعجانك إذاً. لكنهما هما مساعداك الخاصان بك.» «لا»، قال ك. ببرود، «لم يجريا إليّ إلا هنا.» «كيف يجريان إذاً»، قال، «تقصد ولا ريب أنهما عيّنا لك.» «إذاً عيّنا لي»، قال ك.، «لكن في مقدورهما هكذا تماماً أن يكونا قد تساقطا تساقط الثلج، هكذا دون تفكير كان هذا التعيين.» «لاشيء هنا يحدث دون تفكير»، قال العمدة، بل إنه نسي ألم القدم وجلس معتدلاً. «لا شيء»، قال ك.، «وكيف هو الحال مع استدعائي؟» «استدعاؤك أيضاً كان قد أعمل النظر فيه جيداً»، قال العمدة، «فقط ظروف ثانوية تدخلت وأثارت إرباكاً، سوف أثبت لك ذلك بناء على الملفات.» «الملفات لن يعثر عليها قط»، قال ك. «لن يُعثر؟» نادى العمدة، «ميتزي، رجاء، ابحثي بسرعة أكبر بعض الشيء! غير أني أستطيع أولاً أن أروي لك القصة أيضاً بدون ملفات. ذلك الأمر الإداري

الذي تحدثتُ عنه أجبنا عنه شاكرين بأننا لا نحتاج إلى مسّاح أراض. لكن يبدو أن هذا الجواب لم يصل إلى القسم الأصلي، أريد أن أسمّيه آ، بل وصل بالخطأ إلى قسم آخر ب. القسم آ ظل إذاً دون جواب، لكن للأسف لم يحصل ب على جوابنا بالكامل؛ سواء ظل محتوى الملف لدينا، أو ضاع في الطريق ـ بالتأكيد ليس في القسم نفسه، أريد أن أضمن ذلك ـ على كل حال لم يصل أيضاً إلى القسم ب سوى غلاف الملف، الذي لم يكن مدوّناً عليه شيء آخر سوى أن الملف الذي بداخله لكن للأسف المفقود في الواقع إنما يتعلق باستدعاء مسّاح أراض. القسم آ كان في هذه الأثناء ينتظر جوابنا، كان لديه نعم ملاحظات حول المسألة، لكن كما يحدث هذا غالباً، وهذا أمر مفهوم، ويجوز أن يحدث على الرغم من الدقة في إنجاز كل الأعمال، فقد اعتمد رئيس القسم على أننا سنجيب وأنه سيقوم من ثم إما باستدعاء مسّاح الأراضي أو إذا دعت الحاجة يتراسل معنا حول الموضوع. من ثم أهمل الملاحظات والمجموع طواه لديه النسيان. لكن في القسم ب وصل غلاف الملف إلى رئيس قسم مشهور بسبب نزاهته، سورديني اسمه، وهو إيطالي، إنه حتى بالنسبة لي، واحد من المطلعين، أمر غير قابل للفهم كيف يُترك رجل يملك كفاءاته في العمل الأدنى مرتبة تقريباً. هذا السورديني أعاد لنا طبعاً غلاف الملفات الفارغ من أجل تكملته. لكن كانت الآن منذ ذلك الكتاب الأول من القسم آ قد مضت أشهر عديدة، إن لم يكن سنوات، من المفهوم، أنه حين، كما هي العادة، يقطع ملف ما الطريق الصحيح، فإنه يصل إلى قسمه خلال يوم واحد على الأكثر، ويتم إنجازه في اليوم نفسه، لكن حين يخطئ الطريق ذات مرة، ويتعيّن عليه لدى تميّز المنظمة أن يبحث عن الطريق الخاطئ بحماسة بكل معنى الكلمة، وإلا فإنه لا يجده، من ثم يستغرق الأمر طبعاً أمداً طويلاً. لذا حين تلقينا مذكرة سورديني، لم نتمكن أن نتذكر المسألة إلا على نحو غامض كلياً، كنا آنذاك اثنان وحسب من أجل العمل، ميتزي وأنا، لم يكن المعلم قد خصص لي آنذاك، ولم نكن نحتفظ بنسخ إلا في المسائل الأكثر أهمية ـ باختصار، لم نتمكن من الإجابة إلا على نحو غير واضح جداً، بأننا لا نعرف شيئاً عن مثل هذا الاستدعاء وأنه ما من حاجة لدينا إلى مسّاح أراض.»

«لكن»، قاطع العمدة نفسه هنا وكأنه في حماسة السرد قد ذهب بعيداً أو كأنه من الممكن على الأقل أن يكون قد ذهب بعيداً، «ألا تثير القصة الضجر في نفسك؟»

«كلا»، قال ك.، «إنها تسليني.»

أجاب العمدة: «لا أرويها لك من أجل التسلية.»

«تسليني وحسب من خلال»، قال ك.، «أنني أطّلع على اللخبطات المضحكة التي تتحكم في وجود إنسان.»

«إنك لم تطّلع بعد»، قال العمدة جادّاً، «وأستطيع أن أواصل الحديث لك. لم يرض رجل كسورديني طبعاً عن جوابنا. إنني أعجب بالرجل، مع أنه عذاب لي. إذ إنه يرتاب بكل شخص، حتى عندما تعرّف مثلاً شخصاً ما في مناسبات لا حصر لها بصفته الإنسان الأكثر جدارة بالثقة، فإنه يرتاب به في المناسبة التالية، كأنه لا يعرفه قط أو بالأصح كأنه يعرفه وغداً. أعتبر ذلك صحيحاً، على الموظف أن يتصرف هكذا، للأسف لا أستطيع طبقاً لطبيعتي أن أتبع هذا المبدأ، إنك لترى كيف أقدم لك، أنت الغريب، كل شيء بصراحة، إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر. أما سورديني فقد ارتاب على الفور بجوابنا. هنا نشأت مراسلات كبيرة. سورديني سأل، لماذا خطر على بالي فجأة أنه لا يحسن استدعاء مسّاح أراض، أجبت بمعونة ذاكرة ميتزي الفائقة أن الإشارة الأولى إنما قد صدرت من الدائرة ذاتها (طبعاً كنا قد نسينا منذ مدة طويلة أن المسألة كانت تتعلق بقسم آخر)، أما سورديني: لماذا أذكر هذه الرسالة الرسمية الآن وحسب، أنا ثانية: لأنني لم أتذكرها إلا الآن، سورديني: هذا يدعو للاستغراب جداً، أنا: هذا غير مستغرب بتاتاً في مسألة امتدت مدة طويلة هكذا، سورديني: إنه مستغرب بالتأكيد، إذ إن الرسالة التي تذكرتها، لا وجود لها، أنا: طبعاً لا وجود لها، وذلك لأن الملف بكامله قد فقد، سورديني: لكن لا بدّ من وجود ملاحظة حول تلك الرسالة الأولى، لكنها غير موجودة. هنا ترددت، إذ إنني لم أجرؤ على أن أدعي ولا أن أصدق أن خطأ قد وقع في قسم سورديني. ربما، أيها السيد مسّاح الأراضي، تنحي باللائمة في أفكارك على سورديني أنه كان على مراعاة ادعائي أن يدفعه على الأقل إلى أن يستعلم لدى الأقسام الأخرى عن الموضوع. هذا بالذات حريّ أن يكون غير صحيح، إنني لا أريد أن يعلق ولا حتى في أفكارك أية شائبة بهذا الرجل. إنه مبدأ عمل الدائرة أن لا يُحسب أساساً حساب إمكانيات وقوع خطأ. هذا المبدأ مسوّغ بفضل التنظيم الرائع للمجموع كله، وهو ضروري إذا كان المطلوب بلوغ أقصى سرعة في الإنجاز. لم يكن لسورديني إذاً أن يستعلم لدى الأقسام الأخرى، وللعلم لم يكن من شأن هذه الأقسام أن تجيبه، لأنها كانت خليقة أن تلاحظ على الفور أن الموضوع إنما يتعلق بتقصي إمكانية خطأ.»

«اسمح لي أيها السيد العمدة أن أقاطعك بسؤال»، قال ك.، «ألم تذكر سابقاً ذات مرة هيئة تفتيش؟ إن إدارة الشؤون هي حسب وصفك من قبيل أن نفس المرء تجوش لدى التصور أنه يمكن للتفتيش أن يغيب.»

«إنك صارم للغاية»، قال العمدة، «لكن ضاعف صرامتك ألف مرة ولن تكون مع ذلك شيئاً إذا قيست بالصرامة التي تطبّقها الهيئة ضد نفسها. فقط غريب كلياً يستطيع أن يطرح

سؤالك. فيما إذا كان يوجد هيئات تفتيش؟ لا يوجد سوى هيئات تفتيش. طبعاً، هي ليست معيّنة للاهتداء إلى أخطاء بالمعنى اللفظي الجافّ، إذ إنه لا تقع أخطاء، وحتى إذا وقع خطأ ذات مرة، مثلما هو الأمر في حالتك، من يجوز له إذاً أن يقول بصورة نهائية إنه خطأ؟»

«حريّ بهذا أن يكون أمراً جديداً كل الجدة.» صاح ك.

«بالنسبة لي هو أمر قديم جداً»، قال العمدة. «لست مقتنعاً على نحو مغاير كثيراً لاقتناعك بأن خطأً ما قد وقع وسورديني مرض مرضاً شديداً نتيجة الإحباط من ذلك وهيئات التفتيش الأولى، التي ندين لها بالكشف عن منبع الخطأ، تدرك هنا أيضاً الخطأ. لكن من له أن يدعي أن هيئات التفتيش الثانية ستحكم بالمثل وكذلك الثالثة، وعلاوة على ذلك الأخرى؟»

«ممكن»، قال ك.، «في مثل هذه الأفكار لا أريد التدخل بعد وهذا أفضل، كما أنني أسمع لأول مرة عن هيئات التفتيش هذه، وطبعاً لا أستطيع بعد أن أفهمها. لكنني أعتقد أنه يجب التمييز هنا مرتين، أولاً ما يحدث داخل الهيئات، ومن ثم ما يمكن فهمه مرة أخرى رسمياً على هذا النحو أو ذاك، وثانياً شخصي الحقيقي، أنا، الذي أقف خارج الهيئات والذي تهدده عرقلة من قبل الهيئات، هذه العرقلة التي من شأنها أن تكون غير معقولة لدرجة أنني ما زلت لا أستطيع أن أصدق جدية الخطر. للأول يصح على الأرجح ما ترويه، أيها السيد العمدة، بمعرفة استثنائية مثيرة للدهشة، لكنني أودّ كذلك من ثم أن أسمع كلمة عني.»

«سوف أصل إلى ذلك أيضاً»، قال العمدة، «لكنك لن تستطيع أن تفهمه إذا لم أقدّم له ببعض الأمور. حتى إن ذكري الآن لهيئات التفتيش كان سابقاً لأوانه. أعود إذاً إلى التباينات مع سورديني. كما ذكرت، مقاومتي وهنت شيئاً فشيئاً. لكن حين يملك سورديني في يديه أقل مزية ضآلة إزاء أي شخص، يكون قد انتصر، إذ هنا يزداد انتباهه، طاقته، حضور ذهنه، ويكون للمهاجِم منظراً مرعباً ولأعداء المهاجِم منظراً بديعاً. فقط لأنني في الحالات الأخرى عايشت أيضاً هذا الوضع الأخير، يمكنني أن أتحدث عنه هكذا كما أفعل. للعلم، ما زلت لم أوفق في مرة من المرات أن أراه رأي العين، لا يمكنه أن ينزل إلى هنا، إنه محمّل كثيراً بالعمل، غرفته وصفت لي هكذا بأن جميع الجدران مغطاة بأعمدة من رزم كبيرة من الملفات مكدس بعضها فوق بعضها، وهذه هي فقط الملفات التي يعمل فيها سورديني الآن، ولأن ملفات تؤخذ من الرزم أو تضاف إليها مراراً وتكراراً، وكل شيء يحدث بأكبر سرعة، فإن هذه الأعمدة تنهار مرة بعد الأخرى وبالذات هذه القرقعة المتلاحقة باستمرار على فترات قصيرة باتت خاصية غرفة عمل سورديني. حسناً، إن سورديني هو عامل ويولي أصغر حالة الاهتمام نفسه الذي يوليه لأكبر حالة.»

«تسمّي، أيها السيد العمدة»، قال ك.، «حالتي دائماً بأنها إحدى الحالات الصغرى ومع

ذلك شغلت كثيراً موظفين عديدين، وإذا كانت ربما في البداية أيضاً صغيرة جداً، هكذا تحولت عبر حماسة موظفين من نوع السيد سورديني إلى حالة كبيرة. مع الأسف وضد إرادتي كثيراً؛ إذ إن طموحي لا ينزع إلى أن تنشأ أعمدة ملفات كبرى تتعلق بي وتنهار محدثة قرقعة، بل إلى أن أعمل مسّاح أراض صغيراً في هدوء وأنا أجلس إلى طاولة رسم صغيرة.»

«لا»، قال العمدة، «إنها ليست حالة كبيرة، في هذا الخصوص لا داعي لديك للشكوى، إنها واحدة من أصغر الحالات بين الحالات الصغرى. إن حجم العمل لا يحدد رتبة الحالة، إنك ما زلت بعيداً جداً عن فهم الهيئة، إذا صدّقت ذلك. لكن حتى لو كان المهم هو حجم العمل، فإن حالتك خليقة أن تكون واحدة من الحالات الصغرى، الحالات العادية، أي تلك التي دون ما يسمى أخطاء، تكلف عملاً أكثر بكثير وطبعاً كذلك عملاً أكثر جدوى. للعلم، ما زلت لا تعرف مطلقاً عن العمل الحقيقي الذي سببته حالتك، عنه أريد أن أتحدث الآن فقط. في بادئ الأمر تركني سورديني من اللعبة، لكن موظفيه أتوا، يومياً جرت تحقيقات مع وجهاء من القرية دوّنت في محاضر في حانة السادة. معظمهم وقفوا إلى جانبي، بعضهم فقط توقفوا، مسألة مساحة الأراضي تهز قلب الفلاح، تنسّموا وجود أية اتفاقات سرية وإجحاف، وفوق ذلك وجدوا زعيماً وكان لا بدّ لسورديني من أن يكتسب من بياناتهم قناعة بأنه، لو كنت قدمت الموضوع في مجلس القرية، لما كان الجميع ضد استدعاء مسّاح أراض. هكذا عُمل من بديهية ـ ألا وهي أن مسّاح أراضٍ غير ضروري ـ على كل حال أمراً مشكوكاً فيه على الأقل. على نحو مخصوص تميّز في ذلك شخص يدعى برونسفيك، إنك لا تعرفه ولا ريب، ربما لم يكن سيئاً، لكنه غبي وخيالي، إنه نسيب لازيمان.»

«نسيب معلم الدباغة؟»، سأل ك.، ووصف ذا اللحية الذي كان قد رآه لدى لازيمان.

«نعم هذا هو»، قال العمدة.

«أعرف زوجته كذلك»، قال ك. على غير هدى بعض الشيء.

«هذا ممكن»، قال العمدة وصمت.

«إنها جميلة»، قال ك.، «غير أنها شاحبة قليلاً ومتوعكة. إنها لتنحدر من القلعة؟» قيل ذلك نصف تساؤل.

تطلع العمدة إلى الساعة، صبّ دواء في ملعقة وتجرعه في عجلة.

«لا تعرف في القلعة سوى تجهيزات المكاتب؟» سأل ك. بخشونة.

«نعم»، قال العمدة بابتسامة ساخرة ومع ذلك شاكرة، «هي أيضاً الأكثر أهمية. وفي ما يخص برونسفيك: لو كان في مقدورنا أن نخرجه من الجماعة، كنا جميعنا تقريباً سنكون

سعيدين ولازيمان ليس الأقل سعادة. لكن آنذاك كسب برونسفيك بعض النفوذ، حقيقة أنه ليس خطيباً، غير أنه صاحب جعجعة وهذا يكفي بعضهم. وهكذا حدث أنني أُرغمت على عرض الموضوع على مجلس القرية. للعلم، في بداية الأمر النجاح الوحيد لبرونسفيك، إذ من الطبيعي أن مجلس القرية بأغلبية كبرى لم يكن يريد أن يعرف شيئاً عن مسّاح أراض. هذا أيضاً أمر مضى عليه سنوات طويلة، لكن طوال الوقت كله لم تهدأ المسألة، من طرف بسبب دقة سورديني، الذي حاول أن يستقصي دوافع كل من الأغلبية والمعارضة بواسطة أكثر الاستطلاعات دقة، ومن طرف بسبب غباء برونسفيك وطموحه، الذي كان له اتصالات شخصية مختلفة مع الهيئات الرسمية، والتي كان يحركها بابتكارات جديدة دائماً من مخيلته. والحق يقال إن سورديني لم يدع برونسفيك يخدعه ـ كيف يمكن لبرونسفيك أن يخدع سورديني؟ ـ لكن بالذات لكي لا ينخدع كان إجراء استطلاعات جديدة ضرورياً وحتى قبل أن تنتهي، كان برونسفيك قد ابتكر شيئاً جديداً مرة أخرى، إنه لخفيف الحركة للغاية، وهذا يخص غباءه. والآن أصل إلى صفة خاصة لجهازنا الرسمي وأتحدث عنها. عندما تفحص مسألة ما مدة طويلة جداً، يمكن أن يحدث، وحتى دون أن تنتهي الفحوصات، أن يظهر فجأة في لمح البصر في موضع ليس في الحسبان، وكذلك لا يمكن العثور عليه لاحقاً إنجاز يُنهي المسألة، ولو كان أيضاً في معظم الحالات على نحو صحيح، لكن عشوائياً مع ذلك. إن الحال هو كأن الجهاز الرسمي لم يعد يحتمل التوتر، الاستفزاز طوال سنوات الذي تثيره المسألة نفسها التي قد تكون ضئيلة الشأن في حد ذاتها وقام باتخاذ القرار انطلاقاً من ذاته ودون معونة الموظفين. طبعاً لم تحدث أعجوبة وبالتأكيد كتب موظف ما أن الموضوع قد أنجز أو أنه اتخذ قراراً غير مكتوب. لكن على كل حال لا يمكن على الأقل من قبلنا، من هنا، ولا حتى من الدائرة نفسها الكشف عن أي موظف قرر في هذه الحالة ولأية أسباب. فقط هيئات التفتيش تكشف عن ذلك في وقت لاحق متأخر جداً، أما نحن فإننا لا نعود نعلم الأمر، كما أنه لا يعود من ثم يكاد يهم أحداً. الآن كما قلت هذه القرارات بالذات تكون ممتازة في معظمها، لا يزعج فيها سوى أن المرء، كما عادة تجلب المسألة معها، يعلم عن هذه القرارات في وقت متأخر للغاية، ولذا يكون في هذه الأثناء ما زال يتشاور حول مسألة حسم أمرها قبل مدة طويلة. إنني لا أدري فيما إذا كان مثل هذا القرار قد صدر حول حالتك ـ بعض الأمور يدل على الإيجاب، وبعضها على النفي ـ لكن لو كان قد حدث، لكان الاستدعاء قد أرسل لك وقمت بالسفرة الطويلة إلى هنا، كان زمن طويل قد مضى على ذلك وفي هذه الأثناء كان من شأن سورديني هنا أن يكون قد عمل في المسألة نفسها حتى درجة الإعياء، وكان برونسفيك قد تواطأ وأنا كنت قد ذقت العذاب من قبل الاثنين. هذه الإمكانية ألمح إليها مجرد تلميح، لكن بشكل مؤكد أعرف ما يلي: هيئة تفتيش اكتشفت في هذه الأثناء أن استفساراً صدر من القسم آ قبل أعوام كثيرة إلى البلدية بخصوص مسّاح أراض، دون أن يأتي

جواب. مؤخراً استوضحوا لديّ وطبعاً توضحت المسألة برمتها، القسم آ اكتفى بجوابي بأنه لا ضرورة لمسّاح أراض وكان على سورديني أن يدرك أنه لم يكن مسؤولاً في هذه الحالة وأنه، طبعاً بلا ذنب، كان قد أنجز عملاً كثيراً هكذا غير مجد ومدمّراً للأعصاب. لو لم يتزاحم عمل جديد من كل الجوانب كما هو الحال دائماً، ولو لم تكن حالتك طبعاً حالة صغيرة جداً ـ يمكن القول تقريباً أصغر حالة بين الحالات الصغيرة ـ هكذا كنا خليقين جميعنا أن نتنفس الصعداء، أظن حتى سورديني نفسه، فقط برونسفيك سخط، لكن هذا السخط كان سخيفاً وحسب. والآن تصور أيها السيد مسّاح الأراضي خيبة أملي، إذ بعد انتهاء المسألة كلها نهاية سعيدة ـ وكذلك منذ ذلك الحين مضى وقت طويل مرة أخرى ـ فجأة تظهر أنت ويبدو على المسألة كأنه حريّ بها أن تبدأ من جديد. كوني أقف موقفاً حازماً أن لا أسمح بهذا بأي حال من الأحوال، بقدر ما يرجع الأمر لي، فهو أمر لا بدّ أنك ستفهمه؟»

«يقيناً»، قال ك.، «بيد أنني أفهم شيئاً آخر على نحو أفضل هو أنه ثمة هنا انتهاك مرعب لي وربما حتى للقوانين. وأنا من أجل شخصي سوف أعرف كيف أقاوم ذلك.

«كيف تريد أن تفعل ذلك؟» سأل العمدة.

«هذا ما لا يمكن أن أبوح به»، قال ك.

«لا أريد أن أتطفل»، قال العمدة، «لكنني أعطيك هذا للتأمل، أنك تجد فيّ ـ لا أريد أن أقول صديقاً، إذ إننا غريبان كلياً ـ، لكن إلى حد ما صديق عمل. غير أني لن أسمح أن يجري قبولك مسّاح أراض، ما عدا ذلك يمكنك دائماً أن تتوجه إليّ بثقة، طبعاً في حدود سلطتي التي ليست كبيرة.»

«إنك تتحدث دائماً»، قال ك.، «عن أنه يجب أن أُقبل مسّاح أراضٍ، لكنني قد قُبلت، هذه هي رسالة كلمّ.»

«رسالة كلمّ»، قال العمدة، «قيّمة وجديرة بالاحترام من خلال توقيع كلمّ، الذي يبدو أنه حقيقي، أما في ما عدا ذلك ـ بيد أني لا أجرؤ أن أتحدث وحدي عن الأمر. ميتزي!» نادى وثم: «لكن ماذا تفعلون إذاً؟»

المساعدان الآمنان من العيون مدة طويلة وميتزي لم يعثروا على ما يبدو على الملف، وقد أرادوا من ثم أن يعيدوا كل شيء إلى الخزانة ويغلقوها، غير أنهم لم يوفقوا في ذلك بسبب اكتظاظ الملفات غير المنظّم. وهنا خطر للمساعدين فكرة يعكفان الآن على تنفيذها. كانا قد وضعا الخزانة على الأرض وحشرا كل الملفات في داخلها، وجلسا من ثم مع ميتزي على باب الخزانة وراحوا الآن يحاولون الضغط عليه.

«لم يعثر على الملف إذاً»، قال العمدة، «خسارة، لكنك تعرف القصة، في الحقيقة إننا لا

نحتاج الملف بعد الآن، للعلم، سوف يُعثر عليه بالتأكيد، إنه على الأرجح لدى المعلم، الذي ما زال لديه ملفات كثيرة. لكن تعالي الآن مع الشمعة، ميتزي، واقرئي لي هذه الرسالة.»

جاءت ميتزي وبدت أكثر وداعة وبساطة مما كانت عليه حين كانت تجلس على حافة السرير وتلتصق بالرجل القوي المفعم بالحياة الذي كان يطوقها. فقط وجهها الصغير لفت النظر الآن في ضوء الشمعة، بخطوط واضحة صارمة، يخففها وهن الشيخوخة وحسب. ما إن تطلعت إلى الرسالة، حتى شبكت يديها شبكاً خفيفاً وهي تقول: «من كلمّ». من ثم قرأا الرسالة معاً، تهامسا بعض الشيء وأخيراً، في حين هلل المساعدان الآن، إذ إنهما كانا قد ضغطا باب الخزانة أخيراً وميتزي راحت تنظر إليهما بهدوء شاكرة، قال العمدة:

«ميتزي تشاركني الرأي كلياً، والآن في مقدوري أن أجرؤ على النطق به. هذه الرسالة ليست رسالة رسمية إطلاقاً، بل هي رسالة شخصية. يتجلى ذلك بوضوح في المخاطبة 'السيد المحترم'!. فوق ذلك لم يقل فيها بكلمة واحدة إنك قُبلت مسّاح أراض، إن الحديث هو بالأحرى عن خدمات السادة بصورة عامة وهذا أيضاً لم يُقل على نحو ملزم، بل إنك قُبلت وحسب كما 'تعلم'، هذا يعني أن عبء الإثبات أنك قد قُبلت إنما يقع على عاتقك. أخيراً تجري إحالتك من ناحية رسمية إليّ وحدي، أنا العمدة، بصفتي رئيسك المباشر، والذي عليه أن يعلمك كل التفاصيل، الأمر الذي قد حصل في معظمه. بالنسبة لشخص يفهم كيف يقرأ رسائل رسمية، ومن ثم يقرأ على نحو أفضل رسائل غير رسمية، فإن كل هذا واضح كل الوضوح؛ أنك، أنت الغريب، لا تدرك هذا أمر لا يدهشني. في المجموع لا تعني الرسالة شيئاً آخر سوى أن كلمّ شخصياً ينوي أن يهتم بك في حالة قبولك في خدمة السادة.»

«إنك تفسر، أيها السيد العمدة»، قال ك.، «الرسالة على نحو لا يبقى معه في المحصلة شيء آخر سوى التوقيع على ورقة فارغة. ألا تلاحظ كيف أنك بهذا إنما تحط من قدر اسم كلمّ، الذي تزعم أنك تحترمه.»

«هذا سوء فهم»، قال العمدة، «أنا لا أخطئ في تقدير أهمية الرسالة، ولا أحطّ من قدرها من خلال تفسيري لها، على العكس؛ رسالة شخصية من كلمّ هي طبعاً ذات أهمية تفوق كثيراً أهمية رسالة رسمية، لكن ليس لها الأهمية التي تنسبها أنت لها.»

«هل تعرف شفارتسر؟» سأل ك.

«كلا»، قال العمدة، «ربما أنت ميتزي؟ أيضاً لا. كلا، إننا لا نعرفه.»

«هذا مستغرب»، قال ك.، «إنه ابن واحد من أمناء القلعة الثانويين.»

«أيها السيد مسّاح الأراضي»، قال العمدة، «أنّى لي إذاً أن أعرف كل أبناء كل أمناء القلعة الثانويين؟»

«حسناً»، قال ك.، «إذاً عليك أن تصدقني أنه هو. مع هذا الشفارتسر كان لي مشهد مزعج منذ اليوم الأول لوصولي. لقد استعلم من ثم هاتفياً لدى أمين ثانوي يدعى فريتز وحصل على المعلومة بأن مسّاح الأراضي قد قُبل. كيف تفسر هذا، أيها السيد العمدة؟»

«بكل بساطة»، قال العمدة، «لم يكن لديك في أي مرة من المرات أي اتصال فعلاً مع هيئاتنا. كل هذه الاتصالات ظاهرية وحسب، لكنك نتيجة جهلك الظروف تعتبر هذه الاتصالات حقيقية. وما يخص الهاتف: انظر، عندي، أنا الذي له حقاً عمل كاف مع الهيئات، لا يوجد هاتف. في الحانات وما شابه يمكن أن يؤدي خدمات طيبة، هكذا مثل جهاز آلي للموسيقى، وهو ليس أكثر من ذلك. هل خابرت هنا ذات مرة، نعم؟ إذاً سوف تفهمني ربما. في القلعة يعمل الهاتف على ما يبدو على نحو ممتاز؛ كما قيل لي تجرى هناك مخابرات هاتفية بلا انقطاع، الأمر الذي يسرّع الأعمال طبعاً. هذه المخابرات بلا انقطاع نسمعها في الهواتف المحلية هسيساً وغناء، وأنت أيضاً سمعت هذا بالتأكيد. لكن هذا الهسيس وهذا الغناء هو الصحيح الوحيد والجدير بالثقة، الذي تنقله لنا الهواتف المحلية، وكل ما عدا ذلك هو خادع. لا يوجد اتصال هاتفي محدد مع القلعة، ولا سنترال يحوّل مخابراتنا؛ عندما يخابر المرء من هنا أحداً في القلعة، يرنّ الهاتف هناك لدى جميع الهواتف في كل الأقسام ذات المرتبة الأدنى أو بالأحرى من شأنه أن يرنّ لديها جميعها لو لم يكن، كما أعرف بالتأكيد، هذا الجرس قد أوقف لدى معظمها تقريباً. لكن بين الفينة والأخرى يستشعر موظف ما منهك حاجة إلى التسرية عن نفسه بعض الشيء - لا سيما عند المساء أو ليلاً - ويشغّل الجرس، من ثم نتلقى جواباً، إلا أنه جواب ليس شيئاً آخر سوى دعابة. وهذا هو أيضاً أمر مفهوم للغاية. من يجوز له إذاً أن يرفع طلباً، بسبب مشاغله الصغيرة الخاصة في وسط الأعمال الهامة والتي تجري دائماً بسرعة جنونية، بأن يزعج ويدق الجرس. كما أني لا أفهم كيف يستطيع حتى غريب أن يظن أنه حين يخابر سورديني مثلاً، أنه كذلك فعلاً سورديني هو الذي يردّ عليه. بالأحرى يكون على الأرجح مسجل صغير في قسم آخر كلياً. إلا أنه على العكس من ذلك يمكن أن يحدث في ساعة منتقاة أنه حين يخابر المرء المسجل الصغير أن يعطي سورديني نفسه الجواب. فيكون طبعاً من الأفضل أن يولّي المرء مسرعاً ويبتعد عن الهاتف قبل أن تُسمع الرنة الأولى.»

«هكذا لم أنظر إلى الأمر والحق يقال»، قال ك.، «لم يكن في مقدوري أن أعرف هذه التفاصيل، لكنني لم أكن أثق ثقة كبيرة بهذه المحادثات الهاتفية، وكنت واعياً دائماً أنه لا يملك أهمية فعلية سوى ما يخبره المرء في القلعة أو يبلغه.»

«لا»، قال العمدة مستمسكاً بكلمة واحدة، «هذه الأجوبة الهاتفية تأخذ أهمية فعلية ولا ريب، كيف لا؟ كيف يمكن لاستعلام يعطيه موظف من القلعة أن يكون غير ذي أهمية؟ أقول ذلك بمناسبة رسالة كلمّ. كل هذه الأقوال لا تملك أهمية رسمية؛ إذا نسبت لها أهمية رسمية، تحيد عن الصواب، على العكس من ذلك فإن أهميتها الشخصية بمعنى وديّ أو عدائي كبيرة جداً، في الغالب أكبر مما يمكن لأهمية رسمية أن تكونه في أي وقت كان.»

«حسناً»، قال ك.، «لنفرض أن كل شيء يجري هكذا، فيكون لي إذاً عدد من الأصدقاء الجيدين في القلعة؛ إذا نظرنا عن كثب كانت آنذاك قبل أعوام طويلة خاطرة ذلك القسم بأنه يمكن ذات مرة استدعاء مسّاح أراض عملاً وديّاً إزائي، وفي ما بعد تتابعت الخواطر واحدة بعد الأخرى إلى أن أغريت بالحضور إلى هنا للنهاية السيئة والحق يقال وليهددني المرء بالطرد.»

«ثمة حقيقة ما في مفهومك»، قال العمدة، «إنك على صواب بأنه لا يجوز للمرء أن يقبل أقوال القلعة حرفياً. لكن توخّي الحذر هو أمر ضروري في كل مكان، وليس هنا وحسب، ويصبح أكثر ضرورة كلما كان القول صاحب العلاقة أكثر أهمية. لكن ما تقوله من ثم عن إغرائك بالمجيء إلى هنا هو أمر غير قابل للفهم بالنسبة لي. لو كنت قد تابعت إيضاحاتي على نحو أفضل، كان لا بدّ لك من أن تعلم أن مسألة استدعائك إلى هنا مسألة شائكة كثيراً أكثر من أن يكون في مقدورنا أن نجيب عنها هنا في مجرى محادثة صغيرة.»

«هكذا يبقى من ثم كنتيجة»، قال ك.، «أن كل شيء غامض جداً وغير قابل للحل ما عدا الطرد.»

«من سيجرؤ على طردك، أيها السيد مسّاح الأراضي؟»، قال العمدة، «بالذات عدم وضوح الأسئلة الأولية يضمن لك أكثر معاملة تهذيباً، غير أنك ظاهراً حسّاس أكثر من اللازم. ما من أحد يستبقيك هنا، لكن هذا ليس طرداً.»

«أوه أيها السيد العمدة»، قال ك.، «الآن أنت مرة أخرى ذلك الذي يرى بعض الأمور على نحو واضح مبالغ في وضوحه. سوف أعدد لك بعض الأمور مما يقيني هنا: التضحية التي تحملتها كي أغادر داري، السفرة الطويلة الشاقة، الآمال المبررة التي عللت بها نفسي حول القبول هنا، افتقاري الكامل للمال، استحالة أن أجد الآن مرة أخرى عملاً مناسباً في بلدتي وأخيراً ليس في آخر موضع خطيبتي، التي هي من هنا.»

«آه فريدا!» قال العمدة دون أن يفاجأ أية مفاجأة. «أدري. لكن فريدا خليقة أن تتبعك إلى كل مكان. ما يخص طبعاً البقية، والحق يقال، هناك بعض التأملات ضرورية وسوف أبلّغ ذلك في القلعة. إذا جاء قرار أو إذا كان استجوابك مرة أخرى قبل ذلك ضرورياً، فسوف أستدعيك. أنت موافق على ذلك؟»

«لا، أبداً»، قال ك.، «لا أريد هبات من القلعة، بل أريد حقي.»

«ميتزي»، قال العمدة لزوجته، التي كانت ما فتئت جالسة ملتصقة به غارقة في أحلامها وهي تعبث برسالة كلمّ، التي كانت قد شكلت منها قارباً صغيراً، مذعوراً انتزعه منها ك. الآن، «ميتزي، شرعت ساقي تؤلمني مرة أخرى ألماً شديداً، سوف يتعيّن علينا أن نجدد الضمادة.»

نهض ك.، «فأستأذن إذاً بالانصراف»، قال. «نعم»، قالت ميتزي، التي كانت قد هيأت مرهماً، «كما أن تيار الهواء شديد.» التفت ك.، كان المساعدان في حماستهما الرسمية غير المناسبة دائماً، استجابة في الحال على ملاحظة ك. قد فتحا مصراعي الباب كليهما. ك. استطاع، كي يقي غرفة المريض من البرودة المتسللة بشدة، أن ينحني أمام العمدة انحناءة خفيفة ليس إلا. ثم جرى، ساحباً المساعدين معه، من الغرفة وأغلق الباب على عجل.

٦

حديث ثان مع صاحبة النزل

أمام النزل استقبله صاحب النزل المنتظر. دون أن يُسأل، كان خليقاً أن لا يجرؤ على الحديث، لذا سأله ك. عما يريده. «هل لديك مسكن جديد؟» سأل صاحبُ النزل وهو ينظر إلى الأرض. «إنك تسأل بتكليف من زوجتك»، قال ك.، «من المؤكد أنك تخضع لها كل الخضوع؟» «لا»، قال صاحب النزل، «لا أسأل بتكليف منها. لكنها منفعلة كل الانفعال وغير سعيدة بسببك، لا تستطيع أن تعمل، ترقد في الفراش وتتنهد وتشكو باستمرار.» «هل أذهب إليها؟» سأل ك. «أرجوك أن تفعل»، قال صاحب النزل، «كنت أريد أن أحضرك من عند العمدة، تنصّتُ هناك على الباب، لكنكما كنتما في الحديث، فلم أشأ أن أزعج، كما إنني كنت قلقاً بسبب زوجتي، فجريت عائداً، لكنها لم تدعني أدخل إليها، فلم يبق لي شيء آخر سوى أن أنتظرك.» «تعال إذاً بسرعة»، قال ك.، «سوف أهدئ من روعها قريباً.» «ليت ذلك يتسنّى لك»، قال صاحب النزل.

سارا عبر المطبخ النيّر، حيث كانت ثلاث خادمات أو أربع، كل منهن بعيدة عن الأخريات، في أعمالهن تجمدن بكل معنى الكلمة لدى رؤية ك. منذ المطبخ كان تنهد صاحبة النزل مسموعاً. كانت ترقد في تحويطة خشبية بلا نافذة مفصولة عن المطبخ بجدار خشبي خفيف. لم تكن التحويطة الخشبية تتسع إلا لسرير زوجي كبير وخزانة. كان السرير منصوباً بحيث يمكن انطلاقاً منه أن يشمل المرء كامل المطبخ بنظرته ويراقب العمل. على العكس من ذلك كان انطلاقاً من المطبخ لا يكاد أن يُرى شيء في التحويطة الخشبية، كانت معتمة كلياً، فقط مفرش السرير الأبيض والأحمر كان يلمع بعض الشيء. كان المرء يميز تفاصيل فقط عندما كان يدخل وتعتاد عيناه.

«ها أنت تأتي أخيراً»، قالت صاحبة النزل بصوت ضعيف. كانت ممددة على ظهرها، وكانت تتنفس بصعوبة على ما يبدو، كانت قد قذفت لحاف الريش. كانت في الفراش تبدو

أصغر سناً منها في الملابس، لكن قلنسوة ليلية من الدانتيلا الرقيقة كانت ترتديها، مع أنها كانت صغيرة وتتمايل فوق تسريحة الشعر، أظهرت أن تداعي الوجه كان مدعاة للرثاء. «كيف كان في مقدوري أن آتي؟» قال ك. بلطف، «إنك لم تستدعني.» «كان عليكَ أن لا تدعني أنتظر طويلاً»، قالت صاحبة النزل بتعنّت المريض. «اجلس»، قالت وهي تشير إلى حافة السرير، «لكن أنتم تنصرفون.» بالإضافة إلى المساعدَين كانت الخادمات أيضاً قد زججن بأنفسهن في هذه الأثناء. «هل عليّ أنا أيضاً أن أنصرف، غاردينا؟» قال صاحب النزل، وسمع ك. اسم المرأة لأول مرة. «طبعاً»، قالت بتؤدة، وكأنها مشغولة بأفكار أخرى، أضافت في شرود: «لماذا عليك إذاً أنت بالذات أن تبقى؟» لكن إذ كان الجميع قد انسحبوا إلى المطبخ، كذلك المساعدان تبعا هذه المرة في الحال، إلا أنهما كانا يلاحقان خادمة، كانت غاردينا متيقظة بما يكفي كي تدرك أنه كان في مقدور المرء أن يسمع من المطبخ كل ما قيل هنا، إذ لم يكن للتحويطة الخشبية أبواب، وهكذا أمرت الجميع بمغادرة المطبخ. الأمر الذي تمّ على الفور.

«رجاء»، قالت من ثم غاردينا، «أيها السيد مسّاح الأراضي، في مقدمة الخزانة مباشرة ثمة ملاءة معلقة، ناولني إياها، أريد أن أغطي نفسي بها، إنني لا أطيق لحاف الريش، أتنفس بصعوبة.» وإذ أحضر ك. لها الملاءة، قالت: «هل ترى، هذه ملاءة جميلة، أليس ذلك؟» بدت لـ ك. ملاءة عادية من الصوف، تلمّسها مرة أخرى مجاملة وحسب، إلا أنه لم يقل شيئاً. «نعم، إنها جميلة»، قالت غاردينا وهي تلفّ نفسها بها. كانت الآن ترقد في دعة وسلام، وبدت كل مكابدة قد نزعت عنها، نعم حتى شعرها الذي تشعث في الرقاد خطر ببالها، جلست هنيهة بعد استلقاء وحسّنت تسريحة شعرها بعض الشيء حول القلنسوة. كان لديها شعر غزير.

نفد صبر ك. فقال: «دعيتيني أسأل، أيتها السيدة، في ما إذا كان لديّ مسكن آخر.» «دعوتك تُسأل؟» قالت صاحبة النزل، «لا، هذا خطأ.» «زوجك سألني الآن عن ذلك.» «أعتقد ذلك»، قالت صاحبة النزل، «إنه عقوبة لي. إذ لم أردك هنا، أبقاك هو هنا، الآن إذ إنني سعيدة بأنك تسكن هنا، يعمد إلى طردك. هكذا يفعل دائماً.» «لقد غيّرتِ إذاً»، قال ك.، «رأيك فيّ تغييراً كبيراً؟ في ساعة، ساعتين؟» «لم أغيّر رأيي»، قالت صاحبة النزل بصوت أكثر ضعفاً. «ناولني يدك. هكذا. والآن عدني أن تكون صادقاً كل الصدق، أنا أيضاً أريد أن أكون صادقة إزاءك.» «حسناً»، قال ك.، «لكن من سيبدأ؟» «أنا»، قالت صاحبة النزل، لم يثر الانطباع بأنها تريد أن تنزل عند رغبة ك.، بل كأنها تتوق أن تكون أول من يتحدث.

سحبت صورة من تحت الوسادة وناولتها لـ ك. «انظر إلى هذه الصورة»، قالت برجاء. لكي يراها على نحو أفضل خطا ك. خطوة إلى المطبخ، لكن هناك أيضاً لم يكن من السهل تعرّف شيء في الصورة، إذ إن هذه كانت من القدِم باهتة اللون، متكسرة مرات عديدة، مجعّدة

وملطخة. «إنها ليست في حالة جيدة جداً»، قال ك. «يا للأسف، يا للأسف»، قالت صاحبة النزل، «تصبح هكذا عندما يحملها المرء لديه دائماً عبر السنوات. لكن عندما تدقق النظر إليها، سوف تتعرف كل شيء، بكل تأكيد. للعلم، أستطيع مساعدتك، قل لي، ماذا ترى، يسرني كل السرور أن أسمع عن الصورة. ماذا إذاً؟» «أرى شاباً»، قال ك. «صحيح»، قالت صاحبة النزل، «وماذا يفعل؟» «أظن أنه يرقد على لوح، يتمطى ويتثاءب.» ضحكت صاحبة النزل. «هذا خطأ كلياً»، قالت. «لكن هنا اللوح وهنا يرقد»، أصرّ ك. على وجهة نظره. «دقق النظر أكثر»، قالت صاحبة النزل بانزعاج، «هل يرقد إذاً فعلاً؟» «لا»، قال ك. الآن، «إنه لا يرقد، إنه يحوم والآن أرى الأمر، إنه ليس لوحاً، بل على الأرجح خيط والشاب يقوم بقفزة عالية.» «إذاً»، قالت صاحبة النزل مغتبطة، «إنه يقفز، هكذا يتمرن السعاة الرسميون، كنت أعرف أنك ستتبيّن ما في الصورة. هل ترى وجهه أيضاً؟» «من الوجه لا أرى سوى القليل جداً»، قال ك.، «إنه يبذل جهداً كبيراً على ما يبدو، الفم مفتوح، العينان ضيقتان والشعر يتطاير.» «حسن جداً»، قالت صاحبة النزل مستحسنة، «لا يمكن لأحد لم يره شخصياً أن يتبيّن أكثر من ذلك. لكنه كان فتى جميلاً، لم أره سوى مرة واحدة على نحو عابر ولن أنساه أبداً.» «من كان هو إذاً؟» سأل ك. «كان»، قالت صاحبة النزل، «الساعي الذي بواسطته استدعاني كلمّ إليه لأول مرة.»

لم يتمكن ك. من الاستماع بدقة، فقد شغله صوت قرع على زجاج. في الحال وجد سبب التشويش. كان المساعدان يقفان في الخارج في الفناء، وهما ينطنطان في الثلج من قدم إلى أخرى. تظاهرا كأنهما سعيدان لرؤية ك. مرة أخرى، لسعادتهما كان كل منهما يريه للآخر وهما يدقان على نافذة المطبخ على نحو متواصل. نتيجة حركة تهديد من ك. أقلعا في الحال عن ذلك، كل منهما حاول أن يردّ الآخر إلى الوراء، لكن كل منهما كان يتملص فوراً من الآخر وفي الحال كانا لدى النافذة مرة أخرى. هرع ك. إلى التحويطة الخشبية حيث لا يتمكن المساعدان من رؤيته من الخارج ولا يضطر إلى أن يراهما. بيد أن طقطقة الزجاج الخفيفة كما المتوسلة لاحقته إلى هناك أيضاً مدة طويلة.

«مرة أخرى المساعدان»، قالت صاحبة النزل ملتمسة العذر له وهي تشير إلى الخارج. لكنها لم تنتبه إليه، كانت قد أخذت الصورة منه، نظرت إليها، ملّستها ودسّتها مرة أخرى تحت الوسادة. كانت حركاتها قد باتت أكثر بطئاً، لكن ليس تعباً بل تحت عبء الذكريات. كانت تريد أن تروي لـ ك. لكنها نسته أثناء القصة. راحت تلعب بأهداب ملاءتها. بعد مدة وجيزة وحسب تطلعت، مسحت عينيها بيدها وقالت: «هذه الملاءة أيضاً هي من كلمّ. والقلنسوة كذلك. الصورة، الملاءة والقلنسوة، هذه هي التذكارات الثلاثة التي أفكر به من خلالها. إنني لست فتيّة مثل فريدا، لست طموحة مثلها، كذلك لست رقيقة المشاعر، هي رقيقة المشاعر

للغاية، باختصار أعرف كيف أسير في الحياة، بيد أنه يتعيّن عليّ أن أعترف بهذا: لولا هذه الأشياء الثلاثة لما تحملت الوضع هنا مدة طويلة هكذا، نعم لما كنت على الأرجح تحملت هنا يوماً واحداً. هذه التذكارات الثلاثة قد تبدو لك قليلة، لكن انظر، فريدا، التي تعاملت مع كلمّ مدة طويلة، لا تملك أي تذكار، لقد سألتها، إنها تهيم أكثر من اللازم كما أنها غير قنوعة، أما أنا، التي لم تكن لدى كلمّ سوى ثلاث مرات ـ بعد ذلك لم يدعني إليه، لا أعرف لماذا ـ فقد أحضرت معي هذه التذكارات كما في هاجس بقِصر وقتي. طبعاً، على المرء نفسه أن يهتم بالأمر، كلمّ نفسه لا يعطي شيئاً، لكن عندما يرى المرء هناك شيئاً مناسباً ملقى، يمكن أن يطلبه.»

شعر ك. بعدم ارتياح إزاء هذه القصص، مهما كانت تتعلق به أيضاً. «متى كان هذا كله»، سأل وهو يتنهد.

«قبل أكثر من عشرين عاماً»، قالت صاحبة النزل، «أكثر من عشرين عاماً بكثير.»

«طوال هذه المدة يظل المرء على وفائه لكلمّ»، قال ك. «لكن أيتها السيدة صاحبة النزل أنت على وعي أيضاً بأنك بمثل هذه الاعترافات إنما تثيرين مخاوفي بشدة عندما أفكر بزواجي المقبل؟»

وجدت صاحبة النزل أنه من غير اللائق أن ك. أراد أن يتدخل هنا بمسائله، ونظرت إليه من الجانب نظرة غاضبة.

«لا تغضبي هكذا، أيتها السيدة صاحبة النزل»، قال ك.، «إنني لا أقول كلمة ضد كلمّ، غير أنني بسلطة الأحداث دخلت في علاقات ما مع كلمّ؛ هذا ما لا يمكن لأكبر معجب بكلمّ أن ينكره. الآن إذاً. من ثم يجب لدى ذكر كلمّ أن أفكر بنفسي أيضاً، هذا لا يمكن تغييره. للمناسبة، أيتها السيدة صاحبة النزل» ـ هنا أمسك ك. يدها المترددة ـ فكري كيف جاءت محادثتنا الأخيرة سيئة وأننا هذه المرة نريد أن نفترق بسلام.»

«إنك على صواب»، قالت صاحبة النزل وأحنت رأسها، «لكن ارفق بي. إنني لست أكثر حساسية من آخرين، على العكس، كل فرد له مواضع حساسة، أنا ليس لي سوى هذا الموضع الواحد.»

«للأسف أنه موضعي أيضاً في الوقت نفسه»، قال ك.، «إلا أنني سوف أتمالك نفسي بالتأكيد؛ لكن الآن اشرحي لي، أيتها السيدة صاحبة النزل، كيف ينبغي عليّ أن أحتمل في الزواج هذا الوفاء الرهيب إزاء كلمّ، على فرض أن فريدا أيضاً مشابهة لك في ذلك؟»

«وفاء رهيب»، كررت صاحبة النزل بحنق، «أيكون من ثم وفاء؟ أنا وفية لزوجي، لكن كلمّ؟ كلمّ عمل مني ذات مرة عشيقته، هل يمكنني أن أفقد هذه الرتبة في أي وقت كان؟

وكيف عليك أن تحتمل الأمر لدى فريدا؟ آه أيها السيد مسّاح الأراضي، من أنت إذاً حتى تجرؤ على السؤال هكذا؟»

«السيدة صاحبة النزل!» قال ك. محذراً.

«أدري»، قالت صاحبة النزل راضية، «لكن زوجي لم يطرح مثل هذه الأسئلة. لا أعرف من يجب اعتباره أكثر تعاسة، أنا آنذاك أو فريدا الآن. فريدا، التي هجرت كلمّ عمداً أو أنا التي لم يعد يستدعيها. ربما كانت فريدا، وإن كانت ما زالت لا تعرف الأمر في مداه الكامل. لكن تعاستي كانت تسيطر على أفكاري آنذاك بشدة أكثر، إذ كان عليّ مراراً وتكراراً أن أسأل نفسي، وما زلت في الحقيقة اليوم أيضاً لا أكفّ عن السؤال هكذا: لماذا حدث هذا؟ ثلاث مرات استدعاك كلمّ وللمرة الرابعة لم يفعل بعد ولا في يوم من الأيام بعد المرة الرابعة! ماذا كان يشغلني آنذاك أكثر؟ عما كان في مقدوري إذاً في ما عدا ذلك أن أتحدث مع زوجي، الذي كنت قد تزوجته آنذاك بعد ذلك بمدة وجيزة؟ نهاراً لم يكن لدينا وقت، كنا قد استلمنا هذا النزل في حالة بائسة وكان علينا أن نحاول أن ننهض به، لكن في الليل؟ طوال أعوام كانت أحاديثنا تدور حول كلمّ وحده لا غير وأسباب تغيير تفكيره. وعندما كان زوجي يغفو في أثناء هذه الأحاديث، كنت أوقظه ونستمر في الحديث.»

«الآن سوف»، قال ك.، «إذا سمحت أطرح سؤالاً قاسياً جداً.»

صاحبة النزل صمتت.

«لا يجوز لي إذاً أن أسأل»، قال ك.، «هذا أيضاً يكفيني.»

«طبعاً»، قالت صاحبة النزل، «كذلك هذا يكفيك وهذا على نحو مخصوص. إنك تسيء تفسير كل شيء، حتى الصمت. ليس في مقدورك أن تفعل شيئاً آخر. إنني أسمح لك أن تسأل.»

«إذا كنت أسيء تفسير كل شيء»، قال ك.، «فإنني ربما أسيء تفسير سؤالي أيضاً، ربما ليس قاسياً هكذا قطعاً. أردت أن أعلم وحسب، كيف تعرفت زوجك وكيف وصل هذا النزل إلى ملكيتك.»

قطّبت صاحبة النزل جبينها، لكنها قالت بلا اهتمام: «هذه قصة بسيطة للغاية. والدي كان حداداً، وهانس، زوجي الحالي، الذي كان سايس خيل لدى مزارع كبير، كان يأتي كثيراً إلى والدي. كان ذلك آنذاك بعد اللقاء الأخير مع كلمّ، كنت تعيسة جداً وكان هذا في الحقيقة لا يجوز أن يكون، إذ إن كل شيء كان قد جرى على نحو لا غبار عليه وكوني لم يعد يُسمح لي بالذهاب إلى كلمّ كان طبعاً قرار كلمّ، كان إذاً لا غبار عليه، الأسباب وحدها

كانت غامضة، وكان يجوز لي أن أبحث فيها، لكنه كان عليّ أن لا أكون تعيسة، بيد أنني كنت ذلك ولم يكن في مقدوري أن أعمل ورحت أجلس طوال اليوم في حديقتنا الأمامية الصغيرة. هناك رآني هانس، وكان أحياناً يجلس إليّ، لم أشكُ له، لكنه كان يعرف ما هو الموضوع، ولأنه فتى طيب، كان يحدث أن يبكي معي. وإذ مرّ مالك النزل آنذاك، الذي كانت زوجته قد توفيت والذي كان عليه لهذا أن يترك الصنعة، كما أنه كان رجلاً مسنّاً، ذات مرة أمام حديقتنا الصغيرة ورآنا هناك، توقف وعرض علينا مباشرة النزل للاستئجار، ولم يرد ـ لأنه كان يثق بنا ـ مالاً سلفاً وحدد الإيجار مبلغاً زهيداً جداً. على الوالد لم أشأ أن أقع عبئاً، كل شيء ما عدا ذلك كان لديّ سيّان وهكذا أعطيت يدي لهانس، وفكرت بالنزل والحانة وبالعمل الجديد الذي قد يجلب بعض النسيان. هذه هي القصة.»

ساد سكون هنيهة، ثم قال ك.: «طريقة تصرف مالك النزل كانت جميلة، لكن بلا حذر، أم هل كان لديه أسباب خاصة لثقته بكما كليكما؟»

«كان يعرف هانس جيداً»، قالت، «كان عم هانس.»

«إذاً طبعاً»، قال ك.، «كانت أسرة هانس حريصة جداً على ما يبدو على الارتباط بك.»

«ربما»، قالت، «لا أدري، لم أهتم بهذا قط.»

«لكن لا بدّ أن يكون الحال هكذا»، قال ك.، «إذ كانت الأسرة على استعداد لتقديم مثل هذه التضحية ووضع النزل ببساطة دون ضمانة بين يديك.»

«لم يكن الحال في غير ما حيطة، كما تبيّن لاحقاً»، قالت. «ألقيت نفسي في العمل، كنت قوية، كنت ابنة الحداد، لم أكن بحاجة لا إلى خادمة ولا إلى خادم، كنت في كل مكان، في المشرب، في المطبخ، في الحظيرة، في الفناء، كنت أجيد الطهي إلى درجة أنني أخذت زبائن حتى من حانة السادة، لم تكن بعد في المشرب وقت الظهر، إنك لا تعرف زبائن الغداء، آنذاك كانوا أكثر، مذ ذاك انفضّ كثيرون. والنتيجة كانت أننا لم نتمكن من دفع الإيجار في موعده وحسب، بل إننا بعد بضعة أعوام ابتعنا المجموع وهو اليوم خال من الديون تقريباً. نتيجة أخرى كانت طبعاً أنني أثناء ذلك قد دمّرت نفسي، أعاني من مرض قلب والآن أنا امرأة عجوز. قد تظن أنني أكبر سناً بكثير من هانس، في الواقع هو أصغر مني سناً بعامين أو ثلاثة أعوام فقط إلا أنه لن يتقدم في السن أبداً، إذ في عمله ـ تدخين غليون، الاستماع إلى الزبائن، ثم تفريغ الغليون وأحيانا جلب كأس من البيرة ـ في هذا العمل لا يتقدم المرء في السن.»

«إنجازاتك جديرة بالإعجاب»، قال ك.، «لا شك في هذا، غير أننا كنا نتحدث عن أيام ما قبل زواجك وآنذاك كان أمراً غريباً أن تعمد أسرة هانس تحت تضحية مالية أو على الأقل قبول مجازفة كبيرة هكذا، الأمر الذي كانه التخلي عن النزل، إلى أن تلحّ على الزواج دون أن

يكون لديها أمل آخر سوى قوة عملك، والتي لم يكونوا قد عرفوها بعد، وقوة عمل هانس التي لا بدّ أنهم كانوا يعرفون بالتأكيد أنها غير موجودة.»

«إي نعم»، قالت صاحبة النزل متعبة، «أعرف ما تقصد وكم تخطئ في ذلك. لكلمّ لم يكن في كل هذه الأمور أي أثر. لماذا كان عليه أن يهتم بي أو الأصح: كيف كان في مقدوره أن يهتم بي إطلاقاً؟ كان لم يعد يعرف شيئاً عني. كونه لم يعد يستدعيني، كان إشارة إلى أنه كان قد نسيني. من لا يستدعيه بعد، ينساه كلياً. لم أشأ أن أتحدث عن ذلك أمام فريدا. لكن الأمر ليس نسياناً وحسب، إنه أكثر من ذلك. الشخص الذي نسيه المرء، يمكن للمرء أن يتعرفه من جديد. عند كلمّ هذا غير ممكن. من لا يستدعيه بعد، لم ينسه كلياً للماضي، بل بكل معنى الكلمة لكل مستقبل أيضاً. إذا بذلت جهداً كبيراً، أستطيع أن أضع أفكاري مكان أفكارك، أفكارك العبثية هنا والتي قد تكون صالحة في الغربة التي تأتي منها. من الممكن أن يبلغ الأمر بك حتى الجنون أن تعتقد أن كلمّ إنما أعطاني هانس زوجاً كي لا يكون أمامي عائق كبير للحضور إليه عندما قد يستدعيني في المستقبل ذات مرة. أبعد من ذلك لا يمكن لجنون أيضاً أن يذهب. أين الرجل الذي من شأنه أن يتمكن من إعاقتي عن الجري إلى كلمّ إذا أعطاني كلمّ إشارة؟ هراء، هراء كلياً، يربك المرء نفسه عندما يلعب بمثل هذا الهراء.»

«لا»، قال ك.، «لا نريد أن نربك أنفسنا، لم أذهب بأفكاري إلى هذا المدى البعيد كما تفترضين، وإن كنت ـ كي أقول الحقيقة ـ على الطريق إلى هناك. إلا أنني حالياً أستغرب وحسب أن الأقارب كانوا يأملون الكثير من الزواج وأن هذه الآمال قد تحققت أيضاً فعلاً، لكن عبر التضحية بقلبك وصحتك. والحق يقال ألحّت عليّ أثناء ذلك فكرة ترابط هذه الحقائق مع كلمّ، لكن ليس أو ليس بعد بالقسوة التي تصورين بها الأمر، على ما يبدو فقط لكي تستطيعي تعنيفي مرة أخرى، لأن هذا يسرّك. أدعو لك بالسرور! لكن فكرتي كانت: أولاً كلمّ هو على ما يبدو الحافز للزواج. بدون كلمّ ما كان من شأنك أن تكوني غير سعيدة، لما كنت جلست في الحديقة الأمامية مكتوفة اليدين، بدون كلمّ ما كان من شأن هانس أن يراك هناك، بدون كآبتك ما كان من شأن هانس الخجول أن يجرؤ قط على مخاطبتك، بدون كلمّ ما كنت وجدت نفسك قط تذرفين الدمع مع هانس، بدون كلمّ لما كان مالك النزل العم المسنّ الطيب رآك قط وهانس تجلسان هناك معاً في وئام، بدون كلمّ لما كان من شأنك أن تكوني غير مبالية بالحياة، ومن ثم لما تزوجت هانس. إذاً في كل هذا ثمة ما يكفي من كلمّ، حريّ بي أن أقول. لكن الأمر أكثر من ذلك. لو لم تسعِ إلى النسيان، لما عملت بالتأكيد بلا مراعاة هكذا إزاء نفسك، ولما نهضت بالنزل هكذا عالياً. إذاً كذلك هنا كلمّ. لكن كلمّ هو أيضاً بغض النظر عن ذلك سبب مرضك، إذ إن قلبك كان قبل زواجك منهكاً من الهوى العاثر. يظل وحده السؤال، ماذا جذب أسرة هانس في الزواج على نحو شديد هكذا. أنت

نفسك ذكرت ذات مرة أن كون المرأة عشيقة لكلمّ يعني ترقية غير قابلة للفقدان. إذاً من الممكن أن هذا هو ما جذبها. لكن فوق ذلك، أظن، الأمل بأن الطالع الحسن الذي أوصلك إلى كلمّ ـ على فرض أن الأمر كان طالعاً حسناً، لكنك تدعين ذلك ـ إنما يخصك ولا بدّ إذاً من أن يظل لديك وأنه لن يتركك بسرعة وفجأة هكذا، كما فعل كلمّ.»

«هل تعني كل هذا الذي تقوله؟» قالت صاحبة النزل.

«جدّ، بلا مبالغة»، قال ك. بسرعة، «إلا أنني أظن أن أسرة هانس لم تكن بآمالها لا على صواب كلياً ولا على خطأ كلياً كما أظن أنني أتبيّن الخطأ الذي اقترفته. ظاهرياً يبدو كل شيء ناجحاً، هانس موفور الرزق، لديه امرأة مهيبة، سمعته حسنة، النزل دون ديون. لكن في الحقيقة ليس كل شيء ناجحاً، كان خليقاً بالتأكيد أن يكون أكثر سعادة بكثير مع فتاة بسيطة كان من شأنه أن يكون حبها الأول الكبير؛ عندما يقف أحياناً في المشرب كأنه ضائع، كما تأخذين عليه، فإنه يفعل ذلك لأنه يشعر فعلاً كأنه ضائع ـ دون أن يكون غير سعيد بذلك، يقيناً، إلى هذا الحد أعرفه ـ لكن من المؤكد بالمثل أن هذا الفتى الرشيد بهيّ الطلعة كان خليقاً أن يصبح أكثر سعادة مع امرأة أخرى، بهذا أعني في الوقت نفسه، أكثر استقلالية، أكثر نشاطاً، أكثر رجولة. وأنت نفسك لست سعيدة بالتأكيد، كما قلت، وبدون التذكارات الثلاثة لم تريدي حتى الاستمرار في الحياة كما أنك مريضة بالقلب. إذاً هل كانت أسرة هانس بآمالها على خطأ؟ لا أظن. البركة كانت فوقك، لكن المرء لم يعرف أن يستنزلها.»

«ماذا فوّت المرء إذاً؟» سألت صاحبة النزل. كانت الآن ترقد ممددة على ظهرها وهي ترفع بصرها إلى السقف.

«أن يسألوا كلمّ»، قال ك.

«في هذه الحالة نكون قد وصلنا إليك مرة أخرى»، قالت صاحبة النزل.

«أو إليك»، قال ك.، «شؤوننا تجاور بعضها بعضاً.»

«ماذا تريد إذاً من كلمّ؟» قالت صاحبة النزل. كانت قد جلست معتدلة في الفراش، نفضت الوسادات كي تتمكن من الاستناد إليها وهي جالسة، وراحت تحدق في عينيّ ك. «رويت لك حالتي بصراحة، كان يمكنك أن تتعلم منها بعض الأمور. قل لي الآن بصراحة مماثلة، ماذا تبغي أن تسأل كلمّ. فقط بجهد أقنعت فريدا أن تصعد إلى غرفتها وتمكث فيها، كنت أخشى أن لا تتحدث بحضورها بصراحة كافية.»

«ليس لديّ ما أخفيه»، قال ك. «لكن في بادئ الأمر أريد أن ألفت انتباهك إلى شيء. كلمّ ينسى على الفور، قلتِ. هذا يبدو لي أولاً بعيد الاحتمال جداً، غير أنه ثانياً غير قابل للإثبات،

على ما يبدو ليس شيئاً آخر سوى خرافة، ابتدعتها قريحة بنات كن في هذا الوقت ينعمن بحظوة لدى كلمّ. إنني أستغرب أنك تصدقين ابتداعاً مبتذلاً كهذا.»

«ليس الأمر خرافة»، قالت صاحبة النزل، «إنه بالأحرى مستقى من الخبرة العامة.»

«إذاً يمكن دحضه أيضاً من خلال خبرة جديدة»، قال ك.، «لكن ما زال يوجد أيضاً من ثم فرق بين حالتك وحالة فريدا. أنّ كلمّ لم يستدع فريدا بعد، هذا على نحو ما لم يحدث قط، لقد استدعاها بالأحرى، غير أنها لم تلبّ. حتى إنه من الممكن أنه ما زال ينتظرها دائماً.»

صمتت صاحبة النزل وتركت فقط نظرتها تتردد إلى ك. مراقبة إياه. ثم قالت: «أريد أن أستمع بهدوء إلى كل ما لديك تقوله. من الأفضل أن تتحدث بصراحة على أن ترفق بي. لكن لديّ رجاء واحد. لا تستخدم اسم كلمّ. ادعوه 'هو' أو بطريقة أخرى، لكن ليس بالاسم.»

«بسرور»، قال ك.، «لكن ما أبغيه منه، يصعب قوله. بادئ الأمر أريد أن أراه في القرب، ثم أريد أن أسمع صوته، ثم أريد أن أعلم منه موقفه من زواجنا؛ وعما ربما سوف أطلب منه من ثم، فهو رهن بمجرى الحديث. يمكن أن يأتي الحديث عن بعض الأمور، لكن الأكثر أهمية لي هو بالتأكيد أن أواجهه. إذ إنني لم أتحدث بعد مع موظف حقيقي حديثاً مباشراً. يبدو أن بلوغ هذا أكثر صعوبة مما كنت أظن. لكن لدي الآن واجب أن أتحدث معه بصفته شخصاً غير رسمي، وتحقيق هذا هو حسب رأيي أكثر سهولة بكثير؛ بصفته موظفاً لا أستطيع أن أتحدث معه إلا في مكتبه الذي قد يكون لا سبيل إليه، في القلعة، الأمر المشكوك فيه، في حانة السادة، لكن كشخص غير رسمي في كل مكان في البيت، في الشارع، حيث يتمّ لي أن ألقاه. وسوف أقبل بسرور أن أرى إزائي من ثم إلى جانب ذلك الموظفَ أيضاً، لكن هذا ليس هدفي الأول.

«حسناً»، قالت صاحبة النزل وضغطت وجهها في الوسادات، وكأنها تقول شيئاً مخجلاً، «إذا توصلت من خلال علاقاتي إلى أن يجري إحالة طلبك بشأن حديث مع كلمّ، عدني بأن لا تقوم بشيء على مسؤوليتك حتى نزول الجواب.»

«لا أستطيع أن أعد بهذا»، قال ك.، «مهما كان يطيب لي أن ألبّي طلبك أو مزاجك. إذ إن الموضوع يلحّ، لا سيما بعد النتيجة غير المناسبة لمحادثتي مع العمدة.»

«هذا الاعتراض يسقط»، قالت صاحبة النزل، «العمدة هو شخص عديم الأهمية. ألم تلاحظ هذا إذاً؟ ليس خليقاً أن يبقى يوماً واحداً في وظيفته، لو لم تكن زوجته، إنها تدبر كل شيء.»

«ميتزي؟» سأل ك. صاحبة النزل أومأت برأسها. «كانت معنا»، قال ك.

«هل أعربت عن رأيها؟» سألت صاحبة النزل.

«لا»، قال ك.، «كما أنني لم يكن لديّ انطباع أنه كان في مقدورها أن تفعل ذلك.»

«إذاً»، قالت صاحبة النزل، «هكذا ترى كل شيء هنا خاطئاً. على كل حال: ما قرره العمدة بشأنك لا أهمية له ومع المرأة سوف أتحدث في المناسبة. وإذا وعدتك فوق ذلك أن جواب كلمّ سيأتي خلال أسبوع كحد أقصى، فإنه لا يبقى لديك بعد ذلك سبب بأن لا تنزل عند إرادتي.»

«كل هذا ليس حاسماً»، قال ك.، «قراري ثابت، ومن شأني أن أحاول أيضاً تطبيقه، إذا ما جاء جواب بالنفي. لكن إذا كانت هذه هي نيتي منذ البداية، فإنه لا يمكنني أن أكلف قبل ذلك إلتماس المقابلة. ما يظل دون إلتماس ربما محاولة جريئة لكن بحسن نيّة، من شأنه أن يكون بعد جواب بالنفي تمرداً علناً. هذا خليق أن يكون طبعاً أكثر سوءاً.»

«أكثر سوءاً؟» قالت صاحبة النزل، «تمرد هو الأمر على كل حال. والآن اعمل حسب مشيئتك. ناولني الثوب.»

دون أن تكترث بـ ك. ارتدت الثوب وهرعت إلى المطبخ. منذ مدة طويلة كان ثمة ضجة تتناهى من المشرب. على الكوّة كان قد قُرع. كان المساعدان قد فتحاها ذات مرة وناديا إلى الداخل بأنهما جائعان. كما ظهرت هناك من ثم وجوه أخرى. بل كان يُسمع غناء هادئ لكن بأصوات متعددة.

حديث ك. مع صاحبة النزل أخّر طبعاً طهي طعام الغداء تأخيراً كبيراً؛ كان ما زال غير جاهز لكن الزبائن كانوا متجمعين، على كل حال لم يكن أحد قد تجرأ على دخول المطبخ مخالفاً حظر صاحبة النزل. لكن الآن وقد أعلم المراقبون على العين السحرية بأن صاحبة النزل ستأتي في الحال، جرت الخادمات على الفور إلى المطبخ، وحين دخل ك. إلى المشرب، تدفقت الجماعة الغفيرة على نحو عجيب، أكثر من عشرين شخصاً، رجالاً ونساء، يرتدون ملابس ريفية لكن ليست فلاحية. تدفقت عائدة من الكوّة حيث كانت متجمعة إلى الطاولات ليضمن كل منهم مكاناً لنفسه. إلا إلى طاولة صغيرة في زاوية كان يجلس زوجان مع بعض الأطفال، الرجل، سيد لطيف بعينين زرقاوين وشعر أشيب مشعث ولحية كان يقف منحنياً إلى الأطفال ويعطي بسكين الإيقاعَ لأغنية كان دائماً يسعى إلى خفض نغمتها. ربما كان يبغي أن ينسيهم الجوع بالغناء. واعتذرت صاحبة النزل للمجموعة ببضع كلمات نطقت بها في غير اكتراث، وما من أحد عاتبها في شيء. أجالت بصرها فيما حولها بحثاً عن زوجها، الذي كان قد لاذ بالفرار منذ مدة طويلة هرباً من صعوبة الوضع. من ثم ذهبت بتؤدة إلى المطبخ؛ وبـ ك.، الذي هرع إلى فريدا في غرفته، لم تعد تكترث.

٧

المعلم

في الأعلى التقى ك. المعلمَ. كانت الغرفة من حسن الحظ لا يكاد يمكن تعرّفها، هكذا نشيطة كانت فريدا. كانت الغرفة مهوّاة بشكل جيد، المدفأة موقدة على نحو وافر، الأرضية مغسولة، الفراش مرتّب، أغراض الخادمتين، هذه القاذورات المكروهة، بما فيها صورهن، كانت قد اختفت، الطاولة، التي كانت سابقاً بلوحها ذي القشرة المتسخة تحدّق بالمرء بكل معنى الكلمة حيثما كان يتوجه، كانت الآن مغطاة بمفرش أبيض محبوك. الآن كان في مقدور المرء أن يستقبل ضيوفاً. كانت الكمية القليلة من ملابس ك. الداخلية، التي كانت فريدا على ما يبدو قد غسلتها في وقت باكر، منشورة عند المدفأة كي تنشف، ولم تكن تزعج كثيراً. كان المعلم وفريدا يجلسان إلى الطاولة، وقد نهضا لدى دخول ك.، حيّت فريدا ك. بقبلة، قام المعلم بانحناءة صغيرة. ك.، شارد الفكر وما زال في انفعال الحديث مع صاحبة النزل، شرع في الاعتذار كونه لم يكن قد تمكن حتى الآن أن يزور المعلم، كان الحال هكذا كأنه يفترض أن المعلم كان قد نفد صبره من عدم حضور ك. فقام الآن بالزيارة بنفسه. لكن المعلم بطريقته الرزينة بدا الآن وحسب يتذكر ببطء أنه كان قد جرى اتفاق بينه وبين ك. على شبه زيارة. «أنت حقاً السيد مسّاح الأراضي»، قال بتؤدة، «الغريب الذي تحدثت معه قبل بضعة أيام في ميدان الكنيسة.» «نعم»، قال ك. باختصار؛ ما كان قد احتمله آنذاك في وحشته، لا يتعيّن عليه أن يحتمله هنا في غرفته. توجه إلى فريدا وتشاور معها بشأن زيارة مهمة عليه أن يقوم بها في الحال والتي يتعيّن عليه أن يكون فيها ذا هندام حسن إن أمكن. على الفور نادت فريدا، دون أن تستفهم من ك. أكثر، على المساعدَين، اللذين كانا منذ لحظات مشغولين بتفحص مفرش الطاولة، وأمرتهما بتنظيف ملابس ك. وحذائه، الذي شرع حالاً في خلعها، تحت في الفناء تنظيفاً متقناً. هي نفسها أخذت قميصاً من على الحبل وجرت هابطة إلى المطبخ كي تكويه.

الآن كان ك. وحده مع المعلم، الذي كان يجلس صامتاً مرة أخرى إلى الطاولة، تركه

هنيهة وجيزة ينتظر، خلع قميصه وشرع يغتسل عند حوض الغسيل. الآن فقط، مديراً ظهره للمعلم، سأله عن سبب مجيئه. «أتيت بتكليف من السيد عمدة القرية»، قال المعلم. كان ك. على استعداد لسماع التكليف. لكن إذ كانت كلمات ك. صعبة الفهم في انهمار الماء، كان على المعلم أن يقترب واستند إلى الجدار بجوار ك. اعتذر هذا عن اغتساله وعن اضطرابه بسبب ضرورة الزيارة المعنيّة. تجاهل المعلم ذلك وقال: «لقد كنتَ غير لطيف إزاء السيد عمدة القرية، هذا الرجل المسنّ الجليل صاحب الأفضال والخبرة الواسعة.» «لا أعرف أنني كنت غير لطيف»، قال ك.، وهو ينشّف نفسه، «لكن من الصحيح أنه كان عليّ أن أفكر بشيء آخر غير سلوك لطيف، إذ إن الأمر كان يتعلق بوجودي، المهدد من قبل إدارة رسمية مزرية، ليس عليّ أن أشرح لك تفاصيلها، حيث إنك نفسك عضو ناشط في هذه الهيئة. هل شكا عمدة القرية مني؟» «إزاء من كان في مقدوره أن يشكو؟» قال المعلم، «وحتى لو كان لديه أحد، هل من شأنه أبداً أن يشكو في يوم من الأيام؟ لقد وضعتُ وحسب محضراً صغيراً عن محادثتكما طبقاً لإملائه ومن ذلك علمت ما يكفي عن طيبة السيد العمدة وعن نوعية أجوبتك.» في حين راح ك. يبحث عن مشطه الذي لا بدّ أن فريدا قد رتّبته في مكان ما، قال: «كيف؟ محضر؟ في غيابي وضع لاحقاً من قبل أحدهم، الذي لم يكن حاضراً أبداً أثناء المحادثة. هذا ليس سيئاً. ولماذا إذاً محضر؟ هل كان الأمر إجراء رسمياً؟» «لا»، قال المعلم، «نصف رسمي، والمحضر أيضاً هو نصف رسمي ليس إلا، لم يوضع إلا لأنه في كل شيء لدينا يجب أن يكون نظام صارم. على كل حال إنه موجود الآن وهو لا يشرّفك.» ك.، الذي كان أخيراً قد عثر على المشط، الذي كان قد انزلق إلى الفراش، قال بهدوء أكثر: «ليكن المحضر موجوداً. هل قدمت كي تعلمني هذا؟» «لا»، قال المعلم، «لكنني لست آلة ذاتية الحركة وكان لا بدّ لي من أقول لك رأيي. أما تكليفي فهو برهان آخر على طيبة السيد العمدة؛ إنني أشدد على أن هذه الطيبة غير قابلة للفهم بالنسبة لي وإنني لا أنفذ مهمتي إلا تحت قسر وظيفتي واحتراماً للسيد العمدة.» كان ك. قد فرغ من الاغتسال والتمشيط وجلس الآن إلى الطاولة منتظراً القميص والثياب، كان يتطلع قليلاً إلى ما جلبه المعلم له، كما أنه كان واقعاً تحت تأثير رأي الازدراء الذي كان لصاحبة النزل بالعمدة. «لقد تجاوز الوقت الظهر؟» سأل في أفكاره عن الطريق الذي كان قد خططه، من ثم صحح نفسه وقال: «كنت تريد إبلاغي شيئاً ما من العمدة؟» «الأمر كذلك»، قال المعلم وهو يهز كتفيه، وكأنه ينفض عن كاهله كل مسؤولية ذاتية. «السيد العمدة يخشى أن تقوم، إذا ما تأخر حسم مسألتك مدة طويلة، بعمل ما متهور على مسؤوليتك الخاصة. أنا من ناحيتي لا أدري لماذا يخشى هذا، رأيي هو أنه من الأفضل أن تفعل ما تشاء. إننا لسنا ملاكاً حارساً لك وليس علينا التزام أن نجري وراءك على كل طرقك. حسناً. إن السيد العمدة له رأي آخر. القرار نفسه، الذي هو من اختصاص السلطات الغرافية، لا يمكنه طبعاً أن يعجّل في اتخاذه. غير أنه يبغي في مجال تأثيره اتخاذ قرار مؤقت سخيّ

حقاً، والأمر يعود إليك وحدك بقبوله، إنه يعرض عليك وظيفة حاجب مدرسة.» في البدء لم يكد يعر ك. اهتماماً لما عرض عليه، لكن حقيقة أن شيئاً ما قد عرض عليه بدا له أمراً ليس عديم الأهمية. كان هذا يشير إلى أنه كان حسب رأي العمدة قادراً، كي يدافع عن نفسه، على أن يقوم بأشياء من شأن الحماية منها أن تسوّغ لمجلس القرية نفسه تخصيص بعض النفقات. وكيف أخذ المرء أهمية للموضوع. إن المعلم، الذي كان قد انتظر هنا مدة طويلة وكان قبل ذلك قد وضع المحضر، لا بدّ أنه كان قد سيق من قبل العمدة إلى هنا سوقاً بكل معنى الكلمة.

إذ رأى المعلم أنه حمل ك. على التفكير، استطرد قائلاً: «لقد أبديت اعتراضاتي. أشرت إلى أنه لم يكن حتى الآن ثمة ضرورة لحاجب مدرسة، زوجة حاجب الكنيسة ترتّب بين الحين والآخر والآنسة غيزا، المعلمة، تشرف عليها، لديّ متاعب كافية مع الأولاد، لا أريد فوق ذلك أن أتضايق بحاجب مدرسة. السيد العمدة ردّ بأن ثمة وسخاً كثيراً في المدرسة. أجبت طبقاً للحقيقة بأن الحال ليس في غاية السوء. وأضفت، هل سيتحسن الحال إذا أخذنا الرجل حاجباً للمدرسة؟ لا بكل تأكيد. بغض النظر عن أنه لا يفهم شيئاً من مثل هذه الأعمال، فإن المدرسة لا تحوي سوى صفّين كبيرين بلا حجرات جانبية، يتعيّن على حاجب المدرسة إذاً أن يسكن مع أسرته في أحد الصفّين، نوم، ربما حتى طهي، هذا لا يؤدي طبعاً إلى مزيد من النظافة. غير أن السيد العمدة أشار إلى أن هذه الوظيفة هي بالنسبة لك إنقاذ المضطر، وأنك لذلك سوف تسعى بكل قواك كي تقوم بوظيفتك خير قيام، ثم، رأى السيد العمدة، أننا معك نكسب كذلك قوى زوجتك ومساعدَيك، وهكذا سوف يمكن الحفاظ ليس فقط على المدرسة بل على حديقة المدرسة أيضاً في نظام نموذجي. كل هذا دحضته بسهولة. في الختام لم يعد السيد العمدة يستطيع مطلقاً أن يقدم شيئاً لمصلحتك، ضحك وقال وحسب، إنك مع ذلك مسّاح أراض ولذا فإنك قمين بأن تتمكن من تخطيط أحواض الزرع في حديقة المدرسة تخطيطاً مستقيماً جميلاً على نحو خاص. حسناً، ضد المزاح لا يوجد اعتراضات وهكذا ذهبت إليك بالمهمة.» «إنك تقلق بلا جدوى، أيها السيد المعلم»، قال ك.، «لا يخطر ببالي أن أقبل الوظيفة.» «رائع»، قال المعلم، «رائع، بدون أي تحفظ ترفض» وتناول القبعة، قام بانحناءة وذهب.

بعد ذلك مباشرة جاءت فريدا صاعدة بوجه ذاهل، كانت تحمل القميص دون كوي، ولم تردّ على أسئلة؛ لكي يلهيها حدّثها عن المعلم والعرض، وما كادت تسمع الأمر حتى ألقت القميص على السرير وجرت عائدة. سرعان ما عادت، لكن مع المعلم، الذي بدا معتلّ المزاج ولم يلق تحية قط. فريدا طلبت منه قليلاً من الصبر ـ كانت على ما يبدو قد فعلت ذلك عدة مرات في الطريق إلى هنا ـ من ثم سحبت ك. عبر باب جانبي، لم يكن يعرف عنه شيئاً قط،

إلى حجرة الخزين المجاورة وروت هناك، وهي منفعلة متقطعة الأنفاس، ما حدث لها. صاحبة النزل، غاضبة من أنها كانت قد أذلّت نفسها إلى اعترافات، والأسوأ أكثر إلى إذعان، فيما يخص تدبير مقابلة بين كلمّ وك. دون أن تصل بهذا إلى شيء سوى، كما قالت، صدود بارد وفوق ذلك مخادع، قررت أن لا تحتمل ك. بعد الآن في دارها؛ إذا كان لديه اتصالات مع القلعة، فلعله يستخدمها بأسرع ما يمكن، حيث ينبغي عليه في هذا اليوم، الآن في الحال، أن يغادر الدار، وفقط بناء على أمر رسمي مباشر وإجبار سوف تقبله مرة أخرى، إلا أنها تأمل أن لا يحدث هذا، إذ هي كذلك لها اتصالات مع القلعة وسوف تعرف كيف تستخدمها. للعلم، إنه لم يأت إلى النزل سوى نتيجة إهمال صاحب النزل، كما أنه ليس في عوز بتاتاً، إذ إنه في صباح هذا اليوم بالذات تفاخر بمأوى ليلي معدّ له. على فريدا طبعاً أن تبقى، أما إذا انتقلت مع ك.، فإن صاحبة النزل ستكون في غاية التعاسة، تحت في المطبخ عند مجرد ذكر الفكرة تهاوت باكية بجانب الفرن، المرأة المسكينة المريضة بالقلب، لكن كيف يمكنها أن تتصرف على نحو مغاير، الآن إذ يتعلق الأمر حقاً، في تصورها على الأقل، بإجلال ذكرى كلمّ. هذا هو الحال إذاً مع صاحبة النزل. فريدا طبعاً سوف تتبعه، تتبع ك.، حيث يشاء، في الثلج والجليد، حول ذلك لا ضرورة طبعاً لتضييع كلمة أخرى، لكن في غاية السوء هو وضعهما كليهما على كل حال، لذا فقد رحّبت بعرض العمدة بارتياح كبير، حتى لو كانت الوظيفة غير مناسبة لـ ك.، لكنها، يجري التأكيد على ذلك بوضوح، وظيفة مؤقتة، يكسب المرء وقتاً وسيجد بسهولة إمكانيات أخرى، حتى لو جاء القرار النهائي بالرفض. «إذا دعت الضرورة»، نادت أخيراً فريدا وقد تعلقت برقبة ك.، «نهاجر، ماذا يبقينا هنا في القرية؟ لكن مؤقتاً، أليس كذلك حبيبي؟ نقبل العرض، لقد عدت بالمعلم، تقول له 'قبلنا'، لا شيء آخر، وننتقل إلى المدرسة.»

«هذا سيئ»، قال ك. لكن دون أن يعني ذلك جدياً، إذ لم يكن المسكن يهمه كثيراً، كما أنه كان يحس برداً شديداً وهو في ملابسه الداخلية هنا في حجرة الخزين، هذه الحجرة التي، بلا جدار وبلا نافذة على الجانبين، يخترقها هواء بارد لاذع، «لقد رتّبت الغرفة على نحو جميل وعلينا الآن أن ننتقل منها. كارهاً، كارهاً من شأني أن أقبل الوظيفة، حتى الإذلال الحالي أمام المعلم الصغير يحرجني والآن حريّ به أن يصبح رئيسي. لو كان في مقدورنا أن نمكث هنا برهة وجيزة وحسب، فقد يتغير وضعي اليوم بعد الظهر. لو تمكثين أنت على الأقل هنا، فيمكننا أن نترقب ونعطي المعلم جواباً غير محدد فقط. لي أجد دائماً مكان مبيت، وإذا كان لا بدّ فعلاً لدى بر ـ» أغلقت فريدا فمه باليد. «هذا لا»، قالت وهي خائفة، «أرجو أن لا تقول هذا مرة أخرى. لكن في ما عدا ذلك فإنني أتبعك في كل شيء. إذا كنت تريد، أبقى هنا وحدي، مهما كان من شأن ذلك أن يثير الأسى في نفسي. إذا شئتَ نرفضُ العرض،

مهما بدا ذلك خطأ حسب رأيي. إذ انظر، إذا وجدت إمكانية أخرى، بل اليوم بعد الظهر، حسناً، فإنه من البديهي أن نترك الوظيفة في المدرسة على الفور، ما من أحد سوف يمنعنا من ذلك. وما يخص الإذلال أمام المعلم، فدعني أتدبر بأن لا يكون الأمر هكذا، أنا نفسي سأتحدث معه، أنت ستقف صامتاً إلى جانبي ولاحقاً أيضاً لن يكون الأمر غير ذلك، لن يتعيّن عليك في يوم من الأيام أن تتحدث معه بنفسك إذا لم تشأ، أنا وحدي سأكون في الواقع مرؤوسته، ولا حتى أنا سأكون ذلك، إذ إنني أعرف نقاط ضعفه. هكذا إذاً لا نخسر شيئاً إذا نحن قبلنا العمل، إلا أننا سنخسر الكثير إذا نحن رفضناه، قبل كل شيء، إذا لم يصلك هذا اليوم شيء من القلعة، لن تجد، أيضاً لك وحدك، مكان مبيت في أيّ مكان، أيّ مكان، في القرية، مكان مبيت لا أخجل منه بصفتي زوجتك المقبلة. وإذا لم تحصل على مكان مبيت، فهل تريد مثلاً أن تطلب مني أن أنام هنا في الغرفة الدافئة، فيما أعرف أنك في الخارج تهيم على وجهك في الليل والبرد؟» ك.، الذي كان طوال الوقت يصالب ذراعيه على صدره ويضغط براحتيه على ظهره، التماساً لقليل من الدفء، قال: «من ثم لا يبقى شيء آخر سوى أن نقبل، تعالي!»

في الغرفة سارع إلى المدفأة في الحال، بالمعلم لم يهتم؛ كان هذا يجلس إلى الطاولة، سحب ساعته وقال: «لقد تأخر الوقت.» «لكن نظير ذلك نحن الآن متفقون كلياً أيضاً، أيها السيد المعلم»، قالت فريدا، «إننا نقبل الوظيفة.» «حسناً»، قال المعلم، «لكن الوظيفة معروضة على السيد مسّاح الأراضي، عليه نفسه أن يتكلم.» تقدمت فريدا لمساعدة ك.، قالت: «إنه يقبل الوظيفة، أليس كذلك يا ك.؟» هكذا تمكن ك. أن يقصر تصريحه على كلمة بلى بسيطة، والتي حتى لم تكن موجهة إلى المعلم بل إلى فريدا. «من ثم»، قال المعلم، «لا يبقى لي سوى أن أذكّرك بواجباتك في العمل، لكي نكون في هذه الناحية متفقين لآخر مرة: عليك أيها السيد مسّاح الأراضي أن تقوم يومياً بتنظيف كلتا غرفتي الصف وبتدفئتهما، عليك أن تقوم بنفسك بإصلاحات صغيرة في المبنى كذلك في أدوات التعليم والرياضة، عليك أن تحافظ على الطريق عبر الحديقة خالياً من الثلوج، أن تقوم بأعمال ساع وتأمين أغراض لي وللآنسة المعلمة، وأن تتولى في الفصل الأكثر دفئاً أعمال الحديقة كافة. نظير ذلك لديك الحق أن تسكن في إحدى غرفتي الصف حسب اختيارك؛ لكن يتعيّن عليك، عندما لا يُدرَّس في كلتا غرفتي الصف في الوقت نفسه، واتفق أنك تسكن في غرفة الصف التي يجري التدريس فيها، أن تنتقل طبعاً إلى الغرفة الأخرى. لا يجوز لك أن تقوم بالطهي في المدرسة، نظير ذلك يجري إطعامك أنت وعائلتك على نفقة مجلس القرية هنا في المطعم. أنه ينبغي عليك أن تتصرف طبقاً لمكانة المدرسة وأنه لا يجوز للتلاميذ خاصة أثناء الدرس أن يكونوا قط ربما شهود مشاهد غير حميدة في حياتك العائلية، هذا ما أذكره عرضاً وحسب، إذ بصفتك رجلاً متعلماً لا بدّ

لك من أن تعرف هذا. في سياق ذلك أضيف ملاحظة أنه يتعيّن علينا أن نصرّ على أن تعطي علاقاتك مع الآنسة فريدا صفة شرعية في أقرب ما يمكن. حول كل هذا وبعض الأمور الصغيرة الأخرى سوف يوضع عقد عمل يجب عليك أن توقّعه حال انتقالك إلى المدرسة.» كل هذا بدا في نظر ك. غير ذي أهمية، وكأن الأمر لا يتعلق به أو على كل حال لا يربطه، وحدها مباهاة المعلم أغضبته وقال ببساطة: «إي نعم، إنها الالتزامات المألوفة.» لكي تطمس هذه الملاحظة بعض الشيء، سألت فريدا عن الراتب. «موضوع فيما إذا كان راتب سيُدفع»، قال المعلم، «لن يُدرس إلا بعد عمل تجربة لمدة شهر.» «لكن هذا قاس علينا»، قالت فريدا، «علينا أن نتزوج دون مال، نقيم تدبيرنا المنزلي من اللاشيء. ألا يمكننا، أيها السيد المعلم، أن نرجو بواسطة التماس إلى مجلس القرية تخصيص راتب صغير فوري؟ هل تنصح بذلك؟» «لا»، قال المعلم الذي كان دائماً يوجه كلماته إلى ك. «مثل هذا الطلب لا يُلبّى إلا إذا أوصيت به وليس من شأني أن أفعل ذلك. إن منح الوظيفة هو مجرد صنيع وحسب تجاهك ولا ينبغي على المرء، إذا ظل واعياً لواجبه العام، أن يبالغ في الصنائع.» لكن الآن تدخل ك.، ضد إرادته تقريباً. «ما يتعلق بالصنيع، أيها السيد المعلم»، قال، «أظن أنك تخطئ. هذا الصنيع هو ربما بالأحرى إلى جانبي.» «كلا»، قال المعلم وهو يبتسم، الآن كان قد أرغم ك. على الكلام، «إنني على أتمّ اطلاع على ذلك. إن حاجتنا إلى حاجب المدرسة هي مثل حاجتنا إلى مسّاح الأراضي. حاجب المدرسة مثل مسّاح الأراضي، إنه عبء في عنقنا. سوف يكلفني الأمر كثيراً من إعمال الفكر، كيف يحسن بي أن أبرر النفقات أمام مجلس القرية، وسيكون من الأفضل والأكثر مطابقة للحقيقة أن ألقي الطلب على الطاولة ولا أبرره مطلقاً.» «هكذا أعني الأمر حقاً»، قال ك.، «ضد إرادتك يجب عليك أن تقبلني، مع أن الأمر يسبب لك تفكيراً عسيراً ينبغي عليك أن تقبلني. عندما يكون أحدهم مضطراً إلى قبول آخر وهذا الآخر يدع نفسه يُقبل، فيكون هو الذي يقدم الصنيع.» «عجيب»، قال المعلم، «ماذا عليه أن يرغمنا على أن نقبلك، قلب العمدة الطيب، فائق الطيبة يرغمنا. سوف يتعيّن عليك أيها السيد مسّاح الأراضي، هذا ما أراه حقاً، أن تتخلى عن بعض الأوهام، قبل أن تصبح حاجب مدرسة نافعاً. ومن أجل منح راتب محتمل لا تؤدي مثل هذه الملاحظات إلى خلق جو مناسب. كما أنني ألاحظ للأسف أن تصرفك سوف يتعبني كثيراً، إنك طوال الوقت تتفاوض معي حقاً، أرى الأمر باستمرار وأكاد لا أصدقه، وأنت في القميص والملابس الداخلية.» «أجل»، نادى ك. ضاحكاً وصفق، «المساعدان الشنيعان، أين هما؟» هرعت فريدا إلى الباب، المعلم، الذي لاحظ أن ك. لم يعد الآن جاهزاً للحديث معه، سأل فريدا، متى يرغبان في الانتقال إلى المدرسة، «اليوم»، قالت فريدا، «في هذه الحالة أحضر صباح غد للمراجعة»، قال المعلم، ألقى تحية بإشارة من يده، أراد أن يخرج عبر الباب، الذي كانت فريدا قد فتحته لنفسها، غير أنه اصطدم مع الخادمتين، اللتين جاءتا بحاجاتهما، لكي تقيما في الغرفة مرة أخرى، وقد اضطر

إلى الانسلال بينهما، اللتين لم يكن من شأنهما أن تتراجعا أمام أحد، فريدا تبعته. «أما أنكما على عجلة من أمركما»، قال ك.، الذي كان هذه المرة مسروراً منهما، «نحن ما زلنا هنا وأنتما عليكما الدخول في الحال؟» لم تجيبا وأدارتا في حيرة صررهنّ، التي رأى ك. الخرق المتسخة المعروفة تتدلى منها. «إنكما لم تغسلا أغراضكما مرة في يوم من الأيام»، قال ك.، لم يُقل ذلك باستياء، بل بشيء من العطف. وقد لاحظتا ذلك، فتحتا في الوقت نفسه فميهما القاسيين، أبرزتا الأسنان الجميلة القوية شبه الحيوانية وضحكتا بلا صوت. «هلمّ»، قال ك.، «ربّما أموركما، إنها لغرفتكما.» لكن إذ استمرتا في ترددهما، - غرفتهما بدت لهما وقد تبدلت تبدلاً كبيراً - أمسك ك. بذراع إحداهما، كي يقتادها. غير أنه سرعان ما تركها، كانت نظرتهما نظرة دهشة كبيرة، تلك النظرة التي، بعد تفاهم متبادل قصير، لم تعودا تحوّلانها عن ك. «لكنكما الآن نظرتما إليّ مدة طويلة كافية»، قال ك. وهو يصدّ شعوراً ما غير مريح، تناول ملابسه وحذاءه، التي كانت فريدا قد أحضرتها، يتبعها المساعدان على استحياء، وارتداها. غير قابل للفهم بالنسبة له كان دائماً والآن مرة أخرى الصبر الذي كان لفريدا مع المساعدَين. كانت قد عثرت عليهما، هما اللذان كان يتعيّن عليهما تنظيف الملابس في الفناء، بعد بحث طويل وهما يتناولان طعامهما في دعة وسلام في الأسفل، وهما يكوّمان الملابس غير المنظفة في حضنهما، وكان عليها من ثم أن تنظف بنفسها كل شيء، ومع ذلك لم تتشاجر معهما مطلقاً، هي التي تعرف كيف تسيطر خير سيطرة على الرعاع، تحدثت، فوق ذلك في حضرتهما، عن إهمالهما الكبير وكأنها تتحدث عن مزحة صغيرة، وحتى راحت تربت على خدّيّ أحدهما تربيتاً خفيفاً كما مداعباً. كان ك. يبغي أن يعاتبها عن ذلك فيما بعد. أما الآن فقد آن أوان الانصراف. «المساعدان يظلان هنا لمساعدتك في الانتقال»، قال ك. غير أنهما لم يكونا موافقين على ذلك، متخمان وفرحان كما كانا كان يطيب لهما أن يقوما ببعض الحركة. ولم يرضيا بالبقاء إلا بعد أن قالت فريدا: «يقيناً، تبقيان هنا». «هل تعلمين إلى أين أنا ذاهب؟» سأل ك. «نعم»، قالت فريدا. «ولا تستوقفيني إذاً بعد الآن؟» سأل ك. «سوف تجد عوائق كثيرة جداً»، قالت، «ما من شأن كلمتي أن تعني!» قبّلت ك. مودّعة، وأعطته، إذ إنه لم يكن قد تناول طعام الغداء، ربطة فيها خبز وسجق كانت قد أحضرتها له من تحت، ذكّرته بأن عليه من ثم أن لا يحضر إلى هنا، بل إلى المدرسة مباشرة، ورافقته، ويدها على كتفه، إلى خارج الباب.

٨

في انتظار كلمّ

في باديء الأمر كان ك. مسروراً لأنه أفلت من احتشاد الخادمتين والمساعدَين في الغرفة الدافئة. كذلك استشعر بعض البرودة، كان الثلج أكثر تماسكاً والسير أكثر سهولة. غير أن الدنيا بدأت تعتم طبعاً وطفق يغذّ الخطا.

القلعة، التي بدأت معالمها تتحلل، كانت تربض هادئة كما كانت دائماً، أبداً لم يكن ك. قد رأى هناك أقل إشارة تشير إلى وجود حياة، ربما لم يكن بالإمكان مطلقاً تبيّن شيء من هذا البُعد ومع ذلك كانت العينان تنشدان الأمر ولم ترغبا في احتمال السكون. عندما كان ك. ينظر إلى القلعة، كان حاله أحياناً وكأنه يراقب أحداً كان جالساً بهدوء وهو ينظر أمامه، ليس شارد الذهن وبهذا في عزلة عن كل شيء، بل حراً وهادئ البال؛ هكذا كأنه وحده وما من أحد يراقبه؛ ومع ذلك لا بدّ أنه لاحظ أنه كان يُراقَب، لكن هذه المراقبة لم تكن تمسّ هدوءه أقل مساس وفعلاً ـ لم يكن المرء يدري أكان الأمر سبباً أم نتيجة ـ لم تكن نظرات المراقب تستطيع الثبات بل راحت تنزلق. هذا الانطباع تعزّز اليوم أكثر نتيجة العتمة الباكرة، كلما أطال النظر، قلّ ما يتبينه، وغرق كل شيء بعمق أكثر في الغسق.

تماماً حين وصل ك. إلى نزل السادة الذي كان ما زال غير مضاء، فتحت نافذة في الطابق الثاني، كان شاب بدين الجسم حليق الوجه في رداء فرو ينحني إلى خارج النافذة وقد ظل فيها، ولم يبدُ عليه كذلك أنه يردّ على تحية من ك. بأبسط إيماءة رأس. لا في الردهة ولا في المشرب التقى ك. أحداً، رائحة البيرة الآسنة في المشرب كانت أسوأ مما كانت عليه مؤخراً، شيء من هذا القبيل لم يكن ليحدث في نزل الجسر. على الفور ذهب ك. إلى الباب الذي كان مؤخراً قد شاهد كلمّ من خلاله، ضغط بحذر على الأكرة، غير أن الباب كان موصداً؛ ثم حاول أن يتحسس الموضع حيث كانت العين السحرية، لكن السدادة كانت على الأرجح مولجة بإتقان، بحيث أنه لم يتمكن من العثور عليها بهذه الطريقة، لذا أشعل عود ثقاب. هنا

ألقت صرخةُ الرعبَ في قلبه. في الزاوية بين الباب وطاولة البوفيه قرب المدفأة كانت صبية جالسة متكورة طفقت تحدق به في ضوء عود الثقاب بعينين مفتوحتين بمشقة مثقلتين بالنعاس. كانت على ما يبدو خليفة فريدا. سرعان ما تماسكت، أدارت النور الكهربائي، كان تعبير وجهها ما زال تعبير امتعاض، هنا عرفت ك. «آه، السيد مسّاح الأراضي»، قالت وهي تبتسم، أعطته يدها وقدمت نفسها، «اسمي بيبي Pepi». كانت قصيرة القامة، حمراء البشرة، في صحة جيدة، كان شعرها الغزير الأشقر الضارب للحمرة مجدولاً في ضفيرة، بالإضافة إلى ذلك كان يتجعد حول الوجه، كانت ترتدي ثوباً يناسبها قليلاً جداً مسترسلاً ببساطة من قماش رمادي لامع، كان في الأسفل قد جُمع على نحو طفولي بلا مهارة بشريط حريريّ ينتهي بغرزة، بحيث أنه كان يضايقها. استعلمت عن فريدا وعن عودتها عما قريب. كان هذا سؤالاً يجاور خبثاً. قالت: «بعد انصراف فريدا مباشرة دُعيت إلى هنا على عجل، وذلك لأنه لا يمكن استخدام أية واحدة هنا، كنت حتى الآن أعمل في ترتيب الغرف، لكنها ليست مبادلة طيبة هذه التي عملتها. هنا ثمة عمل مسائيّ وليليّ كثير، وهذا منهك، لا أكاد أتحمّل الأمر، ولا أعجب من أن فريدا تركت هذا العمل.» «كانت فريدا مرتاحة هنا كثيراً»، قال ك. كي يلفت نظر بيبي أخيراً إلى الفرق، الذي كان قائماً بينها وبين فريدا والذي غفلت عنه. «لا تصدقها»، قالت بيبي، «تستطيع فريدا أن تتمالك نفسها كما لا يستطيع آخر. إنها لا تعترف بما لا تريد الاعتراف به، وفي ذلك لا يلاحظ المرء مطلقاً أنه لديها شيء ما عليها أن تعترف به. إنني أخدم هنا منذ عدة سنوات معها، وكنا دائماً ننام معاً في فراش واحد، غير أن علاقتنا ليست وثيقة، يقيناً لم تعد اليوم تفكر فيّ. صديقتها الوحيدة هي ربما صاحبة نُزل الجسر المسنّة وهذا أمر معبِّر.» «فريدا خطيبتي»، قال ك. وهو يبحث إلى جانب ذلك عن موضع العين السحرية في الباب. «أدري»، قالت بيبي، «لهذا السبب أحكي الموضوع. ما عدا ذلك ما كان له أية أهمية لك.» «أفهم»، قال ك.، «تقصدين أنه يمكنني أن أكون فخوراً بأنني كسبت لنفسي مثل هذه الفتاة المتحفظة.» «نعم»، قالت وهي تضحك مسرورة، وكأنها كسبت ك. لاتفاق سري بخصوص فريدا.

لكن في الحقيقة لم تكن كلماتها هي التي تشغل ك. وتلهيه عن البحث بعض الشيء، بل مظهرها ووجودها في هذا الموضع. طبعاً كانت أصغر سناً من فريدا، مازالت طفلية تقريباً وملابسها كانت مضحكة، كانت على ما يبدو تلبس طبقاً لتصوراتها المبالغ فيها عن الأهمية التي تتمتع بها فتاة المشرب. وهذه التصورات كانت لديها على طريقتها بحق، إذ إن الوظيفة التي لا تناسبها، كانت قد حصلت عليها على نحو غير متوقع وغير مستحق وعلى نحو مؤقت وحسب، ولا حتى الحقيبة الجلدية الصغيرة التي كانت فريدا تحملها دائماً في الحزام، عُهد بها إليها. وعدم رضاها المزعوم عن الوظيفة ليس شيئاً آخر سوى تعال. وبلى، على غبائها الصبياني

كان لديها هي أيضاً على الأرجح علاقات بالقلعة، كانت حقاً، إذا لم تكن تكذب، تعمل في ترتيب الغرف، دون أن تعي ما تملك، أضاعت هنا أيامها، لكن احتضان هذا الجسد الصغير البدين ذي الظهر المستدير قليلاً لا يمكنه أن ينتزع منها ما تملكه، لكن في مقدوره أن يحركه وينشّطه للطريق الصعب. من ثم كان الحال ربما ليس شيئاً آخر إلا كما هو لدى فريدا؟ أوه نعم، كان الأمر مغايراً. لم يكن على المرء أن يفكر إلا بنظرة فريدا، كي يفهم هذا. ما كان ك. خليقاً أن يمسّ بيبي قط. لكن يقيناً كان عليه الآن أن يغطي عينيه هنيهة، كان ينظر إليها بشهوانية شديدة.

«لا يجب أن يكون شاعلاً»، قالت بيبي وأطفأت النور مرة أخرى، «أشعلته لأنك أفزعتني أشد الفزع. ماذا تبغي هنا إذاً؟ هل نسيتْ فريدا شيئاً؟» «نعم»، قال ك. وهو يشير إلى الباب، «هنا في الغرفة المجاورة مفرش طاولة، أبيض اللون، مشغولاً.» «نعم، مفرشها»، قالت بيبي، «إنني أتذكر، شغل جميل، وقد ساعدتها أيضاً في ذلك، لكنه من الصعب أن يكون في هذه الغرفة.» «فريدا تظن ذلك. من يسكن هنا إذاً؟ سأل ك. «لا أحد»، قالت بيبي، «إنها غرفة السادة، هنا يشرب ويأكل السادة، هذا يعني أنها مخصصة لذلك، لكن معظم السادة يبقون في غرفهم في الطابق العلوي.» «لو كان من شأني أن أعلم»، قال ك.، «أن لا أحد في الغرفة المجاورة الآن، فسوف يطيب لي جداً أن أدخل إليها وأبحث عن المفرش. غير أن الحال غير مؤكد طبعاً، كلمّ على سبيل المثال يعتاد غالباً على الجلوس هناك.» «كلمّ ليس هناك الآن بالتأكيد»، قالت بيبي، «في الحال يسافر مغادراً، إن الزحافة تنتظر في الفناء.»

على الفور، دون كلمة إيضاح، غادر ك. المشرب، بدلاً من أن يتجه في الردهة صوب المخرج، اتجه نحو داخل المبنى وبعد خطوات قليلة وصل إلى الفناء. يا لسكون هذا المكان وجماله! فناء مربّع الشكل، محاط بالمبنى من ثلاث جهات، من ناحية الشارع - شارع جانبي لم يكن ك. يعرفه - يحدّه جدار أبيض عال ذو بوابة كبيرة ثقيلة مُشرعة الآن. هنا من ناحية الفناء كان المبنى يبدو أكثر ارتفاعاً مما هو في الجهة الأمامية، على الأقل كان الطابق الأول مستكملاً كلياً وكان ذا هيبة أكبر، إذ كان محاطاً برواق خشبي مغلق ما عدا فجوة صغيرة في مستوى النظر. إزاء ك. على نحو منحرف كان ثمة مدخل إلى المبنى، ما زال في الجناح الأوسط لكن في الزاوية، حيث كان الجناح الجانبي المواجه متصلاً، وكان المدخل مفتوحاً، دون باب. أمامه كانت تقف زحافة داكنة مغلقة يتعلق بها زوج من الأحصنة. ما عدا الحوذيّ، الذي خمّن ك. الآن في الغسق وجوده عن بُعد أكثر مما تبيّنه، لم يكن أحد يُشاهَد.

اليدان في الجيبين، ناظراً حوله بحذر، بالقرب من الجدار دار ك. حول جانبين من الفناء، حتى بات لدى الزحافة. الحوذيّ، واحد من أولئك الفلاحين الذين كانوا مؤخراً في المشرب، شاهده بلا اكتراث قادماً، وهو غارق في الفرو، كما يتبع المرء مثلاً طريق قطة. وحتى حين

وقف ك. لديه، ألقى التحية، وحتى حين اضطرب الحصانان بعض الشيء بسبب الرجل الذي ظهر من الظلام، ظل غير مكترث بتاتاً. كان ذلك مرحّباً به من قبل ك. كل الترحيب. مستنداً إلى الجدار فتح ربطته، شاكراً ذكر فريدا التي كانت قد زوّدته بالطعام على خير وجه، وراح أثناء ذلك يسترق النظر إلى داخل الدار. كان ثمة درج قائم الزاوية كثير المنعطفات يؤدي إلى أسفل، حيث يتقاطع معه ممر واطىء لكنه كان ظاهرياً عميقاً، كل شيء كان نظيفاً مطلياً بلون أبيض، حاداً ومستقيماً.

طال الانتظار أكثر مما كان ك. يظن. كان قد فرغ من الطعام منذ مدة طويلة، كان البرد لا يُحتمل، كان الغسق قد تحول إلى ظلام دامس وكلمّ لم يكن قد أتى بعد. «ما زال يمكن لهذا أن يستغرق مدة طويلة جداً»، قال بغتة صوت أجشّ قريب من ك. هكذا بحيث أنه انتفض في ذعر. كان الحوذيّ، الذي، كأنه استيقظ، قد طفق يتمطى ويتثاءب. «ما هذا الذي يمكنه أن يستغرق إذاً مدة طويلة؟» سأل ك.، ليس دون امتنان بسبب الازعاج، إذ إن السكون الدائم والتوتر كانا قد أصبحا مزعجين. «قبل أن ستنصرف»، قال الحوذيّ. ك. لم يفهم قصده، غير أنه لم يتابع السؤال، كان يعتقد أنه بهذه الطريقة يجرّ المتعجرف على أحسن صورة كي يتحدث. عدم إجابة هنا في الظلام كان أمراً مستفزّاً تقريباً. وفعلاً سأل الحوذيّ بعد برهة: «هل تريد كونياك؟» «نعم»، قال ك. دون إعمال فكر، وقد أغراه العرض أكثر من اللازم، إذ كان يقشعرّ من البرد. «افتح الزحافة إذاً»، قال الحوذيّ، في الجراب الجانبي يوجد بضع زجاجات، خذ واحدة، اشرب منها ثم ناولني إياها. بسبب الفرو يصعب عليّ النزول.» كان تقديم مثل هذه الخدمات يضايق ك.، لكنه إذ إنه كان قد دخل مع الحوذيّ في حديث، امتثل، حتى مع وجود خطر بأن يفاجأ لدى الزحافة من قبل كلمّ مثلاً. فتح الباب العريض وكان من شأنه أن يتمكن على الفور من سحب الزجاجة من الجراب المثبّت على الجانب الداخلي للباب، لكن إذ كان الباب مُشرعاً، فقد ساقته قدماه بشدة إلى داخل الزحافة، بحيث أنه لم يتمكن من المقاومة، وفقط لحظة واحدة أراد أن يجلس في داخلها. تسلل في سرعة خاطفة. كان الدفء في الزحافة فائق الشدة وظل هكذا مع أن الباب الذي لم يجرؤ ك. على إغلاقه كان مُشرعاً على سعته. لم يكن المرء يدري مطلقاً هل كان يجلس على مقعد، إذ كان يستلقي بين كثير من الأغطية والوسادات والفراء؛ وكان في مقدور المرء أن يستدير ويتمدد نحو كل الجهات، ودائماً كان يغرق في مكان وثير ودافئ. باسطاً ذراعيه سانداً رأسه بوسادات كانت جاهزة دائماً تطلع ك. من الزحافة إلى المبنى المعتم. لماذا استغرق الأمر وقتاً طويلاً هكذا قبل أن ينزل كلمّ؟ كأنه مخدَّر من الحرارة بعد الوقوف الطويل في الثلج تمنى ك. أن يأتي كلمّ أخيراً. فكرة أنه من الأفضل في حالته الراهنة أن لا يُرى من قبل كلمّ لم تراوده إلا على نحو مبهم، كإزعاج خفيف. وقد دُعم في هذا النسيان من خلال سلوك الحوذيّ،

الذي كان لا بدّ له من أن يعرف أنه كان في الزحافة، وقد تركه هناك، حتى دون أن يطلب منه الكونياك. كان هذا مراعاة فائقة، غير أن ك. كان يبغي أن يخدمه؛ بتثاقل ودون أن يبدل وضعه، مدّ يده إلى الجراب الجانبي، لكن ليس إلى الجراب في الباب المشرع، الذي كان بعيداً جداً، بل وراءه في الجراب المثبت في الباب المغلق، الآن بات الأمر سيّان، كذلك في هذا الجراب كان ثمة زجاجات. سحب إحداها، فتح السدادة واستنشق، تلقائياً كان لا بدّ له من أن يتبسم، كانت الرائحة حلوة للغاية، مستميلة جداً، كان الحال أشبه ما يكون حين يسمع المرء إطراء وكلمات طيبة من شخص يحبه ولا يعرف بالدقة مطلقاً ما هو الموضوع، ولا يريد أن يعرفه أبداً ويكون سعيداً وحسب وهو يدرك أنه هو الذي يتكلم. «هل هذا كونياك؟» تساءل ك. مرتاباً وتذوقه بدافع من فضول. لا ريب، إنه كونياك، يا للعجب، وكان حرّيفاً ويبعث دفئاً. كم تحول أثناء الشراب، من شيء كان تقريباً مجرد حامل أريج حلو إلى شراب يناسب الحوذية. «هل هذا ممكن؟» تساءل ك.، كأنه يعاتب نفسه واحتسى جرعة أخرى.

هنا ـ كان ك. في هذه اللحظة منهمكاً في جرعة طويلة ـ شاع ضوء، النور الكهربائي أضاء، في الداخل على الدرج، في الممر، في الردهة، في الخارج فوق المدخل. تناهى صوت خطوات تهبط الدرج، الزجاجة سقطت من يد ك.، الكونياك اندلق على الفراء، ك. قفز من الزحافة، كان في هذه اللحظة قد تمكن من إغلاق الباب بعنف، الأمر الذي أثار ضجة تصكّ الآذان، حين برز على مهل بعد برهة وجيزة رجل وخطا خارجاً من الدار. الأمر المريح الوحيد بدا أن هذا الرجل لم يكن كلمّ أم كان هذا بالذات ما يؤسف له؟ كان هذا هو الرجل الذي كان ك. قد رآه في نافذة الطابق الثاني. شاب وسيم لأقصى حد، ذو بشرة بيضاء مشرّبة بحمرة، لكن في غاية الجدّ. كذلك ك. نظر إليه نظرة مكفهرّة لكنه كان يقصد نفسه بهذه النظرة. كان من الأفضل له أن يرسل مساعدَيه إلى هنا كي يتصرفا مثل تصرفه، لكان من شأنهما هما أيضاً أن يفهما. إزاءه كان السيد ما زال صامتاً، وكأنه لا يملك من أجل ما يجب قوله نَفَساً كافياً في صدره العريض جداً. «هذا لأمر مرعب»، قال من ثم وهو يزيح قبعته قليلاً عن جبينه. كيف؟ كان السيد لا يعرف على الأرجح شيئاً عن إقامة ك. في الزحافة ووجد مع ذلك شيئاً ما مرعباً؟ مثلاً أن ك. كان قد تسلل حتى وصل إلى الفناء؟ «كيف أتيت إذاً إلى هنا؟» سأل من ثم السيدُ بصوت منخفض مطلقاً زفرة، مستسلماً إلى ما لا يمكن تغييره. أية أسئلة! أية أجوبة! هل حريّ بـ ك. مثلاً نفسه أن يؤكد بوضوح للسيد بأن طريقه الذي بدأ بآمال عريضة إنما كان بلا جدوى؟ بدلاً من أن يجيب، التفت ك. إلى الزحافة، فتحها وأحضر قبعته، التي كان قد نسيها فيها. باستياء لاحظ كيف كان الكونياك يقطر على سلّم الزحافة.

ثم التفت إلى السيد مرة أخرى؛ لم يعد يرى بأساً في أن يبيّن له أنه كان في الزحافة، كما أن هذا لم يكن الأسوأ؛ ولو سئل، لكن في هذه الحال وحسب، كان ينوي أن لا يكتم بأن

الحوذيّ نفسه، كان قد دعاه على الأقل لفتح الزحافة. لكن في الحقيقة كان الأمر السيئ في أن السيد كان قد فاجأه، أنه لم يعد يوجد وقت كاف ليختبئ منه كي يتمكن من ثم بهدوء بال من أن ينتظر كلمّ أو أنه لم يكن لديه حضور ذهن كاف لكي يبقى في الزحافة، يغلق الباب وينتظر هناك على فراء كلمّ أو أن يبقى هناك على الأقل طالما ظل هذا السيد في الجوار. طبعاً لم يكن في مقدوره أن يعلم ألم يأت الآن ربما كلمّ نفسه، طبعاً سيكون من الأفضل كثيراً في هذه الحالة أن يستقبله خارج الزحافة. نعم، كان يجب إنعام النظر في بعض الأمور هنا، لكن الآن لا شيء بعد، حيث كان الحال قد انتهى.

«تعال معي»، قال السيد، في الحقيقة ليس بلهجة آمرة، لكن الأمر لم يكن يكمن في الكلمات، بل في تلويحة اليد، تلويحة قصيرة مرافقة جاءت عمداً في غير اكتراث. «إنني أنتظر هنا أحدهم»، قال ك.، ليس أملاً بعد بأي نجاح، بل مبدئياً وحسب. «تعال»، قال السيد مرة أخرى، دون أن يلوي على شيء آخر، هكذا كأنه يريد أن يبيّن أنه لم يشكّ أبداً في أن ك. إنما ينتظر أحدهم. «لكنني أضلّ من ثم عن الشخص الذي أنتظره»، قال ك. وقد ارتعش جسده. مع كل ما حدث كان لديه شعور بأن ما كان قد حققه حتى الآن كان ضرباً من ضروب الملكية، كان ما زال يتمسك به ظاهرياً وحسب لكنه غير مضطر إلى تسليمه بناء على أي أمر. «إنك تضلّ عنه في كل حالة أنتظرت أم ذهبت»، قال السيد فظاً في رأيه لكن ليّن الجانب بالنسبة لنسق تفكير ك. «فأوثر أن أضلّ عنه لدى الانتظار»، قال ك. معانداً، بمجرد كلمات من هذا السيد الشاب ليس خليقاً بالتأكيد أن يدع نفسه يُطرد من هنا. طوال هنيهة أغلق السيد عينيه مع تعبير تعالٍ في الوجه المائل إلى الخلف، هكذا كأن السيد يريد أن يعود من انعدام حكمة ك. إلى رشده هو، أدار رأس لسانه على شفتي الفم المفتوح قليلاً وقال من ثم للحوذيّ: «فكّ الحصانين!»

الحوذيّ، الخاضع للسيد، لكن بنظرة استياء جانبية على ك. كان عليه أن ينزل وهو في الفراء وشرع بتردد كبير، وكأنه لا ينتظر من السيد أمراً معاكساً، لكن من ك. تغييراً في التفكير، إعادة الحصانين مع الزحافة إلى الوراء قرب الجناح الجانبي، حيث توجد وراء بوابة كبيرة الحظيرة مع مخزن العربات والآلات. ك. رأى نفسه وقد بقي وحده، من ناحية ابتعدت الزحافة، من ناحية أخرى، على الطريق الذي كان ك. قد أتى منه، السيد الشاب، كلاهما كان يبتعد بتؤدة، هكذا كأنهما أرادا أن يبيّنا لـ ك. أنه ما زال يقع في سلطته أن يعيدهما.

ربما كان يملك هذه السلطة، لكنها ليست خليقة أن تفيده؛ استرجاع الزحافة من شأنه أن يعني أن يطرد نفسه. هكذا ظل ساكناً، باعتباره الوحيد الذي فاز. لكنه كان نصراً لا يسرّ. على التناوب طفق يتبع نظره السيدَ والحوذيّ. كان السيد قد وصل إلى الباب، الذي كان ك. قد دخل عبره إلى الفناء أولاً، مرة أخرى تطلع إلى الوراء، وقد ظن ك. أنه يرى أنه يهز رأسه

على عناد كبير هكذا، من ثم استدار بحركة حازمة قصيرة نهائية ودخل إلى الردهة التي سرعان ما اختفى فيها. ظل الحوذيّ مدة أطول في الفناء، كان لديه عمل كثير مع الزحافة، كان يجب عليه أن يفتح بوابة الحظيرة الثقيلة، قيادة الزحافة إلى الوراء وإيصالها إلى مكانها، فكّ الحصانين وسوقهما إلى معلفهما، كل هذا قام به جادّاً، مستغرقاً في التفكير، بدون أي أمل بسفرة قريبة؛ هذا الاشتغال الصامت دون أية نظرة جانبية على ك. بدا لهذا مأخذاً أكثر قساوة بكثير من سلوك السيد. وإذ مشى الحوذيّ بعد إنهاء العمل في الحظيرة عبر الفناء بالعرض مشيته البطيئة المترنحة، أغلق البوابة الكبيرة، ثم عاد، كل شيء ببطء وبكل معنى الكلمة فقط ناظراً إلى مساره في الثلج، من ثم أغلق الباب على نفسه في الحظيرة والآن أيضاً أطفأ كل نور كهربائي - لمن كان من شأنه أن يضيء؟ - ولم يبق مضاء سوى الفجوة في الأعلى في الرواق الخشبي وكانت تشدّ بعض الشيء النظرة الشاردة، هنا بدا لـ ك. كأن المرء قطع الآن كل صلة به وكأنه الآن طبعاً أكثر حرية مما كان في أي وقت مضى وفي مقدوره هنا في المكان المحظور عليه في ما عدا ذلك أن ينتظر إلى حين يشاء وحصل على هذه الحرية عن طريق الكفاح مثلما لا يقدر آخر وما من أحد يجوز له أن يمسّه أو يطرده، بل لا يكاد يخاطبه، لكن - هذه القناعة كانت في مثل هذه القوة على الأقل - كأنه لا يوجد في الوقت نفسه شيء أكثر عبثية، أكثر يأساً من هذه الحرية، هذا الانتظار، هذه المناعة.

٩

كفاح ضد التحقيق

وانتزع نفسه وعاد إلى المبنى، هذه المرة ليس على طول الجدار، بل في الوسط على الثلج، في الردهة التقى صاحب النزل، الذي حيّاه بصمت وأشار إلى باب المشرب، تبع الإشارة لأنه كان يحسّ بالبرد ولأنه أراد أن يرى بشراً، إلا أنه أصيب بخيبة أمل كبيرة حين رأى هناك إلى طاولة صغيرة، التي لا بدّ أنها وضعت خصيصاً، إذ في ما عدا ذلك كان المرء يكتفي هناك ببراميل، السيد الشاب يجلس وأمامه ـ منظر مقبض بالنسبة لـ ك. ـ تقف صاحبة النزل. بيبي، فخورة، برأس مرفوع إلى الوراء، بابتسامة هي نفسها أبداً، شاعرة على نحو لا يردّ بقدر ذاتها، هازّة الضفيرة لدى كل حركة، كانت تجري بين الفينة والأخرى، تجلب بيرة وثم حبراً وريشة، إذ إن السيد كان قد نشر أمامه أوراقاً، طفق يقارن بيانات يجدها مرة في هذه الورقة ومرة أخرى في ورقة على النهاية الأخرى للطاولة، وأراد الآن أن يكتب. كانت صاحبة النزل تنظر من عليائها هادئة تمط شفتيها قليلاً كأنها مرتاحة فتشمل ببصرها السيد والأوراق، وكأنها قد قالت كل ما هو ضروري وكلامها صادف قبولاً حسناً. «ها هو السيد مسّاح الأراضي، أخيراً»، قال السيد لدى دخول ك. وقد رفع نظره قليلاً، ثم غرق في أوراقه مرة أخرى. كذلك صاحبة النزل نظرت إلى ك. نظرة عابرة وحسب، نظرة عدم اكتراث وغير مفاجَأة إطلاقاً. غير أن بيبي بدت أنها لم تلاحظ ك. أصلاً إلا حين خطا نحو منصة المشرب وطلب كأس كونياك.

استند ك. هناك، ضغط يده على عينيه ولم يهتم بأي شيء. ثم رشف رشفة من الكونياك وأزاحه إلى الوراء، لأنه لا يستساغ. «كل السادة يشربونه»، قالت بيبي باختصار، دلقت البقية، غسلت الكأس ووضعته في الرف. «السادة لديهم أيضاً كونياك أفضل»، قال ك. «ممكن»، قالت بيبي، «أما أنا فليس لديّ»، بهذا فرغت من ك. وعادت تقوم على خدمة السيد، لكنه لم يكن بحاجة إلى شيء وطفقت تسير وراءه جيئة وذهاباً دائماً على شكل قوس وحسب مع

محاولات باحترام لإلقاء نظرة على الأوراق من فوق كتفيه؛ لكن الأمر لم يكن سوى فضول لا ماهية له ومباهاة استنكرتها صاحبة النزل أيضاً بأن قطّبت حاجبيها.

لكن فجأة أصغت صاحبة النزل بانتباه وحدّقت، مستسلمة كلياً للإصغاء، في الفراغ. استدار ك.، ولم يسمع شيئاً مخصوصاً قط، كذلك لاح الآخرون أنهم لا يسمعون شيئاً، غير أن صاحبة النزل جرت على رؤوس قدميها بخطوات كبيرة إلى الباب في الخلفية، الذي يؤدي إلى الفناء، نظرت عبر العين السحرية، ثم التفتت إلى الآخرين بعينين فاغرتين ووجه محتقن، أشارت لهم بأصبعها أن يأتوا إليها والآن راحوا ينظرون عبر العين السحرية بالتناوب، ظل القسم الأكبر حقاً لصاحبة النزل، لكن بيبي أيضاً كانت دائماً تحصل على نصيبها، كان السيد الأقل اكتراثاً نسبياً. كما عادت بيبي وعاد السيد بعد قليل، فقط صاحبة النزل ظلت تثابر على النظر وتبذل جهداً، منحنية انحناء كبيراً، تكاد تركع، كان ثمة انطباع تقريباً بأنها لا تفعل شيئاً آخر سوى أنها تناشد الآن العين السحرية السماح لها بالدخول، حيث لم يعد منذ مدة طويلة شيء يمكن رؤيته. وحين نهضت من ثم أخيراً، ومسحت وجهها بيديها، وسوّت شعرها، وتنفست بعمق، وعلى ما يبدو كان لا بدّ للعينين أن تعتادا أولاً على الغرفة والناس هنا، وفعلت ذلك بنفس كارهة، قال ك.، لا لكي يؤكد لنفسه شيئاً يعرفه، بل لكي يسبق على هجوم كاد أن يخشاه، هكذا كان رقيق الشعور الآن: «هل رحل كلمّ إذاً؟» مرّت صاحبة النزل به وهي صامتة، لكن السيد قال وهو إلى طاولته: «نعم، بالتأكيد. لأنك تخليت عن موقع المراقبة، كان في مقدور كلمّ أن يسافر. لكنه أمر رائع تلك الحساسية لدى السيد. هل لاحظت، أيتها السيدة صاحبة النزل، كيف كان كلمّ ينظر من حوله بقلق؟» بدت صاحبة النزل أنها لم تلاحظ ذلك، لكن السيد واصل كلامه: «حسناً، لحسن الحظ لم يكن بالإمكان رؤية شيء بعد الآن، كذلك كان الحوذيّ قد سوّى آثار الأقدام في الثلج.» «السيدة صاحبة النزل لم تلاحظ شيئاً»، قال ك.، لكنه لم يقل ذلك أملاً بأي أمل، بل لأن ادعاء السيد قد استثاره، هذا الادعاء الذي أراد أن يبدو ختامياً غير قابل للاستئناف. «ربما لم أكن في هذه اللحظة عند العين السحرية»، قالت صاحبة النزل أولاً كي تحمي السيد، لكن من ثم أرادت أيضاً أن تعطي كلمّ حقه فأضافت: «في الحقيقة لا أعتقد بوجود حساسية كبيرة هكذا لدى كلمّ. نحن نخاف عليه طبعاً ونحاول أن نحميه وننطلق في ذلك من افتراض وجود حساسية قصوى لدى كلمّ. هذا حسن هكذا وهو إرادة كلمّ بالتأكيد. أما حقيقة الأمر فلا علم لنا بها. يقيناً إن كلمّ لن يتحدث إطلاقاً مع شخص لا يريد هو أن يتحدث معه، مهما يبذل هذا الشخص من جهد ومهما تخطى دوره على نحو لا يطاق، لكن هذه الحقيقة وحدها أن كلمّ لن يتحدث معه قط ولن يدعه يظهر أمامه أبداً، تكفي حقاً، لماذا عليه في الحقيقة أن لايستطيع تحمّل منظر شخص ما. على الأقل لا يمكن التدليل على ذلك، إذ لن يصل الأمر إطلاقاً إلى

التجربة.» هزّ السيد رأسه بحماسة. «طبعاً في الحقيقة هذا هو رأيي أيضاً»، قال، «إذا كنت قد عبّرت على نحو مغاير قليلاً، فقد حدث ذلك كي يكون مفهوماً للسيد مسّاح الأراضي. لكن الصحيح هو أن كلمّ، عندما خرج إلى الخلاء، قلّب بصره فيما حوله عدة مرات في نصف دائرة.» «ربما كان يبحث عني»، قال ك. «ممكن»، قال السيد، «هذا لم يخطر ببالي.» ضحك الجميع، بيبي، التي لم تفهم شيئاً تقريباً من الأمر كله، ضحكت بصوت أعلى من الجميع.

«إذ إننا الآن معاً ونحن في مرح»، قال من ثم السيد، «فإنني خليق أن أرجو السيد مسّاح الأراضي كل الرجاء أن يقوم بتكملة ملفاتي ببعض البيانات.» «هنا يُكتب الكثير»، قال ك. وهو ينظر من بعيد إلى الملفات. «نعم، إنها عادة سيئة»، قال السيد وهو يضحك مرة أخرى، «لكن ربما ما زلت لا تعرف مطلقاً من أنا. أنا موموس، سكرتير كلمّ في القرية.» بعد هذه الكلمات ساد الجدّ في الغرفة بكاملها؛ مع أن صاحبة النزل وبيبي كانتا طبعاً تعرفان السيد جيداً، كانتا كأنهما مذهولتان من تسمية الاسم والمرتبة. وحتى السيد نفسه، كأنه قال أكثر من اللازم بالنسبة لقدرته نفسه على الاستيعاب، وكأنه يريد على الأقل أن يهرب من كل احتفالية لاحقة تنطوي عليها كلماته نفسه، انكبّ على الملفات وشرع في الكتابة، بحيث أنه لم يعد يُسمع في الغرفة سوى صوت الريشة. «ما هو هذا إذاً: سكرتير في القرية»، سأل ك. بعد هنيهة. عوضاً عن موموس، الذي بعد أن كان قد عرّف بنفسه لم يعد الآن يرى أنه من المناسب أن يعطي بنفسه مثل هذه الشروحات، قالت صاحبة النزل: «السيد موموس هو سكرتير كلمّ مثل أي سكرتير من سكرتارية كلمّ، غير أن مقره الرسمي وإذا لم أخطئ فعاليته الرسمية أيضاً ـ»، وهو يكتب هزّ موموس رأسه بحيوية فصححت صاحبة النزل نفسها، «إذاً مقره الرسمي فقط محصور في القرية وليس فعاليته الرسمية. السيد موموس يحضّر أعمال كلمّ الكتابية التي تصبح ضرورية في القرية، وهو أول من يتلقى جميع الطلبات التي تأتي من القرية موجهة إلى كلمّ.» حين نظر ك.، وهو ما زال لا يفهم الكثير من هذه الأمور، بعينين فارغتين إلى صاحبة النزل، أضافت وهي نصف حيرى: «هكذا الأمور منظّمة، جميع السادة من القلعة لهم سكرتيرو قرية.» موموس، الذي كان قد استمع بانتباه أكثر بكثير من ك.، قال متمماً لصاحبة النزل: «جلّ سكرتيرو القرية يعملون لسيد واحد، أما أنا فإني أعمل لاثنين، لكلمّ ولفلّابنه.» «نعم»، قالت صاحبة النزل متذكّرة أيضاً الآن من طرفها والتفتت إلى ك.، «السيد موموس يعمل لسيدين، لكلمّ ولفلّابنه، هو إذاً سكرتير قرية مزدوج.» «حتى مزدوج»، قال ك. وأومأ برأسه لموموس، الذي كان الآن وهو يكاد يميل جسده إلى الأمام ينظر إليه كلياً، كما يومئ المرء لطفل تلقّى لتوّه مديحاً. إذا كان هذا يتضمن ازدراء ما، فهو إما أنه لم تجر ملاحظته أو أنه كان مطلوباً حقاً. بالذات أمام ك.، الذي لم يكن أهلاً بما يكفي كي يجوز له أن يُرى من قبل كلمّ ولو حتى بالمصادفة، جرى عرض خدمات رجل من أخصّاء كلمّ عرضاً

مفصلاً بقصد مكشوف هو استفزاز ك. للتعبير عن اعترافه ومديحه. بيد أن ك. لم يكن يملك الحس الصحيح لذلك؛ هو، الذي كان يسعى بكل قواه من أجل نظرة من قبل كلمّ، لم يكن ليقدّر تقديراً عالياً مثلاً مركز مومرس ما، يجوز له أن يعيش تحت بصر كلمّ، بعيد عنه كان الإعجاب أو حتى الحسد، إذ ليس القرب من كلمّ بحد ذاته كان هو ما يستحق السعي إليه، بل أن يقترب هو، ك.، وحده فقط، لا آخر، برغباته هو وليس برغبات أي آخر، من كلمّ، أن يقترب من كلمّ، ليس كي يستريح لديه بل كي يمرّ عليه، ويتابع إلى القلعة.

ونظر إلى ساعته وقال: «لكن يتعيّن عليّ الآن أن أذهب إلى البيت.» على الفور تبدلت العلاقة لصالح موموس. «نعم طبعاً»، قال هذا، «واجبات حاجب المدرسة تنادي. لكن ما زال يتعيّن عليك أن تكرّس لي لحظة. فقط بضعة أسئلة قصيرة.» «ما من رغبة لديّ من أجل ذلك»، قال ك. وأراد أن يتجه صوب الباب. ضرب موموس ملفاً على الطاولة ونهض واقفاً: «باسم كلمّ أطلب منك الإجابة عن أسئلتي.» «باسم كلمّ؟» كرر ك.، «هل تهمّه أموري إذاً» «بشأن ذلك»، قال موموس، «لا أملك حكماً وأنت ولا ريب تملك أقل مني بكثير؛ هذا ما نريد كلانا إذاً بارتياح أن نتركه له. لكنني أطلب منك في مركزي الممنوح لي من قبل كلمّ أن تبقى وأن تجيب.» «السيد مسّاح الأراضي»، تدخلت صاحبة النزل قائلة، «إنني أحاذر من أن أستمر في تقديم نصائح لك، بنصائحي السابقة، النصائح الأكثر إخلاصاً التي يمكن تقديمها، لقيت صدوداً منك بطريقة لم يُسمع بها وإلى هنا إلى السيد السكرتير - ليس لديّ ما أخفيه - لم آت سوى لكي أعلم الدائرة على نحو مناسب عن سلوكك ومقاصدك، ولكي أحمي نفسي إلى الأبد من أن تأوي في منزلي من جديد مثلاً، هكذا هي العلاقة بيننا ويقيناً لن يتبدل فيها شيء بعد الآن وإذ أقول الآن رأيي لهذا السبب، فإنني أفعل ذلك ليس مثلاً كي أساعدك، بل كي أسهّل على السيد السكرتير بعض الشيء المهمة الصعبة التي تعنيه أن يتفاوض مع رجل مثلك. لكن مع ذلك فبمقدورك طبعاً بسبب صراحتي التامة - بغير الصراحة لا أستطيع أن أتعامل معك وحتى هكذا يحدث الأمر على كره مني - أن تستخرج من كلماتي نفعاً لنفسك أيضاً، إن شئت وحسب. في هذه الحالة ألفت نظرك إلى أن الطريق الوحيد الذي يفضي بك إلى كلمّ، إنما يمرّ هنا عبر محاضر السيد السكرتير. بيد أنني لا أريد أن أبالغ، ربما لا يصل الطريق إلى كلمّ، ربما ينقطع قبل الوصول إليه بكثير. عن ذلك يقرر السيد السكرتير كما يطيب له. لكن على كل حال هذا هو الطريق الوحيد الذي يقود بالنسبة لك على الأقل في الاتجاه المؤدي إلى كلمّ. وعن هذا الطريق الوحيد تريد أن تستغني لا لسبب آخر سوى العناد؟» «آه أيتها السيدةُ صاحبة النزل»، قال ك.، «إنه ليس الطريق الوحيد إلى كلمّ ولا هو أكثر قيمة من الطرق الأخرى. وأنت، أيها السيد السكرتير، قرّر هل كان ما من شأني أن أقوله هنا أن يجوز له بلوغ كلمّ أم لا.» «والحق يقال»، قال موموس وهو ينظر بعينين خفضهما باعتداد

بالنفس يميناً ويساراً، حيث لم يكن ثمة أي شيء يُرى، «لماذا كنت خليقاً أن أكون سكرتيراً في ما عدا ذلك.» «الآن انظري أيتها السيدة صاحبة النزل»، قال ك.، «ليس إلى كلمّ أحتاج لطريق، بل أولاً إلى السيد السكرتير.» «هذا الطريق أردت أن أفتحه لك»، قالت صاحبة النزل، «ألم أعرض عليك قبل الظهر أن أحوّل طلبك إلى كلمّ؟ كان من شأن هذا أن يحدث بواسطة السيد السكرتير. لكنك رفضت العرض ومع ذلك لن يبقى الآن أمامك شيء آخر سوى هذا الطريق وحده. طبعاً بعد تمثيليتك اليوم، بعد محاولتك مباغتة كلمّ، بأمل أقل بالنجاح. لكن هذا الأمل الأصغر المتلاشي غير الموجود في الحقيقة هو ولا ريب أملك الوحيد.» «كيف حدث أيتها السيدة صاحبة النزل»، قال ك.، «أنك في البدء حاولت كثيراً إيقافي عن الوصول إلى كلمّ، والآن تأخذين طلبي على محمل الجد ويظهر عليك أنك تعتبرينني في حال فشل خططي ضائعاً نوعاً ما؟ إذا استطاع المرء ذات مرة من قلب مخلص أن ينصحني بالعدول عن السعي أساساً إلى كلمّ، فكيف بات ممكناً للمرء مخلصاً بالمثل على ما يبدو أن يدفعني الآن إلى الأمام حقاً على الطريق إلى كلمّ، ولو كان هذا الطريق، الأمر الذي لا بدّ من الاعتراف به، لا يؤدي أبداً إلى هناك؟» «هل أدفعك إذاً إلى الأمام؟» قالت صاحبة النزل، «هل يُسمّى دفعاً للأمام، عندما أقول إن محاولاتك لا أمل فيها؟ من شأن هذا أن يكون حقاً أقصى درجات الجرأة، إذا كنت تريد بهذه الطريقة أن تلقي المسؤولية عن نفسك على عاتقي. هل ربما حضور السيد السكرتير هو الذي يغريك على ذلك؟ لا أيها السيد مسّاح الأراضي، إنني لا أدفعك إلى أي شيء أبداً. شيء واحد فقط أستطيع أن أعترف به، أنني، إذ رأيتك لأول مرة، ربما أكون قد قدّرتك أكثر بعض الشيء مما تستحق. إن انتصارك السريع على فريدا أفزعني، لم أعرف ما يمكن أن تكون ما زلت قادراً عليه، أردت أن أدرأ وقوع ويلات أخرى واعتقدت أنه لا يمكنني بلوغ ذلك بواسطة شيء آخر سوى أن أحاول أن أهزّك برجاءات وتهديدات. في هذه الأثناء تعلمت أن أفكر في الأمر كله بهدوء أكثر. لك أن تفعل ما تشاء. أفعالك سوف تترك ربما في الخارج في الثلج في الفناء آثار أقدام عميقة، لكن ليس أكثر من ذلك.» «يبدو لي أن التناقض لم يتوضح كلياً»، قال ك.، «لكنني أكتفي بأنه جرى لفت نظري إليه. غير أنني أرجوك أيها السيد السكرتير أن تقول لي هل كان رأي السيدة صاحبة النزل صحيحاً بأن المحضر الذي تريد تدوينه معي قد يمكن أن يؤدي في عواقبه إلى أن يجوز لي الظهور أمام كلمّ؟ إذا كان الحال هكذا، فإنني على استعداد فوراً للإجابة عن جميع الأسئلة. في هذا الخصوص إنني جاهز لكل شيء بإطلاق.» «لا»، قال موموس، «مثل هذه العلائق غير قائمة. لا يتعلق الموضوع عندي إلا بأن أحفظ لسجلات القرية التابعة لكلمّ بوصف دقيق لأحداث عصر اليوم. الوصف بات جاهزاً، فقط ثغرتان ثلاث ما زال عليك أن تملأها، لداعي النظام، ما من ثمة هدف آخر كما لا يمكن بلوغه.» نظر ك. إلى صاحبة النزل صامتاً. «لماذا تنظر إليّ»، سألت صاحبة النزل، «هل قلتُ ربما شيئاً آخر؟ هكذا هو دائماً، أيها السيد السكرتير، هكذا

هو دائماً. يزيّف المعلومات التي يعطيها المرء له، ويدعي من ثم أنه تلقى معلومات مزيّفة. أقول له منذ البدء، اليوم ودائماً، إنه ليس لديه أقل أمل بأن يُستقبل من قبل كلمّ، والآن إذا لم يكن ثمة أمل، فإنه لن يحصل عليه بواسطة هذا المحضر. هل يمكن أن يكون شيء أكثر وضوحاً؟ ثم إنني أقول إن هذا المحضر هو الصلة الرسمية الحقيقية الوحيدة، التي يمكن أن تكون له مع كلمّ، هذا أيضاً هو واضح كفاية ولا مجال للشك فيه. لكن إذا كان الآن لا يصدقني ويأمل دائماً ـ لا أدري لمَ ولماذا ـ بأن يتمكن من الوصول إلى كلمّ، فإنه لا يمكن، إذا ظل المرء في نسق تفكيره، أن يساعده سوى الصلة الرسمية الحقيقية الوحيدة، التي له مع كلمّ، أي هذا المحضر. لم أقل سوى هذا ومن يدّعي شيئاً آخر، فإنه يحرّف بسوء نية.» «إذا كان الحال هكذا، أيتها السيدة صاحبة النزل»، قال ك.، «فإنني أرجوك المعذرة، فأكون قد أسأت فهمك، إذ إنني كنت أعتقد، خطأً كما يتبيّن الآن، أنني أستشفّ من كلماتك السابقة أنه ثمة أمل ما لي، أدنى أمل.» «يقيناً»، قالت صاحبة النزل، «هذا والحق يقال رأيي، إنك تحرّف كلماتي ثانية، لكن هذه المرة في الاتجاه المعاكس. مثل هذا الأمل لك قائم حسب رأيي لكنه لا يستند إلا إلى هذا المحضر. لكن المسألة بهذا ليست هكذا بحيث أنه يمكنك ببساطة أن تطبق على السيد السكرتير بالسؤال: 'هل سوف يُسمح لي بالوصول إلى كلمّ، إذا أجبت عن الأسئلة'. عندما يسأل طفل هكذا، يضحك المرء، عندما يفعل بالغ ذلك، يكون الأمر إهانة للدائرة، والسيد السكرتير غطى الموضوع فقط من خلال لطف جوابه وهذا كرم منه. لكن الأمل الذي أقصده يكمن طبعاً في أن يكون لك من خلال المحضر نوع من الاتصال، ربما نوع من الاتصال مع كلمّ. أليس هذا أمل كاف؟ إذا سألك المرء عن أفضالك التي تجعلك جديراً بنفحة مثل هذا الأمل، هل في مقدورك أن تقدم أقل القليل؟ طبعاً، لا يمكن قول شيء على وجه التحديد عن هذا الأمل، ولا سيما السيد السكرتير لن يقدر في صفته الرسمية أن يقدم أبداً حتى أقل إشارة عن ذلك. موضوعه كما قال هو مجرد وصف عصر هذا اليوم، لداعي النظام، أكثر من ذلك لن يقول، حتى لو سألته الآن على الفور عن ذلك مستنداً إلى كلماتي.» «السيد السكرتير»، سأل ك.، «هل سيقرأ كلمّ هذا المحضر إذاً؟» «لا»، قال موموس، «لماذا إذاً؟ لا يقدر كلمّ أن يقرأ كل المحاضر، حتى إنه لا يقرأ أي محضر إطلاقاً، 'ابعدوا عني محاضركم!' اعتاد أن يقول.» «السيد مسّاح الأراضي»، قالت صاحبة النزل شاكية، «إنك تنهكني بمثل هذه الأسئلة. هل من الضروري إذاً أو حتى من المستحبّ وحسب، أن يقرأ كلمّ هذا المحضر ويعلم توافه حياتك كلمة كلمة، أليس من الأفضل لك أن تطلب متوسلاً أن يخفي المرء المحضر عن كلمّ، للعلم، من شأن هذا الطلب أن يكون طلباً غير حكيم مثله مثل الطلب السابق، إذ من يستطيع أن يخفي شيئاً عن كلمّ، لكن هذا الطلب خليق أن ينمّ عن خلق أكثر لطفاً. وهل هذا إذاً ضروري لما تسمّيه أملك؟ ألم تعلن بنفسك أنك خليق بأن تكون مسروراً، لو أتيحت لك الفرصة وحسب أن تتحدث أمام كلمّ، حتى ولو لم ينظر أو يستمع إليك؟ أو لا تبلغ هذا على

الأقل بواسطة هذا المحضر، لكن ربما أكثر بكثير؟» «أكثر بكثير؟» سأل ك.، «بهذه الطريقة؟» «لو لم ترغب دائماً وأبداً»، نادت صاحبة النزل، «مثل طفل أن يقدّم لك كل شيء في الحال على شكل صالح للأكل. من يستطيع إذاً أن يعطي جواباً عن مثل هذه الأسئلة؟ إن المحضر يذهب إلى سجلات كلمّ في القرية، هذا سمعته، أكثر لا يمكن القول بيقين عن ذلك. لكن هل تعرف كامل أهمية المحضر، السيد السكرتير، سجلات القرية؟ هل تعلم ماذا يعني عندما يحقق معك السيد السكرتير؟ ربما أو على الأرجح لا يعرف الأمر هو نفسه. إنه يجلس هنا بهدوء ويقوم بواجبه، لداعي النظام، كما يقول. لكن أمعن النظر في أن كلمّ عيّنه حتى يعمل باسم كلمّ، حتى يحظى ما يعمله، ولو لم يصل أبداً إلى كلمّ، بموافقة كلمّ بادئ ذي بدء. وكيف يستطيع شيء أن يحظى بموافقة كلمّ هو غير مفعم بروحه. بعيد عني أن أريد بهذا نوعاً ما بطريقة فظة أن أجامل السيد السكرتير، إنه نفسه خليق أن لا يقبل هذا أبداً، غير أنني لا أتحدث عن شخصيته المستقلة، بل عما يكون هو، إذ ينال موافقة كلمّ، كما هو الحال الآن. في هذه الحالة يكون أداة، تقع عليها يد كلمّ، والويل لكل من لا يذعن.»

تهديدات صاحبة النزل لم ترهب ك.، الآمال التي حاولت بها أن تمسك به أتعبته. كلمّ كان بعيداً، ذات مرة قارنت صاحبة النزل كلمّ بنسر، وقد بدا هذا سخيفاً بالنسبة إلى ك.، أما الآن فلم يعد يبدو ذلك له، فكر بتنائيه، بمسكنه المنيع، بصمته الذي لا يتخلله ربما سوى صراخ كما لم يسمعه ك. قط، بنظرته الثاقبة من فوق إلى تحت، والتي لا يمكن إثباتها أبداً ولا نقضها إطلاقاً، بدوائره غير القابلة للتدمير انطلاقاً من أعماق ك.، التي يرسمها في أعاليه طبقاً لقوانين لا سبيل إلى فهمها، لا تمثل للعيان سوى لحظات ـ كل هذا كان مشتركاً بين كلمّ والنسر. لكن من المؤكد أنه بهذا لم يكن علاقة البتة لهذا المحضر، الذي يقوم مومِوس الآن بالذات بتكسير نوع من الكعك المملّح فوقه، بحيث يستمتع به مع البيرة، فيتناثر الملح والكمّون فوق الأوراق كافة.

«ليلة طيبة»، قال ك.، «لديّ نفور من كل تحقيق» وسار الآن فعلاً إلى الباب. «إنه ليذهب إذاً»، قال مومِوس لصاحبة النزل فزِعاً تقريباً. «لن يجرؤ على ذلك»، قالت هذه، ولم يسمع ك. أكثر من ذلك، كان قد وصل إلى الممر. كان الجو بارداً وكانت ريح قوية تهبّ. من باب مواجه أتى صاحب النزل، بدا أنه كان هناك وراء عين سحرية قد وضع الممر تحت المراقبة. كان عليه أن يلفّ أطراف سترته حول جسمه، هكذا كانت الريح تجذبها حتى هنا في الممر. «هل أنت ذاهب أيها السيد مسّاح الأراضي؟» قال. «هل تعجب من ذلك؟» سأل ك. «نعم»، قال صاحب النزل، «ألم يجر إذاً تحقيق معك؟» «لا»، قال ك.، «لم أدع نفسي يُحقق معي.» «لما لا؟» سأل صاحب النزل. «لم أعرف»، قال ك. «لماذا عليّ أن أدع نفسي تتعرض لتحقيق، لماذا عليّ أن أخضع لتسلية أو نزوة رسمية. ربما أكون خليقاً في مرة أخرى أن أفعل ذلك تسلية

أو نزوة بالمثل، أما اليوم فلا. «نعم يقيناً»، قال صاحب النزل، غير أن ذلك كان موافقة مهذبة وليست مقنعة. «يتعيّن عليّ الآن أن أدخل الخدم إلى المشرب»، قال من ثم، «إنها ساعتك منذ مدة طويلة. لم أشأ أن أزعج التحقيق وحسب.» «هل كنت تعتبر الأمر بهذه الأهمية؟» سأل ك. «أوه نعم»، قال صاحب النزل. «كان عليّ إذاً أن لا أرفض الموضوع؟ سأل ك. «لا»، قال صاحب النزل، «كان عليك أن لا تفعل ذلك.» إذ صمت ك.، أضاف، سواء كي يواسي ك.، أو كي ينصرف بسرعة: «حسناً، حسناً، لكن لهذا السبب لا يجب أن تمطر السماء على الفور كبريتاً.» «لا»، قال ك.، «لا يبدو الطقس مناسباً لذلك.» وافترقا وهما يضحكان.

١٠

في الشارع

خرج ك. إلى الدرج الخارجي الذي تعصف الريح به بشدة ونظر في العتمة. طقس سيئ، سيئ. على نحو ما بعلاقة به خطر بباله كيف كانت صاحبة النزل قد سعت كي يخضع للمحضر، وكيف كان قد قاوم. لم يكن الأمر طبعاً مسعى على المكشوف، في السر كانت في الوقت نفسه قد سحبته بعيداً عن المحضر، في آخر الأمر لم يعرف المرء أكان قد قاوم أم تنازل. طبيعة دسّاسة، عاملة بلا حكمة على ما يبدو كما الريح، طبقاً لمهام غريبة بعيدة لم يطّلع عليها المرء قط.

ما كاد يخطو خطوتين على الطريق الريفي، حين رأى في البُعد ضوءين يتأرجحان؛ إشارة الحياة هذه سرّته وأسرع نحوهما، وهما من طرفهما كانا يتأرجحان نحوه. لم يعرف لماذا أصيب بخيبة أمل كبيرة هكذا حين تبيّن له المساعدان، كانا قادمين إليه وقد أرسلتهما فريدا على الأرجح، والمصباحان اللذان حرّراه من العتمة، التي كان يتناهى إليه منها صخب، كانا من ملكيته، مع ذلك كان خائب الأمل، كان يتوقع غرباء، ليس هذان من المعارف القديمين، اللذان كانا عبئاً عليه. لكن المساعدَين لم يكونا وحدهما، من الظلام بينهما برز برناباس. «برناباس»، نادى ك. وهو يمدّ له يده، «هل أنت آت إليّ؟» إن مفاجأة اللقاء جعلت أولاً كل إزعاج طي النسيان، الإزعاج الذي كان برناباس قد سبّبه ذات مرة لـ ك. «إليك»، قال برناباس بلطف لم يتبدل مثلما كان سابقاً، «مع رسالة من كلمّ» «رسالة من كلمّ!» قال ك. وهو يلقي برأسه إلى الوراء وأخذها بسرعة من يد برناباس. «أضيئا»، قال للمساعدين، اللذين كانا قد التصقا به يميناً ويساراً ورفعا المصباحين. اضطر ك. إلى أن يطوي ورقة الرسالة للقراءة كي يحميها من الريح. من ثم قرأ: «إلى مسّاح الأراضي في نزل الجسر! إن أعمال المساحة التي قمت بإنجازها حتى الآن تلقى اعترافي. كذلك أعمال المساعدَين جديرة بالثناء؛ إنك تعرف جيداً كيف تدفعهما إلى العمل. لا تتراخَ في حماستك! أنهِ الأعمال نهاية طيبة! من شأن انقطاع أن يسخطني. للمناسبة، كن مرتاحاً، مسألة دفع المكافأة سوف يُبتّ فيها قريباً. سوف

أراقبك.» لم يرفع ك. نظره عن الرسالة إلا حين نادى المساعدان القارئان ببطء أكثر بكثير احتفاء بالأخبار الطيبة بصوت عال ثلاث مرات هورّا وهما يؤرجحان المصباحين. «الزما الهدوء»، قال لهما ولبرناباس: «إنه سوء تفاهم.» ولم يفهمه برناباس. «إنه سوء تفاهم»، كرر ك. وعاد تعب بعد الظهر، الطريق إلى المدرسة لاح له بعيداً هكذا، وخلف برناباس كانت تقف كامل أسرته، وكان المساعدان ما فتئا يلتصقان به، بحيث إنه دفعهما بعيداً بمرفقيه؛ كيف كان في مقدور فريدا أن ترسلهما إليه، إذ إنه كان قد أمر بأن يمكثا لديها. حريّ به أن يجد الطريق إلى البيت بمفرده أيضاً ووحده بسهولة أكبر مما هو الحال مع هذه الرفقة. والآن كان أحدهما قد لفّ منديلاً حول عنقه راحت أطرافه الطليقة ترفرف في الريح وتضرب وجه ك.، غير أن المساعد الآخر طفق على الفور يُبعد دائماً المنديل عن وجه ك. بأطراف أصابعه الطويلة التي كان لا يكفّ عن العبث بها، لكنه بهذا لم يعمل الوضع أفضل. حتى إنه بدا على الاثنين أنهما وجدا استحساناً بهذا التجاذب، كما كانت الريح بعامة وعدم هدوء الليل يثيران حماستهما. «انصرفا!» صاح ك.، «إذا كنتما قد أتيتما لمقابلتي، فلماذا لم تحضرا عصاي؟ بماذا يجب عليّ إذاً أن أسوقكما إلى البيت؟» اختبأا وراء برناباس، غير أنهما لم يكونا وجلين كثيراً، بحيث يضعان مصباحيهما يميناً ويساراً على كتفي حاميهما، وقد نفضهما طبعاً في الحال. «برناباس»، قال ك. وقد أثقل على قلبه أن برناباس على نحو بيّن لم يفهمه، أن سترته كانت تلمع في الأوقات الهادئة لمعاناً جميلاً، أما عندما كان الوضع يصبح جدياً، فما كان ثمة مساعدة، فقط مقاومة صامتة، مقاومة ضد من لم يكن في مقدور المرء أن يكافحه، إذ هو نفسه كان أعزل، ابتسامته وحسب كانت تضيء، لكن هذا لم يكن ليساعد أكثر من مساعدة النجوم في الأعلى ضد الإعصار العاصف هنا في الأسفل. «انظر ما يكتب السيد لي»، قال ك. وهو يمدّ له الرسالة أمام وجهه. «السيد محاط علماً على نحو خاطئ. إنني لا أقوم بأعمال مساحة وما قيمة المساعدَين تراه بنفسك. والعمل الذي لا أقوم به، لا أستطيع طبعاً أن أتوقف عنه، ولا حتى سخط السيد أستطيع أن أثير، كيف يمكنني أن أستحق اعترافه! ولن يكون في مقدوري أبداً أن أرتاح.» «سوف أبلّغ هذا»، قال برناباس الذي كان طوال الوقت يحرف نظره عن الرسالة، والتي لم يكن في مقدوره طبعاً أن يقرأها مطلقاً، إذ كانت تلاصق وجهه. «آه»، قال ك.، «إنك تعدني بأنك ستبلّغ الموضوع، لكن هل يمكنني أن أصدقك فعلاً؟ إنني بحاجة ماسّة إلى ساع جدير بالثقة، الآن أكثر من أي وقت مضى!» عضّ ك. شفتيه لنفاد صبره. «أيها السيد»، قال برناباس وهو يميل عنقه ميلاً رفيقاً ـ كاد هذا يغري ك. بتصديق برناباس ـ «يقيناً سوف أبلّغ الأمر، كذلك ما كلفتني به مؤخراً سوف أبلّغه بالتأكيد.» «كيف!» نادى ك.، «ألم تبلّغ هذا إذاً بعد؟ ألم تكن إذاً في القلعة في اليوم التالي؟» «كلا»، قال برناباس، «والدي الطيب متقدم في السن، لقد رأيته أنت، وكان ثمة عمل كثير هنا، كان عليّ أن أساعده، لكن الآن سوف أذهب إلى القلعة مرة أخرى قريباً.» «لكن ماذا تفعل إذاً، أيها الإنسان غير المعقول؟»، نادى ك. وهو يضرب جبينه بكفّه، «ألا تتقدم أشياء كلمّ على كل شيء آخر؟

لديك منصب عال هو منصب ساعي وتديره على نحو مزرٍ هكذا؟ من يهمّه عمل والدك؟ كلمّ ينتظر الأخبار وأنت، بدلاً من أن تتكفئ في الجري، تؤثر أن تكنس الروث من الحظيرة.» «والدي إسكافيّ»، قال برناباس دون أن يلوي على شيء آخر، «لديه طلبيات من برونسفيك، وأنا حقاً مساعد الوالد.» «إسكافي - طلبيات - برونسفيك»، نادى ك. متشدداً، وكأنه يعمل كل كلمة من الكلمات غير قابلة للاستعمال إلى الأبد. «ومن يحتاج هنا إذاً أحذية على الطرق الخالية أبد الدهر. وماذا يهمني كل هذه الإسكافية، لقد ائتمنتك على رسالة، لا لكي تنساها على مقعد الإسكافي وتلخبطها، بل لكي تحملها إلى السيد على الفور.» هنا هدّأ ك. من روعه بعض الشيء، إذ خطر بباله أن كلمّ على الأرجح لم يكن في القلعة طوال الوقت، بل كان في نزل السادة، غير أن برناباس استثاره مرة أخرى، حين شرع في تلاوة رسالة ك. الأولى للتدليل على أنه حفظها على خير وجه. «كفى، لا أريد أن أعرف شيئاً»، قال ك. «لا تغضب مني، يا سيدي»، قال برناباس وكأنه أراد بلا وعي أن يعاقب ك.، فأشاح عنه ببصره وخفض عينيه، لكن ذلك كان هلعاً من صراخ ك. «لست غاضباً منك»، قال ك. وقد انقلب اضطرابه على نفسه، «ليس منك، غير أن الموضوع سيئ جداً لي، أن لا يكون لديّ سوى مثل هذا الساعي للأمور المهمة.» «انظر»، قال برناباس وقد لاح كأنه يقول، مدافعاً عن شرف عمله كساع، أكثر مما يسمح له بالقول، «كلمّ لا ينتظر الأخبار، حتى إنه ينزعج عندما أحضر، 'مرة أخرى أخبار جديدة' قال ذات مرة وفي الغالب ينهض واقفاً حين يراني قادماً من بعيد، يدخل إلى الغرفة الجانبية ولا يستقبلني. كما أنه ليس مقرراً أنه يجب عليّ أن أحضر على الفور مع كل رسالة، لو كان هذا مقرراً، لكان من شأني أن أحضر طبعاً على الفور، لكن ما من قرار بشأن ذلك، وإذا لم آت قط، فلن يجري تحذيري. عندما أحضر رسالة، فإن هذا يحدث تطوعاً.» «حسناً»، قال ك. وهو يراقب برناباس صارفاً نظره عمداً عن المساعدَين، اللذين كانا بالتناوب يصعدان ببطء خلف كتفي برناباس كأنما يصعدان من العمق وبسرعة يختفيان ثانية بصفير خفيف يحاكي صفير الريح، وكأنهما ذُعرا من رؤية ك.، هكذا طفقا يتسليان مدة طويلة، «لا أدري كيف هو الحال لدى كلمّ؛ وأشك بأنك تستطيع أن تعرف هناك كل شيء معرفة دقيقة وحتى لو كان ذلك في مقدورك، فإننا لا نستطيع إصلاح هذه الأمور. لكن في مقدورك تبليغ رسالة وأنا أرجوك أن تفعل ذلك. رسالة قصيرة للغاية. هل تقدر أن توصّلها غداً مباشرة وتقول لي الجواب غداً مباشرة أو تعلمني على الأقل كيف جرى استقبالك؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك وهل تريد أن تقوم به؟ هذا خليق أن يكون ذا قيمة كبيرة لي. وقد تأتي فرصة تتيح لي تقديم شكري لك على نحو مناسب أو ربما يكون لديك الآن أمنية أستطيع تحقيقها.» «يقيناً سوف أقوم بالمهمة»، قال برناباس. «وهل تريد أن تبذل جهداً كي تقوم بها على نحو جيد إن أمكن، أن تسلّمها إلى كلمّ نفسه، وأن تحصل على الجواب من كلمّ نفسه ومباشرة، كل شيء مباشرة، غداً، قبل الظهر، هل تريد أن تفعل ذلك؟» «سوف أفعل كل ما يمكنني»، قال برناباس، «لكن هذا ما أفعله دائماً.» «لا نريد بعد الآن أن نتشاجر حول ذلك»،

قال ك.، «هذه هي المهمة: مسّاح الأراضي يرجو السيد الرئيس أن يسمح له بمقابلته شخصياً، إنه يقبل سلفاً كل شرط يمكنه أن يرتبط بمثل هذا السماح. إنه مرغم على تقديم طلبه لأن جميع الوسطاء حتى الآن أخفقوا على نحو كامل، للتدليل على ذلك يورد أنه لم يقم حتى الآن بأقل عمل من أعمال المساحة، وكذلك طبقاً لتبليغات عمدة القرية لن يقوم بأي عمل مساحة في أي يوم من الأيام؛ لذا فإنه قرأ رسالة السيد الرئيس الأخيرة بخزي يائس، وحدها المقابلة الشخصية لدى السيد الرئيس يمكن أن تساعد هنا. يعرف مسّاح الأراضي كم هو كثير ما يلتمسه، بيد أنه سوف يبذل جهده كي يجعل إزعاج السيد الرئيس لا يُحسّ كثيراً إن أمكن، إنه يخضع لكل تحديد للوقت، كما أنه يخضع مثلاً لتحديد تُرى ضرورته لعدد الكلمات التي يُسمح له باستعمالها أثناء المقابلة، أجل بعشر كلمات يظن أنه يستطيع أن يكتفي. في إجلال بالغ وأقصى نفاد صبر ينتظر القرار.» كان ك. قد تحدث في إنكار للذات وكأنه يقف أمام باب كلمّ ويتحدث مع حارس الباب. «لقد طال الوقت أكثر بكثير مما كنت أظن»، قال من ثم، «لكن يتعيّن عليك تبليغ الكلام شفهياً، لا أريد أن أكتب رسالة، إنها قمينة أن تقطع مرة أخرى وحسب طريق الملفات اللانهائي.» وهكذا شخبط ك. الكلام لبرناباس وحده على قصاصة ورق على ظهر أحد المساعدَين، في حين أضاء الآخر، غير أن ك. استطاع أن يكتب حسب إملاء برناباس، الذي كان قد حفظ كل شيء وألقاه بالتمام والكمال بطريقة مدرسية، دون أن يهتم بهمس المساعدَين. «ذاكرتك استثنائية»، قال ك. وهو يعطيه الورقة، «لكن أرجو أن تظهر نفسك استثنائياً في الأمر الآخر أيضاً. والأمنيات؟ ليس لديك أمنيات؟ أقول بصراحة، من شأن الأمر أن يريحني بعض الشيء بخصوص مصير رسالتي، إذا كان لديك بعض الأمنيات؟» في البداية ظل برناباس صامتاً، ثم قال: «أختاي تبلّغانك تحياتهن.» «أختاك»، قال ك.، «نعم، الفتاتان الفارعتان القويتان.» «كلتاهما تبلّغانك تحياتهن، لكن خصوصاً أماليا»، قال برناباس، «كما أنها أحضرت لي اليوم هذه الرسالة لك من القلعة.» متمسكاً بهذا الخبر قبل كل شيء آخر سأل ك.: «أليس في مقدورها أن توصّل رسالتي أيضاً إلى القلعة؟ أو ألا تستطيعان أن تذهبا كلاكما وكل يجرب حظه؟» «لا يجوز لأماليا أن تدخل المكاتب»، قال برناباس، «وإلا فإنها قمينة أن تقوم بذلك بالتأكيد برغبة كبيرة.» «ربما أحضر إليكم غداً»، قال ك. «تعال أنت أولاً بالجواب وحسب. سأنتظرك في المدرسة. بلّغ أيضاً تحياتي إلى أختيك.» بدا وعد ك. أنه يسعد برناباس كل السعادة، بعد مصافحة الوداع مسّ فوق ذلك كتف ك. مسّاً عابراً. هكذا كأن كل شيء الآن عاد مثلما كان آنذاك حين دخل برناباس أولاً في بهائه بين الفلاحين إلى قاعة الحانة، أحس ك. هذا المسّ، لكن وهو يبتسم، امتيازاً. وقد بات أكثر دماثة ولطفاً ترك المساعدَين يفعلان على طريق العودة ما يشاءان.

١١

في المدرسة

وصل إلى البيت وهو يحس برداً شديداً، كانت العتمة في كل مكان، كانت الشمعتان في المصباحين قد خمدتا، مقاداً من المساعدَين اللذين كانا يعرفان المكان هنا، تلمّس طريقه إلى غرفة صف - «أول إنجاز لكما جدير بالثناء»، قال متذكراً رسالة كلمّ - وهي ما زالت في شبه نوم نادت فريدا من إحدى الزوايا: «اتركا ك. ينام! لا تزعجانه!» كان ك. يشغل أفكارها كثيراً، حتى لو لم يكن في مقدورها وقد غلبها النعاس أن تتوقع حضوره. الآن أضيء النور، غير أنه لم يمكن فتح السراج بشدة، إذ لم يكن فيه سوى كمية قليلة جداً من زيت الكاز. في التدبير المنزلي الفتيّ كان ما زال ثمة نواقص متنوعة. صحيح أن المدفأة كانت قد أوقدت، لكن الغرفة الكبيرة، التي كانت تستخدم لدروس الرياضة أيضاً - كانت أدوات الجمباز تتناثر على الأرض وتتدلى من السقف - كانت قد استنفدت كل مخزون الحطب، كانت أيضاً دافئة على نحو مريح للغاية، كما جرى التأكيد لـ ك.، لكنها مع الأسف بردت كلياً مرة أخرى. كان يوجد حقاً مخزون حطب كبير في مخزن، غير أن هذا المخزن كان مغلقاً والمفتاح كان مع المعلم، الذي كان لا يسمح باستخدام الحطب إلا للتدفئة خلال ساعات الدرس. كان من شأن هذا أن يُحتمل، لو كان يوجد فُرش لكي يلوذ بها المرء. لكن من هذه الناحية لم يكن يوجد هنا شيء آخر سوى كيس وحيد من القش، مكسوّ على نحو نظيف جدير بالاعتراف بملاءة من الصوف تخص فريدا، لكن بلا أغطية ريش وفقط ببطانيتين خشنتين قاسيتين تكادان لا تدفئان. وحتى كيس القش المسكين هذا نظر المساعدان إليه طامعين فيه، لكن طبعاً لم يكن لديهما أمل أن يُسمح لهما قط بالرقاد فوقه في أي وقت كان. خائفة نظرت فريدا إلى ك.؛ حقيقة أنها كانت تعرف كيف تؤثث غرفة لتصبح مريحة ولو كانت أكثر الغرف بؤساً، كانت برهنت عليها في حانة الجسر، أما هنا فإنه لم يعد في مقدورها أن تنجز، دونما أية وسيلة، كما كانت تنجز. «زينتنا الوحيدة في الغرفة هي أدوات الجمباز»، قالت وهي تبتسم

بمشقة وعيناها مبللتان بالدمع. لكن في ما يخص النواقص الكثيرة والتدفئة وإمكانية النوم غير الكافية وعدت بتصميم بأنها سوف تسدّ النواقص اعتباراً من اليوم التالي ورجت ك. أن يتحلى بالصبر إلى ذلك الحين وحسب. ما من كلمة، ما من إشارة، ما من ملمح كان يسمح بالاستنتاج بأنها تحمل في قلبها ولا حتى أدنى مرارة ضد ك.، مع أنه، كما كان عليه أن يقول لنفسه، كان قد انتزعها من حانة السادة كما الآن أيضاً من حانة الجسر. لكن لهذا السبب سعى ك. لأن يجد كل شيء مقبولاً، الأمر الذي لم يكن عسيراً عليه مطلقاً، وذلك لأنه كان في أفكاره يتجول مع برناباس ويكرر رسالته كلمة كلمة، لكن ليس كما كان قد سلّمها إلى برناباس، بل كما كان يعتقد أنها سوف تُسمع أمام كلمّ. لكن إلى جانب ذلك سرّ حقاً سروراً صادقاً بالقهوة التي أعدتها له فريدا على الموقد الكحولي وطفق يتابع مستنداً إلى المدفأة التي راحت تبرد أكثر حركاتها الرشيقة التي فرشت بها على منصة المعلم المفرش الأبيض الضروري، ووضعت فنجان قهوة موشّى بالأزهار، وإلى جانبه خبزاً وقطعة لحم مملحة وحتى علبة سردين. والآن أصبح كل شيء جاهزاً، وكانت فريدا أيضاً لم تتناول طعاماً بل كانت قد انتظرت ك. كان ثمة كرسيان، وهناك جلس ك. وفريدا إلى مائدة الطعام، وجلس المساعدان إلى أقدامهما على قاعدة المنصة، غير أنهما لم يمكثا لحظة هادئين، حتى أثناء الطعام كانا يزعجان؛ مع أنهما كانا قد حصلا على كمية وافرة من كل شيء ولم يكونا قد فرغا بعد، كانا ينهضان من حين إلى آخر كي يتأكدا هل ما زال الكثير على الطاولة ويمكنهما أن يتوقعا الحصول على بعض الأشياء. لم يهتمّ ك. بهما، وفقط من خلال ضحك فريدا انتبه إليهما. غطى يدها على الطاولة بيده ملاطفاً وسألها بصوت منخفض، لماذا تعذرهما في أشياء كثيرة، لا بل تقبل برفق حتى شقاوات. بهذه الطريقة لن يستطيع المرء التخلص منهما في يوم من الأيام، في حين أنه قد يمكن تحقيق ذلك بمعاملة قوية نوعاً ما تتناسب فعلاً مع تصرفاتهما؛ إما كبح جماحهما أو ما هو أرجح وأفضل تنغيص عملهما عليهما إلى درجة يلوذان معها بالفرار. يبدو أن الإقامة هنا في مبنى المدرسة لا تريد حقاً أن تصبح إقامة مريحة كثيراً، ثم إنها لن تدوم مدة طويلة، لكن من سائر النواقص لن يلاحظ المرء شيئاً إذا ما انصرف المساعدان وبقي هو وهي وحدهما في المبنى الهادئ. ألا تلاحظ إذاً أن المساعدَين يصبحان أكثر وقاحة يوماً بعد يوم، هكذا كأنه لا يشجعهما سوى وجود فريدا والأمل بأن ك. لن يشمّر أمامها عن ساعد الجِدّ، كما هو خليق أن يفعل في ما عدا ذلك. للمناسبة، ربما كان يوجد وسائل بسيطة للغاية للتخلص منهما فوراً بدون كل الأسباب، ربما تعرفها فريدا نفسها، هي التي تعرف الظروف هنا خير معرفة. وللمساعدَين نفسيهما لا يفعل المرء شيئاً على الأرجح إلا صنيعاً، إذا ما طردهما المرء بطريقة ما، ذلك أن نعيم الحياة التي يعيشانها هنا ليس كبيراً جداً حقاً، وحتى التكاسل الذي تمتعا به حتى الآن سوف يتوقف هنا على الأقل جزئياً، إذ سوف يجب عليهما

أن يعملا، في حين أنه يتعيّن على فريدا أن ترفق بنفسها بعد اضطراب الأيام الماضية وهو، ك.، سيكون مشغولاً بإيجاد مخرج من عسر وضعهما. بيد أنه، إذا ما انصرف المساعدان، سوف ينشرح صدره بحيث أنه سوف يتمكن بسهولة من القيام بكل أعمال حاجب المدرسة إلى جانب كل ما عدا ذلك من أعمال.

فريدا، التي كانت قد أصغت بانتباه، داعبت ذراعه وقالت إن كل هذا إنما هو رأيها هي أيضاً، لكنه ربما كان يبالغ في تقدير شقاوات المساعدَين، إنهما غلامان صغيرا السن، مرحان وساذجان بعض الشيء، يقومان بخدمة غريب لأول مرة، بعد فصلهما من الطاعة الصارمة في القلعة، لذا فإنهما منفعلان دائماً وأبداً بعض الشيء ودَهِشان، وفي هذه الحال يقترفان أحياناً حماقات، من الطبيعي أن تثير استياء حقاً، لكن من الحكمة أكثر أن تثير الضحك. مع ذلك إنها موافقة مع ك. كل الموافقة على أنه من الأفضل صرفهما والبقاء وحدهما معاً. اقتربت من ك. وأخفت وجهها على كتفه. وهناك قالت على نحو يصعب فهمه بحيث أن ك. اضطر أن ينحني فوقها، لكنها لا تعرف وسيلة ضد المساعدَين وهي تخشى أن كل ما كان ك. قد اقترحه، سوف يفشل. على حدّ علمها قام ك. نفسه بطلبهما والآن هما لديه وسوف يحتفظ بهما. من الأفضل قبولهما ببساطة بصفتهما من البسطاء، هكذا يتحملهما المرء على أحسن صورة.

لم يكن ك. راضياً بالإجابة، في لهجة بين المزاح والجد قال إنها تبدو متحالفة معهما حقاً أو على الأقل إنها تميل إليهما ميلاً كبيراً، حسناً إنهما غلامان جميلان لكن لا يوجد أحد إلا ويمكن التخلص منه ببعض الإرادة الطيبة وسوف يبرهن لها على ذلك في المساعدَين.

قالت فريدا إنها ستكون شاكرة له كل الشكر إذا أفلح في ذلك. للعلم، من الآن فصاعداً لن تضحك عليهما بعد ولن تتحدث معهما كلمة غير ضرورية. كما أنها لا تجد فيهما ما يضحك، كما أنه فعلاً ليس أمراً قليلاً أن تكون مراقبة على الدوام من قبل رجلين، وقد تعلمت أن ترى الاثنين بعينيه. وفعلاً أصابتها رجفة حين نهض المساعدان الآن ثانية، مرة لفحص كمية الطعام، ومرة لتقصّي الهمس المتواصل.

استغلّ ك. هذا لتزهيدها في المساعدَين، سحب فريدا إليه وفرغا من الطعام وهما متلاصقان. الآن كان حريّاً بالجميع أن يذهبوا إلى النوم وجميعهم كانوا متعبين، بل إن أحد المساعدَين غشيه النوم أثناء الطعام، وقد سلّى هذا المساعد الثاني كل التسلية وأراد أن يحمل السيد والسيدة على التطلع إلى الوجه الأبله للنائم، غير أنه لم يفلح في هذا، كان ك. وفريدا يجلسان في الأعلى في وضع استنكاف. كما أنهما في هذه البرودة المتزايدة على نحو لا يطاق ترددا في الذهاب إلى النوم، في نهاية الأمر أعلن ك. أنه يجب إشعال المدفأة، وإلا فإنه من غير الممكن أن يناما. طفق يبحث عن أي فأس، وكان المساعدان يعرفان عن فأس فجلباها

وذهبا بها إلى مخزن الحطب. بعد مدة وجيزة كان الباب قد كُسر، مبتهجين كأنهما لم يشهدا بعد شيئاً جميلاً هكذا، مطاردين كل منهما الآخر ومتدافعين، شرع المساعدان في نقل حطب إلى غرفة الصف، وسرعان ما تجمّعت هناك كومة كبيرة، أشعلت المدفأة، وجلس الجميع حولها، حصل المساعدان على بطانية كي يلتفا بها وكانت تكفيهما كلياً، حيث جرى الاتفاق على أن يظل أحدهما مستيقظاً دائماً ويحافظ على النار، بعد قليل بات الوضع لدى المدفأة دافئاً جداً، بحيث أنه لم يعد المرء بعد الآن يحتاج إلى البطانيات، أطفئ المصباح وسعيدان بالدفء والسكون تمدد ك. وفريدا للنوم.

حين استيقظ ك. في الليل على صوت جلبة ما وراح في أول حركة نوم غير واثقة يتلمس نحو فريدا، لاحظ أن بدلاً من فريدا كان أحد المساعدَين يرقد إلى جانبه. كان هذا، على الأرجح نتيجة الانفعال الذي يثيره الاستيقاظ المفاجئ، الذعر الأكبر الذي عاشه حتى الآن في القرية. مطلقاً صرخة نهض نصف نهضة ولكمَ وهو غائب عن صوابه المساعدَ لكمة شديدة بحيث أنه بدأ يبكي. وعلى الفور اتضح الأمر كله. كانت فريدا قد أوقظت بأنَّ ـ على الأقل هكذا خيّل لها ـ حيواناً كبيراً ما، قطة على الأرجح، قفز على صدرها ومن ثم ولّى مسرعاً على الفور، كانت قد نهضت وطفقت تبحث مع شمعة عن الحيوان في الغرفة بكاملها. وهذا ما استغله أحد المساعدَين كي يوفر لنفسه متعة كيس القش برهة من الزمن، الأمر الذي عوقب عليه الآن عقاباً مؤلماً. أما فريدا فإنها لم تتمكن من العثور على شيء، ربما كانت المسألة مجرد خداع، عادت إلى ك.، وفي طريقها، وكأنها نسيت حديث المساء، مسحت بيدها مواساة على شعر المساعدَ الذي كان ينهنه وهو متكور. لم يقل ك. شيئاً حول ذلك، فقط أمر المساعدَ أن يكفّ عن إشعال المدفأة، إذ كانت الغرفة دافئة أكثر من اللازم بعد استهلاك كل الحطب تقريباً الذي كان قد جُمع.

في الصباح لم يستيقظ الجميع إلا بعد أن كان أوائل التلاميذ قد حضروا وأحاطوا بالمرقد بفضول. كان هذا أمراً غير مريح، إذ نتيجة الحرارة الشديدة، التي كانت الآن في ساعات الصباح لكنها قد تراجعت أمام برودة شديدة، كان الجميع قد خلعوا ملابسهم باستثناء القميص وبالذات عندما شرعوا في ارتداء ملابسهم ظهرت في الباب غيزا، المعلمة، فتاة شقراء الشعر طويلة القامة جميلة لكن مشدودة القامة بعض الشيء. كانت قد هيأت نفسها بشكل ملحوظ للحاجب الجديد كما أنها كانت قد حصلت من المعلم على تعليمات، إذ قالت وهي لم تتجاوز العتبة: «هذا ما لا أستطيع قبوله. يا لها من ظروف جميلة. لديك فقط إذن بأن تنام في غرفة الصف، أما أنا فلست ملزمة بأن أعطي دروساً في غرفة نومك. أسرة حاجب مدرسة تتمطى في أسرّتها حتى الضحى. يا للعار!» حسناً، ضد هذا يمكن قول بعض الأمور، لا سيما بخصوص الأسرة والأسرّة، هكذا فكر ك. في حين كان مع فريدا ـ لم يكن المساعدان

يصلحان لهذا، راقدين على الأرض طفقا ينظران بدهشة إلى المعلمة والتلاميذ - يحرك المتوازيين والحصان بسرعة، ويغطيهما بالبطانيات وهكذا تشكل مكان صغير أمكن فيه ارتداء الملابس على الأقل في مأمن من نظرات الأطفال. لكن لم يكن ثمة هدوء في أية لحظة، في البدء زجرت المعلمة لعدم وجود مياه نظيفة في حوض الغسيل - منذ لحظات كان ك. قد فكر أن يحضر حوض الغسيل لنفسه ولفريدا، تخلى عن مراده في بادئ الأمر، كي لا يستثير المعلمة أكثر من اللازم، غير أن الاستغناء لم يفد شيئاً، إذ بعد برهة من ذلك جرت ضجة كبيرة، إذ لسوء الحظ كان المرء قد نسي إزالة بقايا طعام العشاء من على منصة المعلم، المعلمة أزالت كل الأشياء بالمسطرة، فتطايرت إلى الأرض؛ أنَّ زيت السردين وبقايا القهوة سالت، وأنَّ إبريق القهوة تحطم، بهذا لم يكن على المعلمة أن تعبأ، فلا ريب أن الحاجب سيرتّب الوضع في الحال. وهما ما زالا لم يكملا ارتداء ملابسهما طفق ك. وفريدا وهما يستندان إلى المتوازيين يتفرجان على تحطيم متاعهما القليل، أما المساعدان، اللذان لم يفكرا قط على ما يبدو بارتداء ملابسهما، فقد كانا يتلصصان في الأسفل من تحت البطانيات، وكان ذلك تسلية كبيرة للأطفال. أكثر ما آلم فريدا كان طبعاً خسارة إبريق القهوة، فقط إذ أكّد لها ك.، كي يواسيها، أنه سيذهب إلى العمدة في الحال ويطلب بديلاً ويحصل عليه، تماسكت بحيث إنها، وهي لا ترتدي سوى قميص وتنورة، جرت من التحويطة كي تحضر البطانية على الأقل وتقيها مزيداً من الاتساخ. وهذا ما تمّ لها أيضاً، مع أن المعلمة طفقت، لتخويفها، تطرق بالمسطرة على الطاولة باستمرار على نحو محطم للأعصاب. وإذ ارتدى ك. وفريدا ملابسهما، كان عليهما أن يدفعا المساعدَين، اللذين كانا وكأنهما دائخان من الأحداث، ليس فقط بأوامر وضرب كي يرتديا ملابسهما، بل حتى إلباسهما بنفسهما قسماً من الثياب. من ثم إذ فرغ الجميع، عمد ك. إلى توزيع الأعمال القادمة، كان على المساعدَين أن يقوما بجمع الحطب وإشعال المدفأة، لكن في بادئ الأمر في غرفة الصف الأخرى، التي كان ما يزال ينبعث منها مخاطر كبرى، إذ كان المعلم يوجد فيها على الأرجح، كان على فريدا أن تمسح الأرضية ومن شأن ك. أن يجلب ماء ويقوم بترتيبات أخرى، بطعام إفطار لم يكن بالإمكان التفكير مؤقتاً. لكن كي يكتشف بعامة مزاج المعلمة، أراد ك. أن يخرج أولاً، وعلى الآخرين أن يتبعوه فقط عندما يناديهم، قرر هذا الترتيب من طرف لأنه لم يشأ أن يدع الوضع منذ البداية يتفاقم سوءاً بسبب شيطنات المساعدَين ومن طرف آخر لأنه أراد أن يخفف عن فريدا إن أمكن، إذ كانت طموحة، أما هو فلا، كانت حساسة، أما هو فلا، كانت لا تفكر إلا في البشاعات الصغيرة الراهنة، أما هو فكان يفكر في برناباس والمستقبل. تبعت فريدا سائر تعليماته بدقة، وما كادت تتركه يغيب عن ناظريها. ما كاد يتقدم حتى نادت المعلمة تحت ضحكات الأطفال، التي لم تعد بعد الآن تتوقف مطلقاً: «هه، هل شبعتم نوماً؟» وإذ لم يعبأ ك. بذلك، لأن الموضوع لم يكن سؤالاً حقيقياً، بل انطلق إلى حوض الغسيل، سألت المعلمة: «ماذا فعلت إذاً لقطتي؟»

كانت قطة كبيرة عجوزاً مكتنزة ترقد ممددة بخمول على المنصة والمعلمة تفحص خفّها المصاب على ما يبدو. كانت فريدا إذاً ولا ريب على حق، هذه القطة لم تكن، صحيح، قد قفزت عليها، إذ إنها بالتأكيد لم تعد تستطيع القفز، لكنها كانت قد مرّت فوقها زحفاً، كانت قد أصيبت بذعر من وجود بشر في الدار الخالية في ما عدا ذلك، كانت قد اختبأت على عجل وجرحت نفسها في هذه العجلة غير المألوفة لديها. حاول ك. أن يوضح الأمر للمعلمة بهدوء، غير أن هذه فطنت إلى النتيجة وحدها وقالت: «حسناً، لقد جرحتموها، بهذا قدمتم نفسكم هنا. انظر» ونادت ك. إلى المنصة، أرته الخف وقبل أن يتوقع شيئاً أحدثت بالمخالب خدشاً على ظهر يده؛ صحيح أن المخالب كانت ثالمة، لكن المعلمة كانت، هذه المرة دون مراعاة القطة، قد غرزتها بشدة بحيث ظهرت آثار دم. «والآن اذهب إلى عملك»، قالت بنفاد صبر وهي تنحني إلى القطة ثانية. فريدا، التي كانت تشاهد مع المساعدَين خلف المتوازيين، صرخت لدى رؤيتها الدم وك. أظهر اليد للأطفال وقال: «انظروا، هذا فعلته لي قطة خبيثة محتالة.» لم يقل ذلك طبعاً من أجل الأولاد، الذين بات صراخهم وضحكهم مستقلاً بحيث أنه لم يعد يحتاج إلى مناسبة أو إثارة أخرى، وحيث إنه ما من كلمة تقدر أن تنفذ إليه أو تؤثر فيه. لكن إذ إن المعلمة أيضاً لم تردّ على الإهانة إلا بنظرة جانبية قصيرة وظلت في ما عدا ذلك مشغولة بالقطة، أي إن الغضب الأول بدا وقد انتقم له بالعقوبة الدموية، فإن ك. نادى على فريدا والمساعدَين والعمل بدأ.

لمّا كان ك. قد حمل الدلو بالماء الوسخ إلى الخارج، وأحضر ماء نظيفاً وبدأ الآن في كنس غرفة الصف، تقدم صبي في نحو الثانية عشرة من عمره من مقعده، مسّ يد ك. وقال شيئاً غير مفهوم بتاتاً في الضجة الكبيرة. هنا هدأت فجأة كل ضجة. استدار ك. لقد حدث ما كان يخشاه طوال الصباح. كان المعلم يقف في الباب، بكل يد من يديه كان يمسك، هو الرجل الصغير، أحد المساعدَين من ياقته. لا ريب أنه كان قد قبض عليهما وهما يجمعان الحطب، حيث إنه نادى بصوت مدوّ وبعد كل كلمة كان يتوقف لحظة: «من تجرأ على السطو على مخزن الحطب؟ أين هو هذا الشخص حتى أسحقه؟» هنا نهضت فريدا من على الأرض التي كانت تبذل جهدها كي تنظفها عند أقدام المعلمة، نظرت نحو ك. كأنها تبغي أن تستمدّ قوة، وقالت، حيث كان ثمة شيء من تفوقها القديم في نظرتها ووقفتها: «أنا فعلت ذلك، أيها السيد المعلم. لم أعرف كيف أساعد نفسي بطريقة أخرى. إذا وجب تدفئة غرفتي الصف باكراً، فلا بدّ من فتح المخزن، ولم أجرؤ على إحضار المفتاح منك في الليل، خطيبي كان في حانة السادة، وكان من الممكن أن يبقى هناك طوال الليل، هكذا كان عليّ أن أقرر وحدي. إذا كنت قد اقترفت خطأ، اعذر عدم خبرتي، لقد وبخني خطيبي بما فيه الكفاية، حين شاهد ما حدث. نعم حتى إنه منعني من التدفئة باكراً، وذلك لأنه كان يعتقد بأنك بإغلاق المخزن

أظهرتَ أنك لا تريد التدفئة في وقت باكر قبل أن تأتي. عدم التدفئة هو ذنبه إذاً، أما كسر باب المخزن فهو ذنبي.» «من كسر الباب؟» سأل المعلم المساعدَين، اللذين كانا ما فتئا يحاولان دون جدوى التخلص من قبضته. «السيد»، قالا كلاهما وهم يشيران، حتى لا يكون مجال لشك، إلى ك. ضحكت فريدا وهذا الضحك بدا أكثر إثبات من كلماتها، من ثم طفقت تعصر الممسحة، التي كانت قد مسحت بها الأرضية، في الدلو، هكذا كأن الواقعة قد انتهت بتوضيحها لها وكلمة المساعدَين ليست أكثر من مزحة متأخرة، وفقط بعد أن ركعت عائدة إلى العمل، قالت: «مساعدانا هما طفلان ما زال مكانهما، على الرغم من أعوامهما، هو مقاعد المدرسة. إذ إنني في نحو المساء فتحت الباب وحدي بفأس، كان الأمر سهلاً للغاية، ولم أكن في هذا بحاجة إلى المساعدَين، لم يكن من شأنهما سوى أن يزعجا. لكن إذ حضر من ثم خطيبي ليلاً وخرج كي يعاين الضرر وربما يصلّحه، جرى المساعدان معه، على الأرجح لأنهما كان يخافان من البقاء هنا وحدهما، شاهدا خطيبي وهو يعالج الباب المفتوح ولذا يقولان الآن ـ حسناً إنهما طفلان.» صحيح راح المساعدان أثناء شرح فريدا يهزّان رأسيهما باستمرار، ويشيران إلى ك. ويجهدان نفسيهما من خلال تعابير وجه صامتة لثني فريدا عن رأيها، وإذ لم يوفقا في هذا، أذعنا أخيراً وأخذا كلمات فريدا كأمر، وعلى سؤال متجدد من المعلم لم يجيبا بعد الآن. «هكذا»، قال المعلم، «لقد كذبتما إذاً؟ أو على الأقل اتهمتما حاجب المدرسة باستهتار؟» ظلا صامتين، لكن ارتعادهما ونظراتهما الخائفة لاحت أنها تشير إلى شعور بالذنب. «إذاً سوف أضربكما على الفور ضرباً مبرّحاً»، قال المعلم وبعث طفلاً إلى الغرفة الأخرى لإحضار قضيب الخيزران. إذ رفع القضيب، نادت فريدا: «المساعدان قالا الحقيقة فعلاً»، ألقت الممسحة يائسة في الدلو بحيث أن رذاذ الماء تطاير إلى الأعلى، وجرت خلف المتوازيين حيث اختبأت. «قوم كذابون»، قالت المعلمة التي كانت قد فرغت لتوّها من تضميد الخفّ وأخذت القطة على حضنها الذي كان كبيراً عليها أكثر من اللازم.

«يبقى إذاً السيد حاجب المدرسة»، قال المعلم، دفع المساعدين بعيداً والتفت نحو ك.، الذي كان قد استمع طوال الوقت وهو يستند إلى المكنسة: «السيد حاجب المدرسة هذا، الذي، جبناً منه، يقرّ بهدوء أن يقوم المرء باتهام آخرين اتهامات خاطئة عن أفعال لئيمة قام هو بها.» «حسناً»، قال ك.، الذي كان قد لاحظ أن تدخّل فريدا كان ولا ريب قد خفف من غضبة المعلم الأولى العارمة، «لو ضُرب المساعدان بعض الضرب، لما أثار هذا أسفاً في نفسي، عندما يُرحمان في عشر مناسبات عادلة، فيمكن معاقبتهما مرة واحدة في مناسبة غير عادلة. لكن أيضاً في ما عدا ذلك كان من شأني أن أرحّب لو أمكن تجنب وقوع صدام مباشر بيني وبينك، أيها السيد المعلم، وربما قد يكون من شأنك أنت أيضاً أن ترحّب بذلك. لكن إذ قدمتني فريدا الآن ضحية للمساعدَين» ـ هنا توقف ك.، كان يتناهى في وسط السكون صوت

فريدا تنتحب خلف البطانيات - «يجب الآن طبعاً تصفية الموضوع.» «لم يُسمع مثل هذا»، قالت المعلمة. «أنا من رأيك كلياً، آنسة غيزا»، قال المعلم، «أنت، أيها الحاجب، إنك مسرَّح طبعاً على الفور بسبب اقتراف هذه الجريرة الوظيفية المشينة، العقوبة التي ستتبع أحتفظ بأمرها لنفسي، لكن الآن انصرف في الحال مع جميع أغراضك من المدرسة. سوف يكون هذا تيسيراً حقيقياً لنا ويمكن للدرس أن يبدأ أخيراً. أسرع إذاً!» «لن أتحرك من هنا»، قال ك.، «أنت رئيسي، لكن ليس ذلك الذي منحني العمل، هذا هو عمدة القرية، لا أقبل سوى إقالته هو لي. غير أنه لم يعطني العمل كي أتجمد من البرد مع ناسي، بل - كما قلت بنفسك - كي يحول بيني وبين القيام بأعمال يائسة طائشة. لذا فمن شأن تسريحي الآن فجأة أن يكون ضد مراده مباشرة؛ لن أصدق الأمر ما دمت لم أسمع العكس من فمه. للعلم، إن الأمر يحدث على الأرجح أيضاً لصالحك كثيراً عندما لا ألبّي فصلك لي عن العمل.» «أنت لا تلبّي إذاً؟» سأل المعلم. ك. هزّ رأسه. «أعمل الفكر جيداً»، قال المعلم، «قراراتك ليست دائماً أفضل القرارات. فكر مثلاً بعصر يوم أمس عندما رفضت أن يجري استجوابك.» «لماذا تذكر هذا الآن؟» سأل ك. «لأني أحب ذلك»، قال المعلم، «والآن أكرر لآخر مرة: اخرج من هنا!» لكن إذ لم يحدث هذا أيضاً أثراً، ذهب المعلم إلى المنصة وتشاور بصوت منخفض مع المعلمة؛ هذه قالت شيئاً عن الشرطة، لكن المعلم رفض الأمر، في النهاية اتفقا، طلب المعلم من التلاميذ الانتقال إلى صفه، هناك سيجري تدريسهم بالاشتراك مع الآخرين، هذا التنويع سرّ الجميع، في وسط الضحك والصياح سرعان ما فرغت الغرفة، وتبعهم المعلم والمعلمة في آخرهم. حملت المعلمة دفتر الغياب والحضور وفوقه القطة في امتلاء جسمها بلا أي اهتمام. كان المعلم يتمنى ترك القطة هنا، غير أن المعلمة صدّت بحزم تلميحاً منه بهذا الخصوص مع الإشارة إلى قسوة ك.، وهكذا ألقى ك. القطة أيضاً على كاهل المعلم. وقد أثّر هذا ولا ريب على الكلمات الأخيرة التي وجهها المعلم وهو يقف في الباب إلى ك.: «تغادر الآنسة هذه الغرفة مع الأولاد مضطرة لأنك عناداً لا تطيع أمري بفصلك عن العمل ولأن لا أحد يستطيع أن يطلب منها، وهي فتاة شابة، أن تعطي دروساً في وسط تدبيرك المنزلي القذر. إنك تبقى إذاً بمفردك وفي مقدورك دون إزعاج من كراهة متفرجين محترمين، أن تفرض نفسك على المكان كما تشاء. لكن الأمر لن يدوم طويلاً، إنني أضمن هذا.» بهذا أغلق الباب بعنف.

١٢

المساعدان

لم يكد ينصرف الجميع، حتى قال ك. للمساعدَين: «اخرجا!» مذهولين من هذا الأمر غير المتوقع لبّيا الطلب، لكن إذ أغلق ك. الباب وراءهما، أرادا أن يعودا، راحا ينشجان باكيين ويقرعان الباب. «أنتما مسرّحان»، نادى ك.، «أبداً لن آخذكما بعد الآن في خدمتي.» لم يشاءا أن يقبلا هذا طبعاً وطفقا يطرقان على الباب بالأيدي والأقدام. «نريد العودة إليك، أيها السيد!» ناديا، كما لو كان ك. الأرض اليابسة وهما يكادان يغرقان في الفيضان. بيد أن ك. لم يرقّ قلبه، بنفاد صبر راح ينتظر حتى ترغم الضجة التي لا تطاق المعلمَ على التدخل. وما لبث هذا أن حدث. «دع مساعدَيك الملعونين يدخلان!» قال صائحاً. «لقد سرّحتهما»، ردّ ك. صائحاً. وكان لهذا تأثير جانبي غير مقصود هو تبيان النتيجة للمعلم، نتيجة أن يكون أخذهم قوياً بما فيه الكفاية، ليس فقط للإنذار وإنما أيضاً لتنفيذ التسريح. الآن حاول المعلم أن يهدّئ المساعدَين ودّياً، ليس عليهما سوى الانتظار هنا بهدوء، في آخر الأمر سوف يتعيّن على ك. أن يسمح لهما بالدخول ثانية. ثم انصرف. وربما كان من شأن السكون أن يسود الآن، لو لم يشرع ك. في مناداتهما مرة أخرى، بأنهما سُرّحا نهائياً وليس لديهما أدنى أمل بالعودة إلى العمل. نتيجة لذلك شرعا مرة أخرى بالصياح والصخب كما من قبل. مرة أخرى جاء المعلم لكنه لم يتفاوض معهما بعد ذلك، بل ساقهما من المدرسة على ما يبدو بقضيب الخيزران المرهوب.

ما لبثا أن ظهرا أمام نوافذ حجرة الرياضة، راحا يطرقان على الزجاج ويصيحان، لكن الكلمات لم تعد تُفهم بعد الآن. غير أنهما لم يمكثا هناك طويلاً، في الثلج العميق لم يكن في مقدورهما أن يتقافزا كما كان انفعالهما يقضي. لذا أسرعا إلى سور حديقة المدرسة، قفزا على القاعدة الحجرية، حيث كان يمكنهما أن ينظرا إلى داخل الغرفة على نحو أفضل، لكن فقط من بُعد، راحا يجريان هناك ذهاباً وإياباً متمسكين بالسور الحديدي، توقفا من ثم مرة أخرى

ورفعا أيديهما المشبوكة متوسلين نحو ك. هكذا استمرا على هذه الحال طويلاً، بلا مراعاة لعدم جدوى جهودهما؛ كانا كأنهما أعميا القلب والبصيرة، كما أنهما لم يتوقفا حين أسدل ك. ستائر النافذة، لكي يخلص نفسه من رؤيتهما.

في الغرفة التي أدغشت الدنيا فيها الآن ذهب ك. إلى المتوازيين، كي يبحث عن فريدا. تحت نظرته نهضت، سوّت شعرها، نشّفت وجهها، وشرعت تعدّ القهوة وهي صامتة. مع أنها كانت تعلم كل شيء، فقد أبلغها ك. رسمياً أنه سرّح المساعدَين. أومأت برأسها وحسب. جلس ك. على مقعد مدرسي وطفق يراقب حركاتها المتعبة. كانت دائماً النضارة والتصميم، هما ما أضفيا جمالاً على جسمها الخاوي، الآن كان هذا الجمال قد ذوى. بضعة أيام من الحياة المشتركة مع ك. كانت كافية لإحداث ذلك. لم يكن العمل في المشرب يسيراً، لكنه كان على الأرجح يناسبها أكثر. أم هل كان الابتعاد عن كلمّ هو السبب الحقيقي لذبولها؟ إن قُرب كلمّ جعلها مغرية على نحو جنونيّ، في هذا الإغراء كانت قد استحوذت على ك. والآن ذوت بين ذراعيه.

«فريدا»، قال ك. في الحال وضعت مطحنة القهوة جانباً وجاءت إلى ك. على المقعد. «أنت غاضب مني؟» سألت. «لا»، قال ك. «أظن أنك لا تستطيعين شيئاً آخر. كنت تعيشين راضية في حانة السادة. كان عليّ أن أتركك هناك.» «نعم»، قالت فريدا ونظرت أمامها وهي مكتئبة، «كان عليك أن تتركني هناك. إنني لست جديرة أن أعيش معك. إذا تحررت مني، يمكنك ربما أن تبلغ كل ما تريد بلوغه. مراعاة لي ترضخ للمعلم المستبد، تقوم بهذا العمل المذلّ، تقدم طلبات مضنية من أجل محادثة مع كلمّ. كل شيء من أجلي، لكنني أكافئك على نحو سيئ.» «لا»، قال ك. وهو يطوّقها بذراعه مواساة، «كلها أمور صغيرة، لا تؤلمني وإلى كلمّ لا أريد من أجلك فقط. وما أكثر ما فعلتِ من أجلي! قبل أن أعرفك، كنت أضلّ سبيلي هنا. لم يقبلني أحد وعندما كنت أتطفل على أحدهم، فسرعان ما كان ينصرف. وعندما كان في مقدوري أن أستكين للراحة لدى أحدهم، فقد كان هؤلاء أناس أعود إلى الفرار منهم، مثلاً آل برناباس -» «تهرب منهم؟ أليس كذلك؟ يا حبيبي!» قاطعته فريدا منادية بنشاط، وغرقت من ثم مرة أخرى بعد «نعم» مترددة من ك. في تعبها. لكن ك. أيضاً لم يعد يملك العزم والتصميم على إيضاح أن كل شيء قد انقلب لمصلحته من خلال ارتباطه بفريدا. رفع ذراعه عنها ببطء وجلسا هنيهة صامتين، حتى قالت فريدا، وكأن ذراع ك. كان قد منحها دفئاً لم تعد الآن تستطيع الاستغناء عنه: «لن أحتمل هذه الحياة هنا. إذا كنت تريد أن تحتفظ بي، فإنه يجب علينا أن نهاجر، إلى أي مكان، إلى جنوب فرنسا، إلى إسبانيا.» «لا أستطيع أن أهاجر»، قال ك. «لقد جئت إلى هنا، كي أبقى هنا. وسوف أبقى هنا.» وفي تناقض، لم يبذل جهداً قط لتوضيحه، أضاف وكأنه يتحدث إلى نفسه: «ماذا كان من شأنه أن يجذبني إلى هذه البلاد

القاحلة عدا الرغبة في البقاء هنا؟» من ثم قال: «لكن أنت أيضاً تريدين البقاء هنا، إنها بلادك. كلمّ وحده ينقصك وهذا يفضي بك إلى أفكار يائسة.» «هل ينقصني كلمّ؟ قالت فريدا، «من كلمّ يوجد هنا فيض، أكثر من اللازم من كلمّ؛ لكي أفلت منه، أريد أن أذهب. ليس كلمّ بل أنت تنقصني. بسببك أرغب في الذهاب؛ لأنني لا أستطيع أن أشبع منك، هنا حيث يتجاذبني الجميع. ليت اليرقة الجميلة تنزع عني، ليت جسمي يذبل، حتى أستطيع أن أعيش لديك بسلام.» لم يستشفّ ك. من ذلك سوى شيء واحد. «أما زال كلمّ على علاقة بك؟» سأل في الحال، «يستدعيك؟» «عن كلمّ لا أعرف شيئاً»، قالت فريدا، «أتحدث الآن عن آخرين، مثلاً عن المساعدَين.» «آه المساعدان»، قال ك. وقد فوجئ، «يلاحقانك؟» «ألم تلاحظ الأمر إذاً؟» سألت فريدا. «كلا»، قال ك. وحاول بلا جدوى أن يتذكر تفاصيل، «إنهما ولا ريب صبيان متطفلان وماجنان، غير أنني لم ألاحظ أنهما قد تعرضا لك.» «لا؟» قالت فريدا، «لم تلاحظ أنه لم يكن بالإمكان صرفهما من غرفتنا في نُزل الجسر، كيف كانا يراقبان علاقاتنا بغيرة، كيف رقد أحدهما مؤخراً في مكاني على كيس القش، كيف يشهدان الآن ضدك، من أجل طردك والإضرار بك ولكي يبقيا معي وحدي. كل هذا لم تلاحظه؟» نظر ك. إلى فريدا دون أن يجيب. هذه الاتهامات ضد المساعدَين كانت صحيحة ولا ريب، لكن يمكن أيضاً تأويلها كلها تأويلاً بريئاً جداً انطلاقاً من كامل طبيعة الاثنين المضحكة، الصبيانية، المشوشة والمنفعلة. وكذلك أليس دليلاً ضد الاتهام أنهما كانا يسعيان دائماً إلى الذهاب مع ك. في كل مكان وليس البقاء لدى فريدا. ك. ذكر شيئاً من هذا القبيل. «نفاق»، قالت فريدا. «هذا لم تفطن له ولم تكشفه؟ حسناً لماذا قمت بطردهما، إذا لم يكن لهذه الأسباب؟» وذهبت إلى النافذة، أزاحت الستارة جانباً بعض الشيء، نظرت إلى الخارج ونادت ك. من ثم إليها. كان المساعدان ما زالا في الخارج على السور الحديدي؛ كان من الجليّ أنهما كانا متعبين، ومع ذلك كانا بين الفينة والأخرى يستجمعان قواهما ويرفعان أذرعتهما متوسلين باتجاه المدرسة. كان أحدهما، لكي لا يضطر دائماً إلى الإمساك، قد شبك سترته من الخلف بأحد أعمدة السور.

«المسكينان! المسكينان!» قالت فريدا. «لماذا طردتهما؟» سأل ك. «كنت أنت السبب المباشر لذلك.» «أنا؟» سألت فريدا دون أن تحول بصرها عن النظر إلى الخارج. «معاملتك المساعدَين الودّية أكثر من اللازم»، قال ك.، «غفران شقاواتهما، الضحك عليهما، تمسيد شعرهما، الشفقة المتواصلة عليهما، 'المسكينان، المسكينان' تقولين مرة أخرى، وفي آخر الأمر الحادثة الأخيرة، حيث لم أكن بالنسبة لك ثمناً باهظاً تبتاعين به إعفاء المساعدَين من الضرب.» «هذا هو الحال نعم»، قالت فريدا، «عن هذا أتحدث، هذا هو ما يجعلني غير سعيدة، ما يحول بينك وبيني، في حين أنني لا أعرف لنفسي سعادة أكبر من أن أكون لديك، دائماً وأبداً، بلا

انقطاع، بلا نهاية، في حين أنني أحلم أنه لا يوجد هنا على الأرض مكان هادئ لحبنا، لا في القرية ولا في أي مكان آخر ولذا أتصور لحداً، عميقاً وضيقاً، فيه يحتضن كل منا الآخر كما لو كان بكمّاشات، أخفي وجهي فيك، وأنت تخفي وجهك فيّ وما من أحد سوف يرانا بعد الآن في أي وقت كان. لكن هنا ـ انظر المساعدَين! إنهما لا يقصدانك عندما يشبكان أيديهما، بل يقصدانني. «وليس أنا»، قال ك.، «انظر إليهما، بل أنت» «بالتأكيد، أنا»، قالت فريدا في شبه غضب، «عن هذا أتحدث باستمرار؛ ماذا يمكن أن يكون السبب إذاً في ما عدا ذلك، أن المساعدَين يلاحقانني، ولو كانا أيضاً مبعوثي كلمّ ـ» «مبعوثا كلمّ»، قال ك.، الذي فاجأته هذه التسمية كل المفاجأة، ولو بدت له في الحال طبيعية. «مبعوثا كلمّ، بالتأكيد»، قالت فريدا، «ولو كانا هذا، مع ذلك هما في الوقت نفسه ولدان صبيانيان ما زالا يحتاجان في تربيتهما إلى الضرب. ما أبشع هذين الفَتَيَين وأشد سوادهما وما أبشع التناقض بين وجهيهما، اللذين يدللان على أن صاحبيهما بالغان، لا بل على أنهما من الطلاب تقريباً، وتصرفهما الطفولي ـ الغبيّ. هل تظن أنني لا أرى هذا؟ إنني لأخجل لوجودهما. لكن هذا هو الحال حقاً، إنهما لا ينفّراني، بل أخجل لوجودهما. يجب عليّ دائماً أن أنظر إليهما. إذا انزعج المرء منهما، يجب عليّ أن أضحك. إذا ضربهما، يجب أن أمسّد شعريهما. وعندما أرقد إلى جانبك لا أستطيع أن أنام، ويجب أن أشاهد من فوقك كيف ينام أحدهما نوماً عميقاً وقد لفّ نفسه بالبطانية، وكيف يركع الثاني أمام المدفأة المفتوحة ويوقدها، ويجب عليّ أن أنحني حتى أكاد أوقظك. ليست القطة هي التي تفزعني ـ آه أعرف القطط وأعرف أيضاً الإغفاء المضطرب المنغّص دائماً وأبداً في المشرب ـ ليس القطة هي التي تفزعني، أنا نفسي أسبب لنفسي فزعاً. ولا يحتاج الأمر مطلقاً إلى هذا الاندفاع من قطة، إنني أنتفض لدى أدنى صوت. مرة أخشى أنك سوف تستيقظ وأن كل شيء سوف ينتهي، ومرة أخرى أنتفض واقفة وأشعل الشمعة، كي تستيقظ بسرعة وحسب وتتمكن من حمايتي.» «من كل هذا لم أكن أعرف شيئاً»، قال ك.، «فقط حدساً بذلك طردتهما، لكنهما الآن قد انصرفا، ربما يكون الآن كل شيء على ما يرام.» «نعم، أخيراً انصرفا»، قالت فريدا، بيد أن وجهها كان متألماً وليس مبتهجاً، «فقط إننا لا نعرف من هما. مبعوثا كلمّ، هكذا أسميهما في أفكاري على سبيل العبث، لكن ربما يكونان فعلاً مبعوثين. أعينهما، هذه الأعين الخاملة ومع ذلك المتألقة، تذكرني بعيني كلمّ، نعم، هذا هو الحال، إنها نظرة كلمّ، التي تثب إلى ذهني أحياناً من أعينهما. ولذا فإنه غير صحيح عندما قلت إنني أخجل لوجودهما. كان بودّي وحسب أن يكون الحال هكذا. صحيح أعرف أنه في مكان آخر وعند ناس آخرين من شأن السلوك نفسه أن يكون أحمق ومستهجناً، أما لديهما فالحال ليس هكذا، باحترام وإعجاب أراقب حماقاتهما. لكن إذا كانا مبعوثَين من قبل كلمّ، فمن يحررنا منهما وهل من شأن التحرر منهما أن يكون من ثم أمراً حسناً لذاته؟ ألا يتعيّن عليك الطلب منهما أن يدخلا وأن تكون سعيداً إذا ما جاءا؟»

«ترغبين في أن أسمح لهما بالدخول مرة أخرى؟» سأل ك. «لا، لا»، قالت فريدا، «ما من شيء أريده أقل. منظرهما، إذا كان من شأنهما أن يقتحما الغرفة مهرولين، غبطتهما برؤيتي ثانية، تنططهما تنطط أولاد ومدّ أذرعهما مدّ رجال، كل هذا لست خليقة ربما أن أتمكن من احتماله. لكن عندما أمعن النظر في أنك، إذا بقيت قاسياً عليهما، فإنك بهذا قد تكون ترفض أن يدخل كلمّ نفسه إليك، فإنني أريد أن أحميك بكل الوسائل من عواقب ذلك. فأرغب في أن تدعهما يدخلان. إذاً أدخلهما بسرعة. لا تراعيني، ما أنا سببه. سأدافع عن نفسي، ما دمت أستطيع ذلك، أما إذا خسرت، هكذا سوف أخسر لكن مع الوعي بأن هذا قد حدث من أجلك أيضاً.» «إنك تدعمينني وحسب في حكمي بخصوص المساعدَين»، قال ك.، «لن يدخلا أبداً بإرادتي. كوني أخرجتهما يثبت أنه يمكن التحكم فيهما تحت ظروف معينة، وبهذا أنه لا يربطهما شيء جوهريّ بكلمّ. مساء أمس تلقيت رسالة من كلمّ، يُرى منها أن كلمّ لديه معلومات خاطئة كلياً عن المساعدَين، الأمر الذي يجب الاستنتاج منه مرة أخرى أنهما سيّان لديه كلياً، لو لم يكونا هكذا، كان خليقاً به بالتأكيد أن يتمكن من تأمين أخبار دقيقة عنهما. لكن أنك ترين كلمّ فيهما، فإن هذا لا يثبت شيئاً، إذ إنك لا تزالين، للأسف، تحت تأثير صاحبة النزل وترين كلمّ في كل مكان. ما زلتِ دائماً حبيبة كلمّ، وما زلتِ بعيدة عن أن تكوني زوجتي. أحياناً يحزنني هذا كثيراً، تكون حالي من ثم وكأنني فقدت كل شيء، يستحوذ عليّ من ثم الشعور بأنني لم آت إلى القرية إلا الآن، لكنني لست كبير الأمل، كما كنت آنذاك في الحقيقة، بل واعياً أنه لا ينتظرني سوى خيبات الأمل وأنه يجب عليّ أن أتجرع طعمها الواحدة بعد الأخرى حتى الثمالة.» «إلا أن هذا ليس إلا أحياناً»، أضاف ك. وهو يبتسم، حين رأى كيف تهاوت فريدا تحت كلماته، «ويثبت في حقيقة الأمر شيئاً طيباً ولا ريب، ألا وهو ماذا تعنين لي. وإذا ما طلبت الآن مني أن أختار بينك وبين المساعدَين، يكون المساعدان قد خسرا على الفور. أية فكرة هذه، الخيار بينك وبين المساعدَين؟ لكن الآن أريد أن أتخلص منهما نهائياً. على فكرة، من يعلم في ما إذا كان الإعياء الذي أطبق علينا كلينا لا يأتي من كوننا لم نتناول بعد طعام فطورنا.» «ممكن»، قالت فريدا وهي تبتسم ابتسامة متعبة وشرعت في العمل. كذلك ك. أمسك المكنسة من جديد.

١٣

هانس

بعد هنيهة طُرق الباب طرقاً خفيفاً. «برناباس!» صاح ك.، ألقى بالمكنسة وببضع قفزات بات لدى الباب. نظرت فريدا إليه وقد ذُعرت من الاسم أكثر مما ذعرت من أي شيء آخر. بيديه المضطربتين لم يتمكن ك. من فتح القفل القديم على الفور. «إنني أفتح»، طفق يكرر، بدلاً من أن يسأل مبدئياً عمن يطرق الباب. وكان عليه أن يشاهد كيف لم يدخل برناباس عبر الباب المفتوح على سعته، بل الصبي الصغير، الذي كان ذات مرة سابقاً يرغب في مخاطبة ك. غير أن ك. لم يستشعر رغبة في أن يتذكره. «ماذا تبغي هنا إذاً؟» قال، «الدروس في الغرفة المجاورة.» «أنا آت من هناك»، قال الصبي وهو ينظر بهدوء إلى ك. بعينيه الكبيرتين العسليتين، وكان يقف منتصباً وقد ألصق ذراعيه على جانبيه. «ماذا تريد إذاً؟ بسرعة!» قال ك. ومال قليلاً إليه، إذ كان الصبي يتحدث بصوت منخفض. «هل أستطيع مساعدتك؟» سأل الصبي. «يريد أن يساعدنا»، قال ك. لفريدا ومن ثم للصبي: «ما اسمك إذاً؟» «هانس برونسفيك»، قال الصبي، «تلميذ في الصف الرابع، ابن أوتّو برونسفيك، المعلّم صانع الأحذية في شارع ماديلاينه.» «انظر، برونسفيك اسمك»، قال ك. وبات أكثر ودّاً إزاءه. لقد تبيّن أنه نتيجة الآثار الدموية التي كانت المعلمة قد خدشتها في يد ك. كان هانس قد انفعل كثيراً إلى درجة أنه قرر آنذاك أن يشدّ أزر ك. على مسؤوليته الخاصة وبدون إذن ومع خطر عقوبة كبيرة كان الآن قد خرج متسللاً من غرفة الصف المجاورة مثل هارب من الجندية. يمكن قبل كل شيء أن تكون مثل هذه التصورات الصبيانية هي التي تتحكم فيه. ومما كان يطابقها هو الجدّ الذي كان يتحدث من كل شيء فَعَلَه. فقط في البداية كان الحياء يعيقه، لكنه سرعان ما اعتاد على ك. وفريدا وإذ تلقى من ثم قهوة طيبة ساخنة واحتساها بات مفعم الحيوية مستأنساً وكانت أسئلته متحمسة وملحّة، وكأنه يبتغي معرفة الأكثر أهمية بأسرع ما يمكن ومن ثم أن يتمكن باستقلالية أن يتخذ قرارات من أجل ك. وفريدا. كان ثمة أيضاً شيء من حب السيطرة في

طبيعته، بيد أنه كان ممزوجاً ببراءة طفلية، بحيث أن المرء بين صادق ومازح انقاد له عن طيب خاطر. على كل حال استحوذ على كل انتباه، وتوقف كل عمل، وطعام الفطور امتد طويلاً. مع أنه كان يجلس على المقعد المدرسي، ك. فوق إلى منصة المعلم، فريدا على كرسي إلى جانبه، بدا الحال كأن هانس هو المعلم، كأنه يفحص ويقيّم الأجوبة، ابتسامة خفيفة حول فمه الغضّ بدت أنها تلمح إلى أنه يعلم ولا ريب أن المسألة هي مجرد لعبة، لكنه كان لدى المسألة بجدية أكثر، ربما لم تكن ابتسامة قط، بل سعادة الطفولة، التي كانت تلاعب الشفتين. فقط في وقت متأخر على نحو يلفت النظر كان قد اعترف أنه كان يعرف ك. منذ أن عرج هذا ذات مرة على لازيمان. كان ك. مغتبطاً بذلك. «كنت تلعب آنذاك عند قدمي المرأة؟» سأل ك. «نعم»، قال هانس، «إنها أمي.» والآن كان عليه أن يتحدث عن أمه، غير أنه لم يفعل ذلك إلا متردداً وفقط بعد طلبات متكررة، والآن تبيّن أنه صبيّ صغير لاح أنه يتحدث منه، صحيح أحياناً، لا سيما في أسئلته، ربما في الشعور الأوليّ للمستقبل، لكن ربما فقط نتيجة ضلال حواس المستمع القلق المتوتر، رجل نشيط أريب بعيد النظر، لكن من ثم وعلى الفور وبلا مرحلة انتقالية لم يكن سوى تلميذ مدرسة، لم يفهم بعض الأسئلة قط، وأساء تأويل بعضها الآخر، الذي تحدث بصوت منخفض جداً في فظاظة صبيانية، مع أنه غالباً ما لفت انتباهه إلى العيب، والذي في نهاية الأمر صمت صمتاً كاملاً، كما في عناد، إزاء بعض الأسئلة الملحة، وذلك دون أي ارتباك بتاتاً، كما ليس من شأن شخص بالغ أن يستطيع أن يفعل أبداً. كان الحال بصورة عامة كأنه يرى أن طرح أسئلة ليس مسموحاً إلا له، في حين أن أسئلة الآخرين من شأنها أن تخرق تعليمات ما وتبدد وقتاً. ثم كان في مقدوره أن يجلس ساكناً مدة طويلة بجسم منتصب ورأس مخفوض وشفة سفلى ممطوطة. هذا أعجب فريدا، بحيث أنها طرحت عليه أسئلة كثيرة كانت تأمل أن تدعه بهذه الطريقة يلوذ بالصمت. كما أنها أفلحت في هذا أحياناً، غير أن ذلك ضايق ك. في المجموع لم يعلم المرء كثيراً، الأم كانت معتلة بعض الشيء، لكن أي مرض كان هذا، ظل غير محدد، الطفل الذي كانت السيدة برونسفيك تحمله في حضنها، كان أخت هانس واسمها فريدا (تساوي الاسم مع اسم المرأة التي تسأله، تقبّله على نحو غير ودّيّ)، جميعهم يسكنون في القرية، لكن ليس عند لازيمان، كانوا هناك ضيوفاً وحسب كي يستحمّوا، لأن لازيمان كان يملك الحوض الكبير، الذي يعود الاستحمام واللعب فيه على الأولاد الصغار بمتعة خاصة، لكن هانس ليس في عدادهم؛ عن أبيه تحدث هانس بإجلال أو متهيباً، لكن فقط عندما لم يكن الحديث عن الأم في الوقت نفسه، بالقياس إلى الأم كانت قيمة الأب ضئيلة على ما يبدو، للعلم، جميع الأسئلة عن الحياة في الأسرة ظلت دون جواب، كيفما حاول المرء الاقتراب منها، عن مهنة الأب علم المرء أنه أكبر صانع أحذية في القرية، لم يكن أحد يضاهيه، وتكرر القول جواباً عن أسئلة أخرى مغايرة كلياً أيضاً بأنه

حتى كان يعطي عملاً إلى صناع الأحذية الآخرين، على سبيل المثال والد برناباس أيضاً، في هذه الحالة الأخيرة لم يفعل برونسفيك الأمر إلا رأفة على نحو مخصوص، على الأقل هذا ما ألمحت إليه لفتة رأس هانس، التي دفعت فريدا إلى القفز إليه وإعطائه قبلة. عن السؤال هل كان في القلعة ذات مرة لم يجب إلا بعد تكراره مرات عديدة وكان الجواب «لا»، السؤال نفسه بخصوص الأم لم يجب عنه مطلقاً. في نهاية الأمر تعب ك.، كذلك له بدا طرح الأسئلة عديم الجدوى، في ذلك أعطى الصبيَّ الحق، كما أنه كان ثمة شيء مخجل في ذلك، أن يرغب المرء في تصيّد أسرار أسرة بطريقة ملتوية عبر الطفل البريء، لكن المخجل على نحو مضاعف هو أن المرء لم يعلم شيئاً هنا أيضاً. ومن ثم حين سأل ك. الصبي في الختام عما يعرض نفسه إذاً بأن يساعد، لم يعد يعجب من أن يسمع أن هانس لا يريد أن يساعد إلا هنا في العمل، حتى لا يعود المعلم والمعلمة يتشاجران كثيراً مع ك. أوضح ك. لهانس أن مثل هذه المساعدة غير ضرورية، الشجار هو من طبيعة المعلم ولا ريب ولن يتمكن المرء من حماية نفسه منه ولا حتى بعمل دقيق أكثر دقة، العمل نفسه ليس صعباً وفقط لظروف عرضية تأخر فيه اليوم، على فكرة، هذا الشجار لا يؤثّر على ك. كما يؤثّر على تلميذ، إنه ينفضه عنه ولا يكاد يبالي به، كذلك يأمل أن يفلت من المعلم كلياً قريباً جداً. إذ كان الموضوع إذاً فقط مساعدة ضد المعلم، فإنه يشكر على ذلك خير شكر ويمكن لهانس أن يعود، ويرجى أن لا يُعاقب بعد. مع أن ك. لم يبرز الأمر أبداً ولم يلمح إليه إلا من غير عمد أن الأمر ليس إلا مساعدة إزاء المعلم، وهو لا يحتاجها، في حين أنه ترك السؤال بشأن مساعدة أخرى معلقاً، فإن هانس استشفّ الأمر بشكل واضح وسأل هل يحتاج ك. ربما إلى مساعدة أخرى، من شأنه أن يساعده بكل سرور وإذا لم يكن قادراً على ذلك بنفسه، من شأنه أن يرجو أمه من أجل ذلك ومن ثم سوف ينجح الأمر بالتأكيد. وحتى إذا كان الأب تشغله شواغل، فإنه يرجو الأم أن تساعد. والأم سألت أيضاً ذات مرة عن ك.، هي نفسها لا تكاد تخرج من البيت، فقط بصورة استثنائية كانت آنذاك لدى لازيمان، لكنه هو، هانس، يذهب كثيراً إلى هناك كي يلعب مع أولاد لازيمان وهنا سألته الأم ذات مرة، هل كان مسّاح الأراضي ربما هناك مرة أخرى. إذ لا يجوز سؤال الأم بلا جدوى، لأنها واهنة ومتعبة، فإنه قال ببساطة فقط إنه لم ير مسّاح الأراضي هناك وفي ما عدا ذلك لم يجر الحديث عن الأمر؛ لكن إذ وجده هنا في المدرسة، كان لا بدّ له من أن يخاطبه، كي يتمكن من إبلاغ الأم. إذ إن الأحب إلى الأم هو أن يحقق المرء رغباتها دون أمر صريح. بعد تفكير قصير قال ك. إنه لا يحتاج إلى مساعدة، ولديه كل ما يحتاجه، لكنه لطف كبير من هانس أنه يريد مساعدته ويشكره على النية الطيبة، من الممكن أنه سوف يحتاج لاحقاً شيئاً ما، في هذه الحالة سوف يتوجه إليه، والعنوان لديه، بينما هو، ك.، ربما يستطيع أن يساعد هذه المرة بعض الشيء، يؤسفه أن والدة هانس متوعكة

وعلى ما يبدو لا أحد هنا يفهم المرض؛ في مثل هذه الحالة المهملة يمكن في الغالب أن يحدث تدهور خطير لمرض خفيف في حد ذاته. الآن إنه، ك.، يملك بعض المعلومات الطبية وما هو ذو قيمة أكبر خبرة في علاج المرضى. بعض ما لم يفلح فيه أطباء، نجح فيه هو. في بلاده كان قد أطلق عليه دائماً بسبب أثره الشافي اسم العشبة المرّة. على كل حال من شأنه عن طيب خاطر أن يرى والدة هانس ويتحدث معها. ربما يستطيع أن يقدم نصيحة طيبة، في سبيل هانس من شأنه أن يفعل ذلك برغبة. لمعت أولاً عينا هانس لدى هذا العرض، أغرتا ك. بأن يصبح أكثر إلحاحاً، غير أن النتيجة كانت غير مرضية، إذ إن هانس قال جواباً عن أسئلة متنوعة، ولم يكن حتى حزيناً كل الحزن، إنه لا يجوز لزائر غريب أن يأتي إلى الوالدة، لأنها بحاجة ماسّة إلى أن يُرفق بها؛ رغم أن ك. آنذاك ما كاد يتحدث معها، فقد استلقت في الفراش بعد ذلك بضعة أيام، الأمر الذي غالباً ما يحدث طبعاً. لكن الوالد تضايق آنذاك من ك. كثيراً وهو خليق بالتأكيد أن لا يسمح أبداً بأن يأتي ك. إلى الوالدة، بل إنه أراد آنذاك أن يذهب إلى ك. كي يعاقبه على سلوكه، لكن الأم منعته من ذلك. قبل كل شيء فإن الوالدة نفسها لا تريد بصورة عامة أن تتحدث مع أحد وسؤالها عن ك. لا يعني استثناء من القاعدة، على العكس من ذلك، بالذات بمناسبة ذكره كان في مقدورها أن تعبّر عن رغبتها في رؤيته. غير أنها لم تفعل ذلك وبهذا أظهرت رغبتها بوضوح. إنها ترغب في أن تسمع وحسب عن ك.، لكنها لا تريد أن تتحدث معه. على فكرة، إن ما تعانيه ليس مرضاً حقيقياً، وهي تعرف خير معرفة سبب حالتها وأحياناً تلمح إليها أيضاً، إنه على الأرجح الهواء هنا، الذي لا تتحمله، لكنها لا تريد أيضاً أن تغادر المكان مرة أخرى، بسبب الوالد والأولاد، كما أن الحال أفضل مما كان سابقاً. هذا هو تقريباً ما علمه ك.؛ إن قوة تفكير هانس تزايدت على نحو واضح، لأنه كان عليه حماية أمه من ك.، من ك.، الذي كان يريد أن يساعده كما كان قد زعم؛ أجل لغاية طيبة هي إبعاد ك. عن الوالدة، ناقض في بعض الأمور حتى أقواله السابقة، على سبيل المثال بخصوص المرض. لكن مع ذلك لاحظ ك. الآن أيضاً أن هانس كان ما زال حسن النية إزاءه، فقط نسي عبر الأم كل شيء آخر؛ سيان من يضع المرء إزاء الوالدة، فإن هذا يقع على الفور في الظلم، الآن كان ك. في هذا الدور، لكن كان من الممكن أن يكون الوالد أيضاً. هذه الإمكانية الأخيرة أراد ك. أن يحاولها وقال إنه يقيناً من الصائب جداً من قبل الوالد أن يحمي الوالدة من كل إزعاج ولو كان، هو ك.، آنذاك قد حدس شيئاً مماثلاً، لما كان من شأنه حتماً أن يجرؤ على مخاطبة الوالدة والآن يرجو هانس لاحقاً أن ينقل اعتذاره إلى البيت. غير أنه لا يستطيع أن يفهم كل الفهم لماذا يمنع الوالد، عندما يكون سبب المرض توضح هكذا، كما يقول هانس، الوالدة من استرداد قواها في هواء آخر؛ يجب القول إنه يمنعها، إذ إنها لا تذهب فقط بسبب الأولاد وبسببه، أما الأولاد فإنه يمكنها أن تصطحبهم معها، ولا

يجب عليها أن تغادر لمدة طويلة وكذلك ليس بعيداً جداً؛ فالهواء مغاير كلياً فوق على جبل القلعة. وليس على الوالد أن يخشى نفقات مثل هذه النزهة، فهو حقاً أكبر صانع أحذية في المكان وبالتأكيد لديه أيضاً أو لدى الأم أقارب أو معارف في القلعة، الذين من شأنهم استقبالها برغبة. لماذا لا يدعها تذهب؟ عليه أن لا يستهين بأمر مثل هذا المرض، ك. لم ير الوالدة حقاً إلا على نحو عابر، لكن طبعاً شحوبها ووهنها دفعاه لمخاطبتها، وقد عجب آنذاك من أن الوالد ترك المرأة المريضة في الهواء الرديء السائد في حجرة الاستحمام والغسيل العامة وحتى إنه لم يتحفظ في كلامه بصوت عال. لا ريب أن الوالد لا يعرف ما هو الموضوع، ومن الممكن كذلك أن يكون المرض قد تحسن في المدة الأخيرة، مثل هذا المرض له أمزجة، لكن في نهاية الأمر يأتي، إذا لم يكافحه المرء، مستجمعاً قواه ومن ثم لا يستطيع شيء أن يساعد بعد الآن. إذا لم يتمكن ك. من الحديث مع الوالدة، ربما يكون من الخير أن يتحدث مع الوالد ويلفت نظره إلى هذا كله.

كان هانس قد أصغى باهتمام، وفهم معظم ما قيل، وأحس بشدة تهديدَ البقية غير المفهومة. على الرغم من ذلك قال، مع الوالد لا يمكن لـ ك. أن يتحدث، لدى الوالد نفور منه وهو خليق أن يعامله على الأرجح مثل المعلم. قال ذلك مبتسماً وفي حياء، عندما كان يتحدث عن ك.، عابساً ومكتئباً عندما كان يذكر الوالد. لكنه أردف قائلاً إنه ربما كان بإمكان ك. أن يتحدث مع الوالدة، لكن فقط بدون علم الوالد. من ثم تأمل هانس هنيهة بنظرة متحجرة، تماماً مثل امرأة تبغي أن تفعل شيئاً محظوراً وتبحث عن إمكانية لتنفيذ ذلك دون أن تتعرض لعقاب، وقال، بعد غد قد يكون الأمر ممكناً، الوالد سيذهب مساء إلى حانة السادة، هناك لديه اجتماعات، فسوف يأتي، هانس، مساء ويقود ك. إلى الوالدة، لكن طبعاً بشرط أن توافق الوالدة، الأمر الذي ما زال جداً غير مرجّح. قبل كل شيء لا تفعل هي شيئاً ضد مشيئة الوالد، في كل شيء تخضع له، حتى في أشياء يدرك بوضوح حتى هو، هانس، عدم حكمتها. فعلاً كان هانس يبحث الآن عند ك. على مساعدة ضد الوالد، كان الحال كأنه خدع نفسه بنفسه، إذ كان يعتقد أنه يريد أن يساعد ك.، في حين أنه كان يريد في الحقيقة أن يتقصى هل يستطيع ربما، حيث لم يكن في مقدور أحد من المحيط القديم أن يساعد، هذا الغريب الذي ظهر على حين غرة والمذكور حتى من قبل الوالدة أن يستطيع أن يفعل ذلك. كم كان هذا الصبي متكتماً من حيث لا يدري، خبيثاً تقريباً، لم يكد يمكن حتى الآن استخلاص هذا من مظهره وكلماته، لم يُلاحظ ذلك إلا من الاعترافات اللاحقة فعلاً، التي خرجت بالمصادفة وعمداً. والآن طفق يتأمل في أحاديث طويلة مع ك. ما الصعوبات التي يجب التغلب عليها، كانت صعوبات لا يكاد يمكن التغلب عليها مهما أبدى هانس من نية طيبة. غارقاً في أفكاره ومع ذلك باحثاً عن معونة راح يتطلع دائماً إلى ك. بعينين ترمشان في

غير ارتياح. قبل انصراف الوالد لم يكن يجوز له أن يقول شيئاً للوالدة، وإلا فإن الوالد كان يعلم الأمر، وكل شيء بات محالاً، لاحقاً فقط أصبح يجوز له إذاً أن يذكر الأمر، لكن الآن أيضاً مراعاة للوالدة ليس فجأة وبسرعة، بل على مهل وعند وجود فرصة مناسبة، من ثم عليه أولاً أن يلتمس موافقة الوالدة، وبعد ذلك يمكنه إحضار ك.، لكن ألم يكن الوقت قد تأخر، ألم تقترب عودة الوالد؟ أجل، كان الأمر متعذراً، على عكس ذلك أثبت ك. أن الأمر ليس متعذراً. أن الوقت لن يكفي، لن يجب على المرء أن يخشى ذلك، حديث قصير، لقاء قصير يكفي ولا يجب إحضار ك.، ك. سوف ينتظر متوارياً في مكان ما بالقرب من البيت وبإشارة من هانس سوف يأتي في الحال. كلا، قال هانس، عند البيت لا يجوز لـ ك. أن ينتظر ـ مرة أخرى كانت الحساسية بسبب والدته التي كانت تسيطر عليه ـ دون علم الوالدة لا يجوز لـ ك. أن يبدأ طريقه، في مثل هذا الاتفاق السرّيّ لا يجوز لهانس أن يدخل مع ك. عليه أن يحضر ك. من المدرسة وليس قبل ذلك، قبل أن تعلم الوالدة الأمر وتسمح به. حسناً، قال ك. فالموضوع خطر فعلاً، من ثم يكون ممكناً أن يباغته الوالد في البيت وإذا لم يحدث هذا، فإن الوالدة خوفاً من ذلك لن تدع ك. يحضر أساساً وهكذا سوف يفشل كل شيء بسبب الوالد. ضد ذلك دافع هانس عن نفسه مرة أخرى وهكذا سار النزاع في أخذ وردّ. منذ مدة طويلة كان ك. قد استدعى هانس من المقعد إلى منصة المعلم، كان قد سحبه إليه بين الركب وداعبه أحياناً مطيّباً خاطره. هذا القرب ساهم في إقامة اتفاق على الرغم من معارضة هانس أحياناً. اتفقا في نهاية المطاف على ما يلي: هانس سيقول أولاً للوالدة الحقيقة الكاملة، لكن، لتسهيل الموافقة عليها، بإضافة أن ك. يريد أيضاً أن يتحدث مع برونسفيك نفسه، لكن ليس بسبب الوالدة، بل بسبب مسائله. كان هذا صحيحاً أيضاً، في مجرى الحديث كان قد خطر ببال ك. أنه لا يمكن لبرونسفيك في الواقع، ولو كان في ما عدا ذلك إنساناً خطراً وشريراً، أن يكون خصمه، فقد كان مع ذلك، على الأقل حسب إفادة عمدة القرية، رئيس أولئك الذين كانوا قد طالبوا، ولو لأسباب سياسية، باستدعاء مسّاح أراض. إن وصول ك. إلى القرية كان لا بدّ له إذاً أن يكون أمراً مرحّباً به بالنسبة لبرونسفيك؛ لكن من ثم كان الترحيب المزعج في اليوم الأول والنفور، الذي تحدث عنه هانس، غير مفهومين تقريباً، لكن ربما كان برونسفيك قد استاء لأن ك. لم يكن قد توجه أول ما توجه إليه طالباً مساعدة، ربما كان ثمة سوء تفاهم آخر، كان يمكن تبيانه ببضع كلمات. لكن إذا كان هذا قد حدث، فقد كان في مقدور ك. أن يكسب في برونسفيك سنداً حقيقياً إزاء المعلم، بل حتى إزاء عمدة القرية، كل الخداع الرسمي ـ ماذا كان إذاً غير ذلك ـ الذي حال به عمدة القرية والمعلم بينه وبين سلطات القلعة وقاما بحشره في عمل حاجب مدرسة، أمكن كشف النقاب عنه، وصل الأمر مؤخراً إلى صراع حول ك. بين برونسفيك وعمدة القرية يجب على برونسفيك أن يجذب ك. إلى جانبه، من شأن ك. أن يصبح ضيفاً في منزل برونسفيك، من شأن وسائط نفوذ برونسفيك أن

توضع تحت تصرفه، غصباً عن عمدة القرية، من يدري إلى أين هو خليق أن يصل وبقرب المرأة سيكون على كل حال غالباً ـ هكذا طفق يلعب مع الأحلام وهي تلعب معه، في حين راح هانس، غارقاً في أفكاره عن الوالدة، يراقب صمت ك. بقلق، كما يفعل المرء إزاء طبيب غارق في تأملاته كي يجد وسيلة مساعدة لحالة صعبة. على هذا الاقتراح من ك. بأنه يريد أن يتحدث مع برونسفيك بسبب وظيفة مسّاح أراض كان هانس موافقاً، لكن فقط لأن والدته كانت بهذا محمية من الوالد ولأن الموضوع فوق ذلك يتعلق بحالة اضطرارية وحسب، ويؤمل بأن لا تحدث. سأل فقط كيف من شأن ك. أن يبرر للوالد الساعة المتأخرة للزيارة واكتفى في نهاية الأمر، ولو كان بوجه مكفهرّ بعض الشيء، بأن يكون من شأن ك. أن يقول إن العمل الذي لا يطاق كحاجب مدرسة ومعاملة المعلم له المجلبة للعار، ذلك كله دعاه ينسى، وهو في يأس مفاجئ، كل مراعاة.

حين جرى الآن بهذه الطريقة، بقدر ما أمكن أن يرى المرء، إمعان النظر إعدادياً ولم تعد إمكانية النجاح على الأقل غير مستبعدة، تحرر هانس من عبء التأمل، طلق الوجه أكثر راح يثرثر هنيهة على نحو طفولي أولاً مع ك. ومن ثم مع فريدا أيضاً، التي كانت قد جلست مدة طويلة وهي في أفكار مغايرة كلياً والآن فقط بدأت بالمشاركة في الحديث مرة أخرى. مما سألته كان عما يريد أن يصبح، لم يفكر طويلاً وقال إنه يريد أن يصبح رجلاً مثل ك. إذ سئل من ثم عن أسبابه، لم يعرف طبعاً أن يجيب ولدى السؤال هل كان يريد أن يصبح حاجب مدرسة مثلاً نفى ذلك نفياً قاطعاً. فقط إذ تابع المرء السؤال، أدرك المرء بأي طريق غير مباشر وصل إلى أمنيته. إن الوضع الحالي لـ ك. لم يكن يستحق الحسد أبداً، بل هو كئيب وبائس، هذا ما رآه هانس أيضاً بدقة ولكي يدرك هذا لم يكن بحاجة إلى أن يراقب ناساً آخرين، كان الأحب إليه نفسه أن يريد حماية الوالدة من كل نظرة وكل كلمة من ك. لكن مع ذلك جاء إلى ك. وطلب منه مساعدة وكان سعيداً إذا وافق ك.، كذلك لدى ناس آخرين ظن أنه يدرك شيئاً مماثلاً، وقبل كل شيء كانت الوالدة نفسها قد ذكرت ك. من هذا التناقض نشأ فيه الاعتقاد، الآن صحيح أن ك. ما زال متدنياً ومنفّراً، لكن في مستقبل بعيد حقاً إلى درجة غير قابلة للتصور سوف يتفوق على الجميع. وطبعاً هذا البُعد السخيف حقاً والتطور المعتدّ الذي عليه أن يفضي إليه، أغرى هانس؛ لقاء هذا الثمن أراد حتى أن يقبل ك. الحاليّ. إن سمة التحدث مثل الكبار الطفولية لهذه الأمنية كانت تكمن في أن هانس كان ينظر إلى ك. شزراً وكأنه ينظر إلى شخص أصغر سناً يمتد مستقبله أبعد من مستقبله هو، مستقبل صبيّ صغير. وكان الأمر أيضاً رزانة كئيبة تقريباً التي تحدث بها عن هذه الأمور، مرغماً على ذلك دائماً وأبداً بأسئلة فريدا. ك. أبهجه مرة أخرى حين قال إنه يعلم على ماذا يحسده هانس، إنها عصاه الجميلة ذات العُقد، التي كانت على الطاولة والتي كان هانس يعبث بها وهو شارد

الذهن في الحديث. حسناً، ك. يعرف كيف يصنع مثل هذه العصي وسوف يصنع لهانس واحدة أكثر جمالاً، عندما تنجح خطتهما. لم يعد الآن من الواضح كلياً أكان هانس يقصد سوى العصا، لقد فرح كل الفرح بوعد ك. وودّع فرحاً، ليس دون أن يصافح ك. بقوة ويقول: «إذاً إلى بعد غد.»

١٤

عتاب من فريدا

كان الأوان قد حان أن انصرف هانس، إذ بعد قليل فتح المعلم الباب عنوة وصرخ، حين رأى ك. وفريدا جالسين بهدوء إلى الطاولة: «اعذرا الإزعاج! لكن قولا لي، متى سيكون هنا مرتّباً أخيراً؟ يتوجب علينا هناك أن نجلس محشورين، الدرس يعاني، أما أنتما فإنكما تتمددان وتتمطيان هنا في حجرة الرياضة الكبيرة، ولكي تأخذا مكاناً أوسع قمتما بصرف المساعدَين أيضاً. لكن الآن انهضا على الأقل من فضلكما وتحركا!» وإلى ك. وحده: «أنت تجلب لي الآن الوجبة بين الفطور والغداء من حانة الجسر.» كان كل هذا قد صُرخ به بغضب، لكن الكلمات كانت رقيقة نسبياً، حتى الكلمة الخشنة بحد ذاتها أتت بصيغة المفرد. كان ك. على الفور مستعداً لتلبية الطلب، فقط لكي يستبطن المعلم قال: «لقد أُخطرتُ بترك العمل.» «أُخطرتَ بترك العمل أم لم تُخطر، اجلب لي الوجبة بين الفطور والغداء»، قال المعلم. «أُخطرتُ أم لم أُخطر، هذا بالذات ما أريد أن أعلمه»، قال ك. «ماذا تثرثر؟» قال المعلم، «إنك لم تقبل الإخطار.» «هذا يكفي لإبطال مفعوله؟» سأل ك. «بالنسبة لي لا يكفي»، قال المعلم، «يجوز لك أن تصدقني، لكن ليس بالنسبة لعمدة القرية، الأمر غير المفهوم. لكن الآن اجر، وإلا فإنك تُطرد فعلاً.» كان ك. راضياً، كان المعلم قد تحدث إذاً في هذه الأثناء مع عمدة القرية، أو ربما لم يتحدث قط بل أعدّ سلفاً رأي العمدة المتوقع وهذا الرأي جاء لصالح ك. الآن أراد ك. أن يهرع على الفور لجلب الطعام، لكن كان ما زال في الممر حين ناداه المعلم كي يعود، سواء أنه لم يكن يبغي بهذا الأمر الخاص سوى أن يفحص مدى استعداد ك. للخدمة، لكي يستهدي بذلك لاحقاً، أم كان قد انتابته الآن مرة أخرى شهوة جديدة لإصدار أوامر وسرّه أن يدع ك. يجري بسرعة ومن ثم بناء على أمر منه أن يعيده بسرعة أيضاً مثل نادل. من طرفه كان ك. يعلم أنه من شأنه أن يجعل نفسه بالإفراط في الخضوع عبداً للمعلم وكبش فداء، لكن إلى حد معيّن أراد الآن أن يتقبل نزوات المعلم بصبر، إذ لما لم يتمكن المعلم أيضاً،

كما كان قد تبيّن، من فصله على نحو مشروع، ففي مقدوره يقيناً أن يقوم بالعمل ولو كان مؤلماً إلى حد لا يطاق. لكن هذا العمل بالذات كان يهمّ ك. الآن أكثر من السابق. إن الحديث مع هانس كان قد أثار في نفسه آمالاً يعترف أنها غير مرجّحة، لا أساس لها مطلقاً، غير أنها لا تنسى بعد الآن، حتى لقد غطّت على برناباس تقريباً. إذا تابعها، وهو لم يستطع أن يفعل غير ذلك، فإنه كان عليه أن يستجمع كل قواه، ولا يهتمّ بشيء آخر، لا بالطعام، لا بالسكن، لا بسلطات القرية، أجل ولا حتى بفريدا نفسها، وفي الحقيقة لم يكن الموضوع يدور إلا حول فريدا، إذ إن كل شيء آخر لم يكن يهمّه حقاً إلا بعلاقته بها. لهذا السبب كان يجب عليه أن يحاول الاحتفاظ بهذا العمل الذي كان يقدم لفريدا بعض الأمان، والمفروض أن لا يندم، نظراً إلى هذا الهدف، على تحمّل المعلم أكثر مما كان يستطيع أن يحمل نفسه على التحمّل في ما عدا ذلك. كل هذا لم يكن مؤلماً غاية الألم، إنه ينتمي إلى سلسلة الآلام الصغيرة المتواصلة في الحياة، كان لا شيء قياساً إلى ما كان ك. يسعى إليه وهو لم يأت إلى هنا كي يحيا حياة في كرامة وسلام.

وهكذا كان، كما كان يريد أن يجري على الفور إلى الحانة، مستعداً مرة أخرى على الفور أيضاً، تنفيذاً للأمر الذي تبدل، أن يرتّب الغرفة أولاً، حتى تتمكن المعلمة من العودة إليها مع صفها. لكن كان لا بدّ من أن يتمّ الترتيب بسرعة فائقة، إذ بعد ذلك كان ك. يريد أن يحضر الطعام وكان المعلم يشعر بجوع كبير وظمأ. وأكد ك. أن كل شيء سيتمّ حسب الطلب؛ طوال هنيهة شاهد المعلم كيف كان ك. يسرع، كيف أبعد المرقد، رتّب أدوات الرياضة، كنس بسرعة، في حين كانت فريدا تغسل وتكشط المنصة. بدت الحماسة ترضي المعلم، ثم لفت الانتباه إلى أن أمام الباب كومة حطب معدّة للتدفئة ـ لم يكن يريد أن يسمح لـ ك. بعد الآن بالذهاب إلى المستودع ـ وذهب من ثم إلى التلاميذ مع تهديده بالعودة قريباً لكي يفحص.

بعد قليل من العمل الصامت سألت فريدا لماذا يذعن ك. الآن للمعلم كثيراً. كان سؤالاً حنوناً مهموماً، غير أن ك.، الذي فكر كيف لم يتمّ لفريدا، حسب وعدها الأصلي، أن تحميه من أوامر المعلم وعنفه، قال باقتضاب وحسب، إنه الآن، وقد أصبح حاجب مدرسة مرة، يجب عليه أيضاً أن يؤدي هذا العمل. ثم ساد هدوء مرة أخرى، حتى تذكّر ك. بالذات من خلال الحديث القصير، أن فريدا كانت ضائعة مدة طويلة في أفكار مهمومة، قبل كل شيء أثناء كامل المحادثة تقريباً مع هانس، الآن، وهو يُدخل الحطب، سألها بصراحة عما يشغلها. أجابت، وهي تنظر إليه على مهل، أنها لا تفكر في شيء محدد، تفكر فقط في صاحبة النزل وحقيقة بعض كلماتها. فقط حين ألحّ ك.، أجابت بإسهاب بعد إمتناع مرات عديدة، دون أن تترك عملها أثناء ذلك، ليس لأنها كانت مجتهدة، إذ إن العمل لم يتقدم أثناء ذلك قط، بل

لكي لا تضطر إلى النظر إلى ك. والآن روت كيف كانت لدى محادثة ك. مع هانس تصغي أولاً بهدوء، من ثم وقد أفزعتها بعض كلمات ك. بدأت تدرك معنى الكلمات بدقة ووضوح أكبر وكيف لم تعد من الآن فصاعداً تستطيع أن تكفّ عن سماع إثباتات في كلمات ك. لتنبيه تدين به لصاحبة النزل لكنها لم تكن تريد بتاتاً أن تصدّق صلاحيته. ك. متضايقاً من التعابير العامة ومنفعلاً أكثر منه متأثراً من الصوت الباكي الدامع - قبل كل شيء لأن صاحبة النزل تتدخل الآن في حياته مرة أخرى، على الأقل من خلال ذكريات، حيث إنها شخصياً لم تحقق نجاحاً كبيراً حتى الآن - ألقى الحطب الذي كان يحمله بين ذراعيه إلى الأرض، جلس عليه وطلب الآن بكلمات جدية وضوحاً كاملاً. «مراراً»، بدأت فريدا، «فوراً في البداية سعت صاحبة النزل إلى أن تجعلني أرتاب فيك، لم تدّع أنك تكذب، على العكس، قالت إنك صريح على نحو طفولي، لكن طبيعتك تتمايز عن طبيعتنا، بحيث إننا، حتى عندما تتحدث بصراحة، لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على تصديقك إلا بصعوبة ولو لم تنقذنا سابقاً صديقة طيبة، علينا أن نعتاد فقط عبر خبرة مرّة على أن نصدقك. حتى هي نفسها، هي التي تملك نظرة حادة للبشر، لم تكد تلقى شيئاً آخر. لكن بعد المحادثة الأخيرة معك في حانة الجسر - أكرر فقط كلماتها الشريرة - كشفت حيلك، الآن لم يعد في مقدورك أن تخدعها، حتى لو كان من شأنك أن تبذل كل طاقتك لإخفاء مقاصدك. 'لكنه لا يخفي شيئاً'، هذا ما قالته مراراً وتكراراً ثم قالت: 'ابذلي جهدك، أن تصغي إليه فعلاً عند أية فرصة، ليس فقط ظاهرياً، كلا أصغي إليه فعلاً.' هي لم تفعل شيئاً آخر سوى هذا وفي غضون ذلك استشفّت بخصوصي ما يلي تقريباً: أنت تودّدتَ لي - استخدمتْ هذه الكلمة المزرية - لا لسبب إلا لأنني عرضت لك في الطريق مصادفة، ولم تستقبحني مباشرة، ولأنك تعتبر كل فتاة مشرب، بطريقة خاطئة كل الخطأ، الضحية المحددة سلفاً لكل زبون يمدّ يده. فوق ذلك كنتَ ترغب، كما علمت صاحبة نزل الجسر من صاحب نزل السادة، لأية أسباب، أن تقضي الليلة آنذاك في نزل السادة ولكن هذا لم يكن ممكن النوال إطلاقاً بطريقة أخرى إلا من خلالي. كان من شأن كل هذا أن يكون سبباً كافياً لأن أعمل منك عشيقاً لي لتلك الليلة، لكن لكي ينتج من ذلك المزيدُ كان الأمر يحتاج أيضاً إلى مزيد وهذا المزيد كان كلمّ. لا تدّعي صاحبة النزل أنها تعرف ماذا تريد أنت من كلمّ، إنها تدّعي فقط أنك قبل أن تعرفني كنت تسعى بشدة إلى كلمّ بالمثل كما كنت تسعى بعد ذلك. وأن الفرق لم يكن يكمن إلا في أنك كنت في السابق يائساً، في حين أنك الآن تظن أنك تملك فيّ وسيلة موثوقة توصّلك إلى كلمّ فعلاً وقريباً وحتى .بتفوّق. كم ذُعرتُ - لكن هذا كان أولاً على نحو عابر وحسب، بلا سبب أعمق - عندما قلتَ مرة، قبل أن تعرفني، كنت هنا تضلّ الطريق. ربما تكون الكلمات نفسها التي استخدمتها صاحبة النزل، هي كذلك تقول إنك فقط بعد أن عرفتني أصبحتَ واعياً لهدفك. هذا يرجع إلى أنك كنت تعتقد بأنك استوليت في شخصي على عشيقة لكلمّ وبأنك

بهذا بتّ تملك رهينة لا يمكن تخليصها إلا بأقصى ثمن. التفاوض مع كلمّ حول هذا الثمن هو مسعاك الوحيد. لأن لا شيء فيّ وكل شيء في الثمن يهمّك، فإنك مستعد لكل تساهل بخصوصي لكنك متشدد بخصوص الثمن. لهذا السبب فإنك لا تكترث بأن أفقد عملي في حانة السادة لا تكترث بأنه يجب عليّ أن أترك حانة الجسر كذلك، لا تكترث بأنه يجب عليّ إنجاز عمل حاجب المدرسة الشاق، ليس لديك حنوّ لا بل ولا حتى وقت لي، إنك تتركني للمساعدَين، غيرة لا تعرف، قيمتي الوحيدة لك هي أنني كنت عشيقة كلمّ، في جهلك تسعى إلى أن لا أنسى كلمّ، وذلك حتى لا أعارض كثيراً عندما تأتي اللحظة الحاسمة، مع ذلك فإنك تكافح صاحبة النزل أيضاً، الشخص الوحيد الذي تظن أنه خليق أن يكون قادراً على انتزاعي منك، لذا فإنك تدفع النزاع معها إلى القمة حتى تضطر إلى مغادرة حانة الجسر معي؛ كوني، بقدر ما يكون الأمر بيدي وحدي، ملكيتك تحت كل الظروف، بهذا لا تشك أبداً. الحديث مع كلمّ تتصوره صفقة، نقد مقابل نقد. إنك تحسب حساب كل الإمكانيات؛ تحت شرط أن تبلغ الثمن، فإنك مستعد لفعل كل شيء؛ إذا كان كلمّ يريدني، فإنك تعطيني له، إذا كان يريد أن تبقى لديّ، فسوف تبقى، إذا كان يريد أن تنبذني، فسوف تنبذني، لكنك مستعد كذلك لأن تمثل كوميديا، إذا كان الأمر ذا منفعة، فسوف تدعي أنك تحبني، لا مبالاته سوف تحاول أن تكافحها بأن تبرز تفاهتك وتُخجله بحقيقة تبعيتك، أو أن تبلغه اعترافات حبي بخصوص شخصه، هذه الاعترافات التي بحت بها فعلاً، وترجوه أن يقبلني مرة أخرى، لكن لقاء دفع الثمن؛ وإذا لم ينفع شيء آخر، فإنك سوف تتسوّل ببساطة باسم الزوجين ك. لكن عندما سوف ترى من ثم، هكذا استنتجت صاحبة النزل، أنك خُدعت في كل شيء، في افتراضاتك وفي آمالك، في تصورك عن كلمّ وعلاقاته بي، هنا يبدأ جحيمي، إذ هنا فقط سوف أصبح ملكيتك الوحيدة حقاً، ملكية تظل معتمداً عليها، لكن في الوقت نفسه ملكية أثبتت أنها غير ذات قيمة وسوف تعاملها على نحو مناسب، إذ ليس لديك شعور آخر لي سوى شعور المالك.»

بتشوق كان ك. قد أصغى وقد زمّ فمه، وكان الحطب تحته قد تدحرج، كاد ينزلق إلى الأرض، لم يكن قد انتبه لذلك، الآن فقط نهض واقفاً، جلس إلى المنصة، تناول يد فريدا، التي حاولت على نحو خفيف أن تسحبها منه، وقال: «في التقرير لم أتمكن دائماً من التمييز بين رأيك ورأي صاحبة النزل.» «لقد كان رأي صاحبة النزل وحده»، قالت فريدا، «لقد استمعت إلى كل شيء لأنني أحترم صاحبة النزل، لكنها كانت المرة الأولى في حياتي التي أرفض فيها رأيها كل الرفض. كل ما قالته بدا لي تافهاً، بعيداً عن كل فهم لما كان عليه حالنا نحن الاثنين. بالأحرى بدا لي صواباً عكس ما قالته تماماً. فكرت في الصباح المعتم بعد ليلتنا الأولى. كيف ركعتَ إلى جانبي بنظرة كأن كل شيء الآن قد ضاع. وكيف حدث فعلاً

أيضاً أنني، مهما بذلت من جهد، لم أساعدك، بل عرقلتك. بسببي باتت صاحبة النزل عدوّك، عدوّة قوية، ما زلتَ دائماً تستهين بها؛ من ناحيتي، من أجل تلك التي كان عليك أن تعتني بها، اضطررتَ إلى أن تكافح من أجل عملك، كنتَ في ضرر إزاء عمدة القرية، كان عليك أن تخضع للمعلم، كنت تحت رحمة المساعدَين، لكن الأسوأ: بسببي كنت قد أسأت ربما إلى كلمّ. أنك الآن تريد دائماً الوصول إلى كلمّ، لم يكن سوى السعي العاجز لمصالحته بطريقة من الطرائق. وأقول لنفسي إن صاحبة النزل، التي تعرف بالتأكيد كل هذا على نحو أفضل بكثير مما أعرفه، لا تبغي من وراء وشوشاتها لي سوى حمايتي من تأنيبي لنفسي تأنيباً سيئاً كل السوء. مسعى بحسن نية، لكنه زائد عن اللزوم. إن حبي لك كفيل أن يهوّن عليّ كل شيء، كفيل في نهاية المطاف أن يحملك أنت أيضاً إلى الأمام، إذا لم يكن هنا في القرية، ففي مكان آخر، كان حبي لك قد قدم دليلاً على قوته، لقد أنقذك من أسرة برناباس.» «كان هذا إذاً آنذاك رأيك المعارض»، قال ك.، «وماذا تغيّر مذ ذاك؟» «لا أدري»، قالت فريدا وهي تنظر إلى يد ك.، التي كانت تمسك بيدها، «ربما لم يتغير شيء؛ عندما تكون قريباً مني هكذا وتسأل بهدوء هكذا، فأعتقد أن لا شيء قد تغيّر. لكن في الحقيقة» ـ سحبت يدها من ك.، جلست معتدلة في مواجهته وطفقت تبكي، دون أن تغطي وجهها؛ بهذا الوجه المكشوف المبلل بالدموع واجهته، وكأنها لا تبكي على نفسها، بل على خيانة ك. وهكذا فإنه يستحق تعاسة منظرها ـ «لكن في الحقيقة فقد تغيّر كل شيء، منذ أن سمعتك تتحدث مع الصبي. كم بدأتَ ببراءة، سألتَ عن الظروف المنزلية، عن هذا وعن ذاك، كان الحال بالنسبة لي كأنك تأتي في هذه اللحظة إلى المشرب، كبير الثقة، صافي النيّة ورحت تبحث بحماسة طفولية عن نظرتي. لم يكن ثمة فرق مع الحال آنذاك وكنت أتمنى وحسب أن تكون صاحبة النزل هنا، أن تستمع إليك ومن ثم تحاول التشبث برأيها. لكن من ثم فجأة، لا أدري كيف حدث الأمر، لاحظت بأي مقصد تحدثتَ مع الصبي. بكلماتك الحنونة كسبت ثقته التي لا تُكتسب بسهولة، لكي تنطلق من ثم إلى هدفك دون مضايقة، هذا الهدف الذي راح يتجلى لي أكثر وأكثر. الهدف كان المرأة. من كلامك المهموم بها على ما يبدو كان ينطق بشكل مكشوف كلياً الحرص على شؤونك دون سواها. لقد خدعتَ المرأة قبل أن تكسبها. من كلماتك لم أسمع ماضيّ وحسب، بل سمعت مستقبلي أيضاً، كان حالي وكأن صاحبة النزل تجلس إلى جانبي وتشرح لي كل شيء وأنا أحاول أن أدفعها بعيداً عني بكل قواي، لكنني أرى انعدام الأمل في مثل هذا الجهد، بينما لم أكن المرأة التي خُدعتْ في الحقيقة، حتى إنه لم يجر خداعي أنا، بل المرأة الغريبة. وإذ استجمعت قواي من ثم وسألت هانس عما يريد أن يصبح وقال إنه يريد أن يصبح مثلك، أي إنه يخصك كلياً، ماذا كان إذاً الآن من فرق كبير بينه، هو الصبي الطيب الذي أسيئت معاملته وبيني، آنذاك، في المشرب؟»

«كل شيء»، قال ك.، معتاداً على العتاب كان قد تمالك نفسه، «كل ما تقولينه هو صحيح بمعنى ما، إنه لا ينافي الحقيقة، إنه عداء وحسب. إنها أفكار صاحبة النزل، عدوّتي، حتى عندما تظنين أنها أفكارك الخاصة بك، هذا يواسيني. لكنها مفيدة، ما زال يمكن للمرء أن يتعلم بعض الأمور من صاحبة النزل. لي نفسي لم تقل الأمر، مع أنها في ما عدا ذلك لم ترحمني، الظاهر أنها عهدت إليك بهذا السلاح أملاً بأنك كفيلة بأن تستخدميه في ساعة سيئة لي على نحو خاص أو في ساعة حاسمة كل الحسم؛ إذا كنت أستغلك، فإنها هي تستغلك على نحو مماثل. لكن الآن تأملي يا فريدا: حتى لو كان كل شيء هو بالتمام والكمال كما تقول صاحبة النزل، فإنه ليس من شأنه أن يكون سيئاً جداً إلا في حالة واحدة، ألا وهي إذا كنت لا تحبينني. من ثم، الآن من شأن الحال أن يكون فعلاً هكذا، أنني كسبتك بحساب وحيلة كي أستثمر هذه الملكية. بل ربما كان في عداد خطتي أنني آنذاك، كي أستدرج عطفك، ظهرت أمامك مع أولغا ذراعاً بذراع وصاحبة النزل نسيت وحسب أن تذكر هذا في قائمة ذنوبي. لكن إذا لم تكن الحالة السيئة وإذا لم يكن وحش كاسر ماكر استحوذ عليك آنذاك، بل أنت اقتربت مني كما اقتربت أنا منك وعثر كل منا على الآخر، كل منا منكر لذاته، قولي، فريدا، كيف هو الحال إذاً؟ إذاً أدير مسألتي مثل مسألتك، هنا ما من فرق، بل لا يمكنها أن يكون إلا عدوّة. هذا يصح في كل مكان، كذلك بخصوص هانس. لدى الحكم على الحديث مع هانس تبالغين، على فكرة، كل المبالغة في عاطفتك الرقيقة، إذ لو كانت مقاصد هانس ومقاصدي لا تتطابق كلياً، فإن هذا لا يذهب إلى حد بعيد لدرجة أن ينشأ تناقض بينها، فوق ذلك فإن خلافنا لم يظل خافياً على هانس، إذا صدقت ذلك، فإنك كفيلة أن تستهيني بهذا الرجل الصغير الحذر وحتى لو كان كل شيء قد ظل خافياً عليه، فلن ينشأ عن ذلك أذى لأحد، هذا ما آمله.»

«من العسير أن يجد المرء طريقه، يا ك.» قالت فريدا وهي تطلق زفرة، «يقيناً لم يكن لديّ سوء ظن بك وشيء مثل هذا انتقل إليّ من صاحبة النزل، سأتخلص منه وأنا سعيدة وأطلب منك المعذرة وأنا راكعة، مثلما أفعل في الحقيقة طوال الوقت، حتى ولو كنت ما زلت أقول أشياء سيئة. لكن يظل صحيحاً أنك تخفي عني أموراً كثيرة؛ إنك تأتي وتذهب، وأنا لا أدري من أين وإلى أين. آنذاك حين طرق هانس الباب، ناديتَ حتى على اسم برناباس. ليتك ناديتني ذات مرة بحب هكذا، مثلما ناديت آنذاك لسبب لا أفهمه هذا الاسم المكروه. إذا لم يكن لديك ثقة بي، فكيف لا ينشأ لديّ إذاً عدم ثقة، إنني متروكة كلياً من ثم لصاحبة النزل، التي يبدو أنك بسلوكك تؤكد ما تذهب إليه. ليس في كل شيء، لا أريد أن أدّعي أنك تؤيدها في كل شيء، ألم تطرد المساعدَين بسببي على كل حال؟ آه ليتك تعلم بأية رغبة أبحث في كل ما تفعله وتقوله، حتى ولو كان يؤلمني، عن بذرة صالحة لي.» «قبل كل شيء، فريدا»، قال ك.،

«إنني لا أخفي عنك أقل شيء. ما أشد مقت صاحبة النزل لي وما أعظم سعيها لانتزاعك مني وبأية وسائل حقيرة تفعل ذلك، وما أشد رضوخك لها، فريدا، ما أشد رضوخك لها. قولي، فيما أخفي عنك شيئاً؟ تعلمين أني أريد الوصول إلى كلمّ، وتعلمين أيضاً أنك لا تستطيعين مساعدتي في ذلك وأنه يتعيّن عليّ لهذا السبب أن أبلغ مبتغاي من تلقاء نفسي، وترين أنني لم أوفق في ذلك حتى الآن. هل يجب عليّ إذلال نفسي على نحو مضاعف بأن أحكي عن المحاولات عديمة الجدوى، التي تذلّني في الحقيقة إذلالاً كبيراً؟ هل عليّ أن أفتخر بأنني انتظرت عبثاً طوال بعد ظهيرة يوم وأنا أرتعش من البرد على باب زحافة كلمّ؟ سعيداً بأنني لن أضطر بعد الآن إلى التفكير في مثل هذه الأمور، أهرع إليك فيواجهني كل هذا مهدداً صادراً منك. وبرناباس؟ يقيناً، إنني أنتظره. إنه ساعي كلمّ، ولست أنا الذي عيّنه ساعياً.» «مرة أخرى برناباس»، نادت فريدا، «لا أستطيع أن أعتقد أنه ساع جيد.» «قد تكونين على حق»، قال ك.، «لكنه الساعي الوحيد الذي يُرسل لي.» «هذا أسوأ»، قالت فريدا، «يزيد ضرورة أن تحترس منه أكثر.» «لم يقدم لي يا للأسف حتى الآن سبباً لذلك»، قال ك. وهو يبتسم، «نادراً ما يأتي، وما يحمله عديم الأهمية؛ فقط كونه صادراً مباشرة عن كلمّ، يجعله نفيساً.» «لكن انظر فقط»، قالت فريدا، «حتى إنه لم يعد كلمّ هو هدفك، ربما يكون هذا أكثر ما يقلقني؛ كونك كنت دائماً تهفو إلى كلمّ متجاهلاً إياي، كان أمراً سيئاً، أنك تبدو الآن تتخلى عن كلمّ، هو أكثر سوء بكثير، إنه أمر لم تتنبأ به حتى صاحبة النزل. بعد صاحبة النزل انتهت سعادتي، سعادة ملتبسة ومع ذلك حقيقية جداً، مع اليوم الذي أدركتَ فيه نهائياً أن أملك بكلمّ لا طائل تحته. أما الآن فإنك لم تعد حتى تنتظر هذا اليوم، فجأة يدخل صبي صغير فتشرع في الكفاح معه بشأن أمه، كأنك تكافح حول هواء حياتك.» «لقد فهمتِ حديثي مع هانس فهماً صحيحاً»، قال ك.، «هكذا كان الحال فعلاً. لكن هل غرقت حياتك السابقة كلها بالنسبة لك (ما عدا صاحبة النزل طبعاً، التي لا تدع نفسها تُرمى إلى أسفل)، بحيث أنك لم تعودي تعرفين، كم يجب على المرء أن يكافح في سبيل أن يتقدم إلى الأمام، خاصة إذا كان المرء يأتي من أعماق الأسفل؟ كم يجب استخدام كل شيء يعطي أي أمل؟ وهذه المرأة تأتي من القلعة، هي نفسها قالت لي ذلك، عندما ضللت طريقي إلى لازيمان في اليوم الأول. كان الأمر الأكثر طبيعية هو سؤالها عن نصيحة أو طلب مساعدة منها؛ إذا كانت صاحبة النزل تعرف بدقة تامة كل العوائق التي تحول دون الوصول إلى كلمّ، فإن هذه المرأة تعرف على الأرجح الطريق، فهي نفسها نزلت.» «الطريق إلى كلمّ؟» سألت فريدا. فانتفض واقفاً: «لكن الآن آن الأوان لإحضار الطعام.» بإلحاح، وأبعد من السبب رجته فريدا أن يبقى، وكأن من شأن بقائه أن يؤكد كل ما كان قد قاله لها مواسياً. غير أن ك. نبّه إلى المعلم، أشار إلى الباب، الذي يمكنه في كل لحظة أن ينفتح بهدير رعد، كما وعد بأن يعود في الحال، وليس عليها حتى أن توقد المدفأة، هو نفسه سيتولى الأمر. في النهاية رضخت فريدا وهي صامتة. حين طفقت قدما ك. في الخارج

تغوص في الثلج ـ منذ مدة طويلة كان يجب جرف الثلج من على الطريق، مما يدعو للاستغراب من بطء التقدم في العمل ـ شاهد أحد المساعدَين يتمسك بالسور الحديدي وقد بلغ به التعب أشدّه. أحدهما فقط، أين كان الآخر؟ هل كان ك. إذاً قد حطم صمود أحدهما على الأقل؟ كان المتخلف بالطبع ما فتئ نشيطاً كفاية لدى الموضوع، رأى المرء هذا حين شرع على الفور، وقد تنشّط برؤية ك.، مرة أخرى بمدّ الذراعين وزوغان البصر المترقب. 'عناده نموذجي'، قال ك. في ذات نفسه لكن كان عليه أن يردف: 'مع هذا العناد يتجمد المرء على السور.' لكن ظاهرياً لم يكن للمساعد لدى ك. شيء آخر سوى تهديد بقبضة اليد، استبعد كل تقارب، لا بل إن المساعد تراجع خائفاً مسافة لا يستهان بها. توّاً فتحت فريدا نافذة، كي تجدد هواء الحجرة قبل التدفئة، كما كانت قد تفاهمت مع ك. في الحال ترك المساعد ك. وانسلّ إلى النافذة منجذباً على نحو لا يقاوم. بوجه مقلّص من اللطف إزاء المساعد وعجز متوسل باتجاه ك. لوّحت قليلاً باليد من النافذة، حتى إنه لم يكن واضحاً أكانت هذه التلويحة صدّاً أم تحية. كما أن المساعد لم يدع نفسه بهذا يرتبك في اقترابه. هنا أغلقت فريدا النافذة الخارجية على عجل، لكنها ظلت وراءها، وقد وضعت يدها على المقبض، برأس مائل إلى الجانب وعينين مفتوحتين على سعتهما وابتسامة مصطنعة. هل كانت تعلم أنها بهذا إنما تجذب المساعد أكثر مما تردعه؟ غير أن ك. لم يعد ينظر وراءه، كان يفضّل أن يسرع ما أمكن ويعود قريباً.

١٥

لدى أماليا

أخيراً - كانت الدنيا معتمة، الوقت ساعة متأخرة من بعد الظهيرة - كان ك. قد أزال الثلج من على طريق الحديقة، كوّمه عالياً على جانبي الطريق وثبّته بضربات من المجرفة وفرغ الآن من عمل اليوم. وقف إلى بوابة الحديقة، بمفرده في دائرة واسعة. كان قد طرد الصبي المساعد قبل ساعات، لاحقه مسافة كبيرة، من ثم كان الصبي المساعد قد اختبأ في مكان ما بين الحدائق الصغيرة والأكواخ، لم يعد بالإمكان العثور عليه ولم يعد إلى الظهور مرة أخرى كذلك منذ ذلك الحين. كانت فريدا في البيت وكانت تغسل الغسيل أو ما فتئت تغسل قطة غيزا؛ كانت دلالة ثقة كبيرة من جانب غيزا أنها سلّمت فريدا هذا العمل، لكنه والحق يقال عمل منفّر وغير مناسب، ما كان ك. خليقاً أن يتحمّل القيام به، لو لم يكن الأمر مستحسناً للغاية، بعد مختلف الأخطاء في العمل، استخدام كل فرصة يمكن للمرء فيها أن يكون له فضل على غيزا. كانت هذه قد شاهدت وهي راضية كيف كان ك. قد جلب حوض استحمام الأطفال الصغير من حجرة الخزين تحت السقف، كيف سخّن ماء، وأخيراً رفع القطة بحذر إلى الحوض. بعد ذلك تركت غيزا القطة حتى كلياً لفريدا، إذ إن شفارتسر، الذي يعرفه ك. من المساء الأول، كان قد حضر، ألقى التحية عليه بمزيج من حياء، كان قد وُضع أساسه في ذلك المساء، وازدراء مفرط، كما يستحق حاجب مدرسة، من ثم انتقل مع غيزا إلى الحجرة الأخرى. وظل الاثنان هناك معاً. كما كان الناس في حانة الجسر قد قالوا، كان شفارتسر، الذي هو ابن لأحد أمناء القلعة، يعيش منذ مدة طويلة في القرية حباً بغيزا، وبواسطة علاقاته توصل إلى أن عيّنته البلدية معاون معلم، وبات يمارس هذه الوظيفة في الدرجة الأولى بطريقة لا يفوته.معها درس من دروس غيزا تقريباً، إما على مقعد المدرسة بين الأطفال أو، من الأفضل، إلى المنصة تحت قدمي غيزا. لم يعد الأمر يضايق، كان الأطفال قد اعتادوا على ذلك منذ مدة طويلة، وهذا ربما بسهولة أكبر إذ لم يكن شفارتسر يشعر لا بميل للأطفال ولا بتفهم لهم، وعلى قلة كان يتحدث معهم، وفقط كان قد استلم درس الرياضة البدنية من غيزا وبهذا

كان راضياً أن يعيش بالقرب منها وفي جوها ودفئها. كانت متعته الكبرى أن يجلس إلى جوار غيزا ويصحح معها دفاتر مدرسية. اليوم أيضاً كانا مشغولين بذلك، كان شفارتسر قد أحضر كمية كبيرة، والمعلم كان يعطيهما دائماً دفاتره أيضاً، وما دام ثمة ضوء نهار كان ك. يراهما جالسين إلى طاولة صغيرة بجانب النافذة عاكفين على العمل، رأساً إلى رأس، بلا حراك، الآن لم يعد يُرى سوى شمعتين ترتعشان. كان حباً جدياً صامتاً هو ما يربطهما، كانت غيزا هي الموجّه طبعاً، كانت طبيعتها الخاملة، إذا تحولت إلى العنف أحياناً، تتجاوز كل الحدود، لكن لم تكن خليقة أن تقبل مطلقاً شيئاً مشابهاً لدى آخرين في وقت آخر، هكذا كان لا بدّ أيضاً لشفارتسر المفعم بالحيوية أن ينصاع، أن يمشي على مهل، يتحدث بروية، يصمت كثيراً، غير أنه كان يكافأ، كان المرء يرى هذا، على كل شيء على نحو وافر من خلال حضور غيزا البسيط الهادئ. بينما لم تكن غيزا ربما تحبه أبداً، على كل حال لم تكن عيناها المستديرتان الرماديتان اللتان لا ترمشان قط، وتدوران بالأحرى على ما يبدو في الحدقتين، تعطيان جواباً عن مثل هذه الأسئلة، كان المرء يرى فقط أنها تقبل شفارتسر دون اعتراض، لكنها يقيناً لم تعرف كيف تقدّر شرف أن يحبها ابن أمين قلعة وكانت تحمل جسدها الممتلئ بلا اكتراث وبهدوء لا يتبدل، إذا تابعها شفارتسر بنظراته أم لم يفعل. أما شفارتسر فقد قدم لها التضحية المستديمة بأن ظل في القرية؛ رسل الوالد، الذين كثيراً ما أتوا لإحضاره، كان يصرفهم بخشونة ساخطاً وكأن تذكيرهم القصير له بالقلعة وتذكيرهم بواجبه كابن، يمثل إزعاجاً حساساً لسعادته لا يمكن التعويض عنه. ومع ذلك كان لديه في الواقع كثير من أوقات الفراغ، إذ إن غيزا لم تكن تظهر له بصورة عامة إلا أثناء إعطاء الدروس وعند تصحيح الدفاتر، هذا لم يكن طبعاً لغرض، بل لأنها كانت تحب فوق كل شيء الراحة ولهذا السبب الانفراد بالذات وعلى الأرجح كانت أكثر سعادة، عندما كانت تستطيع أن تتمدد على الأريكة في البيت بحرية تامة، إلى جانبها القطة، التي لم تكن تزعج، لأنها لم تكن تستطيع أن تتحرك بعد الآن. هكذا كان شفارتسر يتسكع بلا انشغال طوال شطر كبير من اليوم، لكن هذا الأمر أيضاً كان يسرّه، إذ إنه كان يملك دائماً في أثناء ذلك الإمكانية، التي كان يستخدمها أيضاً كثيراً جداً، بأن يذهب إلى شارع الأسد، حيث كانت غيزا تسكن، أن يصعد إلى غرفتها الصغيرة تحت السقف، أن يتنصّت من وراء الباب الموصد دائماً ولكن من ثم أن ينصرف ثانية، بعد أن يكون قد ثبت له الهدوء التام غير المفهوم الذي يسود الغرفة بلا استثناء. على كل حال ظهرت لديه أيضاً عواقب طريقة الحياة هذه أحياناً، لكن ليس بحضور غيزا أبداً، في انفجارات مضحكة على عجرفة رسمية فورية منبعثة من جديد، تناسب طبعاً بالذات مركزه الراهن مناسبة سيئة على نحو كاف؛ لكن الأمر لم يكن ينتهي غالباً من ثم نهاية طيبة، كما كان ك. أيضاً قد رأى.

لم يكن ثمة مدعاة للاستغراب سوى أن الناس، في حانة الجسر على الأقل، إنما كانوا

يتحدثون عن شفارتسر بنوع من الاحترام، حتى لو كان الموضوع يتعلق بأشياء مضحكة أكثر مما تكون جديرة بالاحترام، كذلك غيزا كانت ضمن هذا الاحترام. لكن مع ذلك لم يكن صحيحاً إذا كان شفارتسر يعتقد أنه بصفته معاون معلم إنما يتفوق على ك. تفوقاً استثنائياً، هذا التفوق لم يكن قائماً، حاجب مدرسة هو بالنسبة للمعلمين وحتى بالنسبة لمعلم من نوع شفارتسر شخص في غاية الأهمية لا يجوز امتهانه بغير عقاب، وإذا كان المرء لا يستطيع بسبب مصالح طبقية أن يستغني عن الامتهان، فإنه يجب عليه أن يجعله على الأقل مطاقاً بتقديم مقابل مناسب. ك. أراد إذا سنحت الفرصة أن يفكر، كذلك شفارتسر كان مديناً له منذ المساء الأول، هذا الدَين الذي لم يقلّ بأن الأيام التالية كانت قد أعطت الحق في الواقع لاستقبال شفارتسر. إذ لم يكن بالإمكان أثناء ذلك نسيان أن الاستقبال كان ربما قد أعطى الاتجاه لكل ما تبع. من خلال شفارتسر جرى بطريقة سخيفة تماماً منذ الساعة الأولى توجيه انتباه السلطات الكامل إلى ك.، حيث كان ما زال غريباً كل الغربة في القرية، دون معارف، دون مأوى، منهكاً من المسير، عاجزاً كلياً كما كان يرقد على كيس القش، متروكاً لرحمة كل تدخل من قبل السلطات. فقط في الليلة التالية كان يمكن لكل شيء أن يجري على نحو مغاير، بهدوء، شبه مستتر. على كل حال ما كان من شأن أحد أن يعلم شيئاً عنه أو يشتبه به، على الأقل ما تردد في تركه لديه يوماً باعتباره غلاماً جوّالاً، كان المرء خليقاً أن يرى فائدته وأمانته، كان أمره شاع في الجوار، وعلى الأرجح كان قميناً أن يجد قريباً مأوى في مكان ما كخادم. طبعاً ما كان من شأنه أن يفلت من السلطات. لكن كان ثمة فرق جوهري في ما إذا كان بسببه المكتب المركزي أو من كان على الهاتف غيره قد أوقظ من سباته في منتصف الليل، وطُلب منه اتخاذ قرار في الحال، لكن بتواضع ظاهريّ ومع ذلك بتصميم مزعج، فوق ذلك من قبل شفارتسر غير المحبوب هناك، أو في ما، بدلاً من كل هذا، كان ك. في اليوم التالي قد قرع الباب في ساعات الدوام الرسمية لدى عمدة القرية، كما تقضي اللباقة، أعلن عن نفسه غلاماً جوالاً لديه مكان مبيت لدى فرد معيّن من أهالي القرية وعلى الأرجح سوف يعود إلى تجواله في اليوم التالي، من ثم كان يمكن أن تقع الحالة المستبعدة كلياً ويجد عملاً هنا، لمدة بضعة أيام وحسب طبعاً، إذ إنه لا ينبغي أن يبقى أكثر من ذلك ولا بأي حال من الأحوال. هكذا أو على نحو مشابه كان من شأن الأمر أن يصبح بدون شفارتسر. كانت السلطة قمينة أيضاً أن تشغل نفسها بالمسألة، لكن بهدوء، بالطريق الرسمي، دون إزعاج من نفاد صبر صاحب العلاقة، هذا النفاد المكروه من قبلها بشكل خاص على الأرجح. حسناً، كان ك. بريئاً من كل هذا، الذنب وقع على شفارتسر، غير أن شفارتسر كان ابن أحد أمناء القلعة وظاهرياً كان قد تصرف على نحو صحيح، كان يمكن للمرء إذاً أن يكافئ ك. وحده. والسبب السخيف لكل هذا؟ ربما نزوة غير ودّية من نزوات غيزا في ذلك اليوم، بسببها راح شفارتسر يهيم على وجهه في الليل مؤرّقاً، لكي يعوض لنفسه عن ألمه من ثم لدى ك. كان في

مقدور المرء طبعاً من ناحية أخرى أن يقول أيضاً، إن ك. إنما يدين بالكثير جداً لهذا التصرف من قبل شفارتسر. بهذا وحده غدا شيء ممكناً لا يبلغه ك. وحده أبداً، ما كان من شأنه قط أن يجرؤ على بلوغه كما أنه ما كان من شأن السلطة من طرفها أن تعترف به في أي وقت من الأوقات، ألا وهو أنه منذ البداية وبدون مداورات، صراحةً، وجهاً لوجه واجه السلطة، بقدر ما كان هذا ممكناً لديها أصلاً. غير أن هذا كان عطيّة سيئة، صحيح أنه وفّر على ك. الكثير من الكذب والتستّر والتكتّم، لكنه جعله أيضاً أعزل تقريباً، عاد عليه بضرر على كل حال في الكفاح وكان قميناً أن يجعله يائساً بالنظر إلى ذلك، لو لم يكن عليه أن يقول لنفسه إن فرق القوة بين السلطة وبينه كان هائلاً إلى درجة أن كل كذبة وكل حيلة كان من شأنه أن يكون قادراً عليها لا تقدر على تخفيض الفرق تخفيضاً جوهرياً لصالحه، بل نسبياً لا بدّ من أن يظل دائماً غير ملحوظ. غير أن هذا لم يكن سوى فكرة واسى ك. نفسه بها، شفارتسر ظل مع ذلك مذنباً بعض الشيء؛ إذا كان آنذاك قد أضرّ، فقد يمكنه أن يساعد في وقت لاحق، خليق بـ ك. أن يحتاج مستقبلاً أيضاً إلى مساعدة في أقل القليل في الشروط الأولى، هكذا بدا على سبيل المثال برناباس أيضاً يبوء بالفشل مرة أخرى. بسبب فريدا كان ك. قد تردد طوال اليوم في الذهاب إلى بيت برناباس كي يستفسر؛ لكي لا يضطر إلى استقباله بحضور فريدا، كان ك. قد عمل الآن هنا في الخارج وظل هنا بعد العمل منتظراً برناباس، لكن برناباس لم يحضر. والآن لم يبق أمامه شيء آخر سوى أن يذهب إلى الأختين، فقط لمدة قصيرة جداً، فقط من العتبة أراد أن يسأل، وسرعان ما سيعود. ودسّ المجرفة في الثلج وجرى. متقطع الأنفاس وصل إلى بيت برناباس، بعد طرق قليل فتح الباب بقوة وسأل، دون أن يراعي كيف كان يبدو الحال في الحجرة: «ألم يحضر برناباس بعدُ؟» الآن فقط لاحظ أن أولغا لم تكن هنا، كان الوالدان جالسين مرة أخرى في شبه غيبوبة إلى الطاولة الصغيرة البعيدة، ولم يكن قد توضح لهما بعد ما حدث لدى الباب وفقط ببطء أدارا وجهيهما، وأخيراً أن أماليا ترقد تحت الأغطية على أريكة بجوار المدفأة وفي الذعر الأول عن ظهور ك. قفزت ووضعت يدها على جبهتها لكي تتمالك نفسها. لو كانت أولغا هنا، كانت كفيلة أن تجيب في الحال وكان في مقدور ك. أن ينصرف عائداً، هكذا كان عليه على الأقل أن يخطو إلى أماليا بضع الخطوات، أن يمدّ لها يده، التي صافحتها بصمت، وأن يرجوها منع الوالدين الجفلين من أي تجول، الأمر الذي فعلته أيضاً ببضع كلمات. علم ك. أن أولغا تقطّع حطباً في الفناء، أماليا منهكة - لم تذكر سبباً - اضطرت قبل قليل للرقاد وبرناباس لم يأت بعدُ، لكن لا بدّ له من أن يحضر قريباً، إذ إنه ما من مرة بقي في القلعة ليلاً. شكر ك. على المعلومات، والآن كان في مقدوره أن ينصرف عائداً، لكن أماليا سألت ألا يريد أن ينتظر أولغا، غير أنه للأسف لم يكن لديه وقت، فسألت أماليا أكان قد تحدث اليوم مع أولغا، نفى ذلك مستغرباً، وسأل هل أولغا تريد إعلامه شيئاً مخصوصاً، لوَتْ أماليا فمها في شبه استياء خفيف، أومأت لـ ك. برأسها صامتة، كان واضحاً

أنه وداع، وعادت إلى الرقاد. من وضع الراحة تفحصته، وكأنها تستغرب أنه ما زال هنا. كانت نظرتها باردة، واضحة، ثابتة مثلما كانت دائماً، لم تكن موجهة تماماً إلى ما تراقبه، بل كانت ـ كان هذا مزعجاً ـ تمرّ به بعض الشيء، على نحو يكاد أن يكون غير ملحوظ، لكنه مؤكد لا ريب فيه، لم يبدُ ضعفاً، لا ارتباكاً، لا خداعاً، هذا الذي سبّبه، بل رغبة متواصلة تتفوق على كل شعور آخر، رغبة في العزلة ربما لم تدركها بنفسها إلا بهذه الطريقة. ظن ك. أنه يتذكر أن هذه النظرة كانت قد شغلته منذ المساء الأول، لا بل على الأرجح أن كل الانطباع البشع، الذي كانت الأسرة قد أثارته على الفور في نفسه، إنما يعود إلى هذه النظرة، التي لم تكن في حدّ ذاتها بشعة بل فخورة وفي تحفظها صادقة. «إنك دائماً مكتئبة هكذا، أماليا»، قال ك.، «هل يعذبك شيء؟ ألا يمكنك أن تتحدثي عنه؟ لم أر قط فتاة ريفية مثلك. اليوم فقط، الآن فقط لفت الأمر نظري في الحقيقة. هل أنت من القرية هنا؟ هل ولدت هنا؟» أجابت أماليا بالإيجاب هكذا كأن ك. لم يطرح سوى السؤال الأخير، ثم قالت: «سوف تنتظر إذاً أولغا ولا ريب؟» «لا أدري لماذا تسألين دائماً السؤال نفسه»، قال ك.، «لا أستطيع المكوث مدة أطول، لأن خطيبتي تنتظر في البيت.» اتكأت أماليا على مرفقيها، لم تكن تعلم عن خطيبة. ك. سمّى الاسم، أماليا لم تكن تعرفها. سألت هل أولغا تعلم أمر الخطوبة، ك. يعتقد ذلك، أولغا شاهدته مع فريدا، كما أن مثل هذه الأخبار تنتشر بسرعة في القرية. غير أن أماليا أكدت له أن أولغا لا تعرف الأمر وأنه سيجعلها تعيسة القلب، إذ يبدو أنها تحب ك. لم تتحدث عن ذلك بصراحة، إذ إنها متحفظة للغاية، لكن الحب يكشف عن نفسه من غير عمد. كان ك. مقتنعاً بأن أماليا مخطئة. ابتسمت أماليا وهذه الابتسامة، مع أنها كانت حزينة، أضاءت الوجه المتقلص في تجهّم، أنطقت الخرس، جعلت الغربة مألوفة، كان البوح بسرّ، إفشاء ملكية محروسة حتى الآن، صحيح أنه كان يمكن التراجع عنه ثانية، لكن ليس كلياً إطلاقاً. قالت أماليا إنها بالتأكيد غير مخطئة، لا بل إنها تعرف أكثر، تعرف أن ك. يودّ أولغا وأن زياراته بذريعة أية رسائل من برناباس، لا تقصد سوى أولغا. لكن الآن إذ تعرف أماليا كل شيء، فإنه لا يتعيّن عليه أن يأخذ الأمر بعد الآن في صرامة ويجوز له أن يحضر مراراً. هذا فقط هو ما أرادت أن تقوله له. هزّ ك. رأسه وذكّر بخطوبته. بدت أماليا أنها لا تبدد أفكاراً كثيرة عن هذه الخطوبة، الانطباع المباشر لـ ك.، الذي كان يقف وحده أمامها، كان حاسماً بالنسبة لها، سألت وحسب، متى إذاً تعرّف ك. تلك الفتاة، فلم يمض عليه في القرية سوى بضعة أيام وحسب. روى ك. عن المساء في حانة السادة، فقالت أماليا باقتضاب وحسب إنها كانت تعارض جداً أن يأخذه المرء إلى حانة السادة. ونادت أيضاً على أولغا بصفتها شاهدة، التي كانت قد دخلت لتوّها بذراع مليئة بالحطب، كانت بشرتها نضرة مشوبة باحمرار، من الهواء البارد، كانت نشيطة وقوية، كأنها تحولت بفضل العمل مقابل وقوفها الثقيل المألوف في الغرفة. ألقت بالحطب، حيّت ك. بلا ارتباك وسألت في الحال عن فريدا. بنظرةِ تفاهمِ ك. مع

أماليا لكنها بدت أنها لا تعتبر نفسها قد نُقضت. روى ك.، وقد أثاره هذا بعض الشيء، عن فريدا بإسهاب أكثر مما كان من شأنه أن يفعل في ما عدا ذلك، وصف مدى صعوبة الظروف في المدرسة التي أقامت فيها فريدا على كل حال نوعاً من التدبير المنزلي ونسي نفسه في سرعة الحديث - كان يريد أن يذهب إلى البيت حالاً - إلى درجة أنه في شكل وداع دعا الشقيقتين إلى زيارته ذات مرة. لكنه الآن ذُعر وتلعثم، في حين أن أماليا أعلنت على الفور، دون أن تترك له وقتاً لكلمة، أنها تقبل الدعوة، ثم كان على أولغا أيضاً أن تتبع وهذا ما فعلته. لكن ك.، مُضيقاً عليه من أفكار بلا انقطاع بضرورة وداع سريع وشاعراً بعدم ارتياح تحت نظرة أماليا، لم يتردد في الاعتراف بدون تزويق كلام بأن الدعوة إنما جاءت بغير تفكير أو تروّ على نحو كامل ولم تُلهم له إلا من قبل شعوره الشخصي، لكنه للأسف لا يستطيع الإبقاء عليها، إذ تقوم عداوة كبيرة، لكنها غير مفهومة لديه أبداً، بين فريدا وآل برناباس. «إنها ليست عداوة»، قالت أماليا، نهضت من على الأريكة وألقت الغطاء وراءها، «إن الحال ليس شيئاً كبيراً، إنه مجرد ترداد للرأي الشائع. والآن اذهب، اذهب إلى خطيبتك، إنني أرى كيف تسرع. لا تخشى أيضاً من أن نأتي، لقد قلتُ الأمر منذ البداية مزاحاً وحسب، من باب الخبث. أما أنت فإنه بإمكانك أن تأتي إلينا كثيراً، ما من عائق طبعاً، يمكنك دائماً أن تتعلل برسائل برناباس. وأنا أسهّل الأمر عليك بأن أقول إن برناباس، أيضاً عندما يحمل لك رسالة من القلعة، لا يستطيع الذهاب مرة أخرى حتى المدرسة كي ينقلها لك. لا يستطيع أن يجري كثيراً، الفتى المسكين، إنه يستهلك نفسه في العمل، سوف يتعين عليك أن تأتي بنفسك كي تأخذ الخبر.» لم يكن ك. قد سمع أماليا تقول كثيراً هكذا في سياق، كما أنه كان ذا وقع مغاير لحديثها المعتاد، وفي ذلك كان ثمة نوع من السموّ، الذي لم يستشعره ك. وحده، بل على ما يبدو أولغا أيضاً، شقيقتها المعتادة عليها، كانت تقف متنحية قليلاً، ويداها في حضنها، الآن مرة أخرى في وضعها المألوف مفتوحة الرجلين بانحناءة خفيفة، كانت قد وجهت عينيها إلى أماليا، في حين أن هذه لم تكن تنظر إلا إلى ك. «إنه خطأ»، قال ك.، «إنه خطأ كبير إذا كنت تظنين أنني لست جادّاً بانتظاري برناباس، إن تسوية مسائلي مع السلطات هي أمنيتي الكبرى، في الحقيقة أمنيتي الوحيدة. وعلى برناباس أن يساعدني في ذلك، كثير من أملي يقع عليه. صحيح أنه خيّب أملي ذات مرة خيبة كبرى، لكن ذلك كان ذنبي أكثر مما كان ذنبه، حدث ذلك في ارتباك الساعات الأولى، كنت أظن آنذاك أنني قادر على بلوغ كل شيء بمشوار مسائي صغير وقد آخذته من ثم على حقيقة أن المستحيل إنما أظهر نفسه مستحيلاً. وقد أثر هذا عليّ حتى في الحكم على أسرتكم، عليكم. هذا انقضى، أظن أنني أفهمكم الآن على نحو أفضل، إنكم حتى» - بحث ك. عن الكلمة الصحيحة، لم يعثر عليها فوراً واكتفى بكلمة تقريبية - «إنكم طيبو القلب أكثر من أي شخص من أهالي القرية، بقدر ما أعرفهم حتى الآن. لكن الآن، أماليا، إنك تربكينني مرة أخرى بأنك تقللين إذا لم يكن من قيمة عمل شقيقك، فمن الأهمية

التي يملكها بالنسبة لي. ربما لستِ مطلعة على أسرار شؤون برناباس، فيكون الأمر حسناً وأنا لا أريد متابعة الموضوع، لكن ربما تكونين مطلعة ـ وأنا لديّ بالأحرى هذا الانطباع ـ فيكون الحال سيئاً، لأن من شأن هذا أن يعني أن شقيقك إنما يخدعني.» «اهدأ»، قالت أماليا، «إنني لست مطلعة، ما من شيء خليق أن يدفعني إلى طلب أن يجري اطلاعي، ما من شيء خليق أن يدفعني، ولا حتى مراعاة لك، أنت الذي من شأني أن أفعل بعض الأمور من أجله، إذ كما قلتَ نحن طيبو القلب. لكن شؤون أخي هي شؤونه، وأنا لا أدري شيئاً عنها سوى ما أسمعه أحياناً بالمصادفة ضد إرادتي. لكن أولغا تستطيع أن تعطيك معلومات كاملة، إذ إنها موضع ثقته.» وانصرفت أماليا، أولاً إلى الوالدين اللذين همست لهما، ثم إلى المطبخ؛ كانت قد انصرفت عن ك. دون وداع، كأنها تعلم أنه سيمكث مدة طويلة ولا حاجة إلى وداع.

١٦

مكث ك. حيث هو بوجه دَهِش، ضحكت أولغا منه، سحبته إلى أريكة المدفأة، وقد بدت فعلاً سعيدة أنه كان في مقدورها الآن أن تجلس بمفردها معه هنا، كانت سعادة في دعة وسلام، يقيناً لم تكن تعكرها غيرة. وبالذات هذا البعد عن الغيرة ولذا أيضاً عن كل خشونة أثار راحة في نفس ك.، بسرور طفق ينظر إلى هاتين العينين الزرقاوين، اللتين ليستا مغريتين، ليستا طاغيتين، بل هما هادئتان، ثابتتان في حياء وخفر. كان الحال كأن تحذيرات فريدا وصاحبة النزل لم تجعله أكثر استعداداً لكل هذه الأمور هنا، لكن أكثر انتباهاً وأكثر أرباً. وضحك مع أولغا، إذ تعجبتْ هذه، علامَ سمّى أماليا بالذات طيبة القلب، قالت إن أماليا تتصف بصفات شتى، لكنها في الحقيقة ليست طيبة القلب. فشرح ك. أن الثناء إنما كان طبعاً موجهاً إلى أولغا، لكن أماليا تحب السيطرة إلى درجة أنها لا تستحوذ على كل شيء وحسب مما يقال في حضورها، بل إن المرء يخصها أيضاً بكل شيء طواعية. «هذه حقيقة»، قالت أولغا وقد غدت أكثر جدية، «أكثر حقيقية مما تظن. أماليا أصغر سناً مني، أصغر سناً من برناباس أيضاً، لكنها هي التي تقرر في الأسرة، في الخير والشر، طبعاً، هي تحمل الأمر أيضاً أكثر من الجميع، الخير كما الشر.» اعتبر ك. هذا أمراً مبالغاً فيه، للتوّ كانت أماليا قد قالت إنها لا تهتم بشؤون الأخ على سبيل المثال، أما أولغا فإنها تعرف كل شيء عن ذلك. «كيف عليّ أن أشرح الأمر؟» قالت أولغا، «أماليا لا تهتم ببرناباس ولا بي، في الحقيقة إنها لا تهتم بأحد إلا بالوالدين، إنها ترعاهما ليلاً نهاراً، الآن سألتهما مرة أخرى عن رغباتهما وذهبت إلى المطبخ لتطبخ لهما، بسببهما حملت نفسها على النهوض، إذ إنها متوعكة منذ الظهر وكانت ترقد هنا على الأريكة. لكن مع أنها لا تهتم بنا، فإننا تابعان لها وكأنها هي الأكبر سناً، ولو كانت تنصحنا في شؤوننا، كنا سنتبعها بالتأكيد، غير أنها لا تفعل ذلك، إننا غرباء عليها. لا ريب أن لديك معرفة كبيرة بالناس، لقد قدمت من الغربة، ألا تبدو لك أيضاً ذكية بشكل خاص؟» «تبدو لي غير سعيدة بشكل خاص»، قال ك.، «لكن كيف يتفق مع احترامكما لها، أن مثلاً

برناباس يقوم بعمل السعاة هذا، الذي تستنكره أماليا، بل ربما تحتقره؟» «لو كان يعرف ماذا يمكنه أن يعمل عملاً آخر، فهو كفيل بأن يترك على الفور عمل السعاة، هذا العمل الذي لا يرضيه أبداً.» «ألم يتعلم مهنة صانع أحذية؟» سأل ك. «بلى»، قالت أولغا، «إنه يعمل كذلك إلى جانب ذلك من أجل برونسفيك ولو كان يريد، كان سيحصل على عمل ليلاً نهاراً وعلى دخل وافر.» «حسناً إذاً»، قال ك.، «لكان من شأنه أن يحصل على عمل بديل عن عمل السعاة.» «عن عمل السعاة؟» سألت أولغا بدهشة، «هل قام به إذاً بسبب الدخل؟» «من الممكن»،قال ك.، «لكنك ذكرتِ أن العمل لا يرضيه.» «لا يرضيه، ولأسباب متعددة»، قالت أولغا، «لكنه عمل قلعة، على كل حال نوع من عمل قلعة، هكذا على المرء أن يعتقد على الأقل.» «كيف؟» قال ك.، «حتى في هذا أنتم في شكوك؟» «حسناً»، قالت أولغا، «في الحقيقة لا، برناباس يذهب إلى المكاتب، يخالط الخدم كواحد منهم، يرى من بعيد أيضاً أفراداً من الموظفين، يتلقى رسائل مهمة نسبياً، لا بل يُعهد إليه برسائل شفهية يجب عليه إبلاغها، هذا كثير حقاً ويمكننا أن نكون فخورين بمدى ما بلغه في سن صغيرة هكذا.» أومأ ك. برأسه، بالعودة إلى بلاده لم يفكر الآن. «كما أن لديه ملابس خدم رسمية؟» سأل. «تقصد السترة؟» قالت أولغا، «كلا، أماليا صنعتها له، قبل أن يكون ساعياً. بيد أنك تقترب من النقطة الحساسة. كان حريّ به منذ مدة طويلة أن يحصل لا على ملابس خدم رسمية، التي لا توجد في القلعة، بل على بدلة من الدائرة، كما أنه قد وُعد بذلك، لكنهم من هذه الناحية في القلعة في غاية البطء والأسوأ أن المرء لا يعرف مطلقاً ماذا يعني هذا البطء؛ يمكنه أن يعني أن المسألة في طريق رسمي، كما أنه يمكن أن يعني أن الطريق الرسمي لم يبدأ بعد إطلاقاً، أن المرء إذاً على سبيل المثال إنما ما زال يريد اختبار برناباس أولاً، لكن يمكن أن يعني أيضاً في نهاية الأمر أن الطريق الرسمي إنما قد انتهى، أن المرء قد سحب الوعد لأية أسباب وبرناباس لن يحصل على البدلة في أي يوم من الأيام. لا يستطيع المرء أن يحصل على معلومات أكثر دقة حول ذلك أو فقط بعد أمد طويل. هنا ثمة قول مأثور ربما تعرفه: 'القرارات الرسمية خجولة مثل الفتيات الصغيرات'.» «هذه ملاحظة جيدة»، قال ك. وقد أخذ الأمر على محمل الجد أكثر من أولغا، «ملاحظة جيدة، لعل القرارات تملك صفات مشتركة أخرى مع الفتيات.» «ربما»، قالت أولغا، «إنني لا أعرف طبعاً كيف تعني الأمر. ربما تعنيه حتى إطراء. لكن في ما يخص اللباس الرسمي، فهذا طبعاً هو أحد هموم برناباس وإذ إن همومنا مشتركة، فهو همّي كذلك. لماذا لا يحصل على لباس رسمي، نتساءل بلا جدوى. غير أن هذا الموضوع كله ليس سهلاً. الموظفون مثلاً يبدون لا يملكون لباساً رسمياً أصلاً؛ بقدر ما نعرف هنا وبقدر ما يحكي برناباس، فإن الموظفين يجولون وهم يرتدون ملابس عادية، لكنها ملابس جميلة. للمناسبة، لقد شاهدتَ كلمّ. حسناً، إن برناباس ليس موظفاً طبعاً ولا حتى من المرتبة الأدنى ولا يبلغ به

الأمر أن يبتغي أن يكون موظفاً. لكن كذلك الخدم الأعلى مرتبة، الذين طبعاً لا يشاهدهم المرء هنا في القرية مطلقاً، لا يملكون حسب تقرير برناباس بدلات رسمية؛ هذا عزاء نوعاً ما، يمكن للمرء أن يقول منذ البداية، لكنه عزاء مضلل، إذ هل برناباس هو خادم من رتبة عليا؟ كلا، ولو كان المرء يميل إليه جداً، فلا يمكنه أن يقول ذلك، إنه ليس خادماً ذا مرتبة عليا. كونه يأتي إلى القرية، لا بل يسكن هنا، هو دليل عكسي، إن الخدم من المراتب العليا متحفظون أكثر من الموظفين، ربما عن حق، ربما حتى يكونون أعلى من بعض الموظفين، هناك بعض الأمور تؤيد ذلك، إنهم يعملون أقل وطبقاً لبرناباس ثمة منظر بديع أن يرى المرء هؤلاء الرجال المختارين الفارعين الأقوياء وهم يسيرون على مهل عبر الممرات، برناباس يمرّ بهم متسللاً. باختصار، لا يمكن الحديث عن أن برناباس هو خادم ذو مرتبة عليا. يمكنه إذاً أن يكون واحداً من الخدم الأدنى مرتبة، لكن هؤلاء لديهم بدلات رسمية، على الأقل عندما ينزلون إلى القرية، إنه ليس حامل بدلة رسمية حقيقية، يوجد أيضاً تباينات كثيرة، لكن على كل حال يتعرف المرء في الحال الخادمَ من القلعة من ملابسه، لقد رأيتَ مثل هؤلاء الناس في حانة السادة. أكثر ما يلفت النظر في الملابس هو أنها في الغالب تكون ضيقة، فلاح أو حرفيّ لا يمكنه أن يحتاج إلى مثل هذا اللباس. إذاً هذا اللباس ليس لدى برناباس، هذا ليس مخجلاً مثلاً فقط أو مهيناً، من شأن المرء أن يحتمل هذا، لكنه يدع المرء ـ ولا سيما في ساعات كالحة وأحياناً، ليس نادراً جداً، نعيش، برناباس وأنا، مثل هذه الساعات ـ يشك في كل شيء. هل هو عمل قلعة ما يقوم به برناباس؟ نسأل من ثم؛ يقيناً يذهب إلى المكاتب، لكن هل المكاتب هي القلعة الحقيقية؟ وحتى لو كانت المكاتب تابعة للقلعة، هل هي المكاتب التي يُسمح لبرناباس بالدخول إليها؟ إنه يدخل إلى مكاتب، غير أنها ليست سوى جزء من المجموع، ثم هناك حواجز وخلفها ما زال يوجد مكاتب أخرى. لا يُمنع مباشرة من الاستمرار في التقدم، لكنه لا يستطيع الاستمرار في التقدم، عندما يكون قد وجد رؤساءه، وأنجزوا العمل معه بخشونة وصرفوه. فوق هذا كله، فإن المرء هناك هو دائماً تحت المراقبة، على الأقل يعتقد المرء ذلك. وحتى لو استمر في التقدم، ماذا يفيد ذلك إذا لم يكن لديه هناك عمل رسمي ويكون دخيلاً متطفلاً؟ هذه الحواجز لا يجوز لك كذلك أن تتصورها حدوداً محددة، إلى ذلك يلفت برناباس أيضاً نظري مراراً وتكراراً. حواجز توجد أيضاً في المكاتب التي يذهب إليها، يوجد إذاً أيضاً حواجز يمر عبرها، وشكلها لا يغاير شكل الحواجز التي لم يجتزها بعد ولهذا السبب أيضاً فإنه لا يُفترض منذ البداية أنه خلف هذه الحواجز الأخيرة إنما توجد مكاتب مغايرة جوهرياً عن تلك التي كان فيها برناباس. طبعاً في تلك الساعات الكالحة وحدها يظن المرء هذا. ومن ثم يستمر الشك، والمرء لا يقدر أن يتجنبه أبداً. برناباس يتحدث مع موظفين، برناباس يتلقى رسائل. لكن أي موظفين هم هؤلاء، أية رسائل هي هذه. الآن هو، كما يقول،

ملحق بكلمّ ويتلقى المهام منه شخصياً. حسناً، من شأن هذا أن يكون كثيراً جداً، حتى خدم كبار لا يبلغون هذا المدى، من شأن الأمر أن يكون كثيراً أكثر من اللازم تقريباً، هذا هو المقلق. فكر وحسب الإلحاق بكلمّ مباشرة، الحديث معه فماً لفم. لكن هل الحال هو هكذا ولا ريب؟ حسناً نعم، هكذا هو الحال، لكن لماذا يشك برناباس من ثم في أن الموظف الذي يطلق عليه هناك اسم كلمّ إنما هو كلمّ فعلاً؟» «أولغا»، قال ك.، «إنك لا تريدين أن تمزحي؛ كيف يمكن أن يقوم شك في مظهر كلمّ، إن مظهره معروف، أنا نفسي رأيته.» «بالتأكيد لم تره، ك.»، قالت أولغا، «هذا ليس مزاحاً، بل هي همومي الأكثر جدية. لكنني لا أروي لك ذلك أيضاً كي أريح قلبي وأثقل على قلبك مثلاً، بل لأنك سألتَ عن برناباس، لأن أماليا كلفتني بأن أحكي، ولأنني أعتقد أنه من المفيد لك أيضاً أن تعلم التفاصيل بدقة. كذلك بسبب برناباس أفعل الأمر، حتى لا تعقد عليه آمالاً أكثر مما يجب، يخيّب أملك ومن ثم يعاني نفسه من خيبة أملك. إنه مرهف الإحساس للغاية، اليوم في الليل مثلاً لم ينم، لأنك كنت مساء أمس غير راض منه، قيل إنك قلت إنه من السيئ جداً لك أنه ليس لديك 'سوى مثل هذا الساعي' برناباس. هذه الكلمات حرمته من النوم، أنت نفسك لم تلاحظ كثيراً من انفعاله، يجب على سعاة القلعة أن يتمالكوا أنفسهم جداً. لكن الأمر ليس سهلاً عليه، حتى معك. حقاً إنك لا تطلب منه بالتأكيد بالمعنى الذي تريده أكثر مما يجب، لقد جلبت معك تصورات محددة عن عمل السعاة وطبقاً لهذه التصورات تقيس مطالبك. لكن في القلعة لدى المرء تصورات أخرى عن عمل السعاة، وهي لا تتفق مع تصوراتك، حتى ولو ضحى برناباس بنفسه كلياً للعمل، وهو للأسف يبدو أحياناً أنه مستعد لذلك. لا بدّ للمرء من أن يذعن، لا يجوز له أن يقول شيئاً ضد ذلك، لو لم يكن السؤال وحسب، في ما إذا كان ما يفعله هو عمل سعاة حقاً. إزاءك لا يجوز له طبعاً أن يعبّر عن شك حول الأمر، لو فعل ذلك، فهذا يعني له تقويض وجوده نفسه، إخلال بقوانين إخلالاً كبيراً، ما يزال يعتقد أنه يقف تحتها، وحتى إزائي لا يتحدث بحرية، بالتدليل، بالتقبيل يجب عليّ تبديد شكوكه وحتى هنا فإنه يأبى أن يعترف بأن الشكوك هي شكوك. لديه في دمه شيء من أماليا، ويقيناً هو لا يقول لي كل شيء، مع أنني موضع سرّه الوحيدة. لكننا نتحدث أحياناً عن كلمّ، ما زلت لم أر كلمّ. أنت تدري، فريدا لا تحبني كثيراً وما كانت خليقة أن تسمح لي برؤيته، لكن مظهره معروف طبعاً معرفة جيدة في القرية، بعضهم رآه، جميعهم سمعوا عنه ومن المشاهدة ومن إشاعات وأيضاً من بعض المقاصد الجانبية المزيّفة تشكلت صورة لكلمّ صحيحة على وجه الإجمال. لكن فقط على وجه الإجمال. في ما عدا ذلك هي متبدلة وربما ليست متبدلة حتى مثل المظهر الحقيقي لكلمّ. يقال إنه ذو مظهر مغاير كلياً عندما يأتي إلى القرية ومظهر آخر عندما يغادرها، ذو مظهر آخر قبل أن يشرب بيرة، وآخر بعد، ذو مظهر آخر في اليقظة، ومظهر آخر في النوم،

مظهر آخر عندما يكون بمفرده، وآخر في الحديث ومختلف ـ الأمر المفهوم ـ كل الاختلاف تقريباً فوق في القلعة. حتى ضمن القرية نفسها ثمة فروقات كبيرة إلى حد ما يجري الحديث عنها، فروقات في الطول، الوقفة، البدانة، اللحية، فقط بخصوص اللباس تكون التقارير لحسن الحظ متطابقة، إنه يرتدي دائماً اللباس نفسه، رداء سترة أسود بأذيال طويلة. طبعاً لا تعود كل هذه الفروقات إلى عمل سحري، بل هي مفهومة جداً، تنشأ بسبب الحالة النفسية الراهنة في لحظة بعينها، درجة الانفعال، تدرجات الأمل أو اليأس التي لا حصر لها، التي يكون فيها المشاهد، الذي لا يجوز له فوق ذلك في الأغلب أن يرى كلمّ سوى لحظة، أروي لك كل هذا مرة أخرى، كما شرحه لي برناباس مراراً وبهذا يمكن للمرء بصورة عامة، إذا لم يكن شخصياً مشاركاً في الموضوع مباشرة، أن يهدأ روعه ويطمئنّ. نحن لا نستطيع ذلك، بالنسبة لبرناباس هي مسألة حياة، في ما إذا كان يتحدث مع كلمّ فعلاً أم لا.» «بالنسبة لي ليس أقل»، قال ك. واقترب كل منهما من الآخر أكثر على أريكة المدفأة. صحيح كانت كل أخبار أولغا غير المواتية تمسّ ك.، بيد أنه كان يرى تعويضاً في الشطر الأكبر في أنه وجد هنا أناساً أحوالهم، ظاهرياً على الأقل، تشابه أحواله نفسه، استطاع أن ينضم إليهم إذاً، أن يتفاهم معهم في كثير من الأمور، ليس في بعض الأمور وحسب مثلما هو الحال مع فريدا. صحيح أنه فقد تدريجياً الأمل بنجاح الرسالة البرناباسية، لكن كلما ساءت أحوال برناباس في الأعلى، اقترب منه هنا في الأسفل، لم يفكر ك. في يوم من الأيام أنه يمكن من القرية نفسها أن يبرز مثل هذا المسعى العاثر إلى هذا الحدّ كما كان مسعى برناباس وشقيقته. طبعاً لم يكن قد توضح بما فيه الكفاية أبداً وكان ما زال في مقدوره في نهاية المطاف أن ينقلب إلى العكس، كان على المرء أن لا يُغرى على الفور بطبيعة أولغا البريئة بالتأكيد ويؤمن أيضاً بصدق برناباس. «التقارير عن مظهر كلمّ»، تابعت أولغا قائلة، «يعرفها برناباس معرفة جيدة جداً، وقد جمع الكثير منها وقارنها، ربما أكثر من اللازم، وقد شاهد بنفسه ذات مرة كلمّ في القرية من خلال نافذة عربة أو ظن أنه شاهده، كان إذاً على أتمّ استعداد ليتعرفه ومع ذلك ـ كيف توضحْ الأمر لنفسك؟ ـ حين وصل في القلعة إلى أحد المكاتب وأشار المرء له بين عدة موظفين إلى أحدهم وقال إن هذا هو كلمّ، فإنه لم يتعرفه وحتى بعد مدة طويلة من ذلك لم يستطع أن يعتاد على أن هذا الشخص هو كلمّ. لكن إذا سألت برناباس الآن فيم يفترق ذلك الرجل عن التصور المألوف الذي يملكه الناس عن كلمّ، فإنه لا يستطيع أن يجيب، بالأحرى يجيب ويصف الموظف في القلعة، بيد أن هذا الوصف يطابق تماماً وصف كلمّ كما نعرفه. 'حسناً إذاً برناباس'، أقول، 'لماذا تشك، لماذا تعذب نفسك.' فيبدأ من ثم في ضيق صدر جليّ بتعداد خواص الموظف في القلعة، غير أن هذه الخواص تبدو أنه يختلقها أكثر مما يُخبر عنها، لكنها رغم ذلك طفيفة ـ تتعلق مثلاً بإيماءة رأس مخصوصة أو أيضاً أن الصديرية مفكوكة الأزرار ـ إلى حد أنه من

المحال أن يمكن أخذها على محمل الجدّ. أكثر أهمية تبدو لي الطريقة التي يتعامل بها كلمّ مع برناباس. كثيراً ما وصف لي برناباس الأمر، حتى إنه رسمه. عادة يقاد برناباس إلى حجرة مكتب كبيرة، لكنه ليس مكتب كلمّ، أساساً ليس مكتب شخص بمفرده. طولياً ثمة منصة وحيدة عالية تصل من حاجز إلى حاجز وتقسم الحجرة إلى قسمين، قسم ضيق لا يمكن لشخصين فيه أن يتجنب بعضهما بعضاً إلا بصعوبة، هذا هو مكان الموظفين، وقسم عريض، هذا هو مكان الأطراف، المشاهدين، الخدم، السعاة. فوق المنصة ثمة كتب ضخمة مفتوحة، واحد إلى جانب الآخر ولدى معظمها يقف موظفون ويقرؤون فيها. بيد أنهم لا يمكثون دائماً لدى الكتاب نفسه، لكنهم لا يتبادلون الكتب، بل الأماكن، أكثر ما يثير دهشة برناباس هو كيف يتعيّن عليهم أن يلتصق بعضهم ببعض لدى مثل تبادل الأمكنة هذا، طبعاً بسبب ضيق المكان. أمام المنصة العالية ملاصقاً ثمة طاولات صغيرة منخفضة يجلس إليها كتبة، يكتبون حسب إملاء الموظفين عندما يرغب هؤلاء. دائماً يعجب برناباس من كيفية حدوث هذا. لا يصدر أمر واضح من الموظف، كما أنه لا يُملي بصوت عال، لا يكاد يُلاحظ أنه يجري إملاء، بالأحرى يبدو الموظف يقرأ مثلما كان يقرأ قبل ذلك، فقط أنه في أثناء ذلك إنما يهمس والكاتب يسمع ما يُهمس به. كثيراً ما يملي الموظف بصوت منخفض بحيث أن الكاتب لا يستطيع أبداً أن يسمع وهو جالس، من ثم يتعيّن عليه دائماً أن ينتفض واقفاً، يلتقط ما يُملى، يعود إلى الجلوس بسرعة ويدوّن ما سمعه، ثم يعود إلى الانتفاض واقفاً وهلمّ جرّاً. ما أغرب هذا! إنه لا يكاد يُفهم. لدى برناباس طبعاً متسع من الوقت لمراقبة كل هذا، إذ إنه يقف في مكان المشاهدين طوال ساعات وأحياناً طوال أيام قبل أن تقع نظرة كلمّ عليه. وحتى عندما يكون كلمّ قد رآه وبرناباس ينهض ويقف متخذاً وضع الانتباه، فلا يكون شيء قد حُسم، إذ في مقدور كلمّ أن يعرض عنه وينساه بعد أن يلتفت إلى الكتاب، وكثيراً ما يحدث هذا. لكن أية خدمة سعاة هذه، التي هي غير ذات أهمية هكذا؟ أشعر بحسرة عندما يقول برناباس في ساعة باكرة إنه يريد الذهاب إلى القلعة. هذا الطريق غير المجدي أبداً على الأرجح، هذا اليوم الضائع على الأرجح، هذا الأمل عديم الجدوى على الأرجح. ماذا يعني هذا كله؟ وهنا ثمة عمل حذّاء مكوّم لا يقوم به أحد وبرونسفيك يلحّ على إنجازه.» «حسناً»، قال ك.، «يجب على برناباس أن ينتظر مدة طويلة قبل أن يحصل على مهمة. هذا مفهوم، يبدو هنا أن ثمة عدداً مفرطاً من الموظفين، لا يستطيع كل واحد أن يحصل كل يوم على مهمة، لا يجب عليكم أن تشكوا عن ذلك، هذا يصيب كل فرد. لكن في نهاية الأمر يحصل برناباس أيضاً على مهمات، لي نفسي أحضر رسالتين.» «إنه لمن الممكن»، قالت أولغا، «ألا نكون على حق في الشكوى، لا سيما أنا، التي أعرف كل شيء من الإشاعات فقط ولا أستطيع أيضاً بصفتي فتاة أن أفهم جيداً مثل برناباس، الذي يكتم أيضاً بعض الأشياء. لكن الآن أسمع كيف تسير

الأمور مع الرسائل، مع الرسائل إليك مثلاً. هذه الرسائل لا يستلمها من كلمّ مباشرة، بل من الكاتب. في يوم من الأيام، في ساعة من الساعات ـ لهذا السبب فالعمل منهك للغاية، وإن بدا سهلاً، إذ يجب على برناباس أن ينتبه باستمرار ـ يتذكره الكاتب ويلوّح له. كلمّ يبدو أنه لم يدعُ إلى ذلك أبداً، إنه يقرأ بهدوء في كتابه، غير أنه أحياناً، لكن هذا ما يفعله مراراً، يكون ينظف النظارة في هذه اللحظة عندما يأتي برناباس وربما يراه أثناء ذلك، على فرض أنه أصلاً يرى دون نظارة، برناباس يشك في ذلك، من ثم يكون كلمّ قد أغلق عينيه تقريباً، يبدو أنه ينام ولا ينظف النظارة سوى في الحلم. في هذه الغضون ينتقي الكاتب من الملفات والرسائل الكثيرة التي لديه تحت الطاولة رسالة لك، إنها إذاً ليست رسالة كتبها لتوّه، بل هي بالأحرى حسب ظاهر المغلف رسالة قديمة جداً ملقاة هناك منذ مدة طويلة. لكن عندما تكون رسالة قديمة، فلماذا ترك المرء برناباس ينتظر مدة طويلة هكذا؟ وأنت أيضاً بالتأكيد؟ وفي نهاية الأمر الرسالة أيضاً، إذ إنها الآن قد تقادمت. وبهذا يوقع المرء برناباس في سمعة أنه ساع سيئ بطيء. بيد أن الكاتب يسهّل الأمر على نفسه، يعطي الرسالة لبرناباس وهو يقول: 'من كلمّ إلى ك.' وبهذا يكون قد سُمح لبرناباس بالانصراف. ثم يأتي برناباس إلى البيت، منقطع النَفَس، الرسالة التي حظي بها أخيراً تحت القميص على البدن العاري، ونجلس من ثم هنا على الأريكة مثل الآن ويحكي ونمحّص كل شيء بمفرده ونخمّن ما بلغه ونجد في نهاية المطاف أنه قليل جداً وهذا القليل مشكوك فيه وبرناباس ينحّي الرسالة جانباً وليس لديه رغبة في توصيلها، كما أنه ليس لديه رغبة في النوم، ويشرع في أعمال الحذّاء ويظل جالساً هناك على كرسي طوال الليل دون جدوى. هكذا هو الحال، ك.، وهذه هي أسراري والآن لم تعد تستغرب ولا ريب أن أماليا تستغني عنها.» «والرسالة؟» سأل ك. «الرسالة؟» قالت أولغا، «بعد بعض الوقت، عندما أكون قد ألححت على برناباس بما فيه الكفاية، يمكن أن تكون في هذه الغضون أيام وأسابيع قد مضت، يتناول الرسالة ويذهب لتوصيلها. إنه في مثل هذه المظاهر مرتبط بي كل الارتباط. إذ إنني، عندما أكون قد تغلبت على الانطباع الأول لقصته، أستطيع أيضاً من ثم أن أتمالك نفسي مرة أخرى، الأمر الذي هو غير قادر عليه، لأنه على الأرجح يعرف أكثر طبعاً. وهكذا أستطيع من ثم أن أقول له مراراً وتكراراً مثل: 'ماذا تريد في الحقيقة يا برناباس؟ بأي مسار، بأي هدف تحلم؟ هل تبغي ربما أن تصل إلى درجة يتعيّن عليك فيها أن تغادرنا، أن تغادرني كلياً؟ هل هذا هو هدفك مثلاً؟ أليس عليّ أن أعتقد هذا، وإلا فإن الأمر خليق أن يكون غير مفهوم، لماذا أنت غير راضٍ بشكل مرعب هكذا عما بلغته؟ انظر حواليك، هل بلغ أحد من بين جيراننا ما بلغته. إن وضعهم هو طبعاً غير وضعنا وهم لا يملكون سبباً يدفعهم للسعي إلى أبعد من حانتهم، لكن حتى بدون مقارنة يجب أن يرى المرء أن كل شيء لديك هو في أفضل حال. ثمة عوائق، شكوك، خيبات أمل، لكن هذا يعني فقط، الأمر الذي كنا

نعرفه قبل ذلك، أن لا شيء يهدى لك، أنه يتعيّن عليك بالأحرى أن تحصل بنفسك على كل صغيرة وكبيرة بالكفاح، وهذا سبب آخر للفخار وليس لليأس. ثم إنك تكافح من أجلنا بالتأكيد؟ ألا يعني لك هذا شيئاً؟ ألا يمنحك قوة جديدة؟ وأنني سعيدة ومتشامخة تقريباً لأنه لديّ مثل هذا الأخ، ألا يعطيك أماناً واطمئناناً؟ حقاً، ليس في ما بلغته في القلعة، لكن في ما بلغته أنا لديك، تخيّب أملي. يُسمح لك أن تذهب إلى القلعة، إنك زائر دائم للمكاتب، تمضي طوال أيام في المكان نفسه مع كلمّ، أنت ساع معترف به على الملأ، يحق لك أن تطالب بلباس رسمي، تتلقى رسائل مهمة لتوصيلها، كل هذا هو أنت، كل هذا يجوز لك وتنزل إلى هنا وبدلاً من أن يحتضن بعضنا بعضاً ونروح نبكي من فرط السعادة، يبدو أنك عندما تراني تفقد كل شجاعة، إنك تشك في كل شيء، وحده قالب الأحذية يستهويك والرسالة، ضمانة مستقبلنا هذه، تنساها.' هكذا أتحدث إليه وبعد أن أكون قد كررت هذا طوال أيام، يأخذ ذات مرة وهو يتنهد الرسالة ويذهب. لكن الأمر على الأرجح ليس هو تأثير كلماتي أبداً، بل تهفو نفسه وحسب مرة أخرى إلى القلعة وبدون أن يكون قد أبلغ المهمة، ليس قميناً أن يجرؤ على الذهاب إلى هناك.» «لكنك على حق يقيناً في كل شيء تقولينه له»، قال ك.، «على نحو جدير بالإعجاب أوجزت كل شيء بشكل صحيح. إنك تفكرين بوضوح على نحو يثير الدهشة!» «كلا»، قالت أولغا، «إن الأمر يخدعك، وهكذا ربما أخدعه أيضاً. ماذا حقق إذاً؟ يجوز له أن يدخل إلى مكتب، لكن لا يبدو حتى إنه مكتب، بالأحرى غرفة أمامية للمكاتب، ربما ولا حتى هذا، ربما غرفة يُستبقى فيها كل أولئك الذين لا يسمح لهم بالدخول إلى المكاتب الحقيقية. مع كلمّ يتحدث، لكن هل هو كلمّ؟ أليس هو بالأحرى شخص ما يشابه كلمّ وحسب؟ سكرتير ربما، على أكثر تقدير، يشابه كلمّ بعض الشيء ويبذل جهداً كي يشابهه أكثر ومن ثم يتخذ مظهر أهمية بطريقة كلمّ الناعسة الحالمة. هذا الجزء من طبيعته هو الأكثر سهولة للمحاكاة، في هذا يحاول بعضهم، الأجزاء الأخرى من طبيعته يتركونها طبعاً عن عقل وتفكير. ورجل كهذا منشود غالباً ونادراً ما يمكن بلوغه كما هو كلمّ يتخذ في تصور الناس بسهولة أشكالاً متباينة. لكلمّ مثلاً هنا سكرتير قرية يدعى موموس. هكذا؟ أنت تعرفه؟ هو كذلك يعتزل جداً، بيد أنني رأيته بضع مرات. سيد شاب قوي، أليس؟ ولا يشابه إذاً على الأرجح كلمّ أبداً. ومع ذلك يمكنك أن تجد في القرية أناساً يحلفون على أن موموس هو كلمّ وليس أحداً آخر. هكذا يشتغل الناس على بلبلتهم الخاصة بهم. وهل يجب على الحال أن يكون مغايراً في القلعة؟ أحدهم قال لبرناباس إن ذلك الموظف هو كلمّ وحقاً ثمة شبه قائم بين الاثنين، لكنه شبه يشك به برناباس على الدوام. وكل شيء يدعم شكوكه. هل يجب على كلمّ أن يدع نفسه يُزجّ به هنا في مكان عام، بين الموظفين، واضعاً قلم الرصاص وراء أذنه؟ هذا بعيد عن الاحتمال إلى أقصى درجة. اعتاد برناباس، على نحو

طفولي بعض الشيء، أن يقول أحياناً ـ لكن هذه هي نزوة متفائلة أكثر مما يجب ـ: 'الموظف يبدو مشابهاً لكلمّ كل الشبه، لو كان يجلس في مكتبه الخاص به إلى طاولته الخاصة به ولو كان اسمه على الباب، لما ساورني شك بعد الآن.' هذا شيء صبياني، لكنه رغم ذلك مفهوم أيضاً. لكن ما هو خليق أن يكون أكثر مفهومية بكثير هو أن يستطلع برناباس، عندما يكون فوق، لدى عدد من الناس كيف تسير الأمور فعلاً، فهو يقول إن الحجرة تغص بعدد كاف من الناس. وحتى لو كانت بياناتهم ليست أكثر جدارة بالثقة من بيانات ذلك الذي أراه كلمّ دون أن يُسأل، فلا بدّ على الأقل من تنوعهم أن تظهر أية نقاط ارتكاز، أية نقاط مقارنة. هذه ليست خاطرتي، بل خاطرة برناباس، غير أنه لا يجرؤ على تنفيذها؛ وذلك خوفاً من أن يفقد عمله نتيجة أي إخلال غير متعمد للوائح غير معروفة، لا يجرؤ على مخاطبة أحد؛ هكذا يشعر بالاضطراب؛ هذا الاضطراب الذي يدعو إلى الأسف حقاً يضيء لي وضعه بدقة أكثر من سائر الإيضاحات. كم لا بدّ أن يبدو له هناك كل شيء مريباً ومهدداً، عندما لا يجرؤ على أن يفتح فمه ولا حتى من أجل سؤال بريء. عندما أتأمل هذا، فإني أشكو نفسي من أنني أتركه وحده في تلك الأمكنة المجهولة، حيث تجري الأمور بهذه الكيفية، بحيث أنه حتى هو، الذي هو بالأحرى متهور أكثر مما يكون جباناً، إنما يرتجف هناك على الأرجح من شدة الخوف.»

«هنا أظن أنك تأتين إلى الأمر الحاسم»، قال ك. «هذا هو الحال. بعد كل ما رويتِه، أظن أنني الآنَ أرى بوضوح. برناباس صغير السن لهذه المهمة. ليس كل ما يرويه يمكن للمرء أن يأخذه على محمل الجد دون تردد. إذ إنه يذوي فوق من الخوف، فإنه لا يستطيع أن يراقب وإذا ما أرغمه المرء هنا مع ذلك على أن يُبلغ، فإن المرء يحصل منه على خرافات مشوّشة. إنني لا أعجب من ذلك. إن احترام السلطات هو شيء في دمكم هنا، يُلقى في أذهانكم طوال حياتكم بشتى الطرائق ومن كل النواحي، وأنتم أنفسكم تساعدون في ذلك كل ما تستطيعون. لكنني في الحقيقة لا أقول شيئاً ضد ذلك؛ إذا كانت ثمة سلطة جيدة، فلماذا لا يحترمها المرء؟ فقط لا يجوز للمرء أن يبعث غلاماً لم يجر تعليمه مثل برناباس لم يخرج عن محيط القرية فجأة إلى القلعة ومن ثم يريد أن يطلب منه تقارير مطابقة للحقيقة ويحلل كل كلمة من كلماته مثل كلمة وحي ويربط سعادته الخاصة به في الحياة بالتأويل. ما من شيء يمكنه أن يكون أكثر خطأً. طبعاً أنا أيضاً تركته يضللني ليس على نحو آخر سوى مثلك وعقدت عليه آمالاً وعانيت من خيبات أمل منه، كلاهما كان قائماً على أساس كلماته وحدها، أي دون أساس مطلقاً تقريباً.» صمتت أولغا. «لن يكون سهلاً عليّ»، قال ك.، «أن أحيّرك في أمر ثقتك بأخيك، إذ إنني أرى مدى حبك له وماذا تنتظرين منه. غير أن الأمر ينبغي أن يحدث وليس على الأقل بسبب حبك وتوقعاتك. إذاً انظري، مراراً وتكراراً يعيقك شيء ـ لا أدري ما هو ـ عن الإدراك كلياً، ليس ما حققه برناباس، لكن ماذا مُنح له. يُسمح له

أن يدخل إلى المكاتب أو إذا أردتِ الأمر هكذا، إلى غرفة أمامية للمكاتب، حسناً هي غرفة أمامية للمكاتب، لكن ثمة أبواب هنا تفضي إلى ما بعدها، حواجز يمكن للمرء أن يجتازها إذا كان لديه المهارة اللازمة لذلك. بالنسبة لي مثلاً هذه الغرفة الأمامية محرّمة عليّ كلياً، على الأقل مؤقتاً، لا أدري مع من يتحدث برناباس هناك، ربما يكون ذلك الكاتب الخادم الأدنى مرتبة، لكن حتى لو كان الأدنى مرتبة، يمكنه أن يقود إلى آخر أعلى بدرجة واحدة وإذا لم يستطع أن يقود إليه، فإنه يستطيع ولا ريب على الأقل أن يسمّيه وإذا لم يكن يستطيع أن يسمّيه فإنه يستطيع أن يشير إلى أحد آخر في مقدوره تسميته. يمكن أن لا يكون لكلمّ المزعوم أقل شيء مشترك مع كلمّ الحقيقي. وقد يكون التشابه غير قائم إلا لعينيّ برناباس المصابتين بالعمى نتيجة الانفعال، يمكنه أن يكون الموظف الأدنى رتبة، يمكنه أن لا يكون حتى موظفاً، لكن لا بدّ أن يكون له مهمة ما لدى تلك المنصة، إنه يقرأ شيئاً ما في كتابه الضخم، يهمس شيئاً ما للكاتب، يفكر في شيء ما، عندما يقع نظره ذات مرة بعد وقت طويل على برناباس، وحتى إذا لم يكن كل هذا حقيقياً وهو وما يعمله لا يعنيان شيئاً مطلقاً، فإن أحداً ما قد وضعه هناك بالتأكيد وفعل هذا بقصد ما. بكل هذا أريد أن أقول هنا ثمة شيء ما يُعرض على برناباس، على الأقل شيء ما وإن الذنب هو ذنب برناباس وحده عندما لا يستطيع أن يبلغ بهذا شيئاً آخر سوى الشك والخوف واليأس. وفي هذا انطلقت دائماً من أسوأ الفروض، والذي هو حتى بعيد الاحتمال كل البعد. إذ إن الرسائل في يدنا، التي في الحقيقة لا أثق بها كثيراً، لكن أكثر بكثير من كلمات برناباس. يمكن أيضاً أن تكون رسائل قديمة غير ذات قيمة، تمّ سحبها دون تمييز من كومة من الرسائل بلا قيمة بالمثل، بدون تمييز وليس بعقل أكثر مما تنفقه العصافير الكنارية في الأسواق السنوية، عندما تستخرج بمنقارها من بين كومة من الأوراق ورقة يانصيب قَدَر الحياة لشخص ما، قد يكون الحال هكذا، هكذا لا بدّ لهذه الرسائل من أن تكون على الأقل ذات علاقة ما بعملي، واضح أنها لي، ولو لم قد تكون أيضاً محددة لمنفعتي، وهي، كما شهد العمدة وزوجته، أعدّت من قبل كلمّ بيده، وهي، مرة أخرى طبقاً للعمدة، ذات أهمية شخصية ليس إلا، صحيح، وغير شفافة كثيراً لكنها ذات أهمية كبرى.» «هل قال العمدة هذا؟» سألت أولغا. «نعم، هذا ما قاله»، أجاب ك. «سوف أحكي هذا لبرناباس»، قالت أولغا بسرعة، «هذا سوف يشجعه كل التشجيع.» «لكنه لا يحتاج إلى تشجيع»، قال ك.، «تشجيعه يعني القول له، إنه على حق، إنه ليس عليه سوى أن يتابع بطريقته حتى الآن، لكن بهذه الطريقة بالذات لن يحقق شيئاً في يوم من الأيام، تستطيعين أن تشجعي شخصاً عصب عينيه كل التشجيع كي يحدق عبر المنديل، فإنه لن يرى شيئاً أبداً؛ فقط عندما يرفع المرء المنديل عن عينيه، يتمكن من أن يرى. برناباس يحتاج إلى مساعدة وليس إلى تشجيع. فكري فقط، السلطة هناك فوق في ضخامتها التي لا تُفكّ ألغازها ـ كنت أعتقد قبل أن آتي إلى هنا أنني أملك تصورات تقريبية عنها، كم كان طفولياً كل هذا ـ هناك إذاً

السلطة وبرناباس يواجهها، لا أحد غيره، هو وحده، وحده على نحو يدعو للشفقة، شرف له أكثر مما يجب، إذا لم يظل طوال حياته مفقوداً ملتصقاً في زاوية مظلمة في المكاتب.» «لا تظن، ك.»، قالت أولغا، «أننا نستهين بالمهمة الصعبة التي اضطلع بها برناباس. إن إجلال السلطة لا ينقصنا، هذا ما قلته بنفسك.» «لكنه إجلال مزيّف»، قال ك.، «إجلال في المكان غير الصحيح، مثل هذا الإجلال يمتهن موضوعه. أما زال يمكن تسميته إجلالاً، عندما يسيء برناباس استخدام هدية الدخول إلى ذلك المكان، كي يقضي الأيام هناك عاطلاً أو عندما ينزل ويرمي أولئك الذين كان لتوّه يرتجف أمامهم بتهم ويصغّرهم أو عندما لا يقوم ـ يأساً أو تعباً ـ بتوصيل الرسائل على الفور ولا يبلغ حالاً رسائل عهد بها إليه؟ هذا ولا ريب لم يعد إجلالاً. لكن التهمة هي أكثر من ذلك، هي ضدك أيضاً، أولغا، لا أستطيع أن أوفّرها عليك، لقد أرسلتِ برناباس إلى القلعة، مع أنك تعتقدين أنك تكنّين إحتراماً للسلطة، على كل حداثة سنّه وضعفه ووحشته أو إنك على الأقل لم تمنعيه.»

«المأخذ الذي تأخذه عليّ»، قالت أولغا، «آخذه على نفسي أيضاً، منذ البدء. لكن لا يجب اتهامي بأنني أرسلت برناباس إلى القلعة، أنا لم أرسله، لقد ذهب بنفسه، غير أنه كان عليّ أن أمنعه بكل الوسائل، بالإقناع، بالحيلة، بالقوة. كان عليّ أن أمنعه لكن لو كان اليوم ذلك اليوم، يوم القرار ذاك وأنا أشعر كما شعرت آنذاك وكما أشعر اليوم حاجة برناباس وحاجة أسرتنا وبرناباس مرة أخرى، واعياً لكل مسؤولية ولكل خطر، مبتسماً ووديعاً، ينتزع نفسه مني لكي يذهب، ليس من شأني اليوم أيضاً أن أمنعه، على الرغم من كل الخبرات في الوقت فيما بين آنذاك واليوم وأظن أنك أنت أيضاً لو كنت في مكاني لما استطعت أن تفعل شيئاً آخر. إنك لا تعرف وضعنا السيئ جداً، لذا إنك تظلمنا لكنك تظلم برناباس خاصة. آنذاك كان لدينا أمل أكثر من اليوم، غير أن أملنا لم يكن كبيراً آنذاك أيضاً، وضعنا السيئ جداً وحده كان كبيراً وظل كبيراً. ألم تخبرك فريدا إذاً شيئاً عنا؟» «مجرد تلميحات»، قال ك.، «ليس شيئاً محدداً، لكن مجرد اسمكم يستفزّها.» «وكذلك صاحبة النزل لم تخبرك شيئاً؟» «لا، لا شيء.» «وكذلك لا أحد آخر؟» «لا أحد.» «طبعاً، كيف يمكن لأحد أن يروي شيئاً! كل فرد يعرف شيئاً عنا، إما الحقيقة، بقدر ما هي في متناول الناس، أو على الأقل أية شائعة منقولة أو في الغالب مبتدعة من قبل الشخص، وكل فرد يفكر فينا أكثر مما هو ضروري، لكن ما من أحد يروي الموضوع كما يجب، يخجلون من أخذ هذه الأشياء في الفم. وهم على حق في ذلك. إنه من العسير النطق بها، حتى إزاءك، ك.، وأليس ممكناً إذاً أيضاً، بعد أن تكون قد استمعت إلى الموضوع، أن تنصرف، ولا تعود تريد أن تعرف شيئاً عنا، مهما بدا أيضاً أن الموضوع لا يمسّك كثيراً. فنكون قد فقدناك، أنت الذي، إنني أعترف بالأمر، تعني لي أكثر تقريباً من عمل برناباس في القلعة حتى الآن. ومع ذلك ـ هذا التناقض يعذبني طوال المساء ـ يتعيّن

عليك أن تعلم الأمر، وإلا فإنك لا تحيط علماً بوضعنا، وتظل، الأمر الذي من شأنه أن يؤلمني على نحو خاص، جائراً على برناباس، وينقصنا الاتحاد التام الضروري وأنت لن تستطيع أن تساعدنا ولا أن تقبل مساعدتنا غير الرسمية. لكن يظل سؤال: هل تريد إذاً أن تعرف الأمر أصلاً؟» «لماذا تسألين هذا؟» قال ك.، «إذا كان الأمر ضرورياً، فإنني أريد أن أعلمه، لكن لماذا تسألين هكذا؟» «من الاعتقاد بالخرافات»، قالت أولغا، «سوف تُجذب إلى أمورنا، بريء، ليس أكثر ذنباً من برناباس.» «احكي بسرعة»، قال ك.، «إنني لا أخاف، بتخوف نسائي أيضاً تجعلين الأمر أكثر سوءاً مما هو.»

١٧

سرّ أماليا

«احكم بنفسك»، قالت أولغا، «للعلم، ينمّ الأمر على أنه في غاية البساطة، لا يفهم المرء لأول وهلة كيف يمكنه أن يملك أهمية كبرى. يوجد موظف في القلعة يدعى سورتيني.» «لقد سمعت عنه»، قال ك.، «كان مشاركاً في استدعائي.» «لا أعتقد هذا»، قالت أولغا، «سورتيني لا يكاد يظهر علانية. ألا تخطئ بسورديني، يُكتب بحرف 'د'؟» «إنك على صواب»، قال ك.، «كان سورديني.» «نعم»، قالت أولغا، «سورديني معروف جداً، واحد من أكثر الموظفين اجتهاداً، يُحكى عنه الكثير، أما سورتيني فإنه انعزالي جداً وغريب على معظم الناس. قبل أكثر من ثلاثة أعوام رأيته لأول ولآخر مرة. كان ذلك في الثالث من تموز في حفل لجمعية فرقة المطافئ، كانت القلعة قد شاركت أيضاً وتبرعت بمطفأة جديدة. سورتيني، الذي يقال إنه يشتغل جزئياً بمسائل الإطفائية، لكنه ربما كان هنا كذلك بالنيابة فقط ـ في أغلب الأحيان ينوب الموظفون بعضهم عن بعض بالتناوب ولذا فإنه من الصعب معرفة اختصاص هذا الموظف أو ذاك ـ شارك في تسليم المطفأة، كان قد حضر طبعاً آخرون أيضاً من القلعة، موظفون وخدم وكان سورتيني، كما يطابق طبعه، في الخلفية كلياً. إنه رجل قصير القامة هزيل مشغول الفكر، ما لفت نظر كل من رآه أصلاً، كان الشكل الذي تتقطّب فيه تجاعيد جبينه، كل التجاعيد ـ وكانت كثيرة، مع أنه بالتأكيد لا يزيد سنّه على الأربعين عاماً ـ كانت تمتد مباشرة على شكل مروحي على الجبين باتجاه جذر الأنف، إنني لم أر قط شيئاً من هذا القبيل. هذا كان إذاً ذلك الاحتفال. كنا، أماليا وأنا، قد انتظرنا ذلك بسرور وشوق منذ أسابيع، ملابس يوم الأحد كانت قد أعدّت جزئياً من جديد، لا سيما ثوب أماليا كان جميلاً جداً، البلوزة البيضاء كانت في الأمام منفوخة إلى أعلى، صف من الدانتيلا فوق الآخر، كانت الأم قد أعارت من أجل ذلك كل ما لديها من دانتيلا، لقد استبدّ بي الحسد وبكيت قبل الاحتفال طوال نصف الليل. فقط حين جاءت في الصباح صاحبة نزل الجسر كي

تتفقدنا» «صاحبة نزل الجسر؟» سأل ك. «نعم»، قالت أولغا، «كانت تصادقنا صداقة قوية، جاءت إذاً، كان لا بدّ لها من أن تعترف بأن أماليا حظيت بأكثر مني ولذا أعارتني، من أجل تهدئتي، عقدها الخاص بها من عقيق من مملكة بوهيميا. لكن إذ أصبحنا من ثم جاهزين للخروج، أماليا واقفة أمامي، كلنا معجبون بها والوالد قال: 'اليوم، فكروا فيّ، تحصل أماليا على عريس'، هنا، لا أدري لماذا، نزعت العقد، فخري، من عنقي، وعلقته بعنق أماليا، دون حسد بعد الآن أبداً. لقد انحنيت طبعاً أمام نصرها وكنت أعتقد أنه يتعيّن على كل امرئ أن ينحني أمامها؛ ربما فاجأنا آنذاك أنها كانت تبدو بمظهر آخر يغاير مظهرها المعتاد، إذ إنها في الحقيقة لم تكن جميلة، لكن نظرتها العابسة، التي حافظت عليها على هذا النحو منذ ذلك الحين. مرّت فوقنا عالياً، وكاد المرء ينحني أمامها فعلاً وتلقائياً. الجميع لاحظوا الأمر، كذلك لازيمان وزوجته اللذان كانا قد حضرا لإحضارنا.» «لازيمان؟» سأل ك. «نعم، لازيمان»، قالت أولغا، «كنا ذوي وجاهة كبيرة وما كان من شأن الاحتفال على سبيل المثال أن يبدأ بداية طيبة بدوننا، إذ إن الوالد كان ثالث رئيس تدريب في الإطفائية.» «هكذا صلب البنيان كان ما زال الوالد؟» سأل ك. «الوالد؟» سألت أولغا، كأنها لا تفهم كلياً، «قبل ثلاثة أعوام كان ما زال إلى حد ما شاباً، مثلاً أثناء حريق في حانة السادة حمل موظفاً، غالاتر البدين، على ظهره وجرى به إلى الخارج. كنت هناك بنفسي، صحيح أنه لم يكن يوجد خطر حريق، فقط الحطب الجاف بجوار مدفأة بدأ يدخّن، لكن غالاتر أصيب بخوف، صاح من النافذة طالباً النجدة، جاء رجال الإطفائية وكان على والدي أن يخرجه، مع أن النار كانت قد أخمدت. حسناً، إن غالاتر رجل ثقيل الحركة، وعليه أن يكون حذراً في مثل هذه الحالات. أروي الأمر بسبب الوالد وحده، أكثر من ثلاثة أعوام لم تمض منذ ذلك الحين والآن انظر كيف يجلس هناك.» الآن فقط رأى ك. أن أماليا كانت في الحجرة من جديد، لكنها كانت بعيدة جداً تجلس إلى طاولة الوالدين، كانت تطعم الوالدة، التي لم تكن تستطيع تحريك ذراعيها المصابين بالروماتزم، وهي تخاطب الوالد أثناء ذلك قائلة إن عليه أن يصبر قليلاً بسبب الطعام، قريباً سوف تأتي إليه أيضاً كي تطعمه. لكنها لم تفلح بتحذيرها، إذ إن الوالد، طامعاً جداً بأن يصل إلى حسائه، تغلب على وهنه البدني وحاول أن يرتشف الحساء مرة من الملعقة وأن يشربها مرة من الصحن مباشرة وأخذ يدمدم مستاء، حين لم يفلح لا في المرة الأولى ولا في الأخرى، كانت الملعقة تفرغ قبل أن تصل إلى الفم وليس الفم أبداً، فقط الشارب المهدّل انغمس في الحساء وطفق ينقّط ويتطاير إلى الجوانب كافة، دون أن يصل إلى الفم قط. «هذا ما فعلته به ثلاثة أعوام؟» سأل ك.، يبدُ أنه كان ما فتأ لا يشعر بإشفاق على العجوزين ولا على كل ركن طاولة الأسرة، بل بنفور. «ثلاثة أعوام»، قالت أولغا بتؤدة، «أو بالدقة بضع ساعات في حفل. كان الحفل مقاماً على مرج أمام القرية إلى جانب الساقية، كان ثمة ازدحام كبير حين وصلنا،

كذلك من القرى المجاورة كان قوم كثيرون قد حضروا، كان المرء مرتبكاً من الضوضاء. قبل كل شيء اقتادنا الوالد طبعاً إلى المطفأة، طفق يضحك ابتهاجاً إذ رآها، مطفأة جديدة كانت تسعده، شرع يتلمسها ويشرح لنا، كان لا يحتمل اعتراضاً ولا تحفظاً من قبل الآخرين، إذا كان تحت المطفأة ما تجب مشاهدته، كان يتعيّن علينا جميعاً أن ننحني ونزحف تقريباً تحت المطفأة، برناباس، الذي قاوم آنذاك، لقي ضرباً لهذا السبب. أماليا وحدها لم تهتم بالمطفأة، كانت تقف منتصبة بثوبها الجميل وما من أحد تجرأ أن يقول لها شيئاً، كنت أذهب إليها أحياناً وأتأبط ذراعها، لكنها كانت تلوذ بالصمت. إنني لا أستطيع حتى اليوم أن أشرح الأمر لنفسي كيف حدث أننا مكثنا واقفين أمام المطفأة مدة طويلة هكذا وفقط حين انتزع الوالد نفسه منها، رأينا سورتيني، الذي كان على ما يبدو طوال الوقت وراء المطفأة يستند إلى رافعة من روافعها. كان آنذاك ثمة صخب مخيف، ليس كما هو الحال عادة في الاحتفالات وحسب؛ إذ إن القلعة كانت فوق ذلك قد أهدت إلى جمعية المطافئ بضعة أبواق، آلات موسيقية خاصة كان في مقدور المرء بأقل جهد، طفل كان يستطيع ذلك، أن يحدث أكثر الأصوات صخباً؛ عندما كان المرء يسمع هذا، كان يظن أن الأتراك قد وصلوا إلى هنا، ولم يكن في مقدور المرء أن يعتاد على ذلك، لدى كل نفخة كان المرء ينتفض مرة أخرى. ولأنها كانت أبواقاً جديدة، كان كل فرد يريد أن يجربها وقد سمح بذلك لأن الموضوع هو احتفال شعبيّ. حولنا بالذات، ربما كانت أماليا قد جذبتهم، كان بعض نافخي الأبواق، كان من العسير التركيز لدى ذلك وإذا كان على المرء أيضاً طبقاً لوصية الوالد أن يبدي اهتماماً بالمطفأة، كان ذلك أقصى ما يمكن للمرء إنجازه وهكذا لم ننتبه إلى سورتيني، الذي لم نكن سابقاً أيضاً نعرفه مطلقاً، مدة طويلة غير مألوفة. 'هناك سورتيني' همس أخيراً لازيمان، كنت أقف إلى جانبه، في أذن الوالد. انحنى الوالد انحناءة كبيرة وأعطانا أيضاً وهو منفعل إشارة كي ننحني. دون أن يكون يعرفه حتى الآن، كان الوالد منذ البداية يحترم سورتيني بصفته خبيراً في مسائل الإطفائية وكثيراً ما كان يتحدث عنه في البيت، لذا كان أيضاً أمر مفاجئ كل المفاجأة وفي غاية الأهمية أن نرى سورتيني الآن في الواقع، لكن سورتيني لم يكن يهتم بنا، لم يكن ذلك سمة خاصة بسورتيني، جميع الموظفين يظهرون في العلن بلا اهتمام، كما إنه كان متعباً، واجبه الوظيفي وحده كان يبقيه هنا تحت، ليس هم أسوأ الموظفين الذين يستشعرون وطأة مثل هذه الواجبات التمثيلية بالذات، موظفون وخدم آخرون يختلطون بالناس، لا لشيء إلا لأنهم كانوا حاضرين، أما هو فقد ظل لدى المطفأة، وكل من حاول أن يقترب منه بأي التماس أو مجاملة، كان يطرده بصمته. هكذا حدث أنه أبصرنا بعد أن أبصرناه. فقط حين قمنا بانحناءة بفائق الاحترام والوالد حاول أن يعذرنا، تطلع إلينا، نظر إلينا تباعاً واحداً وراء الآخر، بتعب، كأنه يتنهد لأن إلى جانب كل واحد دائماً واحد آخر، إلى أن

توقف من ثم لدى أماليا، التي كان عليه أن يرفع نظره إليها، إذ إنها كانت أطول قامة منه بكثير. هنا أصيب بدهشة، قفز فوق عريش عربة المطفأة، كي يقترب من أماليا، نحن أسأنا فهم الموضوع أولاً وأردنا كلنا تحت قيادة الوالد أن نقترب منه، لكنه أوقفنا بيد مرفوعة وأشار لنا بالابتعاد. كان هذا كل شيء. من ثم طفقنا نمازح أماليا بأنها بهذا إنما وجدت فعلاً عريساً، في غبائنا أمضينا طوال بعد الظهيرة في مرح وحبور، غير أن أماليا كانت أكثر صمتاً من أي وقت آخر، 'لقد غرقت في حب سورتيني بالتمام والكمال وبهيام'، قال برونسفيك، الذي هو دائماً غير مؤدب بعض الشيء وليس لديه تفهم لمخلوقات مثل أماليا، لكن هذه المرة بدت لنا ملاحظته صحيحة تقريباً، كنا أصلاً يستخفنا الفرح في هذا اليوم، وكنا جميعنا، ما عدا أماليا، حين وصلنا إلى البيت بعد منتصف الليل، كأننا مخدّرون من نبيذ القلعة الحلو.» «وسورتيني؟» سأل ك. «نعم، سورتيني»، قالت أولغا، «سورتيني رأيته مرات عديدة أثناء الحفل عند مروري، كان يجلس على عريش عربة المطفأة، عاقداً ذراعيه فوق صدره، ومكث هكذا حتى أتت عربة القلعة لإحضاره. ولم يذهب حتى إلى تدريبات فرقة الإطفائية، التي برع فيها الوالد أمام جميع الرجال من سنّه، بالذات أملاً في أن يكون سورتيني يشاهدها.» «ولم تسمعوا عنه بعد ذلك؟» سأل ك. «يبدو أنك تكنّين احتراماً كبيراً لسورتيني.» «نعم، احترام»، قالت أولغا، «نعم وسمعنا أيضاً عنه. في الصباح التالي أوقظتنا من نومنا النبيذيّ صرخة من أماليا، الآخرون ارتدّوا في الحال واقعين في أسرّتهم، أما أنا فقد كنت متيقظة كلياً وجريت إلى أماليا، كانت تقف إلى النافذة وهي تمسك رسالة باليد، كان رجل قد ناولها إياها للتوّ عبر النافذة، كان الرجل ما زال ينتظر جواباً. كانت أماليا قد قرأت الرسالة ـ كانت قصيرة ـ وتركتها في يدها التي تدلت خائرة؛ ما كان أشد حبي لها دائماً عندما تكون متعبة هكذا. ركعت إلى جانبها وقرأت الرسالة. ما كدت أنتهي، حتى تناولتها أماليا مرة أخرى، بعد نظرة قصيرة إليّ، لكنها لم تقدر أن تحمل نفسها على قراءتها، مزّقتها وألقت القصاصات في وجه الرجل في الخارج وأغلقت النافذة. كان ذلك هو الصباح الحاسم. أسمّيه حاسماً، لكن كل لحظة من لحظات بعد ظهيرة اليوم الفائت كانت حاسمة بالمثل.» «وماذا جاء في الرسالة؟» سأل ك. «نعم، هذا لم أحكه بعد»، قالت أولغا، «كانت الرسالة من سورتيني، معنونة إلى الفتاة ذات العقد العقيقي. المضمون لا أستطيع أن أردده. كان دعوة للحضور إليه في نزل السادة ثم إن على أماليا أن تحضر على الفور، إذ إن على سورتيني أن يسافر بعد نصف ساعة. كانت الرسالة مصوغة بأكثر التعابير ابتذالاً التي لم أكن قد سمعتها قط والتي لم أحدس نصفها إلا من السياق. من لم يكن يعرف أماليا ولم يقرأ سوى هذه الرسالة، لا بدّ له من أن يعتبر الفتاة التي كان أحدهم قد تجرأ على الكتابة لها هكذا أنها مهتوكة العرض، حتى ولو كانت لم تُمسّ مطلقاً. ولم تكن رسالة غرامية، ولم تتضمن كلمة مجاملة، سورتيني كان بالأحرى على ما يبدو غاضباً لأن

منظر أماليا كان قد تمكن من قلبه وشغله عن أعماله. لاحقاً حكمنا هكذا بأن سورتيني إنما كان يبغي على الأرجح أن يسافر إلى القلعة في الحال مساء، وفقط بسبب أماليا ظل في القرية، وفي الصباح كان غاضباً كل الغضب لأنه لم يفلح في الليل أيضاً في نسيان أماليا، فكتب الرسالة. لا بدّ للمرأة من أن تغتاظ أولاً من الرسالة، حتى الأكثر رباطة جأش، لكن من ثم كان من شأن الحال لدى أخرى غير أماليا أن يطغى الخوف من اللهجة المهددة الغاضبة، لدى أماليا ظل الحال عند الاستياء، فهي لا تعرف الخوف، ليس لنفسها وليس لآخرين. وفي حين تواريت عن الأنظار من ثم في الفراش ثانية وكررت لنفسي الجملة الختامية المجتزأة: 'أن تأتي إذاً على الفور وإلا ـ!' ظلت أماليا إلى حافة النافذة وهي تنظر إلى الخارج، وكأنها تنتظر سعاة آخرين وعلى استعداد أن تعامل كل ساع تماماً كما عاملت الأول.» «هؤلاء إذاً هم الموظفون»، قال ك. بتردد، «مثل هذه النماذج يجد المرء بينهم. ماذا فعل والدك؟ آمل أن يكون قد شكى سورتيني بقوة لدى جهة ذات اختصاص، إذا لم يكن قد آثر الطريق الأقصر والأكثر أماناً إلى حانة السادة. إن الأكثر بشاعة في القصة هو ليس إهانة أماليا، فمن اليسير تداركها، لا أدري لماذا تضعين على ذلك بالذات أهمية كبيرة بشكل مفرط؛ لماذا كان على سورتيني أن يكون بمثل هذه الرسالة قد فضح أماليا إلى الأبد، حسب روايتك يمكن للمرء أن يعتقد ذلك، لكن هذا بالذات هو أمر غير ممكن، كان من اليسير على أماليا الحصول على رد اعتبار وبعد بضعة أيام كانت الحادثة ستكون قد نسيت، سورتيني لم يفضح أماليا، بل فضح نفسه. من سورتيني أفزع إذاً، من الإمكانية أنه يوجد مثل سوء استخدام السلطة هذا. ما فشل في هذه الحالة، لأنه قيل بكل وضوح وجلاء وكان مكشوفاً كلياً ووجد في أماليا خصماً متفوقاً، يمكنه أن ينجح كلياً في ألف حالة أخرى لدى ظروف أقل ملاءمة بعض الشيء فقط ويمكنه أن يتوارى عن كل بصر، حتى بصر من أسيء استخدامه.» «اسكت»، قالت أولغا، «أماليا تنظر إلينا.» كانت أماليا قد فرغت من إطعام الوالدين وشرعت الآن في خلع ملابس الوالدة، كانت الآن قد فكّت لها رباط التنورة، علّقت ذراعي الوالدة برقبتها، رفعتها قليلاً، نزعت التنورة منها ومن ثم أجلستها برفق مرة أخرى. الوالد، دائماً غير راض عن أن الأم تُخدم أولاً، لكن الأمر الذي يبدو أنه لم يحدث إلا لأن الأم كانت أكثر عجزاً منه، حاول، ربما كذلك كي يعاقب الابنة لبطئها المزعوم، أن يخلع ملابسه بنفسه، لكن مع أنه بدأ بالأقل ضرورة والأكثر سهولة، الخفّ المنزلي الأكبر من كبير، الذي كانت قدماه تدخلان فيه على نحو متراخ وحسب، لم يشأ أن يتمّ له بحال من الأحوال أن ينزعه، وسرعان ما اضطر إلى التخلي عن ذلك وهو يحشرج حشرجة مبحوحة وعاد يستند في كرسيه على نحو متخشب. «إنك لا تدرك الأمر الحاسم»، قالت أولغا، «من الجائز أن تكون على حق في كل شيء، بيد أن الأمر الحاسم كان أن أماليا لم تذهب إلى نزل السادة؛ كيف كانت قد عاملت الساعي، كان ما زال يمكن أن

يُحتمل، كان يمكن إخفاؤه؛ لكن بكونها لم تذهب كانت اللعنة على أسرتنا قد أطلقت ولكن الآن باتت كذلك معاملة الساعي شيئاً لا يغتفر، لا بل حتى إنها أمام الناس دفعت إلى المقدمة.» «كيف!» نادى ك. وخفض صوته على الفور، إذ رفعت أولغا يديها متوسلة، «أنت، الأخت، لا تقولي مثلاً إنه كان على أماليا أن تتبع سورتيني وتجري إلى نزل السادة؟» «لا»، قالت أولغا، «عساني أُحمى من مثل هذه الشبهة، كيف يمكنك أن تظن ذلك؟ إنني لا أعرف أحداً على حق بشكل ثابت هكذا مثلما هي أماليا في كل ما تفعله. لو كانت قد ذهبت إلى نزل السادة، كنت طبعاً سأعطيها الحق بالمثل؛ لكن إذ لم تذهب، كان الأمر بطولياً. في ما يخصني، أعترف لك بصراحة، لو كنت حصلت على مثل هذه الرسالة، كنت قد ذهبت. لما كنت قد تحملت الخوف من القادم، أماليا وحدها كانت تستطيع ذلك. كان يوجد بعض المخارج، امرأة أخرى كانت خليقة مثلاً أن تتزين خير زينة وكان من شأن فترة وجيزة أن تمضي ومن ثم تذهب إلى نزل السادة وتعلم أن سورتيني قد انصرف، ربما قد انطلق مسافراً فور إرساله الساعي، حتى إن هذا أمر مرجّح للغاية، إذ إن أمزجة السادة هي أمور عابرة. بيد أن أماليا لم تفعل ذلك ولم تفعل شيئاً مماثلاً، كانت قد أهينت بشدة وأجابت بلا تحفظ. لو كانت تبعت بطريقة ما على نحو ظاهريّ وحسب، فقط اجتازت عتبة نزل السادة في لحظة مناسبة، كان يمكن تجنّب الطامّة، لدينا هنا محامون في غاية الذكاء، يعرفون أن يحوّلوا لاشيئاً إلى كل ما يبغيه المرء، لكن في هذا الحالة لم يكن حتى اللاشيء المناسب موجوداً، على العكس، كان ما برح هنا استحقار رسالة سورتيني وإهانة الساعي.» «لكن أية طامّة إذاً»، قال ك.، أي محامين؛ لا يستطيع المرء بسبب طريقة تصرف سورتيني الإجرامية أن يدّعي على أماليا أو حتى أن يعاقبها؟» «بلى»، قالت أولغا، «يستطيع، طبعاً ليس بناء على محاكمة نظامية كما أنهم لم يعاقبوها عقوبة مباشرة، غير أنهم عاقبوها بطريقة أخرى، عاقبوها وعاقبوا أسرتنا كلها، والآن بدأتَ تتبيّن مدى قساوة هذه العقوبة. لك يبدو هذا جوراً ومنكراً، هذا رأي فردي كلياً في القرية، إنه يناسبنا كثيراً وحريّ به أن يواسينا، ومن شأنه أن يكون هكذا أيضاً لو لم يكن قائماً بشكل جليّ على أخطاء. أستطيع أن أبرهن لك على هذا بسهولة، اعذرني، عندما أتحدث في هذا عن فريدا، لكن بين فريدا وكلمّ، بمعزل عن كيفية تشكل الأمر أخيراً، جرى شيء مماثل كلياً كما بين أماليا وسورتيني وأنت تجد هذا الآن صحيحاً، ولو كنت قد ارتعبت في البداية. وهذا ليس اعتياداً، بالاعتياد لا يمكن للمرء أن يفقد إحساسه هكذا، عندما يتعلق الأمر بتقييم بسيط؛ هذا مجرد نبذ أخطاء.» «كلا، أولغا»، قال ك.، «لا أعرف لماذا تزجّين فريدا في هذا الموضوع، كانت الحالة ولا شك مغايرة كلياً، لا تخلطي ما هو مختلف كل الاختلاف واستمري في الرواية.» «رجاء»، قالت أولغا، «لا تؤاخذني عندما أصرّ على المقارنة، ما زال هناك بقية من أخطاء كذلك بخصوص فريدا، عندما تعتقد أنه يتعيّن عليك أن

تدافع عنها ضد مقارنة. لا يتعيّن الدفاع عنها أبداً، بل يجب الثناء عليها وحسب. عندما أقارن بين الحالتين، فإنني لا أقول إنهما متشابهتان، إنهما مثل الأبيض والأسود والأبيض هو فريدا. في أسوأ الأحوال يمكن للمرء أن يضحك من فريدا، كما فعلتُ بشقاوة ـ لاحقاً ندمت على ذلك كثيراً ـ في المشرب، لكن حتى من يضحك هنا، يكون حاقداً أو حسوداً، على كل حال يمكن للمرء أن يضحك، أما أماليا، فإنه لا يمكن للمرء، إذا لم يكن مرتبطاً بها بالدم، إلا أن يحتقرها. لذا فإنهما حقاً حالتان مختلفتان كل الاختلاف، كما تقول، لكنهما هما كذلك متشابهتان.» «كما أنهما ليستا متشابهتين»، قال ك. وهو يهز رأسه متأففاً، «دعي فريدا جانباً. فريدا لم تتلق مثل هذه الرسالة النظيفة كما تلقت أماليا من سورتيني، وفريدا أحبت كلمّ فعلاً، ومن يشك في الأمر، يمكنه أن يسألها، إنها ما زالت تحبه حتى اليوم.» «لكن هل هذه فروق كبيرة؟» سألت أولغا. «أتظن أنه لم يكن في مقدور كلمّ أن يكتب إلى فريدا بالمثل؟ عندما ينهض السادة من على طاولة المكتب، يكونون هكذا؛ إنهم لا يجدون طريقهم في الحياة؛ يقولون من ثم في شرود البال الأكثر خشونة، ليس كلهم، لكن كثيرون. يمكن للرسالة إلى أماليا أن تكون قد قُذفت على الورق في الخيال، في عدم انتباه كامل للمكتوب فعلاً على الورق. ماذا نعرف من أفكار السادة! ألم تسمع بنفسك أو سمعته يُحكى، بأية نبرة كان كلمّ يتعامل مع فريدا؟ معروف عن كلمّ أنه في غاية الفظاظة، يقال إنه لا يتحدث شيئاً طوال ساعات ومن ثم يقول فجأة فظاظة كهذه تقشعر البدن. عن سورتيني هذا غير معروف، كما هو جداً غير معروف أصلاً. في الحقيقة لا يعرف المرء عنه سوى أن اسمه يشابه اسم سورديني، ولولا هذا التشابه في الاسم ما كان من شأن المرء على الأرجح أن يعرفه قط. كذلك بصفته خبيراً في شؤون الإطفائية يخلط المرء على الأرجح بينه وبين سورديني، الذي هو الخبير الحقيقي والذي يستخدم تشابه الاسمين لكي يلقي خاصة الالتزامات التمثيلية على عاتق سورتيني وهكذا يبقى في عمله دون إزعاج. والآن عندما يتمكن فجأة حب لفتاة قروية قلب مثل هذا الرجل غير الاجتماعيّ مثل سورتيني، فإن هذا يتخذ طبعاً أشكالاً أخرى غير تلك التي يتخذها حينما يقع صبي النجار ابن الجيران في الغرام. كما أنه يتعيّن التفكير في حقيقة أن هناك فرقاً كبيراً بين موظف وابنة إسكافيّ، هذا الفرق الذي لا بدّ من تجاوزه بطريقة من الطرق، سورتيني حاول الأمر بهذه الطريقة، شخص آخر يمكنه أن يعمل على نحو آخر. صحيح أنه يقال، إننا جميعنا نخص القلعة وما من فرق وما من شيء يجب تجاوزه وهذا صحيح كذلك ربما في العادة، لكن مع الأسف أتيحت لنا فرصة كي نرى أن هذا، بالذات عندما يكون الأمر مهماً، هو غير صحيح بتاتاً. على كل حال بعد كل هذا سوف تكون طريقة تصرف سورتيني مفهومة أكثر لك، وباتت أقل فظاعة وهي فعلاً مقارنة بطريقة كلمّ مفهومة أكثر بكثير، وحتى عندما يكون المرء مشاركاً عن قرب إلى حد كبير تكون محتملة

أكثر. عندما يكتب كلمّ رسالة رقيقة، يكون الأمر أكثر إحراجاً من أكثر رسالة فظاظة من سورتيني. افهمني على نحو صحيح، لا أجرؤ على الحكم على كلمّ، إنني أقارن وحسب، لأنك تأبى المقارنة. كلمّ هو مثل قائد على النساء، يأمر تارة هذه وتارة تلك أن تأتي إليه، لا يطيق واحدة مدة طويلة وكما يأمر بالحضور، يأمر أيضاً بالذهاب. آه، كلمّ ليس خليقاً أن يبذل جهداً قط كي يكتب رسالة أصلاً. والحال الآن بالمقارنة مع ذلك ما برح دائماً أمراً منكراً عندما يجلس ذات مرة سورتيني الذي يعيش في عزلة تامّة، والذي علاقاته مع النساء على الأقل مجهولة، ويكتب بخط الموظفين الجميل رسالة لكن شائنة والحق يقال. وإذا لم يتبيّن هنا إذاً فرق لصالح كلمّ، بل العكس، هكذا على حب فريدا أن يُحدث هذا الفرق؟ إن علاقة النساء بالموظفين، صدقني، صعبة جداً أو بالأحرى دائماً سهلة التقييم جداً. هنا ما من نقص في الحب قط. لا يوجد حب موظفين غير سعيد. ليس ثناء من هذه الناحية عندما يقول المرء عن فتاة، ـ لا أتحدث هنا عن فريدا وحدها على الإطلاق ـ إنها لم تمنح نفسها للموظف إلا لأنها أحبته. لقد أحبته ومنحته نفسها، هكذا كان الحال، لكن لاشيء هنا يستحق الثناء. أما أماليا، فإنها لم تحب سورتيني، تعترض أنت. حسناً، إنها لم تحبه، لكن مع ذلك قد تكون أحبته، من يستطيع أن يقرر هذا؟ ولا حتى هي نفسها. كيف يمكنها أن تظن أنها أحبته، إذ صدّته بهذا العنف، على الأرجح كما لم يحدث قط أن صُدّ موظف. يقول برناباس إنها ما زالت حتى الآن ترتجف أحياناً من الحركة التي أوصدت بها النافذة قبل ثلاثة أعوام. هذا أيضاً حقيقي ولهذا لا يجوز للمرء أن يسألها؛ لقد انتهت من سورتيني ولا تعرف شيئاً أكثر من هذا؛ لا تعرف أكانت تحبه أم لا. لكن نحن نعلم أن النساء لا يستطعن إلا أن يحببن موظفين إذا التفت هؤلاء إليهن ذات مرة، نعم إنهن يحببن الموظفين حتى قبل ذلك، مهما شئن أن ينكرن ذلك، وسورتيني لم يلتفت إلى أماليا وحسب، بل إنه قفز فوق عريش عربة المطفأة حين رأى أماليا، بساقيه المتصلبتين من عمل المكتب قفز فوق عريش العربة. سوف تقول، لكن أماليا هي استثناء. نعم، هي هكذا، هذا ما أثبتته حين رفضت الذهاب إلى سورتيني، هذا استثناء كفاية؛ لكن أن تكون مع ذلك لم تحب سورتيني، فهذا قمين أن يكون استثناء أكثر من اللازم تقريباً، قمين أن يكون غير قابل للإدراك أبداً. لقد كنا بالتأكيد بعد ظهيرة ذلك اليوم مصابين بالعمى، لكن أننا كنا آنذاك نظن أننا نلاحظ عبر كل ضباب قدراً من هيام أماليا، أظهر ولا ريب شيئاً من الوعي. لكن عندما يجمّع المرء كل هذا، فماذا يبقى من فرق بين فريدا وأماليا؟ فرق وحيد هو أن فريدا عملت ما رفضته أماليا.» «من الجائز»، قال ك.، «لكن بالنسبة لي إن الفرق الرئيسي هو أن فريدا هي خطيبتي، أما أماليا فهي لا تهمني في الحقيقة إلا بصفتها شقيقة برناباس ساعي القلعة وقدرها ربما يكون متشابكاً في عمل برناباس. لو كان موظف أنزل بها مثل هذا الظلم الصارخ كما بدا لي في البداية بعد قصتك، لشغلني هذا كثيراً، لكن هذا أيضاً

بالأحرى كمسألة عامة وليس كمعاناة شخصية لأماليا. لكن الآن بعد قصتك تتبدل الصورة بطريقة صحيح أنها ليست مفهومة لي كلياً، لكن، إذ إنك أنت التي تروين، بطريقة جديرة بالتصديق على نحو كاف ولهذا السبب فإنني أودّ بكل سرور أن أتجاهل هذه المسألة كلياً، فأنا لست رجل إطفائية، ماذا يهمني سورتيني. لكنني طبعاً أهتم بفريدا وإنني لأعجب كيف تحاولين، أنت التي أثق بها وأودّ بسرور أن أثق بها على الدوام، بطريق التفافي عبر أماليا، مهاجمة فريدا وإثارة شكوكي فيها. لا أفترض أنك تفعلين ذلك عن قصد أو حتى عن قصد سيئ، وإلا كان عليّ أن أنصرف منذ مدة طويلة، إنك لا تفعلين ذلك عن قصد، الظروف تدفعك إلى ذلك، حباً بأماليا ترغبين أن ترفعيها عالياً فوق كل النساء ولأنك لا تعثرين لهذا الغرض في أماليا نفسها على ما هو جدير بالإطراء بما فيه الكفاية، تساعدين نفسك بأن تقومي بتقليل شأن النساء الأخريات. إن فعل أماليا غريب، لكن كلما تحدثت أكثر عن هذا الفعل، كلما تضاءلت إمكانية الجزم بأنها كانت كبيرة أم صغيرة، ذكية أم غبية، بطلة أم جبانة، أماليا تحفظ دوافعها في صدرها، ما من أحد سوف ينتزعها منها. أما فريدا فإنها لم تفعل شيئاً غريباً قط بل تبعت قلبها وحسب، هذا واضح لكل من يهتم بذلك بحسن نية، كل فرد يستطيع أن يفحص الأمر، ما من مكان للقيل والقال. أما أنا فإني لا أبغي لا الحط من قدر أماليا ولا الدفاع عن فريدا، بل أن أوضح لك وحسب كيف أتصرف مع فريدا وكيف يكون كل هجوم ضد فريدا هجوماً في الوقت نفسه ضد وجودي. لقد أتيت إلى هنا من تلقاء نفسي ومن تلقاء نفسي ربطت نفسي هنا، لكن كل ما حدث مذ ذاك وخاصة آمالي للمستقبل - مهما كانت متشائمة، على كل حال، إنها موجودة - كل هذا أدين به لفريدا، هذا لا يمكن إلغاءه بالنقاش. كنت قد قُبلت هنا، صحيح، بصفتي مسّاح أراض، لكن ذلك كان ظاهرياً وحسب، لقد لعبوا معي، طردوني من كل بيت، يلعبون معي اليوم أيضاً، لكن ما أشد تعقيد هذا، لقد كسبت في الحجم نوعاً ما وهذا يعني بعض الشيء، فلديّ، مهما كان كل هذا بسيطاً، سكن، وظيفة وعمل حقيقي، لديّ خطيبة، وهي تتولى عني العمل المهني عندما يكون لديّ انشغالات أخرى، سوف أتزوج خطيبتي وأصبح عضواً في الجماعة، إلى جانب العلاقة الرسمية ما زال لديّ علاقة شخصية بكلمّ طبعاً غير قابلة للإستفادة منها حتى الآن. هذا ليس قليلاً ولا ريب؟ وعندما أحضر إليكم، من هو الذي تستقبلونه؟ من تسرّين له بقصة أسرتكم؟ ممن تأملين إمكانية مساعدة ما، ولو كانت ضئيلة وبعيدة الاحتمال؟ طبعاً ليس مني، أنا مسّاح الأراضي، الذي مثلاً قبل أسبوع طرده لازيمان وبرونسفيك من بيتهما بالقوة، بل تأملين هذا من الرجل الذي يملك أية وسائط قوة، لكنني أدين بوسائط القوة هذه إلى فريدا، فريدا المتواضعة هكذا، بحيث أنك لو تحاولين أن تسأليها عن شيء من هذا القبيل، فإنها بالتأكيد لا تريد أن تعلم عنه أقل شيء. ومع ذلك يبدو بعد كل هذا أن فريدا إنما فعلت في براءتها أكثر مما فعلت أماليا في

كل تشامخها، إذ انظري، لديّ انطباع أنك تبحثين عن مساعدة من أجل أماليا. وممن؟ في الحقيقة ليس من أحد آخر إلا من فريدا.» «هل تكلمت فعلاً بشكل كريه هكذا عن فريدا؟» قالت أولغا، «بالتأكيد لم أكن أريد ذلك كما كنت أيضاً أظن أنني لم أفعله، لكن الأمر محتمل، وضعنا هو أننا منهارون مع كل العالم ونشرع في الشكوى، إنه يجرفنا إلى حيث لا ندري. إنك على حق، ثمة فرق كبير الآن بيننا وبين فريدا ومن الخير إبرازه ذات مرة. قبل ثلاثة أعوام كنا بنات العائلات وفريدا، اليتيمة، خادمة في حانة الجسر، كنا نمرّ بها دون أن ننظر إليها نظرة عابرة، كنا يقيناً متكبرتين، لكن هكذا كنا قد تربينا. لكنك في ذلك المساء في حانة السادة يمكنك أن تكون قد أدركتَ الوضع الحالي: فريدا مع السوط في يدها وأنا في مجموعة الخدم. لكن الأمر هو أكثر سوءاً. يمكن لفريدا أن تحتقرنا، هذا يتناسب مع عملها، الظروف الحقيقية تفرضه بالقوة. لكن من الذي لا يحتقرنا! من يقرر أن يحتقرنا، يدخل على الفور في أكبر جمعية. هل تعرف خليفة فريدا؟ تدعى بيبي. لم أتعرفها إلا مساء قبل يوم أمس، حتى الآن كانت خادمة فندق. تتفوق بالتأكيد على فريدا في ازدرائها لي. رأتني من النافذة وأنا آتية لإحضار بيرة، جرت إلى الباب وأوصدته، اضطررت إلى التوسل مدة طويلة ووعدتها بالشريط الذي أحمله في شعري، قبل أن تفتح الباب لي. لكن إذ أعطيتها الشريط من ثم، ألقته في الزاوية. حسناً، يمكنها أن تزدريني، إنني أعتمد جزئياً على رضاها وهي فتاة المشرب في حانة السادة، طبعاً هي ذلك مؤقتاً فقط ومن المؤكد أنها لا تملك الصفات التي هي ضرورية لكي تُستخدم هناك على نحو دائم. يمكن للمرء أن يستمع وحسب إلى صاحب الحانة كيف يتحدث مع بيبي، ويمكنه أن يقارن ذلك بكيفية تحدثه مع فريدا. لكن هذا لا يمنع بيبي من أن تزدري أماليا أيضاً، أماليا، التي من شأن نظرتها وحدها أن تكفي لإبعاد كامل بيبي الصغيرة مع كل ضفائرها ولفائفها من الغرفة بسرعة فائقة، كما هي غير خليقة قط أن تحقق ذلك في ما لو اعتمدت على ساقيها الصغيرتين البدينتين وحدها. أية ثرثرة مثيرة للغضب اضطرررت يوم أمس إلى الاستماع إليها مرة أخرى عن أماليا، حتى اهتم بي الزبائن أخيراً، طبعاً بالطريقة التي كنتَ قد رأيتها ذات مرة.» «ما أشد تخوفك»، قال ك.، «أردت أن أضع فريدا في المكان اللائق بها، لكن دون أن أبغي التقليل من شأنكن، كما تفهمين الأمر الآن. إن أسرتك تملك شيئاً خاصاً ما لي أيضاً، هذا ما لم أكتمه؛ بيد أنني لا أفهم كيف يمكن لهذا المخصوص أن يعطي دافعاً للازدراء.» «آه، ك.»، قالت أولغا، «أنت كذلك سوف تفهم الأمر، كما أخشى؛ ألا تستطيع أن تفهم بأية طريقة أنَّ تصرف أماليا إزاء سورتيني كان الدافع الأول لهذا الازدراء؟» «هذا خليق أن يكون في منتهى الغرابة»، قال ك.، «في مقدور المرء أن يُعجب بأماليا أو يدينها من أجل هذا، لكن أن يزدريها؟ وإذا كان المرء من شعور غير مفهوم لي يزدري أماليا حقاً، لماذا يمدّ المرء الازدراء حتى يشملكم، يشمل الأسرة البريئة؟ كون بيبي مثلاً تحتقرك،

هذا كثير وأنا أريد، عندما أعود ذات مرة إلى حانة السادة، أن أقابلها بالمثل.» «هل ترغب، ك.»، قالت أولغا، «في أن تقنع كل من يزدرينا بتغيير رأيه؟ من شأن هذا أن يكون عملاً قاسياً، إذ إن كل شيء يصدر من القلعة. ما زلت أتذكر بدقة قبل الظهيرة التي تبعت ذلك الصباح. برونسفيك، الذي كان آنذاك صبينا المساعد، جاء مثل كل يوم، كان الوالد قد خصص له عملاً وأرسله إلى البيت، ثم جلسنا إلى مائدة الفطور، كان الجميع، ما عدا أماليا وأنا، مفعمين بالحيوية، طفق الوالد يتحدث باستمرار عن الحفل، كان لديه خطط متنوعة بخصوص الإطفائية، إذ في القلعة ثمة فرقة إطفائية خاصة بها، كانت قد بعثت أيضاً وفداً إلى الحفل جرى تداول بعض الأمور معه، كان السادة الحاضرون من القلعة قد شاهدوا إنجازات فرقتنا الإطفائية، أبدوا فيها رأياً حسناً للغاية، وقارنوا بينها وبين إنجازات فرقة إطفائية القلعة، وكانت النتيجة لصالحنا، وكان الحديث قد جرى عن ضرورة تنظيم جديد لفرقة إطفائية القلعة، من أجل ذلك كان ثمة ضرورة لمدربين من القرية، بعضهم دخل في الحسبان، صحيح، غير أن الوالد كان له أمل بأن الخيار سيقع عليه. الآن راح يتحدث عن ذلك وكما كانت طريقته اللطيفة في بسط ذراعيه على مائدة الطعام، كان يجلس الآن وهو يحيط نصف المائدة بذراعيه، وكيف كان يتطلع إلى السماء من النافذة المفتوحة، كان وجهه فتياً للغاية وطافحاً بالأمل، هكذا لم أره مرة أخرى قط. هنا قالت أماليا بترفّع لم نكن نعرفه عنها، لا يجب الثقة كثيراً بمثل أحاديث السادة هذه، فقد اعتادوا في مثل هذه المناسبات أن يقولوا عن طيب خاطر شيئاً ما للمجاملة، لكن لا أهمية كبيرة لهذا أو لا أهمية بتاتاً، ما إن يقال حتى يُنسى إلى الأبد، طبعاً، عند الفرصة التالية يقع المرء في شركهم مرة أخرى. الوالدة عاتبتها على مثل هذا الكلام، الوالد ضحك وحسب من كلامها المماثل لكلام الكبار وخبراتهم الكثيرة، لكنه من ثم دُهش، بدا أنه يبحث عن شيء لم يلاحظ نقصانه إلا الآن، لكن ما من شيء كان ناقصاً، وقال إن برونسفيك قد روى شيئاً عن ساع وعن رسالة ممزقة، وسأل هل كنا نعلم شيئاً عن ذلك، بمن يتعلق الأمر وما المسألة. لذنا بالصمت، برناباس، آنذاك صغير مثل حَمَل صغير، قال شيئاً ما سخيفاً أو وقحاً، تحول الحديث إلى أمور أخرى، والمسألة طواها النسيان.»

١٨

عقوبة أماليا

«لكن بعد ذلك بقليل انهال علينا سيل من الأسئلة من كل ناحية بسبب حكاية الرسالة، أتى أصدقاء وأعداء، معارف وغرباء، لكنهم لم يمكثوا طويلاً، أفضل الأصدقاء استأذنوا منصرفين بأكثر سرعة، لازيمان، في ظروف أخرى دائماً متأن ووقور، دخل وكأنه يبغي قياس أبعاد الحجرة وفحصها وحسب، نظر نظرة في ما حوله وانتهى، بدا الحال مثل لعبة أطفال مفزعة، إذ ولّى لازيمان هارباً والوالد انتزع نفسه من الناس الآخرين وركض وراءه حتى عتبة البيت ثم توقف، برونسفيك حضر وأخبر الوالد أنه يريد أن يستقلّ في عمله، قال بكل صدق، إنه ذكيّ يعرف كيف يستخدم اللحظة، زبائن حضروا واستخرجوا من مستودع الوالد أحذيتهم التي كانوا قد وضعوها هنا للتصليح، في البدء حاول الوالد أن يثني الزبائن عن عزمهم - وجميعنا قمنا بدعمه ما استطعنا - بعد ذلك تخلى الوالد عن المحاولة وأخذ يساعد الناس في البحث وهو صامت، في سجل الطلبيات راح يشطب سطراً سطراً، مخزون الجلود الذي كان للناس لدينا جرى تسليمه، ديون دفعت، كل شيء جرى دون أدنى شجار، كان المرء مسروراً إذا تمّ له فك الارتباط بنا بسرعة وعلى نحو كامل، إذا كان ثمة خسائر لدى ذلك، فإنها لم تدخل في الحسبان. وفي الختام، الأمر الذي كان متوقعاً، ظهر زيمانّ، رئيس فرقة الإطفائية، ما زلت أرى المشهد أمامي، زيمانّ طويل القامة وقويّ البنية، لكن محنيّ الظهر بعض الشيء، مريض بالسلّ، جادّ دائماً، لا يقدر أن يضحك قط، يقف أمام والدي، الذي كان يعجب به، والذي كان في ساعةِ أنس قد أمّله في الحصول على وظيفة نائب رئيس فرقة الإطفائية وعليه أن يعلمه الآن أن جمعية المطافئ تقيله وتطلب منه إعادة الدبلوم. الناس الذين كانوا لدينا في هذه اللحظة تركوا أعمالهم واحتشدوا في دائرة حول الرجلين. زيمانّ لا يستطيع أن يقول شيئاً، لا يفتأ ينقر وحسب مراراً وتكراراً على كتف الوالد، وكأنه يريد أن يُفرغ من الوالد الكلمات التي عليه أن يقولها بنفسه ولا يستطيع العثور عليها. أثناء ذلك يضحك دون انقطاع، الأمر

الذي يريد به أن يهدّئ نفسه والآخرين بعض التهدئة، لكن إذ إنه لا يستطيع أن يضحك ولم يسمعه المرء يضحك في يوم من الأيام، فإنه لا يخطر على بال أحد أن يصدق أن ما يفعله هو ضحك. لكن الوالد، متعب ويائس من هذا اليوم أكثر من اللازم، كي يقدر على مساعدة زيمانّ، لا بل يبدو أنه متعب لدرجة لا يستطيع معها أساساً أن يفكر عمّ يدور الموضوع. كنا جميعنا حقاً يائسين بالطريقة نفسها، لكن إذ كنا صغار السن، فإننا لم نستطع أن نصدق مثل هذا الانهيار الكامل، دائماً كنا نفكر أن في صفوف الزائرين الكثيرين سوف يأتي ولا ريب أخيراً أحدهم ويأمر بالتوقف ويرغم كل شيء على حركة تراجعية مرة أخرى. في غبائنا بدا لنا زيمانّ أهلاً بصفة خاصة لتحقيق ذلك. بلهفة انتظرنا أن تنفصل أخيراً من هذا الضحك المتواصل الكلمةُ الواضحة. عمّ كان إذاً يثير الضحك الآن، يقيناً وحده الظلم السخيف الذي حلّ بنا. السيد الرئيس، السيد الرئيس، لتقل أخيراً للناس، فكرنا ونحن نتزاحم مقتربين منه، لكن الأمر الذي حدا به وحسب إلى القيام بحركات ملتوية غريبة. غير أنه بدأ أخيراً، صحيح ليس من أجل تحقيق رغباتنا الكامنة، بل استجابة لنداءات الناس المشجعة أو المغيظة، يتكلم فعلاً. كان ما زال لدينا أمل. استهلّ كلامه بثناء كبير على الوالد، دعاه زينة الجمعية، قدوة الناشئة بعيدة المنال، عضواً لا يستغنى عنه، خروجه من الجمعية قمين ولا بدّ من تدميرها تقريباً. كان هذا كله جميلاً جداً، ليته أنهى كلامه هنا. بيد أنه واصل الكلام. إذا كانت الجمعية الآن قد قررت مع ذلك أن تلتمس من الوالد الوداع، لكن مؤقتاً وحسب، فإن المرء سوف يدرك جدية الدوافع، التي اضطرت الجمعية إلى القيام بذلك. ربما بدون إنجازات الوالد الباهرة في احتفال يوم أمس ما كان يتعيّن أن يصل الأمر إلى هذا الحد، لكن هذه الإنجازات بالذات أثارت انتباه السلطات على نحو خاص، لقد باتت الجمعية الآن تقف تحت ضوء ساطع وعليها أن تفكر بنظافتها أكثر من السابق. والآن كانت إهانة الساعي، هنا لم تجد الجمعية مخرجاً آخر وهو، زيمانّ، اضطلع بالمهمة الصعبة في إبلاغ الأمر. ليت الوالد لا يقوم بتصعيب الأمر عليه أكثر مما هو. ما كان أشد فرح زيمانّ بأنه نطق بذلك، من رضاه عن هذا لم يعد حتى مراعياً على نحو مبالغ فيه، أشار إلى شهادة الدبلوم، التي كانت معلقة على الحائط ولوّح بالإصبع. هزّ الوالد رأسه وذهب لإحضارها، لكنه لم يستطع أن ينزعها من الكلّاب بيديه المرتعشتين، فصعدتُ على كرسي وساعدته. ومن هذه اللحظة كان كل شيء قد انتهى، حتى إنه لم يأخذ الشهادة من الإطار، بل أعطى زيمانّ كل شيء كما كان. ثم جلس في أحد الأركان، لم يعد يتحرك ولم يعد يتحدث مع أحد، وقد اضطررنا إلى التفاوض مع الناس وحدنا على قدر ما أمكن.» «وأين يكمن هنا كما ترين تأثير القلعة؟» سأل ك. «حالياً يبدو أنها لم تتدخل بعد. ما رويته حتى الآن كان مجرد توجّس الناس وهم في شرود فكر، فرح بضرر الجار، صداقة غير جديرة بالثقة، أمور توجد في كل مكان ولكن إلى جانب والدك كذلك -

على الأقل كما يبدو لي ـ مسألة صغيرة نوعاً ما، إذ تلك الشهادة ماذا كانت؟ إثبات قدراته وهذه احتفظ بها، إذا كانت عملت منه شخصاً لا يستغنى عنه، يكون الأمر أفضل، ولم يكن من شأنه أن يصعّب الأمر فعلاً على رئيس الجمعية إلا لو كان قد ألقى الشهادة أمام قدميه فور نطقه بالكلمة الثانية. لكن يبدو لي أمراً مميزاً على نحو خاص أنك لا تذكرين أماليا قط؛ أماليا التي كانت قد تسببت في كل شيء، كانت على الأرجح تقف هادئة في الخلفية وتراقب الخراب.» «لا، لا»، قالت أولغا، «لا يمكن لوم أحد، لم يكن في مقدور أحد أن يتصرف على نحو مغاير، كل هذا كان تأثير القلعة.» «تأثير القلعة»، كررت أماليا، التي كانت قد دخلت من الفناء دون أن يلحظها أحد، كان الوالدان يرقدان في الفراش منذ مدة طويلة، «هل تروى قصص من القلعة؟ ما زلتما تجلسان معاً؟ وأنت كنت تريد الانصراف في الحال، ك.، والآن اقتربت الساعة من العاشرة. هل تهمّك إذاً مثل هذه القصص أصلاً؟ يوجد هنا ناس يتغذّون من مثل هذه القصص، يجلسون معاً، كما تجلسان هنا، ويهاجمون بعضهم بعضاً، لكنك تبدو لي أنك لست في عداد هؤلاء الناس.» «بلى»، قال ك.، «إنني أنتمي إليهم تماماً، على عكس ذلك، فإن الناس الذين لا يهتمّون بمثل هذه القصص ويدعون آخرين يهتمّون وحسب، لا يؤثّرون في نفسي.» «حسناً»، قالت أماليا، «لكن اهتمام الناس متفاوت كل التفاوت، سمعت ذات مرة عن شاب كان يشغل نفسه بالتفكير في القلعة ليلاً نهاراً، وأهمل كل شيء آخر، خاف المرء على عقله اليومي، لأن كل عقله كان في القلعة فوق، لكن تبيّن أخيراً أنه لم يكن في الحقيقة يعني القلعة، بل فقط ابنة غسّالة أوانٍ في المكاتب، غير أنه حصل عليها الآن ومن ثم بات كل شيء حسناً مرة أخرى.» «الرجل قمين أن يعجبني، أظن»، قال ك. «أشك بأن الرجل قمين أن يعجبك»، قالت أماليا، «لكن ربما زوجته. والآن لكن لا تدعا نفسيكما تُزعجان، غير أني ذاهبة إلى النوم ويجب عليّ أن أطفئ الضوء، بسبب الوالدين، صحيح أنهما سيغطّان في النوم قريباً، لكن بعد ساعة ينتهي النوم الحقيقي ومن ثم يزعجهما أقل ضوء. ليلة طيبة.» وفعلاً عمّ الظلام على الفور، لا بدّ أن أماليا أعدّت مكان رقادها في مكان ما على الأرض لدى سرير الوالدين. «من إذاً هذا الشاب الذي تحدثت عنه؟»، سأل ك. «لا أدري»، قالت أولغا، «ربما برونسفيك، مع أن الموضوع لا ينطبق عليه كلياً، لكن ربما أيضاً شخص آخر. ليس من اليسير أن يفهمها المرء تماماً، لأنه لا يعرف في الغالب أكانت تتحدث على نحو ساخر أم جدّي، غالباً يكون الأمر جدّياً، لكنه ينمّ عن سخرية.» «دعي التفسيرات!» قال ك. «كيف وقعتِ إذاً في هذه التبعية الشديدة لها؟ أكان الحال هكذا قبل المصيبة الكبرى؟ أم بعد ذلك فقط؟ أو ليس لديك رغبة أبداً في أن تصبحي مستقلة عنها؟ وهل هذه التبعية معللة على نحو عقلاني بطريقة ما؟ إنها الأصغر سناً وعليها بهذه الصفة أن تطيع. لقد جلبت، بريئة أم غير بريئة، المصيبة على الأسرة. بدلاً من أن ترجو المعذرة من جديد كل يوم جديد ومن كل

فرد منكم، فإنها ترفع رأسها أعلى من الجميع، لا تهتمّ بشيء إلا بالوالدين رأفة قليلاً، لا ترغب في الاطلاع على شيء، كما تعبّر هي، وعندما تتحدث ذات مرة أخيراً معكم، فإن كلامها يكون في الغالب 'جدياً، لكنه ينمّ عن سخرية'. أم إنها تتسيّد بجمالها، الذي تذكرينه أحياناً. إنكم ثلاثتكم جميعاً متشابهون كل التشابه، لكن هذا، مما يميزها عنكما أنتما الاثنان، هو لغير صالحها بلا ريب، منذ رأيتها لأول مرة أفزعتني نظرتها الباردة التي لا تعبّر عن شيء. ثم إنها صحيح الأصغر سناً، لكن المرء لا يلاحظ شيئاً من هذا في مظهرها الخارجي، إنها تملك مظهر النساء الذي لا عمر له، النساء اللواتي لا يكدن يتقدمن في السن، لكنهن في الحقيقة كذلك لم يكنّ بالكاد صبايا في يوم من الأيام. إنك ترينها كل يوم، لا تلاحظين أبداً قساوة وجهها. لذا لا أستطيع حتى أن آخذ ميل سورتيني، حين أتأمل الأمر، على محمل الجد كثيراً، ربما كان يريد بالرسالة أن يعاقبها وحسب، لكن ليس أن يستدعيها.» «عن سورتيني لا أريد أن أتحدث»، قالت أولغا، «لدى السادة من القلعة كل شيء ممكن، إذا كان الأمر يتعلق بأجمل أو بأقبح فتاة. في ما عدا ذلك إنك تخطئ بخصوص أماليا خطأً كاملاً. انظر، ليس لديّ سبب كي أكسبك بشكل خاص من أجل أماليا ومع ذلك أحاول، لكنني لا أفعل ذلك إلا من أجلك. أماليا كانت على نحو أو آخر سبب مصيبتنا، هذا مؤكد، لكن حتى الوالد، الذي كانت المصيبة قد أصابته ولا ريب أقسى إصابة والذي لم يكن يقدر في يوم من الأيام أن يتحكم في كلماته تحكماً كبيراً، ولا حتى في البيت، حتى الوالد لم يقل لأماليا كذلك في أسوأ الأوقات كلمة عتاب. وهذا ليس مثلاً لأنه كان خليقاً أن يقبل سلوك أماليا؛ كيف كان في مقدوره، وهو معجب بسورتيني، أن يقبل ذلك، ليس من بعيد كان يستطيع أن يفهم الأمر، كان قميناً بكل سرور أن يقدم نفسه وكل ما يملك ضحية لسورتيني، لكن ليس كما حدث الآن فعلاً، تحت غضب سورتيني المرجّح. غضب مرجّح، إذ إننا لم نعلم شيئاً عن سورتيني بعد ذلك. إذا كان في السابق يعيش منعزلاً، فإنه من الآن فصاعداً غدا وكأنه غير موجود. والآن كان الأحرى بك أن ترى أماليا في ذلك الوقت. جميعنا كنا نعلم أنه لن تأتي عقوبة صريحة. لقد تخلى المرء عنا وحسب. الناس هنا، كما القلعة أيضاً. لكن في حين لاحظنا طبعاً تراجع الناس، لم يكن يُلاحظ أي شيء من القلعة. في الماضي أيضاً لم نكن نلاحظ اهتماماً ورعاية من قبل القلعة، كيف نستطيع أن نلاحظ الآن تحولاً؟ هذا الهدوء كان الأسوأ. على الإطلاق ليس تراجع الناس، لم يكونوا قد فعلوا ذلك عن أية قناعة، بل ربما لم يكن لديهم أي شيء جدّيّ ضدنا، الاحتقار الحالي لم يكن قائماً بعد، عن خوف وحسب كانوا قد فعلوا ذلك وراحوا الآن ينتظرون كيف سينتهي الموضوع. كذلك لم يكن علينا بعد أن نخشى عوزاً، كل المدينين كانوا قد سددوا لنا، كانت الصفقات رابحة، ما كان ينقصنا من مواد غذائية كان أقارب يمدوننا به سراً، كان الأمر سهلاً، كان ذلك في موسم الحصاد، غير أننا لم نكن نملك

حقولاً، ولم يدعنا أحد نشاركه العمل، كنا لأول مرة في الحياة محكوماً علينا تقريباً بالبطالة والكسل. ورحنا نجلس معاً في قيظ تموز وآب والنوافذ مغلقة. لم يحدث شيء. لا دعوة للمثول، لا خبر، لا زيارة، لا شيء.» «حسناً»، قال ك.، «إذ لم يحدث شيء ولم يكن من المتوقع عقوبة صريحة، مما كنتم تخافون؟ أي ناس أنتم!» «كيف عليّ أن أشرح لك الأمر؟» قالت أولغا. «لم نكن نخشى شيئاً قادماً، كنا نعاني وحسب مما هو حاضر، كنا في وسط المعاقبة. كان الناس في القرية ينتظرون وحسب أن نحضر إليهم، أن يعيد الوالد فتح ورشته، أن تأتي أماليا، التي كانت تعرف كيف تخيط ثياباً جميلة جداً، لكن فقط لصاحبات الوجاهة، لكي تستلم طلبيات من جديد، كان جميع الناس يأسفون على ما فعلوا؛ عندما يجري في القرية فجأة إبعاد أسرة ذات وجاهة إبعاداً تامّاً، فإن كل فرد يصاب بضرر ما؛ حين تخلوا عنا، كانوا يعتقدون أنهم يؤدون واجبهم وحسب، ونحن لو كنا في مكانهم، لما كنا فعلنا أيضاً شيئاً مغايراً. كما أنهم لم يكونوا يعرفون بالدقة ما المسألة، كان الساعي وحده قد عاد إلى حانة السادة ويده مليئة بقصاصات ورق، كانت فريدا قد رأته يخرج ويعود ثانية، وتحدثت معه بضع كلمات، وما علمته، أشاعته على الفور، لكن مرة أخرى ليس لعداوة ضدنا أبداً، بل ببساطة تأدية لواجب، مثلما من شأن ذلك أن يكون في الحالة نفسها واجب كل شخص آخر. والآن كان حلّ سعيد لكل الموضوع، كما قلت، قميناً أن يكون الأكثر ترحيباً من قبل الناس. لو كنا قد أتينا فجأة ذات مرة مع الخبر بأن كل شيء هو على خير وجه، أن المسألة كانت مثلاً مجرد سوء فهم تمّ إيضاحه في هذه الغضون إيضاحاً تاماً، أو أن المسألة كانت خطأً، صحيح، لكن جرى تداركه من خلال الفعل أو أنه ـ حتى هذا كان من شأنه أن يكفي الناس ـ تمّ لنا بواسطة علاقاتنا في القلعة أن نوقف المسألة ـ كان حريّ بالناس بكل تأكيد أن يعودوا إلى استقبالنا بأذرع مفتوحة، قبلات، معانقات، أفراح كانت ستوجد، لقد عايشت شيئاً من هذا القبيل عدة مرات لدى آخرين. لكن ولا حتى مثل هذا الخبر كان من شأنه أن يكون ضرورياً؛ كان خليقاً أن يكفي لو أتينا بحرية وعرضنا إعادة العلاقات القديمة، دون أن نضيّع أيضاً مجرد كلمة عن قصة الرسالة، بسرور كان من شأنهم أن يستغنوا عن مناقشة المسألة، إلى جانب الخوف، كان قبل كل شيء الحرج من المسألة هو السبب في انفضاض الناس عنا، ببساطة لكي لا يسمع المرء شيئاً عن المسألة، ولا يتحدث عنها، ولا يفكر فيها، ولا يضطر إلى أن يُمسّ منها بأية طريقة. إذا كانت فريدا قد باحت بالمسألة، فهي لم تفعل ذلك كي تُسرّ بها، بل كي تقي نفسها والجميع منها، كي تلفت انتباه الجماعة إلى أنّه قد حدث شيء هنا يتعيّن على المرء أن يبتعد عنه بأكبر عناية وإتقان. ليس نحن دخلنا هنا في الاعتبار بصفتنا أسرة، بل المسألة وحدها ونحن فقط بسبب المسألة، التي كنا قد تداخلنا بها. لو كنا إذاً فقط خرجنا ثانية، تركنا الماضي يذهب إلى غير رجعة، أظهرنا بتصرفنا أننا إنما تجاوزنا المسألة، سيّان بأية طريقة،

واقتنع الرأي العام بأن المسألة، مهما كانت طبيعتها أيضاً، لن تعود إلى النقاش مرة أخرى، هكذا كذلك كان كل شيء خليقاً أن يكون على ما يرام، في كل مكان كنا عثرنا على الاستعداد القديم للمساعدة، حتى لو كنا لم ننس المسألة إلا على نحو غير كامل، كان من شأن الناس أن يفهموا الأمر وأن يساعدونا على نسيانه كلياً. لكن بدلاً من ذلك فقد جلسنا في البيت. لا أدري علامَ كنا ننتظر، على قرار أماليا ولا ريب، كانت آنذاك في ذلك الصباح قد استحوذت على قيادة الأسرة وتمسكت بها. دون ترتيبات خاصة، دون أوامر، دون رجاءات، بالصمت وحده تقريباً. نحن الآخرون كان لدينا طبعاً الكثير للتباحث، كان همساً متواصلاً من الصباح حتى المساء وأحيانا كان الوالد يناديني إليه في انزعاج مفاجئ فأقضي نصف الليل إلى جانب الفراش. أو كنا نقعد أحياناً معاً، أنا وبرناباس، الذي لم يفهم في البداية سوى قليلاً جداً من المجموع وراح على الدوام يطلب إيضاحات بشدة وحرارة، دائماً الإيضاحات نفسها، كان يعرف ولا ريب أن السنوات الخالية من الهموم، التي ينتظرها آخرون في سنّه، لم تعد موجودة بالنسبة له، هكذا كنا نجلس معاً متماثلين كلياً، ك.، كما نحن الآن اثنان، وننسى أن الليل قد حلّ والصباح مرة أخرى. كانت الوالدة الأكثر ضعفاً بيننا جميعاً، وذلك لأنها لم تشارك في المعاناة المشتركة وحدها، بل أيضاً في كل معاناة مفردة، وهكذا كان في مقدورنا أن نلاحظ بذعر تغييرات عليها كانت، كما كنا نحدس، تنتظر أسرتنا بكاملها. كان مكانها المفضّل هو ركن أريكة لم تعد لدينا منذ مدة طويلة، إنها في حجرة برونسفيك الكبيرة، هناك كانت تجلس وتغفو ـ لم نكن ندري بالدقة ماذا كان الحال ـ أو تجري أحاديث مع نفسها، كما كانت الشفتان المتحركتان تبدوان أنهما تلمحان. كان الحال طبيعياً هكذا، أننا كنا على الدوام نستعرض حكاية الرسالة، طولاً وعرضاً في كل تفاصيلها المؤكدة وكل إمكانياتها غير المؤكدة، وأننا كنا على الدوام يتفوق بعضنا على بعض في ابتداع وسائل لحل وجيه، كان الحال طبيعياً ولا مفر منه، لكنه لم يكن حسناً، فبذلك كنا حقاً ندخل على نحو أكثر عمقاً في الشيء الذي كنا نبغي أن نهرب منه. وماذا كانت تساعد إذاً هذه الخواطر الممتازة، ما من واحدة منها كانت قابلة للتنفيذ بدون أماليا، كان كل شيء مجرد مشاورات أولية، بلا جدوى لأن نتائجها لم تكن تصل إلى أماليا أبداً ولو كانت قد وصلت لما كانت قد لاقت شيئاً آخر غير الصمت. حسناً، لحسن الحظ أفهم أماليا اليوم أفضل مما كنت أفهمها آنذاك. لقد احتملت أكثر مما احتملنا جميعنا، إنه من غير المفهوم كيف احتملت الأمر وما فتئت تعيش بيننا اليوم. كانت الأم تحتمل ربما معاناتنا كلها، احتملت الأمر لأنه دهمها ولم تحتمله طويلاً؛ لا يمكن القول إنها ما فتئت اليوم تحتمله بطريقة ما ومنذ ذلك الحين كان عقلها قد أصيب باضطراب. أما أماليا فإنها لم تحتمل المعاناة وحسب، بل كان لها أيضاً العقل اللازم لسبر غور هذه المكابدة، كنا نرى النتائج وحدها، هي كانت ترى القاع، كنا نأمل بأية

وسائل صغيرة، هي كانت تعرف أن كل شيء كان قد حُسم، كان علينا أن نهمس، كان عليها أن تصمت وحسب، كانت تقف وجهاً لوجه مع الحقيقة وتعيش وتحتمل هذه الحياة آنذاك كما اليوم. كانت أحوالنا في كل معاناتنا أفضل من أحوالها. كان يتعيّن علينا طبعاً أن نهجر بيتنا، برونسفيك انتقل إليه، خصص المرء لنا هذه التخشيبية، بعربة يد نقلنا ما نملكه إلى هنا في بضع نقلات، كنا، برناباس وأنا، نجرّ العربة، وكان الوالد وأماليا يساعدان من الخلف، الوالدة التي كنا قد أحضرناها إلى هنا منذ البداية، استقبلتنا، وهي تجلس على صندوق، دائماً بولولة خفيفة. غير أنني أتذكر أننا حتى أثناء النقلات الشاقة ـ التي كانت أيضاً مخجلة للغاية، إذ كثيراً ما التقينا عربات نقل المحاصيل، كان مرافقوها يتوقفون عن الكلام أمامنا ويشيحون عنا بأبصارهم ـ أننا، برناباس وأنا، لم نكن نستطيع أن نكفّ عن الحديث عن همومنا وخططنا، أننا كنا نتوقف أحياناً أثناء الحديث وفقط كلمة هالو من الوالد كانت تذكرنا مرة أخرى بواجبنا. غير أن كل المحادثات لم تغيّر حياتنا حتى بعد الانتقال، فقط أننا أصبحنا الآن نحس الفقر شيئاً فشيئاً. معونات الأقارب توقفت، نقودنا كادت تنفد وبالذات في ذلك الوقت بدأ الاحتقار بالنسبة لنا، كما تعرفه، يتطور. لقد لاحظ المرء أننا لم نكن نملك القوة للتخلص من قصة الرسالة وغضب علينا كل الغضب، لم يستهن المرء بصعوبة قدرنا، مع أن المرء لم يكن يعرف هذا القدر بالدقة، كان المرء قميناً، لو كنا تغلبنا على الموضوع، أن يبجّلنا على نحو مناسب، لكن إذ إننا لم نفلح في ذلك، فقد فعل المرء نهائياً ما كان قد فعله حتى الآن مؤقتاً فقط، نبذنا من كل دائرة، كان المرء يعلم أنه ما كان من شأنه نفسه على الأرجح أن يجتاز التجربة بأفضل مما فعلنا، غير أن هذا زاد ضرورة الانفصال عنا انفصالاً تامّاً. الآن لم يعد المرء يتحدث عنا كما يتحدث عن بشر، اسم أسرتنا لم يعد يُذكر؛ عندما كان المرء يضطر للحديث عنا، كان يطلق علينا اسم برناباس، الأكثر براءة بيننا؛ حتى تخشيبتنا ساءت سمعتها وإذا فحصت نفسك سوف تعترف أنك أنت أيضاً لدى الدخول الأول ظننتَ أنك تلاحظ شرعية هذا الاحتقار؛ لاحقاً عندما عاد الناس يأتون إلينا أحياناً، كانوا يتأففون من أشياء تافهة كلياً، مثلاً من أن مصباح الغاز الصغير معلق هناك فوق الطاولة. أين يجب أن يعلق إذاً بطريقة أخرى غير فوق الطاولة، أما بالنسبة لهم فقد كان الأمر يبدو أنه لا يطاق. لكن لو كنا علقنا المصباح في مكان آخر، فإن نفورهم ما كان ليتغير في شيء. كل ما كنّاه وما كان لدينا تلقى الاحتقار نفسه.»

١٩

دروب التماسات

«وماذا فعلنا في هذه الغضون؟ الأسوأ مما كان في مقدورنا أن نفعله، ما كان من شأنه أن يجلب علينا احتقاراً أكثر عدالة من الاحتقار نتيجة لما حدث فعلاً ـ وشينا بأماليا، انتزعنا أنفسنا من أمرها الصامت، لم نعد نقدر على أن نستمر في الحياة هكذا، بلا أمل بتاتاً لم نستطع أن نعيش وشرعنا، كل بطريقته، نرجو القلعة أو ننهال عليها، علّها تصفح عنا. صحيح أننا كنا نعلم أننا لا نستطيع أن نصلح شيئاً، كذلك كنا نعلم أن الصلة الوحيدة المأمول فيها، التي كانت لنا مع القلعة، العلاقة بسورتيني، الموظف الذي يميل إلى والدنا، باتت لا سبيل إليها بالنسبة لنا نتيجة الأحداث طبعاً، مع ذلك شرعنا في العمل. الوالد بدأ، بدأت دروب الالتماسات عديمة الجدوى إلى العمدة، إلى السكرتيرين، المحامين، الكتبة، غالباً لم يكن يُستقبل، وإذا ما استقبل ذات مرة بخدعة أو مصادفة، ـ كم كنا نهلل لدى مثل هذا الخبر ونفرك الأيدي ـ كان يُردّ بأقصى سرعة ولا يُستقبل ثانية قط. كما كان من السهل جداً أن يُردّ عليه، الأمر سهل على القلعة دائماً. ماذا يريد إذاً؟ ماذا حدث له؟ عمّ كان يطلب صفحاً؟ متى وممن إذاً في القلعة عُمل أيضاً أي شيء ضده؟ يقيناً كان قد افتقر، خسر الزبائن وهلمّ جرّا، لكن هذه كانت ظواهر الحياة اليومية، مسائل الحرفة والسوق، هل يجب على القلعة أن تهتمّ بكل شيء؟ إنها لتهتمّ حقاً في الواقع بكل شيء، غير أنها لا تستطيع أن تتدخل في التطور بعنف، ببساطة ولا لغرض آخر إلا لخدمة مصالح رجل بمفرده. هل عليها مثلاً أن تبعث موظفيها وعلى هؤلاء أن يجروا وراء زبائن الوالد ويعيدونهم إليه عنوة؟ لكن، اعترض الوالد من ثم ـ كنا قبل ذلك في البيت نتبادل وجهات النظر في هذه الأمور كلها وبعد ذلك، ونحن نتكوّر في أحد الأركان، وكأننا نختبئ عن أماليا، التي صحيح أنها كانت تلاحظ، لكن تترك الأمر يحدث ـ لكن، اعترض الوالد من ثم، أنه لا يشكو بسبب الافتقار، كل ما خسره هنا، يريد أن يعوّضه ثانية، كل هو شيء ثانوي، إذا ما صُفح عنه وحسب. لكن عما يجب الصفح

عنه، رُدّ عليه، حتى الآن لم يصل أي تبليغ، على الأقل لا يوجد في المحاضر، على الأقل في المحاضر المفتوحة للمحامين، من ثم، بقدر ما يمكن التثبت منه، لم يُتخذ أي إجراء ضده، كما أنه ما من شيء قادم. هل يمكنه ربما أن يسمّي أمراً إدارياً رسمياً صدر بحقه؟ هذا ما لم يمكن للوالد أن يقدمه. أم هل حدث تدخل من قبل هيئة رسمية؟ الوالد لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك. حسناً إذاً إذا كان لا يعرف شيئاً وإذا لم يكن شيء قد حدث، ماذا يريد إذاً؟ ماذا يمكن أن يُصفح عنه؟ على الأكثر أنه الآن إنما يضايق الدوائر الرسمية بلا جدوى، لكن هذا بالذات هو أمر لا يُغتفر. الوالد لم يتراجع، كان آنذاك ما زال قوياً وحياة البطالة المفروضة كانت تعطيه وقتاً وفيراً. 'سوف أستعيد الشرف لأماليا، لن يستغرق الأمر طويلاً بعد'، كان يقول لبرناباس ولي عدة مرات أثناء اليوم، لكن فقط بصوت منخفض جداً، إذ لم يكن يجوز أن تسمع أماليا ذلك؛ مع أنه لم يُقل إلا بسبب أماليا، إذ إن الوالد في الحقيقة لم يكن يفكر أبداً في استعادة الشرف، بل في الغفران وحسب. لكن للحصول على غفران، كان لا بدّ له من التثبت من الذنب، وهذا أنكر عليه في الدوائر الرسمية. وقع على فكرة ـ وهذا أظهر أنه كان قد وهن عقلياً ـ أن المرء يخفي عنه الذنب لأنه لا يدفع على نحو كاف؛ إذ إنه كان حتى الآن لا يدفع إلا الرسوم المحددة، والتي كانت على الأقل بالنسبة لظروفنا عالية بما فيه الكفاية. بيد أنه كان يعتقد الآن أن عليه أن يدفع أكثر، الأمر الذي هو بالتأكيد غير صحيح. إذ في دوائرنا صحيح يقبل المرء رشوات بداعي البساطة، من أجل تجنب كلام غير ضروري، لكن لقاء هذا لا ينال المرء أي شيء. أما إذا كان هذا أمل الوالد، فإننا لم نشأ أن نزعجه في ذلك. بعنا ما كنا نزال نملكه ـ كان تقريباً فقط مما لا يستغنى عنه ـ لتأمين نقود للوالد من أجل تحرياته وخلال مدة طويلة كان لدينا كل صباح القناعة أن الوالد عندما كان يتخذ طريقه صباحاً كان يستطيع دائماً أن يخشخش بالنقود في جيبه على الأقل بيضع قطع معدنية. نحن طبعاً كنا نجوع طوال اليوم، في حين أن الأمر الوحيد الذي نستطيع أن نفعله بتأمين النقود، كان أنه حوفظ على الوالد في ابتهاج بالأمل. لكن هذا لم يكد يكون ميزة. راح يتعب نفسه في دروبه وما كان من شأنه بدون المال أن يأخذ نهايته المستحقة، امتد أمده. لأنه لم يكن في مقدور المرء أن ينجز في الحقيقة شيئاً لقاء المدفوعات الكبيرة، كان أحد الكتبة يحاول أحياناً أن ينجز شيئاً ما على الأقل ظاهرياً، كان يعد بإجراء تحريات، يلمح إلى أن المرء كان قد عثر على بعض الآثار، التي سيتابعها ليس تأدية لواجب، بل محبة بالوالد وحسب، ـ بدلاً من أن يزداد الوالد شكاً، بات دائماً أكثر إيماناً. كان يعود بمثل هذا الوعد عديم الجدوى بشكل واضح، وكأنه يجلب إلى البيت ثانية البركة التامة وكان من الموجع أن نرى كيف كان دائماً من وراء ظهر أماليا بابتسامة متقلصة وعينين مفتوحتين على سعتهما مشيراً إلى أماليا يريد أن يلمح لنا كيف أن إنقاذ أماليا، الذي لن يفاجئ أحداً بعد الآن سوى نفسها، أصبح وشيك الوقوع قريباً جداً

نتيجة مساعيه، لكن كل شيء ما زال سراً وعلينا أن نحافظ عليه بشدة. وكان من شأن ذلك يقيناً أن يستمر طويلاً جداً لو لم نصبح أخيراً غير قادرين أبداً على الاستمرار في تقديم المال للوالد. صحيح كان برناباس في هذه الغضون قد قبله برونسفيك مساعداً له بعد رجاءات كثيرة، لكن فقط بطريقة أن يُحضر المهمات مساء في العتمة ويعيد العمل مرة أخرى في العتمة - يجب الاعتراف أن برونسفيك كان يتحمل هنا قدراً من الخطر على محله بسببنا، لكنه لقاء ذلك كان يدفع قليلاً جداً لبرناباس وعمل برناباس خال من الأخطاء، بيد أن الأجر كان يكفي بشحّ وحسب كي يدفع عنا غائلة الجوع. بعناية كبيرة وبعد كثير من الاستعدادات أعلنّا للوالد توقف دعمنا الماليّ، غير أنه استقبل الأمر بكل هدوء. بالعقل لم يعد قادراً على إدراك انعدام الأمل في تدخلاته، لكنه بالتأكيد كان قد تعب من خيبات الأمل المتواصلة. صحيح أنه قال - لم يعد يتحدث بوضوح كما كان يتحدث في السابق، كان يتحدث بوضوح أكثر من اللازم تقريباً - إنه لم يعد يحتاج إلا إلى قليل من المال، غداً أو حتى اليوم سيعلم كل شيء والآن بات كل شيء بلا جدوى، فقط بسبب المال فشل الأمر وهلمّ جرّا، لكن النبرة التي تكلم بها كانت تدل على أنه لم يكن يصدق كل هذا. كما أنه كانت لديه، فجأة وبلا تمهيد، خطط جديدة. لأنه لم يفلح في إثبات الذنب ولم يستطع من ثم تحقيق شيء حتى بالطريق الرسمي، فقد تعيّن عليه أن ينتقل إلى الالتماسات ليس إلا ويرجو الموظفين شخصياً. كان بينهم بالتأكيد أيضاً من يملك قلباً حنوناً، صحيح أنه لم يكن يجوز لهم الاستسلام له أثناء العمل الرسمي، لكن خارجه ولاريب، عندما يفاجئهم المرء في ساعة ملائمة.»

هنا قاطع ك.، الذي كان حتى الآن يصغي إلى أولغا باستغراق كامل، القصة بالسؤال: «وأنت لا تعتبرين هذا صحيحاً؟» حقاً كان لا بدّ لبقية القصة من أن تعطيه جواباً عن ذلك، غير أنه أراد أن يعرفه في الحال.

«لا»، قالت أولغا، «لا يمكن الحديث مطلقاً عن رثاء أو شيء من هذا القبيل. مهما كنا صغار السن وبلا خبرة أيضاً، فإننا كنا نعرف الأمر وكذلك الوالد كان يعرفه طبعاً، لكنه كان قد نسي ذلك، هذا كما معظم الأمور. كان قد رتّب الخطة بأن يرابط بالقرب من القلعة على الطريق الزراعي، حيث تمرّ عربات الموظفين ويرفع طلبه للصفح إذا أمكن ذلك على وجه من الوجوه. بصراحة، إنها خطة بلا أي عقل، حتى لو حدث المستحيل ووصل الإلتماس حقاً حتى أذن أحد الموظفين. هل يستطيع إذاً موظف أن يصفح بمفرده؟ لا ريب أن الموضوع هو على أقصى تقدير شأن الدائرة بكاملها، لكن حتى هذه لا تستطيع على الأرجح أن تصفح، بل أن تحكم وحسب. لكن هل يقدر إذاً أصلاً موظف، حتى لو أراد أن ينزل من العربة ويشغل نفسه بالمسألة، بناء على ما يغمغم أمامه الوالد، المسكين، المتعب، الذي شاخ، أن يكوّن لنفسه

صورة عن هذه المسألة؟ إن الموظفين ذوو ثقافة عالية، لكن من جانب واحد وحسب، في مجال اختصاصه يكشف موظف على الفور لمجرد كلمة سلسلة أفكار كاملة، لكن أشياء من قسم آخر يمكن للمرء أن يشرحها له طوال ساعات، ربما سوف يهز رأسه بأدب، لكنه لن يفهم كلمة. كل هذا هو حقاً أمر بديهي، يبحث المرء عن المسائل الرسمية الصغيرة وحسب، التي تخصه نفسه، شيء ضئيل، ينجزه موظف بهزة كتف، يحاول المرء أن يفهم هذا وحده على حقيقته وسيكون لديه طوال الحياة ما يعمله ولا يصل إلى نهاية. لكن لو كان الوالد وقع على موظف مختص، فإن هذا لا يستطيع أن ينجز شيئاً بدون ملفات أولية وخاصة ليس على الطريق الزراعي، لا يستطيع طبعاً أن يصفح، بل فقط ينجز رسمياً ولهذا الغرض يشير مرة أخرى وحسب إلى الطريق الرسمي، لكن الوالد كان قد أخفق كل الإخفاق في تحقيق شيء عن هذا الطريق. إلى أي مدى كان لا بدّ للوالد أن يكون قد وصل، حتى أراد أن يصل على نحو من الأنحاء بهذه الخطة الجديدة. لو كانت توجد أية إمكانية من هذا القبيل ولو في أبعد حال، لكان لا بدّ للطريق الزراعي من أن يكتظّ بمقدمي الالتماسات، لكن إذ إن الموضوع هنا يدور حول استحالة، هذه الاستحالة التي يرسّخها التعليم المدرسي الأولي، فإن الطريق هنا كان خاوياً كلياً. ربما كان هذا أيضاً قد قوّى الوالد في أمله، كان يغذّيه من كل حدب وصوب. كان الأمر هنا أيضاً ضرورياً جداً، عقل سليم ليس عليه مطلقاً أن يخوض في تلك التأملات الكبيرة، عليه أن يتبيّن الاستحالة بوضوح في أبسط الأمور. عندما يسافر الموظفون إلى القرية أو يعودون إلى القلعة، فإن هذه السفرات ليست سفرات متعة، في القرية والقلعة ينتظرهم عمل، لذا فإنهم يسافرون بأقصى سرعة. كما أنه لا يخطر ببالهم أن ينظروا من نافذة العربة ويبحثوا في الخارج عن مقدمي التماسات، بل إن العربات مليئة بالملفات، التي يدرسها الموظفون.»

«لكنني»، قال ك.، «رأيت باطن زحافة موظفين، الذي لم يكن يحوي ملفات.» في قصة أولغا فُتح له عالم كبير يكاد يكون غير جدير بالتصديق، بحيث أن ك. لم يستطع أن يأبى على نفسه أن يمسّه بتجربته الصغيرة، وذلك كي يقنع نفسه بوضوح أكثر بوجود هذا العالم كما بوجوده الخاص به.

«هذا ممكن»، قالت أولغا، «لكن يكون الحال من ثم أكثر سوءاً، من ثم يكون لدى الموظف مسائل هامة هكذا، بحيث أن الملفات تكون ثمينة أكثر من المألوف أو ذات حجم أكبر من أن يمكن أخذها معه، أمثال هؤلاء الموظفين يدعون العربة من ثم تسافر بسرعة بالغة. على كل حال، من أجل الوالد لا يمكن أن يبقى وقت. ومع ذلك: يوجد عدة طرق سفر إلى القلعة. مرة يكون أحد الطرق موضة، فيسافر معظمهم هناك، ومرة يكون طريق آخر، فيزدحم هناك كل شيء. طبقاً لأية قواعد يحدث هذا التناوب، هو أمر لم يجر اكتشافه بعد. مرة في الساعة

الثامنة صباحاً يسافر الجميع على أحد الطرق، بعد نصف ساعة يسافر الجميع من جديد على طريق آخر، بعد عشر دقائق مرة أخرى على ثالث، بعد نصف ساعة ربما من جديد على الأول وهناك يظل الحال من ثم طوال اليوم، لكن في كل لحظة توجد إمكانية تغيير. صحيح، بالقرب من القرية تتلاقى كل الطرق، لكن هناك تسرع كل العربات، في حين تكون السرعة في جوار القلعة ما تزال أكثر اعتدالاً بعض الشيء. لكن كما هو نظام الخروج بخصوص الطرق غير منتظم ولا يمكن سبر غوره، هكذا هو الحال أيضاً مع عدد العربات. كثيراً ما يوجد أيام لا ترى فيها عربة قط، لكنها تسافر من ثم مرة أخرى في مجموعات. وإزاء كل هذا تصوّر أنت الآن والدنا. ببدلته الفضلى، عما قريب بدلته الوحيدة، يخرج من البيت ترافقه دعواتنا. شعار إطفائية صغير كان قد احتفظ به في الواقع بغير حق، يأخذه معه، كي يتقلده خارج القرية، في القرية نفسها يخشى من إظهاره، مع أنه صغير جداً لدرجة أنه لا يكاد يُرى على بُعد خطوتين، لكنه حسب رأي الوالد يصلح لأن يلفت إليه انتباه الموظفين الذين يعبرون به. ليس بعيداً من مدخل القلعة ثمة مشتل تجاري يخص شخصاً يدعى برتوخ، يمدّ القلعة بخضراوات، هناك على القاعدة الحجرية الضيقة لسور الحديقة الحديدي اختار الوالد مكاناً له. برتوخ احتمل الأمر لأنه كان سابقاً صديقاً للوالد وكذلك لأنه كان من زبائنه الأكثر إخلاصاً؛ إذ إنه كان لديه قدم فيها بعض الكساح وكان يظن أن الوالد وحده قادر على صنع حذاء ملائم. هناك طفق الوالد يجلس يوماً تلو يوم، كان الوقت خريفاً معكراً ماطراً، لكن الطقس كان سيّان كلياً لديه، كان صباحاً في ساعة معينة يمسك مقبض الباب ويلوّح لنا بيده مودّعاً، في المساء كان يعود، كان يبدو وكأنه يصبح كل يوم أكثر انحناء، وهو مبلل بالكامل، ويلقي نفسه في أحد الأركان. في بادئ الأمر كان يحدثنا عن تجاربه الصغيرة، مثلاً أن برتوخ شفقة ولصداقة قديمة قد ألقى له بطانية من فوق السور، أو أنه اعتقد أنه رأى في العربة المارّة هذا الموظف أو ذاك، أو أن حوذياً كان أحياناً يتعرفه ويلمسه مازحاً بحزام السوط لمسة خفيفة. في ما بعد كفّ عن رواية هذه الأشياء، على ما يبدو لم يعد يأمل ببلوغ حتى أي شيء هناك، كان يعتبر الأمر واجبه وحسب، مهنته الجديدة، أن يذهب ويمضي اليوم هناك. آنذاك بدأت آلام الروماتيزم لديه، كان الشتاء يقترب، وتساقط الثلج قبل أوانه، عندنا يبدأ الشتاء مبكراً جداً، وهكذا كان يجلس هناك مرة على الأحجار المبللة بالمطر، ومرة أخرى في الثلج. في الليل كان يتأوه ألماً، في الصباح كان أحياناً غير واثق أكان عليه أن يذهب، لكنه من ثم كان يحمل نفسه على ما تكره ويذهب. كانت الوالدة متعلقة به وأرادت أن لا تدعه يذهب، هو، على الأرجح بات يتخوف لأن أطرافه لم تعد مطيعة، سمح للوالدة أن تذهب معه، هكذا استحوذت الآلام على الوالدة أيضاً. كنا كثيراً ما نذهب إليهما، نحضر لهما طعاماً، أو نزورهما وحسب، أو نحاول إقناعهما بالعودة إلى البيت، ما أكثر ما كنا نجدهما هناك يستند أحدهما إلى الآخر وقد تراخى جسداهما على المقعد الضيق، وتكورا في بطانية خفيفة لا تكاد تطوقهما، وحولهما لا شيء

سوى رمادية الثلج والضباب، ما من إنسان أو عربة لا عن قرب ولا عن بعد، أي منظر، ك..، أي منظر! حتى ذات صباح لم يستطع الوالد فيه أن يُخرج ساقيه المتصلبتين من الفراش؛ كان يائساً، في هذيان حمّى خفيف اعتقد أنه يرى كيف توقفت في هذه اللحظة فوق عند برتوخ عربة، نزل منها موظف، راح يبحث عن الوالد على طول السور الحديدي، ومن ثم عاد إلى العربة وهو يهز رأسه متضايقاً. أثناء ذلك طفق الوالد يطلق مثل هذه الصرخات وكأنه يبغي من هنا أن يلفت نظر الموظف فوق إليه ويشرح له كيف أنه لا ذنب له في غيابه. وبات غياباً طويلاً، فلم يعد قط إلى هناك بعد الآن، واضطر إلى ملازمة الفراش طوال أسابيع. اضطلعت أماليا بالخدمة، الرعاية، العلاج، كل شيء، ومع فترات استراحة حافظت على ذلك في الحقيقة حتى اليوم. إنها تعرف أعشاب طبية تهدئ الآلام، لا تكاد تحتاج إلى نوم، لا تصاب بذعر قط، لا تخاف شيئاً، لا تعرف نفاد صبر أبداً، كانت تنجز كل الأعمال للوالدين؛ لكن في ما كنا نحوم هنا وهناك في جزع دون أن نتمكن من المساعدة في شيء، كانت تظل باردة وهادئة. لكن إذ مرّ الأكثر سوءاً وغدا في مقدور الوالد، بحذر ومسنوداً يميناً ويساراً، أن يخرج نفسه ثانية من الفراش، انسحبت أماليا في الحال وتركته لنا.»

٢٠

خطط أولغا

«الآن يجب إيجاد انشغال ما من جديد للوالد، انشغال ما زال قادراً على ممارسته، شيء ما يحافظ عليه على الأقل في الاعتقاد أنه إنما يخدم درء الذنب عن الأسرة. إيجاد شيء من هذا القبيل لم يكن عسيراً، كل شيء في الحقيقة كان مفيداً مثل الجلوس أمام حديقة برتوخ، غير أنني وجدت شيئاً أعطاني حتى بعض الأمل. متى كان الحديث دائماً في المكاتب أو لدى الكتبة أو في أي مكان آخر عن ذنبنا، كان مراراً وتكراراً لا يُذكر إلا إهانة ساعي سورتيني، أبعد من ذلك لم يجرؤ أحد أن يبلغ. الآن، قلت لنفسي، إذا كان الرأي العام، وإن كان ذلك أيضاً ظاهرياً وحسب، لا يعرف إلا عن إهانة الساعي، فإنه بالإمكان، وإن كان الأمر مرة أخرى ظاهرياً وحسب، تدارك كل شيء من جديد، إذا استطاع المرء مصالحة الساعي. ما من تبليغ قد رفع، كما يصرح المرء، ما زال الموضوع إذاً ليس بيد أي دائرة، ويجوز للساعي أن يصفح عما مسّ شخصه، والموضوع لا يدور عن أكثر من ذلك. لم يكن في مقدور كل هذا أن يكون ذا أهمية حاسمة، كان مجرد مظهر ولا يمكن أن يتمخض عن شيء آخر، لكنه قمين أن يسرّ الوالد ولا ريب ومقدمي الأخبار الكثيرين، الذين كانوا قد عذبوه، بهذا قد يمكن للمرء تضييق الخناق عليهم بعض الشيء إرضاء له. أولاً لا بدّ طبعاً من العثور على الساعي. حين حدّثت الوالد عن خطتي، غضب أولاً غضباً شديداً، إذ إنه كان قد غدا متشبثاً برأيه إلى أقصى حد، جزئياً كان يعتقد، كان هذا قد تطور أثناء المرض، بأننا كنا دائماً نعيقه عن النجاح الأخير، أولاً من خلال إيقاف الدعم المالي، الآن من خلال إلزامه الفراش، جزئياً كان غير قادر أبداً بعد الآن على استيعاب أفكار غريبة على نحو كامل. كنت ما زلت لم أنته من روايتي حتى رُفضتْ خطتي، حسب رأيه كان يتعيّن عليه أن يستمر في الانتظار عند حديقة برتوخ، ولأنه يقيناً لم يعد قادراً على الصعود يومياً، فعلينا أن ننقله إلى هناك في عربة اليد. غير أنني لم أعدل وبالتدريج تصالح مع الفكرة، ولم يزعجه في ذلك سوى أنه كان في هذه المسألة تابعاً

لي كلياً، إذ إنني وحدي كنت آنذاك قد رأيت الساعي، هو لم يعرفه. طبعاً، خادم يشابه الآخر، وأنا أيضاً لم أكن على يقين تام بأنني خليقة أن أتعرف مرة أخرى ذلك الخادمَ. شرعنا من ثم نذهب إلى حانة السادة ونبحث هناك بين الخدم. صحيح كان ثمة خادم لسورتيني، وسورتيني لم يعد يأتي إلى القرية، لكن السادة يبدلون خدمهم مراراً، كان يمكن ولا ريب العثور عليه في مجموعة خدم سيد آخر وإذا لم يمكن العثور عليه نفسه، فقد يمكن الحصول على نبأ عنه من الخدم الآخرين. لكن من أجل هذا الغرض يجب على المرء أن يكون في حانة السادة كل مساء ولم يكن أحد في أي مكان يودّ رؤيتنا، فما بالك في مثل هذا المكان؟ كما إنه لم يكن في مقدورنا أن نظهر كزبائن دافعي حساب. لكن تبيّن أنه كان يمكن للمرء أن يحتاجنا؛ لا شك أنك تعرف أي بلوى كان الخدم بالنسبة لفريدا، في الحقيقة جلّهم ناس هادئون، الخدمة السهلة رفّهتهم وجعلتهم متثاقلين، هناك دعوة بركة لدى الموظفين تقول 'علّك تنعم بما ينعم به خادم' وفعلاً إن الخدم، في ما يخص حياة النعيم، هم السادة الحقيقيون في القلعة؛ كما أنهم يعرفون كيف يقدّرون هذا وهم في القلعة، حيث يتحركون تحت قوانينها، يتّسمون بالهدوء والوقار، مرات عديدة جرى تأكيد هذا لي والمرء يجد أيضاً هنا بين الخدم بقايا من ذلك، لكن فقط بقايا، خلاف ذلك تتبدل أحوالهم حيث لا تعود قوانين القلعة تسري عليهم كلياً في القرية؛ جماعة متوحشة، عنيدة، تسودها، بدلاً من القوانين، غرائزها التي لا تروى. قلة حيائها لا تعرف حدوداً، من حسن حظ القرية أنه لا يجوز لأفراد هذه الجماعة مغادرة حانة السادة إلا بناء على أمر، لكن في حانة السادة نفسها يجب على المرء أن يحاول تدبير أموره معهم؛ كان هذا صعباً للغاية على فريدا وهكذا رحّبت ترحيباً كبيراً بأنها تمكنت من استخدامي في تهدئة الخدم، منذ أكثر من عامين أمضي الليل مع الخدم في الحظيرة مرتين في الأسبوع على الأقل. سابقاً عندما كان ما زال في مقدور الوالد أن يذهب معي إلى حانة السادة، كان ينام في مكان ما في المشرب وينتظر هكذا الأخبار التي كان حريّ بي أن أجلبها باكراً. كان ذلك قليلاً. ما زلنا حتى اليوم لم نعثر على الساعي الذي نبحث عنه، يقال إنه ما زال في خدمة سورتيني، الذي يقدّره تقديراً عالياً، ويقال إنه تبعه إذ انسحب سورتيني إلى مكاتب أكثر بعداً. في الغالب لا يراه الخدم مدة طويلة مثلنا، وعندما يدّعي أحدهم أنه رآه في هذه الأثناء، فإن ذلك يكون غير صحيح. هكذا تكون خطتي قد فشلت في الحقيقة لكنها لم تفشل كلياً، صحيح أننا لم نعثر على الساعي والدروب إلى حانة السادة والنوم هناك، ربما حتى شفقة الوالد بي، بقدر ما زال قادراً عليها، أجهزت للأسف على البقية الباقية منه وهو منذ عامين تقريباً في هذه الحالة التي رأيته فيها، وفي ذلك قد تكون أحواله ما زالت أفضل من أحوال الوالدة، التي ننتظر نهايتها كل يوم والتي تتأخر فقط بفضل جهد أماليا الجبّار. لكن ما حققته في حانة السادة هو صلة ما مع القلعة؛ لا تزدريني عندما أقول إنني لست نادمة على ما

فعلته. ما قد يكون هذا من صلة كبيرة مع القلعة، ربما يخطر ببالك. وأنت على حق، أنها ليست صلة كبيرة. أعرف الآن بالتأكيد خدماً كثيرين، خدم كل السادة تقريباً، الذين أتوا إلى القرية في الأعوام الأخيرة وإذا ما أتيح لي ذات مرة أن أذهب إلى القلعة، فلن أكون هناك غريبة. طبعاً هم خدم في القرية فقط، في القلعة هم شيء آخر كلياً وعلى الأرجح لا يعودون هناك يتعرفون أحداً وخاصة جداً أحد تعاملوا معه في القرية ولو كانوا في الحظيرة قد أقسموا مئة مرة بأن لقاء في القلعة سوف يسرّهم كل السرور. لقد خبرت أيضاً قلة ما تعنيه كل أمثال هذه الوعود. لكن هذا ليس هو الأكثر أهمية أبداً. لديّ صلة بالقلعة ليس من خلال الخدم أنفسهم، بل ربما وآمل أيضاً أن الحال ما زال هكذا، أن أحدهم من فوق يراقبني ويراقب ما أفعل - وإدارة مجموعة الخدم الكبيرة هي طبعاً قسم في غاية الأهمية وكثيرة الاهتمام من أقسام العمل الرسمي - أن ذلك الذي يراقبني قد يصل إلى حكم مخفف عني أكثر من الآخرين، أنه قد يتبيّن أنني إنما أكافح، طبعاً بطريقة بائسة، من أجل أسرتي أيضاً وأواصل جهود الوالد. عندما يرى المرء الأمر هكذا، فإنه قد يعذرني من ثم أيضاً أنني أقبل مالاً من الخدم وأنفقه على أسرتنا. كما أنني توصلت إلى شيء آخر، لكن أنت أيضاً تضيف هذا إلى ذنبي. لقد علمت من الخدم بعض الأمور عن كيف يمكن للمرء أن يدخل إلى خدمة القلعة بطرق التفافية ودون الخضوع لإجراءات القبول العامة الصعبة والتي تستمر طوال سنوات، طبعاً لا يكون المرء من ثم مستخدماً رسمياً، بل فقط سرياً وحائزاً على نصف ترخيص، لا حقوق له ولا واجبات عليه، الأسوأ هو أنه لا واجبات عليه، لكنه يملك شيئاً واحداً، ذلك أن المرء يكون بالقرب من كل شيء، فإنه يستطيع أن يتبيّن فرصاً مناسبة ويستخدمها، لا يكون المرء مستخدماً، لكن عن طريق المصادفة يمكن أن يوجد عمل ما، مستخدم ما ليس تحت اليد في هذه اللحظة، نداء، يهرع المرء قادماً، وما لم يكنه المرء قبل لحظة، يصبحه، يصبح المرء مستخدماً. لكن متى توجد مثل هذه الفرصة؟ أحياناً على الفور، ما يكاد المرء يحلّ، ما يكاد يقلّب بصره فيما حوله، تكون الفرصة هنا، حتى إنه لا يتمتع كل امرئ بحضور الذهن لإدراكها على الفور بصفته مبتدئاً، لكن في مرة أخرى يستغرق الأمر سنوات أكثر مما تستغرق إجراءات القبول العامة، ومثل هذا المرخّص له نصف ترخيص لا يعود يستطيع أن يصبح مستخدماً بمعنى الكلمة. هنا إذاً ما يكفي من الشكوك؛ لكنهم في هذه الحال يكتمون أنه لدى القبول العام يجري الاختيار بدقة فائقة وأن عضواً في أسرة ذات سمعة سيئة على نحو أو آخر يكون مرفوضاً منذ البداية، شخص مثل هذا يخضع مثلاً لهذا الإجراء، يظل يرتعد طوال سنوات انتظاراً للنتيجة، من جميع الأطراف يسأله المرء مندهشاً منذ اليوم الأول كيف استطاع أن يقدم على شيء من هذا القبيل لا أمل فيه، أما هو فإنه يأمل، كيف يمكنه فيما عدا ذلك أن يعيش، لكن بعد سنوات عديدة، ربما كرجل هرم يعلم الرفض، يعلم أن كل شيء قد ضاع

وأن حياته كانت بلا جدوى. هنا كذلك يوجد طبعاً استثناءات، لهذا السبب يُغرى المرء بسهولة. يحدث أن بالذات أناساً بسمعة سيئة إنما يُقبلون في نهاية المطاف، يوجد موظفون يحبون رائحة مثل هذا الوحش ضد إرادتهم بمعنى الكلمة، لدى امتحانات القبول يتشممون في الهواء، يقلّصون الفم، يديرون الأعين، مثل هذا الرجل يبدو لهم إلى حد ما مثيراً للشهية على نحو هائل ويجب عليهم الالتزام بالقوانين التزاماً شديداً، كي يتمكنوا من مقاومة هذا. لكن ذلك أحياناً لا يساعد الرجل في القبول، بل لإطالة إجراءات القبول إطالة لانهائية، هذه الإجراءات التي لا تنتهي مطلقاً بل تتوقف بعد وفاة الرجل. هكذا إذاً إن القبول القانوني كما القبول الآخر مليء بصعوبات مكشوفة ومستترة وقبل أن يقدم المرء على مثل هذا الموضوع، فإن من الحكمة جداً التبصّر في الأمر بكل دقة. نحن لم نقصّر في ذلك، برناباس وأنا. دائماً كلما كنت أعود من حانة السادة، كنا نجلس معاً وأحدثه عن الجديد مما كنت علمته، وكنا نتناقش فيه طوال أيام وغالباً ما يتعطل العمل بين يديّ برناباس أطول مما هو حسن. وهنا يمكن أن يكون عليّ ذنب بالمعنى الذي تقصده. كنت أعرف أنه لا يوثق كثيراً بحكايات الخدم. كنت أعلم أنه لم يكن لديهم رغبة في يوم من الأيام أن يحكوا لي عن القلعة، كانوا دائماً يحوّلون الحديث إلى شيء آخر، يدعون كل كلمة تنال منهم بالتوسل، لكن طبعاً عندما كانت نفوسهم تتحرك، كانوا ينطلقون في الحديث، يثرثرون كلاماً فارغاً، يتباهون، يتفوق بعضهم على بعض بالمبالغات والاختلاقات، هكذا فإنه من الظاهر أن الصراخ اللانهائي الذي كان أحدهم يحلّ فيه محل الآخر هناك في الحظيرة المعتمة، يتضمن في أحسن الأحوال بعض التلميحات البسيطة للحقيقة. أما أنا فقد كنت أحكي لبرناباس كل شيء مرة أخرى، هكذا كما كنت قد لاحظته لنفسي وهو، الذي لم يكن يملك بعد قدرة على التمييز بين ما هو صادق وما هو كاذب وبناء على وضع أسرتنا كان يحترق ظمأ إلى هذه الأشياء، يتجرع كل شيء إلى باطنه ويتوهج حماسة للمزيد. وفعلاً على برناباس قامت خطتي الجديدة. لدى الخدم لم يعد بالإمكان بلوغ شيء آخر. ساعي سورتيني لا يُعثر عليه ولن يُعثر عليه أبداً، لقد بدا دائماً أكثر أن سورتيني ينسحب ومعه الساعي أيضاً، غالباً ما وقع مظهرهما واسمهما طيّ النسيان وكثيراً ما كان يجب عليّ أن أصفهما مطولاً، لكي لا أحقق شيئاً إلا أن المرء تذكرهما بجهد، لكن فوق ذلك دون أن يستطيع القول شيئاً آخر عنهما. وما كان يتعلق بحياتي مع الخدم، فما كان لي طبعاً تأثير على كيفية الحكم عليها، كنت آمل وحسب أن يأخذها المرء كما كانت وأن يساعد ذلك في تخفيف ذنب أسرتنا بعض الشيء، غير أنني لم أحصل على إشارة ظاهرية تدل على ذلك. مع هذا بقيت عليها، إذ إنني لم أر لنفسي إمكانية أخرى للحصول على شيء لنا في القلعة. لكنني كنت أرى مثل هذه الإمكانية لبرناباس. من حكايات الخدم استطعت أن أستقي، عندما كان يكون لديّ رغبة في ذلك، وهذه الرغبة

كانت لديّ في وفرة، أن من يُقبل في خدمة القلعة يستطيع أن يحقق لأسرته أموراً كثيرة. طبعاً، ماذا كان جديراً بالتصديق في هذه القصص؟ كان من المحال معرفة ذلك، كان من الواضح فقط أنه كان قليلاً جداً. إذ عندما كان خادم يعدني على سبيل المثال، خادم لن أراه أبداً مرة أخرى أو ليس من شأني أن أتعرفه فيما لو رأيته، يعدني على نحو مهيب بأن يساعد أخي في توظيفه في القلعة أو على الأقل أن يدعمه إذا جاء إلى القلعة بطريقة أخرى، أن ينعشه مثلاً، إذ حسب حكايات الخدم يحدث أن مرشحين لأعمال أثناء وقت الانتظار الطويل إنما يغشى عليهم أو تتبلبل أفكارهم ومن ثم يضيعون إذا لم يهتم بهم أصدقاء ـ عندما رويت لي أمثال هذه الحكايات وكثير غيرها، فإن هذا كان على الأرجح تحذيرات مبررة، لكن الوعود التابعة كانت خاوية كلياً. ليس لبرناباس، صحيح أنني حذّرته من تصديقها، لكن مجرد أنني رويتها له، كان كافياً كي أضمنه لخططي. ما ذكرته من أجل ذلك أثّر فيه أقل، فيه أثّرت بشكل رئيسي حكايات الخدم. وهكذا كنت في الحقيقة أعتمد على نفسي وحدي كل الاعتماد، مع الوالدين لم يكن في مقدور أحد أن يتفاهم إطلاقاً سوى أماليا، كلما تابعت خطط الوالد القديمة على طريقتي، اعتزلت أماليا عني أكثر، أمامك أو أمام آخرين تتحدث معي، عندما نكون وحدنا لا تتحدث معي بتاتاً، للخدم في حانة السادة كنت لعبة، كانوا يسعون وهم غاضبون لتحطيمها، لم أتحدث كلمة ودّيّة مع أحد منهم في غضون العامين، فقط ما هو سيئ النية أو كاذب أو جنوني، لم يبق لي إذاً إلا برناباس وبرناباس كان ما زال صغير السن. عندما كنت أرى لدى تقاريري البريق في عينيه، هذا البريق الذي حافظ عليه مذ ذاك، كنت أصاب بذعر ومع ذلك لم أتراجع، شيء كبير بدا لي مهدداً. طبعاً لم تكن لديّ خطط والدي الكبيرة ولو كانت خاوية أيضاً، لم أكن أتحلى بتصميم وحزم الرجال هذا، بقيت لدى تدارك إهانة الساعي حتى إنني كنت أرغب فوق ذلك أن يحسب لي المرء هذا التواضع صنيعاً جميلاً. لكن ما كنت قد أخفقت فيه وحدي، أردت الآن أن أحققه عبر برناباس على نحو آخر ومؤكد. كنا قد قمنا بإهانة ساع وطردناه من المكاتب الأمامية، ماذا كان أقرب من تقديم ساع جديد في شخص برناباس، ترك برناباس يقوم بعمل الساعي المهان وإتاحة إمكانية لهذا أن يظل هادئاً في البُعد مدة طويلة كما يشاء، المدة التي يحتاجها لنسيان الإهانة. طبعاً لاحظت جيداً أنه في كل تواضع هذه الخطة كان ثمة تطاول أيضاً، كان يمكنه أن يعطي انطباعاً بأننا نرغب في أن نملي على الدائرة كيف عليها ترتيب مسائل المستخدمين أو كأننا نشك في أنها قادرة من ذاتها على تنظيم الأمور على خير وجه وحتى كانت قد نظمتها منذ مدة طويلة، قبل أن نقع نحن حتى على فكرة أنه هنا يمكن فعل شيء ما. من ثم عدت أعتقد أنه من المحال أن تسيء الدائرة فهمي هكذا أو أنها، إذا ما قدّر لها أن تفعل ذلك، تفعله عمداً، هذا يعني أن كل ما أفعله مرفوض منذ البداية وبدون تعمّق في فحص الموضوع. هكذا لم

أتراجع وطموح برناباس فعل فعله. في زمن التحضيرات هذا غدا برناباس متكبراً لدرجة أنه بات يجد عمل الإسكافي عملاً حقيراً، هو مستخدم المكاتب المقبل، أجل حتى إنه أصبح يجرؤ على معارضة أماليا بل ومعارضة مبدئية، إذا ما قالت له كلمة، ونادراً ما كانت تفعل. وقد سلّمت له بسرور بهذه الفرحة القصيرة، إذ مع اليوم الأول الذي ذهب فيه إلى القلعة، ولّت الفرحة وولّى التكبر على الفور، كما كان من السهل توقعه. هنا بدأ ذلك العمل الظاهري، الذي حدثتك عنه. كان مثيراً للدهشة كيف دخل برناباس دون صعوبات إلى القلعة، أو على نحو أصح إلى ذلك المكتب الذي أصبح في حكم مكان عمله. هذا النجاح كاد يثير جنوني آنذاك، جريت، حين همس به برناباس لي عندما عاد مساء إلى البيت، إلى أماليا، مسكتها، ضغطتها في زاوية وقبّلتها بالشفاه والأسنان، لدرجة أنها انتحبت من الألم والفزع. من شدة الانفعال لم أتمكن من قول شيء، كما أننا لم نكن قد تحادثنا معاً منذ مدة طويلة، أجّلت الأمر إلى الأيام التالية. لكن في الأيام التالية طبعاً لم يعد يوجد شيء يقال. كما أن الحال ظل لدى ما تحقق بسرعة. طوال عامين عاش برناباس هذه الحياة الرتيبة المقبضة. الخدم ضنّوا عليه بكل معونة، أعطيت برناباس رسالة صغيرة أوصيت الخدم بالاهتمام به، وذكّرتهم في الوقت نفسه بوعودهم، وبرناباس كان كلما يشاهد خادماً، يخرج الرسالة ويريها له، وكذلك عندما كان يقع أحياناً على خدم لا يعرفونني، وحتى للمعروفين كانت طريقته أن يبرز الرسالة وهو صامت، إذ لم يكن يجرؤ على الكلام فوق، كان هذا أمراً مغيظاً، هكذا كان من المعيب أن ما من أحد ساعده وكان خلاصاً، الذي كان في مقدورنا طبعاً من ذاتنا ومنذ مدة طويلة أن نحققه، حين قام خادم، الذي قد يكون جرى التطفل عليه بالرسالة بضع مرات، بطويها وإلقائها في سلة مهملات. لقد خطر ببالي أنه كان بإمكانه أن يقول لدى ذلك تقريباً: 'على نحو مماثل اعتدتم أنتم أيضاً أن تعاملوا الرسائل'. لكن مهما كان كل هذا الوقت بلا نتيجة، فقد كان تأثيره حسناً على برناباس، إذا كان المرء يريد أن يسمّي الأمر حسناً، أنه تقدم في العمر قبل الأوان، أصبح رجلاً قبل الأوان، لا بل في بعض الأمور وقوراً وحكيماً متجاوزاً الرجولة. كثيراً ما يثير الحزن في نفسي أن أراه وأقارنه بالفتى الذي كانه قبل عامين. وأثناء ذلك ليس لديّ السلوى والسند اللذين من شأنه أن يمنحهما لي ربما وهو رجل. بدوني ما كان خليقاً أن يصل إلى القلعة، بيد أنه منذ أصبح هناك، غدا مستقلاً عني. إنني الشخص الوحيد موضع سرّه، غير أنه يقيناً لا يحكي لي سوى جزء صغير مما في نفسه. إنه يحكي لي كثيراً عن القلعة، لكن من حكاياته، من الحقائق الصغيرة التي يعلمني إياها، لا يستطيع المرء أن يفهم شيئاً تقريباً، كيف أمكن لهذا أن يحوّله هكذا. لا يستطيع المرء أن يفهم خاصة لماذا فقد الشجاعة، التي كان يملكها صبيّاً لدرجة يأسنا جميعنا، فقدها الآن كلياً وهو رجل هناك في الأعلى. طبعاً، هذا الوقوف والانتظار اللامجدي يوماً تلو يوم ودائماً وأبداً من جديد وبدون

أي أمل في تغيير، هذا يُضني ويريب وفي نهاية المطاف يجعل المرء عاجزاً عن القيام بشيء آخر سوى هذا الوقوف اليائس. لكن لماذا لم يقاوم قط فيما مضى أيضاً؟ لا سيما أنه سرعان ما أدرك أنني كنت على صواب وأنه لا يمكن جلب شيء من هناك للطموح، لكن ربما من أجل تحسين وضع أسرتنا. إذ إن كل شيء هناك، باستثناء أمزجة الخدم، يجري على نحو متواضع للغاية، الطموح يبحث هناك عن إشباع في العمل ولأن الموضوع نفسه يختل توازنه أثناء ذلك، فإنه يفقد نفسه كلياً، لرغبات صبيانية لا يوجد هناك مكان. لكن برناباس كان يعتقد، كما حدثني، أنه يرى بوضوح مدى سلطان وعلم حتى هؤلاء الموظفين المريبين حقاً، الذين كان يُسمح له أن يكون في غرفهم. كيف كانوا يملون، بسرعة، بعينين نصف مغلقتين، حركات يد قصيرة، كيف كانوا بالسبّابة دون أية كلمة يصرفون الخدم المتذمرين، الذين كانوا في مثل هذه اللحظات يتبسمون في سعادة وهم يتنفسون بصعوبة أو كيف كانوا يعثرون على موضع مهم في كتبهم ويضربون عليها بقوة وكيف يجيء الآخرون، بقدر ما يكون من الممكن في المكان الضيق، عدواً ويمدّون أعناقهم نحو الموضع. هذا وأمثاله أعطى برناباس تصورات كبيرة عن هؤلاء الرجال وكان لديه الانطباع بأنه، إذا وصل إلى أن يلاحظونه وإلى أن يجوز له أن يتحدث معهم بضع كلمات، ليس كغريب، بل كزميل عمل، طبعاً من أدنى مرتبة، خليق أن يحقق لأسرتنا ما لا يمكن تقدير نتائجه. لكن الأمر ما زال لم يصل إلى هذا المدى وبرناباس لا يجرؤ على القيام بما يمكن أن يقرّبه منه، وذلك مع أنه يعلم تمام العلم أنه على صغر سنّه قد ارتقى داخل أسرتنا بسبب الظروف المشؤومة إلى مركز أب الأسرة، هذا المركز المثقل بالمسؤولية. والآن، كي أعترف بالأمر الأخير: قبل أسبوع حضرتَ. سمعت في حانة السادة أحدهم يذكر ذلك، غير أنني لم أعبأ بالأمر؛ مسّاح أراض كان قد حضر، لم أكن أعلم حتى ماذا يعني هذا. لكن في المساء التالي يأتي برناباس - كنت قد اعتدت فيما عدا ذلك أن أمشي جزءاً من الطريق لملاقاته في ساعة محددة - إلى البيت باكراً قبل المعتاد، يرى أماليا في الحجرة، يسحبني لهذا السبب إلى الشارع، يضغط وجهه على كتفي ويروح ينتحب طوال دقائق. إنه مرة أخرى الصبي الصغير الذي كانه من قبل. لقد حدث له ما لا طاقة له به. إن الحال وكأن عالماً جديداً كل الجدة قد انفتح له على حين غرّة وليس في مقدوره تحمّل السعادة وهموم كل هذا الجديد. وفي هذه الأثناء لم يكن قد حدث له شيء آخر سوى أنه حصل على رسالة موجهة لك من أجل توصيلها. لكنها طبعاً الرسالة الأولى، العمل الأول الذي حصل عليه بعامة.»

توقفت أولغا. كان السكون يسود في ما عدا تنفس الوالدين الصعب والمحشرج أحياناً. قال ك. ببساطة وحسب كما لو أنه يتمم قصة أولغا: «لقد تصنعتم ومثّلتم حيالي. برناباس نقل الرسالة مثل ساع قديم مشغول جداً وأنت مثل أماليا، التي كانت في هذه المرة متفقة معكما،

فعلتما هكذا كأن عمل الساعي والرسائل مجرد عمل ثانويّ ما.» «عليك أن تميّز بيننا»، قالت أولغا، «بفضل الرسالتين عاد برناباس طفلاً سعيداً، رغم كل شكوكه في عمله. هذه الشكوك يملكها لنفسه ولي وحدنا، لكن إزاءك فإنه يبحث عن شرفه بأن يظهر ساعياً حقيقياً، مثلما يظهر سعاة حقيقيون حسب تصوره. هكذا وجب عليّ مثلاً، مع أن أمله ببدلة رسمية يزداد الآن، أن أقوم خلال ساعتين بتصليح سرواله كي يصبح على الأقل مشابهاً لسروال البدلة الرسمية الضيق، وينجح فيه أمامك، أنت الذي ما زال في هذا المجال طبعاً يمكن خداعه بسهولة. هذا هو برناباس. لكن أماليا فإنها تزدري فعلاً عمل السعاة والآن، بعد أن بدا أنه حقق بعض النجاح، كما تستطيع أن تتبيّن بسهولة في برناباس وفيّ وفي جلوسنا معاً وتهامسنا، الآن تزدريه أكثر من السابق. إنها تقول الحقيقة إذاً، لا تدع نفسك تُخدع قط، بأن تشك في ذلك. لكن إذا كنت أنا، ك.، قد قللت في بعض الأحيان من قيمة عمل السعاة، فإن هذا لم يحدث بقصد أن أخدعك، بل خوفاً. هاتان الرسالتان اللتان مرّتا حتى الآن عن طريق يد برناباس هما منذ ثلاثة أعوام إشارة الغفران الوحيدة التي تلقتها أسرتنا، لكن هذه الإشارة ما زالت مشكوك فيها بما فيه الكفاية. هذا التحول، إذا كان تحولاً وليس خداعاً ـ الخداعات كثيرة الوقوع أكثر من التحولات ـ له علاقة بوصولك إلى هنا، مصيرنا وقع في نوع من التبعية لك، ربما تكون هاتان الرسالتان مجرد بداية وسوف يتوسع عمل برناباس ويتجاوز عمله كساع لك ـ نريد أن نأمل ذلك ما دام أنه يجوز لنا هذا ـ لكن حالياً كل شيء يستهدفك وحدك. هناك فوق يتعيّن علينا أن نرضى بما يخصصه المرء لنا، أما هنا تحت فقد يكون في مقدورنا أيضاً أن نفعل نحن شيئاً، هذا هو: أن نتقرب منك أو على الأقل أن نقي أنفسنا من نفورك أو أن، الأمر الأكثر أهمية، نحميك حسب طاقاتنا وخبراتنا، كي لا تفقد الاتصال بالقلعة، هذا الاتصال الذي قد يمكننا أن نعيش منه. كيف يمكن الآن استهلال كل هذا على أفضل نحو؟ أن لا ترتاب فينا عندما نقترب منك، إذ إنك غريب هنا ولهذا السبب بالتأكيد تساورك الشكوك نحو كل الجهات، مفعم بالشكوك المبررة. فوق ذلك نحن مزدرون وأنت يؤثّر فيك الرأي العام، لا سيما من خلال خطيبتك، كيف يمكننا أن نصل إليك دون أن نقف، مثلاً، ضد خطيبتك، ولو كنا أيضاً لا نقصد ذلك قطعاً، ونزعجك بهذا. والرسالتان اللتان قرأتهما بدقة قبل وصولهما إليك ـ برناباس لم يقرأهما، لم يسمح لنفسه بذلك بصفته ساعياً ـ بدتا من النظرة الأولى بلا أهمية كبرى، قديمتين، أزالتا الأهمية بنفسهما، بأن قامتا بتحويلك إلى العمدة. كيف كان حريّاً بنا أن نتصرف إزاءك في هذا الخصوص؟ إذا أبرزنا أهميتهما، فإننا نعرض أنفسنا للشكوك بأننا هكذا إنما نقدّر شيئاً غير ذي أهمية تقديراً عالياً على ما يبدو، أننا نثني على أنفسنا أمامك بصفتنا ناقلي هذه الأخبار، أهدافنا لا تتبع أهدافك، لا بل كان في مقدورنا بذلك أن نقوم بانتقاص قيمة الأخبار حتى في نظرك ونخدعك هكذا

بلا إرادة أبداً. أما إذا لم نعزُ قيمة كبرى للرسالتين، فإننا بالمثل نعرض أنفسنا للشكوك، إذ لماذا نشغل أنفسنا من ثم بتسليم هاتين الرسالتين غير المهمتين، لماذا تناقضت تصرفاتنا مع كلماتنا، لماذا لم نخدعك وحدك وحسب أنت المرسل إليه، بل خدعنا كذلك من كلفنا بالمهمة، الذي لم يكن بالتأكيد قد سلمنا الرسالتين لكي نقلل من قيمتهما لدى المرسلتين إليه بشروحاتنا. والحفاظ على الوسط بين المبالغات، أي تقييم الرسالتين تقييماً صحيحاً، أمر غير ممكن، إنهما تبدلان بنفسهما قيمتهما باستمرار، الأفكار التي تدعو إليها لانهائية وحيث يتوقف المرء أثناء ذلك، يتوقف بالمصادفة وحسب، إذاً الرأي كذلك هو عن طريق المصادفة. وإذا ما اعترض الخوف عليك فوق ذلك، فإن كل شيء يضطرب، لا يجوز لك أن تقيّم كلماتي بصرامة. عندما على سبيل المثال، كما حدث ذات مرة، يأتي برناباس بخبر أنك غير راض عن عمله كساع وأنه في الرعب الأول ويا للأسف أيضاً ليس دون حساسية السعاة عرض الاستقالة من هذا العمل، فأكون طبعاً، من أجل استدراك الخطأ، قادرة على أن أخدع، أن أكذب، أن أغش، أن أعمل كل ما هو شر، إذا كان ذلك يساعد وحسب. لكنني أعمل هذا من ثم، على الأقل حسب اعتقادي، من أجلك بقدر ما هو من أجلنا.»

قرع الباب، جرت أولغا وفتحته. في العتمة سقط شريط ضوئي من مصباح جيب. الزائر المتأخر طرح أسئلة همساً وحصل على أجوبة همساً، غير أنه لم يشأ أن يكتفي بذلك وأراد الدخول إلى الحجرة. لم يعد في مقدور أولغا أن تردّه ولذا نادت أماليا، التي أملت منها على ما يبدو أنها صوناً لنوم الوالدين سوف تبذل كل جهد لإبعاد الزائر. فعلاً هرعت أيضاً قادمة، نحّت أولغا جانباً، خرجت إلى الشارع وأغلقت الباب وراءها. استغرق الأمر مجرد لحظة، على الفور عادت، بهذه السرعة حققت ما كان محالاً على أولغا.

علم ك. من ثم من أولغا أن الزيارة كانت له، كان أحد المساعدَين الذي كان يبحث عنه بتكليف من فريدا. كانت أولغا تريد حماية ك. من المساعد؛ إذا شاء ك. لاحقاً أن يكشف لفريدا عن زيارته هنا، يمكنه أن يفعل ذلك، لكن ليس على الزيارة أن تكتشف بواسطة المساعد؛ ك.قبل ذلك. لكنه رفض عرض أولغا لتمضية الليلة هنا وانتظار برناباس؛ في حدّ ذاته كان خليقاً ربما أن يقبل العرض، إذ إن الوقت في الليل كان متأخراً وبدا له أنه الآن، إن شاء أو أبى، مرتبط بهذه الأسرة إلى درجة أن مبيتاً هنا، لأسباب أخرى قد يكون محرجاً، لكن حرصاً على هذا الارتباط هو الأكثر طبيعية له في كل القرية، مع ذلك رفض العرض، زيارة المساعد كانت قد أفزعته، كان غير مفهوم له كيف أن فريدا، التي كانت تعرف رغبته، والمساعدين اللذين كانا قد تعلما كيف يخشيانه، قد التقوا مرة أخرى على هذه الحال بحيث أن فريدا لم تتورع عن إرسال أحد المساعدين إليه، نعم واحد فقط، في حين أن الثاني ظل لديها ولا ريب.

سأل أولغا هل كان لديها سوط، كلا، ليس لديها، لكن لديها عود صفصاف جيد، أخذه؛ ثم سأل هل كان ثمة مخرج ثان من البيت، كان ثمة مثل هذا المخرج عبر الفناء، لكن على المرء أن يتسلق فوق سور حديقة الجيران ويمشي عبر الحديقة قبل أن يصل إلى الشارع. أراد ك. أن يفعل ذلك. في حين كانت أولغا تقتاده عبر الفناء وإلى السور، حاول أن يهدئ روعها على عجل بسبب همومها، أعلن أنه ليس مستاء بتاتاً بسبب خدعها الفنية الطفيفة في القصة، بل إنه يفهمها كثيراً، يشكرها على الثقة التي كانت أولته إياها وأثبتتها من خلال قصتها وكلفها بأن ترسل برناباس فور عودته إلى المدرسة ولو كان الوقت ليلاً. حقاً إن رسائل برناباس ليست أمله الوحيد، وإلا فإن أحواله تكون سيئة، لكنه لا يريد بأي حال أن يستغني عن هذه الرسائل، يرغب في أن يتمسك بها وفي ذلك لا ينسى أولغا، إذ إن الأهم له تقريباً من الرسائل هي أولغا نفسها، بسالتها، حكمتها، فطنتها، تضحيتها في سبيل الأسرة. لو كان عليه أن يختار بين أولغا وأماليا، فلن يكلفه هذا تفكيراً كثيراً. وصافحها بحرارة وهو يقفز فوق سور حديقة الجيران.

حين أصبح في الشارع، شاهد، بقدر ما كان الليل المعتم يسمح بالرؤية، المساعدَ ما زال يروح جيئة وذهاباً أمام بيت برناباس، كان يتوقف أحياناً ويحاول أن يضيء إلى داخل الحجرة من خلال النافذة ذات الستارة. ناداه ك.؛ دون أن يرتعب بشكل ملحوظ تخلى عن التجسس على المنزل واتجه نحو ك. «عمن تبحث؟» سأل ك. وهو يفحص على فخذه ليونة العود. «عنك»، قال المساعد وهو يقترب. «من أنت إذاً؟» قال ك. فجأة، إذ لاح أنه ليس المساعد. بدا أكبر سناً، أكثر تعباً، أكثر تجاعيد، لكن أكثر امتلاء في الوجه، كما أن مشيته كانت مغايرة كلياً لمشية المساعد الرشيقة المكهربة في المفاصل، كان بطيئاً، يعرج قليلاً، عليلاً بوجاهة. «إنك لا تتعرّفني؟» سأل الرجلُ، «يِرمياس، مساعدك القديم.» «هكذا؟» قال ك. وهو يسحب العود إلى الأمام قليلاً، الذي كان قد خبّأه وراء ظهره. «لكن مظهرك يختلف تماماً.» «الحال هكذا لأني وحدي»، قال يِرمياس. «أكون وحدي، فينقضي كذلك الصبا المرح.» «أين آرتور إذاً؟» سأل ك. «آرتور؟» سألَ يِرمياس، «الحبيب الصغير؟ لقد ترك الخدمة. لكنك كنت كذلك بعض الشيء قاسياً معنا أكثر من اللازم. النفس المرهفة لم تحتمل الأمر. عاد إلى القلعة وقدم شكوى ضدك.» «وأنت؟» سأل ك. «تمكنت من البقاء»، قال يِرمياس، «آرتور يقوم بالشكوى من أجلي أيضاً.» «مِمّ تشكوان إذاً؟» سأل ك. «من أنك»، قال يِرمياس، «لا تفهم المزاح. ماذا فعلنا إذاً؟ مازحنا بعض الشيء، ضحكنا بعض الشيء، عاكسنا خطيبتك بعض الشيء. للعلم، كل شيء طبقاً للمهمة: عندما أرسلنا غالاتر إليك» «غالاتر؟» سأل ك. «نعم غالاتر»، قال يِرمياس، «كان في ذلك الوقت بالذات ينوب عن كلم. عندما أرسلنا إليك، قال ـ حفظت ذلك بدقة، إذ إننا نستند إلى ذلك حقاً ـ: تذهبان بصفتكما مساعدَي مسّاح الأراضي. قلنا: لكننا لا نفهم شيئاً

من هذا العمل. أجاب: هذا ليس الأهم؛ عندما يصبح الأمر ضرورياً، سوف يعلّمكما إياه. لكن الأهم هو أن تقوما بتسليته بعض الشيء. إنه، كما يعلمني المرء، يحمل كل شيء محمل الصعوبة. لقد وصل الآن إلى القرية وفي الحال أصبح هذا حدثاً كبيراً له، في حين أنه لا شيء في الحقيقة. عليكما أن تعلّماه هذا.» «حسناً»، قال ك.، «غالاتر كان على حق وأنتما قمتما بالمهمة؟» «هذا ما لا أعرفه»، قال يرمياس. «في المدة القصيرة لم يكن ذلك ممكناً ولا ريب. أعرف فقط أنك كنت فظاً جداً ومن هذا نشكو. إنني لا أفهم كيف لا تستطيع، وأنت لست سوى مستخدم ولا حتى مستخدم في القلعة، أن تعي أن مثل هذه الخدمة هي عمل قاس وأنه من الجائر جداً أن تقوم عابثاً، على نحو صبيانيّ تقريباً، بتصعيب العمل على العامل، كما فعلت ذلك. هذه القسوة التي تركتنا بها نتجمد على السور الحديدي أو كيف ضربت آرتور، وهو إنسان تؤلمه كلمة مزعجة طوال أيام، بالقبضة على حشيّة الفراش حتى كدت تقتله أو كيف طاردتني بعد الظهيرة في الثلج طولاً وعرضاً، بحيث أنني احتجت إلى مدة ساعة حتى ارتحت من المطاردة. إنني لم أعد شاباً!» «العزيز يرمياس»، قال ك. «إنك على حق في كل هذا، لكن عليك أن ترفعه إلى غالاتر. لقد أرسلكما بإرادته الخاصة، أنا لم ألتمسكما منه. ولأنني لم أطلبكما، كان في مقدوري أيضاً أن أعيدكما وكان أحب إليّ أن أفعل ذلك بسلام أكثر من أن أفعله بعنف، لكن يبدو أنكما لم تريدا الأمر على نحو آخر. لماذا لم تتحدث فور مجيئكما إليّ بصراحة هكذا كما تفعل الآن؟» «لأنني كنت في الخدمة»، قال يرمياس، «إن هذا لهو شيء طبيعي.» «والآن لم تعد في الخدمة؟» سأل ك. «الآن لم أعد»، قال يرمياس، «آرتور أخبر في القلعة ترك الخدمة أو على الأقل أن الإجراءات قائمة، هذه الإجراءات التي عليها أن تحررنا من القلعة نهائياً.» «لكنك ما زلت تسعى إليّ وكأنك ما زلت في الخدمة»، قال ك. «كلا»، قال يرمياس، «أسعى إليك فقط كي أهدّئ روع فريدا. إذ إنها كانت بائسة جداً حين هجرتها بسبب بنات برناباس، وذلك بسبب خيانتك أكثر مما هو بسبب الفقدان. غير أنها كانت منذ مدة طويلة ترى الأمر قادماً ولذا فإنها عانت كثيراً. الآن جئت مرة أخرى إلى نافذة المدرسة كي أرى هل كنت ربما قد أصبحت أكثر تعقلاً. لكنك لم تكن هناك، كانت فريدا وحدها، كانت جالسة على مقعد مدرسي وهي تبكي. فذهبت إليها إذاً واتفقنا. كما أن كل شيء قد جرى تنفيذه. إنني نادل غرف في حانة السادة، على الأقل ما دامت مسألتي في القلعة لم تُحسم وفريدا عادت إلى المشرب. إنه أفضل لفريدا. بالنسبة لها لم يكن ثمة حكمة في أن تصبح زوجتك. كما أنك لم تعرف قيمة التضحية التي كانت تريد أن تقدمها لك. والآن ما زالت الطيبة تمعن النظر أحياناً في ما إذا لم يكن قد وقع جور عليك، في ما إذا لم تكن ربما لدى أسرة برناباس. مع أنه لم يمكن أن يكون ثمة شك أبداً أين كنت، فقد ذهبت كي أتحقق من الأمر نهائياً؛ إذ بعد كل هذه الانفعالات فإن فريدا تستحق أخيراً أن تنام بهدوء

ذات مرة، وأنا أيضاً والحق يقال. هكذا ذهبت إذاً ولم أجدك وحدك، بل إلى جانب ذلك كان في مقدوري أن أرى أن الفتاتين إنما تتبعانك على نحو كما تدور الساعة. لا سيما السمراء، إنها قط متوحش بحق وحقيق، بذلت نفسها في سبيلك. حسناً، لكل فرد ذوقه. لكن على كل حال لم يكن من الضروري أن تأخذ الطريق الأطول عبر حديقة الجيران، إنني أعرف الطريق.»

٢١

ها قد حدث إذاً ما كان حدوثه متوقعاً، لكن ما لم يكن بالإمكان الحيلولة دون وقوعه. فريدا هجرته. لم يكن الأمر نهائياً بالضرورة، لم يكن سيئاً هكذا، يمكن الفوز بفريدا ثانية، كان من السهل التأثير عليها من قبل غرباء، حتى من قبل هؤلاء المساعدَين، اللذين كانا يعتبران عمل فريدا مماثلاً لعملهما والآن إذ كانا قد اعتزلا العمل، فقد حملا فريدا أيضاً على فعل ذلك، لكن لم يكن على ك. سوى أن يظهر أمامها، أن يذكّرها بكل ما يشفع له، حتى تعود نادمة لتكون له، وربما حتى يكون في مقدوره أن يبرر زيارته للفتاتين بنجاح يدين به لهما. لكن مع هذه التأملات، التي كان يحاول بواسطتها أن يهدئ نفسه في ما يخص فريدا، فإنه لم يكن مطمئنّاً. قبل مدة قصيرة كان قد أثنى على فريدا أمام أولغا ودعاها سنده الوحيد، حسناً، هذا السند لم يكن الأكثر ثباتاً، ولم يكن تدخل شخص قويّ ضرورياً لسلب فريدا من ك.، كان يكفي أيضاً هذا المساعد غير الشهيّ جداً، هذا اللحم، الذي كان أحياناً يعطي الانطباع كأنه غير حيّ بالمعنى الصحيح.

كان يِرمياس قد شرع يبتعد، ك. ناداه كي يعود. «يِرمياس»، قال، «أريد أن أكون صريحاً معك كل الصراحة، أجبني كذلك بصراحة عن سؤال. إننا لم نعد في علاقة سيد وخادم، الأمر الذي لا يسرّك وحدك، بل يسرّني كذلك، إذاً ليس لدينا سبب لأن يخدع بعضنا بعضاً. هنا أمام عينيك أكسر العود، الذي كان مخصصاً لك، إذ إنني لم أختر الطريق عبر الحديقة خوفاً منك، بل كي أفاجئك وأنهال عليك بالعود بضع مرات. حسناً، لا تؤاخذني بعد الآن، كل شيء قد انقضى؛ لو لم تكن خادماً مفروضاً عليّ من الدائرة، بل كنتَ ببساطة أحد معارفي، كنا خليقين بالتأكيد، ولو كان مظهرك يزعجني أحياناً بعض الشيء، أن يحتمل بعضنا بعضاً على نحو بديع. وحقاً يمكننا الآن كذلك أن نتدارك ما فاتنا في هذا الخصوص.» «هل تعتقد؟» قال المساعد وأطبق عينيه المتعبتين وهو يتثاءب، «في مقدوري أن أشرح لك

المسألة بإسهاب أكثر، لكن ليس لديّ متسع من الوقت، يتعيّن عليّ أن أذهب إلى فريدا، الطفلة الحبيبة تنتظرني، ما زالت لم تبدأ الخدمة، صاحب الحانة منحها، بناء على إلحاحي - كانت تبغي، على الأرجح كي تنسى، أن تلقي بنفسها في العمل حالاً - فترة استراحة قصيرة، هذه نريد على الأقل أن نمضيها معاً. في ما يخص اقتراحك، فإنه ليس لديّ داع يدعوني كي أكذب عليك، لكن ليس لديّ بالمثل داع كي أسرّ لك بشيء. حيث إن الحال عندي يخالف الحال عندك. ما دمت كنت في علاقة عمل معك، كنتَ لي طبعاً شخصاً في غاية الأهمية، ليس بسبب خواصك بل بسبب المهمة في الخدمة وكنتُ قميناً أن أفعل من أجلك كل ما كنتَ تريده، أما الآن فإنك لا تهمني. كذلك كسر العود لا يمسّني، يذكّرني بغلاظة السيد الذي كنت أعمل له. إن الأمر لا يناسب أن أقع موقعاً حسناً في نفسك.» «تتكلم معي»، قال ك.، «كأن الأمر مؤكد كل التأكيد بأنك لن تخشى شيئاً مني في يوم من الأيام بعد الآن. لكن الحال ليس هكذا في الحقيقة. إنك ما زلت على الأرجح لم تخلص مني بعد. بسرعة كهذه لا تنتهي الأعمال هنا.» «أحياناً بسرعة أكبر»، اعترض يِرمياس قائلاً. «أحياناً»، قال ك. «لكن ما من شيء يشير إلى أن هذا إنما قد حدث هذه المرة، على الأقل ليس بأيدينا، لا أنت ولا أنا، إيصال خطي. إن الإجراءات إذاً تسير أولاً في طريقها وما زلت لم أتدخل أبداً من خلال علاقاتي، لكنني سوف أفعل ذلك. إذا وقع الأمر لغير صالحك، فتكون لم تعمل كثيراً من الأعمال التحضيرية، لكي تستميل سيدك إليك وحتى إن تكسير العود كان ربما زائداً عن اللزوم. وفريدا صحيح أنك اقتدتها، الأمر الذي جعلك تغترّ بنفسك، لكن مع كل احترام لشخصك، هذا الاحترام الذي أكنّه، حتى ولو لم تعد تكنّه لي، بضع كلمات موجهة مني إلى فريدا، تكفي، أعرف هذا، لتبديد الأكاذيب التي قبضت بها عليها. والأكاذيب وحدها يمكنها أن تصرف فريدا عني.» «هذه التهديدات لا تخيفني»، قال يِرمياس، «إنك لا تريدني أبداً مساعداً لك، إنك لتخشاني مساعداً، إنك تخشى المساعدين بصورة عامة. ولم تضرب آرتور الطيب إلا عن خوف.» «ربما»، قال ك.، «ألهذا السبب آلمه الضرب أقل؟ ربما سوف يمكنني بهذه الطريقة أن أظهر خوفي منك مرات عديدة. إذا رأيتُ أن عمل المساعد لا يعود عليك بسرور كبير، فإن الأمر من ناحية أخرى متجاهلاً كل خوف يمتّعني أكبر متعة أن أرغمك على القيام بهذا العمل. إلا أني هذه المرة سأضع نصب عينيّ أن أحصل عليك وحدك دون آرتور، سوف أتمكن من ثم أن أوليك اهتماماً أكبر.» «أتظن»، قال يِرمياس، «أنني كذلك أخاف أقل خوف من كل هذا؟» «أعتقد ولا ريب»، قال ك.، «يقيناً تحس بعض الخوف وإذا كنت فطناً لأحسست بخوف كبير. لماذا لم تذهب إذاً إلى فريدا؟ قل، هل تحبها؟» «حب؟» قال يِرمياس، «إنها فتاة طيبّة ذكية، محبوبة سابقة لكلمّ، إذاً محترمة على كل حال. وعندما ترجوني باستمرار أن أحررها منك، فلماذا لا أسدي لها هذا المعروف، لا سيما أنني بهذا يقيناً لا أسيء إليك، أنت الذي التمست السلوى نفسك لدى فتاتي برناباس الملعونتين.» «الآن أرى

خوفك»، قال ك.، «خوف يدعو إلى الأسف كل الأسف، إنك تحاول أن تمسك بي بأكاذيب. فريدا لم ترجُ سوى شيء واحد، تخليصها من المساعدَين الشهوانيين اللذين باتا متوحشين لا كرامة لهما، وللأسف لم يكن لديّ متسع من الوقت لتلبية طلبها على نحو تام والآن هذه هي عواقب تقصيري.»

«أيها السيد مسّاح الأراضي! أيها السيد مسّاح الأراضي!» نادى أحدهم عبر الشارع. كان برناباس. وصل لاهثاً لكنه لم ينس أن ينحني أمام ك. «لقد نجحت»، قال. «فيمَ نجحت؟» سأل ك. «قدمت طلبي إلى كلمّ؟» «لم يكن هذا ممكناً»، قال برناباس، «لقد سعيت كثيراً، لكن الأمر كان مستحيلاً، اندسست إلى المقدمة مزاحماً، وقفت طوال اليوم، دون أن يطلب مني ذلك، قريباً جداً من المنصة، لدرجة أن أحد الكتبة، الذي كنت أسدّ عليه الضوء، نحّاني جانباً، أعلنت عن نفسي، وهذا محظور، بيد مرفوعة، عندما كان كلمّ يرفع بصره، بقيت في المكتب أطول مدة، كنت وحدي مع الخدم هناك، سعدت مرة أخرى برؤية كلمّ يعود، لكن ذلك لم يكن بسببي، أراد على وجه السرعة مراجعة شيء ما في كتاب وانصرف في الحال ثانية، في الختام كنسني الخادم، لأنني لم أكن قد تحركت بعد، تقريباً بالمكنسة من خلال الباب. أعترف بكل هذا، حتى لا تكون مرة أخرى غير راض عن إنجازاتي.» «ماذا ينفعني اجتهادك، برناباس»، قال ك.، «إذا لم يحقق نجاحاً قط.» «لكنني حققت نجاحاً»، قال برناباس. «حين خرجت من مكتبي - أسمّيه مكتبي - أرى، كيف يقترب ببطء رجل قادم من الممرات الطويلة السفلى، ما عدا ذلك كان كل شيء خالياً، كان الوقت متأخراً جداً، قررت أن أنتظره، كانت فرصة طيبة للبقاء هناك، كان الأحب إليّ أن أبقى هناك أساساً كي لا أضطر إلى أن أجلب لك الخبر السيئ. لكن انتظاري للرجل كان أيضاً في ما عدا ذلك ذا جدوى، كان إرلنغر. لا تعرفه؟ إنه واحد من سكرتيري كلمّ الأوائل. رجل واهن قصير القامة، يعرج قليلاً. لقد تعرّفني في الحال، إنه مشهور بسبب ذاكرته وفراسته، إنه يزوي ما بين حاجبيه وحسب، هذا يكفيه لكي يتعرف كلَّ فرد، كما يتعرف ناساً لم يرهم قبل ذلك قط، سمع أو قرأ عنهم وحسب، أنا مثلاً بالكاد أن يكون قد رآني في يوم من الأيام. لكن مع ذلك يتعرف في الحال كلَّ إنسان، يسأل أولاً وكأنه غير متأكد. 'ألست برناباس؟' قال لي. ومن ثم سأل: 'إنك تعرف مسّاح الأراضي، أليس كذلك؟ ثم قال: 'هذا من محاسن المصادفات. أنا مسافر الآن إلى حانة السادة. على مسّاح الأراضي أن يزورني هناك. أقيم في الغرفة رقم ١٥. لكن عليه أن يأتي الآن في الحال. لديّ بضع محادثات هناك، وأعود في الساعة الخامسة باكراً. قل له إنه يهمني كثيراً أن أتحدث معه'.»

فجأة بدأ يرمياس في العدو. برناباس، الذي كان في انفعاله لم يكد يعبأ به قبل ذلك، سأل: «ماذا يريد يرِمياس إذاً؟» «أن يسبقني إلى ارلنغر»، قال ك.، جرى وراء يرِمياس، أمسك به،

تعلق بذراعه وقال: «هل هو الحنين إلى فريدا الذي تملّكك فجأة؟ حنيني ليس أقل وهكذا سوف نذهب في خطوة منتظمة.»

أمام حانة السادة المعتمة كانت تقف مجموعة صغيرة من الرجال، اثنان أو ثلاثة كانوا يحملون مصابيح يدوية، هكذا كان بالإمكان تمييز بعض الوجوه. ك. وجد واحداً فقط من المعارف، غرشتكر، الحوذيّ. غرشتكر حيّاه بالسؤال: «ما زلت دائماً في القرية؟» «نعم»، قال ك.، «لقد أتيت لكي أبقى على الدوام.» «الأمر لا يهمني في شيء»، قال غرشتكر، سعل بقوة والتفت نحو الآخرين.

تبيّن أن الجميع ينتظرون إرلنغر. كان ارلنغر قد وصل حقاً، لكنه قبل أن يستقبل أصحاب الطلبات تحادث مع مومس. كانت المحادثة العامة تدور حول أنه لا يجوز الانتظار في الداخل، بل يجب الوقوف هنا في الخارج في الثلج. صحيح أن البرودة لم تكن شديدة، مع ذلك كان عدم اكتراث ترك أصحاب الطلبات ينتظرون ربما طوال ساعات في الليل أمام المبنى. لم يكن هذا طبعاً ذنب إرلنغر، الذي كان بالأحرى متساهلاً للغاية، عن هذا الموضوع لم يكد يعرف شيئاً ويقيناً كان حريّاً به أن يستاء جداً لو كان جرى إبلاغه. كان ذنب صاحبة نزل السادة، التي لم تكن تنشأ في مسعاها المَرَضيّ إلى الفاخر أن تسمح بأن يدخل عدد كبير من أصحاب الطلبات إلى حانة السادة دفعة واحدة. «إذا كان يجب عليهم ولا بدّ أن يأتوا»، اعتادت أن تقول، «فليكن ذلك بحق السماوات واحداً وراء الآخر ليس إلا.» وقد تمكنت من الظفر ببغيتها بأن أصحاب الطلبات، الذين كانوا ينتظرون أولاً ببساطة في الممر، لاحقاً على الدرج، ثم في المدخل، في الآخر في المشرب، في النهاية جرت تنحيتهم إلى الشارع. وحتى هذا لم يعد يكفيها. كانت لا تطيق «أن تُحاصر» على الدوام في بيتها الخاص بها، كما كانت تعبّر. كان من غير المفهوم لها لماذا كان أصحاب الطلبات يأتون. «من أجل توسيخ الدرج الخارجي»، كان أحد الموظفين قد قال لها رداً على سؤالها، قال على الأرجح غاضباً، غير أن هذا الرد كان مقنعاً جداً بالنسبة لها وقد اعتادت أن تستشهد عن رضى بهذا القولِ المأثور. كانت تسعى، وهذا التقى مع رغبات أصحاب الطلبات، إلى أن يوضع مبنى في الجهة المقابلة لنزل السادة تحت تصرفهم كي ينتظروا فيه. الأحب إليها كان أن تُجرى أيضاً المحادثات والاستجوابات خارج نزل السادة، لكن الموظفين عارضوا ذلك وعندما عارض الموظفون جدّيّاً، لم تتمكن صاحبة النزل من فرض رأيها، مع أنها في المسائل الثانوية بحكم حماستها الأنثوية الرقيقة التي لا تكلّ ولا تملّ، إنما كانت تمارس نوعاً من استبداد صغير. لكن من المتوقع أنه سوف يتعيّن على صاحبة النزل أن تتحمّل في المستقبل أيضاً إجراء المحادثات والاستجوابات في نزل السادة، إذ إن السادة من القلعة رفضوا مغادرة نزل السادة في القرية عند معالجة

المسائل الرسمية. كانوا دائماً في عجلة من أمرهم، ولم يكونوا ينزلون في القرية إلا على مضض، كل مضض، ولم يكن لديهم أدنى رغبة في تمديد إقامتهم عما يزيد عن الضروريّ الذي لا بدّ منه، لهذا السبب لم يكن بالإمكان أن يُطلب منهم، لا لشيء إلا مراعاة لحرمة المنازل والمحافظة على الهدوء في نزل السادة، أن ينتقلوا بين وقت وآخر مع كل كتبهم ومخطوطاتهم عبر الشارع إلى أي مبنى آخر ويضيعوا وقتهم هكذا. كان الأحب إلى الموظفين أن ينجزوا الأمور الرسمية في المشرب أو في غرفهم، أثناء الطعام إن أمكن أو انطلاقاً من الفراش قبل أن يغفوا أو في الصباح عندما يكونون أكثر تعباً من أن يستطيعوا النهوض ويكونون لا يزالون يرغبون في التمطي بعض الشيء في الفراش. أما مسألة تخصيص مبنى انتظار فقد بدت أنها تقترب من حل ملائم، طبعاً كانت عقوبة صارمة لصاحبة النزل ـ لقد ضحك المرء على ذلك بعض الشيء ـ أن مسألة مبنى الانتظار بالذات كانت تحتاج إلى محادثات عديدة ضرورية ولم تكد ممرات المبنى تفرغ.

حول كل هذه الأمور كان المرء يتحدث بصوت منخفض بين المنتظرين. لقد لفت انتباه ك. أن عدم الرضى كان كافياً حقاً، غير أن ما من أحد كان يعترض على ذلك في شيء، أن إرلنغر كان يدعو أصحاب الطلبات في منتصف الليل. كان يسأل عن ذلك ويحصل على الإخبار أن المرء لا بدّ له حتى من أن يكون شاكراً كل الشكر على ذلك. فهي إرادته الطيبة وحدها والرأي السامي الذي يملكه عن وظيفته، اللذين يدفعانه أصلاً كي يأتي إلى القرية، كان في مقدوره حقاً لو كان يريد ـ ومن شأن هذا حتى أن يطابق التعليمات ربما على نحو أفضل ـ أن يرسل أي سكرتير من درجة دنيا ويدعه يدوّن المحاضر. لكنه يرفض في الغالب أن يفعل ذلك، يريد أن يرى ويسمع كل شيء بنفسه، لكن يتعيّن عليه أن يضحي بلياليه في سبيل هذا الغرض، إذ إن برنامجه الرسمي لا يخصص وقتاً من أجل سفرات إلى القرية. اعترض ك. قائلاً إن كلمّ أيضاً يأتي إلى القرية نهاراً وحتى إنه يبقى هنا عدة أيام؛ هل إرلنغر، الذي هو مجرد سكرتير، لا يستغنى عنه فوق أكثر؟ بعضهم ضحكوا بطيبة قلب، آخرون صمتوا مبهوتين، هؤلاء الأخيرون كانوا الأكثرية ولم يكد يتلق ك. جواباً. أحدهم فقط قال متردداً، طبعاً كلمّ لا يستغنى عنه في القلعة كما في القرية.

هنا فتح الباب وظهر موموس بين خادمين يحملان مصباحين. «الأوائل الذين سوف يُدخلون على السيد السكرتير إرلنغر»، قال، «غرشتكر وك. هل الاثنان هنا؟» أعلنا عن وجودهما، لكن قبلهما تسلل يِرمياس إلى النزل قائلاً: «أنا هنا نادل الغرف»، وقد حيّاه موموس مبتسماً بربتة على كتفه. «سوف يتعيّن عليّ أن أنتبه أكثر إلى يِرمياس»، قال ك. في ذات نفسه، وقد ظل واعياً أن يِرمياس على الأرجح أقل خطراً جداً من آرتور، الذي كان يعمل في القلعة ضده. بل حتى إنه كان ربما أكثر فطنة أن يدعهما يعذبانه كمساعدَين من أن

يدعهما يهيمان دون مراقبة ويمارسان بحرية مكائدهما، التي يبدو أنهما يتسمان بطبيعة خاصة لها.

حين مرّ ك. بمomوس، أبدى هذا أنه الآن فقط يتعرّف مسّاحَ الأراضي. «آه السيد مسّاح الأراضي!» قال، «الذي يكره أن يُستجوب، يتدافع إلى الاستجواب. عندي كان من شأن الأمر آنذاك أن يكون أكثر بساطة. إنه لمن الصعب طبعاً اختيار الاستجوابات الصحيحة.» إذ أراد ك. أن يتوقف من بعد تلك المخاطبة، قال موموس: «انصرف، انصرف! آنذاك كنت خليقاً أن أحتاج إلى أجوبتك، أما الآن فلا أحتاجها.» مع ذلك قال ك. وقد أثاره تصرف موموس: «إنكم لا تفكرون إلا في أنفسكم. من أجل الدائرة وحدها لا أجيب، لا آنذاك ولا اليوم.» موموس قال: «في من علينا أن نفكر إذاً؟ من يتواجد هنا في ما عدا ذلك؟ انصرف!»

في الممر تلقاهما خادم واقتادهما على الطريق الذي يعرفه ك. عبر الفناء، ثم عبر البوابة وإلى الممر السفلي الذي ينحدر قليلاً. في الطوابق العليا كان يسكن على ما يبدو الموظفون الكبار وحدهم، أما السكرتيرون فكانوا يسكنون في حجرات هذا الممر، كذلك إرلنغر، مع أنه واحد من كبارهم. أطفأ الخادم مصباحه، إذ هنا كان ثمة إضاءة كهربائية ساطعة. كان كل شيء هنا مبنياً على نحو صغير غير أنه منمنم. كان قد جرى استغلال المكان على خير وجه. كان الممر الضيق يكفي على نحو محدود للسير فيه بانتصاب. على الجانبين كان باب يصطف إلى جانب آخر تقريباً. الجداران الجانبيان لم يكونا يصلان إلى السقف؛ كان ذلك على الأرجح لاعتبارات التهوية، إذ إن الغرف الصغيرة كانت هنا في الممر السفلي الذي يشبه القبو بدون نوافذ. كان عيب هذين الجدارين غير الكاملين هو عدم الهدوء في الممر وبالضرورة في الغرف أيضاً. غرف كثيرة كانت تبدو مشغولة، في معظمها كان المرء لا يزال مستيقظاً، كانت تُسمع أصوات، ضربات مطارق، رنين كؤوس. لكن لم يكن ثمة انطباع مرَحٍ خاص. كانت الأصوات منخفضة، كان المرء بصعوبة يفهم كلمة أحياناً، كما أنه لم يكن يبدو أنها أحاديث، على الأرجح كان أحدهم يُملي وحسب أو يتلو شيئاً ما، بالذات من الغرف التي كان ينبعث منها رنين الكؤوس والصحون، لم يكن يُسمع أية كلمة، وضربات المطرقة ذكّرت ك. بما كان قد روي له في مكان ما أن بعض الموظفين، لكي يستجمّوا من الجهد العقلي المتواصل، إنما يشغلون أنفسهم بين وقت وآخر بالنجارة أو بميكانيكا الصناعات الدقيقة أو بشيء من هذا القبيل. الممر نفسه كان خالياً، فقط أمام واحد من الأبواب كان يجلس رجل طويل نحيل شاحب يرتدي معطف فرو، تلوح من تحته ملابس النوم، على الأرجح كان الجو في الغرفة قد أصبح مقبضاً له، وهكذا جلس خارج الغرفة وطفق يقرأ صحيفة، لكن ليس باهتمام، كان كثيراً ما يكفّ عن القراءة وهو يتثاءب، كان ينحني إلى الأمام ويشخص ببصره على امتداد الممر، ربما كان ينتظر أحد أصحاب الطلبات، كان قد دعاه للحضور لكنه لم يأت. حين مرّوا

به، قال الخادم لغرشتكر بخصوص الرجل: «إنه بينزغاورا» غرشتكر أومأ برأسه؛ «منذ مدة طويلة لم يكن تحت»، قال، «منذ مدة طويلة جداً»، صادقَ الخادم.

أخيراً وصلوا إلى أمام باب لم يكن مغايراً عن بقية الأبواب، ومع ذلك كان إرلنغر يسكن خلفه، كما أعلم الخادمُ. ترك الخادم ك. يرفعه على كتفيه ونظر فوق إلى داخل الغرفة من خلال الفراغ بين الجدار والسقف. «إنه يرقد»، قال الخادم وهو ينزل، «على الفراش، غير إنه في ملابسه، لكنني أظن أنه يغفو. أحياناً يداهمه التعب هنا في القرية بسبب طريقة الحياة المتبدلة. سوف يتعيّن علينا أن ننتظر. عندما يستيقظ سوف يقرع الجرس. غير أنه كان يحدث أن يستغرق في النوم طوال مدة إقامته في القرية وبعد الاستيقاظ كان يتعيّن عليه أن يعود في الحال إلى القلعة. إن العمل الذي يقوم به هنا هو لعمل طوعيّ.» «ليته الآن ينام حتى النهاية»، قال غرشتكر، «إذ عندما يكون لديه بعد الاستيقاظ وقت قليل للعمل، يكون مستاء كل الاستياء من كونه قد نام، يحاول أن ينجز كل شيء على عجل ولا يكاد يقدر المرء أن يتكلم معه.» «إنك تأتي بسبب الحصول على التكليف بعمليات النقل من أجل البناء؟» سأل الخادمُ. أومأ غرشتكر برأسه، سحب الخادم جانباً وتكلم معه بصوت منخفض، غير أن الخادم لم يكد يستمع، أرسل بصره فوق غرشتكر، الذي كان يزيده طولاً مقدار رأس ومسح على شعر نفسه جادّاً وبحركات بطيئة.

٢٢

إذ كان ك. يجول ببصره في المكان بلا هدف، شاهد فريدا في البُعد لدى أحد منحنيات الممر الضيق؛ تظاهرت وكأنها لا تعرفه، كانت تحدق به وحسب، في يدها كانت تحمل صينية عليها آنية فارغة. قال للخادم، لكن هذا لم يكن ليعبأ به قط ـ كلما كان المرء يتحدث أكثر إلى الخادم، كان يبدو أن هذا يصبح شارد الذهن أكثر ـ إنه سيعود في الحال، وجرى إلى فريدا. إذ وصل إليها، أمسك بها من الكتفين، وكأنه يستحوذ عليها من جديد، طرح بضعة أسئلة غير ذات أهمية وطفق أثناء ذلك يبحث متفحصاً في عينيها. بيد أن موقفها الجامد لم يكد يلين، حاولت وهي شاردة الفكر إجراء بعض التعديلات في مواضع الآنية على الصينية، وقالت: «ماذا تريد مني؟ اذهب إليهم ـ إنك تعرف اسمهم، إنك آت لتوّك من لدنهم، أستطيع أن أرى ذلك عليك.» ك. غيّر موضوع الحديث على عجل؛ على المناقشة أن لا تأتي على حين غرّة وأن لا تبدأ بالأكثر سوءاً، بالأقل ملاءمة له. «كنت أظن أنك في المشرب»، قال. تطلعت فريدا إليه باستغراب ودهشة ومسحت في رقة بيدها التي كانت طليقة على جبينه ووجنته. كان الحال كأنها نسيت مظهره وتريد استرجاعه إلى الوعي، كما كان في عينيها تعبير مقنّع عن التذكر الشاق. «قُبلت للعمل في المشرب مرة أخرى»، قالت بتؤدة وكأن ما تقوله غير ذي أهمية، لكن تحت الكلمات تُجري حديثاً مع ك. وهذا هو الأكثر أهمية، «هذا العمل لا يصلح لي، كل واحدة أخرى أيضاً تستطيع القيام به؛ كل واحدة تستطيع ترتيب الفراش وتظهر وجهاً منشرحاً ولا تخجل من الإزعاجات من قبل النزلاء، بل حتى تستثيرها، كل واحدة مثل هذه تستطيع أن تكون خادمة. لكن في المشرب، فإن الحال شيء آخر. أنا أيضاً قُبلت حالاً مرة أخرى للعمل في المشرب، مع أنني آنذاك لم أغادره على نحو مشرّف كثيراً، طبعاً كان لديّ الآن حماية. بيد أن صاحب النزل كان سعيداً أنه كان لديّ حماية ولذا كان من الممكن له بسهولة أن يقبلني من جديد. بل حتى إنه كان على المرء أن يلحّ عليّ حتى أقبل العمل؛ عندما

تمعن النظر فيما يذكرني المشرب، فإنك ستفهم الأمر. في الختام قبلت العمل. أما هنا، فإني أعمل بالنيابة وحسب. بيبي رجت عدم وصمها بعار أن يجب عليها مغادرة المشرب على الفور، لذا فقد منحناها، لأنها كانت مجدّة ولا شك، وقامت بكل شيء كما سمحت قدراتها وحسب، مهلة أربع وعشرين ساعة.» «كل هذا جرى تدبيره على خير وجه»، قال ك.، «فقط، ذات مرة تركتِ المشرب بسببي والآن إذ نحن نوشك على الزفاف، تعودين إلى المشرب من جديد؟» «لن يكون هناك زفاف»، قالت فريدا. «لأنني لم أكن وفياً؟» سأل ك. فريدا أومأت برأسها. «حسناً انظري، فريدا»، قال ك.، «عن عدم الوفاء المزعوم هذا كنا قد تحدثنا كثيراً ودائماً كان عليك في الختام أن تدركي أن هذه الشبهة إنما كانت جائرة. لكن مذ ذاك لم يتبدل شيء من ناحيتي، كل شيء ظل بريئاً هكذا كما كان وكما لا يمكنه أن يصبح على نحو آخر. يجب إذاً أن يكون شيء ما من ناحيتك قد تبدل، نتيجة همسات من غرباء أو شيء آخر. إنك تظلمينني على كل حال، إذ انظري، ما هو الأمر مع هاتين الفتاتين؟ الأولى، السمراء ـ أكاد أخجل من اضطراري إلى الدفاع عن نفسي مفصّلاً، لكنك تستفزّيني إلى ذلك ـ السمراء إذاً لا تحرجني على الأرجح أقل مما تحرجك؛ حين أستطيع أن أبتعد عنها بأية طريقة من الطرائق وحسب، فإنني أفعل ذلك، وهي تسهّل الأمر أيضاً، لا يمكن للمرء أن يكون أكثر تحفظاً واعتزالاً مما هي.» «نعم»، صاحت فريدا، خرجت منها الكلمات كأنها تخرج ضد إرادتها؛ ك. كان فرحاً بأن يراها قد انشغلت هكذا؛ كانت غير ما كانت تريد أن تكونه، «تودّ أن تعتبرها متحفظة، الأكثر ممن لا تعرف الحياء تسمّيها متحفظة وأنت تعني ذلك صادقاً، مهما كان ذلك غير جدير بالتصديق، إنك لا تتظاهر، أعلمُ هذا. صاحبة نزل الجسر تقول عنك: «لا أستطيع أن أودّه، لكنني لا أستطيع أيضاً أن أهجره، لا يستطيع المرء بالتأكيد، لدى منظر طفل صغير ما يزال لا يقدر على المشي جيداً ويندفع بعيداً إلى الأمام، أن يسيطر على نفسه، يتعيّن على المرء أن يتدخل.» «خذي هذه المرة بدرسها، قال ك. وهو يبتسم، «لكن تلك الفتاة، سواء كانت متحفظة أم لا تعرف الحياء، يمكننا أن نتركها جانباً، لا أريد أن أعرف عنها شيئاً.» «لكن لماذا تسمّيها متحفظة؟» سألت فريدا دون أن تلين، ك. رأى في هذه المشاركة دلالة في مصلحته، «هل جربتها أم أنك تبغي بهذا أن تحط من قيمة آخرين؟» «لا هذا ولا ذاك»، قال ك.، «أسمّيها هكذا امتناناً، لأنها تسهّل عليّ أن أتجاهلها ولأنني، حتى ولو كان من شأنها أن تخاطبني مراراً، لن تطاوعني نفسي أن أذهب إلى هناك من جديد، الأمر الذي من شأنه أن يكون خسارة كبيرة لي، إذ يجب عليّ أن أذهب، بسبب مستقبلنا المشترك، كما تعلمين. ولذا يتعيّن عليّ أن أتحدث كذلك مع الفتاة الأخرى، التي صحيح أقدّرها لنشاطها وفطنتها وإنكارها لذاتها، لكن لا يستطيع أحد أن يدعي عنها أنها غاوية.» «للخدم رأي آخر»، قالت فريدا. «في هذه الناحية كما في نواح كثيرة أخرى»، قال ك. «من شهوات الخدم تريدين

استنتاج عدم وفائي؟» صمتت فريدا وقبلت أن ك. أخذ الصينية من يدها، وضعها على الأرض، دفع ذراعه تحت ذراعها وشرع يروح ويجيء معها بتؤدة في المكان الضيق. «إنك لا تعرف ما الوفاء»، قالت وهي تبدي شيئاً من المقاومة ضد قربه، «كيف يمكنك أن تتصرف مع الفتاتين، ليس هو الأكثر أهمية؛ كونك تذهب إلى هذه الأسرة إطلاقاً وتعود، ورائحة حجرتهم في ملابسك، هو عار لي لا يطاق. وتنصرف من المدرسة جرياً دون أن تقول شيئاً. وحتى إنك تظل لديهم طوال نصف الليلة. وعندما أسأل عنك، تدع الفتاتين تنكران وجودك، تنكرانه بحماسة، لاسيما الفتاة المتحفظة على نحو لا يُجارى. تتسلل من البيت على طريق سرّيّ، ربما حتى لحماية سمعة تلك الفتاتين، سمعة تلك الفتاتين! لا، دعنا لا نتكلم بعد الآن عن ذلك!» «عن هذه الفتاة لا»، قال ك.، «لكن عن شيء آخر، فريدا. عن هذا لا يوجد أيضاً ما يقال. إنك تعلمين لماذا يجب عليّ أن أذهب. إنه ليس سهلاً عليّ، غير أنني أحمل نفسي عليه. ليس عليك تصعيب الأمر عليّ أكثر مما هو. اليوم كنت قد فكرت لمدة لحظة ليس إلا أن أذهب إلى هناك وأسأل هل كان برناباس، الذي كان عليه منذ مدة طويلة أن يجلب رسالة هامة، قد أتى أخيراً. لم يكن قد حضر، لكن كان لا بدّ له، كما جرى التأكيد لي وعلى نحو جدير بالتصديق، من أن يأتي في وقت قريب. ولم أشأ أن أدعه أن يأتي إلى المدرسة، وذلك كي لا أثقل عليك بحضوره. مرّت الساعات ولم يأت للأسف. بل أتى شخص آخر، شخص أمقته. لم أستشعر رغبة في أن أدعه يتجسس عليّ، فسرت عبر حديقة الجيران، كما أنني لم أشأ أن أخفي نفسي عنه، فمشيت في الشارع بحرية واتجهت إليه وأنا أحمل عود صفصاف في منتهى الليونة، كما أعترف. هذا كل شيء، عن ذلك لم يعد يوجد ما يمكن قوله، لكن عن شيء آخر. كيف هو الحال إذاً مع المساعدَين، اللذين يكاد يكون ذكرهما مقيتاً عليّ كما هو عليك ذكر تلك الأسرة؟ قارني علاقتك بهما بتصرفي مع الأسرة. إنني أفهم كراهيتك لهذه الأسرة ويمكنني أن أشاركك هذه الكراهية. إنني أذهب إليهم في سبيل المسألة ليس إلا، أحياناً يكاد يبدو لي أنني أظلمهم، أستغلهم. أما أنت والمساعدان فلا. إنك لم تنكري أبداً بأنهما يلاحقانك واعترفت بأنك تستهوينهما. بسبب هذا لم أشعر باستياء منك، أدركت أن هنا في اللعبة قوى لا تقوين عليها، بل كنت سعيداً بأنك على الأقل تدافعين عن نفسك وساعدت في الدفاع عنك وفقط لأنني تراخيت في ذلك بضع ساعات، ثقة بوفائك، لكن كذلك أملاً أن البيت مقفل حتماً والمساعدان اضطرا إلى الفرار نهائياً ـ أخشى أنني ما زلت أستهين بهما ـ فقط لأنني تراخيت في ذلك بضع ساعات ويِرمياس ذاك، إذا دقق النظر فيه صبيّ ليس صحيح الجسم جداً يقارب الشيخوخة، كانت لديه الوقاحة أن يقف إلى النافذة، لهذا السبب وحده عليّ أن أفقدك، فريدا، وأن أسمع كتحية لي: 'لن يكون هناك زفاف.' ألست في حقيقة الأمر ذلك الذي يجوز له أن يقوم بالعتاب، وأنا لا أقوم به، ما زلت لا أقوم

به.» ومرة أخرى بدا لـ ك. من الخير إلهاء فريدا بعض الشيء وطلب منها أن تحضر له بعض الطعام، لأنه لم يتناول شيئاً منذ الظهيرة. أومأت فريدا برأسها، وقد ارتاحت على ما يبدو من الطلب أيضاً، وذهبت لتحضر شيئاً، لم تتبع الممر باتجاه المطبخ حيث كان ك. يخمّن وجوده، بل ذهبت إلى الجانب وهبطت بضع درجات إلى الأسفل. سرعان ما أحضرت صحناً بشرائح من اللحم البارد وزجاجة نبيذ، لكن ذلك كان مجرد بقايا وجبة، كانت القطع المفردة قد رتّبت من جديد على عجل من أجل طمس حقيقة أنها بقايا، حتى إن قشور سجق كانت قد نسيت هناك والزجاجة كانت قد فرغ ثلاثة أرباعها. بيد أن ك. لم يقل شيئاً عن ذلك وشرع يأكل بشهية طيبة. «كنتِ في المطبخ؟» سأل. «لا، كنت في غرفتي»، قالت، «لديّ غرفة هنا في الأسفل.» «كان في مقدورك أن تأخذيني معك»، قال ك.، «سوف أنزل كي أجلس قليلاً لدى تناولي الطعام.» «سأحضر لك كرسياً»، قالت فريدا وكانت قد اندفعت إلى الطريق. «شكراً»، قال ك. وهو يمسك بها، «لن أنزل ولا أحتاج بعد إلى كرسي.» تحملت فريدا قبضته بعناد، وقد مالت برأسها وعضّت على شفتيها. «حسناً، إنه تحت»، قالت، «هل توقعت الأمر على نحو آخر؟ إنه يرقد في سريري، لقد أصابه البرد في الخارج، إنه يرتعد من البرد، بصعوبة تناول شيئاً من الطعام. في حقيقة الأمر كل شيء ذنبك، لو لم تطرد المساعدَين ولو لم تجر وراء أولئك الناس، كنا خليقين أن نكون الآن جالسين في المدرسة في دعة وسلام. أنت وحدك دمّرت سعادتنا. هل تعتقد أن يرِمياس، ما دام كان في الخدمة، كان قد جرأ على اختطافي؟ هذا يعني أنك تخطئ في تقدير النظام المحلي كل الخطأ. أراد أن يأتي إليّ، لقد عذّب نفسه، ترصّدني، لكن هذا كان مجرد لعب، كما يلعب كلب جائع، ومع ذلك لا يجرؤ على القفز إلى الطاولة. وأنا بالمثل. لقد جذبني، إنه زميلي في اللعب من أيام الطفولة - كنا نلعب معاً على سفح جبل القلعة، كانت أياماً جميلة، إنك لم تسألني قط عن ماضيّ - لكن كل هذا لم يكن حاسماً، ما دام يرِمياس ملزماً بالخدمة، إذ إنني كنت أعرف حقاً واجبي بصفتي زوجتك المقبلة. غير أنك طردتَ المساعدَين من ثم وتتفاخر بذلك، وكأنك بهذا إنما قد فعلت شيئاً من أجلي، إنه بمعنى من المعاني لأمر حقيقي. لدى آرتور نجح مقصدك، لكن مؤقتاً وحسب، إنه غضّ، لا يملك حماسة يرِمياس التي لا تخشى الصعوبات، كما أنك كدت تفتك به باللكمة في الليل - كانت تلك اللكمة ضربة ضد سعادتنا أيضاً -، وقد هرب إلى القلعة كي يشكو، وكذلك سوف يعود قريباً، على كل حال هو الآن غائب. لكن يرِمياس بقي. أثناء الخدمة يخشى طرفة عين السيد، أما خارج الخدمة فإنه لا يخشى شيئاً. أتى وأخذني؛ مهجورة من قبلك، متحكّم فيّ من قبله، الصديق القديم، لم يكن في مقدوري أن أحافظ على نفسي لك. لم أفتح بوابة المدرسة، حطم النافذة وسحبني إلى الخارج. طرنا إلى هنا، صاحب الحانة يقدّره، كذلك لا يمكن للنزلاء أن يرحّبوا بشيء أكثر من أن يكون لديهم

مثل هذا النادل، هكذا تمّ قبولنا، إنه لا يسكن عندي، بل لدينا غرفة مشتركة.» «مع كل شيء»، قال ك.، «لست نادماً على طردي المساعدَين من الخدمة. إذا كانت العلاقة هكذا كما تصفينها، وفاؤك إذاً مرتبط فقط بعمل المساعدَين، من ثم كان خيراً أن كل شيء قد أخذ نهايته. من شأن سعادة الزواج إلى جانب وحشين ضاريين لا يخضعان إلا تحت الكرباج أن لا تكون كبيرة جداً. فأكون كذلك شاكراً لتلك الأسرة، التي ساهمت بحصتها بغير قصد في أن تفرّق بيننا.» صمتا وطفقا يروحان ويغدوان كل منهما إلى جانب الآخر، دون أن يمكن التمييز من بدأ الآن بهذا. فريدا، القريبة من ك. بدت متضايقة، لأنه لم يأخذها تحت ذراعه مرة أخرى. «وهكذا كل شيء على ما يرام»، تابع ك. قائلاً، «ويمكن أن نودّع بعضنا بعضاً، أنت تذهبين إلى صاحبك السيد يرمياس، الذي ما زال على الأرجح مصاباً بالبرد من حديقة المدرسة، والذي تركتيه مراعاة لذلك وحيداً مدة طويلة جداً، وأنا وحدي في المدرسة أو إلى أي مكان آخر، لأنني بدونك ليس لديّ ما أعمله هناك، يستقبلني فيه أحدهم. وإذا أنا الآن مع ذلك أتردد، فإنني أفعل ذلك لأنني لسبب وجيه إنما ما زلت دائماً أشك بعض الشك بما حدثتني به. عن يرمياس لديّ انطباع مناقض. كان يلاحقك ما كان في الخدمة ولا أظن أنه كان من شأن الخدمة أن تمنعه على الدوام من أن ينقضّ عليك حقاً ذات مرة. أما الآن، فإن الأمر مغاير، إذ يعتبر أن الخدمة قد انتهت. اعذريني، إذ أوضح الأمر لنفسي بالطريقة التالية: منذ لم تعودي خطيبة سيده، لم تعودي مثل هذا الإغراء له كما كنت في السابق. ممكن أن تكوني صديقته من أيام الطفولة، لكنه لا يعطي حسب رأيي - في الحقيقة إنني لا أعرفه إلا من حديث قصير في هذه الليلة - مثل هذه الأمور العاطفية قيمة كبرى. لا أدري لماذا يبدو لك شخصاً متيّماً. إن طريقة تفكيره تبدو لي بالأحرى باردة على نحو خاص. بخصوصي تلقى من غالاتر مهمة ما ربما ليست في مصلحتي جداً، وهو يسعى لتنفيذ هذه المهمة، بحماسة عمل إلى حد ما، كما أريد أن أعترف - هذه الحماسة ليست نادرة جداً هنا - بأنه مما تتضمنه المهمة هو أن يدمر علاقتنا؛ ربما حاول الأمر بطرائق متعددة، إحداها كانت أنه حاول أن يغريك بشغفه الشهواني، طريقة أخرى، هنا دعمته صاحبة النزل، هي أنه حكى خرافات عن عدم وفائي، لقد حقق مقصده، يمكن لأية ذكرى تتعلق بكلمّ تحيط به أن تكون قد ساعدته، صحيح أنه فقد مكان عمله، لكن ربما بالذات في اللحظة التي لم يعد فيها يحتاجه، الآن يحصد ثمار عمله ويسحبك من نافذة المدرسة، لكن بهذا انتهى عمله ويصبح متعباً بعد أن غادرته حماسة العمل، كان يؤثر أن يكون مكان آرتور، الذي لا يشكو أبداً بل يجلب لنفسه ثناء ومهمات جديدة، لكن يجب كذلك ولا ريب أن يظل أحد حيث هو كي يتابع التطورات القادمة للأمور. ثمة واجب يزعجه بعض الشيء هو العناية بك. ما من أثر لحب لك، لقد اعترف لي بذلك بصراحة، بصفتك حبيبة كلمّ يحترمك طبعاً، وأن يعشش في

غرفتك ويشعر ذات مرة بأنه كلمٌ صغير، يطيب له كثيراً ولا ريب، لكن هذا هو كل شيء، أنت نفسك لا تعني له الآن شيئاً، وأنه آواك هنا هو بالنسبة له مجرد ملحق لمهمته الرئيسية؛ لكي لا يثير القلق في نفسك، بقي هنا بنفسه أيضاً، لكن إلى حين وحسب، ما دام لا يتلقى أخباراً جديدة من القلعة ولا يتمّ علاجك لإصابته بالبرد.» «ما أعظم افتراءك عليه!» قالت فريدا وهي تضرب قبضتيها الصغيرتين بعضهما ببعض. «أفتري؟» قال ك.، «لا، لا أبغي أن أفتري عليه. لكنني ربما أظلمه، هذا ممكن طبعاً. ما قلته عنه ليس مكشوفاً حقاً كل الانكشاف على السطح الظاهر، كما أنه يمكن تفسيره على نحو مغاير. لكن افتراء؟ ليس من شأن الافتراء أن يكون له هدف آخر سوى مكافحة حبك له. لو كان من الضروري ولو كان الافتراء وسيلة مناسبة، لما ترددت في الافتراء عليه. ليس في مقدور أحد أن يدينني لهذا السبب، إنه من خلال الذين يكلفونه يتمتع بمثل هذه الميزة إزائي، بحيث إنه يجوز لي، وأنا أعتمد على نفسي وحدي، أن أفتري أيضاً بعض الشيء. من شأن هذا أن يكون في نهاية المطاف وسيلة دفاع بريئة نسبياً وعاجزة حقاً. دعي إذاً القبضتين تستريحان.» وتناول ك. يد فريدا بيده، أرادت أن تسحب يدها منه، لكن وهي تبتسم وليس بجهد كبير. «بيد أنني لست مضطراً للافتراء»، قال ك.، «إذ إنك لا تحبينه، تظنين ذلك وحسب وسوف تكونين شاكرة لي إذا حررتك من الخداع. انظري، إذا أراد أحدهم أن يبعدك عني، بلا عنف، لكن بتدبير متقن ما أمكن، فإنه لا بدّ له من أن يفعل ذلك عن طريق كلا المساعدَين. ظاهرياً صبيّان طيبان، طفوليّان، مرحان، مستهتران، نازلان من الأعالي، من القلعة، ترافقهما كذلك بعض من ذكريات الطفولة، كل هذا لهو يقيناً شيء لطيف للغاية، وخاصة عندما أكون العكس من كل هذا، وأجري على الدوام وراء الأعمال، التي لا تفهمينها كل الفهم، والتي تضايقك، والتي تجمعني مع ناس جديرين بالمقت بالنسبة لك وتنقل إليّ أيضاً شيئاً من هذا على الرغم من براءتي. المجموع هو مجرد استغلال ماكر، لكن في غاية الذكاء، لشوائب علاقتنا. ما من علاقة تخلو من شوائب، حتى علاقتنا؛ لقد اجتمعنا وكل منا قادم من عالم مغاير كل المغايرة حقاً ومنذ أن تعارفنا، اتخذت حياة كل منا طريقاً جديداً كلياً، إننا نشعر بعدم الأمان، كل شيء جديد علينا كل الجدة. إنني لا أتحدث عن نفسي، هذا ليس مهماً جداً، لقد أُنعم عليّ في الواقع على الدوام، منذ أن التفتت عيناك إليّ لأول مرة والاعتياد على كون المرء منعماً عليه ليس عسيراً جداً. أما أنت، بمعزل عن كل شيء آخر، فقد انتُزعت من كلمّ، وأنا لا أستطيع أن أقدّر ماذا يعني هذا، لكنني شيئاً فشيئاً شعرت شعوراً داخلياً بانتزاعك، المرء يترنح، لا يستطيع أن يجد طريقه، وإذا كنت كذلك على استعداد لقبولك على الدوام، فإنني لم أكن حاضراً دائماً وعندما كنت أحضر، كانت أحلامك تتشبث بك أحياناً أو ما هو أكثر حيوية، صاحبة النزل مثلاً ـ قصارى القول ـ كان ثمة أوقات صرفت فيها النظر عني، تقتِ إلى مكان ما في نصف غير المحدد،

أيتها الطفلة المسكينة، وكان يجب في مثل هذه الفترات وضع ناس مناسبين في اتجاه نظرتك وحسب حتى تتلاشين فيهم، استسلمتِ للخداع بأن هذا، ما كان مجرد لحظات، أشباحاً، ذكريات قديمة، هو في الحقيقة حياة ماضية ودائماً أكثر حياة سابقة منصرمة، بأن هذه ما زالت حياتك الحالية الحقيقية. هذا خطأ يا فريدا، لا شيء إلا الصعوبة الأخيرة المهينة إذا صحّ تقديرها التي تواجه وصالنا النهائي. أفيقي لنفسك، هدئي روعك؛ إذا كنت كذلك فكرت أن المساعدَين إنما قد أرسلهما كلمّ - هذا غير صحيح مطلقاً، إنهما يأتيان من غالاتر - وإذا استطاعا بمعونة هذه الخدعة أن يسحراك، بحيث أنك نفسك عنيت أنك تجدين في وسخهما وفجورهما بصمات من كلمّ، مثلما يظن أحدهم أنه يرى في مزبلة حجراً كريماً كان قد ضاع فيما مضى، في حين أنه ليس في مقدوره في الحقيقة أن يعثر عليه هناك مطلقاً، حتى ولو كان هناك فعلاً - هكذا ليسا هما سوى صبيين من نوع الخدم في الحظيرة، فقط إنهما لا يتمتعان بصحة الخدم، قليل من الهواء البارد يصيبهما بالسقم ويلقيهما على الفراش، الذي يعرفان كيف يختارانه طبعاً بمهارة خدم.» كانت فريدا قد أسندت رأسها إلى كتف ك.، طفقا يمشيان جيئة وذهاباً وهما صامتان وقد أحاط كل منهما الآخر بذراعه. «لو كنا»، قالت فريدا، على مهل، بهدوء، براحة وانبساط تقريباً، على نحو وكأنها تعلم أنها لم تُمنح سوى فترة قصيرة جداً من الهدوء على كتف ك.، لكنها تريد أن تتمتع بها إلى آخر لحظة، «لو كنا فوراً في تلك الليلة قد هاجرنا، لكان في مقدورنا أن نكون في أمان في مكان ما، دائماً معاً، يدك قريبة دائماً على نحو كاف كي أمسكها؛ ما أعظم حاجتي إلى قربك، كم أنا حقاً، منذ أن عرفتك، بدون قربك، مهجورة؛ قربك، صدّقني، هو الحلم الوحيد الذي أحلمه، ولا أحلم غيره.»

هنا نودي في الممر الجانبي، كان يرِمياس، كان يقف هناك على الدرجة الأدنى، كان في القميص وحسب، لكنه كان يلف نفسه بملاءة لفريدا. كيف كان يقف هناك، الشعر مشعّث، اللحية خفيفة كأنها مبتلة من المطر، العينان مرهقتان، مفتوحتان برجاء وعتاب، الوجنتان الداكنتان محمرّتان لكن كأنهما تتكونان من لحم مترهل، الساقان العاريتان ترتجفان من البرد، إلى درجة أن أهداب الملاءة راحت ترتجف مع ارتجاف الساقين، كان كأنه مريض هارب من المصحة، لا يجوز للمرء أن يفكر إزاءه في شيء آخر إلا بإعادته إلى السرير. هكذا فهمت فريدا الأمر أيضاً، انتزعت نفسها من ك. وكانت في الحال لديه في الأسفل. قربها، طريقة الاعتناء التي شدّت بها الملاءة حوله، السرعة التي أرادت بها أن تدفعه للعودة إلى الغرفة، لاح هذا أنه يمنحه بعض القوة، كان الحال كأنه الآن وحسب يتعرف ك.، «آه، السيد مسّاح الأراضي»، قال وهو يربت فريدا، التي لم تشأ أن تسمح بعد الآن بحديث، على وجنتها لتطييب خاطرها، «اعذرني على الإزعاج، لكنني لست بخير قطعاً، هذا يعذر ولا شك. أظن أنه لديّ حمّى، يجب أن أتناول كأس شاي وأعرق. السور الحديدي الملعون في حديقة

المدرسة، سوف يجب عليّ أن أفكر فيه، والآن وأنا مصاب بالبرد رحت أتجول في الليل. يضحي المرء، دون أن يلاحظ ذلك فوراً، بصحته من أجل أشياء هي في الحقيقة لا تستحق ذلك. أما أنت أيها السيد مسّاح الأراضي لا يجب عليك أن تنزعج بسببي، ادخل إلينا في الغرفة، قم بزيارة مرضى وقل لفريدا في أثناء ذلك ما يجب قوله. عندما ينفصل اثنان معتاد أحدهما على الآخر، فإنه من الطبيعي أن يكون لديهما في اللحظات الأخيرة كثيراً مما يقولانه، بحيث أن شخصاً ثالثاً، خاصة إذا كان يرقد في الفراش وينتظر الشاي الموعود به، لا يمكنه أن يفهمه بأي حال. لكن ادخل وحسب، سوف ألزم الهدوء تماماً.» «كفى، كفى»، قالت فريدا وهي تجذب ذراعه، «إنه يهذي من الحمّى ولا يدري ما يقول. لكن أنت، ك.، لا تدخل معه، أرجوك. إنها غرفتي وغرفة يرمياس، أو بالأحرى غرفتي وحدي، إنني أمنعك من الدخول معه. إنك تلاحقني، آه ك. لماذا تلاحقني. أبداً، أبداً لن أعود إليك، إنني أرتعد عندما أفكر في مثل هذا الاحتمال. اذهب إلى فتاتيك؛ بالقميص المفتوح تجلسان على أريكة المدفأة إلى جانبيك، كما قيل لي، وإذا جاء أحد لإحضارك، تصرخان في وجهه. لا ريب أنك هناك في بيتك، إذا كان يجذبك جداً. لقد منعتك دائماً عن هناك، دون نجاح كبير، لكن على كل حال منعتك، لقد انقضى هذا، إنك حر. أمامك حياة جميلة، بسبب الأولى سوف يتعيّن عليك ربما أن تكافح بعض الشيء مع الخدم، لكن في ما يتعلق بالثانية، فإنه لا يوجد أحد لا في السماء ولا في الأرض يستكثرها عليك. الاتحاد مبارك منذ البداية. لا تقل شيئاً ضد ذلك، يقيناً، في مقدورك أن تدحض كل شيء، لكن في نهاية المطاف لايكون شيء قد تمّ دحضه. فكر وحسب، يا يرمياس، لقد دحض كل شيء!» تفاهما بهزة رأس وابتسامة. «لكن»، تابعت فريدا، «لو افترضنا أنه دحض كل شيء، فما تكون نتيجة ذلك، ماذا يعنيني هذا؟ ماذا يحدث هناك لدى أولئك، هو شأنهم وشأنه على نحو كامل، وليس شأني. شأني هو أن أرعاك حتى تعود سليماً معافى، كما كنت في ما سبق، قبل أن يعذبك ك. بسببي.» «إذاً لا تأتي معنا فعلاً، أيها السيد مسّاح الأراضي؟» سأل يرمياس، لكن فريدا، التي لم تعد تلتفت مطلقاً إلى ك.، سحبت يرمياس نهائياً. كان يُرى في الأسفل باب صغير، واطىء أكثر من الأبواب هنا في الممر، ليس يرمياس وحده، بل فريدا كذلك كان عليها أن تنحني أثناء الدخول، في الداخل بدت الغرفة مضاءة ودافئة، وتناهى إلى السمع بعض الهمس، على الأرجح محاولة إقناع حنونة كي يأوي يرمياس إلى الفراش، من ثم أغلق الباب.

٢٣

الآن وحسب لاحظ ك. مدى السكون الذي بات يخيّم على الممر، ليس هنا وحسب في هذا القسم، حيث كان مع فريدا والذي بدا أنه يتبع مجالات المطعم، بل كذلك في الممر الطويل ذي الحجرات التي كان الصخب قبل ذلك يسود فيها. هكذا كان السادة إذاً قد غفوا أخيراً. كذلك ك. كان متعباً جداً، ربما كان بسبب التعب لم يدافع عن نفسه ضد يِرمياس هكذا كما كان عليه أن يفعل. ربما كان من الفطنة أكثر أن يساير يِرمياس، الذي كان قد بالغ على نحو ظاهر في إصابته بالبرد ـ ولولته لم تكن تنبعث من الإصابة بالبرد، بل هي من فطرته ولا يمكن طردها بشاي صحي ـ أن يساير يِرمياس كل المسايرة، كما أن يعرض التعب الشديد حقاً، أن يتهالك هنا على الأرض في الممر، الأمر في حدّ ذاته الذي لا بدّ له من أن يطيب له للغاية، أن يغفو قليلاً وأن يُعتنى به كذلك ربما بعض الشيء. لكن لم يكن من شأن هذا أن ينتهي لصالحه كما هو الحال لدى يِرمياس، الذي كان من شأنه يقيناً وربما بحق أن يفوز في هذا السباق من أجل نوال الشفقة وعلى ما يبدو أيضاً في كل مباراة أخرى. كان ك. متعباً لدرجة أنه فكر أليس في مقدوره أن يحاول أن يدخل إلى إحدى هذه الحجرات، التي كان بعضها خالياً ولا ريب وأن يشبع نوماً في سرير جميل. كان هذا حسب رأيه قميناً أن يكون تعويضاً عن أمور كثيرة. كما أنه كان يملك جرعة منوّمة. على صينية الأواني، التي كانت فريدا قد تركتها على الأرض، كان ثمة دورق روم. لم يخش ك. جهد طريق العودة وتجرع المشروب إلى آخره.

الآن غدا يشعر على الأقل بأنه قويّ بما فيه الكفاية كي يواجه إرلنغر. بحث عن باب حجرة هذا، لكن إذ إنه لم يعد يرى الخادم ولا غرشتكر وكانت كل الأبواب متشابهة، فإنه لم يستطع أن يجده. مع ذلك ظن أنه يتذكر في أي موضع من الممر على وجه التقريب كان الباب يقع وقرر فتح أحد الأبواب، الذي كان حسب رأيه على الأرجح الباب الذي يبحث عنه. لم يكن في مقدور المحاولة أن تكون في غاية الخطورة؛ إذا كانت هذه هي حجرة إرلنغر،

فإن هذا سوف يستقبله ولا ريب، وإذا كانت حجرة أحد آخر، فسيكون من الممكن تقديم الاعتذار والعودة، وإذا كان النزيل نائماً، الأمر الأكثر رجحاناً، فلن يلاحظ أحد زيارة ك. قط، لا يمكن أن يصبح الأمر سيئاً إلا إذا كانت الحجرة خالية، إذ في هذه الحالة لن يتمكن ك. بسهولة من مقاومة الإغراء بأن يستلقي في الفراش ويستغرق في نوم بلا نهاية. تطلع مرة أخرى يميناً ويساراً على طول الممر، ألم يأت أحدهم قد يمكنه أن يعطيه معلومات ويجعل المخاطرة غير ضرورية، بيد أن الممر الطويل كان هادئاً وخالياً. من ثم أصاخ ك. السمع على الباب، هنا أيضاً ما من صوت. قرع الباب بصوت منخفض، بحيث أنه لم يكن في مقدور ذلك أن يوقظ نائماً، وإذ لم يحدث شيء الآن أيضاً، فتح الباب بأقصى حذر. لكن الآن استقبلته صرخة خفيفة. كانت حجرة صغيرة يشغل سرير عريض أكثر من نصفها، فوق المنضدة الليلية الصغيرة كان ثمة مصباح كهربائي يضيء، إلى جانبها كان ثمة حقيبة يد للسفر. في الفراش، لكن متوارياً كلياً تحت الغطاء، تحرك أحدهم بقلق وهمس عبر فجوة بين الغطاء والملاءة: «مَن هنا؟» الآن لم يعد في مقدور ك. أن ينصرف بلا مبالاة، غير مرتاح طفق يتأمل الفراش الممتلئ وغير الخالي للأسف، من ثم تذكر السؤال ونطق باسمه. وبدا هذا أنه أحدث أثراً طيباً، الرجل في الفراش سحب الغطاء من على وجهه قليلاً، لكن متخوفاً، وعلى أهبّة أن يغطي نفسه كلياً مرة أخرى في الحال، إذا كان شيء ما في الخارج ليس على ما يرام. لكنه من ثم أزاح الغطاء بلا تردد وجلس منتصباً. حتماً لم يكن إرلنغر، كان رجلاً قصير القامة ذا هيئة حسنة، بهذا كان وجهه يحمل تناقضاً ما في ذاته، بحيث أن الوجنتين كانتا ممتلئتين والعينين كانتا فرحتين على نحو طفوليّ، لكن الجبين العريض، الأنف المدبب، الفم الرقيق الذي لم تكد شفتاه تريدان أن تتلاقيا، الذقن الذي يكاد يتلاشى، لم تكن طفولية، بل تنمّ عن تفكير متفوق. كان الرضى عن ذلك، الرضى عن الذات هو ما كان قد حافظ له على بقية قوية من طهارة صحية. «هل تعرف فريدريش؟» سأل. ك. نفى ذلك. «لكنه هو يعرفك»، قال الرجل وهو يبتسم. أومأ ك. برأسه، لم يكن ينقص ناس يعرفونه، حتى إن هذا كان إحدى العقبات الرئيسية في طريقه. «أنا سكرتيره»، قال الرجل، «اسمي بيرغل.» «اعذرني»، قال ك. وهو يمدّ يده نحو مقبض الباب، «لقد خلطت للأسف بابك مع باب آخر. إذ إنني مكلف بالحضور إلى السكرتير إرلنغر.» «خسارة!» قال بيرغل، «ليس أنك مكلف بالحضور إلى مكان آخر، بل لأنك خلطت بين الأبواب. إذ إنني، إذا ما أوقظت ذات مرة، لا أستطيع بكل تأكيد أن أعود إلى النوم. لكن لا يجب على هذا أن يكدّرك حتى، هذه مصيبتي الشخصية. لماذا لا يمكن أيضاً للأبواب هنا أن توصد، أليس كذلك؟ لهذا سببه طبعاً. لأنه طبقاً لمثل قديم يجب على أبواب السكرتيرين أن تظل مفتوحة دائماً. لكن هذا طبعاً لا يجب أيضاً أن يؤخذ حرفياً هكذا.» نظر بيرغل إلى ك. متسائلاً وفرحاً، على النقيض من شكواه بدا أنه مرتاح كل الراحة، لا ريب أن بيرغل لم يكن في يوم من الأيام متعباً هكذا مثلما هو حال ك. الآن. «إلى أين تبغي

الذهاب الآن إذاً؟» سأل بيرغل. «إنها الساعة الرابعة. كل من تريد الذهاب إليه، لا بدّ من أن توقظه، وليس كل امرئ معتاداً على الإزعاج كما أنا معتاد، ليس كل امرئ سيقبل الأمر بصبر هكذا، السكرتيرون هم قوم عصبيّون. امكث إذاً برهة من الزمن. في نحو الساعة الخامسة يبدأ المرء هنا بالنهوض، من ثم يمكنك تلبية تكليفك بالحضور على أحسن وجه. أرجو إذاً أن تترك المقبض أخيراً وأن تجلس في مكان ما، المكان هنا ضيق طبعاً، سيكون من الأفضل إذا جلست هنا على حافة السرير. تعجب من أنه ليس لديّ هنا لا كرسي ولا طاولة؟ حسناً، كان لديّ الخيار أن أحصل على أثاث غرفة كامل مع سرير فندق ضيق، أو هذا السرير الكبير ولا شيء آخر سوى حوض الاغتسال. لقد اخترت السرير الكبير، في غرفة نوم يكون السرير هو الشيء الأساسي ولا ريب. آه، من يكون في مقدوره أن يتمدد وينام نوماً مريحاً عميقاً، لا بدّ لهذا الفراش من أن يكون بالنسبة لنائم جيد فاخراً حقاً. لكنه يريحني أنا أيضاً، أنا المتعب دائماً دون أن أتمكن من النوم، إنني أمضي فيه القسم الأكبر من اليوم، أنجز فيه المراسلات كافة، أقوم هنا باستجوابات أصحاب الطلبات. الأمر يسير على نحو جيد. غير أن أصحاب الطلبات ليس لهم أماكن جلوس، لكنهم يحتملون ذلك، إنه لأمر أكثر راحة لهم أيضاً عندما يكونون واقفين وكاتب المحضر يكون مستريحاً من أن يجلسوا براحة في حين يُغلظ القول لهم. من ثم ليس لديّ ما أقدمه سوى هذا المكان على حافة السرير، لكن هذا المكان ليس مكاناً رسمياً وهو مخصص للأحاديث الليلية ليس إلا. لكنك هادئ هكذا أيها السيد مسّاح الأراضي.» «إنني متعب للغاية»، قال ك.، الذي كان قد جلس على السرير واستند إلى عموده، كان قد فعل ذلك بناء على الطلب، في الحال، بخشونة ودون مهابة. «طبعاً»، قال بيرغل وهو يضحك، «هنا كل فرد متعب. إنه على سبيل المثال ليس عملاً صغيراً هذا الذي أنجزته أمس واليوم كذلك. إنه من المستبعد كلياً أن أغفو الآن، لكن إذا حدث هذا الأكثر بعداً عن الاحتمال وغفوتُ ما دمتَ هنا، فإنني أرجوك أن تلزم الهدوء ولا تفتح الباب كذلك. لكن لا تخف، يقيناً لن أغفو وفي أحسن الأحوال طوال دقائق ليس إلا. إذ إن الأمر يحدث معي هكذا، أنني، على الأرجح لأنني معتاد كل الاعتياد على مخالطة أصحاب الطلبات، إنما أغفو في سهولة ويسر أكثر ما يكون عندما يكون لديّ ناس.» «رجاء لتنمْ أيها السيد السكرتير ليس إلا»، قال ك.، مسروراً من هذا الإعلان، «إذا سمحتَ سوف أنام أنا كذلك بعض الوقت.» «لا، لا»، ضحك بيرغل من جديد، «بناء على الدعوة وحدها لا أستطيع أن أنام للأسف، فقط في مجرى الحديث يمكن أن تسنح الفرصة لذلك؛ الحديث هو أكثر ما يشعرني بحاجة إلى النوم. نعم، الأعصاب تعاني في عملنا. أنا على سبيل المثال سكرتير اتصال. لا تعرف ما هو هذا؟ حسناً، أنا أُشكّل أقوى اتصال» ـ هنا فرك يديه على عجل في ابتهاج لا إراديّ ـ «بين فريدريش والقرية، أشكّل الاتصال بين سكرتيريّ القلعة والقرية التابعين له، غالباً أكون في القرية، لكن ليس على نحو متواصل، في كل لحظة يتعيّن عليّ أن أكون على أهبة الاستعداد للسفر إلى

القلعة، إنك ترى حقيبة السفر، حياة غير مستقرة، لا تصلح لكل امرئ. من طرف آخر صحيح أنه ليس من شأني أن أتمكن بعد الآن من الاستغناء عن مثل هذا النوع من العمل، كل عمل آخر قمين أن يبدو لي بلا روح. كيف هي أحوال مسّاح الأراضي إذاً؟» «إنني لا أقوم بمثل هذا العمل، لا يجري تشغيلي مسّاح أراض»، قال ك.، لم يكن في أفكاره كثيراً لدى الموضوع، في الحقيقة كان يتوق وحسب إلى أن يغفو بيرغل، لكنه لم يكن يتوق إلا إحساساً بالواجب ضد نفسه، في قرارة نفسه كان يعتقد أنه يعرف أن لحظة إغفاء بيرغل ما زالت بعيدة على نحو لا يمكن التنبؤ به. «هذا يدعو للاستغراب»، قال بيرغل بحركة رأس نشيطة وهو يخرج دفتر ملاحظات من تحت الغطاء، كي يدوّن فيه شيئاً ما، «أنت مسّاح أراض وليس لديك عمل مسّاح أراض.» أومأ ك. برأسه على نحو آليّ، كان قد مدّ ذراعه الأيسر في الأعلى على دعامة السرير وأسند رأسه على ذراعه؛ كان قد حاول بأشكال مختلفة أن يتخذ وضعاً مريحاً، لكن هذا الوضع كان الأكثر راحة من كل الأوضاع، كما كان في مقدوره الآن أن ينتبه على نحو أفضل بعض الشيء لما يقوله بيرغل. «أنا على استعداد»، واصل بيرغل كلامه، «لأن أتابع هذا الموضوع. لدينا هنا ليست الأمور بكل تأكيد هكذا بحيث أنه يجوز ترك طاقة عمل اختصاصية دون استخدام. وكذلك بالنسبة لك لا بدّ أن يكون الأمر مهيناً، ألا تعاني ذلك؟» «إنني أعاني ذلك»، قال ك. بتؤدة وهو يبتسم بينه وبين نفسه، إذ الآن بالذات لم يكن ليعاني أدنى معاناة. كما أن عرض بيرغل لم يُحدث أثراً كبيراً في نفسه. كان عرضاً غير اختصاصيّ ولا ريب. دون أن يعرف شيئاً عن الظروف التي جرى فيها استدعاء ك.، من الصعوبات التي واجهت هذا الاستدعاء في مجلس القرية وفي القلعة، من التورطات التي نتجت في غضون إقامة ك. هنا أو كانت قد أعلنت عن نفسها ـ دون أن يعرف شيئاً من كل هذا، لا بل حتى دون أن يُظهر، الأمر الذي يجب أن يُنتظر في سهولة ويسر من سكرتير، على الأقل أنه كان يحدس شيئاً من هذا، عرض بلا عناء وبمعونة دفتر ملاحظاته الصغير أن يقوم بتسوية المسألة. «يبدو أنك عشت بعض الخيبات»، قال بيرغل وبهذا أثبت مرة أخرى بعض الفراسة في الناس، كما كان ك. يطالب نفسه بعامة من وقت لآخر منذ أن كان قد دخل إلى الغرفة، بأن لا يستهين ببيرغل، لكن في حالته كان من العسير تقييم شيء آخر إلا تعبه الخاص به. «لا»، قال بيرغل وكأنه يردّ على فكرة من أفكار ك. ويريد مراعاة له أن يوفّر عليه جهد الكلام، «لا يجب عليك أن تدع خيبات الأمل تردعك. هنا يبدو أن بعض الأمور معدّة للتخويف، وعندما يصل المرء إلى هنا جديداً، تبدو له العقبات منيعة كلياً لا سبيل للتغلب عليها. لا أبغي أن أبحث حقيقة هذا الأمر، ربما كان المظهر يطابق الحقيقة فعلاً، في مركزي تنقصني المسافة الصحيحة للتأكد من ذلك، لكن انتبه، قد تسنح من ثم في بعض الأحيان مرة أخرى فرص تكاد لا تتوافق مع مجموع الوضع، فرص يمكن لديها من خلال كلمة، من خلال نظرة، من خلال إشارة ثقة، أن يحقق المرء أكثر مما يحقق من خلال جهود مضنية مدى

الحياة. يقيناً، هكذا هو الحال. مع ذلك تتوافق طبعاً هذه الفرص مرة أخرى مع مجموع الوضع في هذه الحالة من حيث إنها لم تُغتنم في يوم من الأيام. لكن لماذا لا تُغتنم إذاً، أسأل مراراً وتكراراً.» ك. لم يكن يعرف الأمر، صحيح أنه لاحظ، أن ما تحدث عنه بيرغل، إنما يتعلق به كثيراً على الأرجح، بيد أنه كان لديه الآن نفور كبير من كل الأشياء التي كانت تتعلق به، مال برأسه إلى الجانب كأنه بهذا يفسح الطريق لأسئلة بيرغل ولا يمكنها أن تمسّه بعد الآن. «إنها»، تابع بيرغل كلامه، وهو يمدّ ذراعيه ويتثاءب، الأمر الذي كان في تناقض مربك لجدية كلماته، «إنها شكوى السكرتيرين الدائمة بأنهم مرغمون على إجراء جلّ استجوابات القرية في الليل. لكن لماذا يشكون من ذلك؟ لأن الأمر يجهدهم كثيراً؟ لأنهم يؤثرون استخدام الليل في النوم؟ كلا، من ذلك لا يشكون بالتأكيد. يوجد طبعاً بين السكرتيرين مجتهدون وأقل اجتهاداً، مثلما هو الحال في كل مكان، لكن ما من أحد منهم يشكو من جهود كبيرة مبالغ فيها، خاصة علناً لا يشكون. ببساطة، هذه ليست طريقتنا. إننا لا نعرف في هذا الخصوص فرقاً بين الوقت العادي ووقت العمل. مثل هذه الفروق غريبة علينا. لكن ما اعتراض السكرتيرين إذاً على استجوابات الليل؟ هل هو مثلاً مراعاة أصحاب الطلبات؟ لا، لا، هذا أيضاً ليس هو الحال. إن السكرتيرين لا يبالون بأصحاب الطلبات، لكن والحق يقال ليسوا أقل مبالاة بأنفسهم، بل بلا مبالاة بالقدر نفسه تماماً. في الحقيقة هذه اللامبالاة، أي امتثال شديد للخدمة وتنفيذها، هي أكبر مراعاة يمكن لأصحاب الطلبات أن يتمنوها لأنفسهم. في الحقيقة يُعترف بهذا أيضاً اعترافاً كاملاً ـ مراقب سطحيّ لا يلاحظ هذا طبعاً ـ، نعم، في هذه الحالة مثلاً إن الاستجوابات الليلية بالذات هي التي يرحّب بها أصحاب الطلبات، ما من شكاوى مبدئية تتوارد ضد الاستجوابات الليلية. لماذا إذاً نفور السكرتيرين؟» هذا كذلك لم يكن ك. يعرفه، كان لا يعرف الكثير، لم يكن حتى يميّز هل كان بيرغل يطلب الجواب جادّاً أم ظاهرياً وحسب، 'لو تدعني أستلقي في فراشك'، فكر، 'فإنني سوف أجيب على كل الأسئلة ظهر غد أو من الأفضل مساء.' لكن بيرغل بدا أنه لا ينتبه إليه، كان يشغله كل الإشغال السؤال الذي كان قد قدّمه لنفسه: «بقدر ما أعرف وبقدر ما خبرت بنفسي، لدى السكرتيرين بخصوص الاستجوابات الليلية الارتياب التالي على وجه التقريب. الليل أقل صلاحية للمفاوضات مع أصحاب الطلبات، لأنه من العسير أو من المحال تقريباً الحفاظ على الصفة الرسمية للمفاوضات حفاظاً تاماً. هذا لا يكمن في المظاهر، يمكن طبعاً مراقبة الأشكال في الليل بصرامة كما يمكن بالمثل مراقبتها في النهار. ليس هذا هو الحال إذاً، لكن التقييم الرسمي يعاني في الليل. ينزع المرء على نحو لا إراديّ إلى تقييم الأمور في الليل من وجهة نظر خاصة أكثر، ما يقدمه أصحاب الطلبات يأخذ أهمية أكثر مما يحق له، في التقييم تدخل اعتبارات لا مكان لها هنا تتعلق بالأوضاع الأخرى لأصحاب الطلبات، معاناتهم وهمومهم، الحاجز الضروري بين أصحاب الطلبات والموظفين، ولو بدا ظاهرياً أنه قائم على نحو خال من

الأخطاء، يتراخى، وإذ إنه، فيما عدا ذلك، كما يجب أن يكون الحال، لا يوجد سوى أسئلة وأجوبة بين الفينة والأخرى، يبدو أحياناً أنه يحدث تبادل أشخاص غريب لا يناسب قط. هكذا يقول على الأقل السكرتيرون، إذاً أناس أنعم عليهم نتيجة مهنتهم برهافة حس فائقة فيما يتعلق بمثل هذه الأمور. لكن حتى هم ـ كثيراً ما بُحث هذا في دوائرنا ـ لا يلاحظون أثناء الاستجوابات الليلية الكثير من تلك التأثيرات غير الملائمة، على العكس من ذلك، إنهم يبذلون كل طاقاتهم منذ البداية لمواجهتها ويعتقدون في نهاية المطاف أنهم حققوا إنجازات جيدة على نحو خاص كلياً. لكن إذا قرأ المرء المحاضر في ما بعد، فإنه يدهش غالباً من نقاط ضعفهم البادية للعيان. وهذه أخطاء، هي مراراً وتكراراً مكاسب لأصحاب الطلبات غير محقة، لم يعد بالإمكان تداركها على الأقل حسب تعليماتنا بالطريق القصير العادي. من المؤكد أنه سيجري تحسينها ذات مرة من قبل هيئة تفتيش، لكن هذا سيفيد الحق وحسب، غير أنه لن يستطيع بعد الآن أن يسيء إلى صاحب الطلب ذاك. تحت مثل هذه الظروف أليست شكاوى السكرتيرين محقة جداً؟» كان ك. قد أمضى برهة قصيرة في نصف غفوة، الآن كان قد أزعج مرة أخرى. 'لماذا كل هذا؟ لماذا كل هذا؟' تساءل وراقب من تحت أجفانه المسبلة بيرغل لا من حيث هو موظف يناقش معه مسائل معقدة، بل كمجرد شيء ما أعاقه عن النوم ولم يتمكن من العثور على جدواه في ما عدا ذلك. أما بيرغل، المستسلم كلياً لأفكاره، فقد ابتسم وكأنه تمّ له الآن تضليل ك. بعض الشيء. لكنه كان مستعداً لأن يعيده على الفور إلى الطريق الصحيح. «حسناً»، قال، «لا يمكن للمرء أن يصف هذه الشكاوى ببساطة بأنها محقة كلياً. صحيح أن الاستجوابات الليلية لا تفرضها في الحقيقة أية تعليمات، إن المرء لا يخالف إذاً تعليمات إذا حاول تجنبها، لكن الظروف، غزارة العمل، طريقة تشغيل الموظفين في القلعة، صعوبة وجودهم تحت التصرف، التعليمات التي تقضي بوجوب إجراء الاستجواب فقط بعد الانتهاء الكامل من بقية الفحص، لكن من ثم على الفور، كل هذا وغيره الكثير جعل الاستجواب الليلي بالتأكيد ضرورة لا مناص منها. لكن إذ غدا الآن ضرورة ـ هكذا أقول ـ فيكون هذا أيضاً، على الأقل مباشرة، هو نتيجة للتعليمات وانتقاد ماهية الاستجوابات الليلية من شأنه أن يعني من ثم على وجه التقريب ـ طبعاً أنني أبالغ بعض الشيء، لذا، يجوز لي أن أقوله بصفته مبالغة ـ من شأنه أن يعني من ثم، حتى انتقاد التعليمات. نظير ذلك يمكن أن يظل من المعترف به للسكرتيرين أن يحاولوا في نطاق التعليمات ضد الاستجوابات الليلية وأضرارها التي قد تكون ظاهرية وحسب التأمين على أنفسهم ما استطاعوا. وهذا هو ما يفعلونه حقاً وطبعاً بأكبر قدر، إنهم لا يسمحون بمواضيع مفاوضات إلا تلك التي لا يخشى منها بذلك المعنى كثيراً إن أمكن، يفحصون أنفسهم بدقة قبل المفاوضات، وإذا تطلبت نتيجة الفحص الأمر، فإنهم يلغون في آخر لحظة كل الاتفاقات، يعمدون إلى تقوية أنفسهم بأن يدعوا أحد أصحاب الطلبات غالباً عشر مرات قبل أن يقوموا باستنطاقه فعلاً، يدعون أنفسهم يناب عنهم بسرور من قبل

زملاء غير مختصين بالحالة صاحبة العلاقة ولذا يمكنهم معالجتها بسهولة أكبر، يحددون مواعيد المفاوضات في بداية أو نهاية الليل ويتجنبون الساعات الوسطى - وهناك كثير من مثل هذه الإجراءات؛ لا يدعون أنفسهم يضبطون بسهولة، السكرتيرون، إنهم قادرون على المقاومة على وجه التقريب مثلما هم رقيقو الشعور.» ك. نام، صحيح أنه لم يكن نوماً حقيقياً، فقد كان يسمع كلمات بيرغل ربما أفضل مما كان يسمعها أثناء اليقظة السابقة التي كان منهكاً فيها، كلمة كلمة راحت تضرب على أذنه، غير أن الوعي المزعج كان قد اختفى، أحس أنه حر، لم يكن بيرغل هو الذي يمسكه، هو وحده راح يتلمس أحيانا نحو بيرغل، كان ما زال لم يكن في عمق النوم، لكنه كان قد غرق فيه، ليس على أحد أن يسلبه إياه بعد الآن. وكان حاله كأنه بهذا إنما أحرز نصراً كبيراً وعلى الفور كان أيضاً ثمة جماعة هنا للاحتفال بالنصر ورفع هو أو أيضاً أحد آخر كأس الشمبانيا على شرف النصر. ولكي يعرف الجميع ما الموضوع، جرى تكرار الكفاح والنصر مرة أخرى أو ربما لم يتكرر أبداً بل إنه حدث الآن وحسب وكان في السابق قد احتفل به ولم يُكفّ عن الاحتفال به، لأن الخاتمة كانت مؤكدة لحسن الحظ. سكرتير، عار، يشبه كل الشبه تمثال إله إغريقيّ، جرى التضييق عليه في الكفاح من قبل ك. كان الوضع مضحكاً للغاية وابتسم ك. بلطف على ذلك وهو في النوم، كيف أفزع السكرتير دائماً من وضعه الفخور بضربات ك. وكان يتعيّن عليه أن يستخدم على عجل الذراع الممدودة عالياً والقبضة المكورة لكي يغطي عوراته ومع ذلك كان ما زال دائماً بطيئاً جداً. لم يستغرق الكفاح مدة طويلة، تقدم ك. خطوة خطوة وكانت خطوات كبيرة جداً. هل كان الأمر كفاحاً أصلاً؟ لم يكن ثمة عائق جدّيّ، فقط بين الفينة والأخرى زقزقة السكرتير. هذا الإله الإغريقي طفق يزقزق مثلما تفعل فتاة تُدغدَغ. وآخر الأمر انصرف؛ ك. كان وحده في مكان واسع، مستعداً للكفاح استدار وبحث عن الخصم، لكن لم يكن أحد هنا، الجماعة أيضاً كانت قد انفضّت، وحده كأس الشمبانيا كان على الأرض وقد انكسر، ك. دعسه وحطمه كلياً. لكن قطع الزجاج المكسور كانت تخز، وهو يرتعش استيقظ مرة أخرى، كانت نفسه تغثو، مثل طفل صغير عندما يوقظ، مع ذلك لدى رؤية صدر بيرغل العاري خطرت بباله فكرة من الحلم: «هنا لديك حقاً إلهك الإغريقيّ! انتزعه من الفراش!» «لكن يوجد»، قال بيرغل وهو مشغول الفكر وقد رفع وجهه نحو سقف الغرفة، وكأنه يبحث في ذاكرته عن أمثلة، لكنه لا يستطيع أن يجدها، «لكن يوجد على الرغم من كل تدابير الحيطة إمكانية لأصحاب الطلبات بأن يستغلوا لأنفسهم هذا الضعف الليلي للسكرتيرين، دائماً على فرض أنه ضعف. إنها طبعاً إمكانية نادرة جداً أو من الأفضل القول إنها إمكانية لا تكاد توجد في يوم من الأيام. إنها تكمن في أن صاحب الطلب يأتي في منتصف الليل على غير موعد. قد تعجب من أن هذا، مع أنه يبدو مرجحاً، لا يحدث إلا نادراً جداً. حسناً، أنت لست ملمّاً بظروفنا. لكن يفترض أن خلوّ المنظمة الرسمية من الثغرات قد لفت نظرك أنت أيضاً. لكن من

انعدام الثغرات هذا ينتج أن كل من يكون لديه طلب ما أو لأسباب أخرى يجب استجوابه عن شيء ما، إنما يحصل على التكليف بالحضور على الفور، دون تردد، غالباً حتى قبل أن يكون نفسه قد تدبر الموضوع، لا بل حتى قبل أن يعرف عنه شيئاً. في هذه المرة لا يزال لا يجري استجوابه، في أغلب الحالات لا يزال لا يجري استجوابه، لا تزال المسألة في العادة لم تنضج بعد، لكنه حصل على التكليف بالحضور، على غير موعد، هذا يعني أنه لم يعد يستطيع المجيء على نحو مفاجئ كلياً، يستطيع على الأكثر أن يأتي في وقت غير مناسب، من ثم يُلفت نظره إلى تاريخ وساعة الدعوة وحسب وإذا ما جاء ثانية في الموعد الصحيح، فإنه يُصرف في العادة، هذا لا يثير صعوبة بعد الآن، الدعوة بيد صاحب العلاقة والملاحظة في الملفات، هذه أسلحة وقائية غير كافية دائماً للسكرتيرين، لكنها قوية. بيد أن هذا لا يتعلق إلا بالسكرتير المختص الآن بالمسألة، وكل فرد له حرية التماس السكرتيرين الآخرين على نحو مفاجئ في الليل. لكن لا يكاد أحد يفعل ذلك، لا جدوى من ذلك تقريباً. في البداية من شأن المرء أن يثير بهذا سخطاً كبيراً في نفس السكرتير المختص، صحيح نحن السكرتيرون لا يغار بعضنا من بعض بالتأكيد بخصوص العمل، كل منا يثقل كاهله عبء توقع عال، حقاً بلا أية صغائر، لكن إزاء أصحاب الطلبات لا يجوز لنا أن نقبل بأية حال إخلال في الاختصاصات. بعضهم يخسر المسألة لأنه، إذ كان يعتقد أنه لا يتقدم لدى الموضع المختص، حاول أن يتسلل إلى جهة غير مختصة. للمناسبة، مثل هذه المحاولات لا بدّ لها من أن تفشل أيضاً لسبب أن سكرتير غير مختص، حتى لو أخذ ليلاً على حين غرة ومهما حسنت نيته أن يساعد، لا يستطيع، طبعاً نتيجة عدم اختصاصه، أن يتدخل أكثر ولو قليلاً من أي محام أو في الحقيقة أقل بكثير، إذ إنه لينقصه، حتى لو كان في مقدوره أن يفعل شيئاً ما في ما عدا ذلك، لأنه يعرف بالتأكيد طرق القانون السرية أكثر من جميع السادة المحامين، - ينقصه ببساطة الأشياء التي ليست من اختصاصه كل وقت، من أجلها لا يستطيع أن ينفق لحظة واحدة. مَنْ مِن شأنه إذاً لدى هذه الآمال أن يستخدم لياليه في البحث عن سكرتيرين غير مختصين، كما أن أصحاب الطلبات يعملون أعمالاً عديدة، إذا ما أرادوا إلى جانب مهنهم الأخرى تلبية دعوات الجهات المختصة ونداءاتها بالإشارة، 'يعملون أعمالاً عديدة' طبعاً بمعنى أصحاب الطلبات، الأمر الذي ليس نفسه مثل 'يعملون أعمالاً عديدة' بمعنى السكرتيرين.» أومأ ك. برأسه وهو يبتسم، غدا الآن يعتقد أنه يفهم كل شيء بدقة، ليس لأن الأمر كان يشغل باله، بل لأنه الآن كان على قناعة أنه خليق في اللحظات التالية أن يستغرق في النوم كلياً، هذه المرة بلا حلم ولا إزعاج؛ بين السكرتيرين المختصين من جانب وغير المختصين من جانب آخر ونظراً لكثرة أصحاب الطلبات الذين يعملون أعمالاً عديدة قمين أن يغرق في نوم عميق وينجو بهذه الطريقة من الجميع. على صوت بيرغل المنخفض الراضي عن نفسه، هذا الصوت الذي يعمل عبثاً على ما يبدو من أجل النوم الخاص بصاحبه، كان ك. قد اعتاد إلى درجة أن من شأن هذا

الصوت أن يشجع على النوم أكثر مما يزعجه. ’جعجعي يا طاحونة جعجعي‘، فكر في ذات نفسه، ’أنت لا تجعجعين إلا لي وحدي‘. «أين هي الآن إذاً»، قال بيرغل، وهو يعبث بأصبعين في شفته السفلى، ويوسّع عينيه، ويشرئبّ بعنقه، هكذا كأنه يقترب بعد تجوال شاق من نقطة رؤية مطلة على منظر ساحر، «أين هي الآن إذاً تلك الإمكانية المذكورة، النادرة، التي تكاد لا توجد قط؟ إن السر يكمن في التعليمات بشأن الاختصاص. إذ إن الأمر ليس هكذا ولا يمكنه أن يكون في منظمة كبيرة حيوية هكذا أنه لا يوجد لكل مسألة سوى سكرتير محدد مختص فيها. إن الحال هو فقط هكذا أن واحداً لديه الاختصاص الرئيسي، لكن آخرين كثيرين لديهم أيضاً اختصاص ولو صغير في أجزاء معينة. من يستطيع وحده، ولو كان أكبر عامل، أن يجمع على طاولة مكتبه جميع العلاقات المتعلقة بأصغر واقعة فقط؟ حتى ما قلته عن الاختصاص الرئيسي هو قول أكثر من اللازم. ألا يكمن الاختصاص الكليّ في أصغر اختصاص؟ ألا يحسم هنا الشغف، الذي يُتولّى الموضوع به؟ وأليس الشغف هو دائماً نفسه، دائماً بقوة كاملة؟ في كل شيء يمكن أن توجد فروق بين السكرتيرين وهناك عدد لا يُحصى من مثل هذه الفروق، لكن ليس في الشغف، ما من أحد منهم سوف يمكنه أن يتحفظ إذا تقدم إليه الطلب بمعالجة حالة لا يملك لها أدنى اختصاص. لكن نحو الخارج يجب خلق إمكانية تفاوض منظّمة، وهكذا يظهر في المقدمة سكرتير معيّن لكل امرئ من أصحاب الطلبات سكرتير يتعيّن عليهم الالتزام به رسمياً. لكن هذا لا يجب أن يكون حتى ذلك الذي يملك أكبر اختصاص للحالة، هنا تحسم المنظمة وحاجاتها الخاصة الراهنة. هذه هي الحال. والآن تبصّر أيها السيد مسّاح الأراضي في الإمكانية بأن أحد أصحاب الطلبات من خلال أية ظروف على الرغم من العقبات الموصوفة الكافية كلياً بصورة عامة مع ذلك يباغت في منتصف الليل سكرتيراً يملك اختصاصاً ما للحالة صاحبة العلاقة. لم تفكر بعد في مثل هذه الإمكانية؟ أودّ بسرور أن أصدقك. كما أنه ليس من الضروري التفكير فيها، إذ إنها لا تكاد تأتي في يوم من الأيام. أية حبّة صغيرة غريبة ومخلوقة على نحو محدد كلياً وبارعة لا بدّ أن يكون مثل هذا الشخص من أصحاب الطلبات كي ينفذ عبر الغربال فائق الجودة. تعتقد أنه لا يمكن أن يحدث أبداً؟ إنك على صواب، لا يمكن أن يحدث قط. لكن ذات ليلة ـ من يستطيع أن يضمن كل شيء؟ ـ يحدث الأمر بلى. غير أنني لا أعرف بين معارفي أحداً حدث له الأمر؛ صحيح أن هذا لا يبرهن على شيء كثير، إن عدد معارفي محدود بالمقارنة بالأعداد التي تدخل هنا في الاعتبار وفوق ذلك إنه كذلك ليس من المؤكد أبداً أن يرغب سكرتير حدث له مثل هذا في الاعتراف به أيضاً، إن الأمر على كل حال هو مسألة شخصية جداً وإلى حد ما تمسّ الحياء الرسمي مسّاً وثيقاً. لكن على كل حال ربما تبرهن تجربتي أن الأمر يتعلق بمسألة نادرة الوقوع لا توجد في الحقيقة إلا حسب الإشاعة ولا يؤكدها أي شيء آخر أبداً، إنه إذاً من المبالغ فيه جداً أن يخشاها المرء. حتى لو كانت حدثت فعلاً، فإنه يمكن للمرء ـ عليه أن يعتقد ـ أن يشلّها بمعنى

الكلمة بأن يبرهن لها، الأمر الذي هو في غاية السهولة، بأنه من أجلها لا يوجد مكان في هذا العالم. على أي حال إن الأمر مَرْضيّ إذا اختفى المرء خوفاً منها تحت اللحاف ولا يجرؤ على النظر إلى الخارج. وحتى لو أن انعدام الاحتمال الكامل اتخذ شكلاً على حين غرّة، هل يكون كل شيء قد ضاع؟ على العكس. القول إن كل شيء قد ضاع هو أمر أكثر استحالة من أشد الأمور استحالة. طبعاً، إذا كان صاحب الطلب في الغرفة، فإن الحال يكون سيئاً للغاية. إنه يضيّق القلب. 'إلى متى سوف تستطيع أن تقاوم' يتساءل المرء. عليك أن تتصور الوضع على نحو صحيح وحسب. إن صاحب الطلب، الذي لم يُر قط، المتوقَع دائماً، المتوقع بتعطش حقيقي ودائماً يُعتبر بطريقة عقلانية أنه لا سبيل إلى لقياه، يجلس هنا. بمجرد حضوره الصامت يدعو للدخول إلى حياته المسكينة، والتنقيب فيها كما في الملكية الخاصة، والمشاركة في المعاناة هناك تحت مطالبها التي لا طائل تحتها. هذه الدعوة في الليل الساكن خانقة. المرء يلبيها وقد كفّ في الحقيقة عن أن يكون شخصاً رسمياً. إنه وضع سرعان ما يصبح فيه رفضُ طلبٍ أمراً غير ممكن. بالمعنى الدقيق يكون المرء يائساً وبدقة أكثر يكون المرء سعيداً. يائس، إذ إن هذا الضعف الذي يجلس معه المرء هنا وينتظر طلب الطرف ويدري أنه يجب عليه تلبية الطلب بمجرد أن يجري تقديمه، وذلك حتى لو، على الأقل بقدر ما يستطيع المرء نفسه أن يقدّر، قام بتمزيق المنظمة الرسمية بمعنى الكلمة ـ هذا هو أسوأ ما يستطيع المرء أن يواجهه في الممارسة. قبل كل شيء ـ بمعزل عن كل شيء آخر ـ لأن الأمر هو كذلك ترقية لا يوجد مفهوم لها، ترقية يستعملها المرء لنفسه حالياً عنوة. حسب مركزنا لسنا مخوّلين مطلقاً بأن نلبي طلبات مثل الطلب الذي يدور الموضوع حوله هنا، لكن بقرب هذا الطرف الليلي تزداد لدينا نوعاً ما القوى الرسمية أيضاً، نلتزم بأشياء هي خارج مجالنا، لا بل سوف ننفذها أيضاً، إن صاحب الطلب يأخذ منا بالغصب في الليل مثل اللص في الغابة قرابين، نحن عاجزين مطلقاً عن تقديمها في ما عدا ذلك، حسناً، هكذا هو الحال الآن، إذا كان الطرف ما زال هنا، يقوّينا ويرغمنا ويحمّسنا ويحفّزنا وكل شيء ما زال يجري بنصف وعي، لكن كيف سيكون الحال لاحقاً، عندما يكون الأمر قد مضى، الطرف شبعان ويغادرنا غير مكترث ونحن نقف هنا، وحيدين، عزّل عند مواجهة سوء استخدامنا للسلطة ـ هذا لا يمكن التفكير فيه مطلقاً. ومع ذلك نحن سعداء. كم يمكن للسعادة أن تكون انتحارية. في مقدورنا أن نجهد لإخفاء الوضع الحقيقي عن صاحب الطلب. هو نفسه من ذاته لا يكاد يلحظ شيئاً. إنه حسب رأيه على الأرجح فقط لأية أسباب وقعت بالمصادفة في غير اكتراث، وهو منهك، خائب الأمل، بلا مراعاة ولا مبالاة، من الإنهاك وخيبة الأمل، إنما دخل إلى غرفة أخرى غير التي كان يريد الدخول إليها، إنه يجلس هنا جاهلاً ويشغل نفسه في أفكاره، إذا كان يشغل نفسه أصلاً، بخطئه أو تعبه. ألا يمكن تركه لدى ذلك؟ لا، لا يمكن ذلك. في ثرثرة السعيد على المرء أن يشرح للطرف كل شيء. يجب على المرء، دون أن يقدر أن يصون نفسه في كثير أو قليل، أن

يبيّن له بإسهاب ماذا حدث ولأية أسباب حدث هذا، ما أندر هذه الفرصة ندوراً فوق العادة وما أكبرها على نحو لا مثيل له، على المرء أن يبيّن كيف دخل صاحب الطلب في هذه المسألة متخبطاً، عاجزاً كل العجز، كما لا يستطيع مخلوق آخر أن يكون قادراً على ذلك غير صاحب الطلب هذا، لكن كيف يمكنه الآن، إذا أراد، أيها السيد مسّاح الأراضي، أن يسيطر على كل شيء ولقاء ذلك ليس عليه أن يفعل شيئاً آخر إلا أن يقدم طلبه على نحو من الأنحاء، هذا الطلب الذي تلبيته جاهزة منذ الآن، لا بل تمتد نحوه ـ كل هذا يجب على المرء أن يبيّنه، إنها ساعة الموظف الصعبة. لكن إذا عمل المرء هذا أيضاً، فإن الضروريّ يكون قد حدث، أيها السيد مسّاح الأراضي، على المرء أن يتواضع وينتظر.»

أكثر من ذلك لم يسمع ك. استغرق في النوم، منعزلاً عن كل ما حدث. رأسه، الذي كان يستند أولاً إلى ذراعه اليسرى فوق على عمود السرير، كان قد انزلق أثناء النوم وبات الآن طليقاً، تطامن إلى الأسفل ببطء، دعامة الذراع فوق لم تعد تكفي بعد الآن، على نحو لا إراديّ وفّر ك. دعامة جديدة بأن أسند يده اليمنى إلى غطاء السرير، حيث أمسك بالمصادفة قدم بيرغل بالذات المرتفعة تحت الغطاء. تطلع بيرغل وترك له القدم، مهما كان ذلك مضايقاً.

الآن تناهى صوت بعض الضربات الشديدة على الجدار الجانبي، فزع ك. ونظر إلى الجدار. «أليس مسّاح الأراضي هناك؟» سئل. «أجل»، قال بيرغل، وهو يحرر قدمه من ك. وتمدد فجأة بعنف وعزيمة مثل صبيّ صغير. «إذاً عليه أن يأتي أخيراً إلى هنا»، قيل مرة أخرى؛ لم يُراعَ بيرغل ولم يُراعَ أنه قد يمكنه أن يكون ما زال بحاجة إلى ك. «إنه إرلنغر»، قال بيرغل هامساً؛ أن إرلنغر كان في الغرفة المجاورة بدا أنه لا يفاجئه، «اذهب فوراً إليه، لقد بدأ يسخط، حاول أن تهدئ خاطره. لقد نام نوماً طيباً، لكننا تحدثنا بصوت عال، لا يستطيع المرء أن يتحكم بنفسه وبصوته، عندما يتحدث في أشياء معينة. الآن، لتذهب، يبدو أنك لا تستطيع أن تخرج نفسك من النوم مطلقاً. اذهب، ماذا ما زلت إذاً تريد هنا؟ لا، لا يجب عليك أن تعتذر بسبب نعاسك، لماذا إذاً؟ إن القوى البدنية لا تكفي إلا لحدّ معيّن، من يستطيع أن يفعل شيئاً أن هذا الحدّ بالذات هو أيضاً في ما عدا ذلك ذو أهمية. لا، لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً. هكذا يصحح العالم نفسه في مجراه ويحافظ على التوازن. إن هذا لهو تدبير باهر، دائماً وأبداً تدبير باهر لا يمكن تصوره، ولو كان موحشاً من ناحية أخرى. الآن اذهب، لا أدري لماذا تنظر إليّ هكذا. إذا ترددت طويلاً، فإن إرلنغر يأتي ويغضب مني، أودّ بكل سرور أن أتجنب هذا. فلتذهب، من يدري ماذا ينتظرك هناك، هنا كل شيء مليء بالفرص. لكن ثمة فرص طبعاً كبيرة لحد ما كبراً مفرطاً لا يسمح بالإفادة منها؛ ثمة أشياء لا تفشل لأي شيء آخر إلا بسبب نفسها. نعم، هذا مثير للدهشة. للمناسبة، إنني لآمل الآن أن أتمكن من النوم قليلاً. طبعاً

أصبحت الساعة الخامسة وسوف يبدأ الصخب عما قريب. ليتك ترغب في الانصراف على الأقل!»

مذهولاً من الإيقاظ المفاجئ من نوم عميق، وهو ما زال بحاجة بلا حدود إلى نوم، بجسم متألم في كل مكان نتيجة للوضع غير المريح الذي كان يتخذه، لم يقدر ك. طوال مدة على أن يتخذ قراراً بالنهوض، أمسك جبينه ونظر نحو الأسفل إلى حضنه. حتى عبارات وداع بيرغل المتواصلة لم يكن في مقدورها أن تدفعه للانصراف، ولم يدفعه إلى ذلك على مهل سوى شعور بانعدام كامل لجدوى كل مكوث في هذه الغرفة. وقد بدت له هذه الغرفة مقفرة على نحو لا يوصف. ولم يكن يدري أكان الحال قد أصبح هكذا أم أنه كان هكذا منذ القدم. ولا حتى النوم من جديد من شأنه أن يتمّ له هنا. حتى إن هذه القناعة كانت الأمر الحاسم، مبتسماً بعض الشيء لهذا قام واقفاً، استند حيثما وجد سنداً، إلى الفراش، إلى الجدار، إلى الباب، وخرج، وكأنه قام بوداع بيرغل منذ مدة طويلة، دون تحية.

٢٤

على الأرجح كان خليقاً من غير اكتراث كذلك أن يمرّ بغرفة إرلنغر، لو لم يكن إرلنغر يقف في الباب المُشرَع ولو لم يلوّح له بيده. تلويحة قصيرة فريدة بالسبّابة. كان إرلنغر جاهزاً كلياً للانصراف، كان يرتدي معطف فرو أسود ذا ياقة صغيرة مزرّرة إلى أعلى. كان خادم قد ناوله الآن القفاز وما زال يمسك قلنسوة فرو. «كان عليك أن تحضر منذ مدة طويلة»، قال إرلنغر. أراد ك. أن يعتذر، بإغلاق متعب لعينيه بيّن إرلنغر أنه يستغني عن ذلك. «الموضوع يدور حول التالي»، قال، «في المشرب كانت فتاة تدعى فريدا مستخدمة سابقاً، أنا لا أعرف سوى اسمها، هي نفسها لا أعرفها، لست مهتماً بها. هذه الفريدا كانت تقدم أحياناً البيرة إلى كلمّ. الآن يبدو أن هناك فتاة أخرى. هذا التغيير هو غير ذي أهمية طبعاً، على الأرجح بالنسبة لكل شخص وبكل تأكيد بالنسبة لكلمّ. كلما كان العمل كبيراً وعمل كلمّ هو الأكبر طبعاً، تظل طاقة أقل للدفاع عن النفس ضد العالم الخارجي، ومن ثم يمكن لكل تغيير غير ذي أهمية لأكثر الأشياء تفاهة أن يثير إزعاجاً جدياً. أدنى تغيير على طاولة المكتب، إزالة بقعة كانت موجودة هناك منذ مدة طويلة، كل هذا يمكنه أن يزعج وبالمثل فتاة مشرب جديدة. حتى لو أزعج هذا كل فرد ولدى كل عمل، فإن كل هذا لا يزعج كلمّ طبعاً، لا يمكن الحديث أبداً عن إزعاج. مع ذلك نحن ملزمون بأن نسهر على راحة كلمّ إلى حدّ أن نزيل حتى الإزعاجات، التي ليست إزعاجات له ـ وعلى الأرجح لا يوجد له أصلاً إزعاجات ـ إذا لفتت نظرنا بصفتها إزعاجات محتملة. ليس من أجله، ليس من أجل عمله نزيل هذه الإزعاجات، بل من أجلنا نحن، من أجل ضميرنا وراحتنا. لذا يجب على تلك الفريدا أن تعود إلى المشرب على الفور، ربّما سوف تسبب عودتها بالذات إزعاجاً، في هذه الحالة سوف نصرفها ثانية، لكن حالياً يتعيّن عليها أن تعود. أنت تعيش معها، كما قيل لي، لذا اعمل في الحال على عودتها. مشاعر شخصية في ذلك لا يمكن مراعاتها، إن هذا لهو أمر بديهيّ، لذا لا أدخل كذلك في أدنى حديث آخر عن الموضوع. إنني أفعل أكثر بكثير مما هو ضروري عندما أذكر

أنه إذا نجحتَ في هذا الأمر الصغير، فإن ذلك يمكنه أن يكون مفيداً لك أحياناً في تقدمك. هذا كل شيء مما عليّ أن أقوله لك.» أومأ برأسه إلى ك. مودعاً، ارتدى قلنسوة الفرو التي قدمها له الخادم وسار مسرعاً في الممر المنحدر لكن وهو يعرج قليلاً وقد تبعه الخادم.

أحياناً كانت تعطى هنا أوامر من اليسير جداً تنفيذها، لكن هذه السهولة لم تسرّ ك. ليس فقط لأن الأمر كان يتعلق بفريدا وطبعاً كان مقصوداً كأمر، لكنه بدا لـ ك. مثل استهزاء، بل قبل كل شيء لأنه يشير لـ ك. إلى عدم جدوى كل مساعيه. من فوقه كانت الأوامر تمرّ دون اكتراث به، غير الملائمة والملائمة وكذلك الملائمة كانت تملك نواة أخيرة غير ملائمة، لكن على كل حال جميعها كانت تتجاهله وكان ذا درجة متدنية كثيراً أكثر من أن يتدخل فيها أو حتى أن يسكتها وأن يحصل على أذن مصغية لصوته. إذا لوّح إرلنغر لك بيده، ماذا تبغي أن تفعل، وإذا لم يلوّح، ماذا يمكنك أن تقول له؟ صحيح أن ك. ظل واعياً أن نعاسه كان قد أضر به اليوم أكثر من كل لا ملاءمة الظروف، لكن لماذا لم يكن في مقدوره، هو الذي كان يعتقد أنه يستطيع أن يعتمد على بدنه والذي ما كان من شأنه دون هذه القناعة أن يكون قد اتخذ طريقه قط، لماذا لم يكن في مقدوره أن يحتمل بضع ليال سيئة وليلة بلا نوم؟ لماذا استحوذ عليه هنا بالذات نعاس لا يمكن التحكم فيه، حيث لم يكن أحد مصاباً بالنعاس أو حيث بالأحرى كل فرد وعلى الدوام مصاب بالنعاس، لكن دون أن يكون من شأن هذا أن يضرّ بالعمل، لا بل إن الأمر بدا أنه بالأحرى يشجعه. من هذا كان يُستنتج أن الحال كان بطبيعته نعاساً آخر كلياً غير نعاس ك. هنا كان الحال ولا ريب نعاساً في وسط عمل سعيد، شيئاً كان يبدو نحو الخارج كأنه نعاس وفي الحقيقة كان هدوءاً لا يفنى، سلاماً لا يفنى. عندما يشعر المرء ببعض التعب عند الظهيرة، فإن هذا هو جزء من المجرى الطبيعي السعيد لليوم. إن السادة هنا لديهم باستمرار وقت الظهيرة، قال ك. في ذات نفسه.

وتطابق مع ذلك كل المطابقة أن الحياة دبّت الآن في الساعة الخامسة في كل مكان إلى جانبي الممر. هذا الخليط المضطرب من الأصوات في الغرف كان فيه شيء من البهجة والفرح إلى أقصى درجة. مرة كان يبدو مثل تهليل أطفال يستعدون للقيام برحلة، ومرة مثل استيقاظ الدجاج في الحظيرة، مثل البهجة أن يكون المرء في توافق تامّ مع النهار المنبلج، حتى إن رجلاً في مكان ما راح يحاكي صياح ديك. صحيح أن الممر نفسه كان ما زال خالياً، غير أن الأبواب كانت في حركة، مراراً وتكراراً كان أحد الأبواب يفتح قليلاً ويغلق ثانية على عجل، كان الممر مكتظاً بمثل فاتحي الأبواب ومغلقيها هؤلاء، أحياناً كان ك. يرى كذلك في الأعلى في فتحة الجدران التي لا تصل إلى السقف رؤوساً مشعثة الشعر صباحياً تظهر وتختفي في الحال. من بعيد أقبلت على مهل عربة صغيرة يقودها خادم تحتوي على ملفات. خادم ثان كان يسير إلى الجانب وكان يحمل في يده قائمة وراح على ما يبدو يقارن أرقام الأبواب مع أرقام

تلك الملفات. أمام معظم الأبواب كانت العربة الصغيرة تتوقف، في العادة كان الباب يفتح من ثم أيضاً والملفات التابعة، أحياناً أيضاً مجرد ورقة صغيرة ـ في مثل هذه الحالات كان يبدأ حديث صغير من الغرفة إلى الممر، على الأرجح كانت ملامات توجه إلى الخادم ـ كانت تُمدّ إلى داخل الغرفة. إذا ظل الباب مغلقاً، كانت الملفات تكوّم بعناية على عتبة الباب. في مثل هذه الحالات بدا لـ ك. وكأن حركة الأبواب في الجوار لم تهدأ مع أن الملفات كانت قد وزّعت هناك أيضاً، بل بالأحرى ازدادت. حتى ربما كان من الممكن أن الملفات التي لم تُرفع نهائياً إنما جرى توزيعها لاحقاً بين السادة الآخرين، الذين كانوا الآن يريدون من خلال تطلعهم المتكرر أن يتأكدوا أما زالت الملفات على العتبة وما زال يوجد أمل لهم. للمناسبة، كان جلّ هذه الملفات الباقية حزماً كبيرة بشكل خاص وافترض ك. أنها كانت قد تُركت مؤقتاً مباهاةً نوعاً ما أو خبثاً أو فخاراً مبرراً مشجعاً للزملاء. في هذه الفرضية شجعه أنه أحياناً، دائماً عندما كان لا ينظر، كانت الحزمة، بعد أن تكون قد عرضت مدة كافية، تُسحب فجأة وبسرعة إلى داخل الغرفة ومن ثم يظل الباب ثابتاً لا يتحرك كما كان في السابق؛ كذلك الأبواب في الجوار كانت تهدأ من ثم، خائبة من أن أو كذلك راضية بأن هذا المعروض مادة الإثارة المتواصلة قد أزيل أخيراً، لكنها راحت تتحرك مرة أخرى شيئاً فشيئاً.

طفق ك. يراقب كل هذا ليس بفضول وحسب بل كذلك بمشاركة وجدانية. كاد يحس براحة في وسط هذه الحركة، راح ينظر إلى هنا وهناك ويتابع ـ ولو عن بُعد مناسب ـ الخادمين اللذين كثيراً ما كانا طبعاً يستديران نحوه بنظرة صارمة ورأس مطأطئ وشفاه مقلوبة، ويراقب عملهما في التوزيع. كلما كان العمل يتقدم، كان دائماً يسير سيراً حسناً أقل، إما أن القائمة لم تكن صحيحة كلياً أو أن الملفات ليست دائماً قابلة للتمييز على نحو جيد من قبل الخادمين أو أن السادة كانوا يعترضون لأسباب أخرى، على كل حال كان يحدث أنه كان لا بدّ من إعادة بعض التوزيعات، هنا كانت العربة الصغيرة تعود ويجري تفاوض عبر فتحة الباب من أجل إعادة ملفات. كانت هذه المفاوضات تسبب في حدّ ذاتها صعوبات كبرى، لكنه كان يحدث كثيراً بما فيه الكفاية أن، عندما كان الموضوع يدور حول الإعادة، بالذات أبواباً كانت في السابق في أكثر حركة نشاطاً، إنما كانت الآن تظل مغلقة في صرامة، وكأنها لم تعد تريد أن تعلم شيئاً عن الموضوع. من ثم بدأت الصعوبات الحقيقية. ذلك الذي كان يعتقد أن له حق في الملفات، كان ينفد صبره إلى أقصى حد، يثير ضجيجاً كبيراً في غرفته، يصفق بيديه، يدق الأرض بقدميه، ينادي إلى الممر عبر فتحة الباب مراراً وتكراراً رقم ملف معيّن. من ثم كانت العربة الصغيرة غالباً ما تظل مهجورة كلياً، كان خادم مشغولاً بتهدئة من كان قد نفد صبره، وخادم آخر يكافح أمام الباب المغلق من أجل الإعادة. كان نافد الصبر كثيراً ما ينفد صبره أكثر نتيجة محاولات التهدئة، لم يعد في مقدوره أن يستمع أبداً إلى كلمات الخادم

الفارغة، لم يكن يريد عزاء، كان يريد ملفات، مثل هذا السيد صبّ ذات مرة من خلال فتحة عالية حوض اغتسال على الخادم. لكن الخادم الآخر، الأعلى رتبة على ما يبدو، كان يواجه صعوبات أكثر. إذا كان السيد صاحب العلاقة يقبل أن يتفاوض أصلاً، كانت تجري محادثات موضوعية يرجع فيها الخادم إلى قائمته والسيد إلى ملاحظاته وإلى الملفات بالذات، التي عليه أن يعيدها، لكن التي يمسكها الآن بيده في ثبات، بحيث لا تكاد زاوية صغيرة منها تظل مرئية بالنسبة لعينيّ الخادم الطامعتين. كما أنه كان يتعيّن على الخادم من ثم بسبب براهين جديدة أن يعود جرياً إلى العربة الصغيرة، التي تكون قد سارت من تلقاء ذاتها مسافة قصيرة في الممر المنحدر قليلاً، أو كان عليه أن يذهب إلى السيد الذي يطالب بالملفات وهناك كان يبادل اعتراضات المالك السابق باعتراضات مضادة جديدة. كانت مثل هذه المفاوضات تستغرق مدة طويلة جداً، أحياناً كان يتم اتفاق، كان السيد يعطي مثلاً قسماً من الملفات أو يحصل على ملف آخر كتعويض، حيث كان ثمة خلط وحسب بين ملفين، كما أنه كان يحدث أنه يكون على أحدهم أن يستغني عن جميع الملفات المطلوبة ببساطة وسهولة، سواء كانت براهين الخادم قد ضيقت عليه الخناق أم أنه كان قد تعب من المساومة المتواصلة، لكنه من ثم لم يكن يعطي الملفات للخادم، بل كان يقذف بها بقرار مفاجئ إلى الممر بعيداً، بحيث أن خيوط الربط كانت تتفكك والأوراق تتطاير وكان على الخادمين أن يبذلا جهداً كبيراً حتى يعيدا ترتيب كل شيء. لكن كل شيء كان ما زال أكثر بساطة نسبياً من أن لا يحصل الخادم أساساً على جواب على رجاءاته بالإعادة، من ثم كان يقف أمام الباب المغلق، يرجو، يناشد، يستشهد بقائمته، يستند إلى التعليمات، كل شيء بلا جدوى، من الغرفة كان لا يأتي صوت وعلى ما يبدو لم يكن للخادم حق بأن يدخُل دون إذن. من ثم كان التحكم في الذات يغادر أيضاً هذا الخادم النجيب، كان يذهب إلى عربته الصغيرة، يجلس على الملفات، يمسح العرق عن جبينه، ولا يعود يقوم طوال فترة وجيزة بأي شيء سوى تطويح قدميه في حيرة. كان الاهتمام بالموضوع كبيراً جداً لدى الجميع، في كل مكان كان ثمة همس، بالنُدرة كان باب هادئاً، وفي أعلى حافة الحائط كانت وجوه ملثّمة بالكامل تقريباً بمناديل على نحو غريب، التي فوق ذلك كانت لا تهدأ برهة في مكانها، تتابع الوقائع كافة. في وسط هذه البلبلة لفت انتباه ك. أن باب بيرغل ظل مغلقاً طوال الوقت وأن الخادمين كانا قد مرّا بهذا القسم من الممر، لكن بيرغل لم يكن قد خصص له ملفات، ربما كان ما زال نائماً، الأمر الذي كان من شأنه أن يكون في هذا الضجيج نوماً سليماً والحق يقال، لكن لماذا لم يحصل على ملفات؟ فقط غرف قليلة جداً وفوق ذلك على الأرجح غير مسكونة كان قد جرى تخطيها بهذه الطريقة. على العكس من ذلك كان في غرفة إرلنغر ضيف جديد مضطرب على وجه الخصوص، لا بدّ أنه كان قد طرد إرلنغر في الليل بكل معنى الكلمة؛ لم يكن هذا يناسب كثيراً طبيعة إرلنغر الباردة

اللبقة الحاذقة، لكن أنه كان عليه أن ينتظر ك. على عتبة الباب، يشير إلى أن هذا هو ما حدث.

من جميع المراقبات الجانبية كان ك. سرعان ما يعود من ثم مراراً وتكراراً إلى الخادم؛ عن هذا الخادم لم يكن يصح حقاً ما كان المرء قد حدث ك. به عن الخدم بعامة، عن عدم نشاطهم، حياتهم المريحة، عجرفتهم، كان يوجد ولا ريب أيضاً استثناءات بين الخدم أو ما كان أكثر احتمالاً هو وجود مجموعات مختلفة بينهم، إذ هنا كان، كما لاحظ ك.، ثمة تقسيمات كثيرة لم يكد حتى الآن يعلم عنها شيئاً. لا سيما تشدد هذا الخادم أعجب ك. كل الإعجاب. في الصراع مع هذه الغرف العنيدة ـ كثيراً ما بدا الحال لـ ك. كفاحاً مع الغرف، إذ إنه لم يكد يرى الساكنين ـ لم يكن الخادم يتراجع. صحيح أنه كان يُنهك ـ من كان خليقاً أن لا يُنهك؟ ـ لكنه سرعان ما كان يستعيد قواه، كان ينزلق من على العربة الصغيرة وينطلق منتصباً مرة أخرى وهو يعضّ على أسنانه ضد الباب الذي يجب الاستيلاء عليه. وقد حدث أنه كان قد رُدّ على أعقابه مرتين وثلاث مرات، لكن بطريقة بسيطة للغاية، بالصمت الشيطانيّ ليس إلا، ومع ذلك لم يكن يُهزم أبداً. إذ إنه كان يرى أنه لا يستطيع أن ينال شيئاً بهجوم مكشوف، كان يحاول الأمر بطريقة أخرى، بخدعة مثلاً بقدر ما فهم ك. فهماً صحيحاً. كان يترك الباب من ثم ظاهرياً، يتركه يستنفد طاقة صمته على نحو ما، ويتوجه إلى أبواب أخرى، لكن بعد برهة كان يعود مرة أخرى، ينادي الخادم الآخر، كل شيء بصوت عال وملفت للانتباه، ويشرع في تكويم ملفات على عتبة الباب المغلق، وكأنه غيّر رأيه وأنه وفق القانون لا يؤخذ شيء من السيد، بل بالأحرى يوزع عليه. من ثم كان يتابع سيره، لكنه كان يراقب الباب دائماً وعندما كان السيد من ثم، كما كان يحدث عادة، يفتح الباب بحذر، كي يسحب الملفات إليه، كان الخادم يصل إلى هناك ببضع قفزات، يدفع قدمه بين الباب والإطار ويرغم السيد هكذا على الأقل على أن يتفاوض معه وجهاً لوجه، الأمر الذي كان عادة يفضي إلى نتيجة مُرضية على نحو معقول. وإذا كان الأمر لا يتمّ هكذا، أو إذا كان يبدو له لدى أحد الأبواب أن هذا ليس الأسلوب الصحيح، كان يحاول الأمر على نحو مغاير. كان ينتقل مثلاً إلى السيد الذي كان يطالب بالملفات. من ثم كان ينحّي الخادم الآخر جانباً، الذي كان يعمل على نحو آليّ وحسب، معاون لا قيمة له نوعاً ما، ويشرع بنفسه يلحّ على السيد، هامساً، خفية، داسّاً رأسه إلى عمق الغرفة، على الأرجح كان يقدم له وعوداً ويؤكد له فرض عقوبة مناسبة للسيد الآخر في التوزيع التالي أيضاً، على الأقل كان كثيراً ما يشير إلى باب الخصم وهو يضحك، بقدر ما كان نعاسه يسمح. لكن كان يوجد حالات، حالة أو حالتان، حيث كان يتخلى عن كل المحاولات، لكن هنا أيضاً كان ك. يعتقد أنه تخل ظاهري وحسب أو على الأقل تخل لأسباب مبررة، إذ كان يستأنف سيره بهدوء، يحتمل

دون أن يلتفت صخب السادة المغبونين، لكن إغماضة طويلة للعينين بين الفينة والفينة كانت تشير إلى أنه إنما كان يعاني من الصخب. لكن من ثم شيئاً فشيئاً كان السيد يهدأ؛ هكذا كما يتحول بكاء أطفال متواصل تدريجياً إلى نشيج متقطع، كان الحال مع صراخه، لكن أيضاً بعد أن يكون قد هدأ كل الهدوء، كان يوجد أحياناً صرخة مفردة مرة أخرى أو فتح عابر وإغلاق ذلك الباب. على كل حال تبيّن أن الخادم إنما قد تصرف هنا أيضاً على الأرجح تصرفاً صحيحاً كلياً. فقط سيد واحد ظل أخيراً، الذي لم يشأ أن يهدأ، كان قد ظل صامتاً مدة طويلة، لكن كي يسترد قواه ليس إلا، من ثم كان ينطلق، ليس أكثر ضعفاً من السابق. لم يكن من الواضح كلياً لماذا كان يصرخ هكذا ويشكو، ربما لم يكن بتاتاً بسبب توزيع الملفات. في هذه الغضون كان الخادم قد أنهى عمله، فقط ملف وحيد، في الحقيقة ورقة صغيرة وحسب، قصاصة من دفتر ملاحظات، بقيت حيث هي في العربة الصغيرة نتيجة إهمال المعاون والآن لم يكن يُعرف لمن توزع. «يمكن جداً أن يكون هذا هو ملفي»، جال في ذهن ك. كان العمدة يتحدث دائماً حقاً عن أصغر الحالات هذه. وحاول ك.، مهما كان قد وجد بنفسه هذه الفرضية عشوائية ومضحكة في الحقيقة، أن يقترب من الخادم، الذي راح ينعم النظر في القصاصة؛ لم يكن هذا سهلاً جداً، إذ إن الخادم كان يجازي ميل ك. إليه مجازاة سيئة؛ حتى في وسط أقسى عمل كان دائماً يجد وقتاً ينظر فيه نحو ك. بحنق أو نفاد صبر وهزة رأس عصبية. فقط الآن بعد الانتهاء من التوزيع بدا أنه قد نسي ك. بعض الشيء، كما أنه غدا أيضاً في ما عدا ذلك أكثر لامبالاة، إنهاكه الكبير جعل هذا مفهوماً، كذلك مع القصاصة لم يبذل جهداً كبيراً، ربما لم يقرأها قط، بل تظاهر بذلك وحسب، ومع أنه كان خليقاً هنا في الممر أن يُفرح كل سيد غرفة بتخصيص القصاصة له، فقد قرر شيئاً آخر، كان قد شبع من التوزيع، بالسبابة على شفتيه أعطى مرافقه إشارة بأن يصمت، مزّق القصاصة إلى قطع صغيرة - كان ك. لم يصل بعد إليه وكان بعيداً عنه مسافة طويلة - ودسّها في جيبه. كان هذا عدم الانتظام الوحيد الذي كان ك. قد رآه هنا في عمل المكاتب، لكن كان من المحتمل أنه أيضاً فهم الأمر على نحو غير صحيح. وحتى لو كان عدم انتظام، فإنه كان يُغفر، في الظروف التي تسود هنا لم يكن في مقدور الخادم أن يعمل على نحو يخلو من الأخطاء، ذات مرة كان لا بدّ أن ينفجر الغضب المتراكم، القلق المتراكم، وإذا عبّر عن نفسه بمجرد تمزيق قصاصة صغيرة فإنه كان ما زال بريئاً على نحو كاف. كان صوت السيد الذي لا يمكن تهدئته ما فتئ يصكّ الآذان عبر الممر، والزملاء الذين لم يكونوا في أمور أخرى يتصرفون بعد الآن معاً بطريقة ودّية، بدوا بخصوص الصخب ذوي رأي واحد تماماً، كان الحال تدريجياً وكأن السيد قد اضطلع بمهمة إثارة صخب للجميع، الذين طفقوا يشجعونه بالنداءات وإيماءات الرأس وحسب، كي يظل على صخبه. لكن الآن لم يعد الخادم يهتم بالموضوع

مطلقاً، كان قد فرغ من عمله، أشار إلى قبضة العربة الصغيرة كي يمسكها الخادم الآخر وهكذا انصرفا كما كانا قد أتيا، لكن أكثر رضى وبسرعة حتى إن العربة راحت تتراقص أمامهما. مرة واحدة وحسب ارتعشا ونظرا إلى الوراء، إذ كان السيد الذي ما زال يصرخ على الدوام، والذي كان ك. يدور الآن أمام بابه لأنه كان يحب أن يفهم ماذا كان السيد يريد في الحقيقة، لم يجد بالصراخ على ما يبدو ما أراد أن يجده، وكان على الأرجح قد اكتشف زر جرس كهربائي، ومبتهجاً ولا ريب بأن العبء خف عنه إذ إنه بدلاً من الصراخ شرع الآن بقرع الجرس دون انقطاع. نتيجة ذلك بدأت تتصاعد همهمة كبيرة في الغرف الأخرى، بدا الحال يعني موافقة، بدا السيد يفعل شيئاً كان الجميع يحبون أن يفعلوه منذ مدة طويلة وفقط لأسباب مجهولة كان عليهم أن يقلعوا عنه. هل كان السيد يريد بقرع الجرس أن يستدعي الخدم، ربما فريدا؟ فليقرع إذاً طويلاً! ففريدا كانت مشغولة بلفّ يِرمياس بملاءات مبللة، وحتى لو كان تماثل للشفاء، لما كان لديها متسع من الوقت، إذ لكانت من ثم راقدة بين ذراعيه. بيد أن قرع الجرس كان له تأثير على الفور. إذ سرعان ما هرع صاحب نزل السادة بنفسه، وهو يرتدي حلة سوداء مزررة مثلما هو الحال دائماً؛ لكنه كان كأنه ينسى وقاره، فقد كان يجري، وقد بسط ذراعيه نصف بسطة، كما لو أنه كان قد استدعي بسبب ملمّة كبيرة وهو يأتي كي يمسك بها ويخنقها على صدره في الحال؛ وتحت كل عدم انتظام صغير للقرع بدا أنه يقفز عالياً ويسرع أكثر. وراءه بمسافة غير قصيرة ظهرت الآن أيضاً زوجته، هي أيضاً كانت تجري وقد بسطت ذراعيها، غير أن خطواتها كانت قصيرة ومتكلفة وقد فكر ك. بأنها ستصل متأخرة، صاحب النزل سيكون في هذه الغضون قد عمل كل ما هو ضروريّ. ولكي يفسح الطريق أمام صاحب النزل كي يجري، التصق ك. بالحائط. غير أن صاحب النزل توقف بالذات لديه، وكأن هذا هو هدفه، وفي الحال وصلت صاحبة النزل وكل منهما طفق ينهال عليه عتاباً ولوماً، وبسبب السرعة والمفاجأة لم يفهم ك. ما يوجه إليه، خاصة أن جرس السيد كان يقحم نفسه وحتى أجراس أخرى بدأت تعمل، الآن ليس حاجة، بل لمجرد العبث وزيادة البهجة. لأن ك. كان يهمه كثيراً أن يفهم ذنبه بدقة، كان موافقاً كل الموافقة على أن صاحب النزل أخذه تحت إبطه وانصرف معه من هذه الضجة، التي كانت ما زالت تتصاعد باستمرار، إذ وراءهما ـ ك. لم يستدر قط لأن صاحب النزل وأكثر منه زوجته من الناحية الأخرى كانا يلحّان عليه بالقول ـ فتحت الأبواب الآن كلياً، في الممر دبّت الحياة، وبدت حركة مرور تنمو هناك مثلما هي في زقاق ضيق تدبّ فيه الحياة، كانت الأبواب أمامهم تنتظر على ما يبدو بنفاد صبرٍ أن يمرّ ك. أخيراً كي تستطيع صرف السادة وفي كل هذا راحت الأجراس تقرع، تقرع مراراً وتكراراً كأنها تحتفل بنصر. الآن أخيراً ـ كانوا قد عادوا من جديد إلى الفناء الأبيض الساكن، حيث كانت تنتظر بضع زحافات ـ علم ك. تدريجياً ما المسألة. لا صاحب

النزل ولا زوجته كانا يستطيعان أن يفهما أنه كان في مقدور ك. أن يجرؤ على فعل شيء من هذا القبيل. لكن ماذا كان ك. قد فعل إذاً؟ تساءل مراراً وتكراراً، لكنه لم يستطع أن يعلم الأمر بالسؤال لأن الذنب كان بالنسبة للاثنين بديهياً كل البداهة، ولذا لم يكونا ليفكرا بحسن نيته على الإطلاق. ببطء شديد وحسب أدرك ك. كل شيء. لقد كان في الممر بغير حق، بصورة عامة كان يحق له، على أقصى تقدير وأيضاً هذا رأفة وحسب ولقاء نقض، أن يكون في المشرب. إذا كان قد دعاه أحد السادة، فإن عليه طبعاً أن يظهر في مكان الدعوة، لكن أن يظل واعياً على الدوام ـ كان ولا ريب يملك على الأقل العقل السليم المألوف ـ أنه كان في مكان ليس مكانه في الحقيقة، حيث دعاه وحسب سيد، على كره منه إلى أقصى درجة، وفقط لأن مسألة رسمية تطلبت ذلك وغفرته. لذا كان عليه أن يظهر بسرعة، أن يخضع للتحقيق، لكن من ثم أن يختفي بسرعة أكبر إن أمكن. ألم يساوره إذاً هناك في الممر شعور عدم الانتماء؟ لكن إذا كان قد ساوره، كيف كان في مقدوره أن يتسكع هناك، مثل حيوان في المرعى؟ ألم يكن قد دعي إلى استجواب ليلي أو لا يعلم لماذا أُدخلت الاستجوابات الليلية؟ الاستجوابات الليلية ـ وهنا حصل ك. على شرح جديد لمعناها ـ ليس لها سوى هدف التنصّت على أصحاب الطلبات الذين من شأن السادة أن لا يطيقوا منظرهم في النهار مطلقاً، تنصّت بسرعة، في الليل، في نور اصطناعي، مع إمكانية نسيان كل بشاعة في النوم فور انتهاء الاستجواب. لكن سلوك ك. سخر من كل إجراءات الحيطة. حتى الأشباح تختفي عندما يقترب الصباح، غير أن ك. ظل هناك، واضعاً يديه في جيبيه، وكأنه ينتظر، إذ لا يبتعد، أن الممر بكامله مع كل الغرف وكل السادة سوف يبتعد. وكان من شأن هذا أيضاً ـ يمكنه أن يكون واثقاً من ذلك ـ أن يحدث بالتأكيد لو كان ممكناً على نحو من الأنحاء، إذ إن رقة مشاعر السادة لا حدود لها. ما من أحد سوف يطرده مثلاً أو حتى يخبره بمجرد الأمر البديهيّ حقاً بأن عليه أخيراً أن ينصرف، ما من أحد سوف يفعل هذا، مع أنهم أُثناء وجود ك. على الأرجح يرتجفون من الانفعال ويُفسد عليهم الصباح؛ وقتهم المفضّل. بدلاً من أن يتصرفوا ضد ك.، يفضّلون أن يعانوا، لكن حيث يقوم بدور. الأمل بأنه سوف يتعيّن على ك. أخيراً أن يدرك شيئاً فشيئاً الأمر الواضح الجليّ ومطابقة لمعاناة السادة سوف يتعيّن عليه نفسه أيضاً أن يعاني لغاية الدرجة التي لا تطاق، إنه لأمر مرعب، غير مناسب، مرئيّ للجميع، أن يقف صباحاً في الممر. أمل لا طائل تحته. إنهم لا يعلمون أو لا يريدون في لطفهم وتكرّمهم أن يعلموا، أنه يوجد أيضاً قلوب غير حساسة، قاسية، لا يمكن استمالتها بأي احترام. ألا تقصد حتى عثّة الليل، الحشرة المسكينة، عندما يبزغ النهار، ركناً هادئاً، تسطّح نفسها، تودّ أكثر ما تودّ أن تتوارى وتشعر بتعاسة لأنها لا تستطيع أن تفعل ذلك. أما ك.، فإنه يضع نفسه هناك في الموضع الذي يُرى فيه أكثر ما يُرى وهو بهذا خليق أن يمنع بزوغ النهار، لو استطاع أن

يفعل ذلك. إنه لا يستطيع أن يمنعه، لكنه يستطيع أن يقوم بتأجيله، يمكنه أن يعرقله للأسف. ألم يشارك في رؤية توزيع الملفات؟ شيء لا يجوز لأحد أن يشارك في رؤيته، ما عدا المشاركين الأقربين. شيء لم يُسمح لا لصاحب النزل ولا لزوجته في منزلهما الخاص بهما أن يرياه. شيء لم يسمعا به إلا تلميحاً كما سمعاه مثلاً اليوم من الخادم. ألم يلاحظ إذاً تحت أية صعوبات جرى توزيع الملفات، شيء في حد ذاته غير قابل للإدراك، إذ إن كل سيد يخدم القضية وحسب ولا يفكر قط في منفعة فردية، ولذا لا بدّ له من أن يعمل بكل قواه كي يجري توزيع الملفات، هذا العمل الأساسيّ المهم، بسرعة وسهولة وبلا أخطاء؟ ثم ألم يظهر إذاً لـ ك. حقاً ولا حتى عن بُعد الهاجس بأن أساس الصعوبات كافة هو أنه يجب إجراء التوزيع والأبواب مغلقة تقريباً، دون إمكانية اتصال مباشر بين السادة، الذين من شأنهم أن يتفاهموا معاً طبعاً في لمح البصر، في حين أنه لا بدّ لتوسط الخدم أن يستغرق طوال ساعات تقريباً، لا يمكن أن يحدث قط دون شكاوى، عذاب متواصل للسادة وللخدم وعلى الأرجح سوف يفضي حتى لدى العمل المقبل إلى نتائج ضارة. ولماذا لم يكن في مقدور السادة أن يتصلوا معاً؟ نعم، أما زال ك. إذاً لا يفهم الأمر؟ شيء من هذا القبيل لم يحدث قط لصاحبة النزل - وزوجها أكد ذلك لشخصه أيضاً - وهما تعاملا مع بعض الناس العنيدين. أشياء لا يجرؤ المرء في ما عدا ذلك أن ينطق بها، يتعيّن عليه أن يقولها له بصراحة، وإلا فإنه لا يفهم أكثر الأمور ضرورة. الآن إذاً، لأنه يجب قول الأمر: بسببه، وبسببه وحده دون غيره لم يستطع السادة أن يخرجوا من غرفهم، لأنهم في الصباح بعيد النوم يكونون أكثر حياء وأرق شعوراً من أن يتمكنوا من تعريض أنفسهم لنظرات غريبة، يشعرون بمعنى الكلمة، ولو كانوا حتى يرتدون ملابسهم كاملة، أنهم عراة أكثر من اللازم حتى يظهروا أنفسهم. إنه لمن الصعب القول لماذا يخجلون، ربما يخجلون، هؤلاء العمال الأبديون، لأنهم ناموا ليس إلا. لكن ربما أكثر من أن يظهروا أنفسهم، إنهم يخجلون من أن يروا ناساً غرباء؛ الأمر الذي تغلبوا عليه بسعادة بمعونة الاستجوابات الليلية، إنهم لا يريدون أن يدعوا منظر أصحاب الطلبات، الذي يصعب عليهم تحمّله، يتسلل إليهم من جديد الآن في الصباح، على حين غرّة، بلا مقدمات، في كل حقيقته الطبيعية. بهذا لا طاقة لهم. أي إنسان يجب أن يكون هذا الذي لا يحترم ذلك! حسناً، يجب أن يكون إنساناً مثل ك. امرأ يتجاهل، بهذه اللامبالاة البليدة وبالنعاس، يستهين بكل شيء، القانون، كما المراعاة الإنسانية الأكثر اعتيادية، لا يهمه في شيء أن يجعل توزيع الملفات مستحيلاً تقريباً ويضرّ بسمعة الدار والذي يُحدث ما لم يكن قد حدث قط، أن السادة المدفوعين إلى اليأس يشرعون في الدفاع عن أنفسهم، بعد جهاد نفس لا يتصوره عقل إنسان عاديّ يلجؤون إلى الجرس ويستدعون نجدة كي يطردوا ك.، الذي لا يمكن زعزعته بطريقة أخرى. هم، السادة يصرخون مستغيثين! ألم يكن من شأن صاحب النزل وزوجته

وكل العاملين معهم أن يهرعوا إلى هنا منذ مدة طويلة، لوكانوا تجرؤوا وحسب على أن يظهروا أمام السادة دون استدعاء وفي الصباح، ولو كان ذلك لتقديم عون ومن ثم الاختفاء على الفور. مرتجفين غضباً من ك. يائسين بسبب عجزهم كانوا خليقين أن ينتظروا هنا في بداية الممر وقرع الجرس غير المتوقع في الحقيقة أبداً كان خلاصاً لهم. حسناً لقد مضى الأسوأ! لو كان في مقدورهم أن يلقوا نظرة إلى داخل الحركة المرحة للسادة المحرَّرين أخيراً من ك. بالنسبة لـ ك. لم ينته الأمر طبعاً، يقيناً سوف يجب عليه أن يتحمّل مسؤولية ما اقترفه هنا.

كانوا قد وصلوا في هذه الأثناء لغاية المشرب؛ لم يكن واضحاً كل الوضوح لماذا كان صاحب النزل على الرغم من كل غضبه قد اقتاد ك. إلى هنا، ربما كان قد أدرك أن نعاس ك. إنما جعل مغادرته الدار في الوقت الحاضر أمراً مستحيلاً. دون أن ينتظر طلباً يقدم له كي يجلس، تراخى جسده بمعنى الكلمة فوراً على أحد البراميل. هناك في العتم كان بخير. في القاعة الكبيرة كان يضيء الآن مصباح كهربائي خافت فوق صنابير البيرة. في الخارج أيضاً كان ظلام دامس يعمّ، بدا أن الثلج ينهمر انهماراً. إذا كان المرء هنا في الدفء عليه أن يكون شاكراً ويحتاط بأن لا يُطرد. كان صاحب النزل وزوجته ما زالا يقفان أمامه وكأنه ما فتئ يعني على كل حال خطراً إلى حد ما، وأنه من غير المستبعد أبداً لدى عدم مصداقيته، أن ينطلق ويحاول أن يدخل إلى الممر مرة أخرى. كما أنهما كانا نفسهما متعبين من الرعب الليلي والنهوض المبكر، خاصة صاحبة النزل، التي كانت ترتدي ثوباً بنيّاً يهفهف كالحرير، نصفه السفليّ واسع، مزرر ومربوط على نحو غير منتظم - من أين أخرجته على عجل؟ - وكانت تسند رأسها وكأنه قد انكسر على كتف زوجها، وتمسح عينيها مسحاً خفيفاً بمنديل صغير وبين هذا وذاك توجه نظرات شريرة على نحو طفوليّ إلى ك. لكي يهدئ من روع الزوجين قال ك. إن كل ما حدثاه الآن به إنما هو جديد عليه كل الجدة، لكن مع جهله ذلك، فإنه لم يظل طويلاً في الممر، حيث لا عمل له هناك حقاً وبالتأكيد لم يكن يريد أن يعذب أحداً، بل إن كل شيء إنما قد حدث نتيجة نعاس أكبر من كبير. إنه يشكرهما على أنهما أنهيا المشهد المحرج. وإذا ما جرت محاسبته، فإنه سيرحّب بذلك كل الترحيب، إذ هكذا وحسب يمكنه أن يمنع تفسيراً عامّاً خاطئاً لسلوكه. نعاس وحسب ولا شيء آخر كان سبب ذلك. بيد أن هذا النعاس إنما يعود إلى أنه لم يعتد بعد على الإنهاك الناتج عن الاستجوابات. إنه ليس منذ مدة طويلة هنا. إذا جمع بعض الخبرات في ذلك، فإنه لن يكون ممكناً أن يحدث مرة أخرى شيء من هذا القبيل. ربما أنه يأخذ الاستجوابات على محمل الجد أكثر من اللازم لكن هذا هو في حد ذاته ليس نقيصة. لقد كان عليه أن يجتاز استجوابين متتالين، الواحد تلو الآخر على الفور، أحدهما عند بيرغل والثاني عند إرلنغر، خصوصاً الأول أنهكه جداً، أما الثاني فإنه لم يستغرق مدة طويلة، إرلنغر طلب منه معروفاً وحسب، لكن كلا الاستجوابين معاً كانا أكثر

مما يستطيع أن يحتمله دفعة واحدة، ربما كان شيء من هذا القبيل فوق طاقة شخص آخر أيضاً، السيد صاحب النزل على سبيل المثال. من الاستجواب الثاني لم يخرج إلا مترنحاً. كاد الأمر أن يكون نوعاً من الشمل ـ لقد رأى السيدين واستمع لهما لأول مرة كما كان عليه أيضاً أن يجيبهما. بقدر ما يعرف انتهى كل شيء نهاية طيبة، لكن من ثم وقعت تلك المصيبة، لكن التي لا يكاد يمكن للمرء بعدما حدث قبل ذلك أن يحسبها من ذنبه. للأسف لم يكن سوى إرلنغر وبيرغل يعرفان حالته ويقيناً كانا خليقين أن يهتمّا به ويقيا كل شيء آخر، لكن إرلنغر كان مضطراً للإنصراف بعد الاستجواب مباشرة، لكي يسافر إلى القلعة على ما يبدو وبيرغل، على الأرجح منهكاً من ذلك الاستجواب ـ كيف كان إذاً على ك. أن يبقى دون أن يصيبه الوهن؟ ـ أخلد إلى النوم وحتى كامل توزيع الملفات جرى أثناء استغراقه في النوم. لو كان لدى ك. إمكانية مماثلة، كان قميناً أن يستخدمها بسرور ويستغني بطيب خاطر عن كل الاطلاعات المحظورة، وهذا أكثر سهولة إذ إنه لم يكن قادراً في الحقيقة على رؤية أي شيء ولذا أيضاً كان في مقدور السادة الأكثر حساسية أن يظهروا أمامه غير هيّابين.

إن ذكر كلا الاستجوابين، حتى ذلك الاستجواب من قبل إرلنغر، والاحترام الذي تحدث به ك. عن السيدين، أثّرا في نفس صاحب النزل تأثيراً لمصلحة ك. لقد بدا أنه يبغي تحقيق طلب ك. بأن يضع لوحاً فوق البراميل وأن يجوز له أن ينام فوقه على الأقل حتى بزوغ الفجر، غير أن صاحبة النزل كانت ضد ذلك على نحو واضح، لقد طفقت تحرك ثوبها هنا وهناك بلا جدوى بعد أن كانت قد وعت الآن وحسب عدم انتظامه، وراحت تهز رأسها مراراً وتكراراً، كان نزاع قديم على ما يبدو يتعلق بنظافة الدار يوشك أن ينشب مرة أخرى. في نعاسه اتخذ حديث الزوجين في نظر ك. أهمية أكبر من كبيرة. أن يُطرد من هنا ثانية بدا له مصيبة تفوق كل ما خبره حتى الآن. هذا لا يجوز أن يحدث، حتى لو اتفق صاحب النزل وزوجته ضده. مترصداً راح ينظر إلى الاثنين وهو مكوّم فوق البرميل. حتى تنحّت صاحبة النزل جانباً على حين غرّة في حساسيتها غير المألوفة، التي كانت قد لفتت انتباه ك. منذ مدة طويلة ـ على الأرجح كانت قد تحدثت مع زوجها عن أشياء أخرى ـ ونادت: «كيف ينظر إليّ! ليتك تصرفه أخيراً!» غير أن ك.، مغتنماً الفرصة ومقتنعاً الآن كل الاقتناع، لدرجة اللامبالاة تقريباً، أنه سوف يبقى، قال: «لا أنظر إليك أنت، أنظر إلى ثوبك فقط.» «لماذا ثوبي؟» سألت صاحبة النزل بانفعال. ك. هزّ كتفيه. «تعال»، قالت صاحبة النزل لزوجها، «إنه لثمل، الفظّ. دعه ينام هنا كي يفيق من سكرته»، وأمرت بيبي، التي ظهرت من الظلام بناء على دعوتها، مشعثة الشعر، متعبة، تحمل مكنسة بيدها في استرخاء، أن تلقي لـ ك. أية وسادة.

٢٥

حين استيقظ ك. ظن في بادئ الأمر أنه لم يكد قد نام، كانت الغرفة كما هي، فارغة ودافئة، كل الجدران في ظلام دامس، المصباح الكهربائي فوق صنابير البيرة، كذلك أمام النوافذ كان الليل يخيّم. غير أنه إذ تمطى، وسقطت الوسادة وطقطق اللوح وطقطقت البراميل، جاءت بيبي على الفور، والآن علم أن الوقت كان مساء وهو كان قد نام طوال أكثر من اثنتي عشرة ساعة. كانت صاحبة النزل قد سألت عنه بضع مرات أثناء النهار، كذلك غرشتكر، الذي كان في الصباح، عندما كان ك. يتحدث مع صاحبة النزل، قد انتظر هنا في الظلام وهو يتناول البيرة لكنه من ثم لم يجرؤ على الإزعاج بعد، كان هنا مرة في هذه الأثناء، كي يرى كيف هو حال ك.، وفي آخر الأمر كانت فريدا أيضاً قد أتت حسب الادعاء ووقفت طوال لحظة عند ك.، لكنها لم تأت من أجل ك.، بل لأنه كان عليها أن تقوم هنا بتحضيرات مختلفة، إذ كان عليها في المساء أن تتولى من جديد عملها القديم. «هي لا تودّك ولا ريب بعد الآن؟» سألت بيبي وهي تحضر قهوة وجاتو. غير أنها لم تطرح السؤال بخبث على طريقتها القديمة، بل بحزن، وكأنها في هذه الأثناء قد تعرفت خبثَ العالم، الذي يعجز أمامه كل خبث فرديّ ويصبح بلا جدوى؛ كما لرفيق معاناة تحدثت إلى ك. وإذ تذوق القهوة وظنت أنها ترى أنه لا يجد القهوة حلوة على نحو كاف، جرتِ وأحضرت له السكرية المليئة. لم يكن حزنها قد أعاقها طبعاً عن أن تتزين اليوم ربما أكثر من المرة الأخيرة؛ كان لديها فيض من اللفائف والأشرطة التي كانت مضفورة في الشعر، على طول الجبين والصدغين كانت قد موّجت الشعر بعناية وكانت تطوق عنقها سلسلة صغيرة تتدلى في تقويرة البلوزة العميقة. حين مدّ ك. يده خلسة، في الرضى أنه شبع نوماً ذات مرة أخيراً وسمح له بتناول فنجان قهوة طيب المذاق، نحو إحدى اللفائف وحاول أن يفتحها، قالت بيبي متعبة: «لتتركني» وجلست إلى جانبه على برميل. ولم يكن على ك. قطعاً أن يسألها عن معاناتها، فقد بدأت بنفسها تحكي على الفور وهي توجه نظرتها محدقة في فنجان قهوة ك.، وكأنها تحتاج إلى إلهاء، حتى وهي

تحكي، وكأنها، حتى حين تشغل نفسها بمعاناتها، لا تقدر أن تستسلم لها كلياً، إذ إن هذا يتجاوز طاقاتها. في بادئ الأمر علم ك. أنه هو في الحقيقة مسؤول عن مصيبة بيبي، لكنها لا تحمل له ضغينة. وكانت أثناء الرواية تهزّ رأسها بهمّة، لكي تسدّ الطريق على اعتراض ك. في بادئ الأمر أخرج فريدا من المشرب وبهذا أتاح صعود بيبي. إنه في ما عدا ذلك لا يمكن تصور شيء آخر كان من شأنه أن يستطيع أن يدفع فريدا للتخلي عن عملها، كانت تجلس هناك في المشرب مثل العنكبوت في الشبكة، وكانت تملك في كل مكان خطوطها، التي لا يعرفها أحد غيرها. اقتلاعها ضد إرادتها كان حريّاً به أن يكون مستحيلاً، فقط حب لرجل ذي مستوى أدنى، إذاً شيء لا ينسجم مع مركزها، كان في مقدوره أن يطردها من مكانها. وبيبي؟ هل فكرت إذاً في يوم من الأيام أن تكسب العمل لنفسها؟ كانت خادمة غرف، لديها عمل غير ذي أهمية لا ينتظر منه خير كثير، كان لديها مثل كل فتاة أحلام عن مستقبل عظيم، لا يمكن للمرء أن يمنع الأحلام عن نفسه، لكنها لم تكن تفكر جدياً بتقدم، وكانت قد ارتضت بما حققته. والآن اختفت فريدا فجأة من المشرب، لقد جاء الأمر مباغتاً، بحيث أن صاحب الحانة لم يكن في متناول يده على الفور بديل مناسب، فطفق يبحث ووقع نظره على بيبي، التي كانت طبعاً قد اندسّت إلى المقدمة مزاحمة بما يناسب. في ذلك الوقت كانت تحب ك. كما لم تحب أحداً في يوم من الأيام، كانت طوال أشهر تجلس في الأسفل في غرفتها المعتمة متناهية الصغر، وكانت قد استعدّت أن تمضي هناك طوال سنوات وفي أسوأ الحالات طوال حياتها دون أن يؤبه لها، والآن ظهر ك. على حين غرّة، بطل، محرر فتيات، وأفسح لها الطريق إلى الأعلى. غير أنه لم يكن يعرف عنها شيئاً، لم يفعل ذلك في سبيلها، لكن هذا لا يقلل من امتنانها، في الليل الذي سبق تعيينها ـ كان التعيين ما زال غير مؤكد، لكن يقيناً مرجحاً جداً ـ أمضت طوال ساعات وهي تتحدث إليه وتهمس شكرها في أذنه. وأعلى من شأن صنيعه في عينيها أنها كانت فريدا بالذات التي كان قد أخذ عبئها على عاتقه، شيء لا يدرك من الغيرية كان يكمن في أنه كي يُخرج بيبي، عمل من فريدا حبيبته، فريدا، فتاة غير جميلة، متقدمة في السن، نحيلة ذات شعر قصير خفيف، وفوق ذلك فتاة مخاتلة تملك دائماً أية أسرار، الأمر الذي يرتبط ولا ريب بمظهرها؛ إذا كانت في وجهها وجسمها البؤس ولا شك، فلا بدّ لها من أن تتخذ على الأقل أسراراً أخرى لا يمكن لأحد أن يتحقق منها، على سبيل المثال علاقتها المزعومة بكلمّ. وحتى مثل هذه الأفكار كانت قد خطرت ببال بيبي آنذاك: هل من الممكن أن ك. إنما يحب فريدا حقاً، ألا يخدع نفسه أو ربما حتى يخدع فريدا وحسب وهل ستكون ربما النتيجة الوحيدة لكل ذلك هي ترقّي بيبي وحسب وهل سيلاحظ الخطأ من ثم أو لا يعود يريد أن يخفيه بعد الآن ولا يرى فريدا بعد الآن بل بيبي وحدها، الأمر الذي لا يجب أن يكون وهماً جنونياً من أوهام بيبي أبداً، إذ كان في مقدورها ولا ريب أن

تضارع فريدا فتاة ضد فتاة، الأمر الذي لن ينكره أحد، كما أنه أيضاً قبل كل شيء كان مركز فريدا والبريق الذي كانت قد عرفت كيف تضفيه عليه، هو الذي أعمى بصر ك. في هذه اللحظة. وهنا كانت بيبي قد شاهدت حلماً عن ذلك، عندما تتسلم العمل، سوف يأتي ك. إليها راجياً وسوف يكون الآن لديها الخيار، إما أن تستجيب لـ ك. وتفقد العمل، أو ترفض ك. وتواصل الترقي. وكانت قد أعدّت سلفاً أنه سوف تستغني عن كل شيء وتنزل إليه وتعلّمه الحب الصادق، الذي لم يكن قط خليقاً بأن يعيشه لدى فريدا والمستقل عن كل المراكز الشريفة في العالم. لكن جاءت الأمور على شكل مغاير. وماذا تسبب في ذلك؟ ك. قَبِلَ كل شيء ومُكر فريدا طبعاً. ك. قبل كل شيء، إذ ماذا يبغي؟ أي إنسان غريب هو؟ إلى ماذا يطمح، أية أمور هامة هذه التي تشغله وتدعه ينسى الأكثر قرباً، الأفضل من كل شيء، الأكثر جمالاً؟ بيبي هي الضحية وكل شيء بليد وضاع كل شيء ومَنْ مِن شأنه أن يملك الطاقة ويشعل حانة السادة بكاملها ويحرقها، لكن بالتمام والكمال، بحيث لا يبقى منها أي أثر، يحرقها مثلما يحرق المرء ورقة في المدفأة، خليق به أن يكون حبيب بيبي المصطفى. نعم، بيبي أتت إذاً إلى المشرب، قبل أربعة أيام من اليوم، قبيل طعام الغداء. إنه ليس عملاً سهلاً هنا، يكاد يكون عملاً قاتلاً للبشر، لكن ما يمكن بلوغه، هو كذلك ليس طفيفاً. لم تكن بيبي فيما مضى أيضاً سعيدة بيومها مستبشرة بغدها ولو لم تكن كذلك في يوم من الأيام في أكثر الأفكار جرأة قد ادّعت حقاً لنفسها بهذا العمل، هكذا كانت قد جمعت ملاحظات وافرة، وكانت تعرف ما هذا العمل، من دون تحضير لم تكن قد تولّت هذا العمل، من دون تحضير لا يمكن القيام به أبداً، وإلا فإن المرء يفقده في الساعات الأولى. حتى لو أراد المرء أن يتصرف حسب طريقة خادمات الغرف هنا. كخادمة غرف تخال الواحدة مع الزمن أنها ضائعة ومنسية كلياً، إنه عمل مثلما هو في منجم، هكذا هو الحال على الأقل في ممر السكرتيرين، طوال النهار لا ترى الخادمة هناك، ما عدا أصحاب الطلبات النهاريين القلائل، الذين يتسللون جيئة وذهاباً ولا يجرؤون على أن يرفعوا نظرهم، أي إنسان ما عدا اثنتين أو ثلاثاً من خادمات الغرف، اللواتي يشعرن أيضاً بالمرارة. في الصباح لا يسمح للخادمة أساساً أن تخرج من الغرفة، إذ إن السكرتيرين يريدون أن يكونوا وحدهم يخلو الجو لهم، الطعام يحضره لهم الخدم من المطبخ، خادمات الغرف لا علاقة لهن بذلك عادة، كذلك أثناء وقت الطعام لا يجوز للخادمة أن تظهر في الممر. فقط حين يعمل السادة، يُسمح لخادمات الغرف بالترتيب، لكن طبعاً ليس في الغرف المسكونة، فقط في الغرف الخالية وهذا العمل يجب أن يتمّ بخفوت تامّ، كي لا يُزعج عمل السادة. لكن كيف يكون ممكناً الترتيب بصوت خافت، عندما يسكن السادة في الغرف عدة أيام، وفوق ذلك يروح الخدم أيضاً، هؤلاء الرعاع القذرون، بالعبث والاشتغال في الغرف والغرفة، حين تخلى أخيراً للخادمة، تكون في حالة لا يمكن حتى

لطوفان أن ينظفها. حقاً، إنهم سادة كبار، لكن يتعيّن على المرء أن يتغلب بشدة على قرفه، كي يمكنه أن يرتّب بعدهم. ليس لدى خادمات الغرف عمل كثير مفرط، لكنه عمل خشن. وما من كلمة طيبة في يوم من الأيام، دائماً اتهامات، لا سيما هذا الاتهام الأكثر إيلاماً والأكثر تكراراً: إن ملفات ضاعت أثناء الترتيب. في الحقيقة ما من شيء يضيع، كل وريقة يسلمها المرء لصاحب النزل، لكن ثمة ملفات تضيع طبعاً ولا ريب، لكن ليس من خلال البنات. ومن ثم تأتي لجان ويجب على البنات مغادرة غرفتهن واللجنة تنكش الأسرّة؛ ليس لدى البنات ملكية، أغراضهن القليلة تجد مكاناً في سلة تحمل على الظهر، لكن اللجنة تبحث طوال ساعات. طبعاً لا تعثر على أي شيء؛ كيف يمكن للملفات أن تصل إلى هناك؟ ماذا تعمل البنات لأنفسهن من ملفات؟ غير أن النتيجة ليست مرة أخرى سوى شتائم وتهديدات من جانب اللجنة التي خاب رجاؤها ينقلها صاحب النزل. ولا هدوء قط، لا ليلاً ولا نهاراً. ضوضاء طوال نصف الليل وضوضاء منذ الصباح الباكر. على الأقل لو لم يكن يجب على المرء أن يسكن هناك، لكن هذا ما يتعيّن على المرء أن يفعله، إذ فيما بين هذا وذاك وحسب الطلب فإن إحضار أشياء صغيرة من المطبخ هو من عمل خادمات الغرف، خاصة في الليل. دائماً على حين غرّة ضربة القبضة على باب خادمات الغرف، إملاء الطلبية، الجري إلى المطبخ، إيقاظ صبيان المطبخ بالهزّ من نومهم، وضع الصينية وعليها الأغراض المطلوبة أمام باب خادمات الغرف، ومن هناك يحضرها الخدم ـ ما أعظم ما يسببه من حزن كل هذا. لكنه ليس الأكثر سوءاً. إن الأكثر سوءاً هو بالأحرى عندما لا تأتي طلبية، عندما يبدأ في عمق الليل، حيث يكون على كل شيء أن يكون نائماً وكذلك ينام أخيراً معظمهم فعلاً، عندما يبدأ أحياناً استراق الخطو أمام باب خادمات الغرف. من ثم تغادر البنات أسرّتهنّ ـ الأسرّة بعضها فوق بعض، في كل مكان ثمة ضيق كبير حقاً، غرفة البنات كلها هي في الحقيقة ليست شيئاً آخر سوى خزانة كبيرة بثلاثة رفوف ـ يتنصّتن من وراء الباب، يجثون على ركبهنّ، يحتضنّ بعضهن بعضاً في خوف. وعلى الدوام يسمع المرء المتسلل أمام الباب. من شأنهنّ جميعهنّ أن يكنّ سعيدات فيما لو دخل أخيراً، لكن ما من شيء يحدث، لا أحد يدخل. وهنا يجب على المرء أن يقول لنفسه إنه ليس من المحتّم أن هنا خطراً محدقاً بالضرورة، ربما كان الحال فقط أن أحدهم إنما يتمشى أمام الباب جيئة وذهاباً، ويفكر هل عليه أن يطلب طلبية، وفي الختام لا يستطيع أن يقرر أن يفعل ذلك. ربما يكون الحال هكذا وحسب، لكنه ربما يكون أمراً مغايراً كلياً. في الحقيقة لا يعرف المرء السادة مطلقاً، لم يكد يرهم. على كل حال تذوي البنات من الخوف في الداخل، وعندما يسود السكون أخيراً في الخارج، يستندن إلى الحائط وليس لديهن طاقة كافية للعودة إلى أسرّتهنّ. هذه الحياة تنتظر بيبي مرة أخرى، عليها مساء اليوم أن تتخذ مكانها ثانية في غرفة البنات. ولماذا؟ بسبب ك. وفريدا. العودة ثانية إلى هذه الحياة التي لم

تكد تهرب منها، التي هربت منها بمعونة ك. يقيناً لكن كذلك بجهد ذاتيّ كبير جداً. إذ في ذلك العمل هناك تهمل البنات أنفسهن، حتى الأكثر اعتناء بأنفسهن. لمن عليهن أن يتزيّن، فلا أحد يراهنّ، في أحسن الأحوال العاملون في المطبخ؛ من منهنّ يكفيها هذا، يمكنها أن تتزيّن. لكن في ما عدا ذلك فهنّ يكنّ على الدوام في غرفتهن الصغيرة أو في غرف السادة، التي يعتبر دخولها فقط بملابس نظيفة طيشاً وتبذيراً. ودائماً في النور الاصطناعي وفي الهواء المقبض ـ المدفأة موقدة على الدوام ـ وفي الحقيقة هن متعبات دائماً. وفترة الراحة التي هي بعد ظهيرة واحدة في الأسبوع من الأحسن أن يمضيها المرء بأن يستغرق في النوم بهدوء ودون خوف في أي فراغ في المطبخ. لماذا إذاً تزيّن؟ نعم، لا يكاد المرء يرتدي ملابس. والآن جرى نقل بيبي على حين غرّة إلى المشرب، حيث، على فرض أن المرء يريد أن ينجح هناك، إن العكس بالذات كان ضرورياً، إذ كان المرء دائماً تحت أعين الناس، وبينهم سادة مرفّهون كل الترفيه ومهذبون وحيث لذا يجب على المرء أن يكون مظهره دائماً إن أمكن راقياً ومريحاً. حسناً، كان هذا انعطافة. ويجوز لبيبي أن تقول عن نفسها إنها لم تضيّع شيئاً. كيف من شأن الأمر أن يتدبر لاحقاً، هذا لم يشغل بال بيبي. أنها كانت تملك قدرات كانت ضرورية لهذا العمل، هذا كانت تعلمه، ومتأكدة منه كلياً، هذه القناعة ما زالت لديها الآن أيضاً وما من أحد يستطيع أن يأخذها منها، ولا حتى في هذا اليوم يوم هزيمتها. فقط كيف كان عليها في الوقت الأول، كان هذا أمراً عسيراً، لأنها كانت ولا ريب خادمة غرف مسكينة بلا ملابس ولا حلي ولأن السادة لا يتحلون بالصبر كي ينتظروا كيف يتطور المرء، بل على الفور ودون مرحلة انتقالية يريدون فتاة مشرب كما يجب، وإلا فإنهم يديرون ظهورهم. على المرء أن يفكر في أن مطالبهم ليست كبيرة، لأن فريدا استطاعت تلبيتها. لكن هذا غير صحيح. كثيراً ما فكرت بيبي في ذلك، كما أنها كثيراً ما التقت فريدا حتى إنها نامت لديها طوال مدة. إنه ليس يسيراً كشف فريدا، ومن لا ينتبه كل الانتباه ـ وأي سادة ينتبهون كل الانتباه؟ ـ تضلله على الفور. لا أحد يعرف بدقة أكثر من فريدا نفسها مدى بؤس شكلها؛ عندما يراها المرء على سبيل المثال لأول مرة تحلّ شعرها، يضرب كفاً بكف شفقة عليها، مثل هذه الفتاة لا يجوز لها، لو جرى الأمر قانونياً، أن تصبح ولا حتى خادمة غرف؛ كما أنها تعرف الأمر وفي بعض الليالي كانت تبكي بسبب ذلك، تحتضن بيبي وتلف رأسها بشعر بيبي. لكن عندما تكون في العمل، فإن الشكوك كافة تختفي، تعتبر نفسها أجمل فتاة وتعرف كيف تبعث هذا في نفس كل فرد بالطريقة الصحيحة. إنها تعرف الناس وهذا فنها الحقيقي. وتكذب بسرعة وتخدع، كي لا يكون لدى الناس متسع من الوقت لينظروا إليها بدقة. طبعاً هذا لا يكفي على الدوام، فالناس لديهم أعين وهذه تكون في الختام على صواب. لكن في اللحظة التي تلاحظ فيها مثل هذا الخطر، فإنها تملك وسيلة أخرى، في المدة الأخيرة مثلاً علاقتها بكلمّ. علاقتها مع كلمّ!

إذا كنت لم تصدق ذلك، فإنه يمكنك أن تتحقق من الأمر، اذهب إلى كلمّ واسأله. ما أمهرها، ما أمهرها. وإذا كنت مثلاً لا تجرؤ على أن تذهب إلى كلمّ بسبب مثل هذا السؤال وربما إذا لم يُسمح لك بالدخول إليه بأسئلة أكثر أهمية بكثير وحتى يكون كلمّ صموتاً كلياً إزاءك ـ إزاءك وحدك وإزاء أمثالك، إذ إن فريدا مثلاً تقفز إليه متى تشاء ـ إذا كان الحال هكذا، فإنه يمكنك مع ذلك أن تتحقق من الأمر. لا تحتاج إلا أن تنتظر. لن يتمكن كلمّ من أن يحتمل مدة طويلة إشاعة كاذبة من هذا النوع، إنه بكل تأكيد يتابع بشدة ما يُحكى عنه في المشرب وغرف الزبائن، هذا كله يملك الأهمية الكبرى له، ومن الخطأ أن يستدرك الأمر في الحال. لكنه لا يصحح الأمر، في هذه الحالة لا يوجد إذاً ما يجب تصحيحه وهو الحقيقة الصافية. ما يراه المرء هو فقط أن فريدا تحمل البيرة إلى غرفة كلمّ وتخرج بالثمن، لكن ما لا يراه المرء، تحكيه فريدا وعلى المرء أن يصدقها. وهي لا تروي الأمر أبداً، إنها لن تبوح بمثل هذه الأسرار، كلا، من حولها تباح الأسرار من تلقاء ذاتها، وإذ جرى البوح بها ذات مرة، فإن فريدا لا تهاب بعد ذلك من أن تتحدث بنفسها عن الأسرار، لكنها تتحدث بتواضع، دون أن تدعي أي شيء، إنها تستند وحسب على كل حال إلى الأمور المعروفة عامة. ليس على كل شيء، لا تتحدث مثلاً عن أن كلمّ، منذ أن جاءت إلى المشرب، إنما يتناول كمية أقل من البيرة مما كان يتناول فيما مضى، ليس أقل بكثير، لكن أقل بشكل واضح، ويمكن لعدم حديثها أن يكون له أيضاً أسباب مختلفة، لقد أتى وقت يستمرئ فيه كلمّ البيرة أقل من السابق أو أنه ينسى تناول البيرة بسبب فريدا. على كل حال، إن فريدا إذاً هي عشيقة كلمّ، مهما يمكن لهذا أن يكون أمراً عجيباً. لكن ما يكفي كلمّ، كيف يمكن للآخرين أيضاً أن لا يعجبوا به وهكذا أصبحت فريدا بسرعة جمالاً عظيماً، فتاة مخلوقة هكذا تماماً كما يحتاج المشرب، لا بل تكاد تكون جميلة أكثر من اللازم، قوية أكثر من اللازم، لقد بات المشرب لا يكاد يكفيها. وفعلاً، يبدو للناس أمراً مستغرباً أنها ما زالت بعد في المشرب؛ أن تكون الفتاة فتاة مشرب، فإن هذا كثير؛ انطلاقاً من هنا يبدو الاتصال مع كلمّ جديراً بالتصديق جداً؛ لكن عندما تكون فتاة المشرب ذات مرة حبيبة كلمّ، فلماذا يدعها في المشرب وحتى مدة طويلة؟ لماذا لا يقودها إلى أعلى؟ يمكن للمرء أن يقول للناس ألف مرة إنه ما من تناقض هنا، إن كلمّ إنما لديه أسباب معينة للتصرف هكذا، أو إنه ذات مرة وعلى حين غرّة، ربما في أقرب وقت، سوف تأتي ترقية فريدا، كل هذا لا يؤثر كثيراً، لدى الناس تصورات معينة ولا يدعون أنفسهم يُصرفون عنها على الدوام بأية وسيلة. لم يعد أحد بعد الآن يشك في أن فريدا هي حبيبة كلمّ، حتى أولئك الذين يعرفون الأمر بشكل أفضل على ما يبدو، كانوا متعبين أكثر من أن يشكوا، «كوني باسم الشيطان حبيبة كلمّ»، فكروا، «لكن إذا كنتِ ذلك، فإننا نرغب في أن نلاحظ الأمر في صعودك أيضاً.» لكن المرء لم يلاحظ شيئاً وظلت فريدا في المشرب كما كانت حتى الآن

وكانت في سرّها فرحة للغاية أن الحال ظل هكذا. غير أنها فقدت من سمعتها لدى الناس، وهذا طبعاً لم يمكن أن يظل في غفلة عنهم. إنها لتلاحظ في العادة أشياء قبل أن توجد. فتاة جميلة لطيفة حقاً عليها، عندما تكون قد تأقلمت مرة في المشرب، أن لا تستخدم أفانين؛ ما دام أنها جميلة فسوف تكون فتاة مشرب، إذا لم تقع مصادفة سيئة بشكل خاص. لكن يتعيّن على فتاة مثل فريدا أن تكون خائفة على عملها باستمرار، طبعاً من المفهوم أنها لا تُظهر ذلك، إنها بالأحرى تعتاد على الشكوى وعلى لعن العمل. لكنها تراقب دائماً المزاج خفية. وهكذا رأت كيف غدا الناس لا مبالين، إن ظهور فريدا لم يعد بعد الآن شيئاً يستحق حتى أن يرفع المرء عينيه، ولا حتى الخدم اهتموا بها بعد الآن، باتوا يتعلقون، الأمر المفهوم، بأولغا وأمثالها من الفتيات، كذلك من تصرف صاحب النزل لاحظت أن كونها لا يستغنى عنها كان يقلّ باستمرار، كما لم يكن في مقدور المرء أن يبتدع دائماً حكايات جديدة عن كلمّ، كل شيء له حدود ـ وهكذا عزمت فريدا الطيبة على فعل شيء جديد. من كان من شأنه أن يكون قادراً على سبر غور الأمر في الحال! بيبي حدست الأمر، غير أنها للأسف لم تسبر غوره. قررت فريدا أن تحدث فضيحة، هي، حبيبة كلمّ، تلقي بنفسها على أي شخص، الأقل قيمة إن أمكن. هذا سوف يلفت الأنظار، يتحدثون عنه مدة طويلة، أخيراً سوف يتذكر المرء ثانية ماذا يعني الأمر أن تكون حبيبة كلمّ وماذا يعني أن ترفض هذا الشرف في نشوة حب جديد. كان من العسير وحسب العثور على الرجل المناسب، الذي يمكن أن تُلعب معه اللعبة الذكية. لا يجوز لأحد من معارف فريدا أن يكون ذلك الرجل، ولا حتى أحد الخدم، كان خليقاً على الأرجح أن ينظر إليها بعينين متسعتين ويتابع مسيره، قبل كل شيء ما كان من شأنه أن يحتفظ بجدية كافية ومع كل مهارة في الحديث كان خليقاً أن يكون من المحال أن يشيع بين الناس أنه اعتدى على فريدا، ولم تتمكن من التخلص منه، وسقطت بين يديه في ساعة من فقدان الوعي. وحتى لو كان الأدنى قيمة وقدراً، فيجب أن يكون أحداً يمكن أن يُعمل منه على نحو قابل للتصديق على الرغم من طريقته البليدة وغير اللائقة لم يكن ليتوق إلى أحد آخر غير فريدا بالذات ولم يكن له رغبة أعلى من ـ رحماك يا ربي ـ أن يتزوج فريدا. لكن حتى لو كان عليه أن يكون رجلاً وضيعاً، إن أمكن أقل قدر من خادم، أقل قدر بكثير من خادم، هكذا مع ذلك أحد لا يُضحك من كل فتاة بسببه، أحد قد تجد فيه فتاة قادرة على الحكم بشكل مغاير شيئاً ما يجذبها إليه. لكن أين يجد المرء مثل هذا الرجل؟ كان من شأن فتاة أخرى أن تبحث عنه على الأرجح طوال الحياة دون جدوى، حظ فريدا يجلب لها مسّاح الأراضي إلى المشرب ربما بالذات في ذلك المساء الذي تخطر لها فيه الخطة لأول مرة. مسّاح الأراضي! أجل، بماذا يفكر المرء إذاً يا ك.؟ أية أشياء مميزة لديه في رأسه؟ هل يبغي بلوغ شيء مميز؟ عمل جيد، امتياز؟ أينشد شيئاً مثل هذا؟ حسناً، كان يتعيّن عليه من ثم أن يتصرف منذ البداية بطريقة مغايرة. إنه

لا شيء بتاتاً، من المحزن رؤية وضعه. إنه مسّاح أراض، قد يكون هذا شيئاً ما، إذاً كان قد تعلم شيئاً ما، لكن إذا كان المرء لا يعرف ماذا يعمل بهذا، فإن هذا يكون مرة أخرى لا شيء. وأثناء ذلك يطلب مطالب؛ دون أن يكون لديه أدنى سند ولا دعم، يطلب مطالب، ليس بمعنى الكلمة، لكن المرء يلاحظ أنه يطلب مطالب ما، إن هذا ليستفزّ ولا ريب. إذا ما كان يعرف إذاً أنه حتى خادمة غرف إنما تريق ماء وجهها، إذا تحدثت معه طوال مدة. ومع كل هذه المطالب المميزة يقع على الفور في المساء الأول في أكبر مصيدة. ألا يخجل إذاً؟ ماذا أغراه في فريدا؟ الآن يمكنه أن يعترف بالأمر ولا ريب. هل تمكنت فعلاً من أن تعجبه، هذه البنت النحيلة الضاربة للصفرة؟ آه كلا، إنه لم ينظر إليها قط، قالت له وحسب إنها حبيبة كلمّ، صعقه شيء جديد فضاع. لكن هي كان عليها الآن أن تخرج، الآن لم يعد لها طبعاً مكان في حانة السادة. بيبي رأتها في صباح اليوم قبل الخروج، كان العاملون قد تجمهروا، كل منهم كان ولا ريب يتطلع بشوق إلى رؤيتها. وهكذا كانت سلطتها ما زالت كبيرة، بحيث أن المرء أشفق عليها، الجميع وكذلك أعداؤها أشفقوا عليها؛ هكذا أثبت حسابها في البداية أنه صحيح؛ أن تكون قد ألقت بنفسها على مثل هذا الرجل، بدا للجميع أمراً غير مفهوم وضربة قدر، كانت فتيات المطبخ الصغيرات، اللواتي يُعجبن طبعاً بكل فتاة مشرب، حزينات. حتى بيبي كانت متأثرة من المشهد، ولا حتى هي استطاعت أن تقاوم كلياً، حتى لو كان اهتمامها ينصبّ في الواقع على شيء آخر. وقد لفت انتباهها مدى ضآلة حزن فريدا، كانت في الحقيقة قد أصابتها مصيبة مرعبة، وتظاهرت أيضاً بأنها شقية جداً، غير أن الأمر لم يكن كافياً، هذه اللعبة لم تستطع أن تخدع بيبي. ماذا أبقاها إذاً منتصبة؟ مثلاً سعادة الحب الجديد؟ حسناً، هذا الاعتبار استُبعد. لكن ماذا كان الحال في ما عدا ذلك؟ ماذا منحها القوة حتى ضد بيبي، التي كانت تُعتبر آنذاك خليفتها، أن تكون ودّية ببرود مثلما كانت دائماً. آنذاك لم يكن لدى بيبي متسع من الوقت كي تتمعن في ذلك، كان لديها عمل كثير بالتحضيرات من أجل العمل الجديد. كان عليها على الأرجح أن تبدأ العمل خلال ساعات ولم يكن لديها بعد تسريحة شعر جميلة، لا ثوب أنيق، لا ملابس داخلية راقية، لا حذاء نافع. كل هذا كان يجب تدبيره خلال ساعات، إذا لم يكن في مقدور المرء أن يجهز نفسه على نحو صحيح، فإنه كان من الأفضل أن يستغني عن العمل أساساً، وإلا فإنه يفقده من ثم في نصف الساعة الأول بكل تأكيد. حسناً، لقد تسنّى الأمر جزئياً. لتصفيف الشعر لديها فطرة خاصة، حتى إن صاحبة النزل استدعتها ذات مرة كي تسرّح لها شعرها، إنها هذه الخفة الخاصة لليد التي أعطيت لها، طبعاً ينصاع شعرها الغزير على الفور كما يشاء المرء وحسب. كذلك من أجل الثوب كان ثمة مساعدة. زميلتاها كانتا مخلصتين لها، كما أنه ثمة شرف نوعاً ما لهما، عندما تصبح فتاة من مجموعتهما بالذات فتاة مشرب، وبيبي خليقة عندما تصل إلى السلطة أن تؤمّن لهما بعض

المنافع. كان لدى إحدى الفتيات منذ مدة طويلة قطعة قماش غالية الثمن، كانت كنزها، كثيراً ما كانت تدع الآخرين يُعجبون بها، كانت ولا شك تحلم بأن تستخدمها لنفسها ذات مرة على نحو فاخر والآن ـ كان هذا فعلاً جميلاً جداً منها ـ الآن إذ احتاجتها بيبي، ضحت بها لها. وكلتاهما ساعدتاها في الحياكة عن طيب خاطر جداً، لو كانتا تخيطان لنفسهما، لما كان يمكنهما أن تكونا أكثر همة. حتى إن هذا كان عملاً مرحاً للغاية مثيراً للبهجة. كانت كل منهما تجلس على سريرها، إحداهن فوق الأخرى، وتروحان تحيكان وتغنّيان وتناولان بعضهما الأجزاء المنتهية واللوازم إلى أعلى وأسفل. عندما تفكر بيبي في ذلك، ينقبض قلبها لأن كل شيء كان بلا جدوى، وأنها تعود إلى صديقتيها خاوية اليدين. أية مصيبة ومدى الاستهتار الذي سببها، من قبل ك. قبل كل شيء. ما كان أعظم فرح الجميع بالثوب آنذاك. لقد بدا ضمانة النجاح، وإذا وُجد لاحقاً مكان لشريط صغير، زال آخر شك. أوَ ليس الثوب جميلاً فعلاً؟ إنه الآن مجعّد وملطّخ بعض الشيء، بيبي لم تكن طبعاً تملك ثوباً ثانياً، كان يتعيّن عليها أن ترتدي هذا ليلاً نهاراً، لكن المرء ما زال يرى دائماً كم هو جميل، ولا حتى البرناباسية الملعونة خليقة أن تنجز ثوباً أجمل. وأن المرء يستطيع كما يطيب له أن يثبّته ويحلّه من جديد، في الأعلى وفي الأسفل، أنه صحيح إذاً مجرد ثوب، لكنه قابل للتغيير هكذا، هذه ميزة خاصة وكانت في الحقيقة من ابتكارها. كما أنه طبعاً ليس من العسير عليها أن تحيك، بيبي لا تتباهى بهذا، إن كل شيء يناسب البنات الفتيّات صحيحات الجسم. كان أكثر صعوبة تأمين ملابس داخلية وحذاء وهنا يبدأ الإخفاق في الحقيقة. كذلك هنا ساعدت الصديقتان ما استطاعتا إلى ذلك سبيلا، غير أنهما لم تستطيعا كثيراً. كانت ملابس داخلية خشنة وحسب التي قامتا بجمعها وترقيعها، وبدلاً من حذاء بكعب عال وجب البقاء على شبشب، يؤثر المرء إخفاءه بدل إظهاره. قام المرء بمواساة بيبي: فريدا كذلك لم تكن ترتدي ملابس جميلة جداً وأحياناً كانت تجول بملابس رثة، بحيث أن الزبائن كانوا يؤثرون أن يدعوا صبيان القبو يقدمون لهم مشروباتهم بدلاً منها. هكذا كان الحال فعلاً، غير أن فريدا كان يجوز لها أن تفعل ذلك. كانت ذات حظوة وذات سمعة، عندما تظهر سيدة ذات مرة وهي ترتدي ملابس متسخة ومهملة، فإن هذا يكون أكثر إغراء، لكن لدى مبتدئة مثل بيبي؟ وبالإضافة إلى ذلك لم يكن في مقدور فريدا قط أن تكون في هندام حسن، فقد غادرها كل ذوق؛ إذا كانت إحداهن ذات بشرة ضاربة للصفرة، فإنه يجب عليها طبعاً أن تحتفظ بها، لكن لا يتعيّن عليها، مثلما تفعل فريدا، أن ترتدي بلوزة كريم ذات فتحة واسعة، هكذا بحيث تسكر عينا الناظر من طغيان الأصفر. وحتى لو لم يكن هذا، فهي كانت بخيلة بخلاً مفرطاً لا يسمح لها أن تكون ذات هندام حسن، كل ما كانت تكسبه، كانت تحتفظ به، وما من أحد كان يعلم في سبيل أي شيء. في العمل لم تكن بحاجة إلى مال، كانت تدبر أمورها بالكذب والخداع، بيبي لم

تكن تريد وتستطيع أن تقلد هذا المثال ولذا كان أمراً مسوغاً أن تتزين، وذلك كي تُظهر نفسها، حتى في البداية. لو كان في مقدورها أن تفعل ذلك بوسائل أكثر قوة، لظلت منتصرة مع كل مُكر فريدا، مع كل غباء ك. كما أن الحال بدأ بداية طيبة جداً. كانت سابقاً قد علمت بضع حركات اليد والمعارف التي كانت ضرورية. ما كادت تكون في المشرب، حتى تأقلمت. ما من أحد افتقد فريدا. فقط في اليوم الثاني استعلم بعض الزبائن، أين هي فريدا إذاً في الحقيقة. لم يقع خطأ، صاحب الحانة كان راضياً، في اليوم الأول كان في خوفه على الدوام في المشرب، لاحقاً لم يعد يأتي إلا بين الفينة والأخرى، في الختام ترك، إذ كان الصندوق على ما يرام ـ الواردات كانت وسطياً حتى أكثر قليلاً من أيام فريدا ـ لبيبي كل شيء. وقد أدخلت تجديدات. كانت فريدا تراقب الخدم أيضاً، على الأقل جزئياً، خاصة عندما كان أحد ما يشاهد، كانت تراقب ليس اجتهاداً، بل بخلاً، حباً بالسيطرة وخوفاً من التنازل لأحد ما عن شيء من حقوقها؛ أما بيبي فقد أحالت هذا العمل إلى صبيان القبو، الذين أيضاً يصلحون له أفضل بكثير. بهذا خصصت وقتاً أكثر لغرف السادة، السادة كانوا يُخدمون بسرعة، مع ذلك كانت تستطيع أن تتحدث بضع كلمات مع كل واحد منهم، ليس مثل فريدا، التي كانت تحفظ نفسها كلياً لكلمّ كما يقال وترى كل كلمة، كل تقرّب من قبل آخر إساءةً لكلمّ. كان هذا طبعاً فطنة أيضاً، إذ عندما كانت ذات مرة تدع أحدهم يقترب منها، كان ذلك حظوة خارقة. أما بيبي فإنها تكره هذه الأفانين، كما أن هذه غير مجدية في البداية. كانت بيبي لطيفة مع كل فرد، وكان كل فرد يقابلها لطفاً بلطف. كان الجميع مسرورين بشكل ملحوظ بالتغيير؛ عندما يجوز للسادة المنهكين أن يجلسوا أخيراً برهة قصيرة لتناول كأس من البيرة، يمكن للمرء بكلمة، بنظرة، بهزة كتفين، أن يدلّلهم بمعنى الكلمة. هكذا بهمة كبيرة كانت كل الأيدي تتخلل خصلات شعرها بحيث أنها كانت مضطرة لتجديد تسريحتها عشر مرات في اليوم، إن إغراء هذه الخصلات وهذه الحيل لا يقاوم أحد، ولا حتى ك. شارد الفكر فيما عدا ذلك. هكذا مرّت بسرعة أيام مثيرة، زاخرة بالعمل لكن ناجحة. لو لم تمرّ بسرعة هكذا، لكانت أكثر عدداً! أربعة أيام كانت قليلة جداً، عندما يجهد المرء نفسه لغاية الإنهاك أيضاً، ربما كان من شأن اليوم الخامس أن يكفي، لكن أربعة أيام كانت قليلة جداً. كانت بيبي قد كسبت طبعاً خلال أربعة أيام أصدقاء وذوي برّ، كان يجوز لها أن تثق بكل النظرات، عندما كانت تتبختر بكؤوس البيرة كانت تسبح حقاً في بحر من الصداقة، كاتب يدعى براتماير مولع بها، أهداها هذه السلسلة وقطعة الحلي المعلقة بها وأعطى صورته في الخلية، الأمر الذي هو جسارة والحق يقال. هذا وغيره كان قد حدث، لكنها كانت مع ذلك أربعة أيام وحسب، خلال أربعة أيام يمكن لفريدا، إذا عملت بيبي في سبيل ذلك، أن تُنسى لكن ليس كلياً، وكان من شأنها أن تُنسى، ربما قبل ذلك، لو لم تحفظ نفسها من باب الحيطة

في أفواه الناس من خلال فضيحتها الكبرى، بهذا غدت جديدة للناس، فقط من باب الفضول كانوا يودّون رؤيتها مرة أخرى؛ ما كان قد بات مملاً لهم لحدّ السقم، أصبح له جاذبية مرة أخرى بفضل ك. اللامبالي كلياً فيما عدا ذلك، ما كان من شأنهم طبعاً أن يتخلوا عن بيبي لقاء ذلك، طالما كانت تقف هنا وتؤثّر من خلال وجودها، لكن جلّهم سادة متقدمون في السن متثاقلون في عاداتهم، قبل أن يعتادوا على فتاة مشرب جديدة يحتاج الأمر إلى بضعة أيام مهما كان التغيير مفيداً، ضد رغبة السادة الخاصة بهم يستغرق الأمر بضعة أيام، ربما خمسة أيام فقط، لكن أربعة أيام لا تكفي، كانت بيبي على الرغم من كل شيء ما زالت تعتبر المؤقتة. ومن ثم ربما المصيبة الكبرى، في هذه الأيام الأربعة لم ينزل كلمّ، مع أنه كان في القرية أثناء اليومين الأولين، في غرفته في النزل. لو كان قد أتى، كان من شأن ذلك أن يكون اختبار بيبي الحاسم، اختبار، للمناسبة، أقل ما كانت تخشاه، بالأحرى كانت تنتظره بسرور. لم تكن خليقة ـ من الأفضل طبعاً أن لا يمسّ المرء هذه الأمور بكلمات أبداً ـ أن تصبح عشيقة كلمّ ولما ارتقت إلى مثل هذه بالكذب، لكنها كانت ستعرف على الأقل أن تضع كأس البيرة على الطاولة بلطف مثل فريدا، ودون تطفلات فريدا كانت ستحيّي برقة وتستأذن منصرفة بلباقة وإذا بحث كلمّ بعامة شيئاً في عينيّ فتاة، كان قميناً أن يجده في عينيّ بيبي لدرجة الإشباع الكامل. لكن لماذا لم يحضر؟ مصادفة؟ كانت بيبي آنذاك تعتقد ذلك أيضاً. طوال اليومين كانت تنتظره كل لحظة، في الليل أيضاً كانت تنتظر. «الآن سوف يحضر كلمّ»، كانت تفكر دائماً وهي تجري جيئة وذهاباً دون سبب آخر سوى توتّر التوقع والرغبة العارمة في رؤيته أول من يراه فور دخوله. هذه الخيبة الدائمة أتعبتها كثيراً، ربما لهذا السبب لم تنجز كما كان يمكنها أن تنجز. كانت، عندما يكون لديها قليل من الوقت، تتسلل صاعدة إلى الممر، المحظور دخوله على العاملين في الحانة حظراً باتّاً، وتضغط نفسها في حنية في الحائط وتنتظر. «لو يأتي كلمّ الآن»، كانت تفكر في ذات نفسها، «لو كان في مقدوري أن آخذ السيد من غرفته وأحمله على ذراعيّ وأنزل به إلى المشرب. تحت هذا الثقل ليس من شأني أن أتهاوى ومهما كان كبيراً.» لكنه لم يأت. في هذه الممرات في الأعلى يسود سكون ليس في مقدور المرء أن يتصوره إذا لم يكن قد كان ذات مرة هناك. إنه سكون لا يستطيع المرء أن يحتمله مدة طويلة أبداً، السكون يطرد المرء. لكن مراراً وتكراراً، عشر مرات مطرودة، عشر مرات صعدت بيبي إلى فوق. كان بلا جدوى حقاً. لو كان كلمّ يريد أن يأتي، فإنه خليق أن يأتي؛ لكن إذا لم يكن يريد أن يأتي، فليس من شأن بيبي أن تستدرجه، حتى لو اختنقت في الحنية من خفقات القلب نصف اختناقة. كان الأمر بلا جدوى، لكن إذ إنه لم يأت، فقد كان كل شيء تقريباً بلا جدوى. ولم يأت. اليوم تعرف بيبي لماذا لم يأت كلمّ. كان من شأن فريدا أن يكون لديها تسلية رائعة لو كان في مقدورها أن ترى بيبي في الممر فوق في الحنية، وكلتا يديها على قلبها.

كلمّ لم ينزل لأن فريدا لم تسمح بذلك. ليس برجاءاتها حققت هذا، رجاءاتها لا تصل إلى كلمّ، لكنها، هذه العنكبوت، لديها اتصالات لا يعرف عنها أحد شيئاً. عندما تقول بيبي شيئاً لشخص، فإنها تقوله علناً، كذلك الطاولة المجاورة يمكنها أن تسمعه؛ فريدا ليس لديها ما تقوله، تضع البيرة على الطاولة وتنصرف، فقط تنورتها الحريرية، الشيء الوحيد الذي تنفق مالاً في سبيله، تروح تهفهف. غير أنها عندما تقول ذات مرة شيئاً، فإنها لا تقوله علناً، بل تهمس به للزبون، تنحني بحيث أن المرء إلى الطاولة المجاورة يرهف السمع. ما تقوله، سخيف على الأرجح، لكن ليس دائماً، لديها اتصالات، تسند اتصالاً باتصال آخر وإذا أخفق معظمها ـ مَن مِن شأنه أن يهتم بفريدا على الدوام؟ ـ يظل أحدها قائماً بين الفينة والأخرى. الآن بدأت في استغلال هذه الاتصالات، وقد منحها ك. الإمكانية لفعل ذلك، بدلاً من أن يجلس إليها ويحرسها، فإنه لا يقيم في البيت، يطوف، لديه محادثات هنا وهناك، يهتم بكل شيء، إلا بفريدا، ولكي يمنحها أخيراً حرية أكثر، فإنه ينتقل من حانة الجسر إلى المدرسة الخالية. هذا كله هو حقاً بداية جميلة لشهر العسل. حسناً، بيبي هي يقيناً آخر من سوف يلوم ك. على أنه لم يحتمل البقاء لدى فريدا؛ ليس في مقدور المرء أن يحتمل البقاء لدى فريدا. لكن لماذا لم يهجرها كلياً، لماذا كان دائماً يعود إليها، لماذا أيقظ بجولاته مظهر أنه إنما يكافح من أجلها. لقد بدا الأمر وكأنه فقط بتماسّه مع فريدا إنما اكتشف انعدام قيمته الحقيقي، كأنه يريد أن يعمل نفسه جديراً بفريدا، كأنه يريد أن يرقى إلى أعلى بطريقة ما، لذا يستغني مؤقتاً عن العيش معها لكي يجوز له أن يعوض لاحقاً بهدوء عما افتقده. في هذه الغضون لا تخسر فريدا الوقت، تجلس في المدرسة، حيث وجّهها ك. على الأرجح، وتراقب حانة السادة وتراقب ك. في متناول يدها ساعيان ممتازان، مساعدا ك.، اللذان ـ لا يفهم المرء الأمر، حتى لو كان يعرف ك.، لا يفهمه ـ تركهما لها كلياً. تبعثهما إلى أصدقائها القدامى، تعيد نفسها إلى الأذهان، تشكو من أنها محتجزة من قبل رجل مثل ك.، تحرّض ضد بيبي، تعلن عن قدومها القريب، تطلب عوناً، تناشدهم بأن لا يبوحوا لكلمّ بشيء. تفعل هكذا وكأنه يجب الحرص على كلمّ ولذا لا يجوز تركه بأي حال من الأحوال ينزل إلى المشرب. ما تدعيه إزاء أحدهم حرصاً على كلمّ، تستغله إزاء صاحب النزل بصفته نجاحاً لها، تلفت النظر إلى أن كلمّ لن يأتي بعد، كيف يمكنه إذاً أن يأتي، عندما لا يقوم أحد بالخدمة تحت سوى بيبي؛ صحيح أنه لا ذنب لصاحب النزل، فقد كانت هذه البيبي على كل حال أفضل بديل كان يمكن إيجاده، لكنه لا يكفي، ولا حتى لبضعة أيام. من عمل فريدا هذا كله لا يعرف ك. شيئاً، عندما لا يكون في تجوال، فإنه يرقد إلى قدميها دون أن يفقه شيئاً، في حين تعدّ الساعات التي ما زالت تفصلها عن المشرب. لكن المساعدَين لا يقومان بعمل السعاة هذا وحده، إنهما يستخدمان أيضاً لإثارة غيرة ك. والإبقاء على علاقته. منذ طفولتها تعرف فريدا المساعدَين، بالتأكيد لم

يعد لديهم أسرار فيما بينهم، لكن تكريماً لـ ك. يبدأان يشتاق كل منهما إلى الآخر، وبالنسبة له ينشأ خطر بأن يصبح الأمر حباً كبيراً. وك. يفعل كل شيء مجاملة لفريدا، حتى الأكثر تناقضاً، يدع المساعدَين يجعلانه يشعر بالغيرة، غير أنه يحتمل أن يبقى الثلاثة جميعهم معاً، بينما يقوم هو بتجوالاته. إن الحال يكاد يكون أن ك. هو مساعد فريدا الثالث. هنا يستقر رأي فريدا أخيراً بناء على ملاحظاتها على القيام بالضربة الكبرى، تقرر أن تعود. وبالفعل لقد آن الأوان، وإنه لأمر جدير بالإعجاب كيف تدرك فريدا، الماهرة، هذا وتستغله، هذه القدرة على الملاحظة وعلى الحسم هما فن فريدا الذي لا يُحاكى؛ لو أوتيت بيبي ذلك، لكانت حياتها ستسير على نحو مغاير. لو كانت فريدا قد ظلت في المدرسة مدة يومين آخرين، لما كان طرد بيبي ممكناً بعد ذلك، تظل نهائياً فتاة مشرب، يحبها الجميع ويتمسكون بها، كسبت مالاً كافياً لكي تكمّل التجهيز على نحو باهر، يوم آخر، يومان وكلمّ لم يعد يمكن الحيلولة بينه وبين المشرب بأية أحاييل، يأتي، يشرب، يشعر براحة، وراض كل الرضى، إذا كان قد لاحظ أساساً غياب فريدا، عن التغيير، يوم آخر، يومان وفريدا مع فضيحتها، مع اتصالاتها، مع المساعدَين طواها النسيان بالكلية، لا تظهر بعد ذلك في يوم من الأيام. ربما يصبح في مقدورها أن تتمسك بـ ك. بقوة أكثر ويمكنها، على فرض أنها قادرة على ذلك، أن تتعلم أن تحبه فعلاً؟ لا، ليس هذا أيضاً. إذ أكثر من يوم واحد لا يحتاج ك. كي يضيق بها، كي يدرك مدى خداعها له على نحو مزر، بكل شيء، بجمالها المزعوم، وفائها المدعى به وعلى الأكثر بحب كلمّ الذي تدعيه، يوم آخر فقط، لا أكثر، يحتاج لكي يطردها من البيت مع كامل التدبير المنزلي القذر مع المساعدَين، ليفكر المرء، ولا حتى ك. يحتاج أكثر. وهنا بين هذين الخطرين، حيث يبدأ القبر يطبق فوقها بمعنى الكلمة، ك. في سذاجته يفسح لها الطريق الأخير الضيق، فتهرب. فجأة ـ هذا ما لم يكد يتوقعه أحد، إنه ضد الطبيعة ـ فجأة هي التي تطرد ك.، الذي ما فتئ يحبها دائماً، يلاحقها دائماً، وتحت ضغط الأصدقاء والمساعدَين تظهر لصاحب الحانة منقذة، بسبب فضيحتها أكثر إغراء من السابق بكثير، من المحقق مشتهاة من الوضيع كما من الرفيع، لكنها مستسلمة للوضيع لحظة واحدة وحسب، سرعان ما تلقيه جانباً كما يليق، وله وللجميع لا سبيل إليها مرة أخرى كما في السابق، فقط أن المرء في السابق كان يشك في كل هذا بحق، أما الآن فإنه أصبح مقتنعاً به من جديد. هكذا تعود، صاحب الحانة بنظرة جانبية إلى بيبي يتردد ـ هل عليه أن يضحي بها، هذه التي أثبتت جدارتها؟ لكنه سرعان ما بات مقتنعاً، أمور كثيرة تشفع لفريدا وقبل كل شيء سوف تكسب كلمّ مرة أخرى للمشرب. الآن انتهينا من العمل. بيبي لن تنتظر حتى تأتي فريدا وتحوّل استلام العمل إلى نصر. الصندوق كانت قد سلّمته إلى صاحبة الحانة، يمكنها أن تذهب. رف الفراش في الأسفل في غرفة الخادمات جاهز لها، سوف تأتي، وتحييها الصديقتان وهنّ ينتحبن، سوف

تنزع الثوب من على البدن والأشرطة من الشعر وتلقيها في أي ركن حيث تبقى مخفية على نحو جيد ولا تذكّر بلا ضرورة بأيام عليها أن يطويها النسيان. من ثم سوف تأخذ الدلو الكبير والمكنسة، تعضّ على أسنانها وتشرع في العمل. لكن حالياً لا بدّ لها من أن تروي كل شيء لـ ك.، الذي ما كان خليقاً الآن أيضاً أن يدرك هذا بدون معونة، لكي يدرك مرة بوضوح كم عاملَ ييبي على نحو بشع وكم من تعاسة سبّب لها. طبعاً، هو أيضاً جرى استغلاله وحسب أثناء ذلك.

كانت ييبي قد انتهت من الكلام. متنفسة الصعداء مسحت بضع دموع من العينين والوجنتين وتطلعت من ثم إلى ك. وهي تومئ برأسها، وكأنها تريد أن تقول إن الأمر في الحقيقة ليس هو مصيبتها قط، سوف تتحملها ولا تحتاج هنا لا إلى معونة ولا إلى مواساة من أي شخص لا سيما من ك. إنها على صغر سنها تعرف الحياة ومصيبتها تؤكد وحسب معارفها، لكن الموضوع يدور حول ك.، فقد أرادت أن تواجهه بحقيقته، حتى بعد انهيار كل آمالها اعتبرت أنه من الضروري أن تفعل ذلك.

«أية مخيلة جامحة لديك، ييبي»، قال ك. «ليس صحيحاً أبداً أنك لم تدركي كل هذه الأمور إلا الآن، إنها ليست شيئاً آخر سوى أحلام من غرفتكن المظلمة الضيقة في الأسفل، أحلام في مكانها هناك، لكنها هنا في المشرب الطليق تبدو غريبة. بمثل هذه الأفكار لم يكن في مقدورك تثبيت أقدامك هنا، هذا بديهيّ حقاً. حتى ثوبك وتسريحة شعرك، اللذان تعتزّين بهما، ليسا سوى وليديّ الخيال في ذلك الظلام وفي تلك الأسرّة في غرفتكنّ، هناك هما جميلان جداً بالتأكيد، لكن هنا يضحك منهما كل امرئ في سرّه أو علناً. وماذا تحكين في ما عدا ذلك؟ أنا جرى استغلالي وخداعي؟ كلا، يا عزيزتي ييبي، لم يجر استغلالي وخداعي أكثر منك. إن الأمر صحيح، فريدا هجرتني حالياً أو هربت، كما تعبّرين، مع أحد المساعدَين، إنك ترين ذرة من الحقيقة، كما أنه فعلاً بعيد عن الاحتمال جداً أن تصبح زوجتي، لكنه غير صحيح أبداً أنني ضقت بها ذرعاً، وأنه كان من شأني أن أطردها في اليوم التالي أو أنها قد خانتني مثلما ربما تخون امرأة رجلاً كما هو مألوف. أنتنّ خادمات الغرف معتادات على التلصص من خلال ثقب الباب، ومن هذا التلصص تحافظن على طريقة التفكير، من أمر صغير ترينه فعلاً تقمن بالاستدلال على المجموع، وهذا أمر عظيم كما هو خاطئ. نتيجة ذلك هي أنني مثلاً في هذه الحالة أعرف أقل منك بكثير. لا أعرف أن أفسر بدقة مثلك لماذا هجرتني فريدا. التفسير الأكثر احتمالاً يبدو لي التفسير الذي لامسته أنت أيضاً لكن لم تستخدميه، بأنني إنما أهملتها. هذا صحيح للأسف، لقد أهملتها، لكن هذا كان له أسباب خاصة لا مكان لها هنا، إنني خليق أن أكون سعيداً في ما لو عادت إليّ، لكن من شأني أن أعود في الحال إلى أن أبدأ في إهمالها. هكذا هو الحال. عندما كانت لديّ، كنت على الدوام في

جولاتي التي تسخرين منها، أما الآن حيث راحت، فإنني عاطل عن العمل تقريباً، متعب، أملك رغبة في بطالة أكثر اكتمالاً على الدوام. أليس لديك نصيحة لي، بيبي؟» «بلى»، قالت بيبي وقد غدت حيوية فجأة وأمسكت ك. من كتفيه، «نحن كلانا المخدوعان، لنبق معاً، انزل معي إلى الفتاتين.» «ما دمتِ تشكين من التعرض لخداع»، قال ك.، «فلا يمكنني أن أتفاهم معك. تريدين على الدوام أن تكوني مخدوعة، لأن هذا يرضي غرورك ويمسّ شغاف قلبك. لكن الحقيقة هي أنك لا تصلحين لهذا العمل. ما أوضح عدم الصلاحية هذا عندما أتبيّنه حتى أنا، الأكثر جهلاً حسب رأيك. إنك فتاة طيبة، بيبي، غير أنه ليس من اليسير بتاتاً إدراك هذا، أنا مثلاً كنت أعتبرك في البداية قاسية ومتعالية، لكنك لستِ ذلك، إنه هذا العمل وحده الذي يلبلبل أفكارك، وذلك لأنك غير مؤهلة له. لا أريد أن أقول إن العمل كبير عليك، إنه حقاً ليس عملاً استثنائياً، ربما يكون، عندما ينظر المرء بدقة، مشرّفاً أكثر من عملك السابق، لكن في المجموع فإن الفرق ليس كبيراً، كلاهما متشابهان بالأحرى لدرجة إمكانية الخلط بينهما، لا بل يكاد المرء يمكنه أن يدعي أنه يجب تفضيل كون الفتاة خادمة غرف على كونها فتاة مشرب، إذ هناك يكون المرء دائماً بين سكرتيرين، أما هنا فإنه يجب على المرء، وإن كان يجوز له أن يخدم في غرف الزبائن رؤساء السكرتيرين، أن يتعامل مع حثالة الشعب أيضاً، معي على سبيل المثال؛ أنا لا يجوز لي قانونياً أن أقيم في مكان آخر إلا هنا في المشرب وعلى إمكانية التعامل معي أن تكون مشرّفة ما يفوق كل تقدير؟ لك أنت يبدو الأمر هكذا وقد يكون لديك أسبابك. لكن بالذات لهذا السبب لا تصلحين. إنه عمل مثل غيره، أما لك فهو ملكوت السماء، ومن ثم فإنك تمسكين كل شيء بحماسة مفرطة، تتزينين كما تتزين الملائكة حسب رأيك - لكنها في الحقيقة تختلف - ترتعدين خوفاً على العمل، تشعرين دائماً أنك ملاحقة، تحاولين بتودد زائد أن تكسبي جميع أولئك الذين قد يكون في مقدورهم أن يدعموك، لكنك بهذا تضايقينهم وتنفّرينهم، إذ إنهم يريدون سلاماً في الحانة ولا يريدون أن يضيفوا إلى همومهم هموم فتاة المشرب. من المحتمل أنه بعد أن تركت فريدا العمل ما من أحد من الزبائن الأعلون قد لاحظ هذا الحدث حقاً، أما اليوم فإنهم يعلمون الأمر ويتوقون فعلاً إلى فريدا، إذ إن فريدا أدارت كل شيء بطريقة مغايرة كلياً. مهما كانت في ما عدا ذلك وكيفما عرفت كيف تقدّر عملها، فإنها كانت في الخدمة ذات خبرة واسعة، هادئة ومتحكمة في نفسها، أنت نفسك تبرزين الأمر، لكن دون أن تفيدي من الدرس. هلا لاحظت نظرتها ذات مرة؟ لم تكن نظرة فتاة مشرب أبداً، كادت تكون نظرة صاحبة حانة. كانت ترى كل شيء وكل فرد أيضاً والنظرة التي ظلت للفرد كانت قوية بما يكفي كي تخضعه. ماذا كان يهم أنها كانت ربما نحيفة بعض الشيء، متقدمة في السن قليلاً، أنه كان في مقدور المرء أن يتصور لها شعراً أكثر كثافة، هذه أمور صغيرة مقارنة بما كانت تملكه حقاً وذلك الذي من شأن هذه النواقص أن تزعجه، كان خليقاً أن يكون قد بيّن وحسب أن الحس لما هو أعظم إنما ينقصه. يقيناً لا

يمكن للمرء أن يتهم كلمّ بهذا والأمر هو مجرد زاوية النظر الخاطئة لفتاة شابة غير ذات خبرة، الذي لا يدع حب كلمّ لفريدا يُصدَّق. كلمّ يبدو لك ـ وهذا بحق ـ لا سبيل إلى بلوغه ولذا فإنك تظنين أن فريدا أيضاً غير قادرة على الاقتراب منه. إنك تخطئين. من شأني أن أثق بكلمة فريدا وحدها، حتى لو لم يكن في حوزتي دلائل أكيدة على ذلك. مهما بدا لك الأمر لا يُصدَّق ومهما كنت لا تستطيعين التوفيق بينه وبين تصوراتك عن العالم والموظفين والوجاهة وتأثير جمال النساء، فإنه صحيح ولا ريب، مثلما نجلس هنا معاً وأتناول يدك بين يديّ، هكذا كان أيضاً كلمّ وفريدا يجلسان أحدهما إلى جانب الآخر وكأن ذلك هو الشيء الأكثر بديهية في العالم، وكان كلمّ ينزل طواعية، لا بل إنه كان يهرع، ما من أحد كان يكمن له في الممر ويهمل بقية العمل، كان على كلمّ أن يجهد نفسه في النزول، والأخطاء في ملابس فريدا، التي كان من شأنك أن ترتعبي منها، لم تكن تزعجه أبداً. إنك لا تريدين أن تصدقيها! ولا تعرفين كيف تكشفين أمرك، وأنت تُظهرين بهذا بالذات مدى عدم خبرتك. حتى من لا يعرف شيئاً قط عن العلاقة مع كلمّ، لا بدّ له من أن يدرك من طبيعتها أن أحدهم شكّلها، الذي كان أكبر منك ومني ومن كل الشعب في القرية وأن أحاديثهما كانت تتجاوز الدعابات كما هي مألوفة بين الزبائن والنادلات وتبدو هدفاً لحياتك. غير أنني أظلمك. إنك تعرفين بنفسك محاسن فريدا معرفة جيدة، تلاحظين قوة ملاحظتها، قوة عزمها، تأثيرها على الناس، غير أنك تفسرين طبعاً كل شيء تفسيراً خاطئاً، تظنين أنها تستخدم كل شيء على نحو أنانيّ لمنفعتها وحسب ولضرر الآخرين أو حتى سلاحاً ضدك. لا، بيبي، حتى لو كانت تملك مثل هذه السهام، فلن يكون في مقدورها أن تطلقها من مسافة قصيرة هكذا. وعلى نحو أنانيّ؟ بالأحرى في مقدور المرء أن يقول بالتضحية بما كانت تملكه وبما كانت تتوقعه، إنما منحتنا كلانا الفرصة لإثبات جدارتنا في مراكز أعلى، لكننا خيبنا أملها ونضطرها حقاً إلى العودة إلى هنا. إنني لا أدري هل كان الحال هكذا، كما أن ذنبي غير واضح لي بتاتاً، فقط عندما أقارن نفسي بك، يظهر لي شيء من هذا القبيل؛ هكذا كأننا سعينا كلانا أكثر مما يجب، بصخب مفرط، بطفولية زائدة، بلا خبرة بتاتاً، في سبيل شيء، يمكن مثلاً بهدوء فريدا، بموضوعية فريدا، كسبه بسهولة وعلى نحو غير ملحوظ، سعينا بالبكاء، بالخدش، بالشدّ للحصول عليه، هكذا مثل طفل يشدّ غطاء الطاولة، غير أنه لا يكسب شيئاً، بل يلقي كل ما هو فاخر على الطاولة إلى الأرض، فيظل لا سبيل إليه إلى الأبد ـ لا أدري هل كان الحال هكذا، لكنه بالأحرى هكذا أكثر مما هو كما تروين، هذا ما أعرفه يقيناً.» «حسناً»، قالت بيبي، «أنت مغرم بفريدا لأنها هجرتك، إنه ليس من الصعب الوقوع في غرامها عندما تكون غائبة. لكن يمكن أن يكون الأمر كما تريد، ويمكن أن تكون على حق في كل شيء، كذلك في أنك تجعل مني أضحوكة، ـ ماذا تريد أن تفعل الآن؟ فريدا هجرتك، وليس لديك أمل، لا بعد تفسيري ولا بعد تفسيرك، بأن تعود إليك، وحتى لو عادت، فإنه يتعيّن عليك أن تمضي الوقت

حتى ذلك الحين في مكان ما، إن الطقس بارد وليس لديك عمل ولا فراش، تعال إلينا، صديقتاي سوف تعجبانك، سوف نؤمّن لكَ راحة، سوف تساعدنا في العمل، الصعب فعلاً على الفتيات، نحن الفتيات لن نكون معتمدات على أنفسنا، وفي الليل لن نعاني من الخوف. تعال إلينا! صديقتاي أيضاً تعرفان فريدا، سوف نروي لك حكايات عنها، حتى تسأم من هذه الحكايات. فلتأت! كذلك لدينا صور من فريدا وسوف نريك إياها. آنذاك كانت فريدا أكثر تواضعاً مما هي اليوم، لن تتعرفها إلا بصعوبة، على الأكثر من عينيها، اللتين كانتا مذ ذاك تترصدان. حسناً سوف تأتي إذاً؟» «هل هذا مسموح به؟ يوم أمس قامت الفضيحة الكبرى، لأنني ضُبطت في ممركنّ.» «لأنك ضبطت؛ لكن عندما تكون لدينا، فإنك لن تُضبط. لا أحد يريد أن يعرف عنك، نحن فقط الثلاثة. آه، سوف يكون فرح ومرح. على الفور غدت الحياة تبدو لي هناك أكثر احتمالاً بكثير مما كانت عليه قبل هنيهة. ربما لا أفقد الآن الكثير بأنه يجب عليّ الانصراف من هنا. إننا لن نشعر بالملل أيضاً عندما نكون ثلاثتنا معاً، على المرء أن يقوم بتحلية الحياة المرّة، يجعلونها مُرّة علينا منذ الصبا، لكي لا يترفّه اللسان، الآن نحن ثلاثتنا نتضامن، نعيش حياة حلوة وكأن ذلك ممكناً هناك، خاصة هنريتّه سوف تعجبك، لكن كذلك إميليه، كنت قد حدثتهما عنك، يستمع المرء هناك مثل هذه القصص غير مصدّق، كأنه لا يمكن أن يحدث في الواقع شيء خارج الغرفة، إنها دافئة وضيقة ونحن نتلاصق، كلا، مع أننا نعتمد بعضنا على بعض، فإننا لم يسأم بعضنا من بعض، على العكس، عندما أفكر بالصديقتين، أكاد أحس بالرضى أنني أعود ثانية؛ لماذا عليّ أن أترقى أكثر منهن، هذا هو طبعاً ما جعلنا نتكاتف، أن المستقبل موصد أمامنا بالكيفية نفسها والآن كسرت الطوق وانفصلت عنهن؛ طبعاً لم أنسهنّ وكان همّي التالي هو كيف يمكنني أن أفعل شيئاً من أجلهنّ؛ كان عملي ما زال غير مضمون ـ لم أكن أعرف أبداً مدى كونه غير مضمون ـ ومع ذلك تحدثت مع صاحب النزل عن هنريته وإميليه. بخصوص هنريته لم يكن صاحب النزل متشدداً كل التشدد، لكن بالنسبة لإميليه، التي تكبرنا كثيراً، إنها تقارب فريدا في السن، لم يعطني أملاً. لكن تصور فقط، إنهما لا تريدان الانصراف بتاتاً، إنهما تعلمان أن حياتهما هناك هي حياة بائسة، غير أنهما استسلمتا، الروحان الطيبتان، أظن أن دموعهما لدى الوداع كانت في الغالب بسبب الحزن لأنه كان عليّ أن أغادر الغرفة المشتركة، أخرج إلى البرد ـ يبدو لنا هناك كل ما هو خارج الغرفة بارداً ـ أجهد نفسي في الأماكن الغريبة الكبيرة مع ناس غرباء كبار لا لهدف آخر إلا لكي أعيش عيشة ضنك، الأمر الذي كان قد تمّ لي حتى الآن أيضاً في النزل المشترك. إنهما لن تدهشا على الأرجح عندما أعود الآن وانسياقاً لي ليس إلا أنهما سوف تنتحبان قليلاً وتشكوان قدري. لكن سوف تريانك من ثم وتلاحظان أنه كان أمراً حسناً أنني كنت قد انصرفت. أنه لدينا الآن رجل كمعين وحامٍ سوف يسعدهما وسوف يأسرهما حقاً أن كل شيء يجب أن يبقى سراً، وأننا بهذا السر سوف نظل وثيقي الصلة أكثر مما مضى.

تعال، أوه رجاء، تعال إلينا! عليك لا ينشأ التزام، لن تكون مرتبطاً بغرفتنا على الدوام، كما نحن. عندما يأتي الربيع وتجد مأوى في مكان ما ولا يعود المقام لدينا يعجبك، فبإمكانك حقاً أن تذهب، غير أنه يتعيّن عليك من ثم أيضاً أن تحفظ السر ولا تشي بنا، إذ من شأن هذا أن يكون ساعتنا الأخيرة في نزل السادة؛ وأيضاً في ما عدا ذلك عليك طبعاً أن تكون حذراً عندما تكون لدينا، لا تظهر نفسك في أي مكان نعتبره خطراً وأن تتبع نصائحنا بصفة عامة؛ هذا هو الأمر الوحيد الذي يربطك، ولا بدّ لك من أن تكون حريصاً على ذلك مثل حرصنا نحن، لكن في ما عدا ذلك، فإنك حر كلياً، العمل الذي سنخصصه لك لن يكون صعباً جداً، لا تخشَ من ذلك. أتأتي إذاً؟» «ما المدة التي أمامنا حتى يأتي الربيع؟» سأل ك. «حتى يأتي الربيع؟» كررت بيبي، «الشتاء طويل لدينا، شتاء طويل جداً وعلى وتيرة واحدة. غير أننا لا نشكو من ذلك في غرفتنا السفلية، إننا في مأمن من الشتاء. حسناً، ذات مرة يأتي الربيع أيضاً والصيف ولكل وقته ولا ريب، لكن في الذاكرة، الآن، يبدو الربيع والصيف قصيرين لدرجة كأنهما لا يزيدان على يومين، وحتى في هذين اليومين وكذلك في أجمل يوم يهطل ثلج أحياناً.

هنا فتح الباب، بيبي اعترتها رجفة، كانت في أفكارها قد ابتعدت كثيراً عن المشرب، لكن القادم لم يكن فريدا، بل صاحبة النزل. تظاهرت بالدهشة أن تجد ك. ما زال هنا. اعتذر ك. بأنه إنما كان ينتظر صاحبة النزل، في الوقت نفسه عبّر عن شكره من أجل أنه مسموح له أن يبيت هنا. لم تفهم صاحبة النزل لماذا انتظرها ك. قال إنه كان لديه انطباع أن صاحبة النزل إنما تريد أن تتحدث معه، إنه يرجو المعذرة إذا ما كان هذا خطأً، للمناسبة، لكن عليه الآن في الواقع أن يذهب. فقد ترك المدرسة، حيث هو خادم فيها، وشأنها منذ مدة طويلة، الذنب في كل شيء يقع على عاتق الدعوة للحضور يوم أمس، ما زال لا يملك خبرة كبيرة في هذه الأمور، يقيناً لن يحدث الأمر مرة أخرى أن يسبب للسيدة صاحبة النزل مثل هذه المضايقات، مثلما حدث يوم أمس. وقام بانحناءة كي ينصرف. نظرت إليه صاحبة النزل نظرة كأنها تحلم. من خلال هذه النظرة أبقي على ك. مدة أطول مما كان يريد. والآن ابتسمت أيضاً ابتسامة خفيفة وفقط من خلال وجه ك. الدهِش أوقظت إلى حد ما، كان الحال وكأنها كانت تتوقع جواباً على ابتسامتها وفقط الآن إذ لم يأت، تستيقظ. «أظن أنه كان لديك أمس الوقاحة أن تقول شيئاً عن ثوبي.» لم يستطع ك. أن يتذكر. «لا تستطيع أن تتذكر؟ من توابع الوقاحة يأتي من ثم بعد ذلك الجبن.» اعتذر ك. بنعاسه يوم أمس، من الممكن أنه ثرثر أمس بعض الشيء، على كل حال لم يعد يتذكر. ماذا كان في مقدوره أن يقول عن ثياب السيدة صاحبة النزل. أنها جميلة كما لم ير مثلها من قبل. على الأقل لم يكن قد رأى صاحبة نزل بمثل هذه الثياب أثناء العمل. «دع هذه الملاحظات»، قالت صاحبة النزل على عجل، «لا أريد أن أسمع منك

بعد الآن كلمة عن الثياب. ليس عليك أن تهتم بثيابي. إنني أحظر عليك هذا لآخر مرة.» قام ك. مرة أخرى بانحناءة واتجه نحو الباب. «ماذا يمكن لهذا أن يعني إذاً؟» نادت صاحبة النزل خلفه، «أنك في مثل هذه الثياب ما زلت لم تر صاحبة نزل أثناء العمل. ماذا تعني مثل هذه الملاحظات التي لا طائل تحتها؟ إن هذا لهو هراء مطلق. ماذا تريد أن تقول بهذا؟» استدار ك. ورجا صاحبة النزل بأن لا تنفعل. طبعاً إن الملاحظة هراء. كما أنه لا يفهم شيئاً في الملابس. في وضعه يبدو له كل ثوب نظيف وغير مُرتق ثميناً. كان مدهوشاً وحسب أن يرى السيدة صاحبة النزل هناك في الممر، في الليل، بين كل الرجال غير المرتدين ملابسهم بالكاد، في مثل ثوب السهرة الجميل هذا، هذا هو كل ما في الأمر لا أكثر. «حسناً إذاً»، قالت صاحبة النزل، «أخيراً تبدو أنك تتذكر ملاحظتك يوم أمس. وإنك تكمّلها بهراء آخر. أنك لا تفهم في الملابس، هذا صحيح. لكن من ثم أقلع أيضاً ـ بشأن هذا أريد أن أكون قد رجوتك جدياً ـ عن الحكم عما هي الثياب الثمينة، أو ثياب سهرة غير مناسبة وما شابه. أصلاً ـ هنا كان الحال كأن قشعريرة أصابتها ـ لا يجوز لك أن تنشغل بثيابي، هل تسمع؟ وإذ أراد ك. أن يستدير ثانية بصمت، سألتْ: «من أين لك إذاً معرفتك بالثياب؟» هزّ ك. كتفيه، إنه لا يملك معرفة. «لا تملك معرفة»، قالت صاحبة النزل، «لكن ليس عليك أيضاً أن تدّعيها. تعال إلى المكتب، سوف أريك شيئاً، من ثم سوف تكفّ عن حماقاتك، كما آمل.» عبرت الباب قبله؛ بيبي قفزت إلى ك.؛ بذريعة أن تحصل على الحساب من ك. تفاهما بسرعة؛ كان الأمر يسيراً جداً، لأن ك. كان يعرف الفناء، الذي كانت بوابته تفضي إلى الشارع الجانبي، إلى جانب البوابة كان ثمة بوابة صغيرة، خلفها كانت بيبي تريد أن تقف بعد نحو ساعة وتفتحها بناء على ثلاث طَرقات.

كان المكتب الشخصي يقع في الجهة المقابلة للمشرب، كان يجب عبور الممر وحسب، كانت صاحبة النزل تقف في المكتب المضاء وتتطلع نحو ك. نافدة الصبر. لكن كان ثمة إزعاج آخر. كان غرشتكر ينتظر في الممر وكان يرغب في أن يتحدث مع ك. لم يكن من اليسير التخلص منه، كذلك صاحبة النزل ساعدت وعاتبت غرشتكر على إلحاحه. «إلى أين إذاً؟ إلى أين إذاً؟» سُمع غرشتكر ينادي، حين كان الباب قد أغلق، وامتزجت الكلمات على نحو بشع بتنهدات وسعال.

كانت حجرة صغيرة ذات تدفئة مفرطة. إلى الحائطين العرضيين كان ثمة طاولة عالية وخزينة حديدية، إلى الحائطين الطوليين خزانة وأريكة. كانت الخزانة تشغل معظم المساحة، لم تكن تملأ الحائط الطولاني بكامله وحسب، كذلك بسبب عمقها كانت تضيّق الغرفة كل التضييق، ثلاثة أبواب منزلقة كانت ضرورية لفتحها على نحو تامّ. أشارت صاحبة النزل إلى الأريكة بأن يجلس ك. عليها، هي نفسها جلست على الكرسي الدوّار لدى الطاولة العالية.

«ألم تتعلم حتى مهنة الخياطة؟»، سألت صاحبة النزل. «لا، مطلقاً»، قال ك. «ماذا أنت إذاً في حقيقة الأمر؟» «مسّاح أراض.» «ما هذا إذاً؟» شرح ك. الأمر، الشرح جعلها تتثاءب. «إنك لا تقول الحقيقة. لماذا لا تقول الحقيقة إذاً؟» «أنت أيضاً لا تقولين الحقيقة.» «أنا؟ إنك تبدأ من جديد بوقاحاتك. وإذا كنت لا أقول الحقيقة - هل عليّ إذاً أن أتحمل مسؤولية أمامك؟ وفي أي شيء لا أقول الحقيقة؟» «إنك لست صاحبة نزل وحانة وحسب، كما تتظاهرين.» «انظر، إنك مفعم بالاكتشافات. ما أنا إذاً فوق ذلك؟ لعمري، لكن وقاحاتك تزيد الآن عن حدّها.» «لا أدري ماذا أنت في ما عدا ذلك. أرى وحسب أنك صاحبة نزل وفوق ذلك ترتدين ثياباً لا تناسب صاحبة نزل وكما لا يرتديها أيضاً أحد هنا في القرية حسب علمي.» «الآن نأتي إذاً إلى الجوهري، إنك لا تستطيع أن تكتمه، ربما لا تكون وقحاً أبداً، إنك فقط مثل طفل يعرف أية حماقة ولا يمكن دفعه بأية وسيلة لكي يكتمها. تكلم إذاً. ما المميز في هذه الثياب؟» «سوف تغضبين إذا قلت الأمر.» «لا، سوف أضحك من ذلك، سيكون ثرثرة صبيانية حقاً. كيف هي الثياب إذاً؟» «ترغبين في معرفة الأمر. إنها من قماش جيد، ثمينة بحق، لكنها عتيقة، مبهرجة، معدّلة بإفراط غالباً، بالية ولا تناسب سنوات عمرك ولا قوامك ولا مركزك. لقد لفتت انتباهي فور أن رأيتك لأول مرة، كان ذلك قبل نحو أسبوع، هنا في الممر.» «ها هو الأمر إذاً. هي عتيقة، مبهرجة وماذا أيضاً؟ ومن أين تريد أن تعرف كل هذا؟» «هذا هو ما أراه. من أجل هذا الأمر لا يحتاج المرء إلى تعليم.» «ترى هذا في سهولة ويسر. ليس عليك أن تستفسر في أي مكان وتعرف في الحال ماذا تتطلب الموضة. سوف تصبح لي شخصاً لا يستغنى عنه، إذ والحق يقال لديّ ولع بالثياب الجميلة. وماذا ستقول عن أن هذه الخزانة مليئة بالثياب؟» دفعت الأبواب المنزلقة إلى الجانب، كانت الخزانة تزدحم بالثياب، ثوباً يلاصق الآخر، متراصة في كامل عرض الخزانة وعمقها، كانت في الغالب ثياباً غامقة، رمادية، بنيّة، سوداء، معلقة كلها ومرتّبة بعناية. «هذه هي ثيابي، كلها عتيقة، مبهرجة، كما ترى. لكنها هي فقط الثياب التي لا أملك مكاناً لها فوق في غرفتي، هناك ما زال لديّ خزانتان مليئتان، خزانتان كل منهما كبيرة تقريباً مثل هذه. هل تُدهش؟» «لا، كنت أتوقع شيئاً مماثلاً، لقد قلتُ حقاً إنك لست صاحبة نزل وحسب، إنك تطمحين إلى شيء آخر.» «لا أطمح إلا إلى أن ألبس على نحو جميل. إما أنك مجنون أو طفل أو إنسان شرير جداً وخطير جداً. انصرف، لتنصرف!» ك. كان في الممر وغرشتكر أمسك به من كمّه ثانية، حين نادت صاحبة النزل وراءه: «سأحصل غداً على ثوب جديد، ربما أستدعيك.»

غرشتكر، ملوّحاً بيديه غاضباً، كأنه يريد إسكات صاحبة النزل التي تزعجه من بعيد، طلب من ك. أن يذهب معه. عن شرح أكثر تفصيلاً لم يشأ أن يدخل في حديث. باعتراض ك. بأن عليه الآن الذهاب إلى المدرسة لم يكد يكترث. فقط حين قاوم ك. أن يسحبه، قال له غرشتكر

إن عليه أن لا يهتم، سوف يحصل لديه على كل ما يحتاجه، يمكنه أن يترك عمله كخادم مدرسة، عليه وحسب أن يأتي أخيراً، لقد انتظره طوال اليوم، أمه لا تدري أين هو. مستجيباً له ببطء سأل ك. لقاء ماذا يريد أن يقدم له طعاماً وسكناً. غرشتكر أجاب على نحو عابر وحسب، بأنه يحتاجه مساعداً في العمل لدى الخيول، هو نفسه لديه الآن أعمال أخرى، لكن الآن ليت ك. لايدعه يسحبه وراءه ولا يسبب له صعوبات غير ضرورية. إذا كان يريد أجراً، فإنه سيدفع له أجراً أيضاً. لكن الآن ظل ك. واقفاً على الرغم من كل جرّ. إنه لا يفهم شيئاً مطلقاً عن الخيول. هذا غير ضروري بتاتاً، قال غرشتكر بنفاد صبر وشبك راحتيه ليدفع ك. إلى الذهاب معه. «أعرف لماذا تريد أن تأخذني معك»، قال ك. الآن أخيراً. كان سيّان لغرشتكر ما كان ك. يعرفه. «لأنك تظن أنني أستطيع أن أحقق لك شيئاً لدى إرلنغر.» «بالتأكيد»، قال غرشتكر، «ماذا تهمني في ما عدا ذلك.» ضحك ك.، تعلق بذراع غرشتكر وتركه يقتاده عبر الظلام.

كانت الغرفة في كوخ غرشتكر مضاءة إضاءة خافتة من نار الموقد ومن جذر شمعة كان لدى ضوئها ينحني أحدهم في تجويف تحت دعائم السقف المائلة والبارزة إلى الأمام ويقرأ في كتاب. كانت أم غرشتكر. مدّت يدها المرتعشة إلى ك. ودعته يجلس إلى جانبها، بمشقة تحدثت، كان من الصعب فهمها، لكن ما قالته

II ـ دراسات

١ ـ مقالة «نشوء رواية القلعة» مأخوذة من كتاب «كافكا / أعوام الإدراك» (٧٣٠ صفحة، نشر عام ٢٠٠٨)، وهو الجزء الثالث من سيرة حياة كافكا، التي كتبها راينر شتاخ (مواليد عام ١٩٥١) بعد أن تفرغ لكتابتها طوال ثمانية عشر عاماً (بين عامي ١٩٩٦ و ٢٠١٤)، وتقع في نحو ألفي صفحة. مصادره هي رسائل كافكا ويومياته ووثائق من آخرين لا تعدّ ولا تحصى. كان شتاخ قبل ذلك قد كتب أطروحة دكتوراه عن كافكا ثم نشرها في كتاب بعنوان «أسطورة كافكا الإيروسية». في عام ١٩١٢ نشر كتاباً بعنوان «هل هذا كافكا؟ / ٩٩ لقية» (٣٥٥ صفحة). في عامي ٢٠١١ و٢٠١٢ نشر كتابين مسموعين: «ألعاب كافكا / رحلة صغيرة عبر تركة كافكا الأدبية» و«سرّ كافكا / مدخل». يعمل مراجعاً علمياً في ثلاث دور نشر كبيرة، ويشرف على أكبر موقع إلكتروني لكافكا في العالم www.franzkafka.de

٢ ـ دراسة «الكون البشري» مأخوذة من كتاب «كافكا» (٤٤٥ صفحة، نشر عام ١٩٥٧)، الذي كتبه عالِم الأدب البروفسور فيلهلم إمريش (١٩٠٩ ـ ١٩٩٨)، الذي قيل عنه إنه كان «قوة عظمى» في مجال الأدب الألماني، وإن محاضراته كانت «أسطورة». كان له مجالا اختصاص: غوته، والحداثة في مطلع القرن العشرين. وكان أهم كتابين له هما «رمزية فاوست II»، الذي حلّ فيه أكبر لغز في الأدب الألماني؛ وكتابه بعنوان «كافكا»، هذا الكتاب الذي كان أول دراسة كبيرة بالألمانية انتزعت كافكا من بين مخالب التفسيرات الغيبية، وأنزلته من سماوات الأديان إلى أرض الواقع ووجود الإنسان على هذه الأرض، وفتحت الطريق بهذا لانتشار أدب كافكا.

٣ ـ دراسة «غريب ونظامه النفسي» مأخوذة من كتاب «فرانز كافكا الابن الأبدي / سيرة

حياة» (٧٦٦ صفحة، نشر عام ٢٠٠٥)، الذي كتبه بيتر ـ أندريه ألت، وضمّنه تفسيرات لآثار كافكا الأدبية. بروفسور ألت (مواليد عام ١٩٦٠) هو عالم أدبي مختص في علم الأدب الألماني الحديث، وهو رئيس جامعة برلين، ورئيس جمعية شيللر، وعضو في عدة مجالس استشارية؛ منها مجلس أرشيف الأدب الألماني في مارباخ. نشر ستة عشرة سيرة حياة، أهمها سيرة حياة كافكا وسيرة حياة شيللر، بعنوان «شيللر: حياته. آثاره. عصره في جزأين» (١٦٠٥ صفحات). ونشر كتاباً بعنوان «كافكا والفيلم»، كما نشر ١١٥ مقالة في مواضيع أدبية متنوعة.

١ ـ نشوء رواية «القلعة»

كتب كافكا مجموع آثاره الأدبية خلال أحد عشر عاماً ونصف العام. في المدة الواقعة بين أيلول ١٩١٢ وآذار ١٩٢٣. نظرياً. في صيف عام ١٩١٧ أصيب بسل الرئة؛ وكان ظهور هذا المرض في ذلك الوقت يعادل حكماً بالإعدام. توقف كافكا عن الكتابة الأدبية لغاية آخر عام ١٩٢١، باستثناء مرحلتين قصيرتين في أواخر صيف عام ١٩٢٠ وفي شتائه. أي إنه عملياً لم يكتب نصوصاً أدبية إلا خلال نحو سبعة أعوام.

قرار ليلي، يكتب كافكا في يومياته بتاريخ ٢٢ كانون الثاني عام ١٩٢٢ دون شرح. هذه الصيغة الموجزة تعني القرار للقيام برحلة طويلة الغرض منها تحريره من رتابة الحياة اليومية في براغ وهو يعيش مرحلة اكتئاب شديد (كانت إجازته المرضية قد تمددت ثلاثة أشهر أخرى، وطبيبه نصحه بتغيير الجو). تغيير المكان وحده يبدو في مطلع عام ١٩٢٢ أنه يقدم إمكانية إقامة سدّ ضد توتر أعصاب كان قد اشتد في الأشهر الأخيرة. طوال فصل الشتاء يوجد كافكا في حالة كارثية. اليوميات تتحدث عن **انهيار أعصاب**، أرق، **توحش المجرى الداخل**. الآن أمام بلوغ مرحلة حياة جديدة: **كن راضياً، تعلّم (تعلّم يا ابن الأربعين) أن تهدأ في هذه اللحظة (أجل، ذات مرة كان ذلك في مقدورك)**(*). ذكرى لحظة الحركة الداخلية النابضة، هذا الاستثناء الكبير، تتعلق بلقاء كافكا مع ميلينا في آب ١٩٢٠، لقاء أتاح له أن يهدأ مدة قصيرة. لقاء لفه ليس كذكرى بل كحاضر لا أمد له، كتيار طاقة متواصل يحمله عبر الأيام والليالي.

بتاريخ ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٢٢ وصل كافكا إلى قرية شبيندلرموله Spindlermuehle؛ وهي قرية استجمام شتوي ذات هواء نقي، تقع على بعد نحو مئة كيلو متر عن براغ، في منطقة جبلية تعلو عن مستوى البحر ١٤٣٠ متراً. في فندق كرونه (التاج)، الذي كان قد راسله وحجز فيه غرفة، لم يكن في البداية راضياً كل الرضى. كانت

(*) كل ما هو مطبوع بخط غامق هو اقتباس من كتابات كافكا (ا. و.).

حقيبته قد تضررت أثناء السفر، على لوح في ردهة الفندق وفي سجل الضيوف كان معلناً عنه باسم «دكتور يوزف كافكا». في اليوميات ورد: **هل عليّ أن أوضّح لهم أم أن أستوضح منهم؟**

في الغرفة المحجوزة له كانت الطاولة ترتجّ، الإضاءة شاحبة، في الفندق ثمة ضجيج. لكن كافكا كان عازماً على أن لا يدع مثل هذه البشاعات تؤثر فيه. كان قد اتخذ قراراً وسوف يطبقه هنا في قرية شبيندلرموله. مقتصداً مثلما كان دائماً أحضر معه كمية من الأوراق الفارغة كان قد انتزعها من دفاتر عديدة متنوعة. هنا سوف يستخدمها كأوراق مخطوطة. بعد ساعات قليلة فقط من وصوله يخرجها من الحقيبة ويضعها على الطاولة. لأن تأمين ريشة كتابة وحبر غير ممكن بسرعة، يساعد نفسه بقلم رصاص. يبدأ بالكتابة: قصة غريب يصل إلى قرية. **كان الوقت متأخراً مساء حينما وصلت كانت القرية غارقة في الثلج. لم يكن يُرى شيء من جبل القلعة ...**

كان كافكا ينتظر هذه اللحظة المنقذة التي كان يعدّ لها في يومياته بكل طاقاته. منذ عدة أسابيع كان يبدو له أن العمل الأدبيّ وحده يمكنه أن يقيه من الانهيار النفسي التالي وربما الأخير؛ كانت **أوقات جنون** تجلده في هذا الشتاء، كما كتب إلى صديق. ما من عمل أدبيّ آخر كان كافكا قد بدأ كتابته بمثل سبق الإصرار هذا على العلاج الذاتي.

كان الحديث في اليوميات مراراً وتكراراً عن **هجوم، هروب، كفاح**. يبدو أن الأمر يتعلق بانعكاس الصراع الداخلي مع الكتابة، التي انقطع عنها نحو أربعة أعوام. كانت تلك أطول مرحلة زهد في الكتابة طوال حياته الكتابية القصيرة للغاية.

مرة أخرى، مثلما كان الحال في قصص «طبيب ريفي»، إنه جو الشتاء الذي يطلق طاقة كافكا الكتابية. كلما يزداد الجو برودة، تجري آلية التخييل أكثر دفئاً. في اليوميات يرد بعيد البدء في العمل في المخطوطة الجديدة: **عزاء الكتابة الأكثر غرابة، الأكثر لغزية، ربما الأكثر خطورة، ربما الأكثر إنقاذاً**. الكتابة الموفقة تتيح إطلاق طاقات مجهولة. العمل الأدبي هو سفرة بالزحافة عبر **جليد العصر الأكثر تعاسة.**

كافكا يكتب بصيغة الأنا. فقط في منتصف الفصل الثالث، لدى مشهد فعل الحب، يكتب بصيغة الشخص الثالث، ويعود إلى شطب أنا في ما كتبه حتى الآن ويضع بدلاً عنها ك.

تقدم المخطوطة دلائل عديدة على أن كافكا لم يكن يملك، لدى وصوله إلى هذه القرية النائية، سوى تصور مبهم عن هيكل أحداث رواية «القلعة». لكنه سرعان ما يعرف ماذا يريد.

جمله تشع هدوءاً وثقة. يسرد من زاوية نظر الشخص الرئيسي في الرواية، يسرد حوارات مسهبة في إيقاع هادئ.

في نهاية شباط ١٩٢٢ يعود كافكا إلى براغ، ويحاول أن يحافظ على طاقة الكتابة الملحّة. يسكن في غرفته في منزل أهله، كما سكن طوال حياته باستثناء بضعة الأشهر الأخيرة من حياته. في منتصف آذار وآخره يتلو على ماكس برود بعض المقاطع من الرواية. لغاية آخر حزيران ١٩٢٢ ينهي كتابة ستة عشر فصلاً، أي أكثر من نصف الرواية. حتى ٣١ تموز ينهي كتابة الفصل رقم ٢٣؛ لكن في الأسبوع الأخير من آب يتوقف كافكا عن الكتابة في الرواية. خيوط الأحداث تفلت من يديه، كما يقول هارتموت بيندر. كلما تقدمت الرواية أصبحت الحوارات فيها أكثر إسهاباً. بعض شخوصها تقع طي النسيان، مثل الغراف فستفست وابن أمين القلعة. الانكسارات الداخلية في بنية الرواية تُظهر في النهاية أنه لا يمكن التغلب عليها، بحيث أن كافكا يعلن في منتصف أيلول ١٩٢٢ مستسلماً أنه اضطر على ما يبدو إلى ترك العمل نهائياً في الرواية. وإذ لم يقرأها ثانية ولم يراجعها ولم يعدّها للنشر، فقد ظلت غير مكتملة.

فيما بعد، سلّم كافكا دفاتر مخطوطته إلى صديقته ميلينا بولاك لكي تقرأها. قرأتها ولم تعدها له، بل سلّمتها بعد وفاته إلى ماكس برود.

بعد وفاته عثر صديقه في منزل أهل كافكا على قصاصة كتبها هذا، في ساعة يأس ومعاناة من مرض السل، يرجوه فيها «رجاء أخيراً» بأن يحرق كل مخطوطاته غير المنشورة، ومنها رواياته الثلاث؛ وذلك لأنها أيضاً غير مكتملة. لكن لحسن الحظ لم ينفّذ برود وصية صديقه، بل نشر جميع مخطوطاته. نشر رواية «المحاكمة» في عام ١٩٢٥، ورواية «القلعة» في عام ١٩٢٦، ثم رواية «المفقود» في عام ١٩٢٧، وفي الأعوام التالية نشر بقية المخطوطات.

في العقود التالية تتابع نشر آثار كافكا، وفي ثمانينات القرن العشرين بدئ بنشر هذه الآثار في طبعة خط يد كافكا.

تنشر ترجمة رواية «القلعة» هنا نقلاً عن النص الذي نشر في عام ١٩٨٢ طبقاً لمخطوطة خط اليد في إطار الطبعة النقدية التاريخية لمجموع آثار كافكا. ويختلف هذا النص اختلافاً كبيراً عن النص الذي نشر في الطبعة الأولى للرواية.

٢٠٠٨ — راينر شتاخ

Reiner Stach

٢ ـ الكون البشري

إن الصراع بين تقرير المصير الحر وقوى الحياة والوعي للمنظمة العالمية الأرضية يتخذ في رواية «القلعة» نبرة جديدة: في حين كانت التبرئة المطلقة تقف في المركز في رواية «المحاكمة» وأدّت من ثمّ إلى القضاء تدريجياً على جميع الأسس الواقعية للحياة والعمل إلى درجة تنفيذ حكم المحكمة الذاتية، فإن الموضوع في رواية «القلعة» إنما يدور، على العكس من ذلك، حول مشكلة في ما إذا وكيف يكون ممكناً أن يوجد المرء ويعيش واقعياً وحراً في الوقت نفسه ضمن قوى الوجود المعطاة.

طبقاً لذلك جرى تشكيل نقطتي انطلاق بطلي الروايتين على نحو مضاد. يوزف ك. في «المحاكمة» يوجد في بداية الرواية في وضع مهنيّ مدنيّ مضمون ذي وجاهة، من ثم يجري تقويضه بالتدريج. أما ك. في رواية «القلعة»، فإنه **غريب** لا يملك تصريح إقامة وبلا حق محدد مصاغ بشكل واضح لممارسة مهنته كمهندس مساحة. لقد هجر **الزوجة والولد** وقام بتضحية كبيرة كي يغادر داره، وعمد إلى القيام **بسفرة طويلة شاقة**، ويفتقر للمال افتقاراً كاملاً، ولا يجد إمكانية أن يجد مرة أخرى عملاً مناسباً في بلدته. إنه يعيش إذاً منذ البداية في وجود لا قعر له اجتماعياً. من ذلك ينشأ **كفاح** مضاعف متناقض ظاهرياً وحسب.

كفاح ك. بين الحرية والارتباط

من طرف ينشد ك. أن يظفر بموطئ قدم ومسكن، الأمر غير الممكن إلا عبر ارتباطات، ومن طرف آخر يبغي أن يحافظ على حريته في تقرير مصيره: **كما أني أخشى أن الحياة فوق في القلعة ليست خليقة أن تطيب لي**. إنه يكافح باستمرار للوصول إلى القلعة، وفي الوقت نفسه يكافح في سبيل استقلاليته عن القلعة، لا بل ضد القلعة.

إن قراره بالتخلي عن ضماناته الاجتماعية السابقة وبالسفر إلى القلعة كي يعمل مسّاح أراض له معنى مزدوج. رسالة كلمّ **لم تخفِ أيضاً بأنه إذا ما وصل الأمر إلى كفاح، فإن ك. كان قد ملك الجرأة على أن يبدأ بذلك، كان هذا قد قيل بنعومة وفقط ضمير قلق ـ قلق**

وليس معذباً ـ يمكنه أن يلاحظ الأمر، كانت الكلمتان «كما تعلم» بخصوص قبوله في الخدمة. كان ك. قد تقدم للعمل ومذ ذاك بات يعلم، كما عبّرت الرسالة، أنه قد تمّ قبوله. إن تقدمه للعمل وقبوله ـ طبعاً الظاهريّ أيضاً وحسب ـ في خدمة القلعة الأرستقراطية، يوصفان هنا بصفة الوقاحة من قبله، أن يبدأ كفاحاً ضد القلعة بقرار اتخذه من تلقاء نفسه. لقد اختار بنفسه عدم الارتباط الاجتماعي، وذلك كي يقاوم وهو مستقل شمولية كل مناحي الحياة، ويتمكن من إثارتها للكفاح. بوضوح جاء: **كان يكافح... بإرادته، إذ إنه كان هو المهاجِم.**

يعي ك. في الحال منذ بداية الرواية كفاحه العنيد ضد سلطات العالم: **أصاخ ك. السمع. كانت القلعة إذاً قد عيّنته مسّاح أراض ... هذا ... بيّن أن المرء في القلعة يعرف عنه كل ما هو ضروري، وأنه وازن ظروف القوى وقبل الصراع مبتسماً.** في الوقت نفسه يعرف ك. أيضاً أن خصمه قوي ويعرف منذ البداية قرار ك. بالكفاح قراراً حراً ويسبر غور هذا القرار، ويحسب حسابه في رقاباته للوعي وتسجيلاته اللانهائية، حيث إن كل شيء يفكر به ويريده أي إنسان، إنما يشارك هذا الخصم في تحديده والتفكير فيه، وهكذا إذاً بالمعنى الدقيق في ما يخص هذه الدوائر لا يمكن أن يوجد تفكير وتصرف وكفاح حر.

قياس الأراضي وتقسيمها كفعل ثوري

يشرح عمدة القرية الوضع لـ ك. قائلاً: **نحن لا نحتاج إلى مسّاح أراض. ما من أقل عمل خليق أن يكون له هنا. إن تخوم أراضينا محددة، كل شيء مسجل على نحو نظامي، تغيير ملكية لا يكاد يحدث، ونزاعات تخوم صغيرة نحلها بأنفسنا.**

مسْح الأراضي(*) يعني إذاً مراجعة ظروف ملكية الأراضي وإعادة النظر في هذه الملكية. وهذا جدير أن يكون فعلاً ثورياً. والقرية أيضاً تفهم مسْح الأراضي هكذا حقاً: حين كان عمدة القرية قبل أعوام طويلة قد أجاب على أمر إداري، صادر من سلطات القلعة يقضي باستدعاء مسّاح أراض، بأن القرية لا تحتاج إلى مسّاح أراض، وحين دعا الموظف سورديني، الذي كان قد حوّل له هذا الملف عن طريق الخطأ ودون الرسالة الجوابية، إلى تقصّي المسألة بتعمّق أكثر من خلال **تحقيقات يومية مع وجهاء من القرية دوّنت في محاضر.** فتبيّن أن معظمهم عارضوا تعيين مسّاح أراض، غير أن بعضهم **توقفوا: مسألة مساحة الأراضي تهز قلب الفلاح، تنسّموا وجود أية اتفاقات سرية وإجحاف، وفوق ذلك وجدوا زعيماً وكان لا بدّ لسورديني من أن يكتسب من بياناتهم قناعة بأنه، لو كنت قدمتُ** (العمدة) **الموضوع في مجلس القرية، لما كان الجميع ضد استدعاء مسّاح أراض... على نحو مخصوص تميّز**

(*) مَسَح الأرض = قاسها وقسّمها. المسّاح = الذي يقيس الأرض ويقسّمها.

في ذلك شخص يدعى برونسفيك، إنك لا تعرفه ولا ريب، ربما لم يكن سيئاً، لكنه غبي وخيالي ... صاحب جعجعة ... طوال الوقت كله لم تهدأ المسألة، من طرف بسبب دقة سورديني، الذي حاول أن يستقصي دوافع كل من الأغلبية والمعارضة بواسطة أكثر الاستطلاعات دقة، ومن طرف بسبب غباء برونسفيك وطموحه، الذي كان له اتصالات شخصية مختلفة مع الهيئات الرسمية، والتي كان يحركها بابتكارات جديدة دائماً من مخيلته.

إذاً إن استدعاء مسّاح أراض تطالب به المعارضة بالذات، هذه المعارضة غير الراضية عن النظام الاجتماعي المعطى في القرية. في جوهر مسْح الأراضي يكمن عنصر ثوري. طبقاً لذلك يفكر ك. لاحقاً بأن يكسب **وسائل قوة برونسفيك** في كفاحه وبأن يجد فيه حليفاً، إذ إن برونسفيك **كان مع ذلك ... رئيس أولئك الذين كانوا قد طالبوا، ولو لأسباب سياسية، باستدعاء** مسّاح أراض.

إن التقييد **ولو لأسباب سياسية** يفتح طبعاً الفجوة بين ك. وبرونسفيك. إن برونسفيك هو بالذات أحد الرجلين اللذين يطردان ك. من بيت الفلاحين الأول الذي يدخل إليه ملتمساً إغاثة. كما أن برونسفيك استحوذ على أملاك أسرة برناباس، هذه الأسرة المنبوذة والمزدراة من قبل القرية، والتي كانت في الأصل محترمة كل الاحترام، هذا يعني تلك الأسرة الوحيدة في القرية التي تعرض في البداية على ك. مبيتاً في مسكنها. بالنسبة لبرونسفيك وحزبه السياسي المعارض يعني مسح الأراضي تغيير الملكية ليس إلا. بالنسبة له لا يمكن لكفاحك. الكونيّ ضد الدائرة برمّتها إلا أن يبدو عبثياً وغير مفهوم، لا بل خطِراً، كما أن معارضة أماليا الشاملة ضد القلعة لا تمثل بالنسبة له سوى فرصة سانحة للإثراء بأملاك أسرتها، هذه الأسرة التي كان في الأصل يعمل خادماً في ورشتها لصناعة الأحذية، والتي يقوم الآن دون تردد بالاستحواذ على مسكنها وورشتها المزدهرة، بعد أن كان قد **أخطر** والد أماليا؛ لقد صعد اجتماعياً وما فتئ يقيم أيضاً **اتصالات شخصية مختلفة** مع القلعة، التي تتصرف ظاهرياً بحياد إزاء صراعات السلطة السياسية في القرية وتحاول أن تنصف كلا الطرفين، الأكثرية والمعارضة.

كذلك إزاء ك. تتصرف القلعة بحياد. إن السلطات تعتبر بالذات كفاحه ضدها بصفته خدمة، عملاً ذا جدوى وضرورياً من أعمال مساحة الأراضي، يتفق مع ماهية إنسان حر حقاً، ويعدّ عمل حياة له. بالذات بعد أن سلب ك. الموظف كلمّ حبيبته فريدا، وأراد أن يباغته بمعنى الكلمة أمام زحافته في فناء نزل السادة، وأعاقه طوال ساعات عن استخدام الزحافة وقاوم محضر وتحقيق سكرتيره في القرية موموس، يستلم من هذا الكلمّ رسالة جاء فيها: **إن أعمال المساحة التي قمت بإنجازها حتى الآن تلقى اعترافي. كذلك أعمال المساعدَين جديرة بالثناء؛ إنك تعرف جيداً كيف تدفعهما إلى العمل. لا تتراخَ في حماستك! أنهِ الأعمال**

نهاية طيبة! من شأن الانقطاع أن يسخطني. للمناسبة، كن مرتاحاً، مسألة دفع المكافأة سوف يُبتّ فيها قريباً.

ك. يعتبر هذا طبعاً **سوء تفاهم**. إنه لا يحدس أن كفاحه بالذات ضد كلمّ، لكن كذلك مساعيه للوصول إلى كلمّ في القلعة، إنما هي من أعماله في مساحة الأراضي. إنها محاولات لتحديد الأرض التي يوجد عليها الإنسان، ولجمع الخبرات واكتساب معارف، في مجالات متنوعة، اجتماعية، جنسية وأخلاقية وغيرها. لاحقاً سوف نعالج مدى تنوع عمله هذا في مساحة الأراضي وتعقيده، وإلى ما يفضي إليه هذا العمل من خلفيات واقع الحياة البشري.

هنا يهمنا حالياً الإدراك أن عمل مسّح الأراضي هذا إنما هو في حدّ ذاته ذو معنيين. إنه كفاح ك. أن يتحدث **بحرية أمام قوي**، أمام كلمّ، وأن يطالب بحقه، متصدّياً **لسادة بعيدين غير مرئيين، من أجل شيء قريب حيوي إلى أقصى درجة.** كما أن هذا العمل هو في الوقت نفسه محاولة يقوم بها ك. كي يحصل على تصريح إقامة قطعي ويكتسب وجوداً ملموساً على الأرض ولو جاء ذلك عبر خضوعه للموظفين الأقوياء، هكذا كما يجيب ك. على رسالة كلمّ أنه يرجوه **أن يسمح له بمقابلته شخصياً، إنه يقبل سلفاً كل شرط يمكنه أن يرتبط بمثل هذا السماح. إنه مرغم على تقديم طلبه لأن جميع الوسطاء حتى الآن أخفقوا على نحو كامل، للتدليل على ذلك يورد أنه لم يقم حتى الآن بأقل عمل من أعمال المساحة، وكذلك طبقاً لتبليغات عمدة القرية لن يقوم بأي عمل مساحة في أي يوم من الأيام؛ لذا فإنه قرأ رسالة السيد الرئيس الأخيرة بخزي يائس، وحدها المقابلة الشخصية لدى السيد الرئيس يمكن أن تساعد هنا.**

يتعيّن على ك. بصفته إنساناً نهائياً أن يرى في قوى القلعة، قوى الحياة التي تحكم كل شيء كونياً، إعاقة لوجوده الحر المحدد كما عليه أن يراها في الوقت نفسه إتاحة لهذا الوجود، عليه أن يكافحها كما عليه أن يخضع لها، مما يوضح جميع التناقضات الظاهرية، لا بل كل العبث في هذه الرواية.

بل حتى يكمن في ماهية هذا الكفاح أنه مسّح أراض، الأمر الذي لا يستطيع ك. أن يدركه. إذ إنه يجب عليه أن يقوم بهذا الكفاح وهو في وضع لا قرار له. كل خبرة يجمعها، كل موقف يتخذه يتبيّن أنه في هذا الكفاح الكونيّ مؤقت وهش يُرغم على البحث عن مواقف جديدة أخرى في تتابع لانهائيّ. لأنه بصفته إنساناً نهائياً لا يقوى على أن يحيط علماً بلانهائية إمكانيات الوجود، من طرف آخر يُدفع إلى الوصول إلى مثل هذه الإحاطة كي يصل إلى وضع حر حقيقي، لذا يظهر له عمله الخاص به ككلا شيء، لا يستطيع أن يراه ويقيّمه عملاً حقيقياً في مساحة الأراضي. الأرض التي يقيسها لا بدّ أن تبقى خافية عليه، إذ إنها لا يمكن أن تكون محدودة قابلة للقياس. وتوقه الأكثر إلحاحاً ينبغي أن يكمن في أن يرى على نحو

مباشر وحر، **وشخصياً**، سلطة الحياة الأكثر سرية، والتي لا سبيل إليها، وأن يتفاوض معها رجلاً لرجل، وذلك كي يتمكن من الوصول إلى وضوح نهائي حول ماهية ومغزى وحدود وجوده البشري الخاص به.

إن الحرية أمام سلطة الحياة هذه والخضوع لها لا يتعارضان. إنهما مجرد جانبين ضروريّين لكفاح واحد يقوم به ك.: الوقوف بحرية ضمن قوى الحياة بجميع شروطها وضروراتها.

العلاقة ذات المعنيين بين ك. والقرية

من ذلك تتوضح العلاقة الغريبة لأهالي القرية إزاء ك. كان لفلاحي القرية **وجوه معذبة بكل معنى الكلمة ـ كانت الجمجمة تبدو وكأنها مسطحة بضربة، وكانت قسمات الوجه كأنها تشكلت في آلام الضرب**. إنهم ضحايا القوى المهيمنة، لذا فإنهم يأملون بالذات من مسّاح الأراضي ك. عوناً وتحريراً، غير أنه ليس في مقدورهم أن يعبّروا عن هذه الرغبة، وذلك لأنهم مربوطون بوجودهم الهامد، يعيشون في بلادة، ومسلوبو الحرية كلياً، ولا يمكنهم أن يستشعروا الرغبة في الحرية إلا على نحو غامض وغير قابل للتعبير عنه. **نهض الفلاحون ليقتربوا منه، لقد أصبحت عادتهم أن يجروا دائماً وراءه ... وأحدهم قال: «نسمع دائماً شيئاً جديداً» ولعق شفتيه وكأن الجديد كان طعاماً.**

من مسّاح أراض يُنتظر شيء جديد، مراجعة ظروف الملكية المجحفة وتغييرها، إذ إن، كما قال عمدة القرية، **مسألة مساحة الأراضي تهز قلب الفلاح**، الفلاحون **تنسّموا وجود أية اتفاقات سرية وإجحاف**. لكنهم قد يتنسّمون أكثر من ذلك؛ **طعاماً**، ذلك الغذاء الذي لا سبيل إليه، والذي يرد في كتابات كافكا مراراً وتكراراً.

لذا طفقوا **يحدقون به**، لا بل يلاحقونه. لكن ك. لا يستطيع أن يفهمهم: **ربما كانوا يريدون حقاً شيئاً منه ولم يقدروا على قوله وحسب**. إن الهدف الذي يبحثون عنه على نحو غير واضح لا يمكن أن يُصاغ. كما أنهم غارقون في أعمالهم بشدة بحيث أنهم يصبحون غير قادرين على التعبير عن آمالهم؛ هكذا **مسطّحة بضربة** هي إرادتهم، كما هي طبيعتهم الحرة في الأصل. أجل، إنهم حقاً يستشعرون خوفاً من ك. إذ كون القلعة قد صادقت هاتفياً على عمله كمسّاح أراض، أصبح يبدو لهم مخيفاً وقوياً: **الجميع تدافعوا إلى خارج القاعة وقد أشاحوا بوجوههم لكي ربما لا يتعرفهم في الغد.**

يعيش هؤلاء الفلاحون تحت لعنة عادات حياتهم المسلّم بها ظاهرياً، ولعنة الأنظمة الاجتماعية، لدرجة أنهم لم يعودوا يتمكنون من التعبير عن رغباتهم الخاصة بهم، يستشعرون على نحو غير واضح وحسب ميلاً نحو ما هو جديد، ويشعرون خوفاً من شخص غريب وفي الوقت نفسه يقف في خدمة سلطات القلعة ذات القوة الفائقة.

يتوضح هذا كلياً لدى الحوذيّ غرشتكر، الذي ينقل بزحافته ك. المنتظر في الثلج إلى نزل الجسر. غرشتكر هو أيضاً **هذا الشخص محنيّ الظهر، المعذّب إلى حد ما ... كان الرجل مريضاً بشكل ملحوظ**، وغير ذلك؛ هو أيضاً يخاف من ك. ويعطي في سلوكه انطباعاً **عن نوع من السعي الأناني الخائف ذي الدقة المبالغ فيها تقريباً لإبعاد ك. من المكان أمام البيت.** إنه ينقل ك. إلى النزل بلا أجر، وذلك لأن ك. **مسّاح أراض وينتمي إلى القلعة.** ك. يسأله ما كان ينقله **على مسؤوليته الخاصة، وإذا ما كان يمكن أن يلقى عقوبة** على ذلك. غرشتكر لا يردّ. ك. يضربه بكرة ثلج في أذنه على نحو كامل. بهذه الضربة الوحشية في الأذن يظن ك. أنه يستطيع أن يوقظه، لكنه من ثم يستشعر إشفاقاً على هذا الشخص المهان المذلول. غير أن غرشتكر يتقبل كل شيء ويسأل **قاصراً عن الفهم** وحسب: **ماذا تبغي؟**

بات غرشتكر، مثله مثل الفلاحين جميعهم، «مفعولاً به» مسلوب الإرادة، بل معذباً من قبل قوى الحياة السائدة. إنه يقف **قاصراً عن الفهم كلياً** إزاء مفاهيم مثل **مسؤولية خاصة.** في القرية ما من حرية. لكن هاجساً بها يعيش في نفوس الجميع. هذا بالذات ما يسحر الفلاحين بـ ك. ويخيفهم منه في الوقت نفسه. لدى غرشتكر أيضاً حدس بأهمية ك. في الصفحات الأخيرة من مخطوطة الرواية غير المكتملة يعرض عليه مساعدة، لا بل حتى **طعاماً وسكناً** لديه. إنه يأمل من ك. أن يحقق له **شيئاً لدى إرلنغر،** سكرتير كلمّ.

على نحو مماثل نرى برناباس وأولغا، من طرف، متفوقين كل التفوق على ك. إنهما يحملانه بخطوات سريعة واثقة في الثلج، الذي يهدد أن يغرقه، وبرناباس يبدو له مثل كائن قادم من فضاء نيّر حر. لكن في الوقت نفسه فإن برناباس وأولغا هما في الحقيقة في وضع يائس لا مخرج منه منبوذان من القرية ويأملان من ك. أن ينقذهما ويحررهما.

أيضاً كل الأهالي الآخرين تقريباً يُظهرون إزاء ك. مثل هذا السلوك ذي المعنى المزدوج. فريدا ترغب في أن يحررها ك. من نفوذ كلمّ في حين أنها تسعى في الوقت نفسه للعودة إلى كلمّ. بيبي تصف ك. بأنه **محرر فتيات وبطل،** وتحاول أن تربطه بنفسها وتحجزه في حجرة البنات طوال أشهر. الفتى الصغير هانس برونسفيك ينظر إلى ك. من علٍ كأنه **معلم ورجل نشيط أريب بعيد النظر... إلى شخص أصغر سناً يمتد مستقبله أبعد من مستقبله هو، مستقبل صبيّ صغير.** وفي الوقت نفسه لا يأمل من ك. مساعدة والدته وحسب، بل تطوراً معتدّاً صاعقاً. مثلما هو الحال في قصة خرافية حين يتحول فجأة شخص محتقر إلى أمير منقذ وبطل محرّر، هكذا سوف ينهض ك. من وضعه الراهن **المتدني والمنفّر وسوف يتفوق على الجميع.**

إن منزلة ك. في القرية ليست إذاً ضعيفة أبداً، كما يبدو بادئ الأمر لدى القراءة السطحية. صحيح أنه لا ينتمي إلى أي مكان، ويُرفض في كل مكان، ويُعامل مثل لاشيء، غريب جاهل لا أهمية له، لكن بالذات هذا الوضع الذي لا قرار له وغير المثبّت في أي مكان هو أيضاً قوة ك. إرادته أن يكون دائماً حراً هي الحصن الذي يقوم بكفاحه انطلاقاً منه. هذا الحصن يوقظ في القرية خوفاً وأملاً، يفسر وضع ك. الاستثنائي، لا بل تفوقه على الموظفين، الذين لا يقوون على تحمّل رؤيته، والذين بمجرد حضوره يسمّرهم في حجراتهم ويسيطر عليهم.

كما أن هذا الحصن يفسر طبعاً دونيته، وكونه مغلوباً على أمره إزاء القرية كما إزاء القلعة. إذ إن حريته هذه هي أيضاً حرية فارغة لا أساس لها، لا يقوى المرء على الحياة معها وحدها: **هنا بدا لـ ك. كأن المرء قطع الآن كل صلة به وكأنه الآن طبعاً أكثر حرية مما كان في أي وقت مضى ... وحصل على هذه الحرية عن طريق الكفاح مثلما لا يقدر آخر، وما من أحد يجوز له أن يمسّه أو يطرده، بل بصعوبة أن يخاطبه، لكن ـ هذه القناعة كانت في مثل هذه القوة على الأقل ـ كأنه لا يوجد في الوقت نفسه شيء أكثر عبثية، أكثر يأساً من هذه الحرية، هذا الانتظار، هذه المناعة.**

من ثم ليس سلوك أهالي القرية وحده إزاء ك. سلوكاً متناقضاً، وإنما العكس أيضاً، سلوك ك. معهم. إنه يشكو من الطرد الذي يلقاه في كل مكان. من طرف آخر إنه يؤثر مثل هذا الطرد على ارتباط تلبية لعرض أسرة بارناباس للمبيت لديها. حين شُرح له في منزل لازيمان: **هنا لا يمكنك البقاء ... إننا لا نحتاج إلى ضيوف، ... فرح ك. بالكلمات الصادقة. بات يتحرك بحرية أكثر ... وبالمناسبة، كان أيضاً الأكبر جسدياً في الحجرة.** على العكس من ذلك، حين يذهب إلى أسرة برناباس المضيافة، تمرّ بخاطره الأفكار التالية: **إن الناس من القرية الذين صرفوه أو الذين كانوا قد خافوا منه، لاحوا له أقل خطراً، إذ إنهم أحالوه في واقع الأمر إلى نفسه وحسب، وساعدوه على تجميع قواه، لكن مثل هؤلاء المساعدين الصوريين الذين بدلاً من قيادته إلى القلعة، اقتادوه إلى أسرتهم في حركة تنكرية صغيرة، كانوا يلهونه، أرادوا ذلك أم لا، ويعملون على تحطيم قواه. ولم يكترث قط بنداء دعوة قادم من طاولة الأسرة.** من طرف آخر يشعر كذلك أنه ينجذب إلى أسرة برناباس مرة أخرى، وذلك لأنه يحدس، ولاحقاً يدرك بوضوح أنها إنما هي في كفاح مماثل كما يفعل هو.

حياة العامل والوجود الحر

يرى ك. بوضوح إذاً أنه يمكن لكلا شكلي الوجود البشري، الارتباط والحرية، أن يهددا كفاحه ويحرمانه من حياة كريمة.

الإمكانية الأولى كانت حياة العامل. يمكنها أن تقدم له سنداً وأمناً في الكفاح: **عامل قرية فقط، بعيد قدر الإمكان عن السادة في القلعة، كان في وسعه أن يبلغ شيئاً في القلعة، هؤلاء الناس في القرية، الذين كانوا سيئي الظن إزاءه، سيكون من شأنهم أن يبدؤوا يتحدثون، إذ إنه وإن لم يكن أصبح صديقاً لهم، فقد أصبح واحداً من مواطنيهم، وإذا أصبح ذات يوم لا يُميَّز عن غرشتكر مثلاً أو لازيمان ... فإنه من المؤكد أن كل الطرق تفتح له دفعة واحدة.**

عبر ارتباط وثيق بالجماعة يفهم هدف ومعنى الحياة البشرية والعمل والوجود، بصفته **مواطناً** يمكن أن تنكشف له أسرار قوى الحياة المتمثلة في القلعة، وأن يكتسب مكانة ما آمنة على الأرض، ويجمع خبرة وتلك **المعرفة**، التي تفتقدها فيه صاحبة الحانة الحكيمة، النشيطة والقوية.

بيد أن ك. يعرف كذلك الآثار الاستعبادية للارتباط بالجماعة البشرية، **لكن قوة البيئة المثبّطة، الاعتياد على خيبات الأمل، قوة التأثيرات غير الملحوظة لكل لحظة من اللحظات، هذا كله كان يخشاه.**

إنها قوة الاعتياد تلك، التي يخضع لها في حقيقة الأمر كل إنسان، اللامبالاة المتقدمة ببطء إزاء كل سؤال ضروري، وتيرة الحياة اليومية، الاستسلام للمعطى، الموافقة الآلية على كل ما يكون ويعاش، التبلد غير الملحوظ إزاء مطالب الحاضر الحاسمة، انعدام الحس إزاء الظلم الذي يقع في كل مكان وعلى الدوام، والذي ينعكس أيضاً في وجوه الفلاحين وفي حياتهم الغريزية الحيوانية، دون أن يلاحظ ذلك أحد من أهالي القرية، بل يؤخذ **كحدث طبيعي مألوف**، ويوافق عليه بلا نقد، وحتى من قبل صاحبة النزل **المدركة** وموموس سكرتير كلمّ.

بالذات الناس الذين يبدون أنهم يتصفون بالحكمة وعارفون بأمور الحياة، إنما يقعون، بلا حرج ولا تفكير، تحت سطوة **المألوف** والجماعة. إن العارفين هم في الحقيقة الجاهلون. إن نقد ك. لمثل هذه الجماعة إنما يكشف جبن عالم يستسلم، كي يتمكن من أن يعيش، لكل **التيارات. إن الجاهل يخاطر أكثر**، يقول لصاحبة النزل.

لكن كذلك الوضع المعاكس؛ الحرية، هو خطير ويعرقل الكفاح. فكون السلطات لا تتدخل على نحو مباشر أبداً، بل تترك ك. **ينزلق في كل مكان يريده، وتمنحه كل حرية، إنما دللته وأضعفته بهذا، وألغت هنا عموماً كل كفاح ونقلته نظير ذلك إلى الحياة غير الرسمية المضطربة كلياً الكئيبة العجيبة. بهذه الطريقة أمكن أن يحدث ولا ريب، إذا لم يكن حذراً على الدوام، أنه ذات يوم ... مضللاً من خلال الحظوة الظاهرية المسداة له عاش حياته في ما عدا ذلك في غير ما حيطة، قد انهار هنا ... وماذا كانت هنا في الحقيقة، تلك الحياة الأخرى؟ ولا في أي مكان آخر كان ك. قد شاهد الوظيفة والحياة متشابكتين هكذا مثلما**

هو الحال هنا، بحيث أنه يمكن أن يبدو أحياناً أن الوظيفة والحياة إنما تبادلتا مكانيهما. ماذا كانت تعني على سبيل المثال السلطة الشكلية وحسب حتى الآن التي كان كلمّ يمارسها على عمل ك.، مقارنة بالسلطة التي كان كلمّ يملكها في غرفة نوم ك. في حقيقة الأمر كلياً.

بالذات إذاً عندما ينسحب الإنسان إلى حياته الخاصة الحرة، إلى حياته الشخصية الحميمة، حياة الحب، فإنه يستسلم يرضخ إلى سلطة كلمّ، كلمّ الذي يظفر حتى في فقدانه الظاهريّ لفريدا، يسلّم المكافح إلى القوى المجهولة وقوانين الحياة التي يمثلها هو. في ظاهر الحرية والمجال الشخصي، الذي ينسحب من الحياة الجماعية العامة، تسود أيضاً القانونية الطبيعية العامة للحياة، وتتردى في الهاوية «ذات» الإنسان، التي يكافح ك. في سبيلها على نحو جليّ.

الحرية والارتباط متداخلان معاً لدرجة أنه لا يمكن بلوغ موقف واضح بعامة.

بهذا تكون المعضلة المركزية للرواية قد تمّت صياغتها: كيف يكون ممكناً أن تنجح «الذات» الحرة في وسط قوى الحياة والغرائز المحيطة بنا جميعنا؟

هذا السؤال يؤدي إلى مركز مشكلات الحب التي تسود الرواية، وبهذا في الوقت نفسه يؤدي إلى مركز أحداث الرواية، هذه الأحداث الأكثر غرابة وغموضاً: دور كلمّ وسورتيني وقصة أماليا وبعامة وظائف ومعان كامل سلطات القلعة الغريبة.

طبيعة الموظف كلمّ المتبدلة

لنسأل أولاً: من أو ما هو كلمّ؟ إذ إن كلمّ يقف في نقطة تقاطع اللقاءات والسجالات بين ك. وفريدا وصاحبة نزل الجسر وبيبي. بالإضافة إلى ذلك هو ذلك الموظف الموزع عليه ك. رسمياً، الذي يرسل له رسائله عن طريق برناباس، والذي يريد استجوابه من قبل سكرتيره في القرية أو من قبل سكرتيره إرلنغر. صحيح أن الموظف غالاتر هو الذي يعيّن المساعدَين لـ ك.، لكن فقط بصفته الرسمية كممثل لكلمّ.

عن هذا الموظف كلمّ يقال: **إنه ذو مظهر مغاير كلياً عندما يأتي إلى القرية ومظهر آخر عندما يغادرها، وهو ذو مظهر آخر قبل أن يشرب بيرة، وآخر بعد، ذو مظهر آخر في اليقظة، ومظهر آخر في النوم، مظهر آخر عندما يكون بمفرده، وآخر في الحديث و، الأمر المفهوم، مختلف كل الاختلاف تقريباً فوق في القلعة. حتى ضمن القرية نفسها ثمة فروقات كبيرة إلى حد ما يجري الحديث عنها؛ فروقات في الطول، الوقفة، البدانة، اللحية ... طبعاً لا تعود كل هذه الفروقات إلى عمل سحري، بل هي مفهومة جداً، تنشأ بسبب الحالة النفسية الراهنة في لحظة بعينها، درجة الانفعال، تدرجات الأمل أو اليأس التي لا**

حصر لها، التي يكون فيها المشاهد، الذي لا يجوز له فوق ذلك في الأغلب أن يرى كلمّ سوى لحظة.

بناء عليه؛ فإن كلمّ ليس شخصاً معرّفاً على نحو واضح، بل هو ماهية تتحول باستمرار، وذلك طبقاً للحالة النفسية للناس الذين يرونه. إن آمال الإنسان وإحباطاته ومشاعره تغيّر كلمّ على الدوام. إنه يمثل، من ثَمَّ، مجالاً يدور حوله باستمرار كل الناس في حالاتهم النفسية، وينال معنى مغايراً آخر لكل منهم، هذا المعنى يرتبط بالمزاج الذي يكون فيه الإنسان. وفعلاً لا يجوز أن يُشاهَد **سوى لحظة**، ثم يختفي عن النظر. وهذه اللحظات النادرة تعيش في ذكريات الناس بصفتها نقاط ذروة لا تُنسى في حياتهم، هكذا هي اللقاءات الثلاثة التي عاشتها صاحبة نزل الجسر معه.

فقط في شيء واحد يظل كلمّ نفسه، في اللباس الذي يرتديه: **فقط بخصوص اللباس تكون التقارير لحسن الحظ متطابقة، إنه يرتدي دائماً اللباس نفسه، رداء سترة أسود بأذيال طويلة.** رغم كل التحولات، فإن له دوراً معيّناً موحّداً، يراه هكذا أيضاً كل مشاهد لكلمّ. دور يتمثل في اللباس كعلامة مرئية على أن كلمّ موظف. إن اللباس عند كافكا هو دائماً رمز درجة وجود محددة ضمن الكون بكامله أو ضمن التطور الروحي والذهني والمفعم بالحيوية للإنسان الفرد. سوف يتوضح هذا أكثر لدى المغزى الذي تناله أثواب بيبي وفريدا وأماليا وصاحبتي النزلين.

رداء كلمّ، **رداء سترة أسود بأذيال طويلة**، يذكّر بلباس يوزف ك. في رواية **المحاكمة، لباس غامق طويل**، الذي يرتديه بعد بعثه المحرّر. من كلمّ تحصل صاحبة نزل الجسر على **ملاءة جميلة** تنزع عنها **كل مكابدة** عندما تلفّ نفسها بها.

من ذلك يمكن الاستنتاج أن كلمّ إنما يشمل حياة دنيا وحياة عليا، حيث يظل أولاً موضع جدال كلياً ما هي هذه الحياة الدنيا والحياة العليا، كما أنه لا يمكن الإجابة عن السؤال لماذا لباس كلمّ أسود. لكن يمكن إبداء بعض التأملات.

السلطات الآيلة للموت: الغراف فستفست

في «المحاكمة» يشير سواد لباس يوزف ك. وملابس موظفي المحكمة إلى أن العالم الأرضي برمّته آيل للموت. هل ثمة شيء مماثل في «القلعة»؟

إن مالك القلعة بكاملها، الغراف **فستفست**، يدعونا نخمّن شيئاً مماثلاً. إن الاسم يشير إلى مجال الموت، غير أنه يتغير في الوقت نفسه بمعنى مبهم. عندما يذكر ك. اسم الغراف، يرتعب المعلم ويصيح باللغة الفرنسية: **راعِ حضور أطفال أبرياء.**

إن تفسير ماكس برود بأن القلعة هي قلعة «الرحمة»، لا يمكن أن يكون تفسيراً صحيحاً.

لماذا ينبغي على المعلم أن يحمي الأطفال من اسم فستفست، إذا كان هذا هو الله، مركز كل رحمة؟

لاكتساب صورة واضحة كلياً يجب فحص كل أقوال الرواية وصورها في علائقها التبادلية.

لنعد إلى كلمّ، ولندع أولاً السؤال عن معنى سترته السوداء، التي تظل هكذا دائماً بالنسبة للجميع، معلقاً، هذا السؤال الذي لا يمكن الإجابة عنه إلا بعد استنباط دوره وأهمية هذا الدور.

كلمّ كسلطة حب فوق شخصية

إن طبيعة كلمّ المتبدلة، التي تتأتّى من تبدل الأمزجة والآمال والإحباطات التي يراه الناس بها، يجري وصفها في الرواية بأكثر التعابير والمصطلحات تنوعاً واختلافاً. إن **السلطة التي كان كلمّ يملكها في غرفة نوم ك. في حقيقة الأمر كلياً**، تشير إلى أن كلمّ إنما هو حاضر في معانقات ك. وفريدا.

إنه أمر جوهريّ أن فريدا توصف هنا بأنها وسيطة إلى كلمّ. إن كلمّ يمثل إذاً مجالاً فوق شخصيّ ضمن لقاء الحب الشخصي. فريدا نفسها تشعر به هكذا: **بنظرة شاردة في البعد، وهي تضع خدّها على صدر ك. قالت فريدا: ... بل إنني أعتقد أن لقاءنا تحت المنصة كان من صنيعه، بوركت تلك الساعة ولا لعنت ... حلوة كانت كلمات فريدا، (ك.) أغلق عينيه طوال بضع ثوان، كي يدع الكلمات تتغلغل إلى أعماقه.**

كلمّ هو إذاً السلطة التي تجمع المحبين، كما هو أيضاً السلطة الحاضرة داخل الحب نفسه والتي تمنح البركة والسعادة. إن ك. يبحث عن اتصال بهذه السلطة، يستشعر قربها في الحب لدرجة التفاهم همساً، لكن يتعيّن عليه من خلال تعبير روحي ـ ذهني خاص به أن يُظهر مثل هذا التفاهم والاتصال. هذا يعني أنه ينبغي عليه أن يقابل هذه السلطة وجهاً لوجه بصفته ماهية روحية ـ ذهنية مستقلة.

يجب على ك. ويبغي أن يحوّل السلطة فوق الشخصية إلى سلطة شخصية يقف أمامها على المستوى نفسه بصفته رجلاً حراً. إن ك. لا يسعى في الحقيقة إلى أي شيء آخر. مراراً وتكراراً يصرّ على أن يقابل كلمّ بصفته **شخصاً غير رسميّ**، وليس مجرد الوظيفة الرسمية التي يمثلها **الموظف** كلمّ. إنه ينشد تحويل غير الشخصي إلى علاقة شخصية. **لكن لدي الآن واجب أن أتحدث معه بصفته شخصاً غير رسمي ... وسوف أقبل بسرور أن أرى إزائي من ثم إلى جانب ذلك الموظفَ أيضاً، لكن هذا ليس هدفي الأول.**

بهذا نكون قد اكتسبنا معرفة حاسمة لفهم الرواية بكاملها وتعقيداتها: ك. يضطلع بمخاطرة هائلة: القوة فوق الشخصية، التي تفعل فعلها **على نحو غير مرئيّ**، غامض ومتبدل في كل لقاءات الحب، لا بل ربما في كل ما هو حيّ، يبغي أن يلقاها وجهاً لوجه كقوة شخصية، لا بل يريد أن يجلبها إلى وعي ذاته وعلاقته بها. إذ في هذه الحال وحدها يستطيع أن يثبّت حريته أمامها، ولا يصبح موضوعاً سلبياً خاضعاً لمجال غير شخصي يسود كل شيء جماعياً، أو لعالم غريزي، لا بل يستطيع حتى أن يتجاوز هذه القوة إلى وجود بشري آخر أعلى درجات. يصاغ هذا في غير لبس ولا إبهام حين يرفض ك. بازدراء كل توسط رسمي مع كلمّ من قبل سكرتيره في القرية موموس: **ليس القرب من كلمّ بحد ذاته كان هو ما يستحق السعي إليه، بل أن يقترب هو، ك.، وحده فقط، لا آخر، برغباته هو وليس برغبات أي آخر، من كلمّ، أن يقترب من كلمّ، ليس كي يستريح لديه بل كي يمرّ عليه، ويتابع إلى القلعة.**

انطلاقاً من هذا وحده يمكن أساساً تبيان أن كافكا يستخدم المنهج الشعري الفذّ بأن يشكّل القوى فوق الشخصية وغير المرئية التي تفعل فعلها في داخل وجودنا البشري كأشخاص، ويمنحهم أسماء محددة وأشكال ظهور.

إن التمييز بالذات بين **موظف وشخص غير رسمي** هو الأمر الحاسم في هذه الشخوص. إن السادة في القلعة بصفتهم **موظفين** هم في الحقيقة مجرد قوى فوق شخصية لا يمكنهم قط أن يتصلوا اتصالاً مباشراً مرئياً مع ذات الإنسان الأرضية المحددة. رسائل كلمّ إلى ك. هي رسائل شخصية وليست وثائق رسمية، كما يكشف عمدة القرية. كذلك برناباس، ساعي كلمّ، ليس معيّناً رسمياً. وكل طامّة وكل سوء فهم بين ك. وصاحبة النزل وفريدا وبيبي إنما يقوم على أن النساء يحببن ويفهمن الموظفين ليس بصفتهم أشخاصاً، بل بصفتهم قوى شاملة فوق شخصية.

في مقطع حذفه كافكا من روايته تشرح صاحبة النزل: **«كلمّ كشخص غير رسمي؟ من رأى كلمّ في أي وقت كشخص غير رسمي؟ من يقوى حتى على أن يتصوره شخصاً غير رسمي؟ سوف تعترض قائلاً إنك تستطيع ذلك، لكن هذا هو المصيبة حقاً. إنك تستطيع تصوره لأنك لا تستطيع أن تتصوره أيضاً كموظف، لأنك لا تستطيع أن تتصوره إطلاقاً. لأن فريدا كانت حبيبة كلمّ، تظن أنت أنها رأته شخصاً غير رسمي، لأننا نحبه تظن أننا نحبه شخصاً غير رسمي. حسناً، لا يمكن للمرء أن يقول عن موظف حقيقي إنه يكون مرة موظفاً أكثر ومرة موظفاً أقل، بل هو دائماً موظف بوفرة كاملة ... ما من مرة كان موظفاً أكثر مما كان آنذاك في أوقات سعادتي، وأنا وفريدا متفقتان على أننا لا نحب أحداً سوى**

الموظف كلمّ، الموظف ذي المرتبة العليا، العليا جداً.» إن النساء اللواتي يقفن على نحو مباشر أكثر، وإلى حد ما أكثر طمأنينة في تيارات المشاعر في الحياة من الرجل المتأمل يشعرن عالم المشاعر هذا عالماً يقرر مصائرهن، ويكون سنداً لهن، ويُنْعِم عليهن بقوة حياة لا يمكنها أن تحمل ملامح شخصية.

هذا لا يناقض التصوير أن صاحبة النزل وفريدا إنما كانتا في أوقات سعادتهما حبيبتين لكلمّ؛ إذ إن هذا الحب لم يكن حباً بين إنسان وإنسان. هذا الحب هو، كما تشرح صاحبة النزل، شأن مغاير كلياً لحبها لزوجها ولذا فإنه أيضاً لا يتعارض معه. ولهذا فإن كلمّ لم يشاهد حقاً لا من قبلها نفسها ولا من قبل فريدا: **أنت غير قادر على أن ترى كلمّ في حقيقة الأمر، هذا ليس تعالياً من طرفي، إذ أنا نفسي غير قادرة أيضاً. على كلمّ أن يتحدث معك، بيد أنه لا يتحدث حتى مع ناس من القرية، ما من مرة قط تحدث بنفسه مع أحد من القرية ... لكنه لم يتحدث معها** (فريدا) **أيضاً. أما أنه كان ينادي فريدا أحياناً، فإن هذا لا يجب أن يعني بتاتاً الأهمية التي يحب المرء أن ينسبها إلى هذا النداء.** صاحبة النزل توضح أن كلمّ **لن يتحدث مع ك. أبداً، بل ولا في يوم من الأيام يستطيع أن يتحدث معه.** إنه من غير الممكن للموظف كلمّ نفسه أن يقيم علاقة شخصية مع إنسان. وفريدا تعبّر عن الأمر نفسه: كلمّ لن يتحدث **لا معك ولا معي، إنها محض مستحيلات.**

بهذا نقترب من معنى كلمّ. صحيح أنه لايمكن تحديد هذا المعنى على نحو واضح، وإلا فإنه ما كان خليقاً أن يحتاج إلى لغة الصور الشعرية بعيدة المدى. لكن طبعاً بهذا التشكيل الشعري يمكن عرضها وجعلها مفهومة. غير أن نمط لغة كافكا وصوره المميزة إلى أقصى حد تطلب تفسيراً مميزاً يطابقها.

مشاعر الحب فوق الفردية

تقول صاحبة النزل ذات مرة لـ ك.: **لقد انتزعتَ فريدا من الحالة الأكثر سعادة التي أتيحت لها في يوم من الأيام.** وهذه الحالة الأكثر سعادة التي كانت فريدا تعيش فيها بصفتها حبيبة كلمّ تصفها فريدا نفسها قبل ذلك مباشرة كما يلي: **بيد أنني لا أستطيع وصفه** (ما حدث لها)، **حتى إنني لم أعد أستطيع تصوره، هكذا تغيّر كل شيء منذ أن هجرني كلمّ.** إن حالتها كفتاة مشرب لدى كلمّ، كانت بحيث أنه استحوذت عليها مشاعر اللامبالاة والانزعاج وعدم الرضى، مثلاً بسبب صفاقة خدم كلمّ، وإهاناتهم لها، أو إهانات الزبائن في المشرب، هذه الإهانات التي لم تكن تصيبها نفسها: **بدا لي كأنه حدث قبل أعوام طويلة، أو أنه لم يحدث لي قط، أو أنني سمعته وحسب، أو كأنني نسيته بنفسي. بيد أنني لا أستطيع وصفه.**

الحالة الأكثر سعادة كانت تكمن إذاً في احتواء مشاعر لها، مشاعر لم تحسّها كملكية تفعل فعلها فيها، دون أن تحددها ذاتها الفردية أو تنتجها أو تسيطر عليها بوعي. هذا يطابق ملاحظة أولغا: «**كلمّ هو مثل قائد على النساء، يأمر تارة هذه وتارة تلك أن تأتي إليه، لا يطيق واحدة مدة طويلة وكما يأمر بالحضور، يأمر أيضاً بالذهاب ... لكن نحن نعلم أن النساء لا يستطعن إلا أن يحببن موظفين إذا التفت هؤلاء إليهن ذات مرة، نعم إنهن يحببن الموظفين حتى قبل ذلك، مهما شئن أن ينكرن ذلك.**»

إن حب النساء للموظفين هو إذاً حقيقة مباشرة عبر المشاعر، التي يظل تأثيرها قائماً باستمرار قبل اللقاء مع الموظفين وبعده؛ إذ كذلك بعد مثل هذه اللقاءات تستشعر، على سبيل المثال، كل من صاحبة النزل وفريدا هذا الحب أو هذه التبعية للموظف كلمّ، ولو كان ذلك، كما هو الحال لدى صاحبة النزل، على شكل ذكرى ترافقها طوال حياتها وتدعها تتحمل حياتها أساساً. لكن لقاء الحب مع الموظف نفسه هو سعادة تداهمها على نحو ما بطريقة غير مفهومة، وهي لا تتعلق برغبتها، بل فقط بسلطة كلمّ فوق الشخصية، وتبقى ذكراها في نفسها كترقية غير قابلة للفقدان.

النزاع بين الحب فوق الفردي والحب الشخصي

من حالة السعادة هذه انتزع ك. فريدا. غير أنها تحس هذا أيضاً سعادة، لكن بمعنى أن ك. يلقاها بصفتها كائناً حراً يريد أن يسلّم نفسه لها بالكلية. وبالذات نتيجة هذا اللقاء الفردي مع ك. تنقلب في فريدا علاقتها بكلمّ، على العكس من صاحبة النزل، التي تظل متعلقة بكلمّ لأنها لا تحب وتقدر زوجها هانس شريكاً ندّاً. **هل ينقصني كلمّ؟، قالت فريدا** (لـ ك.)، **من كلمّ يوجد هنا فيض، أكثر من اللازم من كلمّ؛ لكي أفلت منه، أريد أن أذهب. ليس كلمّ بل أنت تنقصني.** بسببك أرغب في الذهاب؛ **لأنني لا أستطيع أن أشبع منك، هنا حيث يتجاذبني الجميع. ليت اليرقة الجميلة تنزع عني، ليت جسمي يذبل، حتى أستطيع أن أعيش لديك بسلام. لأنني لا أعرف لنفسي سعادة أكبر من أن أكون لديك، دائماً وأبداً، بلا انقطاع، بلا نهاية.**

من خلال حبها الفردي لـ ك. تستشعر فريدا الآن إذاً تناقضاً لمجال كلمّ. الآن بات هذا المجال بالنسبة لها مرتبطاً بعالم أحاسيس جسدها، يرقتها الجميلة.

لاحقاً سوف نعالج التعقيدات التي تنشأ لها ولعلاقتها بـ ك. المهم الآن بالنسبة لإدراك كلمّ أنه في لحظة لقاء حب فردي تحس فريدا عالم الأحاسيس فوق الشخصي عالم مشاعر حسيّ تصدّه كي تتمكن من أن تتبع ك. كلياً.

لكن هذا لا يعني أن كلمّ إنما يمثل المجال الحسي فعلاً، كما أنه لا يعني أن الحسية في رواية كافكا إنما تبدو مجالاً سلبياً. إن الموضوع يدور حول تحوّل المجال فوق الفردي إلى مجال فردي، إذ هكذا وحسب تكون السعادة الكاملة ممكنة.

إذ إن تصور فريدا عن سعادة حبها الفردي لـ ك. لا يمكن تحقيقه إلا في **اللحد**. إنها تحلم **أنه لا يوجد هنا على الأرض مكان هادئ لحبنا، لا في القرية ولا في أي مكان آخر ولذا أتصور لحداً، عميقاً وضيقاً، فيه يحتضن كل منا الآخر كما بكمّاشات، أخفي وجهي فيك، وأنت تخفي وجهك فيّ، وما من أحد سوف يرانا بعد الآن في أي وقت كان.** بهذا تمحى حتى الفردية. كل منهما يخفي وجهه في الآخر، لا أحد منهما يعود يرى الآخر.

لكن هيئة كلمّ تقف فوق التناقض بين السعادة الحسية والسعادة الفردية، أو إنه يشمل كلا المجالين. يظهر هذا من اقتباسات عديدة. هنا أولاً اقتباس من لغة الصور لكافكا:

كونياك كلمّ

إذ يصعد ك. أمام فناء نزل السادة إلى زحافة كلمّ، التي يسود فيها **دفء فائق الشدة مع أن الباب كان مُشرعاً على سعته**، في حين تسود في الخارج برودة قارسة، يتناول زجاجة كونياك لكلمّ، يفتح السدادة ويستنشق: **كانت الرائحة حلوة للغاية، مستميلة جداً، كان الحال أشبه ما يكون حين يسمع المرء إطراء وكلمات طيـة من شخص يحبه ولا يعرف بالدقة مطلقاً ما هو الموضوع ولا يريد أن يعرفه أبدا، ويكون سعيداً وحسب وهو يدرك أنه هو الذي يتكلم.**

في الرائحة، روح هذا الكونياك، يُشعر كلمّ المرءَ بسعادة الحب الفردي الحلو. إسعاد بمشاعر حلوة أي حسية وإسعاد به، عبره وحده، الحبيب الذي يتكلم، يعلن عن نفسه إذاً كماهية قائمة بذاتها تختلف اختلافاً بيّناً عن غيرها. لكن يجب الحفاظ على هذه الروح، رائحة المشروب هذه. ك. تذوق المشروب **بدافع من فضول. كم تحول أثناء الشراب، من شيء كان تقريباً مجرد حامل أريج حلو إلى شراب يناسب الحوذية. «هل هذا ممكن؟» تساءل ك.، كأنه يعاتب نفسه، واحتسى جرعة أخرى.**

دون مبالغة في التأويل يجوز للمرء أن يرى في مشروب كلمّ عودة إلى موضوع الخرافات القديم، موضوع مشروب الحب. كثيراً ما كان كافكا يقرأ قصصاً خرافية، كما أنه أدخل في أدبه مواضيع خرافات، مرات بشكل غير ملحوظ ومرات بشكل واضح للغاية.

في مشروب كلمّ تتوضح في الوقت نفسه أهمية كلمّ: ففي صورة مشروب الحب يتكشف الإدراك بأن الحب إنما هو سلطة تداهم الإنسان وتتغلب عليه بقوة آسرة، تتغلغل فيه ضد إرادته. من هنا فإن كلمّ هو **قائد النساء**. يتعيّن عليهن أن يتبعنه عندما يدعوهنّ، ويذهبن عندما

يصرفهنّ. لكن هذا النداء، هذا اللقاء مع كلمّ، هو دائماً قصير ونادر جداً. إنه **أقصى إسعاد**، إسعاد لا يمكن تصوره و **لا يُصدَّق**. إذ فيه يومض **للحظات** حدس تلك الروح التي يتحد فيها الحب الفرديّ مع مجال الأحاسيس فوق الشخصي، هذا المجال الذي يتغلغل إلى الإنسان بقوة آسرة. من هنا فإن النساء، مع أنهن لا يتمكنّ من رؤيته أو التحدث معه قط، يشعرن أن كلمّ هو شخص، ماهية محددة، **موظفاً** ذو مرتبة عالية.

بحق يقول ك. ذات مرة لصاحبة نزل الجسر بخصوص زواجها غير السعيد: **البركة** (بركة كلمّ) **كانت فوقك، لكن المرء لم يعرف أن يستنزلها**. إذ إنهم فوّتوا **أن يسألوا كلمّ**. إن ك. يعرف بالدقة إذاً ـ وهو بهذا يتفوق على صاحبة النزل الخبيرة بشؤون الدنيا ـ أن الإنجاز الحاسم للإنسان إنما يكمن في إثبات وجوده شخصياً أمام سلطة المشاعر **وأن يسألها**، هذا يعني أن يتضح له قبل عقد قران إذا ما كانت سعادة الحب التي يحدثه قلبه بها موجودة إزاء الشريك المقبل المختار ويمكن الحفاظ عليها. هذا يعني إذا ما كان كلمّ يوافق على الزواج. هنا فقط تكون بركة فوقها.

من خلال لقاءاتها القصيرة الثلاثة مع كلمّ اكتسبت حدساً عما هو الحب. لكنها لم تعرف أن ترفع الحدس إلى وضوح الوعي من خلال سؤال كلمّ شخصياً وتحقيق النتائج في زواجها مع هانس. لقد اكتفت بتيارات الأحاسيس الجماعية فوق الشخصية، التي قادت إلى زواج مسجل **رسمياً**. وكان هذا الزواج تعويضاً ناقصاً عما كان موعوداً في روح كلمّ. لذا فإنها تعيش من ذكرى كلمّ.

بهذا يتوضح أيضاً لماذا لا يستطيع الناس جميعهم، وليس النساء وحدهن، أن يروا كلمّ سوى **لحظات**، ولماذا تكون رؤيتهم متبدلة دائماً وأبداً، تحددها أمزجتهم وآمالهم وإحباطاتهم. إن سعادة الحب التي يبشّر بها كلمّ تومض مدة لحظة كحدس، وتعاش، عبر المقارنة بالوضع المحدد الذي يكون فيه الإنسان، على شكل آمال، إحباطات، أشواق إلخ ...

إن كلمّ يظهر هنا إذاً بصفته السلطة المقرِّرة لكل اللقاءات بين البشر. لكن هذه السلطة المقررة يجب أن يمكن للإنسان أن يعود إلى تقريرها بنفسه. هنا وحسب، حريّ أن يكون وجود إنساني حق وسعادة حقة أمراً ممكناً. هذا هو معنى الجملة أنه يجب أن تكون العلاقة مع كلمّ مكشوفة للجميع وليس لكلمّ وحده.

بهذا تتوضح في الوقت نفسه طبيعة كلمّ المتبدلة المنطوية على معان متعددة: كما تتحول روح مشروبه إلى شراب يناسب الحوذية، هكذا يقتحم خدم كلمّ **الحانة دائماً مثلما تقتحم الحيواناتُ الحظيرةَ**. ضمن النظام الكوني العام الطبيعي، أي في «**الوظيفة**»، الخدم وقورون **متحفظون** يقفون تحت القوانين الثابتة للطبيعة. فقط في عالم البشر ينفجرون دون أن يتمالكوا أنفسهم. فقط في هذا العالم يتحول الحيوانيّ النبيل للطبيعة إلى حيوانيّ بمعنى سلبي، تثور

الغرائز بالمعنى الحقيقي. إذ إن كلمّ ينطوي على إمكانيات اللقاءات الإنسانية كافة، العليا والدنيا.

والآن يصبح مفهوماً لماذا تكون النساء اللواتي لكلمّ علاقة بهن هنّ دائماً صاحبات حانة أو فتيات مشرب، لماذا خدم كلمّ، أو الزبائن من القرية، إنما يتناولون بشراهة ونهم كؤوس البيرة التي توزعها فتيات المشرب، بشراهة ونهم إلى درجة يفقدون معها لذة البيرة والتمتع بها. يصبح مفهوماً لماذا يتدحرج ك. وفريدا في لقائهما الأول ويرقدان من ثم **في برك البيرة الصغيرة وما عداها من القاذورات التي تغطي الأرضية**. إن الموضوع هو موضوع المشروب. وتكمن المعضلة الحاسمة في كيفية ظهور هذا المشروب وبأي شكل وكيف يستخدمه الناس. مباشرة بعد تجربة ك. مع كونياك كلمّ يطلب كأس كونياك من بيبي في مشرب حانة السادة. **رشف رشفة من الكونياك وأزاحه إلى الوراء، لأنه لا يستساغ. «كل السادة يشربونه»، قالت بيبي باختصار، دلقت البقية، غسلت الكأس ووضعته في الرف. «السادة لديهم أيضاً كونياك أفضل»، قال ك. «ممكن»، قالت بيبي، «أما أنا فليس لديّ»، بهذا فرغت من ك.**

يثير الانتباه أن السادة أيضاً يحتسون كونياك بيبي غير المستساغ أو يحتسون البيرة، كما يفعل كلمّ. إن طبيعة كلمّ المتبدلة لا تعيش بتاتاً من الجوهر وحده، بل تعيش كذلك من مشروبات فجة. إذا كان كلمّ حاضراً في كل مكان، كما تقول فريدا، فهو حاضر أيضاً في ظواهر الوجود الأكثر حسّيّة، في كل مراحل الشباب كما في الشيخوخة المتداعية. ك. نفسه يرى كلمّ رجلاً **بديناً متثاقلاً ... مع ثقل الشيخوخة.**

كلمّ موظفاً وشخصاً غير رسميّ

لأن كلمّ هو السلطة المقرّرة لكل الاتصالات بين البشر، فإنه من بين موظفي القلعة جميعهم ينجز **أكبر عمل**. لا أحد **يستطيع أن يخفي شيئاً عن كلمّ**. إنه يعلم كل شيء. غير أنه بصفته سلطة مقرّرة غير ظاهرة لا يمكنه إطلاقاً أن يظهر مباشرة، كما أنه لا يستطيع أن يسجل بنفسه أحداث الحياة المحددة التي تجري في الاتصالات بين البشر، ولا أن يقرأها. هذا العمل يؤديه سكرتيروه، أي هيئات التوسط بين الوجود المحدد ووجوده غير الظاهر. هذه الهيئات تسجل المضامين التجريبية الفعلية والأحداث التي تجري بين البشر، لذا فهي لا غنى عنها بالنسبة لطريق ك. إلى كلمّ، كما ترى صاحبة النزل الحكيمة. لكن ك. يشير على نحو صحيح للغاية إلى أنه يمكن للمحاضر أن تخدع ولا تكشف إطلاقاً عن حقيقة هذه العلاقات. لذا فإنه يرفض أن يخضع لتحقيق سكرتير كلمّ معه. إنه ينشد أن يواجه كلمّ بنفسه وجهاً لوجه. من طرف آخر لا بدّ له طبعاً من أن يمدّ يده بنهم إلى هذه المحاضر؛ إذ إنها عمل من أعمال مسح الأراضي المحدد. غير أنه ينحّي المحضر جانباً مرة أخرى وقد أصيب بخيبة أمل؛ وذلك لأن

المحضر لا يتضمن سوى تأويلات متحيّرة لصاحبة النزل. كلمّ نفسه لا يقرأ مثل هذه المحاضر، **حتى إنه لا يقرأ أي محضر إطلاقاً**. بالنسبة له أيضاً لا تقدم هذه المحاضر سوى نواح جزئية نسبية. لذا فإن كلمّ لهذا السبب أيضاً يظل صامتاً دائماً. كل الأقوال لا تفعل شيئاً سوى تمويه العلاقات الحقيقية بين البشر.

على نحو مباشر لا يتدخل إلا بصفته شخصاً غير رسميّ، مثلاً في رسالة شخصية موجهة إلى ك. يثني فيها على عمله في مسح الأراضي. ذلك أن مسح الأراضي يخص بالذات البحث عن المعنى الحقيقي للعلاقات بين البشر، وذلك كإنجاز فردي لـ ك. بلا ريب.

بصفته سلطة مقرّرة **تطوّق** كل شيء، يعيش كلمّ في تصور ك. **بمسكنه المنيع ... بنظرته الثاقبة من فوق إلى تحت** يدع نفسه غير قابل للإثبات أبداً، ولا للنقض إطلاقاً. إنه يمتنع على جميع التأويلات العقلانية والتأملات، وذلك لأنه إنما يمثل بالذات المباشَرَة، ولذا أيضاً عدم إمكانية النفاذ إلى كنه أسرار الحياة والحب.

كلمّ وحدود الحب الأرضي

لكن بهذا تكون أيضاً حدود كلمّ واضحة المعالم. إن كلمّ لا يمثل إطلاقاً شمولية الوجود الإنساني. إلى جانبه ثمة آخرون عديدون، موظفون مهمون في القلعة، سورتيني على سبيل المثال الذي يمثل نموذجاً ذهنياً متطرفاً يعيش منعزلاً متوحداً. نظراً لحدود كلمّ يصبح كذلك قرار ك. مفهوماً بأنه يريد الوصول إلى كلمّ، لكنه يريد أيضاً **أن يمرّ عليه ويتابع إلى القلعة**.

ومن حدود كلمّ نفسها يصبح مفهوماً أن صمته المستمر **لا يتخلله سوى صراخ كما لم يسمعه ك. قط. دوائر كلمّ غير القابلة للتدمير انطلاقاً من أعماق ك.، التي يرسمها في أعاليه طبقاً لقوانين لا سبيل إلى فهمها، لا تمثل للعيان سوى لحظات**، ترغم المقرّر لكل شيء على الدخول إلى قوانينه الخاصة به. المقرّر هو كذلك المقرَّر. كما لا يقدر البشر على إقامة علاقات دائمة معه، فهو لا يدخل في علاقات مع البشر. مسكنه المنيع يحبسه هو نفسه أيضاً. فقط عندما يزوره إنسان حر في لحظة غير مراقَبة، يواجهه رجلاً لرجل، يصبح في مقدوره أن يحطم أصفاد كونه موظفاً، يتحول إلى شخص غير رسميّ حقاً وبهذا يخبر ترقية لا يمكن تصورها. إن **القوانين التي لا سبيل إلى فهمها**، التي يتحرك ضمنها، خليقة أن تصبح مفهومة له إذا ألغاها. لكن هذا لا يمكن طبعاً أن يحدث إطلاقاً ضمن **العالم**، الذي يبقي نفسه في **توازن** دائماً وأبداً. وهكذا يبقى كلمّ طبعاً موظفاً قائماً على عمله، متورطاً دائماً في **دوائره غير القابلة للتدمير**.

ليس بدون سبب يجلس **بديناً متثاقلاً** صامتاً أمام كأس البيرة الذي يقدم له ولا يشترك في

شيء مع روح مشروبه الخاص به. صحيح أن لا أحد يراه هكذا سوى ك. وهذا لا يرى نظرة كلمّ **الطفولية الساذجة المتألقة**، التي تسحر فريدا. **كانت نظارة قمّاطة عاكسة وضعت على نحو مائل تحجب العينين** (عينيّ كلمّ)، عندما يراقبه ك. من خلال ثقب الباب. في القلعة يمكن لكلمّ أن يبدو على نحو آخر كلياً. لحبيباته تومض نظرته المتألقة لمدة لحظات، ساحرة ومبشّرة بالسعادة. لكن الأمر لايزيد عن لحظات. وكلمّ لا يستطيع أن يتجلى لحبيباته في هذه اللحظات، أن يميل إليهنّ، أن يقدم لهن هدايا. **طبعاً على المرء نفسه أن يهتم بالأمر، كلمّ نفسه لا يعطي شيئاً، لكن عندما يرى المرء هناك شيئاً مناسباً ملقى، يمكن أن يطلبه.**

مع كل إمكانيات السعادة والحب الفردي والحرية التي تومض فيه، كذلك مع استطاعته أن يكتب **رسائل شخصية**، فإن كلمّ يرتبط بالقانونية التي يمثلها بنفسه ويُظهرها. في المجموع يظل، كما كل سعادة أرضية، حبيس قانونية العالم.

رموز الموت والحياة

على الدوام تحيط بالقرية والقلعة برودة موت قارسة، صحراء ثلوج. **يبدو لنا هناك كل ما هو خارج الغرفة بارداً... الشتاء طويل لدينا، شتاء طويل جداً وعلى وتيرة واحدة ... لكن في الذاكرة، الآن، يبدو الربيع والصيف قصيرين لدرجة كأنهما لا يزيدان عن يومين، وحتى في هذين اليومين وكذلك في أجمل يوم يهطل ثلج أحياناً.**

إنها صحراء الثلوج ذاتها التي يقع فيها طبيب الأرياف حين انتزع من حياته المحدودة ليواجه كونية وجوده. هذا الثلج في رواية **القلعة** هو رمز الموت، تجمّد الماء الحيّ. ويتوضح هذا حين يغوص ك. في الثلج في القرية ويستشعر فجأة **عوناً** وتشجيعاً لدى تذكره أنه عندما كان فتى صغير السن قد قهر سور المقبرة العالي في قريته التي نشأ فيها. آنذاك كان قد **تمّ له الأمر بسهولة** أن يصعد على السور العالي الأملس: **نظر إلى الأسفل وإلى الجمع المصطف في دائرة، كذلك من فوق الكتف إلى الصلبان المغروسة في الأرض، ما من أحد كان الآن وهنا أكبر منه... الشعور بهذا النصر بدا له آنذاك يعطيه سنداً طوال حياة، الأمر الذي لم يكن سخيفاً كلياً، إذ الآن بعد سنوات عديدة في ليلة الثلج على ذراع برناباس جاء ذلك يمدّه بالعون.**

كذلك تسريع الوقت ـ الظاهري وحسب ـ الذي يخبره ك. في شارع القرية الذي تكاثفت عليه الثلوج، يصبح من هنا مفهوماً: كيف يتقلص الربيع والصيف إلى يومين، بل إن الثلج يهطل أحياناً فيهما، هكذا أيضاً يدوم ضوء النهار في القرية **فقط نحو ساعة أو ساعتين**. وفي الغالب تسود **الظلمة**. هنا لا تُلغى قوانين الزمن، بل يُرمز إلى سيطرة الليل. ذلك أن ك. لم يمض على ما يبدو منذ الصباح في القرية سوى **ساعة أو ساعتين**، الأمر الذي يشير إليه أنه **لم**

يستشعر حاجة إلى طعام. «أيام قصيرة، أيام قصيرة»، قال لنفسه. إن جو الليل والموت يغلب على نحو واضح في عالم القرية والقلعة، هذا العالم الذي يخص السيد الغراف فستفست. هذا الجو هو الإطار الخارجي الذي يطوّق كل شيء ويصب فيه كل ما هو حياة وتفكير.

على نحو جليّ كل الجلاء رمز كافكا إلى العلاقة بين الموت والحياة في صورة الثلج البارد والماء الدافئ. شارع القرية تكسوه الثلوج العالية ويخلو من الناس. **هنا لا يوجد حركة مرور.** لا توجد حركة مرور إلا على الطرق الواصلة بين القرية والقلعة، والتي تسير عليها عربات الموظفين بسرعة فائقة؛ ولا توجد حياة ودفء إلا في داخل أكواخ القرية أو في داخل زحافات الموظفين والمكاتب.

من هنا يصبح مفهوماً الحدث الجديد بالاستغراب أن ك. لدى تجواله الأول الشاق في شارع القرية المغطى بالثلوج يجد في الكوخ الذي يدخل إليه أول ما يدخل المشهد التالي ينتظره: **برميل خشبي، ذو حجم هائل لم يكن ك. قد شاهد مثله قط، كان حجمه يبلغ حجم سريرين، فيه كان يستحمّ رجلان في ماء يتصاعد منه البخار،** يرشّان الأولاد الصاخبين، أبناء فلاحين، ووجه ك. بالماء الساخن، في حين كانت **امرأة ذات بدانة فتيّة** تغسل غسيلاً في حوض اغتسال قرب الباب. يصبح أيضاً مفهوماً لماذا **كأنه لا يوجد وسيلة تفاهم أخرى تمّ سحبه إلى الباب بصمت لكن بكل قوة** ويطرد إلى الخارج، في حين **ضحكت الغسالة لدى الأطفال الصاخبين فجأة كما في هيجان.** هذا يعني أن ك. هو جسم غريب مزعج في هذه الحياة المتأرجحة بلا رادع ولا عاصم.

لكن مما له أهمية هو أنه في الحجرة التي تتفجر فيها حياة كانت **فتاة من القلعة لم تبدُ أنها كانت تنتمي إليهم، متعبة وعليلة. كانت هذه المرأة على الأريكة ترقد وكأنها ميتة، ولم تكن تنظر حتى إلى الطفل إلى صدرها، بل إلى الأعلى على نحو غير محدد. كان ك. قد تمعّنها مطولاً، هذه الصورة الجميلة الحزينة غير المتبدلة.** يشعر أنه مجذوب إليها بشدة. إنها زوجة برونسفيك الذي يستحم، وأم هانس برونسفيك، الصبي الذي يرى في ك. محرراً قادماً. إنها تنتمي إذاً إلى مجال القلعة، الذي يجري فيه تدوين كل حياة في محاضر، يُعالَج ذهنياً ويُساد رسمياً طبقاً لقوانين مفروضة. تماماً مثل الموظفين هي أيضاً متعبة على الدوام، لا تقوى على تحمّل هواء القرية، **ترقد وكأنها ميتة،** كما يجلس كلمّ في حجرته دون أن يحرك ساكناً.

إن مجال القلعة يتعالى إذاً على حياة القرية الفوّارة، إنه عالم أكثر ذهنية وأعلى، كما أنه طبعاً أكثر اعتلالاً ومواتاً. هذا يطابق حتى التفاصيل أوصاف أشكال الظهور الخارجية للقلعة، كما جاء على سبيل المثال: **وقد بدا أن الثلج على الجبل في الأعلى أقل منه هنا في القرية.**

كانت القلعة تربض هادئة كما كانت دائماً، أبداً لم يكن ك. قد رأى هناك أقل إشارة تشير إلى وجود حياة. لكن هذا لا يعني أنه هناك تدرج أو حتى ثنائية بين الحياة والفكر. إن إبداع كافكا بعيد كل البعد عن هذه التفريقات التقليدية. إن **العمل الرسمي والحياة** يتبادلان مكانيهما على الدوام. و«**بين الفلاحين والقلعة لا يوجد فرق**». إن الموظفين الذي يسجلون كل شيء ليسوا أبداً **أكثر نقاء** أو أكثر ذهنية من أهالي القرية المحكومين. غرف عملهم الرسمي متسخة على نحو **تكون في حالة لا يمكن حتى لطوفان أن ينظفها**. إن الموظفين يضجّون ويتصايحون مثل أطفال، لا بل مثل ديوك. إن القوى المقرِّرة ليست أفضل قيد شعرة من واقع الحياة الذي تقرره هذه القوى. حتى إن التقرير وكون المرء مقرَّراً يتبادلان مكانهما. في الحقيقة إن الحياة نفسها بالذات تقرر وتملي عمل الموظفين.

نظراً لهذا التشابك، الذي لا مفرّ منه، الذي يقف فيه العمل الرسمي والحياة، تقوم هذه المرأة المتعبة التي ترقد على الأريكة، والتي تنتمي إلى القلعة كما إلى القرية، بازدراء كل شيء بعامة، القلعة، القرية وأيضاً مسّاح الأراضي. ك. يسألها: «**مَن أنت؟» باستهزاء، وكان من غير الواضح إذا ما كان الازدراء موجهاً إلى ك. أم إلى جوابها نفسها، قالت: «فتاة من القلعة».**

هذا يعبّر كذلك عن وضعها الثنائي المميَّز. فهي فتاة حين يُنظر إليها من القلعة، ومع ذلك هي أم وزوجة في القرية. لذا ادعى بعض النقاد، دعماً للتفسير الديني الذي نشره ماكس برود، أنها ترمز إلى أم الله المقدسة، تنتمي إلى القلعة بصفتها مكان «الرحمة». لكن لماذا يتجاهل هؤلاء النقاد ازدراءها لكل شيء وجوابها المستهزئ؟ كل هذه التفسيرات الدينية هي في الحقيقة كفر بالله وإهانات للدين نفسه.

والدة هانس برونسفيك ليست قديسة، بل هي امرأة غير سعيدة تحاول أن تهرب من سلطة الحياة وروحها ومع ذلك يتعيّن عليها أن تظل مستسلمة لها بالضرورة. هذه هي مَأساتها. كما أن هذا هو مغزى جهود ابنها اليائسة من أجل كسب ك. كطبيب ومحرر لها. إذ إن ك. هو الوحيد الحر حقاً في القرية. ربما قد يأتي لأمه عون منه. من طرف آخر لا بدّ لـ ك. نفسه من أن ينجذب إليها على نحو سحريّ، عليه أن يتوقع معونة منها، إذ إنها لتأتي من القلعة، ويحدس أنها تملك معرفة أكثر مما لدى الآخرين جميعهم، بالذات على أساس تحفظها وجوابها المزدري.

فقط في سياق مجموع عالم الصور في إبداع كافكا يمكن استخلاص تفسيرات صحيحة لشخوصه. هذه المرأة التي **كأنها ميتة** يجب رؤيتها بارتباط لا ينفصل مع الوضع الذي هي فيه. إنها تشكّل تناقضاً حاداً مع الحياة **الفوّارة** التي تجري في كوخ لازيمان. كيف شكّل كافكا عن وعي هذه الرموز للحياة والموت، للماء والثلج، يتبيّن من التفاصيل الكثيرة الضئيلة

غالباً مثل من تلك الملاحظة أن زوجة عمدة القرية التي تشبك يديها بكل انتباه حين ترى رسالة كلمّ، **غارقة في أحلامها وهي تعبث برسالة كلمّ، التي كانت قد شكلت منها قارباً صغيراً**. إن اسم كلمّ ورسالته يثيران، على نحو أفكار متداعية، كما في الحلم صورة السفينة والماء، كما هو الجو الجنسي في الأحلام الحقيقية، الذي غالباً ما يرتبط بعنصر الماء. وكافكا نفسه غالباً وكثيراً ما يصف الحياة على أنها تيار يسبح فيه البشر وأنه يتعيّن من طرف آخر أن تجري السباحة ضده دون توقف، إذا أراد الإنسان أن يحتفظ بالحرية ووضوح النظرة: **اعرف التيار ولذا اسبح ضد التيار؛ رغبة بأن تكون محمولاً اسبح ضد التيار**. في صيغة كافكا هذه تتحدد معالم هدف ك.: السباحة ضد التيار وأن يكون المرء في الوقت نفسه محمولاً من قبل التيار. الجمع بين الحرية والارتباط.

من ذلك تنشأ أيضاً تعقيدات ك. في علاقاته بالنساء. لفهم هذه التعقيدات لا بدّ من استخلاص مركز وأهمية هؤلاء النساء من النص استخلاصاً دقيقاً.

من فتاة إلى سيدة مجتمع: فريدا وبيبي

فريدا، التي هي إلى حين أهم امرأة لـ ك.، ارتقت من خادمة إسطبل لدى صاحبة نزل الجسر إلى فتاة ترتيب غرف في نزل السادة، حتى وصلت إلى فتاة مشرب في حانة السادة. كان صاحب نزل السادة **رجلاً مهذباً عموماً، وقد اكتسب أدباً رفيعاً من تعامله المتواصل والحر نسبياً مع ذوي المستوى الأعلى، كان يتحدث مع فريدا بطريقة خاصة تنمّ عن فائق احترام**. فتاة مشرب في حانة السادة تحظى باحترام عظيم في أعين أهالي القرية.

لا يمكن فهم هذا إلا إذا راعينا الخطوات الأولى لفريدا وكامل بنية العلاقة بين **السادة** (الموظفين) والقرية. كخادمة إسطبل في نزل الجسر كان يتعيّن على فريدا أن تنجز عملها دون أن تُراعى يداها الصغيرتان الناعمتان. كخادمة غرف في نزل السادة كانت، مثلها مثل زميلاتها، مجرد موضوع مفعول به من قبل القوى التي تقرر كل شيء. **ليس لدى البنات ملكية. لجان** الموظفين يمكنها في كل وقت، كما يحلو لها، **أن تنكش** غرفهنّ وأسرتهنّ بحثاً عن ملفات تزعم أن الخادمات أضعنها أثناء الترتيب أو وضعنها في غير أمكنتها. لكن في الحقيقة ما من شيء يضيع، كل وريقة تسلمها الخادمات إلى صاحب النزل.

هذا يعني إذاً أن الفتيات يُسلمن بلا إرادة إلى قوى الحياة الموضوعية التي تتصرف في كل شيء، والتي لا يواجهنها بصفتهن كائنات مستقلة. إنهن يستقبلن بلا تفكير ما يقال ويفكر فيه ويراد، ويحلنه بلا تفكير أيضاً. صحيح أن المرء يبحث لديهن عن أية ملفات مهمة، غير أنه لا يعثر عليها قط. ليس لديهن من مهمة سوى أن يقمن بالخدمة، وتتضمن هذه الخدمة أن يعمدن إلى إزالة كل ما هو غير مريح، الوسخ الذي لا حدّ له الذي يخلفه السادة وخدمهم، طبعاً دون أن يتمّ لهن هذا قط؛ **إذ لا يمكن حتى لطوفان أن ينظف** غرف السادة. ضمنياً يفترض الرجال

أن تقوم الفتيات الصغيرات بجعل العالم مريحاً وجميلاً. لذا فإن السادة وخدمهم يقومون **باستراق الخطا أمام باب خادمات الغرف**. لكن من غير الممكن طبعاً إقامة اتصال حقيقي. فالخلاف كبير بين العالمين ودرجات الوعي بين البنات والسادة. **من شأنهن جميعهنّ أن يكنّ سعيدات في ما لو دخل أخيراً، لكن ما من شيء يحدث، لا أحد يدخل. إذ في الحقيقة لا يعرف المرء السادة مطلقاً، لم يكد يراهم.**

طبقاً لذلك تعيش هذه الفتيات في شعور مؤقت غير محدد: يتمنين لقاء السادة، لكنهن يشعرن بالخوف منهم.

هذا يتغير بضربة واحدة، عندما يجري تعيين فريدا وبيبي لاحقاً فتاة مشرب للسادة. **فجأة** يتعين على الواحدة منهن أن تقوم نحو الخارج، أمام السادة كما أمام القرية، بتمثيل **الجمال** وبهذا تمثيل **السلطة أيضاً**، وأن تظل حريصة على **السمعة** الاجتماعية العامة التي اكتسبتها بذلك. **وهكذا أصبحت فريدا بسرعة جمالاً عظيماً، فتاة مخلوقة هكذا تماماً كما يحتاج المشرب، لا بل تكاد تكون جميلة أكثر من اللازم، قوية أكثر من اللازم.** ما دام أنها فتاة جميلة، تصبح **فتاة مشرب، إذا لم تقع مصادفة سيئة بشكل خاص**. إن الانتقال من خادمة غرف إلى فتاة مشرب هو إذاً انتقال من بنت صغيرة تعيش بلا اكتراث ولا تفكير إلى سيدة واعية وجيهة تمثل الجمال، عليها أن تغري الجميع وفي الوقت نفسه أن تلجمهم، تعد بالسعادة وتوزع المشروب. إن المشرب هو مكان **حيث كان المرء دائماً تحت أعين الناس، وبينهم سادة مرفّهون كل الترفيه ومهذبون، وحيث لذا يجب على المرء أن يكون مظهره دائماً إن أمكن راقياً ومريحاً.**

هذا الانتقال من خادمة غرف إلى فتاة مشرب يحدث على حين غرة، **لأن السادة لا يتحلون بالصبر كي ينتظروا كيف يتطور المرء، بل على الفور ودون مرحلة انتقالية يريدون فتاة مشرب كما ينبغي، وإلا فإنهم يديرون ظهورهم.** في هذا تكمن حقيقة عميقة ونقد طريقة حياة: لا يجري انتظار أن تنضج المرأة وتصبح امرأة واعية ومتفوقة حقاً، بل يطلب السادة سيدة اجتماعية على الفور، ولا يبذلون جهداً من أجل تطور من يحبونها. هذا يقود إلى عواقب وخيمة على النساء.

سيدة المجتمع القابلة للتكيّف

يتعيّن على بيبي أن تستعير من صديقة لها **قطعة قماش غالية الثمن** وتخيط منها ثوباً لها، إذ إن هذا الثوب **بدا ضمانة النجاح**.

كيف يبدو هذا الثوب؟ **وأن المرء يستطيع كما يطيب له أن يثبته ويحلّه من جديد، في الأعلى وفي الأسفل، إنه صحيح إذاً مجرد ثوب، لكنه قابل للتغيير هكذا، هذه ميزة خاصة**

وكانت في الحقيقة من ابتكارها (بيبي). إنها تخيط إذاً ثوباً ينزل على كل رغبات السادة، ويسمح بكل تعديل مرغوب. بيبي تحشر نفسها في دور سيدة المجتمع المتكيفة. كل ما فيها هو بغرض التأثير، كما أنها لا تستطيع أن ترى وتقيّم جميع النساء إلا من وجهة النظر هذه. إنها ترى فريدا مجرد امرأة ما أمهرها، ما أمهرها، خلف قناع الحب والاستعداد للتضحية قامت بإغراء ك.، وإذ تراجعت سمعتها في المشرب **قررت أن تحدث فضيحة** لكي تثير الانتباه والفضول. وقد استخدمت حتى خروجها من نزل السادة مع ك. وإذلالها الظاهري في مدرسة القرية، لكي تضع سراً خططاً جديدة، مثل العنكبوت في الشبكة، لتتمكن من إزاحة بيبي والعودة إلى المشرب وهي تشعر بانتصار أكبر.

طبقاً لذلك وطّنت بيبي نفسها على ميول السادة السكرتيرين والزبائن: **كانت بيبي لطيفة مع كل فرد وكان كل فرد يقابلها لطفاً بلطف. كان الجميع مسرورين بشكل ملحوظ بالتغيير؛ عندما يجوز للسادة المنهكين أن يجلسوا أخيراً هنيهة قصيرة لتناول كأس من البيرة، يمكن للمرء بكلمة، بنظرة، بهزة كتفين، أن يدلّلهم بمعنى الكلمة. هكذا بهمة كبيرة كانت كل الأيدي تتخلل خصلات شعرها بحيث أنها كانت مضطرة لتجديد تسريحتها عشر مرات في اليوم.** بهذا تتميز عن فريدا التي كانت تحاول الحفاظ على عالمها الشعوري الحقيقي، **والتي كانت تحفظ نفسها كلياً لكلمٍ كما يقال وترى كل كلمة، كل تقرّب من قبل آخر، إساءةٍ لكلمٍ.**

بيبي لا تملك ذاتاً خاصة بها تواجه الجمهور بها، كما هو الحال مع فريدا. إن العالم الاصطناعي الذي أقامته بيبي على عجل يتداعى وينهار. إن الوسائط التي تستخدمها بهدف التأثير تبوء بالفشل على المدى البعيد. الدور الذي تريد القيام به، الثوب الغريب المستعار يبدوان لـ ك. مضحكَين. إذ إن بيبي **كانت على ما يبدو تلبس طبقاً لتصوراتها المبالغ فيها عن الأهمية التي تتمتع بها فتاة المشرب.** وفوق ذلك فإن هذا الثوب بالذات، الذي يبدو قابلاً للتبدل يناسب كل الرغبات، هو في الحقيقة ثوب **يناسبها قليلاً جداً، مسترسل ببساطة، من قماش رمادي لامع، كان في الأسفل قد جُمع على نحو طفولي بلا مهارة بشريط حريريّ ينتهي بغرزة، بحيث أنه كان يضايقها.** في تيار القوى الغريزية الحقيقية يتمزق.

المرأة خائبة الأمل

لكن من هذا ينشأ تحوّل في بيبي: تصاب بقنوط. تشعر أنها ضحية. **بيبي هي الضحية وكل شيء بليد، وضاع كل شيء ومَنْ مِن شأنه أن يملك الطاقة ويشعل حانة السادة بكاملها ويحرقها، لكن بالتمام والكمال، بحيث لا يبقى منها أي أثر، يحرقها مثلما يحرق المرء**

ورقة في المدفأة، خليق به أن يكون حبيب بيبي المصطفى. والوحيد القادر على ذلك حسب رأيها هو ك. **إنه بطل، محرر فتيات.**

بيد أن القنوط ليس إدراكاً. اليأس هو الوجه الآخر للعمى الأناني. ينبع من الشعور المعاند أن العالم لا يعترف بالمرء ولا يقدّره ولا يفهمه. لذا فإن رغبة بيبي في أن يحررها ك. هي تعالٍ في آن. تريد أن تظهر له، هو المكافح ضد السلطات، من هي: **وكانت قد أعدّت سلفاً أنها سوف تستغني عن كل شيء وتنزل إليه وتعلّمه الحب الصادق، الذي لم يكن قط خليقاً بأن يعيشه لدى فريدا والمستقل عن كل المراكز الشريفة في العالم.**

تشاء على حين غرّة أن تقفز من كل شيء وتكشف للمكافح قيمتها الباطنية المزعومة. لكنها في الحقيقة لم تواجه نفسها قط، ولذا فإنها لم تلد ولم تطور قيمتها الباطنية أبداً. إنها تفتقد إلى ما هو حر في طبيعة فريدا و**نظرتها** الظافرة التي فاجأت ك. في لقائه الأول معها، **نظرة ذات تفوق خاص. عندما وقعت هذه النظرة على ك. لاح له أن هذه النظرة قد أنجزت أموراً متعلقة به ما زال نفسه لا يعرف بوجودها قط، لكن هذه النظرة أقنعته بوجودها.**

صحيح أن بيبي أيضاً تثير ك. في لقائه الأول معها **كان ينظر إليها بشهوانية شديدة... من ثم كان الحال ربما ليس شيئاً آخر إلا كما هو لدى فريدا؟ أوه نعم، كان الأمر مغايراً. لم يكن على المرء أن يفكر إلا بنظرة فريدا، كي يفهم هذا. ما كان ك. خليقاً أن يمسّ بيبي قط.**

مثل كل النساء تنطوي بيبي كذلك على سرّ كلمّ. بيد أن بيبي لم تكن قط مثل فريدا حبيبة كلمّ. على الرغم من جهودها اليائسة في سبيل لقائه، لم يحدث أن دعاها إليه، كما أنه لم ينزل إليها. إن فريدا تعرف سرّ كلمّ. من هنا تأتي نظرتها. بيبي تريد الحصول عليه بتأثيرات اصطناعية؛ **بالبكاء، بالخدش، بالشدّ.**

تصوغ بيبي بنفسها كيف يبدو الحب الذي تريد تعليمه لـ ك. هذا الحب هو نزول إلى ك. وكأنه يقف تحتها، إذ إنها على كل حال تقف على الأرض بقدمين ثابتتين، أما هو فلا. إن استعدادها لأن **تستغني عن كل شيء** هو بالنسبة لها استغناء عن **المراكز الشريفة في العالم،** هذه المراكز التي فقدتها على كل حال. إنها لم تكن خليقة قط أن تعيش مثل فريدا مع ك. خارج القرية والقلعة في لا مكان أو في عمل خادم مدرسة مذلّ: على الرغم من، أو بالذات، بسبب نوبات الحقد اليائسة ضد نزل السادة والقلعة اللذين تريدهما أن يحترقا حتى الأساس، لم تع قط ما هي في الحقيقة القلعة وما هو نزل السادة، أية قوى تحرك العالم والحياة. من ثَمّ فإن نظرتها تتجه نحو الخلف:

إذ انهار كل شيء بالنسبة لها، فإنها تبحث عن ملاذ في النسيان واللامبالاة، في تلك الحالة التي تكون فيها النساء أدوات مطواعة بين يدي سلطات العالم. وهي تسعى للعودة إلى عالم البنات ذاك الذي يُعمل فيه بلا تفكير ما يتمناه المرء، الذي يسود فيه دفء، في حين أن العالم برمته في الخارج (بما فيه المشرب) لا بدّ أن يبدو الآن لخائبة الأمل بارداً.

هنا صوّر كافكا استسلام النساء للمقادير، تلك النساء اللواتي يهربن إلى دفء العش بعد أن أصابهن العالم بخيبة أمل. هناك تريد أن تحب ك. عليه أن يخصها بالكامل، عليه أن يُحمى من العالم العدائي، من الشتاء اللانهائي. الهروب إلى زواج محجوب عن الخارج، يُنزع في الرونق، الثوب الجميل. **سوف تنزع الثوب من على البدن والأشرطة من الشعر وتلقيها في أي ركن حيث تبقى مخفية على نحو جيد ولا تذكّر بلا ضرورة بأيام عليها أن يطويها النسيان.** هذا هو هدفها. وكذلك العناء اليومي في مثل هذه الحياة المحدودة تريد أن تقوم به: **من ثم سوف تأخذ الدلو الكبير والمكنسة، تعضّ على أسنانها وتشرع في العمل.** أما ك. فإنه سوف يكتسب أرضاً تحت قدميه، يجد مأوى، ويحصل أخيراً على تصريح الإقامة في القرية، طبعاً في الخفاء وحسب، متوارياً عن أنظار القلعة والقرية. إذ ليس عليه أن يعرّض نفسه لمشكلات وأسئلة وإمكانيات جديدة، عليه أن لا يظهر نفسه في أي مكان **نعتبره خطراً وأن تتبع نصائحنا بصفة عامة.**

الهروب إلى الزواج الجماعي

لا يمكن فهم هذه الرغبات والمطالب إلا بصفتها نقداً حاداً منطقياً لأقصى درجة من قبل كافكا لأشكال حب منتشرة كل الانتشار: بيبي ترى في ك. **البطل ومحرر الفتيات ... كمعين وحام** لها، وبهذا تخضعه في آن إلى عالمها الخاص بها المحتاج إلى حماية. في حين تترك نفسها له وتعتبره متفوقاً، تحوّله في آن إلى تلميذ نجيب لحبها المزعوم، تحول بينه وبين العالم والعمل الذهني، وتسلمه إلى نصائحها الطيبة.

يصبح هذا النقد أكثر حدة ـ لكن للأسف أكثر صحة ـ عند إمعان النظر في أن حب بيبي لـ ك. إنما يظهر حباً جماعياً: على ك. أن يقيم مع ثلاث فتيات في غرفة الفتيات الدافئة. هنا فقد الحب كل فرادة فردية. بصورة عامة كلياً يُحب الرجل هنا بصفته كائناً جماعياً، **الرجل كمعين وحام.** الفرد ك. ليس هو الموضوع، بل الموضوع هو الأمان والاطمئنان والحماية التي يقدمها. لذا فإن المرأة أيضاً ليست فرداً، بل كائن جماعي، مندوبة عن صنف، يمكن مبادلتها مع أية مندوبة أخرى. هنا تسود فوارق جنس عامة صافية: الرجل بصفته رجلاً مقابل المرأة بصفتها امرأة، فضلاً عن ذلك في اتفاق مصلحي: عليه أن يحمي، وعليها أن تؤمّن له دفء العش.

لا يمكن أن يكون ثمة شك في أن في مطلب بيبي الرهيب الذي يبدو خيالياً ـ كما هو الحال دائماً لدى كافكا ـ إنما يجري الكشف عن حقيقة يومية واقعية كل الواقعية: الحقيقة أن كل عقود الزواج التي تقوم على مجرد الحاجة لحماية امرأة خاب أملها من العالم، هذه الحقيقة لا بدّ من أن تتخذ سمة جماعية عن وعي أو بلا وعي. ولا يمكن ولا يجوز الاعتراف بهذا إطلاقاً، إذ إنه يعارض السمة الرسمية للزواج. لكنه مع ذلك يظل صحيحاً: **أنه لدينا الآن رجل كمعين وحام سوف يسعدهما، وسوف يأسرهما حقاً أن كل شيء يجب أن يبقى سراً وأننا بهذا السّر سوف نظل وثيقي الصلة أكثر مما مضى. تعال، أوه رجاء، تعال إلينا!** إن السر الجماعي الخفيّ لهؤلاء النساء الذي يربطهن بأوثق رباط والذي يعيش بالذات في **غرفة البنات** اللواتي ليس لهن **ملكية** فيها ولم يتيقظن كي يصبحن فرديات مستقلة. راجيات يخضعن عن طيب خاطر، ويأسرهنّ الرجل القوي الحامي، لكن بهذا بالذات لكي يسلمنه لأنفسهن.

لا يمكن تفسير مطلب بيبيَ على نحو آخر. لو شكّل كافكا رغبة بيبي في إقامة علاقة حب وزواج مع ك. بالصيغة «المألوفة»، لو ترك إذاً بيبي ترجو ك. أن يأتي إليها، إليها وحدها، لكان أثار في نفس كل قارئ التصور بأن ما تنشده بيبي هو ربما حب فرديّ حقيقي. لكن إذ إن كافكا يبغي أن يبيّن أن بيبي إنما تخدع نفسها بذلك، وأن حبها المزعوم لـ ك. لا يمثل في الحقيقة سوى حاجة حماية، حاجة أنثوية عامة كلياً، أن الأنثوي فيها يحب الرجولة فيه، هو **البطل**، فكان لا بدّ له من أن يلجأ إلى التشكيل الصارخ، العبثي إذا نظر إليه من الناحية التجريبية، أن بيبي إنما تحاول أن تدفع ك. إلى الارتباط بثلاث فتيات بدلاً من الارتباط بها وحدها. عبر التصوير الصادم وحسب، تظهر الحقيقة الخفية على نحو مباشر وجليّ، إذ إن الخاصية المميزة لصور كافكا الشعرية إنما تكمن في أنها تطابق بشدة الحقيقة الخفية وليس الحقيقة الظاهرة خارجياً. كافكا لا يكتفي مثل المبدعين الآخرين بأن يظل في إطار الظاهريّ تجريبياً أو أن يعبّر بأحاسيس غير محدودة أو رؤى، بل إنه يحوّل هذه الحقيقة على الفور إلى صورة مجسمة، وهذه الصورة المجسمة تظهر، نفسها، كواقع تجريبي، ومن ثم طبعاً تصيب القارئ كضربة مطرقة، لا تتركه، لا تسمح له بالهرب، ترغمه على اتخاذ موقف من الحقيقة التي لا تسمح بتفسير.

هذه الحقيقة تعني هنا أنه في مثل هذه الزواجات أو علاقات الحب التي ترغب بيبي فيها ـ ومعها عددٌ كبير من النساء ـ ثمة مجرد علاقة جماعية، ولو كان الزوجان يعيشان حياة زوجية مألوفة.

لكن بيبي لا تمثل سوى شكل متطرف من أشكال الحب، ولو كان هذا الشكل منتشراً كل

الانتشار. كذلك هناك أشكال مناقضة متطرفة، مثل حب أماليا على سبيل المثال. أما فريدا فإنها امرأة تحاول تجاوز التطرفات. لذا فإنها تقف بحق في مركز تجارب ك. في الحب.

«كفاح» فريدا في سبيل تحقق حب شخصي

على عكس بيبي تبدو فريدا، من المظهر الخارجي، غير صالحة لتكون فتاة مشرب. فقط من وجهة نظر أنها حبيبة كلمّ تبدو للآخرين أيضاً جميلة. **لكن ما يكفي كلمّ، كيف يمكن للآخرين أيضاً أن لا يعجبوا به؟ وهكذا أصبحت فريدا بسرعة جمالاً عظيماً، فتاة مخلوقة هكذا تماماً كما يحتاج المشرب.** من نقطة نظر طبيعية حيادية لا تبدو فريدا امرأة جميلة، بل **فتاة شقراء قصيرة القامة، بسيطة، بملامح حزينة ووجنتين ضامرتين.** كذلك لباسها لا ينبعث منه تأثير كبير، وبيبي تسخر منه: **فقط تنورتها الحريرية، الشيء الوحيد الذي تنفق مالاً في سبيله، تروح تهفهف.** إن بيبي تمكث على غير إرادة منها في جو بورجوازي صغير وعالم ربّات البيوت.

أما فريدا فإنها تكافح. من نظرتها العارفة المتفوقة التي **أنجزت أموراً متعلقة به ما زال نفسه لا يعرف بوجودها قط ... لا يتحدث الكفاح الماضي مثلما يتحدث الكفاح المقبل.** في هذا الكفاح هي ندّ لـ ك.، وهذا أيضاً يجمعهما في علاقة حب.

فريدا تريد، تماماً مثل ك.، ألا تتشبث بأي موقف معطى. في هذا تتميز أيضاً عن صاحبة نزل الجسر غاردينا على الرغم من تعلقها الداخلي والخارجي بهذه الأم المحنّكة، التي تريد إبعادها عن ك. هذه العجوز تقول نفسها عن فريدا: **فريدا، التي تعاملت مع كلمّ مدة طويلة، لا تملك أي تذكار، لقد سألتها، إنها تهيم أكثر من اللازم، كما أنها غير قنوعة.**

والحق أن فريدا تسعى أيضاً بصفتها حبيبة كلمّ أكثر مما تسعى إليه صاحبة النزل. تماماً مثل ك. لا تريد أن تلتمس هبات من كلمّ. ك. يقول: **لا أريد هبات من القلعة، بل أريد حقي.** كذلك فريدا لا تريد أن تستريح لدى كلمّ، بل أن تصعد إلى **الكفاح المقبل.** يمكن أيضاً أن يبدو لها لاحقاً أن عملها كفتاة مشرب لدى كلمّ إنما كان الحالة الأكثر سعادة، لكنها في هذا العمل أيضاً كانت **غير قنوعة. في نبرتها** في حديثها الأول مع ك. في المشرب **لم تظهر هذه المرة على عكس إرادتها انتصارات حياتها، بل الخيبات اللانهائية.** لا بل تثور ثائرتها ضد كلمّ لأنه مراراً وتكراراً **يجلب معه هذا القوم الذي يهدّني حضوره.** هذا القوم هو خدم كلمّ، عالم الغرائز، **الأكثر جدارة بالازدراء والمقت مما أعرفه ولهم يجب عليّ أن أملأ البيرة في الكؤوس. كلمّ في مقدوره أن يراعيني. لكن كل الرجاءات بلا طائل.**

كذلك كحبيبة كلمّ كانت تعيش **غير راضية. كل شيء تقريباً كان سيّان لديّ.** إذ بالذات الشعور بالسعادة بالقرب من كلمّ يجعلها غير مبالية بالعالم المحيط، لا بل يملؤها بالحقد

على تقرّب الرجال الغريزي. إنها ما تزال لا تستطيع أن تحدس أن طبيعة كلمّ تتضمن كل عناصر الجنس، أن خدمه هم جزء منه لا ينفصل عنه.

في اللحظة التي تكسب فيها ك.، حين يتمّ لها خرق التعليمات الرسمية الصارمة، حين تعلم أن ك. سوف يكون لها كلياً وأنها تريد تسليم نفسها له، هنا يدخل إلى **طبيعتها شيء ما بهيج، حر، الأمر الذي لم يكن ك. قد لاحظه سابقاً**. وإذ يناديها كلمّ، **ضحكت بهدوء** بين ذراعيّ ك. **وقالت: «لن أذهب طبعاً، أبداً لن أذهب إليه.»** وثم **جمّعت قبضتها، طرقت بها الباب ونادت: «أنا لدى مسّاح الأراضي! أنا لدى مسّاح الأراضي!»** هنا يرتعب ك. ويصيح: **«ماذا فعلتِ؟ ... لقد ضعنا كلانا.» «لا»، قالت فريدا، «أنا وحدي ضعت، لكنني كسبتك.»**

من هذا ينتج فارق آخر مع صاحبة النزل. لكل من الامرأتين معرفة بكلمّ. كل منهما تحس السعادة التي يمنحها. كل منهما كانت قريبة منه. بل إن فريدا تعلم ـ لكن فقط **بنظرة شاردة في البُعد** ـ أن حبها لـ ك.، إذاً انفكاكها عن كلمّ، إنما كان من فعل كلمّ نفسه. رفضها لكلمّ لم يكن رفضاً للسعادة القصوى الباطنية التي يعد بها كلمّ في ماهيته، لكنه كان رفضاً لكل ما يظهر على الأرض كإشارة مرئية لهذه السعادة: السمعة، التكريم، الجمال، الملكية، التيار الجارف للقوى الغريزية التي تكرهها في خدم كلمّ. تريد أن تكسب واحداً لا غيره هو ك. نفسه. محيطها برمّته كان سيّان لديها. فقط من خلال حبها لـ ك. تصبح حرة. هذه الحرية تبدو لوعيها القريب المحدد وداعاً من كلمّ، تخلياً عما يعتبره المرء بالمعنى المألوف سعادة. تريد أن تذهب مع ك.، إلى أي مكان، على غير هدى، معه وحده، وأن تخلق له شكلاً من أشكال الوجود في أي مكان وبأية طريقة. لذا فإنها تقول: **«أنا وحدي ضعت، لكنني كسبتك.»**

معبود المرأة المتزوجة واستسلامها للمقادير

أما صاحبة النزل التي طلبت من كلمّ دلائل مرئية على سعادتها وحصلت عليها، فقد تشبثت بعدم وضوح شعورها العام إزاء كلمّ غير المرئي بالنسبة لها. بسبب كلمّ بات كل شيء آخر سيّان لديها. كانت **تعيسة جداً** حين لم يعد كلمّ يناديها إليه. دون عمل راحت تجلس وهي في سن السابعة عشرة طوال اليوم في حديقة بيتها الأمامية. في هذا الوضع **أعطيت يدي لهانس، وفكرت بالحانة وبالعمل الجديد الذي قد يجلب بعض النسيان.**

عمل، حانة، زواج هي وسائط تخدير لها وتعويض عن السعادة الضائعة التي لا سبيل إليها. لهذا السبب تغرق في الحياة اليومية وتحقق نجاحات مدهشة بالكدّ والنشاط والحكمة. غير أنها لا تحب زوجها. **«طوال أعوام كانت أحاديثنا تدور حول كلمّ وحده لا غير وأسباب تغيير تفكيره. وعندما كان زوجي يغفو في أثناء هذه الأحاديث، كنت أوقظه ونستمر في**

الحديث.» هكذا كان زوجها يشعر فعلاً كأنه ضائع لا يقوى على أن يصبح **أكثر استقلالية، أكثر نشاطاً، أكثر رجولة.**

هذه صورة زواج يُعاش ملايين المرات. الزوجة تتطور إلى ست بيت ومدبرة منزل نشيطة عملية، تستحوذ على القيادة، تنحّي الزوج جانباً، في الغالب دون أن تعلم أو تشاء؛ إذ إن صاحبة النزل تحب زوجها بوعي كامل، بل إنها تجري معه أحاديث عديدة عن كلمّ.

مما له دلالة كبيرة بالنسبة لحالتها الهدايا الثلاثُ، التذكارات التي طلبتها وحصلت عليها من كلمّ، التذكار الأول هو الصورة التي تمثل الفتى الجميل الذي لن تنساه أبداً، ساعي كلمّ الذي يحوم في قفزة عالية. **«كان الساعي الذي بواسطته استدعاني كلمّ إليه لأول مرة.»** أوقظ فيها تجربة أول نشوة. لكن في هذه الأثناء باتت الصورة باهتة اللون بحيث أن ك. لا يستطيع أن يتبيّن فيها أولاً سوى شاب **يرقد على لوح، يتمطى ويتثاءب.**

التذكار الثاني هو ملاءة طويلة تغطيها كلياً. فيها تجد **دعة وسلاماً** عندما تجتاحها أزمات. حين تكون معتلّة ترقد في الفراش وتتنفس بصعوبة، يعذبها نقد ك. لحياتها ومفهومها للحب والزواج الرسمي. هنا تشدّ الملاءة أزرها وتواسيها: **بدت كل مكابدة قد نزعت عنها.** إنها إلى حد ما غلافها الروحي الذي يمنحها قوة لتتغلب على عنت الوجود وعلى كل شك. إنها هدية كلمّ النفيسة، تضمن لها اليقين بأنها تظل على الدوام تخص كلمّ. لا يمكن أن يبهت لونها ولا يمكن أن تفنى. إنها علامة حيّز لا يموت ولا يقوّض. حيّز يظل محفوظاً في كل إنسان على الرغم من كل الخطايا والخيبات. إنها **ملاءة جميلة.**

أما هدية كلمّ الثالثة، فإنها مغايرة كل المغايرة. إنها **قلنسوة ليلية من الدانتلا الرقيقة،** لكنها **صغيرة تتمايل فوق تسريحة الشعر وتُظهر تداعي الوجه مدعاة للرثاء،** مع أنها في الوقت نفسه **كانت في الفراش تبدو أصغر سناً منها في الملابس.** إن القلنسوة، التي تعلن، حسب العادات الشعبية، عن الانتقال من الفتاة إلى المرأة المتزوجة، كانت الهدية الأخيرة التي طلبتها وحصلت عليها من كلمّ. إنها لم تعد تناسب **هيئتها الضخمة.** لا بل إنها توضّح أن تداعي جسدها القوي **مدعاة للرثاء.** إن التناقض بين حياتها التي عاشتها وبين معنى هذه الهدية آنذاك - رمز الزواج الحقيقي - يتجلى من غير هوادة. إذ إن ضخامة بدنها، **هيئتها الضخمة التي تكاد تعتّم الغرفة،** هي عند كافكا دائماً إشارة إلى تلك القوى الأرضية، التي تسدّ الطريق إلى القانون الحقيقي للوجود. هذه المرأة القوية هي تماماً مثل هيئات التوسط الضخمة، كبراء البوابين، السيدان غرين وبولندر، والبوابون في روايتي **المفقود والمحاكمة،** رمز قوى تعمل بلا توقف، هي دائماً في **الخدمة،** في العمل، تدير المحرك العام للوجود على نحو غير شخصي وحسب، **تتوسط** وحسب.

هذه المرأة أيضاً تريد أن تتوسط. لكن هي كذلك لا تعرف سوى توسطات رسمية بين ك. وكلمّ. بل إنها تستاء إذ لا يستطيع ك. أن يعدها بأن لا يقوم بشيء على مسؤوليته. إنها ترفض على نحو قاطع أن يبيت ك. في نزلها، وطبعاً كذلك إنها مكلومة إلى أبعد حد لأنها تركت نفسها تُدفع إلى اعترافات إزاء ك. كشفت له نقاط ضعفها الخفية.

من هذا يتوضح في الوقت نفسه أن ك. الذي يبدو عاجزاً إزاءها إنما هو في الحقيقة يتفوق عليها في قرارة نفسه.

انتقاد ك. لاستسلام النساء للمقادير: نداء كلمّ الضائع

يدرك ك.، وليس صاحبة النزل ـ ولا حتى فريدا ـ علاقة الإنسان الحقيقية بكلمّ: إن شكوى الحياة لصاحبة النزل بأن كلمّ لم ينادها إليه سوى ثلاث مرات، لكنه من ثم نسيها نهائياً وهجرها، بالذات هذه المعاناة المزعجة لكامل وجودها يسميها ك. **خرافة**، خداع للذات خطير النتائج، ضعف إيمان، لا بل **ابتداع مبتذل**: **«كلمّ ينسى على الفور، قلتِ. هذا يبدو لي أولاً بعيد الاحتمال جداً، غير أنه ثانياً غير قابل للإثبات، على ما يبدو ليس شيئاً آخر سوى خرافة، ابتدعتها قريحة بنات كن في هذا الوقت ينعمن بحظوة لدى كلمّ. إنني أستغرب أنك تصدقين ابتداعاً مبتذلاً كهذا.» «ليس الأمر خرافة»، قالت صاحبة النزل، «إنه بالأحرى مستقى من الخبرة العامة.» «إذاً يمكن دحضه أيضاً من خلال خبرة جديدة»، قال ك.**

تعتمد صاحبة النزل على **الخبرة العامة** التي تفيد بأن سعادة الحب لا تعاش نشوات مشاعر وانتعاشات مثالية إلا زمن الصبا، أما حياة البالغين العملية فعليها أن تستسلم للمقادير وتتواضع. ك. يرى أن هذا هو **خرافة** بائسة يمكن دحضها **من خلال خبرة جديدة**. كما يرى أن الإنسان يملك دائماً إمكانية للوصول إلى كلمّ. يتعيّن عليه وحسب أن يواجهه وأن لا يدع قواعد الحياة **الرسمية** العامة تخيفه. إن الحياة الحق التي ينساها الإنسان المحدد على الدوام، لا يمكنها في الحقيقة أن تنسانا أبداً. إنها تقف دائماً كإمكانية ووعد مبين أمام وجودنا. الأمر نفسه يعبّر عنه ك. إزاء حزن فريدا لأن كلمّ قد هجرها، فيقول: **أنّ كلمّ لم يستدع فريدا بعد، هذا على نحو ما لم يحدث قط، لقد استدعاها بالأحرى، غير أنها لم تلبّ. حتى إنه من الممكن أنه ما زال ينتظرها دائماً.»** إذاً يصرّ ك. بعناد على قناعته بأن الإنسان يستطيع في كل وقت وبحرية أن يصل إلى قوى الوجود العليا، وأنه يمكن دحض **الخبرات العامة** المعطاة وتجاوزها من خلال خبرات جديدة. إن ك. لا يستسلم أمام العادات التي تُفقد الأحاسيس. ومكابدة صاحبة النزل لم يسببها أحد آخر سوى صاحبة النزل نفسها، إنها طامّة نشأت من عدم القدرة على بذل جهود كامل الشخص الحر للإنسان.

على العكس من ذلك، فإن صاحبة النزل تحس الأمر **شيئاً مخجلاً** أن تقيم اتصالاً رسمياً

بين ك. وكلمّ. هكذا غائبة عن العالم ولا تُمسّ ومقدسة، تبدو لها الحالة العاطفية تلك التي يمثلها كلمّ. وهذه المرأة الضخمة تعتلّ لدى تصور انتصار ك. على كلمّ ـ في علاقته مع فريدا ـ ونظراً لمحاولاته الدؤوبة للوصول إلى كلمّ شخصياً. هذا يعني أن بنية العالم الآمنة برمّتها، التي تستقر عليها هذه المرأة، تبدو لها مهددة بهجوم ك. إن مسْح الأراضي هو فعلاً عمل ثوري.

في التضارب بين الحب الحسي والحب الشخصي

لكن بهذا تتوضح أيضاً التعقيدات بين فريدا وك.

إن ك. عاقد العزم على أن يتحدث قبل عقد قرانه مع فريدا مع كلمّ شخصياً **عن فريدا**، الأمر الذي لا تفهمه صاحبة النزل. هذا يعني أنه يريد الحصول على مباركة على زواجه، الأمر الذي كانت صاحبة النزل قد فوّتته بأن أُهملت **أن تسأل كلمّ**. لكن كذلك فريدا لا تستطيع أن تفهم هذا إطلاقاً. تقول موضحة: **إنها محض مستحيلات**. إذ إن كلمّ هو بالنسبة لها أيضاً ـ كما هو بالنسبة لصاحبة النزل ـ مجرد سلطة رسمية لا شخصية ولا مرئية. لهذا السبب بالذات هربت من كلمّ إلى الحب الفردي الشخصي، إلى ك.، على عكس صاحبة النزل التي ظلت طوال حياتها في إطار مشاعر عامة غير شخصية، لكن كذلك على نقيض ك.، الذي يسعى الآن إلى كلمّ يريد أن يسأله ويتحدث معه. كلمّ هو بالنسبة لفريدا ممثل حب فوق فرديّ: **من كلمّ يوجد هنا فيض، أكثر من اللازم من كلمّ، لكي أفلت منه، أريد أن أذهب**. لكنها مع ذلك مكتئبة لأن كلمّ هجرها. إن التناقضات تبدو غير قابلة للحل، بين فريدا وك. كما في فريدا نفسها.

تنشأ هذه التناقضات من طبيعة الحب نفسه. الحب هو دائماً لقاء مع شخص فريد في نوعه لا يُخلط بينه وبين غيره، إذاً ظاهرة فردية. لكن الحب هو في الوقت نفسه أيضاً ودائماً شأن تحدده قوى طبيعية حسية فوق فردية، أي إنه ظاهرة جماعية. كل من الظاهرتين يمكن أن تحجب الأخرى في لقاء الحب المحدد. كما يقال في المثل الشعبي، يمكن للحب أن يُعمي عن طبيعة المحبوب الحقيقية. يمكن لحبيبين أن يعيشا معاً طوال سنوات، وأن يكون كل منهما أعمى عن نفسه وعن حبيبه، تقوده ميول وأحاسيس تتحكم فيه بشدة وتحجب الماهية الخاصة للطرف الآخر.

لكن الحب يستطيع كذلك أن يكشف عن الذات الفردية وعن ذات الحبيب، لا بل هو في الحقيقة الذي يكشفها ويبرزها ويحققها. في ذات الحبيب تولد أيضاً ذات المحب، وتنقل إلى الواقع الحي، إلى الوعي. هذا هو معنى النظرة التي تستقر على ك. في لقائه الأول مع فريدا. عبر هذه النظرة يتعرف ك. نفسَه إلى حد ما، تنكشف له طبقات في ماهيته كانت مجهولة حتى الآن، وهو يبيّن هذه الطبقات في الحال، لا بل يذللها في خفة غير مفهومة ويفكّ كل ما

هو مرتبط بهذه الطبقة. **عندما وقعت هذه النظرة على ك. لاح له أن هذه النظرة قد أنجزت أموراً متعلقة به مازال نفسه لا يعرف بوجودها قط.**

لكن كذلك بالعكس تتحول فريدا بتأثير نظرة ك.، إذ إن ك. كذلك يسبر غور كفاحها. من خلال ك. تحصل طبيعة فريدا على شيء حر، مرح.

غير أنه يمكن لهذه النظرة إلى الذات أن تمرّ مرور الكرام على القوى فوق الشخصية التي هي كذلك تتحكم في الحب، ولا بد من أن تصبح فردية إذا كان على تحقق الحب أن يكون ممكناً.

هذا هو التوتر الذي لا يزول في لقاء الحب الأول بين فريدا وك. **«حبيبي! حبيبي الحلو!» همست، لكنها لم تمسّ ك. قط، كأنه مغمى عليها من الحب استلقت على ظهرها وبسطت ذراعيها، كان الوقت ولا ريب لانهائياً أمام حبها السعيد، طفقت تتنهد أكثر مما كانت تغني أية أغنية صغيرة.** في الشعور السعيد بالقرب من حبيبها يزول الزمان والمكان بالنسبة لها، يُغمى عليها بتأثير الحب، لم تمسّ ك. قط، راحت تتنهد أغنية صغيرة بتأثير السعادة. إنها قريبة للغاية من ذات ك.، لكن بالذات هذا القرب هو بُعد من ك. الحقيقي، الذي يظل كذلك ساكناً في أفكاره، إنه هو أيضاً مرتبط بها روحياً على نحو لانهائي ومع ذلك بعيد كل البعد بسبب هذا الارتباط بالذات. كل فرد غارق في نفسه، قريب من الآخر روحياً، صحيح، لكن ما من أحد منفتح للآخر حقاً. كل منهما في مجاله، هي في أغنيتها، هو في أفكاره.

من ثم يحدث التحوّل: **من ثم هبّت مذعورة، إذ ظل ك. ساكناً في أفكاره، وبدأت تسحبه مثل طفل: «تعال، إننا نختنق هنا تحت»، تعانقا، الجسد الصغير احترق بين يديّ ك.، تدحرجا في إغماءة، راح ك. يحاول باستمرار لكن عبثاً أن ينقذ نفسه منها.**

إن حالة القرب الروحي لم تكن حالة مكشوفة يمكن للمرء أن يتنفس فيها بحرية، بل تهدد بأن يختنق المرء فيها. فريدا تتخلص من ذلك. **مثل طفل بدأت تسحبه.** إن قوى كلمّ فوق الشخصية تثبت حقها. المساعدان الطفليّان، رسولا كلمّ، الحاضران هذا العناق في **خدمة كلمّ**، دون علم ك.، يصفهما ك. بحق أنهما القوى الفعّالة حقاً. حين يبصرهما بعد العناق، يستحوذ عليه الشعور **وكأنهما السبب في كل شيء.**

هذه القوى تضع فريدا وك. في حالة **فقدان وعي**. صحيح أنها تقرّب أحدهما من الآخر جسدياً، لكن مع خسارة كل منهما لذاته. عبثاً يحاول ك. إنقاذ نفسه من حالة فقدان الوعي هذه. **هناك انقضت ساعات، ساعات من الأنفاس المشتركة، ومن خفقات القلب المشتركة، ساعات كان يستحوذ فيها دونما انقطاع على ك. الشعور بأنه يضلّ طريقه أو أنه يوجد في الغربة بعيداً هكذا كما لم يكن إنسان قبله، غربة لا يملك فيها حتى الهواء عنصراً من هواء الوطن، غربة لا بدّ للمرء من أن يختنق فيها من عمق الوحشة والتي لا**

يمكن للمرء أن يفعل شيئاً في إغراءاتها العبثية سوى أن يواصل الذهاب وأن يواصل ضلال الطريق.

إن المرء مهدد بأن يختنق كذلك في فقدان الوعي هذا. في كل من المجالين لا يستطيع الإنسان أن يتنفس حقاً. هذا هو معنى الصورة التي تظهر لدى كافكا مراراً وتكراراً أن الإنسان الفرد إنما لا يقوى على التنفس في هواء الموظفين، كما أن الموظفين كذلك إنما لا يقوون على التنفس في هواء الأفراد. كلا العالمين، عالم الموظفين وعالم الفردية، يشكّلان وجوداً بشرياً تامّاً لكن لا يمكن توحيد المجالين.

طبقاً لذلك، ينتج عن هذا اللقاء الأول مساع وأوضاع مشاعر متناقضة في نفس فريدا وك. حين يصدح صوت كلمّ إلى داخل عناقهما وينادي على فريدا، تريد أولاً **في امتثال غريزي ... أن تقفز، غير أنها من ثم تذكرت أين هي... ضحكت بهدوء وقالت: «لن أذهب طبعاً، أبداً لن أذهب إليه.»** في اللحظة حين تتذكر وتصبح هادئة، تدرك مرة أخرى فرادة حبها لـ ك.، تريد بالضرورة أن تخصه وحده ولا أحد غيره، تريد كسر سحر القوى فوق الشخصية التي تربطها بكلمّ. تلغي **الامتثال الغريزي** لكلمّ، الذي هدد أولاً أن تخضع له مرة أخرى عند ندائه لها. إن تذكّرها يحررها من كلمّ بوعي كامل.

بيد أن الوعي المعزول عاجز وينخدع بالقوى الحقيقية للحياة. في وجودها الحقيقي تظل فريدا مرتبطة بكلمّ. كان كلمّ في نهاية المطاف هو الذي تبعته حين كسرت النفوذ العازل لحبها الفرديّ الذي لا حول له ولا قوة من فرط سعادتها وعانقت ك. كلمّ كان قد جمع بين الاثنين. لذا فإنها تظل دائماً تحت نفوذ كلمّ والمساعدَين. ويتعيّن عليها كذلك البقاء فيه ما ظلت امرأة عاشقة.

على النقيض تماماً يشعر ك. هو الذي يأتي من وضع لا قرار له والذي كان في العناق يستحوذ عليه الشعور بأنه يضلّ طريقه، يفقد نفسه في الغربة، يخون نفسه ويخون كفاحه لقوى مجهولة، يعيش الأمر بمعنى الكلمة **كعودة إلى الوعي مريحة، حين نودي على فريدا من غرفة كلمّ بصوت آمر ـ لا مكترث.** إن نداء كلمّ مريح له ويواسيه؛ لأن هذا النداء يمنح لأول مرة صوتاً للقوى المجهولة بالنسبة لـ ك.، المغرية والمثيرة للاستلاب في آن. محادثة هذا الصوت خليقة أن تعني كسب وجود حسي وذهني في آن. حين ترفض فريدا أن تتبع الصوت، **أراد ك. أن يعترض على ذلك، أراد أن يدفعها للذهاب إلى كلمّ. لكن من طرف آخر ـ وهذا هو التناقض الداخلي في ك. ـ كان في غاية السعادة أنه يمسك فريدا بيديه، أيضاً سعيداً شديد الخوف كان إلى أقصى درجة، إذ بدا له أنه إذا تركته فريدا، يتركه كل شيء يملكه.**

إن شخصية فريدا هي الشيء الوحيد الذي يملكه. كما أنها الشيء الوحيد الذي يحمله، يمنحه مدخلاً للحياة، لقوى الوجود المقرّرة. لذا يتعيّن عليه من طرف سعيداً شديد الخوف أن يحتفظ بها لنفسه، لنفسه وحده. لكنه ينبغي عليه، من طرف آخر، أن يفهمها بصفتها أيضاً وسيطة لكلمّ، أن يرسلها إليه، إلى تلك السلطة المهيمنة التي يرتبط بها وجوده، والتي بدونها لا يمكن القيام بقياسات ومسح أراض. لكن إذا تركته، فإنها تعود متيّمة كلياً بكلمّ، من ثم يضيع هو كذلك. فقدان وعي حسي وإدراك فردي متدبر يجب أن يجتمعا في الحب. هذه هي المعضلة.

صاحبة النزل تعبّر عن الوضع ذات مرة بلسان فريدا ـ التي تكرر كلماتها ـ كما يلي: ك. لا يحب فريدا نفسها قط، بل يستخدمها رهينة وحسب، مطيّة، لاكتساب أرضية تحت القدمين والوصول إلى كلمّ. وطبقاً لذلك تصاب فريدا بذعر عندما تسمع من ك. أنه قبل أن يعرفها كان يضلّ طريقه في القرية. من هذا يتعيّن عليها أن تستخلص أن ك. لا يحبها إلا لكي يحصل من خلالها على فضاء وجود. توضح فريدا قائلة: «**لكن عندما سوف ترى من ثم، هكذا استنتجت صاحبة النزل، أنك خُدعت في كل شيء، في افتراضاتك وفي آمالك، في تصورك عن كلمّ وعلاقاته بي، هنا يبدأ جحيمي، إذ هنا فقط سوف أصبح ملكيتك الوحيدة حقاً، ملكية تظل معتمداً عليها، لكن في الوقت نفسه ملكية أثبتت أنها غير ذات قيمة والتي سوف تعاملها على نحو مناسب، إذ ليس لديك شعور آخر لي سوى شعور المالك.**»

بهذا تكون صاحبة النزل الحكيمة التي تعرف خيبات الأمل قد صاغت إمكانية مخيفة للحب والزواج: كل حب يوقظ أملاً بإمكانية وجود جديدة أكثر سعادة. ولذا يمكنه لدى خيبة مثل هذا الأمل أن ينقلب إلى جحيم. ك. نفسه يعترف بذلك: «**كل ما تقولينه هو صحيح بمعنى ما، إنه لا ينافي الحقيقة، إنه عداء وحسب. إنها أفكار صاحبة النزل، عدوّي، حتى عندما تظنين أنها أفكارك الخاصة بك، هذا يواسيني. لكنها مفيدة، ما زال يمكن للمرء أن يتعلم بعض الأمور من صاحبة النزل.**»

غير أن ك. يصوغ من ثم الإدراك المنقذ: **لكن الآن تأملي يا فريدا: حتى لو كان كل شيء هو بالتمام والكمال كما تقول صاحبة النزل، فإنه ليس من شأنه أن يكون سيئاً جداً إلا في حالة واحدة، ألا وهي إذا كنت لا تحبينني. من ثم، الآن من شأن الحال أن يكون فعلاً هكذا، أنني كسبتك بحساب وحيلة كي أستثمر هذه الملكية ... لكن إذا لم تكن الحالة السيئة، وإذا لم يكن وحش كاسر ماكر استحوذ عليك آنذاك، بل أنت اقتربت مني كما اقتربت أنا منك وعثر كل منا على الآخر، كل منا منكر لذاته، قولي، فريدا، كيف هو الحال إذاً؟ إذاً أدير مسألتي مثل مسألتك، هنا ما من فرق، بل لا يمكنه أن يكون إلا عدوّة.**

يدرك ك. أن الموضوع في كفاحه إنما يدور حول فريدا وحوله، أنه لا يمكن ولا يجوز التمييز هنا. إن الحب هو إيضاح متبادل وتكامل. ولا يجوز الإيقاع بين الحالين إطلاقاً.

مأساة الحب غير المتماثل

لكن لا يمكن لفريدا ولا لـ ك. أن يثبتا وجودهما أمام هذا الحب وأن يتحكما في تناقضاتهما.

تريد فريدا أن تحقق حبها الفردي لـ ك. في حرية بلا عالم، الأمر غير الممكن سوى في حلمها بالقبر، هذا يعني أنه غير ممكن. في الوقت نفسه إنها لا تستطيع التخلص من سحر المساعدَين، رسولي كلمّ، مهما كانت أيضاً تصدّهما. **بوجه مقلّص من اللطف إزاء المساعد وعجز متوسل باتجاه ك. ظلت بابتسامة مصطنعة** حبيسة تناقضاتها.

لا تستطيع فريدا لا أن تتحكم في مجال المساعدَين المغري ولا أن تفهم فعلاً فردية ك.، الذي تظل دروبه إلى أسرة برناباس غريبة عليها كل الغرابة وغير مفهومة، لا بل مكروهة. إنها تستسلم بلا تروٍّ لسعادة القرب من ك. كما تستسلم للسعادة التي تشع من قوى كلمّ فوق الشخصية. إنها تجمع بين الحالين، وتبدو بهذا أنها تتمكن من تحقيق حب حقيقي. تعتقد ـ من ناحيتها بحق ـ أنها تستطيع أن تصبح سعيدة مع ك.: «**إن حبي لك كفيل أن يهوّن عليّ كل شيء، كفيل في نهاية المطاف أن يحملك أنت أيضاً إلى الأمام، إذا لم يكن هنا في القرية، ففي مكان آخر، كان حبي لك قد قدم دليلاً على قوته، لقد أنقذك من أسرة برناباس.**»

لكن هذا بالذات هو خطأها؛ إنها لا تحدس أن المسعى الدؤوب لـ ك. إلى أسرة برناباس إنما يخص بالضرورة كفاحه، أن ك. إنما يتبع هنا القانون الداخلي لفرديته. إذ إن أماليا هي المرأة الوحيدة في القرية التي قاطعت حقاً فئة الموظفين، وذلك نتيجة إدراك واضح: هي وحدها **كانت تقف وجهاً لوجه مع الحقيقة وتعيش وتحتمل هذه الحياة.**

لذا فإن نبذ هذه الأسرة بسبب مقاطعة أماليا للموظفين مقاطعة واضحة مدرِكة ذو أهمية قصوى بالنسبة لـ ك. فهو يرى في هذا النبذ أقصى إمكانية للكفاح الحق.

لكن فريدا تقاطع كلمّ دون إدراك ذهني. إنها تتبع ك. بالفطرة وحدها وتستسلم له مغمى عليها من فرط السعادة. لذا فإنها في الحقيقة لا تقوى على مقاطعة كلمّ قط، فتبقى في مجال سحره. غريزتان، وليس إدراكان، تتنازعانها.

حلمها بأن تستريح مع ك. وحده في القبر يعبّر عن يأس توقها إلى ك. جاذبية المساعدَين لها وصدّها اليائس لهما هما من ناحية أخرى أشكال تعبير عن الإغماءة الذهنية نفسها.

بكلمات أخرى: حب فريدا هو حب كل امرأة عادية، بلا انقطاع، هارموني، دون مجهود متدبر، تتبع شعورها المباشر الحقيقي، هكذا تحبه وترى أنها تستطيع معه تأسيس بيت زوجية.

غير أنها تضطرب حين يسعى ك. بطريقة لا تفهمها ومتجاوزاً لها إلى لقاء شخصي مع كلمّ، وحين يقوم بزيارة أسرة برناباس التي تكرهها والتي تريد أن تنقذ ك. منها بالذات. إذ في أماليا وفي أسرتها لا يوجد بعد الآن أية سعادة مباشرة إطلاقاً. هنا تمزق كل رباط مع الحياة والحب. هنا لا يستطيع ك.، حسب رأي فريدا، إلا أن يكون غير سعيد.

الزواج البورجوازي العادي كشكل عبثي من أشكال الوجود

كذلك «بيت الزوجية» الذي تؤسسه مع ك. هو ـ مهما بدا ذلك غريباً ـ صورة منعكسة لبيت الزوجية العاديّ جداً. ك. يستسلم لواجبات العمل بصفته خادم مدرسة، فريدا تحاول بحب مؤثّر أن تدبر شؤون بيتها كي يصبح مريحاً وجميلاً ونظيفاً. لكن بالذات من خلال مهنة ك.، ومن خلال أعمال فريدا المنزلية يقتحم العالم الخارجي الحياة الشخصية باستمرار.

إن التصوير غير الواقعي الذي يبدو عبثياً أن غرفة نومهما وغرفة سكنهما هي غرفة صف مدرسة عمومية بأدوات رياضة يجب عليهما إخلاؤها كل صباح من أجل إعطاء دروس عامة فيها، هو التعبير المجسم عن حقيقة تظل مخفية في الحياة الخاصة البورجوازية المرئية، ألا وهي حقيقة أن الناس إنما يقتحمون الأسرة بلا توقف، وغالباً دون وعي هذه الأسرة، ويحوّلون كل حياة خاصة حقيقية إلى وهم. إن ما يسمى سعادة الأسرة هو خداع ذاتي للمواطن: إن الدولة والمجتمع يؤثّران على الدوام داخل الأسرة، سواء عبر العمل المهني للرجل، أو عبر عمل المرأة المنزلي، هذه المرأة التي ترتبط بمحيطها، أو كذلك عبر تشريعات السلطات.

إرهاب المرأة المستقيمة

إنه لأمر مميّز أن المعلمة غيزا بالذات، المتزمتة **ومشدودة القامة**، هي التي تزعج حياة المحبين الخاصة. إنها تصيح قائلة: **«أسرة حاجب مدرسة تتمطى في أسرّتها حتى الضحى. يا للعار!»** وك. يثبت: **«لكن لم يكن ثمة هدوء في أية لحظة» ... وهما ما زالا لم يكملا ارتداء ملابسهما طفق ك. وفريدا وهما يستندان إلى المتوازيين يتفرجان على تحطيم متاعهما القليل.**

المعلمة غيزا هي واحدة من تلك النساء اللواتي يعتبرن ـ ظاهرياً على الأقل ـ الاستقامة ذات قيمة كبرى. وهي امرأة **كانت طبيعتها الخاملة، إذا تحولت إلى العنف أحياناً، تتجاوز كل الحدود، لكن لم تكن خليقة أن تقبل مطلقاً شيئاً مشابهاً لدى آخرين في وقت آخر.**

بسبب تزمتها الكاذب الشاذ، فإنها المرأة الوحيدة في القرية التي تنقلب لديها العلاقة بين القرية والقلعة. لقد خضعت لشفارتسر، وهو ابن أحد أمناء القلعة، الذي يروح يتسكع في القرية وهو غارق في حب ميئوس منه. من خلالها يجري إفساد وتشويه وقلب القوى المقررة.

إن اغتصاب شرائع المجتمع للغرائز والأنظمة الطبيعية يفضي بالذات إلى سيطرة القوى الأرضية الدنيا على الهيئات الذهنية المتدبرة والمراقِبة، المتمثلة في القلعة. إن شرائع المجتمع تمارس سيطرة إرهابية وتستبدّ، مع أنها غير قادرة على تشكيل عالم الغرائز على نحو صادق، الأمر الذي يتوضح في الانفجارات العنيفة لعواطف غيزا، التي **تتجاوز كل الحدود**. إن الأمر المميّز أن شفارتسر الخاضع لها هو بالذات الشخص الذي نازع ك. لدى دخوله إلى القرية على إقامته في المطعم وفي القرية. في الحقيقة إنه ليس مخوّلاً من قبل القلعة أن يواجه ك. بمثل هذه الطريقة الوقحة. في غيزا وشفارتسر يتبيّن مطلب الهيمنة غير المشروعة لقواعد وشرائع المجتمع الخارجية على كامل حياة الإنسان الفكرية والفيزيائية. لذا فإن غيزا هي المتسوّدة الحقيقية على حياة فريدا وك. الخاصة. إنها تدخل إلى حياتهما العائلية مباشرة وتلغي بيتهما الزوجي. إذ إن القواعد التقليدية في المجتمع تقرر كل وجود مواطني. إلى داخل ليالي فريدا وك. تدخل سلطتها التي تتمثل في قطتها العجوز الخاملة والتي تجرح غيزا ك. بمخالبها.

مساعدا ك. وعالم القوى الطبيعية في الكون والمجتمع

كذلك المساعدان، رسولا كلمّ، يزعجان حياة فريدا وك. الخاصة.

إنهما المساعدان **القديمان**، اللذان أحضرهما ك. معه من وجوده السابق إلى القرية، ومع ذلك هما المساعدان الجديدان اللذان أرسلهما غالاتر له وهو ينوب عن كلمّ. هذا ليس تناقضاً؛ إذ إن المساعدين يمثلان قوى طبيعية حيوية توجد في كل إنسان على الدوام. وعليه أن يلتقيهما هنا مرة أخرى ويعيهما. وإذ إنهما قوى فوق فردية، جماعية، فإنه لا يستطيع التمييز بينهما، إنهما **متماثلان مثل الأفاعي: لا أرى إلا بعينيّ، وبهما لا أستطيع التميز بينكما. لذا سوف أعاملكما كرجل واحد وحيد.** عملهما **الأهم هو أن يقوما بتسليته بعض الشيء.** لا بدّ لـ ك. من أن يحس هذا إزعاجاً، تحويل نظر عن كفاحه. تسليتهما له خليقة أن ترغمه على الدخول في خدمة كلمّ وتحرمه من لقاء حر مع كلمّ. لذا فإنهما بالفعل مغريان يتعيّن عليه أن يقاوم إغراءاتهما.

من طرف آخر يبدوان أنهما يمثلان ذلك شكلاً من أشكال الوجود، الشكل السعيد على نحو طفولي وبلا هدف، هذا الشكل الذي بدونه لا يكون وجود إنساني ممكناً. يشعر المساعدان أن خدمتهما إنما **هي عمل قاس**. من الغريب أن ما يبدو طفولياً في طبيعتهما إنما يقع تحت إكراه. إن الأمر جهد ثقيل بالنسبة لهما، في حين أنهما على العكس من ذلك يعتبران كفاح ك. الجدّيّ أمراً طفولياً غير حكيم، ويعلنان: **أنه من الجائر جداً أن تقوم عابثاً، على نحو صبياني تقريباً، بتصعيب العمل على العامل.**

هذا يعني إذاً: لا ينتمي المساعدان إلى مجال بدئيّ على نحو طفولي خال حقاً من هدف.

إنهما في الحقيقة، كما يتبيّن لاحقاً، **أكبر سناً**، لا بل إن شكلهما **غير الشهيّ جداً** يتألف من لحم كان أحياناً **يعطي الانطباع كأنه غير حيّ بالمعنى الصحيح ... الوجنتان الداكنتان محمرّتان لكن كأنهما تتكونان من لحم مترهل**. إن فتوتهما، طفوليتهما، مرحهما، ما يسحر فريدا فيهما، لا يظهر إلا عندما يمارسان خدمتهما لدى ك. خارج الخدمة هما رجلان متقدمان في السن، متداعيان، لا يتصفان بحيوية. «**إنني لم أعد شاباً!**» يقول يرمياس.

بيد أنهما يتقدمان في السن فقط عندما يعتمدان على نفسيهما ولا يكونان على اتصال مع زملائهما: «**الحال هكذا لأني وحدي ... أكون وحدي، فينقضي الصبا المرح.**» فقط كمخلوقات جماعية يظلان شباناً أصحاء.

إنهما يتحدران من القلعة. جميع الخدم في القلعة يشابه بعضهم بعضاً: «**خادم يشابه الآخر.**» وعلى خلاف سادتهم ليس لديهم هناك سوى **خدمة سهلة**. «**في الحقيقة جلّهم ناس هادئون، الخدمة السهلة رفّهتهم وجعلتهم متثاقلين، هناك دعوة بركة لدى الموظفين تقول 'علّك تنعم بما ينعم به خادم'. وفعلاً إن الخدم، في ما يخص حياة النعيم، هم السادة الحقيقيون في القلعة؛ كما أنهم يعرفون كيف يقدّرون هذا وهم في القلعة، حيث يتحركون تحت قوانينها، يتّسمون بالهدوء والوقار.**» هذا يعني إذاً أنهم في القلعة يمثلون الحياة المباشرة غير المتروية في إطار القوانين والأنظمة الطبيعية فوق الإنسانية. لذا فإنهم هناك هادئون متثاقلون يمارسون أعمالاً سهلة.

يتغير هذا حالما يدخلون إلى المجال البشري. فإما أن يتحولوا من ثم مثل خدم كلمّ إلى **جماعة متوحشة، عنيدة، تسودها، بدلاً من القوانين، غرائزها التي لا تروى. قلة حيائها لا تعرف حدوداً**؛ إذ فقط عندما تدخل القوى الغريزية، التي تقف تحت قوانين طبيعية صارمة، إلى مجال الوعي البشري الحر، يصبح التحول إلى عدم الارتواء وقلة الحياء ممكناً. وإما أن يصبحوا **منفعلين بعض الشيء ومدهوشين** مثل المساعدين من ناحية ك. المكافح عن وعي والذي لا يريد، على العكس من أهالي القرية، أن يستسلم للقوى الغريزية. إنهما لا يستطيعان أن يستشعرا، وهما في خدمته التي لا يفهمانها، إرادته ومقاصده، ويريان أنهما يخدمانه بأن يراقباه دون انقطاع من خلال أصابعهما وكأنهما مناظير، وأن يظلا يلاحقانه على الدوام. إنهما مثل انعكاسات غريزية طبيعية لا إرادية للإنسان تفرض نفسها مراراً وتكراراً ضد إرادته وضد معرفته، تحوّل أنظاره عن كفاحه الواعي. هنا يكمن سحرهما بالنسبة لفريدا كما هو خطرهما عليها فيما يتعلق بحبها لـ ك.

المعونة التي تمنحها القلعة لمسّاح الأراضي من خلال المرافقين اللذين ينشران فرحاً وتسرية، هي ذات طبيعة تحمل معنيين على الأقل. يمكن فهمها انتقاداً حاداً لمساعي عالم البالغين إعطاء

حياتهم من خلال المرح والانبساط مسحة من الحيوية، التي لا يمكنها أن تكون طبيعية، وذلك لأن البالغين لم يعودوا أطفالاً ولا يمكنهم أن يستشعروا فرحاً وراحة بال إلا عبر درجة من الوعي أكثر نضجاً يتداخل فيها الفكر والحياة وتصبح الحكمة والفرح شيئاً واحداً.

بيد أنه يمكن للمرء أن يرى في هذين المساعدين صورة عن وقوع كل ما هو أرضيّ في قبضة الموت، عن سيادة الغراف فستفست.

مع ذلك لا يمكن تفسير المساعدَين أبداً على نحو قاطع كمعونات إيجابية. حتى فريدا ترى ثنائية وإشكالية طبيعتهما: **«مبعوثا كلمّ، بالتأكيد»، قالت فريدا، «ولو كانا هذا، مع ذلك هما في الوقت نفسه ولدان صبيانيان ما زالا يحتاجان في تربيتهما إلى الضرب. ما أبشع هذين الفَتَيَين وأشدَّ سوادهما، وما أبشع التناقض بين وجهيهما، اللذين يدلّان على أن صاحبيهما بالغان، لا بل على أنهما من الطلاب تقريباً، وتصرفهما الطفولي ـ الغبيّ. هل تظن أنني لا أرى هذا؟ إنني لأخجل لوجودهما. لكن هذا هو الحال طبعاً، إنهما لا ينفّرانني، بل أخجل لوجودهما. يجب عليّ دائماً أن أنظر إليهما. إذا انزعج المرء منهما، يجب عليّ أن أضحك. إذا ضربهما، يجب أن أمسّد شعريهما.»**

يُستخلص من ذلك أن المساعدَين لا يمثلان في الحقيقة شيئاً آخر سوى مزيج من فناني إغواء، الأمر الذي يعبّر عنه في إزعاجاتهما لفريدا، ومهرجين غير خطرين، لكنهما يلعبان **كما يلعب كلب جائع ومع ذلك لا يجرؤ على القفز إلى الطاولة.**

إن حيويتهما الاصطناعية الآلية، التي يريدان بها تسهيل حياة ك.، هي إذاً في الحقيقة مجرد انعكاس بقايا حيوية توجد في ك. كما في كل إنسان طبيعي. إنها بقايا وحسب، إذ إن سذاجة الحياة الطفولية أو الحياة الكونية ـ الطبيعية لم تعد موجودة في الإنسان الذي تذوق من شجرة المعرفة. هذه الحيوية البدئية تتمظهر إما كما لدى سكان القرية كغريزة تنفجر في وحشية أو كما لدى ك. وفريدا على شكل حيوية أحدثها المساعدان اصطناعياً عليها تسهيل الحياة اليومية وتسلية صاحبها.

كذلك في المساعدَين صوّر كافكا إذاً مظاهر «طبيعية» من مظاهر حياتنا. ولذا فلا غرو أن فريدا بإحساسها الأنثوي الطبيعي إنما تكشف من طرف سلوك فنانيّ الإغواء المرحين وتخجل من هذا السلوك، لكن من طرف آخر تسحرها تسلياتهما ولا تستطيع التهرب منهما. إنهما أكثر إغراء من كفاح لا يلين وغير مفهوم في نهاية المطاف يقوم به شخص مثل ك.

الشقاق بين الحب الطبيعي والطموح الذهني

إذ إن ما يسعى إليه ك. أصلاً لا يمكن لفريدا ـ على الرغم من حبها الخالص له ـ أن تدركه على نحو تامّ. إن أحاسيسها الطبيعية تقع على نحو شديد تحت تأثير عالم كلمّ. ومطالب ك. عالية

فوق الطاقة. لنتذكر رسائل كافكا إلى ميلينا، التي تقف وراء حدث ك. ـ فريدا، مثلاً عندما يكتب لها كافكا: **لا أستطيع إفهامك ولا إفهام أحدكيف هو الحال فيّ ... الأمر الرئيسي واضح: في المحيط حولي من غير الممكن العيش على نحو إنساني. إنك ترين الوضع وما زلت لا تريدين أن تصدقيه؟** أو في رسالة أخرى إلى ميلينا: **إذا أردت إذاً أن تتخلي عن العالم برمّته، لكي تنزلي إليّ إلى أعماق لا تعودي ترين فيها شيئاً بعد الآن، فإنك في سبيل هذا الهدف ـ يا للغرابة، يا للغرابة! ـ ليس عليك أن تهبطي، بل أن تصعدي فوق نفسك بطريقة فوق إنسانية، بحيث يكون لا بدّ لك ربما من أن تتمزقي، تقعي، تختفي (وأنا طبعاً معك).**

لا تستطيع فريدا أن تكون ندّاً لـ ك. على الرغم من تلك النظرة المتفوقة التي أصابت ك. في أعمق أعماقه وربطته بها إلى الأبد، على الرغم من هذه النظرة التي سحرت كافكا في لقائه مع ميلينا. لكن بالذات بسبب هذه النظرة يتعيّن على ك. أن يكافح في سبيل فريدا كما في سبيل هواء حياته. وفريدا نفسها ظلت تحب ك. فبعد عودتها إلى حانة السادة تقول له: «**لو كنا فوراً في تلك الليلة قد هاجرنا، لكان في مقدورنا أن نكون في أمان في مكان ما، دائماً معاً، يدك قريبة دائماً على نحو كاف كي أمسكها؛ ما أعظم حاجتي إلى قربك، أنا حقاً، منذ أن عرفتك، بدون قربك؛ مهجورة؛ قربك، صدّقني، هو الحلم الوحيد الذي أحلمه، ولا أحلم غيره.**»

بيد أن فريدا لا تقوى على تحمّل عالم ك. على الدوام. لا بدّ لها من أن تعود إلى الدخول في عالم كلَمّ. عندما تعود إلى المشرب تنظر إليه **باستغراب ودهشة. كانت تحدق به وحسب. ك. طفق يحث متفحصاً في عينيها.** إنه لا يعثر فيهما بعد الآن على النظرة السابقة، **بيد أن موقفها الجامد لم يكد يلين ... كان الحال كأنها نسيت مظهره وتريد استرجاعه إلى الوعي، كما كان في عينيها تعبير مقنّع عن التذكر الشاق.**

إن التعقيدات التي تعيق تحقيق هذا الحب تنشأ من درجات الحياة والوعي لفريدا وك. يجب على فريدا أن تهجر ك. لسببين:

١ ـ ك. يهدد الحياة نفسها. للأمر معنى عميق أن فريدا إنما ترى مهمتها الأولى رعاية المساعد المريض المضروب والمطرود إلى البرد والعمل على شفائه. إن صدّ ك. للمساعد هو بالنسبة لأحاسيسها الأنثوية خطيئة بحق الحياة نفسها. على الرغم من كل التحفظات التي تضمرها ضد المساعد، فإن ك. يدمر عالم أحاسيسها الساذج المباشر، هذا العالم الذي لا تستطيع بصفتها امرأة أن تعيش بدونه. إذ إنها في المساعد تحب قبل كل شيء عالم الطفولة الآمن، كل ما يحمل الإنسانَ من جذوره: «**لقد جذبني، إنه زميلي في اللعب من أيام**

الطفولة ـ كنا نلعب معاً على سفح جبل القلعة، كانت أياماً جميلة، إنك لم تسألني قط عن ماضيّ.» كما أنها ترى محاولات المساعد الظاهرية لإغرائها إنما كانت في الحقيقة مجرد لعب. إنه لم يجرؤ قط جاداً أو يشأ أن ينتزعها من ك. في الحقيقة ثمة ذنب على ك. في سوء معاملته للمساعد. إنه يغفل، لا بل يغتصب فضاءً في الإنسان لا يجوز أبداً تنحيته جانباً إذا كان على الوجود الإنساني أن يظل طبيعياً وحيوياً. من طرف آخر، فإن ذنب ك. حتميّ، إذ إن فضاء القوى الطبيعية لا يتواءم مع كفاح ك. فقط على درجة عليا، حين يكتسب ك. نظرة كاملة عن القلعة، يمكنه التصالح مع هذا الفضاء.

٢ ـ يتحالف ك. مع حثالة البشرية: مع أولغا، التي تعمل مثل مومس: «**منذ أكثر من عامين أمضي الليل مع الخدم في الحظيرة مرتين في الأسبوع على الأقل**»؛ ومع أماليا، **الأكثر ممن لا تعرف الحياء**، التي قطعت كل اتصال مع الموظفين. يبدو إذاً أن فريدا إنما تستنكر أسرة برناباس المنبوذة لأن هذه الأسرة تقف بمعنى مزدوج خارج كل عالم **طبيعي**، إنساني بالمعنى الذي تراه فريدا. لم تعد أماليا تشارك في عالم المشاعر والعالم الذهني المألوف. وقطيعتها مع الموظفين لا تعني شيئاً آخر. وترى فريدا في أولغا قوى الوجود الغريزية. وفي ازدراء أيضاً تنظر فريدا إلى برناباس ووالده لأنهما على الدوام يقدمان التماسات يائسة، مهينة وبلا جدوى، يتوسلان فيها الوصول إلى الموظفين، في حين أن سكان القرية، بمن فيهم فريدا، إنما يقفون في علاقة بديهية للغاية ودون تأمل مع قوى الوجود تلك التي تتمثل في الموظفين.

من ثم لا تستطيع فريدا أن تنظر إلى سعي ك. إلى هذه الأسرة إلا باشمئزاز، وتظن أنه عليها أن تنقذه منها. بالنسبة لشعورها الطبيعي فإن ك. يضيع كلياً إذا خالط هذه الأسرة. بهذا يخون ذاته الفضلي، وبهذا كذلك الأكثر قدسية التي تحبها فريدا فيه. «**كل شخص سوف يريد على نحو من الأنحاء أن يُظهر بعامة أنه إنما يزدرينا**»، **تقول أولغا**، «**وإذا لم يفعل ذلك، فإن عليه على ما يبدو أن يزدري نفسه.**» هذا هو رأي فريدا فعلاً. إن علاقة ك. بأسرة برناباس هي بالنسبة لفريدا خيانة لنفسه ولحبه لها.

هذا هو السبب الحقيقي لعودتها إلى المشرب. إنها لا تستطيع شيئاً آخر. بهذا لا تتبع سوى القانون المقدس لحبها. إن فراقها لـ ك. هو بالذات تسويغ حبها له. بابتعادها عنه تظل وفية له في أعمق أعماقها. إنها تحبه إلى الأبد مهما فعل ومهما كان فعله يعد كل حب حقيقي له.

على النقيض تماماً من ذلك يشعر ك. أنه يتعيّن عليه بالذات بسبب حبه لفريدا أن يذهب إلى أسرة برناباس: «**ينبغي عليّ أن أذهب، بسبب مستقبلنا المشترك، كما تعلمين.**» صحيح أنها لا تعرف الأمر بتاتاً. لكن عليه أن يفترض ذلك. إنه لا يستطيع أن يتصور أن فريدا لا تقوى على فهم أعمق أسرار كفاحه وبهذا أسرار نفسه. بالنسبة له لا يمكن أن يوجد وجود معطى دون تأمل وتدبر. عليه أن يثبت نفسه أمام قوى الوجود على نحو شخصي وحر وناقد.

هكذا وحسب يمكن لحبه أن يصل إلى الكمال. الالتماسات بالذات وجهود أسرة برناباس التي لا تكلّ ولا تملّ للوصول إلى سدنة القلعة تعكس ولا ريب جهود ك. نفسه. وكذلك رفض أماليا الراديكالي للموظفين هو جزء من العمل الثوري لمسّاح الأراضي. إنه لحظة من لحظات كفاحه، أو على الأقل إمكانية من إمكانياته. أولغا وأماليا تمثلان قطبي كفاح ذوَي معنى مزدوج: تِفان مكلف جهداً لانهائياً، وابتعاد ناقد وغير مُصالح ورفض الموظفين. في مقدور المسعيين إذّا ترابطا أن يؤديا إلى إيضاح الوجود الإنساني. لذا فإن توجّه ك. إلى أولغا وأماليا ليس في الحقيقة خيانة لفريدا، بل الشرط للوصول مع فريدا إلى مستقبل مشترك مكتمل.

يدرك ك. **أنه وجد هنا أناساً أحوالهم، ظاهرياً على الأقل، تشابه أحواله نفسه، استطاع أن ينضم إليهم إذاً، أن يتفاهم معهم في كثير من الأمور، ليس في بعض الأمور وحسب مثلما هو الحال مع فريدا.**

من هذا يتبيّن بوضوح أن مجال مدارك فريدا حسب رأي ك. محدود أكثر من مجال مدارك أسرة برناباس. أولغا وأماليا تريان أكثر مما ترى فريدا، والسبب هو بالذات لأنهما غير سعيدتين مثلها، ولم تعودا تعيشان في أمان واطمئنان مثلها: **صحيح أنه فقد تدريجياً الأمل بنجاح الرسالة البرناباسية، لكن كلما ساءت أحوال برناباس في الأعلى، اقترب منه هنا في الأسفل، لم يفكر ك. في يوم من الأيام أنه يمكن من القرية نفسها أن يبرز مثل هذا المسعى العاثر إلى هذا الحدّ كما كان مسعى برناباس وشقيقته.**

لذا فإن أولغا وأماليا ليستا هدفه. إنهما يسلمانه أسلحة في كفاحه وحسب. فريدا تظل هدفه كما كان. ك. يعتقد أنه يحب فريدا دائماً حباً لا يتزعزع.

الملخص: التناقضات بين فريدا وك. هي التناقضات بين امرأة عاشقة حقاً وعلى نحو مباشر، والتي توافق على قوى الوجود دون تأمل وتريد مصالحة هذه القوى، وتريد على نحو ساذج إعادة الهارمونية بين الحب الفردي والقوى الطبيعية فوق الشخصية من طرف، وبين رجل من طرف آخر يسعى إلى المطلق، ويحاول إثبات وجوده أمام قوى الوجود على نحو شخصي وحر، ويلقاها بعين ناقدة، ويأمل أن يتمكن من تحقيق هارمونية بين التسليم والابتعاد الناقد عبر أقصى ما يمكن من المدارك وعبر خبرة لا نهائية في الحياة والكفاح، ويصل إلى حالة يتشابك فيها على نحو تام التفكير والإحساس، المعرفة والشعور، اليقظة والنوم.

لا بدّ للطرق التي يجتازها ك. للوصول إلى هذا الهدف أن تشغلنا الآن: إن الموضوع يدور قبل كل شيء حول لقاء ك. مع أسرة برناباس ومع السكرتير بيرغل.

مطلب أماليا المطلق

أ ـ تفسيرات دينية خاطئة

قبل ثلاثة أعوام كانت أسرة برناباس تعتبر من الأسر الوجيهة في القرية. لقد نُبذت لأن أماليا رفضت مطلب الموظف سورتيني في رسالة **كانت مصوغة بأكثر التعابير ابتذالاً تضمنت دعوة للحضور إليه**، بأن قامت بتمزيق الرسالة وإلقاء القصاصات في وجه الساعي الذي حملها إليها. ولاحقاً كذلك لم تذهب إلى نزل السادة للتعرض لتحقيق رسمي من أجل التغطية على المسألة.

هذا المشهد هو من أكثر المشاهد في الرواية موضع خلاف بين النقاد. ماكس برود رأى في القلعة مسيّر الكون ومدبّره وفي الموظفين السماءَ. ما كان برود خليقاً أن يصل إلى هذا التفسير لو وعى الجملة التالية عن أماليا: **كانت تقف وجهاً لوجه مع الحقيقة وتعيش وتحتمل هذه الحياة**، أو الجملة الأخرى: **أما أماليا فإنها لم تحتمل المعاناة وحسب، بل كان لها أيضاً العقل اللازم لسبر غور هذه المكابدة، كنا نرى النتائج وحدها، هي كانت ترى القاع.**

عن أماليا ورد أنه **ما من مسافة** بينها وبين سورتيني **وما من شيء يجب تجاوزه.** كون أنه ما من فرق جوهري بين القرية والقلعة، هي فكرة تخترق الرواية بكاملها.

وكيف يمكن الجمع بين الألوهية المزعومة والعلوّ **السماوي** لسورتيني من طرف والملاحظة عن سورتيني لدى مشاهدته أماليا من طرف آخر: **توقف من ثم لدى أماليا، التي كان عليه أن يرفع نظره إليها، إذ إنها كانت أطول قامة منه بكثير.** مثل هذه التفاصيل بالذات هي أكثر جوهرية وتضيء أكثر من تفسيرات عامة صُمّمت على عجل. من هذه التفاصيل ومن دراسة النسيج الشعري بكامله ينشأ تفسير ذو معنى.

ماذا يحدث إذاً في الحقيقة في مشهد سورتيني ـ أماليا الغامض؟

ب ـ عقد العقيق المشؤوم

أولغا، التي نعلم الأحداث من فمها، توضح قائلة، الأمر الحاسم الذي أدى إلى نبذ أسرتها **كان ذلك الصباح** الذي مزقت فيه أماليا رسالة سورتيني. وتتابع قائلة: «**لكن كل لحظة من لحظات بعد ظهيرة اليوم الفائت كانت حاسمة بالمثل.**» لنتأمل **هذه اللحظات الحاسمة** في ظهيرة اليوم الفائت.

في هذه الظهيرة أقيم حفل إطفائية كبير على مرج أمام القرية حضره كذلك **موظفون وخدم** من القلعة. إذ كانت القلعة قد تبرعت بمطفأة جديدة كان يجب تدشينها، كما كان هناك نبيذ القلعة الحلو، الذي يخدّر أهالي القرية، كما **أن القلعة كانت فوق ذلك قد أهدت**

إلى جمعية المطافئ بضعة أبواق، آلات موسيقية خاصة كان في مقدور المرء بأقل جهد، طفل كان يستطيع ذلك، أن يحدث أكثر الأصوات صخباً؛ عندما كان المرء يسمع هذا، كان يظن أن الأتراك قد وصلوا إلى هنا. كل الشروط اللازمة لحفل شعبي صاخب مدوّ كانت إذاً متوفرة.

أماليا وأولغا انتظرتا الحفل **بسرور وشوق منذ أسابيع ... لا سيما ثوب أماليا كان جميلاً جداً**، كما بعامة كانت أماليا **تعرف كيف تخيط ثياباً جميلة جداً، لكن فقط لصاحبات الوجاهة**. هذا أمر جوهري فيما يتعلق بوصف أماليا. إنها تعدّ للوجيهات ثياباً جميلة جداً. نظراً للمعنى الرمزي الكبير الذي تملكه الملابس لدى كافكا دائماً، فإن هذا لا يعني شيئاً آخر سوى أن أماليا إنما توجد على درجة روحية وذهنية ممتازة على نحو خاص. كما أنها صنعت سترة شقيقها **قبل أن يكون ساعياً**، تلك السترة التي تسحر ك. هكذا لأنها تملك **نعومة وبهاء رداء من حرير. كان** (ك.) **قد ترك سترة برناباس الضيقة اللامعة مثل حرير تخلب لبه،** ويحس التناقض بين هذه السترة، التي تبدو له إشارة إلى فضاء أعلى حر، وبين **القميص الخشن المتسخ رمادياً المرقّع كثيراً**، الذي يرتديه برناباس تحت هذه السترة، والذي يعبّر عن حالة الضغط عليه في إطار الأسرة المنبوذة.

غير أن أولغا كانت آنذاك قبل حفل الإطفائية تحسد شقيقتها على ثوبها الجميل **وبكيت قبل الاحتفال طوال نصف الليل.** الأمر المثير أن صاحبة نزل الجسر بالذات تحضر صباح يوم الحفل **كي تتفقد** كلتا الفتاتين أماليا وأولغا، إذ كانت آنذاك تصادق أسرة برناباس ذات السمعة الطيبة للغاية **صداقة قوية**، في حين أنها لا تتحدث لاحقاً عن هذه الأسرة إلا بازدراء، مثلها مثل فريدا. **كان لا بدّ لها** (صاحبة نزل الجسر) **من أن تعترف بأن أماليا حظيت بأكثر مني** (أولغا)**، لذا أعارتني، من أجل تهدئتي، عقدها الخاص بها من عقيق.**

لهذا العقد من عقيق أهمية قصوى، إذ إن الرسالة خطيرة النتائج من الموظف سورتيني إلى أماليا **معنونة إلى الفتاة ذات العقد العقيقي**، دون مخاطبة بالاسم.

كيف جاءت أماليا إلى هذا العقد؟

أولغا تحكي: **إذ أصبحنا من ثم جاهزين للخروج، أماليا واقفة أمامي، كلنا معجبون بها والوالد قال: 'اليوم، فكروا فيّ، تحصل أماليا على عريس'، هنا، لا أدري لماذا، نزعت العقد، فخري، من عنقي، وعلقته بعنق أماليا، دون حسد بعد الآن أبداً.** إن العقد العقيقي ليس إذاً من ملكية أماليا، بل يخص صاحبة نزل الجسر، وهذه أعارته إلى أولغا وحسب. وأولغا من ناحية أخرى علّقته بعنق أماليا على نحو تلقائي، وذلك حين أعلن الوالد: «**اليوم، فكروا فيّ، تحصل أماليا على عريس.**» إن العقد العقيقي الأحمر ينتمي إذاً بلا أدنى شك إلى الفضاء الجنسي، إلى عالم كلَمّ، هذا العالم الذي يستأثر بصاحبة نزل الجسر.

لكن هذا العقد العقيقي لا ينتمي إلى فضاء أماليا. تروي أولغا: في اللحظة التي علّقت فيها العقد بعنق شقيقتها والوالد تكلم عن عريس مقبل لأماليا، مرّت **نظرتها العابسة، التي حافظت عليها على هذا النحو منذ ذلك الحين، فوقنا عالياً وكاد المرء ينحني أمامها فعلاً وتلقائياً.** كذلك لم تشارك أماليا في ملاهي الحفل. إنها الوحيدة التي لم تشرب من **نبيذ القلعة الحلو.** والمطفأة أيضاً لا تهمها. ما من شك أن كافكا قد اختار عن وعي المطفأة رمزاً جنسياً. **أماليا وحدها لم تهتم بالمطفأة، كانت تقف منتصبة بثوبها الجميل وما من أحد تجرأ أن يقول لها شيئاً، كنت أذهب إليها أحياناً وأتأبط ذراعها، لكنها كانت تلوذ بالصمت.** في هذه الحال تقع نظرة الموظف سورتيني عليها.

جـ ـ المستوى الذهني للموظف سورتيني

من هو سورتيني؟ يوصف بأنه رجل **غير اجتماعي، يعيش في عزلة تامة، وعلاقاته مع النساء على الأقل مجهولة. إنه رجل قصير القامة هزيل مشغول الفكر، ما لفت نظر كل من رآه أصلاً، كان الشكل الذي تتقطّب فيه تجاعيد جبينه، كل التجاعيد ـ وكانت كثيرة، مع أنه بالتأكيد لا يزيد سنّه على الأربعين عاماً ـ كانت تمتد مباشرة على شكل مروحي على الجبين باتجاه جذر الأنف، إنني لم أر قط شيئاً من هذا القبيل.**

سورتيني هو إذاً ذو طبيعة ذهنية متروية للغاية، يظل غير مكترث في الحفل، مثله مثل أماليا. **سورتيني لم يكن يهتم بنا. وكل من حاول أن يقترب منه بأي التماس أو مجاملة، كان يطرده بصمته.** لا بل يكاد يحس اشمئزازاً من الناس. **نظر إلينا تباعاً واحداً وراء الآخر، بتعب، كأنه يتنهد لأن إلى جانب كل واحد دائماً واحد آخر.** إن تكرار المشابه، رتابة الوجوه المتكررة عديمة الأهمية تثير الملل في نفسه وتتعبه، إلى ... **نعم، إلى أن توقف من ثم لدى أماليا، التي كان عليه أن يرفع نظره إليها، إذ إنها كانت أطول قامة منه بكثير. هنا أصيب بدهشة، قفز فوق عريش عربة المطفأة، كي يقترب من أماليا... كان هذا كل شيء،** وإذ يسيء الجميع فهمه ويبغون تحت قيادة الوالد أن يقتربوا منه، يصدّهم بيد مرفوعة ويشير لهم بالابتعاد. **غير أن أماليا كانت أكثر صمتاً من أي وقت آخر، 'لقد غرقت في حب سورتيني بالتمام والكمال وبهيام'، قال برونسفيك، الذي هو دائماً غير مؤدب بعض الشيء وليس لديه تفهم لمخلوقات مثل أماليا، لكن هذه المرة بدت لنا ملاحظته صحيحة تقريباً ... من ثم طفقنا نمازح أماليا بأنها بهذا إنما وجدت فعلاً عريساً.**

وسورتيني كذلك بات منذ هذه اللحظة أكثر صمتاً، لا بل ينسى أعماله الرسمية كلياً، يجلس صامتاً على عريش عربة المطفأة، عاقداً ذراعيه فوق صدره، ويمكث هكذا حتى تأتي عربة القلعة لإحضاره. **ولم يذهب حتى إلى تدريبات فرقة الإطفائية.**

من كل هذا لا يمكن استخلاص سوى أن هذه النظرة إنما أصابت الاثنين؛ أماليا كما سورتيني، إلى أعماق روحيهما، أن كلاً منهما إنما يحب الآخر. ولدى أولغا أيضاً هذه القناعة. إذ إن كليهما ندّ للآخر: المستوى العقلي الرفيع لسورتيني وسموّ أماليا. كلاهما يُظهران ـ حتى قبل لقائهما ـ تباعداً صامتاً عن حياة الناس العاديين، يلتقيان في فضاء فوق السحر الحسيّ، الذي يستسلم له جميع الآخرين.

د ـ إفساد الفكر

لكن كيف يمكن إيضاح رسالة سورتيني، التي **كانت مصوغة بأكثر التعابير ابتذالاً**؟ أولغا، التي قرأت الرسالة، توضح: **لم تكن رسالة غرامية، ولم تتضمن كلمة مجاملة، سورتيني كان بالأحرى على ما يبدو غاضباً لأن منظر أماليا كان قد تمكن من قلبه وشغله عن أعماله.**

في الوقت نفسه كان الطلب من أماليا **أن تحضر على الفور** إلى نزل السادة، **إذ إن على سورتيني أن يسافر بعد نصف ساعة،** قد صيغ بلا ريب بمعنى جلب عار عدائي جنسي على أماليا. إذ **من لم يكن يعرف أماليا ولم يقرأ سوى هذه الرسالة، لا بدّ له من أن يعتبر الفتاة التي كان أحدهم قد تجرأ على الكتابة لها هكذا أنها مهتوكة العرض، حتى ولو كانت لم تُمسّ مطلقاً.** الرسالة لم يملها حب، ولو كان من أدنى مرتبة، بل غضب، نفور وعدوانية ضد **الفتاة ذات العقد العقيقي**. وأولغا تخمّن شيئاً مماثلاً: **لاحقاً حكمنا هكذا بأن سورتيني إنما كان يبغي على الأرجح أن يسافر إلى القلعة في الحال مساء، وفقط بسبب أماليا ظل في القرية، وفي الصباح كان غاضباً كل الغضب لأنه لم يفلح في الليل أيضاً في نسيان أماليا، فكتب الرسالة.**

يملك سورتيني إذاً انطباعاً سلبياً عن **العقد العقيقي**، هذا العقد الذي لا يخص أمالياً إطلاقاً، بل صاحبة نزل الجسر، أي إنه يأتي من فضاء كلمّ. هذا الفضاء يزعج سورتيني في أعماله. يغضب ويريد أن يفرغ من هذا الفضاء على الفور بواسطة إحضار **الفتاة ذات العقد العقيقي.** هذا ما يُستخلص كذلك من الملاحظة بأن هذا الموظف **غير الاجتماعي الذي يعيش في عزلة تامة والذي علاقاته مع النساء مجهولة،** لا يمكنه أن يستجيب على نحو آخر إذا ما تملكه فجأة حب لفتاة قروية. إن الرسالة لا تدلّ على خشونة مشاعر، بل العكس هو الصحيح: **عندما يكتب كلمّ رسالة رقيقة، يكون الأمر أكثر إحراجاً من أكثر رسالة فظاظة من سورتيني ... عندما ينهض السادة من على طاولة المكتب، يكونون هكذا؛ إنهم لا يجدون طريقهم في الحياة؛ يقولون من ثم في شرود البال الأكثر خشونة، ليس كلهم، لكن كثيرون. يمكن للرسالة إلى أماليا أن تكون قد قُذفت على الورق في الخيال، في عدم انتباه كامل للمكتوب فعلاً على الورق.**

إن فتيات القرية، اللواتي يحدد فضاء كلمّ مصيرهنّ بالدرجة الأولى، يحسسن سورتيني شخصاً غير فظ ويحترمنه. إذ إن سورتيني غارق في عمله غير الاجتماعي إلى درجة لا يستطيع معها أن يكون فظاً قط. **معروف عن كلمّ أنه في غاية الفظاظة ... عن سورتيني هذا غير معروف ... كذلك بصفته خبيراً في شؤون الإطفائية يخلط المرء على الأرجح بينه وبين سورديني، الذي هو الخبير الحقيقي والذي يستخدم تشابه الاسمين لكي يلقي خاصة الالتزامات التمثيلية على عاتق سورتيني وهكذا يبقى في عمله دون إزعاج.** حتى تمرين الإطفائية كان يزعج سورتيني؛ إنه في الحقيقة لا ينتمي للإطفائية.

يثير العقد العقيقي الارتباك في نفس سورتيني ويدعه يرى في أماليا مجرد فتاة قروية، فيعاملها بأسلوب كلمّ، وذلك من أجل تجاوز الفرق الكبير بين موظف وابنة إسكافيّ بطريقة من الطرق، هذا يعني الاقتراب من الفضاء الحسي لمثل هذه الفتاة.

بناء على هذا الخلط يسقط سورتيني من فضائه الوظيفي الحقيقي. إنه لا يستطيع لقاء أماليا بصفتها ندّاً له على مستوى فكري خالص، هو المستوى الوحيد الذي يمكن لسورتيني أن يستشعر فيه حباً. لذا فإن رسالته ليست رسالة غرامية.

لكن النزاع قد يكون على مستوى أكثر عمقاً. إن نظرة أماليا أيقظت فيه مشاعر حب، وهذه مشاعر من يلقى ندّاً، لا بل قد يكون شخصاً أعلى قيمة، ذلك أنه كان عليه أن يرفع نظره إليها. غير أن الحب ليس ممكناً في فضائه الفكري إلا بإبعاد المكونات الحسية عنه؛ لكن في هذه الحالة لا يعود الموضوع يتعلق بحب بالمعنى الكامل. لذا يجب عليه أن يستأصل هذا الحب في نفسه كلياً أو أن يقلبه، إذا استسلم له، إلى النقيض، إلى فضاء مجهول له لا يستطيع أن يعبّر عنه إلا على شكل شتم مبتذل، ذلك أن هذا الفضاء غريب عنه أو مكروه.

في طبيعة مثل هذا العقل المجرد مثل سورتيني ما يسوّغ هذا التحويل، الذي لا بدّ له أن يحدث عندما يتمكن فجأة حب فتاة قروية من قلبه. إن النزاع في نفس سورتيني غير قابل للحل. في فضائه الوظيفي المجرد لا يجوز له أن يحب إنساناً. أما إذا أثارته فتاة ندّاً له فكرياً، فإنه من ناحية أخرى لا يجوز له أن يحبها كشخص، كفرد، بل فقط في عامة القيم الفكرية. يجب عليه أن يصرف النظر عن شخصها، هذا يعني أن يعود إلى أعماله.

غير أنه يُعاق عن ذلك بسبب شخصيتها. من هنا جاء **الغضب** على أماليا. والغضب كذلك على نفسه لأنه لا يستطيع نسيانها. ومن هنا كذلك شكل هذه الرسالة، التي تقيّم كل ما يتعلق بالحب تقييماً سلبياً وحسب، ولذا فهي النقيض من رسالة غرامية. سورتيني نفسه لا يعرف ماذا يكتب، وذلك لأن كل العالم الذي يتحرك فيه هذا المكتوب غريب عليه ومجهول

بالنسبة له. الرسالة ليست دلالة فظاظة، بل دلالة فكرية متطرفة غير إنسانية. ذاتياً، ضمن فضائه الخاص به ليس سورتيني فظاً، لكن إذا نظر إليه موضوعياً من ناحية مجموع الواقع الإنساني، فإنه يبدو فظاً. حيث يكون العقل عقلاً وحسب، حيث يظهر فضاء معزولاً، مجرداً، يكون بالذات شذوذاً للعقل الإنساني.

أماليا مجروحة من هذه الرسالة ومستاءة في أعماقها. عالمها ينهار. الفضاء الفكري العالي الذي تحبه يجري إفساده وتحطيمه بالذات من قبل الموظف ذي المرتبة العالية الذي تحبه والذي نفسه يمثل هذا الفضاء ضمن الجهاز العالمي. هذه ليست خيبة أمل شخصية، فردية. لا يتحطم عالمها وحده، بل العالم بعامة يتحطم بالنسبة لها. إذ في سلطات القلعة هذه يقوم الموظفون بضمان النظام العالمي نفسه. هذا هو معنى الجملة القائلة إنه يجب على كل النساء أن يحببن موظفين دائماً، حتى لو لم يكنّ يعلمن ذلك. كان هذا أيضاً معنى إدراك فريدا أن فراقها لكلمّ كان يعني في الوقت نفسه فراقاً للعالم، انتقالاً إلى القبر، أنها ضاعت إذا كانت لم تعد تخص كلمّ، بل ك. وحده.

لذا من خلال رسالة سورتيني يصبح النظام العالمي بلا جدوى بالنسبة لأماليا. تخرج من دائرة الوجود. وهذا يتحقق كقدر ضروري لا مفرّ منه. لا نعود نستطيع شيئاً آخر سوى الوقوف في الخارج. إخراجها يتحقق على نحو لا محيص عنه. إذ إن العالم نفسه الذي تعيش فيه قد تحطم بالنسبة لها. وتراتبية القلعة تصبح بلا معنى. يظهر هذا بوضوح من الكلمات القليلة التي نسمعها منها: **«هل تروى قصص من القلعة؟ ما زلتما تجلسان معاً؟ ... هل تهمّك إذاً مثل هذه القصص أصلاً؟ يوجد هنا ناس يتغذّون من مثل هذه القصص، يجلسون معاً، كما تجلسان هنا، ويهاجم بعضهم بعضاً، ... سمعت ذات مرة عن شاب كان يشغل نفسه بالتفكير في القلعة ليلاً نهاراً، وأهمل كل شيء آخر، خاف المرء على عقله اليومي، لأن كل عقله كان في القلعة فوق، لكن تبيّن أخيراً أنه لم يكن في الحقيقة يعني القلعة، بل فقط ابنة غسّالة أوانٍ في المكاتب، غير أنه حصل عليها الآن ومن ثم بات كل شيء حسناً مرة أخرى.» «الرجل قمين أن يعجبني، أظن»، قال ك. «أشك بأن الرجل قمين أن يعجبك»، قالت أماليا، «لكن ربما زوجته.»**

تهكّم أماليا هذا يبيّن بوضوح أن العالم الذهني إنما كشف نفسه لها بصفته عالماً كاذباً توجهه غرائز واحتياجات حيوية، أن كل روحانية هي بالنسبة لها خداع ذات. أن العالم تتحكم فيه قوى وهي تمقت هذه القوى، إذ بالذات ذلك الموظف الذي بدا أنه تخلص من مثل هذه القوى قد كشف لها القناع عن نفسه.

لهذا السبب يجب قطع كل اتصال بنزل السادة، لا يمكن العيش بعد الآن في الأنظمة التي تحكم وجودنا.

بهذا يتوضح سبب ومعنى نبذ أماليا. أصلاً ليس صدّها لسورتيني، بل حقيقة أنها **لم تذهب إلى نزل السادة**، كان **الأمر الحاسم** الذي أفضى إلى هذا النبذ. بهذا توارت عن كل قوانين الوجود المقرّرة ولم تعد تراعي الجماعة في القرية والقلعة.

في الواقع لا يمكن أن يُنحى عليها باللائمة نتيجة سلوكها إزاء سورتيني. لا أهلها ولا أهالي القرية يمكنهم أن يلومونها على ذلك. **ما من أحد يروي الموضوع كما يجب، يخجلون من أخذ هذه الأشياء في الفم.**

ما يدعو الجميع للابتعاد عن أماليا وعن أسرتها هو في الحقيقة واقعة أن أماليا لم تعد تذهب إلى نزل السادة. بهذا تسحب أماليا الأرض من تحت أقدامها وأقدام أسرتها. في غضون ثلاثة أعوام وحسب يتحول والداها من زوجين نشيطين يفيضان حيوية إلى عجوزين عاجزين يرتجفان. المهنة والعمل يؤخذان منهما، ليس على نحو واضح وليس بقصد سيئ، بل ضمنياً، **ليس لعداوة، بل تأدية لواجب.** وحده برونسفيك يجرؤ بين الفينة والأخرى على إعطائهم بعض الأعمال الصغيرة، لكن هو كذلك لا يفعل هذا إلا سراً.

بكلمات أخرى: في هذه الوقائع مستحيلة الحدوث وغير القابلة للتصور يعبّر كافكا عن قناعته التي ذكرها مرات عديدة في يومياته ورسائله، وصاغها كذلك في نصوصه الإبداعية؛ بأن الإنسان الذي يرتفع فوق نفسه **بطريقة فوق إنسانية**، لا بدّ له بالضرورة من أن يتمزق ويسقط ويتوارى. حين تصبح الحياة والذهن بلا جدوى، تنضب أيضاً منابع الحياة والذهن: الوالدان، أصل وجودها، يذويان، الأساس العملي لحياتها، المهنة والعمل، يغرق. لا بل روحانية أماليا نفسها مهددة. تصبح نظرتها **جادة مستقيمة غير قابلة للحركة وربما أيضاً لا تقول شيئاً**. وتصبح نظرة **باردة**. لكنها أيضاً نظرة **واضحة**. صحيح أنها عالمة، **كان لها العقل اللازم لسبر غور سبب** معاناتها. لكنها تعيش في الوقت نفسه **بلا أمل بتاتاً**. من هنا فإن نظرتها **لا تقول شيئاً**. هذا يعني أن أماليا هي من شخوص كافكا تلك التي هي من الأموات وهي على قيد الحياة، والتي ـ بالذات بسبب عزلتها المطلقة ـ ترى **تحت أنقاض** الوجود أكثر مما يرى الآخرون. إن ابتعادها المطلق يحملها على أن تكون ميتة كما أنها صافية الرؤية، متبلدة كما أنها ذات نظرة واضحة في الوقت نفسه. **إنها تملك مظهر النساء الذي لا عمر له، النساء اللواتي لا يكدن يتقدمن في السن، لكنهن في الحقيقة كذلك لم يكدن يكنّ صبايا في يوم من الأيام.**

بالنظر إلى كامل تفكير كافكا وإبداعه لا يمكن تجاهل الإدراك بأن جملة «**كانت تقف وجهاً لوجه مع الحقيقة**» إنما تعني ذلك جدياً وحرفياً. إنها تسبر فعلاً حقيقة هذا العالم: ترابط

العقل والغريزة ترابطاً مستمراً سرياً لا يُفكّ، تشابك صاحب الإدراك مع مصالحه الحيوية على نحو لا يُحلّ. إن سقوط الموظف سورتيني في فضاء الغرائز لا يعود إلى الارتباك وحده، بل هو قائم في جوهر العقل البشري نفسه، الذي لا بدّ لارتفاعه من أن ينقلب إلى هبوط مراراً وتكراراً، إذ إنه لا يمكن للعقل الخالص أن يوجد على الأرض مطلقاً. سورتيني وكلمّ، صحيح أنهما يعيشان ظاهرياً في مكتبين منفصلين، لكن جميع المكاتب قابلة للاستبدال. كل موظف يمكنه أن ينوب عن موظف آخر. سورتيني، هذا الموظف الأكثر ارتباطاً بالعقل، يمكنه أن يظهر **خبيراً في شؤون الإطفائية**، نيابة عن الموظف سورديني، الذي هو **الخبير الحقيقي**. العقل والكيان المادي يمكنهما تبادل دوريهما. الجميع مختصون ولا أحد مختص. بحق ترفض أماليا الدخول إطلاقاً إلى مكاتب.

ما من مساجلة فكرية يمكن أن تنقذ؛ إذ إن العقل هنا قد أخفق. ما من اتفاق، ما من تفاوض ذي جدوى بالنسبة لأماليا، صامتة، بلا أمل بتاتاً تظل تعتمد على نفسها وحدها. إنها تتحجر. تصبح واحدة من تلك النساء المتحجرات، اللواتي يظهرن دائماً وأبداً في الأساطير الحقيقية للبشرية. النساء عارفات أكثر من الرجال، لكنهن أكثر عجزاً أيضاً. إذ إنهن لا يستطعن التعبير عن معرفتهن.

و ـ التصالحات المزعومة

غير أن أسرة أماليا تريد أن تعيش. **وشينا بأماليا، انتزعنا أنفسنا من أمرها الصامت، لم نعد نقدر على أن نستمر في الحياة هكذا، بلا أمل بتاتاً لم نستطع أن نعيش وشرعنا، كل بطريقته، نرجو القلعة أو ننهال عليها، علّها تصفح عنا.** لكن لم يكن هناك شيء يُصفح عنه. القلعة لا تتأثر، تظل صامتة، تدور على نفسها أبد الدهر. **لكن عمّا يجب الصفح عنه، رُدّ عليه، حتى الآن لم يصل أي تبليغ، ... وإذا لم يكن شيء قد حدث، ماذا يريد إذاً؟ ماذا يمكن أن يُصفح عنه؟ على الأكثر أنه الآن إنما يضايق الدوائر الرسمية بلا جدوى، لكن هذا بالذات هو أمر لا يُغتفر.»**

الوالد، برناباس، أولغا، كلهم يريدون إيضاح قدر أماليا، أن يصلوا إلى سورتيني أو إلى ساعيه وتصفية الأمور مع القلعة. أماليا ترى على نحو صحيح: **كنا نرى النتائج وحدها، هي كانت ترى القاع.** برناباس، أولغا والوالد يحاولون أن يتحركوا في صور الوجود الواقعية، وأن يكسبوا مرة أخرى الاتصال الذي فُقد وأرضاً تحت أقدامهم. لكن من فقد الاتصال ذات مرة، لا يستطيع العثور عليه مرة أخرى بقواه الذاتية. إذ إن قوانين الحياة غير قابلة للنفاذ إليها. فقط من يقف فيها دون سؤال، تحمله أيضاً دون سؤال.

لا يمكن أن يوجد سوى إنقاذ واحد وحيد: إذا ما تبيّن أن المجموع إنما كان يقوم على خطأ أو سوء فهم أو سهواً، هذا يعني أن صدّ أماليا لسورتيني لا يمثل إطلاقاً هروباً من قانونية العالم، بل إنه ينتظم فيها دون علمها.

لو كنا قد أتينا فجأة ذات مرة مع الخبر بأن كل شيء هو على خير وجه، أن المسألة كانت مثلاً مجرد سوء فهم تمّ إيضاحه في هذه الغضون إيضاحاً تاماً، أو أن المسألة كانت خطأً، صحيح، لكن جرى تداركه من خلال الفعل أو أنه ـ حتى هذا كان من شأنه أن يكفي الناس ـ تمّ لنا بواسطة علاقاتنا في القلعة أن نوقف المسألة ـ كان حريّاً بالناس بكل تأكيد أن يعودوا إلى استقبالنا بأذرع مفتوحة، قبلات، معانقات، أفراح كانت ستوجد، لقد عايشت شيئاً من هذا القبيل عدة مرات لدى آخرين.

حتى إنه من الجائز أن يكون كافكا قد فكر في مثل هذا الإيضاح لسوء فهم ليضعه في الفصل الختامي للرواية، هذا الفصل الذي لم يكتبه. إن حكاية **العقد العقيقي** تسمح بتخمين مثل هذا الإيضاح. لدى ميل كافكا لتقليب كل جملة من جمل رسائل الموظفين هذه، فإنه خليق أن يكون من المحتمل أن يتبيّن في نهاية المطاف أنه بالفتاة **ذات العقد العقيقي** لم تكن أماليا هي المقصودة قطعاً، **ذلك أن هذا العقد لا يخصها قط.** وأن سورتيني إنما كان قد أخطأ سهواً. وأنه كان يجب على أماليا ألا تشعر أن هذه الرسالة موجهة إليها، إلى آخره ... إننا لا نعرف الأمر. في الأقسام الباقية من الرواية نرى أن جميع محاولات توضيح القصة تظل بلا طائل. وهذا يطابق أيضاً الحقيقة الداخلية لآثار كافكا الفنية وشكلها:

لدى كافكا لم تعد إمكانيات الرواية القديمة موجودة: قيادة القارئ بعد تورطات ومتاهات كثيرة أخيراً إلى إيضاح جميع الطامّات. المأساة تظل قائمة. شذوذ سورتيني يظل شذوذاً، والدعوى الصامتة لأماليا لا يمكن إلغاؤها. إن الشخص وقانون العالم يفترقان في الكون البشري على نحو لا يمكن تخطيه. فقط مصالحة ظاهرية يمكنها أن تنجح، وذلك من وجهة نظر ساذجة لسكان القرية. إنهم متصالحون باستمرار. الفرد والعامّ فوق الفرديّ متشابكان في الحياة على الدوام وعلى نحو غير قابل للفصل. لكن على حساب **وضوح الرؤية.** التناقضات يُغطّى عليها باستمرار. أماليا تقف فعلاً **وجهاً لوجه مع الحقيقة.** لذا لا يمكن أن يوجد سوء فهم تمّ إيضاحه إيضاحاً تاماً.

من ثم لا بدّ لكل محاولات المصالحة أن تبوء بالفشل. الوالد يحاول بلا جدوى أن يتحدث مع الموظفين. برناباس يحاول أن يعمل ساعياً كي يصل كذلك إلى القوى المقرِّرة. إنه من الشخوص التي لا تنسى والتي تؤثّر في القلوب أبلغ تأثير، صورة أبدية لجيل شاب مفعم بالأمل

دائماً من جديد، يريد، على الرغم من كل الانتكاسات والحيرات، في جهود ذهنية لانهائية، الكشف عن أسرار الوجود المبهم. مسكوناً بنار روح متوثبة مثالية يعتقد في أحاديث عديدة مع أولغا، الباحثة كذلك، واليقظة ذهنياً، بأنه قادر على حل اللغز، إنه على استعداد للتفاني، يضحي بسرور، لا يألو جهداً، فجأة ينضج بسرعة في النزاع بين المهنة والرسالة الفكرية. هذه صورة ساحرة لأمل بالنسبة لـ ك. نفسه، وفي الوقت نفسه صورة محزنة لعجز وحيرة كل جيل جديد.

انطلاقاً من الجيل الآمل، الباحث، التائه تصبح شخصية أولغا الغريبة مفهومة، زميلة برناباس التي تشاركه الكفاح.

ز ـ تراجيديا المرأة اليقظة فكرياً: أولغا

متقصية، باحثة، تستسلم أولغا لقوى الوجود الطبيعية، خدم كلمّ المتوحشين، الذين تكرههم لكن الذين يبدو علمهم الخفيّ بنظام القلعة ذا أهمية من أجل استجلاء الأمور. أولغا ليست مومساً إطلاقاً. هنا أيضاً لا يجوز للتصوير الصادم أن يخدع عن جوهر طبيعتها. **بسرور طفق (ك.) ينظر إلى هاتين العينين الزرقاوين، اللتين ليستا مغريتين، ليستا طاغيتين، بل هما هادئتان، ثابتتان في حياء وخفر.** على عكس طبيعة أماليا الأبيّة، الرافضة، غير الهيّابة مطلقاً والبطولية، فإن أولغا تتصف بالحياء والخفر. إنها منفتحة على الوجود ومستسلمة له أكثر من شقيقتها، لكن حياءها حياء هادئ وثابت. تعرف هدفها وتتابعه دون أن تلوي على شيء آخر، بهدوء وتمعّن. لا تغري ولا تحب السيطرة. استسلامها للخدم لا يعني أنها تقع فريسة لهم أو أنها تبغي إثارتهم أو أنها تحاول ـ مثل فريدا ـ أن تسيطر عليهم. إنها عازمة بالأحرى على أن تواجه قوى الوجود الحيوية بهدوء وثبات، وذلك بهدف سبر غور هذه القوى والوصول إلى إيضاح الحدث الذي وقع بين أماليا وسورتيني. توصف بأنها **منكرة لذاتها وذكية.**

إنها إذاً المرأة المستقلة، اليقظة ذهنياً، التي تنشد تعرّف جميع إمكانيات الوجود وتجريبها وتذليلها، وتواجه كل اللقاءات غير هيّابة. لكن ـ وبهذا يعلو مرة أخرى نقد اجتماعي شديد ـ الرجال الذين تلقاهم، لا يأخذونها حقاً على محمل الجد قط، بل يعاملونها مثل **لعبة، كانوا يسعون وهم غاضبون لتحطيمها، لم أتحدث كلمة ودّية مع أحد منهم في غضون العامين، فقط ما هو سيئ النية أو كاذب أو جنوني، لم يبق لي إذاً إلا برناباس وبرناباس كان ما زال صغير السّن.**

لا تستطيع قطعاً أن تطّلع اطلاعاً حقيقياً من خدم الحياة الذكور هؤلاء. صحيح أنها تقدر عبر دخولها إلى واقع الحياة أن تقوم بتأمين رزق أسرتها، لكن بالذات من خلال هذا الاتصال

يجري بالأحرى التغطية على السرّ الحقيقي الذي يحيط بسورتيني والموظفين وليس كشفه. إذ إن الخدم لا يعرفون في الحقيقة شيئاً عن الأسباب والمهاوي التي يعيشون فيها.

هكذا تظل أولغا باحثة. بيد أن بحثها الذي لا يكفّ ليس بلا جدوى كلياً، وذلك كما يدلل عرضها التأويلي الحاذق لكامل حدث أماليا الكبير. إنها تحاول متمعّنة وبكل وسائل العقل، كما بالأحاسيس، أن تخترق اللغز. إزاء صمت شقيقتها المتحجرة، فإن وعيها الحاكي الموضح هو ذو شأن وضروري. بدون مثل هذا الوعي فإن الحياة الذهنية تنهار كلياً. يمكن أن تخطئ أيضاً، يمكن أن لا تصل إلى المعرفة الصامتة المتطرفة، إلى الحقيقة التي وصلت إليها شقيقتها، فإنها تظل مع ذلك ضمن فضاء العقل البشري عنصراً حتمياً إيجابياً. لذا فإن ك. يشعر بادئ الأمر أنه ينجذب إلى أولغا بشدة أكثر مما ينجذب إلى أماليا. إذ إنها شريكة مناسبة في مساعيه الباحثة بالمثل، في **كفاحه**.

بيد أن برناباس وأولغا يخفقان. ما من شيء يتوضح. يظل الغموض يلف القلعة كما يظل يلف الخدم.

هنا يظهر ك. وهذا يعني نقطة تحوّل في حياة أسرة برناباس. نقطة تحوّل حتى لأماليا. وحده شخص غريب يمكن أن يفهم المنبوذين. **لديك نظرة شاملة مثيرة للدهشة**، تقول له أولغا، **لا ريب أنك تأتي من الغربة**. برناباس وأولغا يأملان أن يتمكنا بواسطته من إقامة اتصالات مع القلعة، سواء عبر عمل الساعي بين كلمّ وك. أو عبر أعمال ك. في مسح الأراضي.

حـ ـ ك. وأماليا: مهمة ك. الجديدة

بيد أن المعضلة الحاسمة إنما تكمن في العلاقة بين ك. وأماليا.

يبدو على أماليا دائماً أنها تعرض عن ك. بخشونة وفخر، أنها لا تكاد تعيره انتباهاً، غير أن هذا مجرد مظهر؛ فمنذ مكوثه الأول القصير في أسرتها تبلّغه تحياتها عن طريق شقيقها: **«أختاي تبلّغانك تحياتهما، لكن خصوصاً أماليا»**. كما أنها تضع فيه آمالاً خاصة. لدى زيارته الثانية تقول له: **«بإمكانك أن تأتي إلينا كثيراً، ما من عائق طبعاً»**. خشونتها إزاءه تنبع بادئ الأمر من ازدرائها **لقصص القلعة كافة**. إنها لا ترى أية أهمية لمساعي أختها وأخيها من أجل الوصول إلى القلعة والحصول هناك على إيضاحات. كذلك محاولات ك. المماثلة، وأحاديثه اللانهائية مع أولغا عن القلعة تبدو لها بلا جدوى ومزرية.

إنها لا تريد أن تكون مطلعة على دروب ك. ودروب أختها وأخيها التائهة: **«اهدأ»، قالت أماليا لـ ك.، «إنني لست مطلعة، ما من شيء خليق أن يدفعني إلى أن يجري إطلاعي، ما**

من شيء خليق أن يدفعني، ولا حتى مراعاة لك، أنت الذي من شأني أن أفعل بعض الأمور من أجله.»

هذا التحوّل الأخير يلفت النظر. ثم جاء: «**هل تروى قصص من القلعة؟ ... هل تهمّك إذاً مثل هذه القصص أصلاً؟ يوجد هنا ناس يتغذّون من مثل هذه القصص ... لكنك تبدو لي أنك لست في عداد هؤلاء الناس.**» تدرك أماليا في سرعة خاطفة وعلى نحو صحيح ابتعاد ك. من الأصل عن القلعة وقصصها.

محتدّاً يردّ ك. ويشرح: «**بلى، إنني أنتمي إليهم تماماً، على عكس ذلك، فإن الناس الذين لا يهتمّون بمثل هذه القصص ويدعون آخرين يهتمّون وحسب، لا يؤثّرون في نفسي.**» هذا الاحتداد أيضاً مبرر، إذ إنه لا يمكن كفاح القلعة دون الاهتمام بها وبقصصها المتاهية ودروبها الخاطئة. لكن أماليا كذلك على حق؛ إذ ما فائدة كل كفاح إذا لم يملك المرء بُعداً مطلقاً عن المجموع، إذا لم يحافظ المرء على موقف خارج هذا المجموع، إذا ترك المرء خصمه يسحبه إلى متاهاته ويستسلم له دون أن يفقه شيئاً؟ وك. نفسه يدرك بعد قصة أولغا الطويلة: «**بدونها** (أماليا) **كل شيء بلا أمل ... بدونها نبقى في النصف، في المجهول**»، وأولغا تصادق على ذلك: «**الحال دون أماليا هو كأننا نبني بيتاً بلا أساس.**»

يتعيّن على ك. أن يكتسب حتى الأعماق نظرة أماليا الواضحة، أن يكشف سرها. ما عدا ذلك يظل كل مسعى بلا طائل. أما أماليا، على العكس من ذلك، فإنه يتعيّن عليها أن تتحرر من جمودها اليائس من خلال معرفة ك. الحية، **خبراته في الكفاح.**

لكن المعضلة تكمن في أنه لا يمكن تحقيق مثل هذا اللقاء بتاتاً بواسطة أي حديث أو تفكير عقلاني، أنه بالأحرى لا يمكن هنا إلا لتحوّل كامل، إلا لاختراق إلى مرحلة من الوعي والحياة، أن يتيح تحقيق تحرر متبادل. ك. نفسه يقف قريباً من ذلك. إنه يوجد في مرحلة فوق درجات أولغا وبرناباس. حين تصف له أولغا جهود شقيقها العبثية الدائمة، يصوغ الإدراك الحاسم ـ ربما الإدراك الأكثر أهمية في الرواية بكاملها: **تستطيعين أن تشجعي شخصاً عصب عينيه كل التشجيع كي يحدق عبر المنديل، فإنه لن يرى شيئاً أبداً؛ فقط عندما يرفع المرء المنديل عن عينيه، يتمكن من أن يرى.**

على ك. مهمة أن يرفع العصبة عن عينيّ أماليا، لكن على أماليا أيضاً المهمة نفسها إزاءه.

لدى أماليا نظرة جامدة إلى الهاوية. ينبغي على ك. أن يثبت وجوده أمام هذه النظرة ويحتملها. هو نفسه يحدق إلى متاهات القلعة. على ك. أن ينزع اليأس من نفس أماليا. على أماليا أن تسلبه آماله الخاطئة. على أماليا أن تتعلم أن تحيا. على ك. أن يتعلم أن يرى **حقيقة** أماليا. على عزلة أماليا وخبرات ك. المتنوعة في الكفاح أن يرتبط بعضها مع بعض.

ما من شك في أن أماليا تحب ك.، وهي **غير قادرة أن تفعل شيئاً آخر سوى انتظاره طوال اليوم.** روحانية أماليا المطلقة، الجامدة لا تدع نفسها تتحول إلى كلمات. ليست خليقة أن تعاد إلى الحياة إلا إذا مثّل ك. نفسه روحانية لا يمكن إفسادها بعد الآن، يتحد فيها الحب والفكر.

في أولغا وأماليا يتكرر صراع ك. حول فريدا على درجة أعلى. أماليا وصلت إلى ذلك **السموّ** فوق البشري الذي امتنع على فريدا. أولغا تثبت بهدوء وحياء أمام خدم كلمّ، الذين كانت فريدا تتحكم بهم بقوة السوط وحسب.

تعلم أماليا أن ك. يحب أولغا. نظرتها الواضحة تكشف كل شيء. **هزّ ك. رأسه وذكّر بخطوبته. بدت أماليا أنها لا تبدد أفكاراً كثيرة عن هذه الخطوبة، الانطباع المباشر لـ ك.، الذي كان يقف وحده أمامها، كان حاسماً بالنسبة لها.** ك. لا يعرف شيئاً عن حبه لأولغا مع أن هذا الحب يتوضح دائماً أكثر. أولغا أهم له حتى من الرسائل التي يحملها برناباس من القلعة. أقل من ذلك يعرف شيئاً من حبه لأماليا التي تخيفه برودتها الجامدة.

كانت فريدا ضحية الانفصام بين الحياة والفكر. أولغا وأماليا لديهما وعي بالحياة والفكر، لهذا تمّ طردهما منهما، أصبحتا خارج القوى المقرّرة. مهمة ك. هي أن يعيد أولغا وأماليا إلى الحياة، دون أن يضحي بدرجة وعيهما النقدية العالية. هكذا وحسب يمكنه أن يحقق حبه المطلق لفريدا على نحو كامل، ويمكن لفريدا أيضاً أن تتحرر من فضاء المشرب التابع لكلمّ وترفع هارمونيتها اللاواعية إلى هارمونية واعية.

فريدا وأولغا وأماليا هن درجات ضرورية في مسيرة تطور ك. يمثلن فضاءات الحب الذي بدونه لا يمكن الوصول إلى سعادة حقيقية.

لقاء ك. مع الموظف بيرغل

يكتسب ك. شروط مثل درجة الوعي هذه المتفوقة الناضجة بلقائه مع بيرغل. إذ هنا يجري تحليل وإيضاح إمكانيات ك. لإجراء محادثة **شخصية** مع الدوائر الرسمية.

إن معضلة ك. الحاسمة التي تتخلل الرواية برمّتها، هي هل كان ممكناً إثبات الوجود أمام قوى الوجود العامة إثباتاً فردياً والتغلب على التناقض الذي لا يُحلّ بين الحرية الشخصية والارتباط الجماعي، هذه المعضلة تقف في مركز قصة بيرغل. إن الدرجة الجديدة التي يصل إليها ك. من خلال بيرغل ـ على الرغم من إخفاقه الظاهري لديه ـ تفضي من ثم في الفصول التالية على نحو منطقي إلى بعض الوجوه الجديدة المفاجئة، التي تفتح أيضاً إمكانيات جديدة لحل مشكلات الحب.

بيرغل هو من الشخوص المهمة؛ إذ إنه **سكرتير اتصال: «لا تعرف ما هو هذا؟ حسناً، أنا**

أشكّل أقوى اتصال» ـ هنا فرك يديه على عجل في ابتهاج لا إراديّ ـ «بين فريدريش والقرية، أشكّل الاتصال بين سكرتيريّ القلعة والقرية التابعين له، غالباً أكون في القرية، لكن ليس على نحو متواصل، في كل لحظة يتعيّن عليّ أن أكون على أهبة الاستعداد للسفر إلى القلعة.

من أجل فهم أهمية هذا الاتصال، الذي يقيمه بيرغل بين سكرتيريّ القلعة والقرية، يجب تأمل كامل بيروقراطية القلعة بدقة أكثر؛ إذ فقط لدى تفسير دقيق للغاية وإضاءة تفاصيل الصور يمكن إيضاح طبيعتها اللغزية إيضاحاً كاملاً حقاً.

أ ـ طبيعة بيروقراطية القلعة

يسبق في محادثة ك. الطويلة مع عمدة القرية أن يجري التمييز بشدة بين **الرسمي وغير الرسمي**، أو الشخصي / الخاص ضمن بيروقراطية القلعة. رسالة كلمّ إلى ك. **ليست رسالة رسمية إطلاقاً، بل هي رسالة شخصية.**

يكمن عمل الموظفين في استكشاف جميع الشروط لحالة من الحالات عبر إجراء تحريات وتعليل هذه الحالة وتقييمها لكي يمكن اتخاذ قرار. قد يحدث أيضاً أن يتمكن أحد هؤلاء الموظفين أن يستكشف الحالة بوضوح بحيث يعتقد أنه يعرف سلفاً القرار النهائي، فإنه مع ذلك ملزم بأن يفحص كل شيء ويعمل النظر فيه. وحتى إذا افترض أنه وصل بناء على أبحاثه إلى وضوح كامل، فهناك هيئات تفتيش أخرى ترى الحالة نفسها تحت منظورات، تجارب وإدراكات أخرى؛ ولذا فإنها تستطيع ويتعيّن عليها أن تلغي القرار الذي اتخذه موظف. وذلك لأن شروط وتقييمات حالة من الحالات لا تعدّ ولا تحصى. من هنا تتوضح **اللخبطات المضحكة التي تتحكم في وجود إنسان.**

في هذه البيروقراطيات يقدم كافكا صورة عن تجارب يومية: المصادفات التي لا يُعرف لها مدى، العلاقات المتشابكة، الدوافع، التأثيرات، التقديرات، وجهات النظر، إلخ ...، التي تحدد حياة كل إنسان بعلمه أو بدون علمه. كل فرد يقع فريسة هذا الجهاز العالمي الذي يعمل على نحو لانهائيّ ودون أن يكفّ عن الحركة. وكل هيئة مفردة من هيئات هذا الجهاز تراقب وتصحح بالضرورة كل هيئة أخرى، إذ إن كل شيء يرتبط بكل شيء. لذا يقول عمدة القرية: **هل كان يوجد هيئات تفتيش؟ لا يوجد سوى هيئات تفتيش.** لكن مهمات هذه الهيئات هي عرقلة اتخاذ قرارات نهائية؛ إذ إن كل قرار ضمن هذا الجهاز العالمي لا يمكن أن يكون سوى قرار مؤقت وحسب، لذا يجب إلغاؤه أو تصحيحه. من طرف آخر: مهما حدثت أخطاء وأغلاط نتيجة طرق نظر ضيقة ومن جانب واحد، فإنه بصفة عامة لا يمكن أن توجد أخطاء، إذ إن كل نظرة خاطئة نفسها معللة في شروط وضرورات محددة تابعة للوجود، لا بدّ لهذه

النظرة إذاً من أن تظهر أنها نظرة مبررة وصحيحة. **أخطاء لا تقع، وحتى إذا وقع خطأ ذات مرة، مثلما هو الأمر في حالتك، من يجوز له إذاً أن يقول بصورة نهائية إنه خطأ.**

إن جهاز الموظفين يعكس إذاً العلائق اللانهائية في الوجود الأرضي، هذه العلائق التي تكون حاضرة في حركة متواصلة وتتغير تموضعاتها بلا انقطاع في تحوّل دائم. لذا فإن الموظفين مشغولون على الدوام بأعمال عاجلة للغاية، حتى عندما يكونون متعبين أو نائمين أو لا يفعلون ظاهرياً أي شيء.

لكن هؤلاء الموظفين لا يستطيعون أن يتخذوا قراراً نهائياً في أية مرة من المرات.

لذا، نظراً لهذه العلائق اللانهائية يعلن ك. بحق: «**لكنني أعتقد أنه يجب التمييز هنا مرتين، أولاً ما يحدث داخل الهيئات، ومن ثم ما يمكن فهمه مرة أخرى رسمياً على هذا النحو أو ذاك، وثانياً شخصي الحقيقي، أنا، الذي أقف خارج الهيئات والذي تهدده عرقلة من قبل الهيئات، هذه العرقلة التي من شأنها أن تكون غير معقولة لدرجة أنني ما زلت لا أستطيع أن أصدق جدية الخطر. للأول يصح على الأرجح ما ترويه، أيها السيد العمدة، بمعرفة استثنائية مثيرة للدهشة، لكنني أودّ كذلك من ثم أن أسمع كلمة عني.**»

الشخص، أنا الإنسان، ذات الفرد، لا يمكن أبداً أن يُدرَك من خلال الكشف عن كل الشروط والعلائق والمصادفات التي تحدد هذا **الشخص**. ما من تقييم لإنسان يشمل كنهه، **شخصه الحقيقي**. إنه يقف **خارج الهيئات**.

ب ـ الشخص والهيئة

لكن من طرف آخر يجب على الإنسان مع ذلك أن **يسمع** شيئاً عن نفسه من قبل الهيئات. لا تستطيع الأنا أن تكون موجودة ومحددة إلا من خلال شهادة فكرية، من خلال تقييم شخصي، لا يمكن من جانب آخر التعبير عنه إلا على شكل علائق. إذ إن كل صيغة تقف ضمن علائق. لا يهمّ مسّاح الأراضي أبداً أن يعلم جميع الارتباطات التي تقف فيها حياته، بل إنه يبغي أن يحصل على حقيقة شخصه وطريق حياته وعلى عمله الخاص به: «**إن طموحي لا ينزع إلى أن تنشأ أعمدة ملفات كبرى تتعلق بي وتنهار محدثة قرقعة، بل إلى أن أعمل مسّاح أراض صغيراً في هدوء وأنا أجلس إلى طاولة رسم صغيرة.**» لذا يجب على الموظفين أن يقابلوه بصفتهم **أشخاصاً**، يقدمون له أجوبة محددة عن أسئلته المحددة. على القوى العامة المجهولة أن تتكثف لتصبح أشخاصاً ذهنية محددة.

هذا هو معنى رسائل كلمّ **الشخصية**. في هذه الرسائل يهتمّ كلمّ بـ ك. اهتماماً شخصياً. يشجعه في عمله. كلمّ مرتاح لهذا العمل، الانقطاع عنه سوف يثير السخط في نفسه، كذلك

مسألة الأجرة سوف يدبّرها، هذا يعني إعطاء معلومات عن قيمة ومغزى عمل ك. إلخ ... كلمّ يظهر هنا كشخص، كما لا يمكن لأقوال ذهنية صحيحة أن تكسب أهمية بالنسبة لإنسان إلا في صيغة مشاركة شخصية وتقدير. لذا فإن عمدة القرية يقول بحق: **رسالة شخصية من كلمّ هي طبعاً ذات أهمية تفوق كثيراً أهمية رسالة رسمية.** بالذات الأقوال غير الرسمية الصادرة عن القلعة هي أقوال قيّمة: **على العكس من ذلك فإن أهميتها الشخصية بمعنى وديّ أو عدائيّ كبيرة جداً، في الغالب أكبر مما يمكن لأهمية رسمية أن تكونه في أي وقت كان.**

لكن، إذ لا يمكن لإفصاح شخصي أن يعبّر عن نفسه إلا في علائق، فإن كل موظف هو دائماً شخص غير رسمي كما هو موظف. ولا يمكن التمييز إطلاقاً تمييزاً دقيقاً كلياً بين الوظائف الرسمية والوظائف غير الرسمية. عمدة القرية يقول هذا حتى عن نفسه. لإيضاحاته عن القلعة التي يزوّد بها ك. سمة نصف رسمية ونصف غير رسمية: **رسمياً لم أتحدث معك، يمكن للمرء أن يسمّي ذلك نصف رسميّ.**

لكن بهذا تظهر المعضلة التالية: مثل هذه التقييمات الشخصية من قبل موظف يمكن دائماً أن تصبح نسبية أو أن تلغى قيمتها كلياً من قبل هيئات تفتيش أخرى، بأن تبطلها هذه الهيئات بصفتها تقيّمات غير رسمية، فكيف يمكنها أن تقيم اتصالاً مع متاعب الإنسان وهمومه ومطالبه؟ أو بكلمات أكثر حدّة: هل يمكن الجمع بين مطالب الإنسان الفردية والتقييمات والعلائق العامة؟ كيف يكون **الشخص الحقيقي**، ذات ك.، المعروف أنه يقف **خارج** الدوائر الرسمية، كيف يكون ممكناً داخل هذه الدوائر؟ أو كذلك: كيف يمكن حلّ التناقض بين **الشخص غير الرسمي والشخص الرسمي** في طبيعة الموظف نفسه؟

الجواب عن ذلك تقدمه قصة بيرغل:

يمثل بيرغل أقوى اتصال بين السكرتيرين في القرية، هؤلاء الذين يسجلون على نحو مباشر أقوال الناس وآراءهم ورغباتهم، والسكرتيرين في القلعة، الذين يعالجون هذه الأقوال ويتركونها تمرّ عبر هيئات التفتيش، ويقدمونها إلى الموظف المشرف على مكتب المحاضر من أجل تقييمها واتخاذ قرار بشأنها، ذلك طبعاً أن الملفات المتضخمة دائماً أكثر تعود إلى التأرجح إلى هيئات تفتيش جديدة إلخ ...

هذا يعني أنه على بيرغل أن يتوسط بين الأقوال الشخصية والعلائق العامة الكونية، لذا فإنه يملك الإطلاع الأكثر وضوحاً على علاقتها المتبادلة.

أقواله تتحرك قبل كل شيء حول مشكلة ما يسمى **تحقيقات ليلية.**

بيرغل يعلن: «**إنها شكوى السكرتيرين الدائمة بأنهم مرغمون على إجراء جلّ استجوابات القرية في الليل ... لأنه من العسير أو من المحال تقريباً الحفاظ على الصفة الرسمية للمفاوضات حفاظاً تاماً.**»

لكن لماذا يجب أن تُجرى معظم الاستجوابات ليلاً؟ لكي يمكن فهم هذا، يجب القيام بتمييز مهم: هذه الاستجوابات الليلية تجري في غرف السادة في نزل السادة، حيث يتصل أصحاب الطلبات (أهالي القرية) على نحو مباشر بسكرتيري القلعة، الذين يرقدون في أسرّتهم، وليس بسكرتيري القرية. على العكس من ذلك فقد جرى مثلاً استجواب ك. المخطط له من قبل موموس، سكرتير كلمّ في القرية، جرى في المشرب وليس في غرفة من غرف السادة. وقد تضمن محضر هذا الاستجواب أقوال صاحبة النزل وكان سيتضمن أقوال ك. وقد وضع بهدف وحيد هو أن يحفظ **لسجلات القرية التابعة لكلمّ بوصف دقيق لأحداث عصر اليوم**. هذا المحضر كان يتحرك إذاً في مسارات الحياة اليومية الواقعية، الوعي العقلاني في النهار. لكن بهذا بالذات يملك صفة رسمية ويحتفظ بها. إذ إنه لا يعكس سوى تصورات الناس على مستوى التجربة العامة والمعقولة. طبقاً لذلك فإن مقر موموس ليس في القلعة ولا في نزل السادة، بل في **القرية؛ وهو يحضّر أعمال كلمّ الكتابية التي تصبح ضرورية في القرية وهو أول من يتلقى جميع الطلبات التي تأتي من القرية موجهة إلى كلمّ**. عليه أن ينجز العمل التمهيدي وبهذا يحافظ على صفته الرسمية، الأمر الذي يدفع ك. إلى أن يأبى التحقيق، وذلك لأنه هو، ك.، **وحده فقط، لا آخر، برغباته هو وليس برغبات أي آخر**، يريد الوصول إلى كلمّ شخصياً، ولا يعطي شيئاً للتفسيرات العامة وتوصيفات الأحداث المرئية. محاضر سجلات القرية التابعة لكلمّ تنقل الآراء الشخصية لأهالي القرية، لكن على مستوى الوعي اليومي اليقظ، هذا الوعي الذي ليس فردياً بالمعنى الدقيق، بل هو يتحرك في علائق عامة، أي إنه ذو طبيعة رسمية.

أما الاستجوابات الليلية في نزل السادة في غرف سكرتيري القلعة، فإنها مغايرة كلياً. تجري هذه الاستجوابات فقط عندما يكون موظف في القلعة قد أنجز فحص مسألة معينة إنجازاً كاملاً، وهنا يجب على الفور استجواب الشخص صاحب العلاقة: **التعليمات التي تقضي بوجوب إجراء الاستجواب فقط بعد الانتهاء الكامل من بقية الفحص، لكن من ثم على الفور، كل هذا وغيره الكثير جعل الاستجواب الليلي بالتأكيد ضرورة لا مناص منها**. إذ يدور الموضوع الآن حول الموقف الفردي للشخص. بدون هذا الموقف لا يمكن ولا يجوز اتخاذ قرار.

لكن لماذا لا يمكن إجراء مثل هذا الاستجواب الفردي إلا في الليل غالباً؟ لأنه لا يمكن

لأصحاب الطلبات مواجهة السكرتيرين من وجهة نظرهم الشخصية إلا في الليل، ومن النادر نهاراً.

معاناتهم وهمومهم ... حياتهم المسكينة ... مطالبهم التي لا طائل تحتها لا تظهر كاملة ومكشوفة إلا في الليل، عندما يسقط قهر العمل اليومي المحوّل للنظر ويزول الاطمئنان الظاهري وتنهار التصورات اليومية. في الليل وحسب تخرج من دخيلة الإنسان المطالب الفردية **التي لا طائل تحتها**، وكل الهموم والمعاناة الخفية. الليل لدى كافكا هو الفضاء الذي يواجه فيه الإنسان كل وجوده. في قصتيّ **الانمساخ** و **طبيب ريفي** يمثل الليل، النوم، الشرطَ الحاسم لمواجهة الذات.

لكن تبعاً لذلك يخاف السكرتيرون أيضاً من هذه الاستجوابات الليلية. فالصفة الرسمية لهذه الاستجوابات مهدَّدة. **ينزع المرء على نحو لا إراديّ إلى تقييم الأمور في الليل من وجهة نظر خاصة أكثر، ما يقدمه أصحاب الطلبات يأخذ أهمية أكثر مما يحق له، في التقييم تدخل اعتبارات لا مكان لها هنا تتعلق بالأوضاع الأخرى لأصحاب الطلبات، معاناتهم وهمومهم، الحاجز الضروري بين أصحاب الطلبات والموظفين، ولو بدا ظاهرياً أنه قائم على نحوٍ خالٍ من الأخطاء، يتراخى، وإذ إنه فيما عدا ذلك، كما يجب أن يكون الحال، لا يوجد سوى أسئلة وأجوبة بين الفينة والأخرى، يبدو أحياناً أنه يحدث تبادل أشخاص غريب لا يناسب قط.**

العلاقة العادية بين الفضاءين الموضوعي والذاتي، التي تعرض نفسها على شكل تفاهم عقلاني، كلعبة سؤال وجواب. **يحدث تبادل أشخاص.** ما يبدو فضاء رسمياً ـ موضوعياً يصبح فجأة عالماً ذاتياً مباشراً، والعكس صحيح.

هذا هو التعريف الدقيق للحلم. ما يعيشه الحالم في الحلم من صور وأحداث يراها موضوعية، بالذات عالم يطلع من باطن الحالم الخاص به، عالم هو الحالم نفسه، لكنه عالم أصبح عالماً آخر مقابلاً للحالم؛ إنه يعيشه إما كابوساً، شيئاً رهيباً، أو أيضاً شيئاً مثيراً للسعادة، لكن دائماً شيئاً يراه، يكون إزاءه، لكن ليس شيئاً يكونه نفسه أو يُخرجه من داخله. إن تجارب عالم الحياة اليومية، التي تصعد وتنزل في الأحلام كأنقاض ذكريات، تصبح ذاتية كلياً، تحوّلها وتصوغها معاناة وهموم الحالم، آماله ومخاوفه، لا بل إنها تبدو نفسها كصور وتعبير عن كل هذه المخاوف والآمال، لكن دون أن يعرف الحالم أنه ينظر هنا في الحقيقة بالذات إلى نفسه.

هذا يعني إذاً: ما تسجله الدوائر الرسمية، المطالب الشخصية لأصحاب الطلبات، يراه الحالم شيئاً غريباً عنه. صاحب الطلب يصبح موظفاً يقوم بالتسجيل. السكرتير متماثل مع صاحب الطلب. الوظيفة والشخص جرى تبادلهما. صاحب الطلب يرى فجأة سريرته الخاصة به فضاء موضوعياً، عاماً، غير شخصي.

بيد أن هذا قمين أن يعني أنه ينبغي على السكرتير أن يلبي مطالب صاحب الطلب كافة؛ وذلك لأنه نفسه يتماهى معه. هذا هو خوف السكرتيرين. يفقدون مهمتهم الرسمية، يصبحون تحت رحمة الفرد الشخصي، عزّل، يتعيّن عليهم تلبية كل طلب من طلبات صاحب العلاقة دون تحفظ، **هذا الطلب الذي تلبيته جاهزة منذ الآن، لا بل تمتد نحوه.**

لكي يعمدوا إلى تقوية أنفسهم ضد **سوء استخدام السلطة** الليليّ هذا يحدد السكرتيرون **مواعيد المفاوضات في بداية أو نهاية الليل ويتجنبون الساعات الوسطى.** هذا يعني أنهم يبحثون عن وقت قبل أو بعد فترة النوم العميق، ذلك أنه ما زال لا يمكن أن يتمّ التبادل الكامل بين الوظيفة والفرد الشخصي، لأن تحديدات عالم النهار تظل فعّالة في فترة الوسن. أو **إنهم لا يسمحون بمواضيع مفاوضات إلا تلك التي لا يخشى منها بذلك المعنى كثيراً إن أمكن، يفحصون أنفسهم بدقة قبل المفاوضات، وإذا تطلبت نتيجة الفحص الأمر، فإنهم يلغون في آخر لحظة كل الاتفاقات ... يدعون أنفسهم يناب عنهم بسرور من قبل زملاء غير مختصين بالحالة صاحبة العلاقة.**

لكن فقط بمسألة السماح بمواضيع مفاوضات ومسألة الاختصاص يتوضح للموظفين المعنى الحقيقي لهذه الاستجوابات الليلية ومخاطرها.

د ـ التحديد والحرية

إن تلبية الطلبات الشخصية لأصحاب الطلبات غير ممكنة إلا **عندما يأتي صاحب الطلب في منتصف الليل على غير موعد.** إذ إن الموظف أيضاً من ثم يكون على غير استعداد، لا يستطيع أن يتخذ إجراءات وقائية. لكن مثل هذا الحضور بلا موعد أمر غير ممكن، وذلك لأن السكرتير المختص إنما يعرف كل شيء سلفاً مما يجري في نفس صاحب الطلب: لذا فإن هذه الهيئة التي تسجل جميع تصورات الإنسان الواعية واللاواعية يمكنها أن تدعو صاحب الطلب للحضور قبل أن يعرف هذا شيئاً عن مطلبه: **من انعدام الثغرات في المنظمة الرسمية ينتج أن كل من يكون لديه طلب ما أو لأسباب أخرى يجب استجوابه عن شيء ما، إنما يحصل على التكليف بالحضور على الفور، دون تردد، غالباً حتى قبل أن يكون نفسه قد تدبر الموضوع، لا بل حتى قبل أن يعرف عنه شيئاً ... لم يعد يستطيع المجيء على نحو مفاجئ كلياً.**

بهذا عبّر كافكا عن محدودية كل حدث أرضي: لا يوجد تصورات واعية أو لاواعية للإنسان لا تحددها قانونية عامة. كل ما يحدث في الإنسان يخضع لقانونيات بسيكولوجية، بيولوجية، منطقية. لذا يسبر غوره ويسجله الموظفون العارفون بكل شيء، وذلك حتى قبل أن يدخل إلى وعي الإنسان صاحب العلاقة نفسه. الحرية غير ممكنة. إن انعدام الثغرات في

القوانين العالمية هو انعدام تامّ. ما من أحد يستطيع أن يهرب منها. كل ما يبدو شأناً شخصياً يُثبت دائماً أنه شأن رسمي يخضع لقوانين عامة.

كذلك فضاء الأحلام لا يُستثنى من ذلك مبدئياً. فعندما يتعامل سكرتير مختص مع أحد أصحاب الطلبات، فإنه يعرف رغبات هذا الشخص التي تظهر في أحلامه، ويمكنه أن يصدّها في الوقت المناسب، ويعاملها بصفتها رغبات عامة، ويمنع أي تماهٍ بينها وبين الشخص. المدعو للحضور لا يستطيع بعد الآن أن يأتي على غير موعد، **يستطيع على الأكثر أن يأتي في وقت غير مناسب، من ثم يُلفت نظره إلى تاريخ وساعة الدعوة وحسب وإذا ما جاء ثانية في الموعد الصحيح، فإنه يُصرف في العادة، هذا لا يثير صعوبة بعد الآن، الدعوة بيد صاحب العلاقة والملاحظة في الملفات، هذه أسلحة وقائية غير كافية دائماً للسكرتيرين، لكنها قوية. بيد أن هذا لا يتعلق إلا بالسكرتير المختص الآن بالمسألة، وكل فرد له حرية التماس السكرتيرين الآخرين على نحو مفاجئ في الليل.**

هـ ـ التركيب بين الحرية والقانون

هذه الحرية، التماس السكرتيرين الآخرين، لا تعني إذاً شيئاً آخر سوى أن الشخص إنما يقتحم فضاء الموظف فجأة وعلى نحو مباشر دون أن يكون لديه موعد معه. موانع وحواجز القانونيات العامة، التي استطاع الموظف المختص التواري وراءها بأن عاملَ مطلب الشخص منذ البداية بصفته مطلباً رسمياً عاماً، غير موجودة. أمام أعين الموظف يقف الشخص، والشخص وحده، بكل راهنية ومباشرة ملحّة.

هذا المنظر لا يستطيع أن يقاومه: **إن صاحب الطلب، الذي لم يُر قط، المتوقَع دائماً، المتوقع بتعطش حقيقي ودائماً يُعتبر بطريقة عقلانية أنه لا سبيل إلى لقياه، يجلس هنا. بمجرد حضوره الصامت يدعو للدخول إلى حياته المسكينة، والتنقيب فيها كما في الملكية الخاصة، والمشاركة في المعاناة هناك تحت مطالبها التي لا طائل تحتها. هذه الدعوة في الليل الساكن خانقة. المرء يلبيها وقد كفّ في الحقيقة عن أن يكون شخصاً رسمياً. إنه وضع سرعان ما يصبح فيه رفضُ طلبٍ أمراً غير ممكن. بالمعنى الدقيق يكون المرء يائساً وبدقة أكثر يكون المرء سعيداً. يائس، إذ إن هذا الضعف الذي يجلس معه المرء هنا وينتظر طلب الطرف ويدري أنه ينبغي عليه تلبية الطلب بمجرد أن يجري تقديمه، وذلك حتى لو، على الأقل بقدر ما يستطيع المرء نفسه أن يقدّر، قام بتمزيق المنظمة الرسمية بمعنى الكلمة ـ هذا هو أسوأ ما يستطيع المرء أن يواجهه في الممارسة. قبل كل شيء ـ بمعزل عن كل شيء آخر ـ لأن الأمر هو كذلك ترقية لا يوجد مفهوم لها، ترقية يستعملها المرء لنفسه حالياً عنوة. حسب مركزنا لسنا مخوّلين مطلقاً بأن نلبي طلبات مثل الطلب الذي يدور الموضوع**

حوله هنا، لكن بقرب هذا الطرف الليلي تزداد لدينا نوعاً ما القوى الرسمية أيضاً، نلتزم بأشياء هي خارج مجالنا، لا بل سوف ننفذها أيضاً ... لكن كيف سيكون الحال لاحقاً، عندما يكون الأمر قد مضى، الطرف شبعان ويغادرنا غير مكترث ونحن نقف هنا، وحيدين، عزّلاً عند مواجهة سوء استخدامنا للسلطة ـ هذا لا يمكن التفكير فيه مطلقاً. ومع ذلك نحن سعداء. كم يمكن للسعادة أن تكون انتحارية.

في هذا المشهد يتحقق التركيب بين الحرية الشخصية وقانونية العالم العامة: الموظف كضمانة لهذه القانونية وممثلاً لها ضمن مجال محدد، يتماهى مع طلبات الشخص ويحققها، وذلك بأن يفجر مجال اختصاصه الخاص به، يصعّد **قواه الرسمية** إلى حد غير قابل للتصور، ويحقق رغبات الشخص تحقيقاً كاملاً.

بكلمات أخرى: يستطيع الإنسان تحقيق مقاصده الشخصية تحقيقاً كاملاً عندما لا يعود يُخضع هذه المقاصد لمجالات الاختصاص العامة والترتيبات المحدودة للوجود، بل يواجه مجموع الوجود باستخدام كامل شخصه، الأمر غير الممكن بشكل ملموس إلا بأن يفتح نفسه لمجال الوجود الذي يكون فيه؛ أن يفتح نفسه على نحو كامل ودون تحفظ ودون أن يدع مجال الوجود هذا يثبّته ويقرر مصيره. هكذا وحسب تصبح وحدة كاملة بين شخصه ومجال الوجود هذا ممكنة، يتغلغل شخصه إلى مجال الوجود هذا، الذي يفتح له كل مجالات الوجود الأخرى التي يحتاجها كي يحقق ذاته تحقيقاً كاملاً. من ثم يستطيع الموظف المختص أن ينمّي أيضاً طاقات رسمية خارج مجاله، وينتزع **الاختصاص في** كل شيء يتعلق بالشخص ـ بالذات لأنه لم يكن مختصاً بالشخص ولم يُخضعه لاختصاصه الرسمي. إذ في نهاية المطاف، هكذا يقول بيرغل، كل سكرتير مختص في كل شيء.

إذ إن الأمر ليس هكذا ولا يمكنه أن يكون في منظمة كبيرة حيوية هكذا أنه لا يوجد لكل مسألة سوى سكرتير محدد مختص فيها. إن الحال هو فقط هكذا أن واحداً لديه الاختصاص الرئيسي، لكن آخرين كثيرين لديهم أيضاً اختصاص ولو صغير في أجزاء معينة. من يستطيع وحده، ولو كان أكبر عامل، أن يجمع على طاولة مكتبه جميع العلاقات المتعلقة بأصغر واقعة فقط؟ ... ألا يكمن الاختصاص الكليّ في أصغر اختصاص؟ ألا يحسم هنا الشغف، الذي يُتولّى الموضوع به؟

تقييد الإنسان لا ينشأ إذاً إلا لأنه يدع نفسه يوضع في موضع معيّن محدود. في اللحظة التي يصرّ الإنسان فيها على مجموع وجوده، على ما أسمّيه «الكونية»، يفجر أيضاً محدوديته ويصل إلى علاقة حرة كونية مع نفسه ومع محيطه، يستطيع أن يتحرك ضمن وجوده المحدود

وفي الوقت نفسه يراقب مجموع الوجود الإنساني ويحافظ عليه. الكونية والشخص يصبحان واحداً.

و ـ التركيب بين النوم واليقظة، الكينونة والوعي

لكن مثل هذا الاختراق نادر للغاية. **الفرص إليه لم تُغتنم في يوم من الأيام.** لماذا؟

١ ـ الفرد يتوجه دائماً إلى السكرتير المختص به، لأنه يعتقد أن جميع السكرتيرين الآخرين لا علاقة لهم بمسألته. هذا يعني أن الإنسان يظل دائماً مرتبطاً بعالم تصوراته المحدود: **كما أن أصحاب الطلبات يعملون أعمالاً عديدة، إذا ما أرادوا إلى جانب مهنهم الأخرى تلبية دعوات الجهات المختصة ونداءاتها بالإشارة.** الإنسان يشتغل إذاً إلى جانب مهنته بمجالات الحياة المقبلة عليه، يتحول في مساراتها، يتبع إشاراتها ودعواتها، غير إنه لا يجرؤ قط أن يضع مسألته على اللاشيء. إنه لا يثق سوى بالعوالم المعروفة لديه.

٢ ـ مثل هذا الاختراق يُشلّ **بمعنى الكلمة** بأن يبرهن المرء، الأمر الذي هو في غاية السهولة، **بأنه من أجله لا يوجد مكان في هذا العالم.** هنا يُطلب إذاً إيمان يرتفع فوق التجربة، فوق دلائل العقل.

٣ ـ يتعيّن على الإنسان، عندما يواجه الموظف المجهول لديه، أن يقدم طلبه شخصياً. **ليس عليه أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يقدم طلبه على نحو من الأنحاء، هذا الطلب الذي تلبيته جاهزة منذ الآن، لا بل تمتد نحوه.** إن الموظف **ينتظر هذا الطلب.** هذه في الحقيقة هي الصعوبة الحاسمة:

ليست المسألة أن يقفز المرء بحرية من جميع قوى الوعي والوجود المعطاة، بل أن يقدم أيضاً، عن وعي، مقصده الشخصي الخاص به. يُطلب إذاً درجة فكرية يكون فيها الإنسان حراً من جميع سجلات الوعي المحدودة ويحتفظ مع ذلك بوعيه الكامل عما يهمه كشخص، كذات، ماذا عليه أن يلتمس، أية **مطالب لا طائل تحتها** يريد ويجب أن يطلب من أجل أن يحقق ذاته كشخص.

على الوعي والحرية من الوعي أن يتحدا بطريقة متناقضة. إذ ذكرت سابقاً أن الإنسان في **الاستجوابات الليلية** إنما يكون في فضاء حلم يتبادل فيه الذات والموضوع، الشخص والرسمي أدوارهما، فهذا لا يعني أن الإنسان إنما يغطس هنا بلا وعي في فضاء لاعقلاني؛ إذ إنه في هذه الحالة يستسلم بالذات لقوى الوجود المقرَّرة في عقله الباطن. يتعيّن عليه أن يحتفظ في الحلم بوعيه الفرديّ.

يتعيّن عليه على نحو ما أن يظل يقظاً بينما هو نائم. إنه التناقض نفسه الذي نلقاه في قصة كافكا **البناء**.

لكن بهذا يُطلب جهد يكاد يكون جهداً فوق بشريّ: **إن القوى البدنية لا تكفي إلا لحدّ معيّن، من يستطيع أن يفعل شيئاً أن هذا الحدّ بالذات هو أيضاً في ما عدا ذلك ذو أهمية. لا، لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً. هكذا يصحح العالم نفسه في مجراه ويحافظ على التوازن. إن هذا لهو تدبير باهر، دائماً وأبداً تدبير باهر لا يمكن تصوره، ولو كان موحشاً من ناحية أخرى.**

ز ـ خداعات في النوم: النصر السهل في فقدان الوعي

بهذا صاغ بيرغل إخفاق ك. كان ك. يريد وهو في حالة إرهاق تام أن يذهب إلى السكرتير المختص به والذي كان قد دعاه للحضور. بسبب هذا الإرهاق يخطئ حجرة إرلنغر ويقع بالمصادفة في حجرة بيرغل غير المختص به. بهذا حقق كل الشروط للاختراق، لتحقيق كل طلباته. إذ نتيجة هذا الإرهاق باتت بالنسبة له كل الاختصاصات وتحديدات الحدود غير ذات أهمية. إنه يقف على حين غرّة بصفته شخصاً مباشرة أمام بيرغل الذي يصاب بمفاجأة ويمنحها تعبيراً **بصرخة خفيفة**.

في حالة وسط بين النوم واليقظة يسمع رسالة بيرغل ذات الأهمية الفائقة: **ك. نام، صحيح أنه لم يكن نوماً حقيقياً، فقد كان يسمع كلمات بيرغل ربما أفضل مما كان يسمعها أثناء اليقظة السابقة التي كان منهكاً فيها، كلمة كلمة راحت تضرب على أذنه.** لكنه مع ذلك لا يتلقى كلمات بيرغل في هذه الحال بوعي، إذ يتبع ذلك مباشرة: **غير أن الوعي المزعج كان قد اختفى، أحس أنه حر، لم يكن بيرغل هو الذي يمسكه، هو وحده راح يتلمس أحيانا نحو بيرغل، كان ما زال لم يكن في عمق النوم، لكنه كان قد غرق فيه، ليس على أحد أن يسلبه إياه بعد الآن. وكان حاله كأنه بهذا إنما أحرز نصراً كبيراً.**

بينما يتحرر ك. من الوعي المُزعج، تفقد أيضاً كل قانونية عالم موضوعية سلطتها عليه. يحس ك. أنه أحرز نصراً على الموظفين. في الحلم يثير خوفاً في نفس سكرتير يبدو عارياً مثل إله إغريقيّ. إن السكرتيرين يمثلون مجالات وجود معينة مثل آلهة الإغريق. لكن هذا الإله عار بلا حماية تحت رحمة ك. عبثاً يحاول تغطية عوراته أمام هجوم ك. **هل كان الأمر كفاحاً أصلاً؟ لم يكن ثمة عائق جدّيّ، فقط بين الفينة والأخرى زقزقة السكرتير. هذا الإله الإغريقي طفق يزقزق مثلما تفعل فتاة تُدغدَغ. وآخر الأمر انصرف؛ ك. كان وحده في مكان واسع.** النصر في الفضاء الحر بلا وعي هو نصر سهل. في الحقيقة ما من كفاح وما من نصر، بل حالة دائمة، لأن الحرية اللاواعية تمثل استقلالية متواصلة عن كل قوى الوجود

المقرّرة. لذا يجري في هذا الحلم الاحتفال بالنصر قبل أن يجري الكفاح. كل حدود الزمان والمكان تتلاشى.

قبل أن يضايق ك. السكرتير جاء في النص: **وكان حاله كأنه بهذا إنما أحرز نصراً كبيراً وعلى الفور كان أيضاً ثمة جماعة هنا للاحتفال بالنصر، ورفع هو أو أحد آخر أيضاً كأس الشمبانيا على شرف النصر. ولكي يعرف الجميع ما الموضوع، جرى تكرار الكفاح والنصر مرة أخرى أو ربما لم يتكرر أبداً بل إنه حدث الآن وحسب وكان في السابق قد احتفل به ولم يُكفّ عن الاحتفال به، لأن الخاتمة كانت مؤكدة لحسن الحظ**. وفي الختام يصبح ك. وحده كلياً في مكان واسع. ما من أحد يواجهه. ك. يقف في حرية لا عالم لها، حرية مشكوك فيها.

إذ إن هذه الحرية لا تقوم على وعي بالذات، بل تقوم على فقدان وعي. الجملة الأولى ذات دلالة: **لم يكن بيرغل هو الذي يمسكه، هو وحده راح يتلمس أحياناً نحو بيرغل**. لا يملك ك. وعياً بالذات واثقاً، بل **يتلمس** نحو بيرغل وكأنه يبحث عن شيء يحتاجه، مع أن هذا الشيء لم يعد يملك سلطة عليه. كان الكفاح الذي حلم به والنصر وهماً فارغاً. ك. لم يثبت وجوده أمام العالم الموضوعي، ولم يرفع موقفه الخاص به إلى الوعي. في الحلم يرى كفاحه حدثاً جلياً. لكنه لا يسجل هذا الحلم موضوعياً مثلما يفعل موظف. ما من تماهٍ يحدث بينه وبين الموظف. بيرغل لا يدخل مطلقاً في حلم ك. هذا، بل يواصل حديثه لا يلوي على شيء آخر عن أهم أمور حاسمة بالنسبة لـ ك.، دون أن يقوى هذا على التعامل معها بوعي في حالته اللاواعية. إن ك. هو بالأحرى مثل طفل في النوم، مستسلماً لنصره الزائف، هذا النصر الذي يتحول، منطقياً أيضاً، إلى هزيمة وهو ما زال في الحلم.

إذ إن كأس الشمبانيا بالذات، الذي احتفل به بالنصر، **وحده كأس الشمبانيا كان على الأرض وقد انكسر، ك. دعسه وحطمه كلياً. لكن قطع الزجاج المكسور كانت تخز، وهو يرتعش استيقظ مرة أخرى، كانت نفسه تغثو، مثل طفل صغير عندما يوقظ**. لقد غرق ك. في الفضاء اللاواعي لطفل صغير، يفيق منه الآن وهو يشعر بالغثيان.

صحيح في لحظة اليقظة هذه يتملكه فجأة إحساس داخلي بالفرصة التي تسنح له لدى بيرغل: **مع ذلك لدى رؤية صدر بيرغل العاري خطرت بباله فكرة من الحلم: «هنا لديك حقاً إلهك الإغريقيّ! انتزعه من الفراش!»** لكن هذا أيضاً من شأنه أن يكون اعتداء وليس نطقاً بطلب يدور حوله الموضوع لدى نصر حقيقي.

لا يجري لقاء شخصي بين رجل ورجل. بيرغل يواصل دون أن يلوي على شيء دروسه المسهبة بشأن الإمكانيات التي تتاح لـ ك. في هذا الاستجواب الليلي. بيد أن ك. يغرق في نهاية المطاف في نوم عميق. **ك. استغرق في النوم، منعزلاً عن كل ما حدث.**

ك. عاجز عن أن يقدم طلبه الذي يقترب من تحقيقه إلى بيرغل الذي ينتظر ذلك. كان عليه أن يربط الحرية اللاواعية التي وجدها في الحلم مع وعي مراده الخاص به ويصوغ ذلك إزاء بيرغل.

منذ أن كان ك. قد دخل إلى غرفة بيرغل، أظهر له هذا فرصاً، حين عبّر ك. في استسلام: **«لا يجري تشغيلي مسّاح أراض». «هذا يدعو للاستغراب»، قال بيرغل بحركة رأس نشيطة وهو يخرج دفتر ملاحظات من تحت الغطاء، كي يدوّن فيه شيئاً ما، «أنت مسّاح أراض وليس لديك عمل مسّاح أراض.»** بهذا يُستدعى تلميحاً الطلبُ المركزي، طلب الطرف ك. السكرتير غير المختص بيرغل يبدأ بالانشغال بـ ك. **«أنا على استعداد»، واصل بيرغل كلامه، «لأن أتابع هذا الموضوع. لدينا هنا ليست الأمور بكل تأكيد هكذا بحيث أنه يجوز ترك طاقة عمل اختصاصية دون استخدام.»**

غير أن ك. يعتبر بيرغل غير مختص بتاتاً في هذه المسألة، ولا يحدس شيئاً منها، **ولا يعرف شيئاً من الظروف التي جرى فيها استدعاء ك.** في حديث مطول يُوضح بيرغل لـ ك. الإمكانيات الفريدة التي تسنح له بهذا اللقاء معه، هو السكرتير غير المختص. لكن في اللحظة الجوهرية التي توضح فيها كل شيء، وحين لم يعد ك. يحتاج إلا إلى النطق بطلبه، ينام.

على بيرغل أن يقود ك. إلى هذه النقطة القصوى من الإدراك ـ لذا كان حديثه المطول. إذ إنه هو نفسه، الموظف، ينشد أن يصبح شخصاً غير رسمي، أن يفجر محدوديته ويكتسب حرية كونية. كلاهما، بيرغل وك.، يرتبطان في علاقة متبادلة لا تنفكّ. لا أحد منهما يستطيع أن يوجد على نحو معقول دون الآخر. فقط بارتباطهما يمكن ربط الوجود الحر والعام، الشخصي والرسمي، ربطاً سعيداً. من هنا فإن بيرغل ينتظر ك. ولذا يتعيّن عليه كذلك أن يعرض الفرصة على ك. على نحو مطول هكذا. إذ إن صاحب الطلب من **ذاته لا يكاد يلحظ شيئاً. إنه حسب رأيه على الأرجح فقط لأية أسباب وقعت بالمصادفة في غير اكتراث، وهو منهك، خائب الأمل، بلا مراعاة ولا مبالاة، من الانهاك وخيبة الأمل، إنما دخل إلى غرفة أخرى.**

هذا يعني: في معظم الحالات ليس لدى الإنسان فكرة بأنه بالذات في حالات اليأس والقنوط وخيبة الأمل والاستسلام والإرهاق يكون أقرب ما يكون من الاختراق المحرِّر: إذ إنه في مثل هذه الحالات يكون منفصلاً عن جميع الضمانات الظاهرية. بالذات في هذه الحالات تنفتح إمكانيات المساعدة إلى حد لم يسبق له مثيل. عليه أن يبادر وحسب، طبعاً في صياغة واضحة واعية لهدف حياته الحاسم.

لكن إخفاق ك. أيضاً هو إخفاق حتميّ؛ ففي حالة القنوط لا يقوى فجأة على أن يفصح

عن أبعد الآمال عن الاحتمال، ويطلب معونة من ذلك الذي لا يعلم عنه شيئاً إطلاقاً. إنه يقع فريسة اللامبالاة والاستسلام والإرهاق.

ط ـ الفشل المحتوم

إن الارتباط بين الوعي والتحرير الحلمي للوعي لا بدّ له من الإخفاق. لا يستطيع ك. سوى أن ينام أو يستيقظ، أن يعيش بلا أمل كلياً أو أن يضع آماله في مجالات وجود معروفة لديه سهلة المنال. الحالة الوسطى بين النوم واليقظة التي يتحد فيها الوعي والنعاس المحرّر لا يقوى على احتمالها صابراً حتى نهاية شروحات بيرغل، هذه الشروحات التي لا تستطيع إدخال الفرصة السانحة له إلى الوعي. **إن القوى البدنية لا تكفي إلا لحدّ معيّن ... هناك فرص كبيرة لحدّ ما كبراً مفرطاً لا يسمح بالإفادة منها؛ ثمة أشياء لا تفشل لأي شيء آخر إلا بسبب نفسها.**

إن الباعث على فشل ك. هذا هو طبيعة الإنسان المحدودة. إنه محتوم، لا يمكن تجنبه. فقط من خلال هذا الفشل **يحافظ العالم على التوازن**، تظل أنظمته وأوضاع حدوده قائمة. هذا بالنسبة لبيرغل تدبير باهر للعالم، لكنه تدبير موحش كذلك.

مع ذلك فإن المعرفة عن وجود كوني حر في وسط الأنظمة الواضعة للحدود هي معرفة لا يمكن فقدانها. إنها تظل قائمة في ك. كذلك. ك. استقبل ولا ريب الكلمات، التي حتى سمعها في النوم على نحو أفضل مما في اليقظة، واحتفظ بها. نتيجة لنعاسه اللامحدود لم يستطع آنذاك أن يعالجها ويحققها. إذ في موضع ملحق بالرواية جاء أن ك. إنما روى لاحقاً على نحو مسهب عن لقائه مع بيرغل بكل التفاصيل وبكل يأس قاتل. إنه يعرف إذاً أسباب فشله ويعرف عن الفرصة الفريدة التي أضاعها. وهذه المعرفة طبعاً ترفع الإنسان ـ هذا هو معنى كل فشل تراجيدي ـ فكرياً أيضاً فوق التناقضات التي تسبب مثل هذا الفشل.

لم يتمكن كافكا ولم يكن يجوز له أن يصوغ اللقاء مع بيرغل على نحو آخر إلا على شكل لقاء تراجيدي مع كل عناصر التراجيدي التي نعرفها منذ العصور القديمة: السخرية التراجيدية التي ينام بها ك. بالذات في اللحظة التي ينفتح له أقصى إنقاذ.

تجاوز التناقضات التراجيدية

بعد النوم العميق عند بيرغل يقع ك. مرة أخرى في الحالة الوسطى بين اليقظة والنوم. توقظه **الضربات الشديدة** على الجدار التي يضربها السكرتير المختص به إرلنغر الذي يدعوه إليه من أجل استجوابه. غير أن ك. **ما زال بحاجة بلا حدود إلى نوم.** في لقائه التالي مع إرلنغر ومراقبته لتوزيع الملفات في الصباح في الممر أمام غرف السادة يكون في حالة **نعاس لا يمكن التحكم فيه**، لا بل **كاد الأمر أن يكون نوعاً من الثمل**، نصف يقظ ونصف في غيبوبة.

في وعيه يشعر أن هذا النعاس هو سبب تأثيرين متناقضين، فهو يُخضعه للموظفين ويضعه في الوقت نفسه فوقهم عالياً.

في البدء لا يستشعر رغبة قط في أن يذهب إلى السكرتير المختص به: **على الأرجح كان خليقاً من غير اكتراث كذلك أن يمرّ بغرفة إرلنغر، لو لم يكن إرلنغر يقف في الباب المُشرَع ولو لم يلوّح له بيده.** طلب إرلنغر إعادة فريدا إلى كلمّ مرة أخرى، لم يجب عليه ك. بل يفكر في ذات نفسه أن هذا الطلب ـ الأمر **بدا مثل استهزاء.** كان إرلنغر قد أعلن: **مشاعر شخصية في ذلك لا يمكن مراعاتها.** إرلنغر يظل رسمياً محضاً. ك. يمانع في ذلك. ينشد **أن يحصل على أذن مصغية لصوته.** لكنه لا يستطيع أن يتحدث بسبب نعاسه الذي **لا يمكن التحكم فيه،** لذا يستحوذ عليه الشعور أنه موضوع الأوامر الرسمية لا حيلة له، وأنه **كان ذا درجة متدنية كثيراً أكثر من أن يتدخل فيها أو حتى أن يسكتها وأن يحصل على أذن مصغية لصوته.** بسبب إرهاقه ونعاسه لا يستطيع ك. أن ينفذ لدى الموظفين.

لكن كذلك في حالة وعي جليّ في النهار لما كان في مقدوره أن يحقق شيئاً. إذ إن إرلنغر يقول على نحو قاطع، إنه **لأمر بديهي** أنه لا يمكن مراعاة المشاعر الشخصية، **لذا لا أدخل كذلك في أدنى حديث آخر عن الموضوع.** إن ك. هو من كل ناحية عاجز إزاء السكرتير المختص به؛ إذ عبر إرلنغر تهيمن القوى الموضوعية بلا قيد. في مقدوره أن «يطلب» كل شيء، أما بيرغل فإنه «يضمن» بالطريقة نفسها الشخصَ والرسمي، يتحمل مسؤولية الاثنين وضمانتهما(*).

لكن مما يلفت النظر أن إرلنغر لدى انصرافه المسرع إنما كان أيضاً **يعرج قليلاً.** يبدو أنه غير واثق من موضوعه، حساس وقابل للإصابة، على كل حال معاق.

من ثم يتبع أيضاً التغيّر. بالذات بسبب نعاسه ولامبالاته يتفوق ك. على السكرتيرين غير المختصين به.

غير أنه أولاً يلاحظ وملؤه الحسد أن نعاس الموظفين، على العكس من نعاسه، إنما **كان نعاساً آخر كلياً غير نعاس ك. ... كان هدوءاً لا يفنى، سلاماً لا يفنى ... وتطابق مع ذلك كل المطابقة أن الحياة دبّت الآن في الساعة الخامسة في كل مكان إلى جانبي الممر. هذا الخليط المضطرب من الأصوات في الغرف كان فيه شيء من البهجة والفرح إلى أقصى درجة. مرة كان يبدو مثل تهليل أطفال يستعدون للقيام برحلة، ومرة مثل استيقاظ الدجاج في الحظيرة، مثل البهجة أن يكون المرء في توافق تامّ مع النهار المنبلج، حتى إن رجلاً في مكان ما راح يحاكي صياح ديك.**

(*) Buergen (القرية من Buergel) = يضمن (ا. و.).

إن الموظفين يعيشون إذاً في توافق تامّ مع الطبيعة. إنهم غارقون كلياً في قانونية الكون الموضوعية، بل إنهم يعيشون ويمثلون هذه القانونية. لكنهم طبقاً لذلك عاجزون أيضاً كل العجز، مرهفو الحس إزاء فردية ك.، الذي يقف بكل همومه ومعاناته ومطالبه العبثية أمامهم في الممر في الصباح الطالع مثلما يقف **شبح**، الذي كان عليه بدلاً من ذلك أن يتوارى عند الصباح مثلما تفعل **عثّة الليل**، حيث تقصد، عندما يبزغ النهار، ركناً هادئاً، تسطّح فيه نفسها. ببقائه في الممر لا يستطيع ك. أن **يمنع بزوغ النهار** كلياً، **لكنه يستطيع أن يقوم بتأجيله، يمكنه أن يعرقله.** ما استطاع الموظفون أن يتغلبوا عليه **بسعادة بمعونة الاستجوابات الليلية، لا يريدون أن يدعوا منظر أصحاب الطلبات، الذي يصعب عليهم تحمّله، أن يتسلل إليهم من جديد الآن في الصباح، على حين غرّة، بلا مقدمات، في كل حقيقته الطبيعية. بهذا لا طاقة لهم. أي إنسان يجب أن يكون هذا الذي لا يحترم ذلك! حسناً، يجب أن يكون إنساناً مثل ك. امرؤ يتجاهل، بهذه اللامبالاة البليدة وبالنعاس، يستهين بكل شيء، القانون، كما المراعاة الإنسانية الأكثر اعتيادية، لا يهمه في شيء أن يجعل توزيع الملفات مستحيلاً تقريباً.**

أ ـ فوز ك. على الموظفين

بهذا تكون العلاقة بين ك. والموظفين قد صيغت بدقة. ك. يمثل كل معاناة الإنسان الخفية، وكل المطالب التي عليه تقديمها إلى قانونية الكون العالمية. أما الموظفون فإنهم يتأرجحون في هذه القانونية العالمية. إنهم يضطربون عندما تقتحمهم هذه المطالب في وضح النهار. إن هدوء عملهم الأبدي وبديهيته مهددان. هدوءهم الذي **لا يفنى** وسلامهم يُطردان ويُحطمان. يائسين يصرخ الموظفون في الختام طالبين العون. ك. **يُحدث ما لم يكن قد حدث قط، أن السادة المدفوعين إلى اليأس يشرعون في الدفاع عن أنفسهم، بعد جهاد نفس لا يتصوره عقل إنسان عاديّ يلجؤون إلى الجرس ويستدعون نجدة كي يطردوا ك.**

إذ إن ك. تجاهل كل شيء، تجاهل قانون العالم. كل الناس الآخرين يذهبون في الصباح إلى أعمالهم، يتأقلمون مع القانونية العامة، ليس من شأنهم إطلاقاً أن يجرؤوا على أن يثقلوا على قوانين العالم بمطالبهم وشكوكهم الليلية أو أن يقوموا بتأخير بزوغ النهار. إنهم يستسلمون بمرح إلى أمزجة وأفراح النهار. ليلهم يغرق. لكن بسبب ك. يُخلّ إلى حد ما ببزوغ النهار، نظام العالم يضطرب، توزيع الملفات بات أمراً مستحيلاً تقريباً، لم يعد أحد يعرف أي ملف يخص أي سيد، يقوم نزاع وصراع بين السادة حول التوزيع الصحيح، النظرة الشاملة الواضحة تضيع، العالم مهدد بالتصدع.

هذا هو الحدث نفسه الذي يجري لدى كافكا في مطلع رواية «المحاكمة»، قصة

«الانمساخ»، قصة «طبيب ريفي» وقصص أخرى. التشابه يصل إلى التفاصيل، هكذا حين يقال إن ك. يتسكع في الممر مثل حيوان في المرعى. لقد تحول ك. مثل غريغور سامسا مجازياً إلى حيوان يخرج عن أنظمة الوجود ويبحث الآن عن غذاء. ذاته لم تعد تخضع، مثل البشر الآخرين، للوجود المعطى، بل هي كائن جائع غير بشري.

على كل حال، هذا الحيوان يوجد الآن في ممر نزل السادة **في المرعى**. هذا فرق حاسم للبدايات الكارثية لآثار كافكا الأولى هذه. ك. جمع خبرات كثيرة، لم يعد خارج نزل السادة، بل في وسطه أمام أبواب السادة الأقوياء ظاهرياً. في مقدوره أن يراقب بدقة توزيع الملفات، وعلى نحو جليّ جاء في هذا: **طفق ك. يراقب كل هذا ليس بفضول وحسب بل كذلك بمشاركة وجدانية. كاد يحس براحة في وسط هذه الحركة، راح ينظر إلى هنا وهناك.** مع أنه بهذه المراقبة إنما يزعج النظام، توزيع الملفات، فإنه يحس بأنه ينتمي له، لا بل إنه يكاد يحس بالراحة فيه. في وحدة متناقضة من عناصر متباينة يشعر بحرية، وفي الوقت نفسه هو مندمج في الحركة. بهذا يقف على درجة أعلى جوهرياً من غريغور سامسا أو الطبيب الريفي أو يوزف ك.

إنه في حركة العالم ومتفوق عليها بالطريقة التالية: بدون حضوره كان يمكن **لتوزيع الملفات أن يجري بسرعة وسهولة وبلا أخطاء**. إذ كان يمكن للسادة أن يخرجوا من أبواب غرفهم **وأن يتفاهموا معاً طبعاً في لمح البصر، في حين أنه لا بدّ لتوسط الخدم أن يستغرق طوال ساعات تقريباً، لا يمكن أن يحدث قط دون شكاوى، عذاب متواصل للسادة وللخدم وعلى الأرجح سوف يفضي حتى لدى العمل المقبل إلى نتائج ضارة.** ماذا يعني هذا؟

إن السادة لا يقوون على تحمّل رؤية ك. يظهرون له **وجوهاً ملثمة بالكامل تقريباً** عندما يراقبون توزيع الملفات وهم في أبوابهم. إذ إنهم **في الصباح بعيد النوم يكونون أكثر حياء وأرق شعوراً من أن يتمكنوا من تعريض أنفسهم لنظرات غريبة، يشعرون بمعنى الكلمة، ولو كانوا حتى يرتدون ملابسهم كاملة، أنهم عراة أكثر من اللازم حتى يظهروا أنفسهم.**

يبدو أنهم يخجلون من أسرار الليل، التي يعتقدون أنهم تغلبوا عليها **بسعادة بمعونة الاستجوابات الليلية**. إذ جاء بوضوح: **ربما يخجلون، هؤلاء العمال الأبديون، لأنهم ناموا ليس إلا. لكن ربما أكثر من أن يظهروا أنفسهم، إنهم يخجلون من أن يروا ناساً غرباء**؛ إذ إنهم لا يستطيعون أن يدعوا منظر أصحاب الطلبات الذين قاموا باستجوابهم في الليل **أن يتسلل إليهم من جديد الآن في الصباح**. إنهم لا يقوون على تحمّل التناقض بين ابتهاجهم

النهاري والهموم الليلية لأصحاب الطلبات. عليهم أن يخجلوا من أنفسهم أمام أصحاب الطلبات حتى لو كانوا يرتدون ملابسهم كاملة. إن الليل يُظهر نقاط ضعف النظام العالمي الموضوعي. هذا ما يعيه السادة.

لكن العمل الأبدي يجب أن يستمر. عندما يُخلّ به عند رؤية أصحاب الطلبات، لا بدّ الآن من أن يتوقف كل شيء. هنا يتدخل **الخدم**.

ب ـ معونة القوى الطبيعية

هؤلاء الخدم، الذين يجسّدون الحياة الطبيعية دون تأمل، ينفذون بعناد ضد كل الإزعاجات. ك. **يعجب كل الإعجاب** بالتشدد الذي يقوم به الخادم بتوزيع الملفات على الرغم من كل العوائق. صحيح أن الخادم غالباً ما يخطئ؛ إذ إن الملفات **ليست دائماً قابلة للتمييز على نحو جيد** من قبله. إنه لا يملك نظرة شاملة ويعطي الملفات أحياناً لسادة ليست محددة لهم. هنا تنهال الشكاوى، فيجب عليه أن يبادل **اعتراضات المالك السابق باعتراضات مضادة جديدة** إلخ. لكن بعناد وخداع يتمّ له في نهاية المطاف توزيع الملفات. المضايقات التي يسببها حضور ك. تفضي إلى اضطراب في مسائل الاختصاص. كل امرئ يريد أن يستحوذ بجشع على أكبر عدد من الملفات ولا يعيد الملفات التي أعطيت له على سبيل الخطأ إلا غاضباً بأن **يقذف بها بقرار مفاجئ إلى الممر بعيداً، بحيث أن خيوط الربط كانت تتفكك والأوراق تتطاير وكان على الخادمين أن يبذلا جهداً كبيراً حتى يعيدا ترتيب كل شيء**.

جـ ـ الكون والكيان الفردي

النظام المزعَج والمفكوك يفضي إلى تضارب فوضوي لكل السادة. الاتصالات البديهية التي تقوم عادة بين الجميع انقطعت. كل امرئ يجلس منعزلاً في حجرته. ما من تفاهم مع الجار ممكن.

صحيح أنه ما من أحد منهم **يفكر قط بمنفعة فردية**، لكن لا أحد منهم يستطيع أن يستشفّ دون اتصال مع المجموع ما هو من مجال عمله. صحيح أن التوسطات من قبل الخادم موجودة، لكنها شاقة ومثل طريق التفافي، تؤدي باستمرار إلى أسئلة وردود، وهي **عذاب متواصل للسادة وللخدم**.

بكلمات أخرى: بحضور الكيان الفردي ك. فقد نظام العالم بديهيته على نحو ما. لم يعد يسير بسلام وبلا تصدع. من أجل كل ملف، هذا يعني من أجل كل حادث في الحياة يجب التأمل إلى أين يخص هذا الحادث أصلاً. صحيح أن الخادم الذي يمارس خدمته منصاعاً

يتوسط ببسالة وشدة؛ لكنه يلاحَق على الدوام جيئة وذهاباً من رسائل واعتراضات جديدة من قبل السادة. إنه يعمل لدرجة الإرهاق، والسادة. يشرعون في الصراخ.

هذا يعني إذاً: في اللحظة التي يظهر فيها مرئياً كل وجود أرضيّ على شكل إنسان مفرد، الطرف ك.، يصبح كل شيء شاقاً. الحياة والفكر يلقيان صعوبات جمة بعضهما مع بعض وفيما بينهما. ما من شيء يريد أن يسير بعد الآن. وهذا يفضي إلى ضرر ونتائج خطيرة على معالجة الملفات لاحقاً. صحيح أن كل شيء يسير على طريقه؛ الخادم يعمل على ذلك؛ لكن كل شيء يسير بتعثر وبطء. بزوغ النهار، الدخول إلى طبيعية كل ما يحدث، هذه الطبيعية المرحة البديهية، يجري تأجيله وعرقلته، وإن لم يمكن منعه، إذ إن هذا غير ممكن.

من المميز أن الاستجوابات الليلية إنما تجري **في نور اصطناعي** على العكس من ضوء الشمس الطبيعي، الذي يتوق إليه السادة. غير أن السادة لا يملكون سوى الرغبة الملحة في **نسيان كل بشاعة فور انتهاء الاستجواب والابتهاج بالنهار.** إنهم لا يريدون أن **يُفسد عليهم الصباح، وقتهم المفضّل.**

فقط سيد واحد يعمل استثناء في النزاع حول الملفات: بيرغل. لا تخصص له ملفات، وباب حجرته يظل **مغلقاً طوال الوقت. إن بيرغل هو رجل اتصال بين القرية والقلعة، الشخص والشخص الرسمي. الموضوع لديه هو ترجمة كل فضاء من الفضاءين إلى الآخر؛ لذا لا يمكنه أن ينغمس لا في الأول ولا في الآخر، لا يستطيع أن يسبح في تيار الملفات، ولا أن يقع في بلبلة توزيع الملفات.**

د ـ إتلاف ملف ك.

أخيراً يجري توزيع كل الملفات. ك. يلاحظ استثناء واحداً. **كان هذا عدم الانتظام الوحيد الذي كان ك. قد رآه هنا في عمل المكاتب.** الخادم الذي كان دائماً **ينظر نحو ك. بحنق أو نفاد صبر وهزة رأس عصبية** يمزق ملفاً وحيداً، **في الحقيقة ورقة صغيرة وحسب، قصاصة من دفتر ملاحظات، بقيت حيث هي في العربة الصغيرة نتيجة إهمال المعاون.** يمزقها **إلى قطع صغيرة ويدسّها في جيبه ... بالسبابة على شفتيه أعطى مرافقه إشارة أن يصمت.** هنا يجول في ذهن ك.: «**يمكن جداً أن يكون هذا هو ملفي. كان العمدة يتحدث دائماً حقاً عن أصغر الحالات هذه.**»

حقيقة أن كلاً من الخادم ومعاونه إنما ينظر إلى ك. **بحنق** تدعني أخمّن أن إتلاف القصاصة يعني ثأر القوى الطبيعية من ك. حتى لو كان المجموع مجرد خاطرة عابرة في نفس ك.، فإن

ذلك يكتسب دلالة كبيرة في ما يخص حياة ك. الداخلية ودرجة الوعي التي يكون فيها. ك. نفسه لا يحمل المسألة محملاً تراجيدياً. يبدو أنه يقف أكثر ابتعاداً من أحداث الملفات ومن ملفه الخاص به. يبدو أنه لن يقضّ مضجعه إذا ما اختفى حدث الملفات المتعلق به من بيروقراطية القلعة اختفاء كاملاً. يبدو أنه داخلياً يقف أكثر هدوءاً إزاء نفسه وإزاء البيروقراطية، وذلك بأنه بات على اطلاع أكثر على عمل المنظمة الرسمية، لا بل شرع يشعر ضمنها بالراحة تقريباً.

غير أن السبب الحقيقي لسلوكه ـ ولذا أيضاً لتفوقه ـ إنما يكمن في الحالة التي يكون فيها، حالة نعاسه الفائق، هذا النعاس الذي يضعه في وضع وسطي فريد بين وعي اليقظة والغيبوبة. إنه، من طرف، يراقب كل شيء بدقة، كل ما يجري في الممر أثناء توزيع الملفات، ومن طرف آخر يشعر أن الأمر لديه إنما **كاد أن يكون نوعاً من الثمل** يغيّب عنه كل شيء. وهو يرى أن هذا الثمل التعب هو السبب في أنه بقي في الممر وأزعج توزيع الملفات. هو نفسه لم يعرف إطلاقاً ما أحدثه بذلك. لم يحدس أنه بمجرد وجوده إنما كان يهيمن على السادة، بحيث أنه كان عليهم بسببه أن يصرخوا طالبين النجدة إلخ. هذا كله يعلمه فقط من صاحب النزل وزوجته، ويعتذر لديهما بنعاسه الذي كان أكبر من كبير وبحالة الثمل التي كانت تعتوره.

هـ ـ وضع ك. المتفوق

لكن بالذات حالة النعاس الثملة هذه بين النوم واليقظة هي ذات أهمية كبرى لفهم نهاية كفاح ك. المحتملة. في هذه الحالة تتبيّن «الحلول» التي تسعى الرواية إليها:

يدور الموضوع حول الجسر بين الوعي اليقظ في النهار والمعرفة الليلية، الخفية، في العقل الباطن. فقط الربط بين الاثنين يمكن أن يوحّد وجوداً حراً ومرتبطاً. فقط كون ك. لا يعرف أنه بهمومه الليلية إنما كان يهيمن على السادة كما يفعل شبح، ويزعج نظام العالم، استطاع بعامة أن يمارس سلطته عليهم. وهو لا يفكر عن وعي بأي إزعاج، ويطلب المعذرة، ولا ينشد سوى أن يجلس إلى مكتبه ويعمل كمسّاح أراض بسيط.

لكن بالذات هذا العمل الهادئ غير متاح، إذا لم تواجه ذات الإنسان بمطالبها العبثية الضرورية مجموع العالم المتأرجح، إذا لم يلتق الشخص الرسمي والشخص غير الرسمي، إذا لم يمكن ربط الوعي العام في النهار مع المعرفة الليلية والمعاناة وتصالحهما.

لكن إذ ينظر ك.، دون أن يعرف قوته، إلى داخل حركة توزيع الملفات، يكتسب أيضاً معرفة متفوقة أعلى. صحيح أنه لا يعرف شيئاً عن قوته الخفية، لكنه يعي كفاحه ويعرف مطالبه العبثية الخاصة به. وكذلك المكنيات تتوضح له تدريجياً، حتى إنه يشعر فيها **بالراحة تقريباً**.

طبعاً إن لقاء شخصياً بمعنى قصة بيرغل غير ممكن هنا. وجوه السكرتيرين تظل ملثمة. العالمان لا يتلامسان. أجل، كافكا يصعّد استحالة لقاء إلى أقصى درجة: العالم نفسه لا يمكن أن يصمد تحت نظر إنسان مثل ك. بالأحرى يتلاشى من أن يظهر نفسه أمام ك.، أن يكشف نفسه أمامه، يتعرى. **ك. ظل هناك، واضعاً يديه في جيبيه، وكأنه ينتظر، إذ لا يبتعد، أن الممر بكامله مع كل الغرف وكل السادة سوف يبتعد. وكان من شأن هذا أيضاً ـ يمكنه أن يكون واثقاً من ذلك ـ أن يحدث بالتأكيد لو كان ممكناً على نحو من الأنحاء، إذ إن رقة مشاعر السادة لا حدود لها.**

بيد أن مجرد وجود ك. يعني فضح العالم. هذه فكرة كافكاوية حقة.

لكن عالماً مفضوحاً لا يعود قادراً على الوجود. لا بدّ من مطلب تحوّله إلى عالم ذهني خالص، عالم غير مرئي.

نضوج ك. للموت

يقف ك. قريباً من مثل هذا التحول. كان بيرغل قد صاغ الموضوع على نحو جليّ: لقاء شخصي بين ك. والموظفين كفيل أن يزيل **توازن العالم** نفسه. هذا اللقاء غير ممكن ضمن العالم الأرضيّ المرئيّ. إنه مسألة تبوء بالفشل **بسبب ذاتها**. كان لا بدّ للقاء بين ك. وبيرغل من أن ينتهي على نحو مأساويّ. لكن ك. يهز توازن العالم. لا شيء آخر يعني إزعاجه لتوزيع الملفات، هذا الإزعاج الذي لم يسمع بمثله من قبل ولم يحدث مرة في يوم من الأيام. عليه أن يتحمل العواقب، أن ينصرف من العالم.

هذا ما أنبأ عنه حدس خاطف له بأنه من الجائز أنه لدى إزعاجه توازن الموظفين أن يكون ملفه الخاص به قد تمزق. لكن ما يشير إلى ذلك قبل كل شيء هو المشهد التالي مباشرة: لقاء صاحبة نزل السادة.

أ ـ قرب صاحبة نزل السادة من الموت

تقف صاحبة النزل هذه على درجة متطرفة من درجات الوجود. تريد أن تطرد العالم الأرضي المحدد من نزلها، أن لا تقبل استقبال أصحاب الطلبات في نزل السادة، بل عليهم أن ينتظروا في مبنى يخصص لهم خارج نزل السادة. والأحب إليها أن تنقل استجواباتهم إلى هناك، وذلك لأنها **في مسعاها المرضيّ إلى الفاخر** لا تريد أن يجري **توسيخ** نزل السادة باستمرار. إنها لا تستطيع تحقيق ذلك لأن السادة لا يرغبون في نقل مكان الاستجوابات إلى خارج النزل ويضطرون إلى التردد بين حجراتهم ومبنى قروي خارج نزلهم.

مع ذلك تتابع صاحبة النزل محاولة تحقيق هدفها بإصرار، وتروح تمارس **بحكم حماستها الأنثوية الرقيقة التي لا تكلّ ولا تملّ نوعاً من استبداد صغير.**

بين صاحبة النزل هذه وك. يجري الآن لقاء حلميّ غريب. يوجه ك. نظرة إلى صاحبة النزل تصيبها بذهول، تقول لزوجها: «**كيف ينظر إليّ! ليتك تصرفه أخيراً!**» ك. يقول: «**لا أنظر إليك أنت، أنظر إلى ثوبك فقط.**» «**لماذا ثوبي؟**» **سألت صاحبة النزل بانفعال. ك. هزّ كتفيه. «تعال»، قالت صاحبة النزل لزوجها، «إنه لثمل، الفظّ. دعه ينام هنا كي يفيق من سكرته.»**

لكن، حين يفيق ك. من نومه الطويل ويلتقي صاحبة النزل لا يستطيع أن يتذكر وهو في حالة اليقظة ملاحظته بشأن ثوبها. تماماً على العكس تستغرق صاحبة النزل في نوم يقظ حلميّ، حين قال ك. «**إنه كان لديه انطباع أن صاحبة النزل إنما تريد أن تتحدث معه.» نظرت إليه صاحبة النزل نظرة كأنها تحلم. من خلال هذه النظرة أُبقي على ك. مدة أطول مما كان يريد. والآن ابتسمت أيضاً ابتسامة خفيفة وفقط من خلال وجه ك. المندهش أوقظت إلى حد ما، كان الحال وكأنها كانت تتوقع جواباً على ابتسامتها وفقط الآن إذ لم يأت، تستيقظ. «أظن أنه كان لديك أمس الوقاحة أن تقول شيئاً عن ثوبي.» لم يستطع ك. أن يتذكر.**

رغم عدائها الأوليّ الظاهريّ ضده ينشأ في داخلها إذاً علاقة حلمية به بناء على **معرفته بالثياب.** إنها منفعلة إلى أقصى حد، تكون في حالة انفصام بين صدّ ك. والميل إليه، لا سيما حين يكتشف ك. تناقضاً بين حياتها كصاحبة نزل وحانة وبين ثوبها. إنها ترتدي ثياباً جميلة كما لم ير مثلها من قبل. وفيما بعد يقول لها: «**إنك لست صاحبة حانة ونزل وحسب، كما تتظاهرين.**» منفعلة تنادي: «**أصلاً ـ هنا كان الحال كأن قشعريرة أصابتها ـ لا يجوز لك أن تنشغل بثيابي، هل تسمع؟ وإذ أراد ك. أن يستدير ثانية بصمت، سألتْ: «من أين لك إذاً معرفتك بالثياب؟»**

القشعريرة التي تصيبها لدى التفكير في ملابسها تشير إلى فضاء الموت. ورأسها المنكس على كتف زوجها يشير إلى نظير ذلك. حقاً، هذه المرأة لم تعد صاحبة حانة منذ مدة طويلة. لم تعد تقوم بتوزيع المشروب. لقد خرجت من فضاء كلمّ، من علاقات الحب. تبغي أن تطرد العالم الأرضيّ من نزل السادة **في مسعاها المرضيّ إلى الفاخر** والنظيف. تزيّن نفسها بملابس جميلة، بملابس سهرة في الصباح. إنها في أواخر عمرها.

لكن فقط في حالة حلمية بين اليقظة والنوم تملك هي وك. معرفة بالملابس. وفي مثل هذه

الحالة كان ك. أيضاً قد أخذ انطباعاً خاطفاً بأن ملف حياته الرسمي إنما قد تمزق.

ما فتئت صاحبة النزل تعيش في تناقض ذاتي. كانت وهي منفعلة تبغي أن تمنع ك. من إزعاجه لتوزيع الملفات على الموظفين. من طرف آخر تستشعر علاقة داخلية به، نظرته العارفة الحالمة تثيرها. وأخيراً تريد أن تعلم منه بدقة كيف يحكم على ثيابها. تقوده إلى مكتبها الشخصي، تريه كمية كبيرة من الملابس وتسأله: «**كيف هي الثياب إذاً؟**» «**ترغبين في معرفة الأمر. إنها من قماش جيد، ثمينة بحق، لكنها عتيقة، مبهرجة، معدّلة بإفراط غالباً، بالية ولا تناسب سنوات عمرك ولا قوامك ولا مركزك.**»

يمكن تفسير هذا بطرائق متنوعة. زوجها يوصف بأنه رجل متعلم. هي نفسها تُظهر **مسعى مرضيّاً نحو الفاخر.** إنها تنفر من الحياة القروية الخشنة. ترغب إن أمكن أن تظهر كل يوم بثوب آخر جميل بشكل خاص. إن الملابس لدى كافكا هي رموز حالات روحية ـ ذهنية للإنسان. هنا لا تملك صاحبة النزل إذاً جوهراً ذهنياً ـ روحياً ثابتاً أبداً. إنها تبدّل ملابسها باستمرار. تتزين إلى حد ما بأشكال مصطنعة من الروح والذهن، هذه الأشكال التي تبدو حين ترتديها **عتيقة، مبهرجة.** تقوم بدور المتعلمة من الفئة الراقية فكرياً، لكن دون أن تتماهى فعلاً مع أي ثوب. هنا يُظهر كافكا سخرية من «سيدة المجتمع». إن خصالها الفكرية أبعد ما تكون عن **سموّ** أماليا مثلاً.

لكن تفسيراً آخر هو تفسير ممكن. كل ما كانت ارتدته طوال حياتها، بات الآن عتيقاً. إنها تقف الآن أمام نهايتها. تريد أن تقاوم ذلك وهي يائسة، غير أنها تشعر في أعماقها أن ك. على صواب.

كلا التفسيرين ممكنان، لكنهما لا يحتاجان إلى أن يتناقضا، إنهما يكمّلان بعضهما بعضاً. ثيابها كانت دائماً عتيقة ولا تناسبها. لكن الآن، إذ تستشعر **قشعريرة**، ينكشف كل شيء من غير هوادة. وكلمتها الأخيرة إلى ك. يمكن أن تكون ذات معنيين: «**سأحصل غداً على ثوب جديد، ربما أستدعيك.**» ليس من الضروري أن يكون هذا مجرد تباه سخيف، بل يمكنه أن ينشأ من حدس بأنها حقاً، كما قال ك.، إنما تسعى إلى شيء آخر، إلى فضاء فوق أرضيّ؛ وثوبها الجديد، كما تأمل، سوف يكون ثوبها الحقيقي الذي يناسبها، والذي سوف ترتديه غداً، أي وهي تقترب من الموت؛ وسوف تستدعي ك. ربما، ك. الذي تجرأ كأول إنسان على أن يزعج حياة الموظفين، والذي تشعر، وهي في صحوة حالمة، بالارتباط به على نحو لغزيّ.

في هذا التفسير ثمة جرأة، لا يمكن البرهنة عليه بشواهد كافية من الرواية، لذا فقد صيغ بصفته فرضية إشكالية، دون أن يدّعي قوة إثبات.

ب ـ إمكانيات تتمة الرواية

كذلك نظرية أن ك. إنما شاهد في الممر إتلاف ملف حياته هي نظرية إشكالية بما فيه الكفاية. حتى ولو كانت هذه النظرية صحيحة، فإنه ليس من الضروري أن توشك حياته نفسها على النهاية. وجوده **الرسمي** يمكن أن يكون مهدداً، لكن الشخص **والشخص الرسمي** ليسا شيئاً واحداً. في مقدور ك. أن يستمر في العيش في القرية، يمكن أن توضع ملفات رسمية جديدة عنه إلخ. يمكن تتمة الرواية بأشكال متعددة وهناك إمكانيات جديدة: عرض بيبي، الذي لم يتخذ ك. قراراً بشأنه، زيارة ك. لغرشتكر الذي يطلب منه أن يقيم لديه ويشرف على خيوله. كما أن قصة فريدا لم تكتمل، إذ إنه من غير الثابت بتاتاً أن فريدا تقطع علاقتها بـ ك.، كما أنه ما زال يخطب ودّها. من الضروري إنهاء حدث أماليا ـ أولغا. وفي الختام حتى المساعدان لم تنته قصتهما، إذ إن آرتور يقدم شكاوى في القلعة ضد ك. لا نعلم إلى أين أفضت.

مع ذلك لا يمكن كتم السؤال المهم: لماذا توقف كافكا عن الكتابة في الرواية وهي في هذا الطور، وأقبل على كتابات أخرى؟ وبالإلحاح نفسه يجب طرح هذا السؤال لدى معظم إبداعات كافكا الأخرى التي ظلت غير مكتملة. إن الجواب عن هذا السؤال أيضاً بخصوص رواية **القلعة** يظل جواباً افتراضياً. مع ذلك يجب التجرؤ على محاولة إيضاح.

جـ ـ وضع ك. المتفوق بين الحرية والقانون

وصلت الرواية إلى درجة يتبادل فيها الشخص والشخص الرسمي، الفردية وقانونية العالم العامة، اجتياز اختبارات قصوى. ك. أزعج نظام الوجود إزعاجاً شديداً. الموظفون يصرخون طالبين النجدة. هو نفسه لم يستطع تحقيق ذلك إلا في حالة من الإجهاد غير الإنساني. كان عليه أن ينام **طوال أكثر من اثنتي عشرة ساعة**. إن الحفاظ على التوازن بين النوم واليقظة يتطلب لدى كافكا بذل أقصى الجهود. كما أن ذلك هو الفرصة الوحيدة لإيضاح التناقضات بين الحرية وقانونية العالم، كما جاء في شروحات بيرغل.

في النوم لا تتوافر سوى حرية فارغة. في حالة اليقظة الكاملة يكون الإنسان دائماً تحت موظفيه. في اليقظة لا يستطيع بتاتاً أن يأتي بحرية ودون سابق إعلام. **فقط في لحظة غير مراقَبة ـ لكن هذا يحتاج إلى ليل، معتم كما لم يكن ليل آخر ـ يستطيع الإنسان أن يقفز من جبهة الكفاح ويصبح قاضياً** على خصميها المتصارعين معاً.

لو كان ك. قد وقف أمام الموظفين في الممر وهو في حالة يقظة تامة، كان من شأنه أن يشرح لهم بشكل واعٍ همومه الليلية ومطالبه العبثية، لكان قد وقع في أسر الحياة المعلّلة، أي إنه كان سيتحول إلى حدث ملف رسمي إلى جانب آخرين عديدين، قابل للتسجيل والتنظيم في

القوانين العامة، ويمكن استجوابه كما أراد إرلنغر أن يفعل معه قبل ذلك في الممر نفسه، وكما يُعمل مع الآخرين من قبل السكرتيرين. لكن كونه كان يقف هنا في حالة حلمية بين اليقظة والنوم، وفي نعاس لا يمكن السيطرة عليه، فقد دخلت ذاته التي لا يمكن إبعادها، كينونته التي لا تُدمَّر، دخلت إلى الموظفين على نحو جوهري ومرعب.

لكن في الوقت نفسه ـ وهذا هو الجهد الذي أنجزه في نعاسه ـ تمكن من مراقبة الأحداث بدقة، واطلع على حركة الملفات، وأظهر مشاركة فيها، ونفذ إلى الفضاء الرسمي وشعر فيه بالراحة تقريباً. إنه يظل في عالم الموظفين، ويقف أمامه في آن كفردية مهدَّدة لا يمكن إبعادها. بهذا قد أنجز حقاً كل ما في طاقة الإنسان: أن يعيش حراً ومع ذلك مشاركاً في المسائل العامة.

لكن في هذه الدرجة العليا تصطدم الحياة والموت بعنف. إن منظمة الموظفين مهددة هنا حقاً ـ كما كان بيرغل قد قال ـ بأن **تتمزق بمعنى الكلمة**. بزوغ النهار يؤجل. الحياة تبدأ بالتوقف. إذا لم يبتعد ك. فإن **الممر بكامله مع كل الغرف وكل السادة سوف يبتعد ... لو كان ممكناً على نحو من الأنحاء**.

إذ حتى لو حدث ما لا يمكن تصور حدوثه، والذي من أجله **لا يوجد مكان في هذا العالم**، أن يتماهى موظف مع صاحب طلب تماهياً كاملاً، أن يدخل إلى **حياته المسكينة** ويقوم **بالتنقيب فيها** كما في الملكية الخاصة، أن يرفع ذات الإنسان غير المعللة وغير القابلة للصياغة إلى وعي عام، حتى هنا وهنا بالذات سوف تتمزق المنظمة الرسمية؛ إذ من شأن انقلاب متناقض لكل الظروف أن يطرأ:

إذا باتت الحرية الفوضوية قانوناً للعالم، فإن كل الأنظمة تتحطم، وكل الاختصاصات تزول، ويساء استخدام الوظيفة إساءة لا يمكن تصورها. الفردية تحقق أهدافها، والنتيجة: تعمّ فوضى شاملة.

صحيح أن قانون الفردية الحرة هو القانون الإنساني الحق. لكن عليه أن يظل سرياً، لا يمكنه بتاتاً أن يتخذ شكلاً مرئياً قابلاً للصياغة. لهذا السبب **طبعاً لا يوجد له مكان في هذا العالم**. فقط بصفته مطلباً يمكن له ويجب عليه أن يحتفظ بفاعلية. هذا يعني في آن: تحقيق الفردية الحرة ليس من شأنه أن يكون شيئاً آخر سوى الانتقال من الحياة إلى الموت.

هذا هو السبب الحقيقي لانفعال صاحبة النزل وشعورها بقشعريرة إذ ينظر ك. إلى ثوبها. إذ إن صاحبة نزل السادة هذه تعرف حقاً ما يجري في الممر. إنها تعرف تعثرات الحياة التي سبّبها حضور ك. تعرف أن جهل ك. الحلمي بالذات وإصراره على ذاته غير القابلة للصياغة إنما يعني انتهاء كل حياة.

لكن بهذا تتوضح علائق أخرى وأكثر أهمية:

يقف ك. حراً بلا تعليل ومشاركاً في حركة الوجود. لكن من هذا يمكن أن ينشأ شكل جديد من أشكال الوجود مغاير كلياً. في مقدوره **سرياً** أن يثبت قانونه الفردي الحر في وسط عامة الوجود.

هذه الإمكانية تنشأ من عرض بيبي، هذا العرض الذي يحصل الآن ـ من وجهة النظر هذه ـ على مظهر مغاير كل المغايرة.

مما يلفت النظر أن عرض بيبي جاء متأخراً للغاية، لم يأت إلا مباشرة بعد تجربة ك. لدى بيرغل وفي الممر، علاوة على ذلك يُعرض بتفصيل كبير. على ك. أن يُخفى بالسرّ في وسط نزل السادة في غرفة بيبي؛ وهذه السرية بالذات تعجب الفتيات غاية الإعجاب. هو، **البطل ومحرر الفتيات**، الرجل الحر إذاً، حتى الذي تظن بيبي أنه يملك القدرة على حرق نزل السادة برمّته، بالذات هو عليه أن يمارس حريته هذه ويمارس حمايته الذكورية للبنات بالسر في داخل نزل السادة.

ما من شك أنه يجري التعرض هنا لإمكانية وجود حقيقية. خليق بـ ك. أن يفلت من الاستجوابات والمحاضر ويخرج على سلطة الموظفين ولا يظهر نفسه **في أي مكان**، خليق به أن يحافظ على قانون فرديته مخفياً في وسط العام. في مقدوره أن ينوجد فردياً. من شأن التناقض بين الحرية وقانونية العالم أن يُذلل كما بضربة سحر.

كذا من شأن ذلك أن يساعد بيبي ورفيقتيها. هن، خادمات الغرف، اللواتي يقعن تحت رحمة الموظفين وخدمهم، يجدن حماية لدى رجل حر متفوق، يستشعرن فضاء شخصياً خاصاً بهنّ، يمتلكن سراً يخصهنّ وحدهنّ. في الوقت نفسه يستطعن أن يبعدن عن حاميهنّ كل ما يهدده. إذ إنهن يعرفن، من خلال عملهن كخادمات لدى السادة، المخاطر التي تحيق به. لذا من مصلحة ك.، كما ترى بيبي، أن يتبع نصائحهنّ: «**أيضاً في ما عدا ذلك عليك طبعاً أن تكون حذراً عندما تكون لدينا، لا تظهر نفسك في أي مكان نعتبره خطراً وأن تتبع نصائحنا بصفة عامة؛ هذا هو الأمر الوحيد الذي يربطك، ولا بدّ لك من أن تكون حريصاً على ذلك مثل حرصنا نحن، لكن في ما عدا ذلك، فإنك حر كلياً.**» «**عندما يأتي الربيع وتجد مأوى في مكان ما ولا يعود المقام لدينا يعجبك، فبإمكانك حقاً أن تذهب، غير أنه يتعيّن عليك من ثم أيضاً أن تحفظ السر ولا تشي بنا، إذ من شأن هذا أن يكون ساعتنا الأخيرة في نزل السادة.**»

في مركز تأملات بيبي يأتي إذاً سرية إقامة ك. لديها في نزل السادة. إذ حسب قوانين السادة لا يجوز أصلاً لشخص غير رسمي، دخيل، أن يبيت في نزل السادة. الفتيات يخرقن

بهذا عن وعي القانون الرسمي، وسيلقين الضياع إذا ما عُرف خرقهنّ. إنهن يخاطرن بالكثير. كذلك حرية ك. لا يمسسنها. ففي مقدوره أن يذهب في حال انتهاء موجة البرد في الخارج.

طبقاً لذلك يمكن تفسير دور بيبي ورفيقتيها كما يلي: بيبي لا تملك هوية فردية حقيقية، لا تملك **نظرة** فريدا، لكنها كانت ذات مرة **قد انصرفت** من وجودها الضيق إلى المشرب، إلى البرد في العالم الواسع، حيث يحمى وطيس الكفاح، وحيث يجب دائماً التوسط بين رغبات الموظفين والخدم والزبائن من القرية. هناك أخفقت. مستسلمة تعود، لكن في الوقت نفسه خائفة من **الحياة البائسة** في غرفة البنات. صحيح أن دفئها يمنح حماية، لكن ليس من القوى المجهولة غير المرئية، التي **تسترق الخطا** خارج الغرفة. وحده ك.، الرجل الحر، العارف، يستطيع أن يساعد هنا، يستطيع أن يمنح شعوراً بالطمأنينة، لكن فقط إذا ظل كل شيء سراً. من طرف آخر خليق بـ ك. أن يتمتع هنا بطمأنينة وحرية منطوية على أسرار.

لكن هذا يعني: إزاء صراع فريدا المتضارب بين كلمّ وك.، بين الارتباط الحسي جماعياً والحرية الفردية، فإن بيبي تمثل فضاء صحيح أنه ليس فردياً، لكنه فضاء روحيّ - حسّيّ منقذ، مُراع، مدفّئ، غلاف حيّ على نحو ما، بدونه لا يستطيع إنسان حر أن يعيش.

لا تقدم بيبي مطالب فردية لـ ك.، لا تبغي أن تملكه بالضرورة كفرد. لا تستشعر غيرة من صديقتيها. إنهن يشكلن ثلاثية روحية - حسية - ذهنية مرتبطة. في هذه الفتيات الثلاث يمكن لـ ك. أن يجد تكملة له، مقابلاً أنثوياً لا ريب أنه كان يفتقده. في هذه الحالة من شأن النزاعات المضنية مع فريدا أن تتوقف. خليق به أن يتحرر من الجهود اليائسة التي تقوم بها أولغا في سبيل الوصول إلى القلعة، وكذا من أحاديثها البيزنطية. وليس من شأنه أن يستطيع كبح جماح السموّ البارد لأماليا إلا بكفاح شرس إلى أقصى درجة؛ إنها تقف إزاءه كفضاء عدائي مفعم بالازدراء. أما بيبي ورفيقتاها فإنهن تمنحانه طمأنينة مؤكدة في وسط حركة الموظفين. في مقدوره أن يكون معهن حراً وآمناً في آن، فقط إذا ما أُبقي على ذلك سراً.

في تشكيل شخص بيبي يكمن إذاً انتقاد حاد لأشكال زواج بورجوازية معينة، كما يُرى في هذا التشكيل إمكانية حب تظهر في وضعية متطرفة يعيشها ك.:

بعد أن مرّ ك. ضمن الحياة المحددة في القرية بأكثر نزاعات الحب تنوعاً في مجال توتر القوى الحيوية والذهنية والجماعية والفردية، وبعد تعرّفها، وُضع على مستوى جديد من خلال لقائه مع بيرغل وتجربته في ممر نزل السادة. لقد عاش مبدئياً النزاع بين الفردية والعام، بين الفرد والشخص الرسمي، وأثبت وجوده أمام هذا النزاع. لقد توضحت التناقضات. في نوع من المعرفة الحلمية الصاحية توضح انعدام توافق وجوده مع جهاز الموظفين. ك. يعرف الآن أن لقاء شخصياً مع كلمّ، هذا اللقاء الذي كان قد حاول بعناد تحقيقه في علاقاته مع فريدا ومع صاحبة نزل الجسر، غير ممكن في حد ذاته، من شأنه أن يزيل نظام العالم أو يزيله نفسه من عالم الظواهر الخارجية المدرَك حسياً.

لكن بهذا بات صراعه بين الحب الشخصي وفوق الفردي، بين الحسي والذهني، وهماً. كذلك مساعي أولغا، التي تبحث أيضاً عن لقاءات شخصية مع الموظفين عبر توسط الخدم، وحتى موقف أماليا، التي في عزلتها خارج العالم تزدري دوائر القلعة برمتها، لا يمكنهما أن يكونا ذوي أهمية مقرِّرة ومرشدة له.

ك. يقف الآن فوق التناقضات، في تغلغل مجدّ للوعي وفقدان الوعي. في مثل هذا الوضع يمكن لفضاء نسائي مطمئن وبلا مطالب أن يكتسب معنى جديداً ذا مغزى. هذا الفضاء يُبقي على حياة ك. بأن يحفظ سره ويحميه بعناية، ولا يترك شيئاً منه يظهر بعد الآن نحو الخارج. حياة غير معللة، تخلو من التسجيلات والنزاعات تصبح ممكنة. لا يمكنها بعد الآن أن تجري في القرية، في مناطق النزاع في العالم. فقط في داخل نزل السادة، حيث تجري الحياة العامة، وهناك أيضاً فقط في الخفاء يمكن للحرية والارتباط أن يتصالحا.

غير أن مثل هذا الوجود هو وجود أخرس. إنها طمأنينة في العالم لا عالم لها. إنها حرية، لكنها سر غير مرئي وبلا كفاح. وهي أسر، احتجاز، حجز من الوجود، لكن كراحة هادئة. وهو حر يكون المرء سجيناً وسجين يكون حراً. مثل هذه الحياة هي في الحقيقة موت. الدفء الظاهري برودة. الحب تحول إلى حالة غسق، قبر حي. إن الحال **كأنه لا يمكن أن يحدث في الواقع شيء خارج الغرفة، إنها دافئة وضيقة ونحن نتلاصق.**

كذلك مثل هذا الوجود لا يمكن تحمّله. ك. سوف يستغني عنه شاكراً.

هـ ـ والدة غرشتكر: القرب من الموت

يذهب مع غرشتكر إلى القرية. يعرض عليه **طعاماً وسكناً** وعملاً... كمساعد **في العمل لدى الخيول.** ردّ ك. قائلاً **إنه لا يفهم شيئاً مطلقاً عن الخيول. هذا غير ضروري بتاتاً، قال غرشتكر.** ك. لا يريد مساعدة بلا مقابل. حين يسمع من غرشتكر أن هذا يحتاجه لكي يحقق له شيئاً لدى إرلنغر، يضحك ك. ويذهب معه. في موضع حذفه كافكا يصرح رداً على قول غرشتكر إن أمه قالت إنه لا يجوز للمرء أن يهمل ك.: «**كلمة طيبة. لهذا السبب بالذات لن أذهب إليك.**» ك. لا يريد شفقة ومعونة.

حسب النص غير المحذوف يذهب ك. الآن **عبر الظلام** إلى كوخ غرشتكر: **كانت الغرفة في كوخ غرشتكر مضاءة إضاءة خافتة من نار الموقد ومن جذر شمعة كان لدى ضوئها ينحني أحدهم في تجويف تحت دعائم السقف المائلة والبارزة إلى الأمام ويقرأ في كتاب. كانت أمُ غرشتكر. مدّت يدها المرتعشة إلى ك. ودعته يجلس إلى جانبها، بمشقة تحدثت، كان من الصعب فهمها، لكن ما قالته** ... بهذا تنقطع مخطوطة الرواية.

يواجَه ك. في القرية بامرأة طاعنة في السن تجلس أمام نار الموقد تحت ضوء شمعة يكاد

ينطفئ وتقرأ في كتاب. إنها تعطي انطباع إلاهة قدر أو منجّمة. يمكن التقدير أن كافكا إنما عبّر بهذا رمزياً عن قرب وفاته.

هذا أيضا يظل فرضية؛ لكن هذه الفرضية تملك حسب بناء الرواية بكامله درجة أرجحية عالية.

اكتمال الرواية الداخلي

صحيح أنني ذكرت أن العديد من خطوط أحداث الرواية إنما لم تصل إلى نهاياتها، لكن ماذا كان يمكن هنا أن يصل إلى نهايته، إذا نظر المرء نفسه إلى عمق المعضلات؟ ماذا كان من شأن إعادة كسب فريدا أن يعني؟ مواصلة تناقضات لا تُحلّ وكفاحات، لا بل في نهاية المطاف تكرارها ليس إلا؛ إذ إن هيمنة كلمّ وذات ك. غير القابلة للإفصاح عنها لا يمكن إطلاقاً توحيدهما بانسجام توحيداً تاماً. الأمر نفسه يصح عن أولغا وقبل كل شيء عن أماليا. إعادة أماليا إلى الحياة، كيف يمكن تطويرها شعرياً بشكل محدد؟ كان من شأن أماليا أن تتوقع إيضاحاً من القلعة، من سورتيني. وهي نفسها كان سيكون عليها أن تصحح **حقيقتها** ومطلقيتها المتطرفة، لكن هل كان كل هذا قابلاً للتصحيح في الأعماق؟ هل كان بالإمكان مصالحة **عزلتها** مع قوانين العالم الدائرة حول نفسها، قوانين القلعة؟ إن مدارك ك. في نزل السادة تنفي السؤال. أماليا تحتفظ **بسرها**، منبوذة من القلعة والقرية، ميتة وهي على قيد الحياة. ك. يكتسب سره بين القلعة والقرية في نزل السادة، هو أيضاً ميت وهو على قيد الحياة. إنهما ندّان. لكن من شأن إقامة جسر بينهما أن يمثل خيانة للسر. لا يمكن بناؤه إلا **وراء الحياة**، حيث ينتفي الكلام وتنتفي الخيانة وحيث يمكن لكل شيء أن ينكشف.

قد يكون هذا هو السبب في انقطاع المخطوطة هناك بالذات حيث كان يجب أن تصاغ الكلمات الحاسمة لأم غرشتكر العجوز التي تعطي انطباع إلاهة قدر. إن عظمة كافكا الشعرية إنما تكمن في الأقوال المستترة لصوره الشعرية، وليس في صياغة حكم عامة أو حتى نتائج ملخصة تنقض سر الشعر.

للسبب نفسه قد يكون كافكا تفادى إبداع نتيجة ختامية لكفاح ك.، هذا الكفاح الذي لا يمكنه أن يظل حقيقياً إلا عبر احتفاظه بالتناقضات.

حق الحياة في الموت

حسب شهادة ماكس برود كان على الرواية أن تنتهي كما يلي: «مسّاح الأراضي المزعوم يحصل على رد اعتبار جزئياً على الأقل. إنه لا يتراخى في كفاحه، بيد أنه يموت من الإنهاك.

حول سرير موته يجتمع أهالي القرية، ومن القلعة يصل اللحظةَ القرار بأنه لم يكن ثمة حق لـ ك. بأن يسكن في القرية، لكن مع ذلك، ومراعاة لظروف جانبية معينة، فإن المرء سمح له بأن يعيش هنا ويعمل.»

هذا هو تماماً الوضع التراجيدي ـ الساخر، الذي شرحه بيرغل أمام ك. إن تحقيق مطلب ك. غير ممكن إلا عندما يفارق ك. الحياة. لا يجوز له أن يعيش ويعمل على الأرض إلا إذا كافح لدرجة الإنهاك القاتل. ليس ثمة حق بالحياة ما دام الإنسان يخضع للحياة. فقط **وضوح الرؤية** يحرر. لكن مثل هذه الحرية توجد وراء الحياة. حق بالحياة لا يمكن أن يظهر إلا في الموت.

١٩٥٧ ـ ١٩٦٤ فيلهلم إمريش

Wilhelm Emrich

٣ ـ غريب ونظامه النفسي

هناك صورة فوتوغرافية تُظهر كافكا لدى وصوله إلى قرية شبيندلرموله بتاريخ ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٢٢ وهو يقف تحت انهمار كثيف للثلوج إلى جانب زحافة كبيرة ويتكئ عليها على نحو مائل قليلاً: غريب يوشك أن يعاين عن قرب مكانا شتوياً مجهولاً له. بعد قليل سوف يخصص له غرفة في الفندق ويسجل اسمه خطأً في سجل الضيوف. إن التشابه مع مطلع رواية «القلعة» جليّ. ك. يصل تحت انهمار كثيف للثلج إلى القرية وهو ضيف مجهول، ويتخذ لدى استنطاق ابن أمين القلعة له هوية غير صحيحة على ما يبدو، طبعاً بقرار منه شخصيّ. كان كافكا قد بدأ كتابة نصه بصيغة أنا، وهذا يؤكد مطابقة الوضع العام (لاحقاً بدّل كافكا صيغة أنا إلى صيغة هو).

في مجتمع مغلق لا يملك الغريب هوية. هنا لا يصبح إنساناً فرداً سوى من ينتمي إلى مجموعة ويؤدي فيها دوراً مفصّلاً عليه بدقة. عن وضعه الاجتماعي يكتب كافكا في يومياته يوم ١٩٢٢/١/٢٩، أي بعد وصوله إلى هذه القرية بيومين، أنه يلقي **ظلاً**، بيد أنه يبدو أنه لا يرتبط بهذ الظل على نحو مباشر؛ ولأنه طُرد فإنه مرغم على أن يدع ممثليه، الممثلين الهزليين الذين يرثى لهم، يغذّون جذوره التي يملكها. الغريب الذي يصفه كافكا هنا لنفسه هو الغريب المطرود المضموم. وظيفته الاجتماعية تكمن في أن يعلّم على ما هو مغاير في المجتمع، وذلك كي يمكن تثبيت الذاتي في هذا المجتمع. ك. أيضاً يبدأ طريقه عبر الرواية في ظل ضياع ذات سبق وصوله؛ إذ إنه لا أحد يعرفه، فإنه منذ البداية لا يملك أنا اجتماعية تتيح له الانضمام إلى المجتمع. ك. هو إنسان يبحث عن وطن، يظهر ليلاً على الجسر المؤدي إلى القرية ويتوه عبر الليل بلا هدف. في روايته «هروب» يذكر بيتر فايس أنه في تطوره الفكري إنما وصل إلى درجة من الوضوح عندما قرأ كتب كافكا. عن «القلعة» يكتب: «هنا كان كل شيء خارجيّ قد جرى تقشيره وأنا الرواية كانت عارية وعزلاء.»

ك. يظهر في مكان الحدث قادماً من ماض غامض؛ على نحو مغاير عن كارل روسمان، الذي نرى ماضيه مرسوماً بدقة، لا نعرف كثيراً عن حياة ك. قبل وصوله. مثل **الرجل من**

الريف في قصة أمام القانون غادر موطنه دون أن نعلم دوافع سفره. بيد أنه، على النقيض من أسلافه، يحمل ملامح حيوية. ما من شخص من شخوص كافكا يضاهي ك. نشاطاً وحركة، كما أنه ما من شخص يماثله في اختيار وسائطه. إن مسعى ك. العدائيّ لإثبات وجوده والحصول على اعتراف به إنما يعود إلى وضعه كغريب. وادعاؤه أن الغراف فستفست إنما طلبه مسّاح أراض هو كذب اضطراري يلجأ إليه لأنه يحاول إثبات شخصيته في القرية عن طريق وظيفة، وذلك كي يتخذ بصفته غريباً هوية محددة بوضوح. جهله بالتراتب المحلي يوثّقه ك. قبل ذلك بقليل حين يجيب على قول شفارتسر بأنه يجب الحصول على إذن من القلعة للمبيت هنا: **في أية قرية ضللت طريقي؟ هل يوجد هنا قلعة؟** لذا يبدو أمراً غير قابل للتصديق أبداً عندما يعلن ك. في الخطوة التالية أن الغراف هو الذي **دعاه للحضور**. لدى لقاء ك. مع المعلم يمنعه هذا من تسمية الغراف مراعاة **لحضور أطفال أبرياء**. بعد ذلك لا يرد اسم الغراف مرة أخرى في كامل الرواية. لذا يجب أن يظل من غير الواضح هل كان ك. يحاول إثبات هويته ربما اعتماداً على شخص متخيَّل (**كيف عليّ أن أعرفه**، يجيب المعلم عن السؤال عن الغراف). عندما يقحم ك. سيد القلعة مرجعاً لهويته المزعومة بصفته مسّاح أراض، فإنه يؤكد بهذه الطريقة فقط دوره كغريب يكذب ما إن يتحدث عن نفسه. إذ إن الغراف ليس جزءاً من الجماعة، بل ـ وبغض النظر عن مسألة وجوده الواقعيّ ـ هيئة خارجية مبدئياً يُحظر التحدث عنها. كون ك. يربط هويته بهوية الغراف، فإنه يصادق بسذاجة على وضعه فرداً يقف خارج الجماعة وليس شخصاً مندمجاً فيها. بصفته غريباً هو، كما تقول صاحبة النزل، **واحد زائد عن اللزوم، كما أنه فيما يخص الظروف المحلية جاهل على نحو مخيف.**

رسالة من رئيس الديوان كلمّ تصادق لـ ك.، الأمر الذي فاجأه نفسه، أنه قُبل في خدمة القلعة، لكن دون ذكر مفهوم مسّاح الأراضي. إنه لأمر ذو دلالة أن الإدارة تستخدم وسيلة الكتابة لإعلام ك. إرادتها. الكتابة تخلق مسافة لا تتيح تقارباً حقيقياً من مرسل الرسالة، بل تنتج محاكاة لهذا التقارب. هكذا فإن رسالة الديوان ليست علامة على الاعتراف بـ ك. كمسّاح أراض. يظل مما له دلالة كبيرة أن الدائرة تتصل مع ك. كتابياً، في حين أنها تطلب منه أن يوافيها بطلباته شفهياً عبر الساعي برناباس لكي يوصّلها إلى كلمّ. ك. يفسر الرسالة الرسمية بدقة حقوقيّ متمرس، بيد أنه يسيء فهم فحواها، عندما يوهم نفسه الآن بأنه إنما قد قُبل في المجتمع.

إن وضع الغريب الذي يبحث عن دخول إلى القلعة يماثل بطريقة ساخرة موقف قارئ كافكا الذي يقترب من النص بمطلب تأويلي. في الإخفاق في الاقتراب من الدائرة الرسمية، هذا الإخفاق الذي تقدمه الرواية مراراً وتكراراً بطريقة حلمية، تنعكس، كما هو الحال في

حكاية حارس الباب، تراجيديا المفسر، الذي يبحث عن طريق واضح يؤدي إلى الهدف، والذي مع هذا يجب أن يفشل، وذلك لأن الطريق يسير على شكل متاهة. أولغا تشرح لـ ك. بسخرية مبهمة: **يوجد عدة طرق سفر إلى القلعة. مرة يكون أحد الطرق موضة، فيسافر معظمهم هناك، ومرة يكون طريق آخر، فيزدحم هناك كل شيء. طبقاً لأية قواعد يحدث هذا التناوب، هو أمر لم يجر اكتشافه بعد.** إن القلعة لا تمثل شيفرة بمعنى واضح، بل ضفيرة من المعاني تتزحزح وتتبدل باستمرار. وقصة ك. منذ وصوله حتى اتصاله بفريدا يوضح حقيقة سرية لا يستوفى تأويلها بأن غريباً يكافح في سبيل قبوله في مجتمع يرفضه. هذه الحقيقة تُحدس هناك حيث يظهر الواقع الذي تصفه الرواية بصفته بنياناً من الإشارات يعكس نفسية ك. كما هو الحال في «المحاكمة» تكمن قوة انفجار هذا البنيان بأن متاهة الروح إنما تظهر كنظام اجتماعي يتبدى نظماً تراتبية وبنى اتصالات وشيفرات رمزية بوظائف محددة بدقة.

تخضع طوبوغرافية الرواية لنهج نقل الأحوال النفسية، هذا النهج الذي يستخدمه كافكا منذ بداية كتابته. القرية والقلعة تشكلان السمة الخارجية لتنظيم نفسي يقظ. كل محاولة لتفسيره دينياً أو اجتماعياً يجب أن تفشل؛ وذلك لأن مثل هذا التفسير إنما يغفل هذه السمة. كما يسعى الرجل الريفي إلى الدخول في القانون، هكذا يتوق ك. إلى الدخول إلى القلعة، التي ينبعث منها إغراء سحريّ. إن القلعة والقرية تمثلان نظاماً واحداً. إن حالة النزاع الغريبة التي يقع فيها ك. باكراً إنما تنشأ من أنه نفسه يصرّ على فصل قطعي بين القرية والقلعة. مثل هذا الفصل غير قائم موضوعياً إذا تتبعنا الوصف الطوبوغرافي في الرواية، إذ إن القرية تخص القلعة بنيوياً. صحيح أن الترخيص بالدخول إلى القلعة يظل امتيازاً لأشخاص مصطفين، لكن هذا لا يعني أنه يوجد تمييز مبدئي بين المجالين. هكذا يكون من الضروري لـ ك. أيضاً أن يصبح عضواً في مجتمع القرية؛ وذلك لأنه بهذه الطريقة وحدها يجد مدخلاً إلى القلعة.

إن العلاقة الداخلية التي تشكلها القرية والقلعة هي علاقة ديالكتيكية. إن مسرح مثل هذا الديالكتيك هو نزل وحانة السادة، هذا النزل الذي يشير اسمه إلى «مقهى السادة» الأدبي في فيينا، الذي كان من زبائنه الدائمين إرنست بولاك، زوج ميلينا، وروبرت موزيل ويوزف روت وفرانز فرفل. إن نزل السادة الذي يبيت فيه سكرتيرو القلعة يحمل ملامح مبغى قروي تسود فيه ظروف سلطة واضحة. أولغا تعهر هناك لخدم كلمّ، في حين أن فريدا تؤدي دور فتاة المشرب. الإقامة في غرف الضيوف لا يسمح بها للغرباء. أولغا نفسها تقول، بالذات ذوو سمعة سيئة يُقبلون للعمل في القلعة، وتؤكد بهذا العلاقة الغريبة التي تربط هنا عالم الغرائز وإدارة القلعة. عهر أولغا هو ضرب راديكالي من ضروب الخضوع لدوائر القلعة، هذا الخضوع الذي تنسبه الرواية إلى أهالي القرية. في حين تعتاد النساء على تلبية نداءات السكرتيرين

طوعاً، يحافظ الرجال على موقف الخضوع والاحترام. الحرفيون والمعلم والعمدة يمثلون الولاء المطلق للسلطة. القرية تمثل مجتمعاً يشطب مطالب الحياة الفردية وفي الوقت نفسه يجد هويته في خدمته للقلعة.

كوميديا اللاوعي

في «مؤسسة التأمين على حوادث العمل» جرت في عام ١٩١٣ معالجة ٣١٤٢٦٩ وثيقة. مثل هذه الأرقام تشي بمدى الإجراءات الإدارية، التي لا بدّ، إذا ما ترجمت إلى أنظمة أدبية، أن تعطي انطباعاً مضحكاً بمعنى الكلمة. في رواية «القلعة» عالج كافكا أدبياً تجربته العملية في هذه المؤسسة في التعامل مع الآليات الخفية لإدارة هذه المؤسسة ومع طوبوغرافيتها المبلبلة. السلطة التي يتحدث عنها كافكا تتمظهر في شبكات الإدارة في القلعة. إنها تشكل جهازاً عملاقاً يحدد قواعد الاتصال. إن أشكال التنظيم التي يقيمها هذا النظام البيروقراطي تكتسب ملامح متاهة غريبة يسود ظلام حالك ممراتها. لا يكتفي كافكا بهذه النتيجة، بل يمنح الجهاز البيروقراطي سمات آدمية. والسخرية التي يعرض بها فوضى الإدارة تحوّل نظام السلطة إلى كوميديا بشرية تدخل إلى وصفها معارف التحليل النفسي: **لا في أي مكان آخر كان ك. قد شاهد الوظيفة والحياة متشابكتين هكذا مثلما هو الحال هنا، بحيث أنه يمكن أن يبدو أحياناً أن الوظيفة والحياة إنما تبادلتا مكانيهما.**

وسيلة اتصال ك. بدوائر القلعة هي الهاتف، لكن يثبت أن هذا الاتصال ليس يسيراً، حيث لا يمكن سماع شيء عبر جهاز الهاتف سوى دندنة غير واضحة: **كان الحال كأن من دندنة أصوات أطفال لا يحصون ـ لكن هذه الدندنة لم تكن دندنة، بل كانت غناء أصوات بعيدة كل البعد ـ كأن من هذه الدندنة يتشكل، بطريقة غير معقولة، صوت واحد وحيد مرتفع لكنه قوي، صوت يصفع الأذن.** بتاريخ ١٩١٣/١/٢٢ يصف كافكا لفيليس باور حلماً يهاتف فيه وهو يقف فوق جسر، يضع السماعة على أذنه غير أنه لا يسمع سوى دندنة، يسمع غناء قوياً حزيناً كما يسمع هدير بحر. إن محاولة الاتصال عبر الهاتف تبوء بالفشل في الحلم كما في الرواية. وسيلة حديثة وصوت قديم يشكلان توتراً خاصاً يُبعد كل فعل اتصال. هذا التوتر يصف وضع نزاع يتكرر في الرواية: ك. يخفق هناك تماماً حيث لا يدرك أنه في محيطه إنما يلقى تكوينات نفسه.

إن إدارة القلعة لا تبدي مقاومة ضد ك. كما لا تفعل المحكمة في رواية «المحاكمة». عن سلطات القلعة جاء: **كانت تحمل بمعنى الكلمة كل عبء، كان في مقدور المرء أن يفرض عليها كل شيء ونفسه يظل لا يُمسّ وحراً.** الإدارة تماثل نظاماً نفسياً يعالج التجارب التي

يُزوَّد بها، لكن لا يفسرها. بعد أن أثبت ك. هويته بصفته مسّاح أراض تأخذ الإدارة إعلانه ـ غير الصحيح على ما يبدو ـ على محمل الجدّ، تقرّ له هذه الوظيفة التي تظل زائدة عن اللزوم وبلا فائدة، كما يعترف العمدة. الرسالة التي يرسلها كلمّ في ما بعد تعترف له على نحو واضح بأعمال المساحة التي أنجزها حتى الآن وتطلب منه الاستمرار فيها: **أنهِ الأعمال نهاية طيبة!** حين يصف ك. نفسه إزاء أحد الموظفين بأنه المساعد القديم يوزف (رد فعل كافكا على تسجيل اسمه بالخطأ في الفندق)، يرد هذا الموظف هاتفياً: **أنت المساعد القديم**. كذب ك. يتحول إلى واقع لأن الهيئة التي يتصنّع إزاءها هي فضاء ـ صدى جهازه النفسيّ. مما يظل هنا ذا دلالة كبيرة هو تهيّب الموظفين، الذين يختبئون أمام الغرباء الملحّين طبقاً لنظرية فرويد عن أفكار الحلم. كلمّ لا يجرؤ على الخروج من النزل إلا بعد أن يختفي ك. عن الأنظار. السكرتيرون لا يستطيعون فتح أبواب غرفهم صباحاً إلا بعد أن يبتعد المتطفل الغريب من ممرات نزل السادة ويعود إلى المشرب. إن الدائرة بكاملها تدع نفسها في هذه النقطة تُقارَن بنظام نفسي مرهف، نظام ردّ فعله على محيطه في منتهى الدقة لكنه ذو قابلية كبرى للانزعاج.

تظهر المشابهة عندما يضع العمدة ك. في الصورة عن آليات الإدارة، ذات الطوبوغرافية التي تماثل جهازاً نفسياً. هكذا في القلعة **لا يوجد سوى هيئات تفتيش**، يقول العمدة. كما أنه **لا يُحسب أساساً حساب إمكانيات وقوع خطأ**. وكما هو الحال في نظام نفسي تملك إدارة القلعة ذاكرة تحتفظ بتاريخ هذه الإدارة، لكن في الوقت نفسه ترغم مهام جديدة دائماً على تناسي الماضي. إن رواية كافكا تُظهر المدى النفسي للبنية الإدارية. إن القطاعات المفردة في إدارة القلعة مبهمة وغير واضحة مثل نظام نفسي غير مرئيّ. إن نفسية الإنسان تماثل النظام الموصوف هنا، هذه النفسية التي تطلق تأثيرات دون أن يطّلع المرء على داخلها. في «المحاكمة» و«القلعة» تتخذ البيروقراطية ملامح منظر نفسي مبهم ذا بنية متاهية تجذب وتخيف في آن.

الساعي برناباس يربط القرية والقلعة. إنه أداة لا تتبع إرادة له، بل هو مجرد خادم يعي واجبه. هويته تحددها المهام التي توكل إليه، والتي عليه أن ينجزها دون أن يكون قادراً على اكتشاف مغزاها.

إن فوضى الملفات لدى العمدة والبلبلة الفوضوية التي توزع بها الملفات في نزل السادة تُظهران أن رواية كافكا إنما تعرض طاقات اللاوعي غير القابلة للتحكم بها بصفتها محددات الجهاز الإداري. إن عالَم النفسية يحرك أحداث الإدارة تحت قانون الحلم والنوم والغيبة. مثال على ذلك هو حدث توزيع الملفات، هذا الحدث الذي يراقبه ك. في الصباح الباكر في نزل السادة على نحو محظور عليه. الخادمان اللذان ينقلان الملفات على عربة صغيرة ويضعانها أمام

أبواب غرف السكرتيرين على شكل أكوام يجب عليهما أن يكافحا كفاحاً بمعنى الكلمة من أجل تحقيق هدفهما. الموظفون الذين لم يصحوا من النوم على نحو كاف يمتنعون عن استلام الملفات، ويُكرَهون أحياناً بخدعة على قبول حزمة الورق المخصصة لهم. بعضهم يبكي وينتحب مثل أطفال بعد أن فاجأهم الخادمان، آخرون يصبون ماء من حوض اغتسال على الخادم. من أجل تصوير الكبت النفسي يرجع سيغموند فرويد في محاضراته بعنوان «مدخل إلى التحليل النفسي» إلى تفسير يقدم صورة مماثلة: يجري صدّ المكبوت من قبل المراقِب «على العتبة» ولا يسمح له بالدخول إلى نظام الوعي. بمعنى فرويد يعمل الموظفون في مشهد كافكا كمراقبين يحرسون مثل حراس «عتبة الباب المغلق» لكي يمنعوا اجتيازها دون فحص.

كلمّ لا يستطيع مغادرة نزل السادة في الزحافة إلا بعد أن يتوارى ك. عن نظره، هكذا لا يجوز للموظفين أن يجرؤوا على الشروع في أعمالهم إلا بعد أن يعلموا أنهم غير مراقبين. حتى سورتيني، الذي يرسل إلى أماليا بعد قليل دعوة مصبوغة بصبغة جنسية واضحة، يبيّن أنه محرج من متابعة أهالي القرية لتودده، يوقفهم بيد مرفوعة ويشير لهم بالابتعاد. الخجل، الكبت، الانطواء، الخوف، الصمت والمواراة تتحكم في سلوك الموظفين إزاء أهالي القرية. في هذا المجال يماثل الموظفون هنا الدوائر في رواية «المحاكمة». هناك تبدي تلك الدوائر انعدام مقاومة غريباً، الأمر الذي يشير إلى وظيفتها كانعكاسات لذات يوزف ك. في «القلعة» يبدو ممثلو سلطات القلعة كأنهم عناصر نظام نفسي يحيط بـ ك. دون أن ينشط هذا بنفسه. لذا فحيثما يلتقي ك. هذا النظام، فإنه لا يلقى مقاومة، بل تصديقاً على مداوراته ومراوغاته. إن ك. هو بالنسبة لسلطات القلعة ما يدّعي أن يكونه ـ مسّاح أراض أو مساعد يوزف ـ، وذلك لأن الجهاز النفسي لا يحتوي على آلية حكم أخلاقية أو حقوقية، آلية تسمح بتمييز الصحيح من الخطأ. إن مكاتب الإدارة تشابه، حسب فرويد، مكاناً نفسياً. لكن لا يجوز الخلط بين طبيعة هذا المكان وطبيعة المكان التشريحي. المكان النفسي يعمل كجهاز يعالج بقايا الذاكرة ويحيلها إلى صور حلمية. عند فرويد يظهر كنظام لا يملك استقلالية، ولذا فإن عليه أن يُغذّى ببيانات التجارب المعاشة.

مراراً وتكراراً يبرز في سياق نظام القلعة موضوع النوم، هذا الموضوع الذي يشير إلى صلته بعالم اللاوعي. في زحافة كلمّ يقع ك.، وهو ثمل من الكونياك الحلو، في مرحلة لا وعي. كلمّ نفسه يجلس عادة أمام ملفاته بعينين مغلقتين وهو نصف متيقظ، ويروح ينظف نظارته وكأنه في حلم، ويحتاج إلى فترات راحة طويلة يمضيها في حالة شبه نوم أمام كأس بيرة في غرفة مغلقة في النزل. مما يناسب هذه الصورة من الغيبوبة أن الموظف إنما يملي بصوت منخفض وحسب لكي لا يزعج الهدوء الذي يسود في مكاتب القلعة. عن تعب الموظفين الكبار

يتحدث سكرتير الاتصال، الذي يُطلع ك. على حدث التحقيق: «**طبعاً**»، **قال بيرغل وهو يضحك**، «**هنا كل فرد متعب.**» تعب، إغفاء ونوم هي حالات يقع فيها ك. منطقياً في اتصاله مع السلطات. من يبغي أن يقيم اتصالاً مع اللاوعي، المعروض عبر الدائرة، عليه أن يوجد في طور خارج السيطرة العقلانية. إن الاقتراب من الجهاز لا ينجح إلا في مقاطع توسّط بين اليقظة والحلم.

نظراً للمطابقة بين النفسية والإدارة، فإن الأمر لا يثير العجب عندما يتبيّن أن السكرتير كلمّ ـ أعلى ممثل للإدارة تقدمه الرواية ـ إنما هو انعكاس لـ ك. **لن أصرف نظري عنك ولن أقطع الصلة بك**، جاء في الرسالة الأولى التي أرسلها له مع برناباس. بهذا الإعلان تبدو أن وظيفة المراقِب إنما قد تحددت، هذه الوظيفة التي هي ذات أهمية حاسمة بالنسبة للرواية. إن كلمّ متبدل مثل بروتويس (إله البحر في الأساطير الإغريقية)؛ كل مرة يتخذ شكلاً متبدلاً، وبهذا يعكس اتصالات الناس في القرية بالسلطة. أولغا تروي: «**يقال إنه ذو مظهر مغاير كلياً عندما يأتي إلى القرية ومظهر آخر عندما يغادرها، ذو مظهر آخر قبل أن يشرب بيرة، وآخر بعد، ذو مظهر آخر في اليقظة، ومظهر آخر في النوم، مظهر آخر عندما يكون بمفرده، وآخر في الحديث ومختلف، الأمر المفهوم، كل الاختلاف تقريباً فوق في القلعة.**» كلمّ يصور أهمية مغزى العلاقات، التي درجت نصوص كافكا على تقديمه. إنه ليس شيئاً يقف لنفسه، بل لا يوجد إلا من العلاقة التي يقيمها آخرون إزاءه. بهذا يجسّد شخص الثالث. عندما تدّعي صاحبة النزل أن ك. **غير قادر على أن يرى كلمّ في حقيقة الأمر**، فإن هذا إنما يطابق طبيعة السكرتير المتبدلة، هذا السكرتير الذي لا يكتسب شكلاً قابلاً للإدراك على نحو مُلزِم، كما يطابق أيضاً الوظيفة التي يؤديها في الرواية: ك. لا يستطيع أن يعرف كلمّ لأن هذا بصفته الثالث إنما يشير إلى العلاقة التي يقيمها بنفسه مع أشخاص آخرين. هناك تحولات مماثلة تحدد شخوصاً عديدة في الرواية: فريدا التي تبدو في البداية مستقلة، تأخذ، بعد أن ترتبط بـ ك. ملامح فتاة عادية غير حرة وخائفة تقريباً؛ المساعدان يشيخان على نحو ملحوظ حالما يفصلهما ك. من خدمته؛ برناباس يفقد جاذبيته الذكورية ـ الأنثوية ويتحول إلى ابن حرفيّ خامل، عندما ينقل رسائل قابلة لأن يساء فهمها. هنا تنقل الرواية صنيع الصورة المثالية الروحية الموجودة في اللاوعي عن شخص آخر في المحيط الاجتماعي، هذه الصورة التي أبرز التحليل النفسي أهميتها في توليد الأنا على حقل المظهر الجسدي للإنسان: صورته الخارجية تتبدل مع تبدل وضعه الاجتماعي وإمكانيات السلطة التي توفرها له.

إن الملامح الغريبة للدائرة التي تجذب ك. تتوضح على نحو مباشر في المساعدَين بصفتها الهزليّ في اللاوعي.

ك. يظن خطأ أنه يجد في إغراءات الجنس وسيلة للوصول إلى القلعة. مثلما هو الحال في رواية «المحاكمة» تظهر النساء في رواية «القلعة» كخادمات مطيعة للسلطة. فريدا هي **عشيقة** كلمّ؛ شقيقة برناباس، أولغا، مومس لخدمه؛ فتاة المشرب الفتيّة يحطمها طموحها لتعجب الموظفين؛ حتى صاحبة نزل الجسر المسنّة تستمد هويتها على نحو أساسي من ذكرى الأوقات السالفة، التي كان كلمّ يدعوها فيها إلى لقاءات حميمة ويدللها بهدايا. أماليا تشكل الاستثناء بين نساء القرية اللواتي يرضخن طواعية. إنها تقاوم الغريزة الذكورية. حين يأمرها الموظف سورتيني بكلمات بذيئة أن تأتي إليه، تردّ هذا الطلب، الأمر الذي يؤدي إلى نبذ أسرتها اجتماعياً. المشهد الذي تصفه أولغا من حفل الإطفائية، هذا المشهد الذي ينقل أماليا إلى مرمى نظر سورتيني، يحمل، مثله مثل وصف الجرح في قصة «طبيب ريفي»، ملامح ساخرة هزلية للقضيب الذكوري، الأمر الذي يسنده وصف المطفأة التي قيل عنها إنها **كانت تسعده**، وراح **يتلمسها.** أولغا تروي عن شقيقتها عكس ذلك: **أماليا وحدها لم تهتم بالمطفأة، كانت تقف منتصبة بثوبها الجميل وما من أحد تجرأ أن يقول لها شيئاً، كنت أذهب إليها أحياناً وأتأبط ذراعها، لكنها كانت تلوذ بالصمت.** على نحو فائق الوضوح تُعرض هنا، كما تعرض في «طبيب ريفي» عبر ديدان الجرح، المجازية القضيبية. حين لا تهتم أماليا بالمطفأة، فهذا هو تسبيق على موقف الرفض الذي تظهره بعد قليل إزاء سورتيني. إن المغزى الجنسي للغة الصور الذي يتخلل رواية أولغا يُطلق هالة من الدلالات ذات السمة الساخرة.

أولغا تمثل المشروع المضاد عندما تستخدم الجنس كسلعة تجارية وموضوع مبادلة. إنها تستسلم للخدم لأنها تأمل أن تتمكن بهذه الطريقة من مصالحة القلعة وإبعاد اللعنة عن أسرتها. مثل ك.، الذي تشعر أنها تنجذب إليه بقوة، الأمر الذي هو ذو دلالة، تستخدم الغريزة أداة لتحقيق غاياتها، غير أنها تبوء بالفشل في مسعاها.

القلعة لا تستطيع على ما يبدو رفع الحظر الذي فرض على الأسرة، من حيث أن هذا الحظر لم يأت من القلعة. الوحدة السائدة في ما عدا ذلك بين القرية والقلعة يبدو أنها انفكت في هذه الحالة؛ القرية تعاقب سكانها دون أن تكون القلعة مشاركة في ذلك. هذا هو المشهد الأولي لبنية المجتمع الذي يجري فيه تدريب الجماعة كقوة مستقلة عن فعل النبذ؛ إنها تؤسس تلك العلاقة الديالكتيكية ـ نموذج هيغل عن السيد والعبد ـ بين القرية والقلعة، هذه العلاقة التي يبدأ ك. في إدراكها لاحقاً وحسب.

في داخل السلطة يعشش الجنس، كما هو الحال في بيروقراطية المحكمة في رواية «المحاكمة». إدخاله في الرواية مرتبط بشكل مميز من أشكال تحويل الأسلوب السردي. فقط

قبيل مشهد فعل الحب في الفصل الثالث يغيّر كافكا منظور السرد، يشطب صيغة الأنا ويكتب بصيغة الغائب. هنا يستخدم لأول مرة شيفرة ك. في جملة **حتى أطفأت فريدا الضوء الكهربائي وباتت عند ك. تحت الطاولة.** إنه لأمر معبّر أن وصف الفعل الحميمي يعني بالنسبة لكافكا ضرورة الإعراض. يكاد يبدو أن وصف اللقاء الجنسي إنما يدفعه إلى الابتعاد، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال صيغة الشخص الثالث الغائب. إن علم نحو الحب هو لغة الفرْق التي تلغي منظور السرد الشخصي وتمحوه: **هناك انقضت ساعات، ساعات من الأنفاس المشتركة، ومن خفقات القلب المشتركة، ساعات كان يستحوذ فيها دونما انقطاع على ك. الشعور بأنه يضلّ طريقه، أو أنه يوجد في الغربة بعيداً هكذا كما لم يكن إنسان قبله، غربة لا يملك فيها حتى الهواء عنصراً من هواء الوطن، غربة لا بدّ للمرء من أن يختنق فيها من عمق الوحشة والتي لا يمكن للمرء أن يفعل شيئاً في إغراءاتها العبثية سوى أن يواصل الذهاب وأن يواصل ضلال الطريق.** إن الحميمية القصوى، كما توصف على نحو لا مزيد عليه لمستزيد عبر صورة **الأنفاس المشتركة،** تقترن بالشكل الأقصى من الوحشة، هذه الوحشة التي تبيّن لـ ك. بكل وضوح مدى تشرده. بدلاً عن كلمات **يوجد في الغربة بعيداً هكذا،** جاء في المخطوطة قبل ذلك: **لقد اقترف خيانة كبرى.** إن فعل الحب هو حدث خيانة يضل ك. فيه طريقه في عالم يبدو له أكثر بعداً من القرية والقلعة.

كما الروايتان السابقتان تحكي رواية «القلعة» عن تلك «الوصالات المخيفة»، التي هي رمز انعدام العلاقة الحقيقية بين الجنسين. إن اللقاء الأول بين ك. وفريدا يأتي تحت أمارة ارتباط الجنس بالوسخ، وذلك عندما يتجامعان على الأرضية وراء مشرب الحانة **في برك البيرة الصغيرة وما عداها من القاذورات التي تغطي الأرضية.** هذا المشهد يفكك برنامج مأساة حب بإيجاز: عرضها الرومانسي العاطفي (**«حبيبي! حبيبي الحلو!» همست**) تتبعه نشوة الوصال، زوال الوهم المتصاعد لديها إلى درجة القرف. عندما يغشى ك. أثناء فعل الحب الشعور بأنه إنما يضلّ طريقه، فإن هذا يذكّر بوصف الاتصال الجنسي في رواية «المفقود». من اغتراب كارل روسمان من الحدث الجنسي (**شعر كأنها كانت جزءاً منه، وربما لهذا السبب تملكه شعور مخيف بالحاجة إلىمساعدة**) لا يبتعد ك. أيضاً كثيراً. صحيح أن شكلاً من أشكال الوحدة الفيزيائية ينشأ بين ك. وفريدا (**ساعات من الأنفاس المشتركة، ومن خفقات القلب المشتركة**)، بيد أن ك. يعيش ذلك فقط شكلاً أقصى من أشكال الضياع. في فريدا يلتقي الغريبَ الذي يتبدى هنا على نحو متناقض فوق لحظة القرب الجسدي. إن الحب ليس أداة للحميمية، بل يدعم الابتعاد وفقدان الذات على حدّ سواء. الحب لا يشفي مرض الحياة، هذا المرض الذي يتجلى في هول التشرد الأبدي. بعد وقت قصير يفشل تكرار التقارب

الجنسي بطريقة هزلية: **معانقاتهما وجسداهما الملقى كل منهما على الآخر لم يدعاهما ينسيان، بل ذكّراهما بالواجب أن يحثا، كما تنبش الكلاب في الأرض على نحو ميئوس منه، هكذا طفقا ينبشان في جسديهما وهما خائبان بعجز، كي يجلبا آخر غبطة، كان لسان كل منهما يمسح أحياناً كامل وجه الآخر.** في النجاح في فعل الحب كما في الفشل يكمن منطق الوحدة نفسه، إذ إن النشوة والكبت يشكلان وجهين لتجربة غربة مماثلة. هذه هي الرسالة التي تقدمها المشاهد الجنسية لدى كافكا.

حين يقال إن فريدا كانت **عشيقة** كلمّ، فإنه يجب ملاحظة أن صاحبة النزل إنما تعتبر هذا الوصف **وصفاً مبالغاً فيه كل المبالغة.** الرواية تروي فقط أن كلمّ إنما درج على أن يدعو فريدا، وذلك دون وصف تفاصيل عن علاقة فتاة المشرب بالسكرتير. عندما تشرح فريدا لـ ك. لاحقاً، بعد أن انتقلت معه إلى نزل الجسر، أن كلمّ إنما أعرض عنها، فإن هذا يعني منطقياً أنه أزال إزاءها حاضره وذلك باستغنائه عن الدعوات. بصفتها عشيقة كانت فريدا فقط تلك التي يدعوها كلمّ، وهي تفقد هذه الصفة حالما يستغني عن الدعوة.

في رواية كافكا ليس وحده الجوهر النفسي لعلاقة حب ذا أهمية، بل أيضاً تأثيره الاجتماعي. هنا يبدو جلياً أن الإيروتيك إنما يخص منطق السلطة. حين يستيقظ ك. في الصباح بعد ليلة الحب مع فريدا، يتجلى انزياح لظروف السلطة: **وهكذا لم يكن رعباً له في بادئ الأمر على الأقل، بل عودة إلى الوعي مريحة، حين نودي على فريدا من غرفة كلمّ بصوت آمر ـ لا مكترث. «فريدا»، قال ك. في أذن فريدا وأبلغها هكذا النداء.** إنه النداء الأخير من كلمّ. كذلك صاحبة النزل، التي كانت عشيقة كلمّ، تروي أن النداء انقطع فجأة: **«أنا، التي لم تكن لدى كلمّ سوى ثلاث مرات ـ بعد ذلك لم يدعني إليه، لا أعرف لماذا ... وللمرة الرابعة لم يفعل بعد ولا في يوم من الأيام بعد المرة الرابعة.** كافكا يقدم لعبة الحب عند هذه النقطة كرمز في البنية التراتبية للنظام الاجتماعي بعيداً عن مستوى معنى حميمي.

لذا، فإن ما يشتهيه ك. في فريدا، التي تبرز الرواية عدم جاذبيتها، هو منطقياً وضعها كعشيقة لكلمّ، الذي جعلها تصبح شخصية محترمة. **إذا انتزعت من الأسد لبوته وتزوجتها، فإنني أصبح ذا أهمية له إلى درجة يستمع فيها إليّ على الأقل.** هذا ما يستنتجه في موضع حذفه لاحقاً من حديثه مع صاحبة النزل. إن فعل الجنس هو بالنسبة لـ ك. مجرد توصيلة إلى السلطة. بيد أن ك. إنما يخضع لخداع مزدوج؛ ففريدا، أولاً، ليست عشيقة لكلمّ إلا بمعنى غامض كل الغموض لهذه الكلمة، وعلاقتها به لا توصف وصفاً كافياً. ويظل من المشكوك

فيه فيما إذا كانت ذات فائدة له، وذلك كما هو الحال مع النساء في رواية «المحاكمة». وثانياً فإن ك. بارتباطه بفريدا إنما يقوّض علاقتها بكلمّ.

اقتران الجنس والسلطة تبيّنه أيضاً شخصية المعلمة غيزا، التي توصف بأنها **فتاة شقراء الشعر طويلة القامة جميلة لكن مشدودة القامة بعض الشيء.** شفارتسر، ابن أمين القلعة، يحب المعلمة بحيث أنه بات يعيش في القرية، وإعجاباً بها يحضر دروسها ويجلس إلى المنصة **تحت قدمي غيزا.** غير أن هذه تقابله باستخفاف غير مألوف، وذلك لأن الإعجاب الذي تضمره بقية النساء في القرية لممثلي الموظفين هو أمر غريب عليها. لم تكن **تعرف كيف تقدّر شرف أن يحبها ابن أمين قلعة وكانت تحمل جسدها الممتلئ بلا اكتراث وبهدوء لا يتبدل، إذا تابعها شفارتسر بنظراته أم لم يفعل.** الحظوة الوحيدة التي تمنحها له هي أنها تسمح له بمساعدتها في تصحيح الدفاتر المدرسية. هذه المعلمة هي واحدة من شخوص كافكا النسائية التي تحوّل الرجال إلى دمى. تتبع بذلك المغنية برونيلدا في رواية «المفقود»، والتي من طرفها تجد في كلارا بولوندر قريبتها الاختيارية الفتية.

شقيقتا برناباس؛ أماليا وأولغا، تجسدان مبدئيّ حياة متناقضين على خط مستقيم: أماليا تجسد الحرية الأخلاقية التي تؤدي بسرعة إلى النبذ الاجتماعي، أولغا تجسد الاستعداد المطلق للخضوع. كل من هذين النموذجين للسلوك على حد سواء يسبب معاناة الفرد تقرير الآخرين لمصيره. أولغا تمثل شخصية الضحية التي تخضع للقوى الاجتماعية، في حين أن أماليا إنما تدفع ثمناً باهظاً من العزلة الاجتماعية للاستقلالية التي حصلت عليها عن طريق الصراع بعدم تلبيتها لنداء الموظف سورتيني. أما بيبي فإنها تسلك مسلك فريدا، وتقتصر على محاولة تقليدها على نحو كامل إن أمكن. تتولى بعدها عمل فتاة المشرب، تنتظر تودد كلمّ لها («**لو يأت كلمّ الآن**»)، وتقترب من ك. لغاية جنسية واضحة. بيبي لا تملك هوية خاصة بها، بل تصحو إلى الحياة عبر علاقات وحسب. كمكافحة تحاول بلوغ هدفها تماثل مسّاح الأراضي، كما تقول: **عندما أقارن نفسي بك، يظهر لي شيء من هذا القبيل؛ هكذا كأننا سعينا كلانا أكثر مما ينبغي، بصخب مفرط، بطفولية زائدة، بلا خبرة بتاتاً، في سبيل شيء يمكن مثلاً بهدوء فريدا، بموضوعية فريدا، كسبه بسهولة وعلى نحو غير ملحوظ، سعينا بالبكاء، بالخدش، بالشدّ للحصول عليه.** هنا يظهر نفاد الصبر ذلك الذي وصفه كافكا في عام ١٩١٧ كسبب مزدوج للطرد من الفردوس واستحالة العودة إليه. بنفاد الصبر هذا يتحلى مسّاح الأراضي، الذي يكلف نفسه على نحو متواصل بما هو فوق طاقته باحثاً عن الصراع مع الدوائر، وذلك دون أن يدرك أن ما من شيء يقرّبه من هدفه سوى الهدوء والموضوعية. في تركيزه على

الإيروتيك الأنثوي وحده يخطئ الطريق المناسب الذي من شأنه أن يفضي إلى فردوس الجماعة الاجتماعية. من المعارف التي يكتسبها في مجرى الرواية هو الإدراك أن عِلْم النساء لا يقع مستتراً في أسرار أجسادهن، بل في قصص الحياة التي يروينها.

خداع ولجوء

كافكا يتناول على نحو لعوب شكل ونموذج رواية «القلعة» في رسالتين تشرحان ميله للوم الذات المستمر. في عام ١٩١٧ يكتب لفيليس باور أنه يريد أن يخدع دون خدعة (ولإبراز أهمية هذا التشخيص، يكرره في يومياته). في الوقت نفسه يبرز هنا أنه محكوم بالكفاح، وذلك لأن سلطة المحكمة وتوقه إلى التبرئة إنما يتنازعان حول الأولوية فيه. هذا هو النموذج الشكلي الذي تتبعه الرواية أيضاً، عندما يعرض قصة بطله بصفتها تورطاً في خدعة تخييلية. في عام ١٩٢٠ يشرح كافكا لميلينا بولاك أن **رعب ـ حلم** إنما ينشأ **عندما يتصرف المرء في مكان لا ينتمي إليه وكأنه ينتمي إليه.** هذه الملاحظة تصف من جديد الوضع الأساسي لرواية **القلعة**، التي يصبح موضوعها الرئيسي **الرعب ـ الحلم** الذي ينتج عن لقاء بطلها بمجتمع غريب عنه.

إن كفاح كافكا يرمي إلى تحقيق أشكال جذرية من الاعتراف به، كما يحتاج كل إنسان، لكنه في تركيزه على الهدف الرئيسي إنما يغفل حقيقة أنه إلى جانب الكفاح ثمة وسائل أخرى تعده بأن توصله إلى النجاح.

بصفته غريباً لا يحاول ك. أن يستكشف قوانين الحياة القروية وبيروقراطية القلعة، بل بالأحرى يستبيح لنفسه الحق منذ البداية إصدار حكم عليها محسوم. وبدلاً من أن يفحص بدقة في ضوء التجربة ما هو مجهول لديه، فإنه يحاول، كما يشرح لصاحب نزل الجسر، أن يحافظ على استقلاليته بكل ثمن. دون أن يتكيّف طوعاً في المجتمع ويندمج فيه، يريد أن يكافح وينال مكاناً في الحياة. شعاره هو: **أبغي دائماً أن أكون حراً.** قبل المحادثة مع العمدة جاء: **كان ك.، عندما كان يفكر أحياناً في هذه الأمور وحدها، لا يبتعد كثيراً عن أن يجد وضعه على ما يرام، مع أنه كان يقول لنفسه دائماً بعد مثل نوبات الارتياح هذه إنه بالذات في هذا إنما يكمن الخطر.** لكن بارتيابه الشديد فإن ك. إنما يسدّ باديءَ الأمر الطريقَ إلى عالم القرية الاجتماعي. إنه يدفع الثمن لرؤية في الحياة كان كافكا من قبل قد وصفها في نصه **وصف كفاح**، الذي كتبه في عام ١٩٠٤، بأنها نموذج أساسي للعزلة الاجتماعية.

بتركيزه على الكفاح يتجاهل ك. في باديء الأمر عروضاً جوهرية للمساعدة، وشروحات خليقة أن تتيح له تبصّراً في بنية عالم القلعة ومشابهتها لجهازه النفساني الخاص به. وحده

اللقاء الليلي مع السكرتير بيرغل يتيح لـ ك.، بطريقة تبدو متناقضة، إمكانية الإدراك؛ وذلك لأن النوم يغشاه هنا بحيث أنه لا يتمكن من أن يتابع بوعي التقريرَ عن النظام البيروقراطي وتعرجات المعاملات الرسمية. مما يشكل درجة أولى من هذه التجربة هو تذوق الكونياك الحلو الخاص بكلمّ، هذا الكونياك الذي يخطف ك. إلى عالمه اللاواعي. حتى وهو يغفو، يعتقد أنه في مقدوره أن يفهم بيرغل على نحو أفضل، وذلك لأن **الوعي المزعج**، الذي يتحكم فيه في ما عدا ذلك، يظل مختفياً. إن الرأي القائل بأن استغراق ك. في النوم أثناء حديث السكرتير إنما يفوّت عليه فرصة للاقتراب من القلعة، هو رأي غير صحيح. وهو في **حالة نصف غفوة (كان ما زال لم يكن في عمق النوم)** تواجهه بالأحرى حقيقة نفسه، وبهذا أيضاً انعكاس توقه إلى القلعة. في حين يتحدث بيرغل، يحلم ك. بأنه يحتفل بنصر كبير ضمن مجموعة كبيرة وهو يحمل كأس شمبانيا. ومما يثير الارتباك أن على ك. فقط بعد الانتهاء من الاحتفال أن يقوم بالكفاح الذي يتباهى بخاتمته. هنا يتجلى النموذج الأساسي للخدعة، هذه الخدعة التي تسود ظهور ك. ودوره في الرواية. في الحلم يصارع موظفاً عارياً يشبه تمثال إله إغريقي وينتصر عليه على نحو مفاجئ بسهولة، دون أن يقوم الخصم بمقاومته: **لم يكن ثمة عائقٍ جدّيّ، فقط بين الفينة والأخرى زقزقة السكرتير.** لكن بعد نجاحه الكبير يرى نفسه وحيداً، دون اتصال بشري: **ك. كان وحده في مكان واسع، مستعداً للكفاح استدار وبحث عن الخصم، لكن لم يكن أحد هنا، الجماعة أيضاً كانت قد انفضّت، وحده كأس الشمبانيا كان على الأرض وقد انكسر، ك. دعسه وحطمه كلياً.**

ك. يلاقي في الحلم الرغبات الدفينة التي توجه تصرفاته. في حركة تراكم غريبة يجتمع الجنس والسلطة على نحو يشكلان فيه وحدة يصعب حلّها. تبديل الغريزة إلى شيفرة السلطة لا يؤدي وحسب إلى أن توق ك. إلى مقابلة في القلعة إنما يكتسب ملامح جنسية، بل يمنح القلعة على العكس صبغة جنسية. عندما يعلم ك. في نصف وعي، وهو يستيقظ، أن إله المصارعة الإغريقي إنما كان بيرغل نفسه، فإن هذا التطابق يتأكد. إن مخيلة الرغبات المحلوم بها تنتج صورة النصر بلا مقاومة، هذا النصر الذي يطابق ذلك النصر الذي حازه ك. لدى فريدا بلا جهد على ما يبدو. بيد أن كون ك. لا يشكك في صور مخيلته، فهذا أمر مميز لفهمه لأناه، هذا الفهم الذي يعود إلى البنية نفسها التي تمنع المدعى عليه يوزف ك. عن إدراك ذنبه. في هذه النقاط يعمل ك. مثل يوزف ك. ممثلاً لمبادئ نفسية متناقضة. فيه تتجمع قوى الغريزة، الرغبة، الكبت، مراقبة الذات، نكران الذات، النرجسية وكره الذات على حدّ سواء. وراء علم نفس واقعيٍ للشخصية الأدبية يُظهر كافكا بطل روايته شيفرة محطمة على نحو متنوع تتصرف في طوبوغرافية نفسية بدئية.

موضوع رئيسي ثان يتخلل الرواية هو أسلوب الخداع. مراراً وتكراراً ينثر كافكا في النص

على نحو بارع دلائل صغيرة يُدرك منها أن ك. لا يقول الحقيقة. الحديث مع صاحبة النزل يؤكد في النهاية أن المهمة المزعومة الموكلة إليه إنما هي مهمة كاذبة. **«ماذا أنت في حقيقة الأمر؟»** «مسّاح أراض» **«ما هذا إذاً؟» شرح ك. الأمر، الشرح دعاها تتثاءب. «إنك لا تقول الحقيقة. لماذا لا تقول الحقيقة إذاً؟»** هذه التهمة يردّ عليها ك. بملاحظة فاضحة: **«أنت أيضاً لا تقولين الحقيقة.»**

مع تقدم الرواية يظهر ك. دائماً بوضوح أكثر على أنه كذّاب. خديعته تنبع من رغبته في تحقيق حريته على نحو مطلق ضد آخرين، لكن في الوقت نفسه أن يثبت هويته اجتماعياً من خلال مهمة. ك. لا يستطيع التعامل مع محيطه الاجتماعي إلا في شكل الكفاح. في تركيزه الغريب على القلعة يغفل عن أن المرء إنما قد قبله. بصفته مسّاح أراض ينتمي إلى القلعة، كما يشرح له الحوذيّ غرشتكر في البداية. السلطات تفعل ما يرغب فيه ك. تعترف به مع أن مطلبه بوظيفة من المحتمل أن يكون بلا أساس. الموظفون وممثلو الإدارة يلتقون به بلطف، بلا إكراه، بمحض اختيارهم، طبقاً لرغباته. في عمي بصيرته يغفل ك. عن أنه يملك إمكانية للدخول إلى مجتمع غريب. **ثمة أشياء لا تفشل لأي سبب آخر إلا بسبب نفسها**، يوضح له بيرغل باقتضاب. هذا يذكّر بأن المقاومة التي تعنيها القلعة بالنسبة لـ ك. إنما هي مقاومة أناه. هكذا كما يرفع بصره عند وصوله في الليل **إلى ما يبدو فراغاً**، يظل ك. مركّزاً بلا انقطاع على عالم يعتبر رموزه أمارات مستقلة، مع أن هذا العالم إنما يشير إلى دخيلة ك. إن الاعتراف الذي يبحث عنه ينبع من الشعور بالغربة إزاء أعماق نفسه. كذلك قصة **يوزيفينه، أو شعب الفئران** تعالج هذا الموضوع.

أكثر من الروايتين السابقتين غير المكتملتين تُظهر رواية **القلعة** عدداً كبيراً من الأخطاء الحرفية، الزلّات، الهفوات وبعض التكرار، لكن كون الرواية غير مصححة وغير مكتملة ليس لها دوراً في تأثيرها على القارئ.

في عام ١٩١٧ كتب كافكا في إحدى شذراته: **إننا في وضع مثل وضع ركاب قطار أصيبوا بحادث في نفق طويل، وذلك في مكان لا يعود المرء يرى فيه ضوء البداية، ولا يرى ضوء النهاية إلا بصيصاً بحيث ينبغي على النظر أن يبحث عنه ويضيعه دائماً، بينما تكون البداية والنهاية غير مؤكدتين.** هذه الحالة تتطابق مع وضع ك. طريق الماضي مسدود عليه لأنه يبدو أنه فقد وطنه، ولذا فإنه يأمل بالبصيص، الذي يظهر في نهاية النفق. الحياة التي يعيشها لا تخضع لاختيار حر، بل فقط إلى قسر التقدم إلى أمام، الذي يلتقي ك. نفسه قانونَه دون أن يعلم ذلك.

هناك أمل بوصول ك. إلى المجتمع. كلما تقدمت الرواية، يتوضح تكيّف ك. مع القرية. ثمة مقدمات تفاهم تخترق تعثّر الاتصال. في الحديث مع بيبي في النهاية يتحدث ك. عن إدارة

القلعة ووجاهة كلمّ باحترام يذكّر بوجهة نظر العمدة. على غير ما هو الحال في رواية «المحاكمة»، فإن إدارة القلعة هنا لا تبحث عن التضييق على ك.، إنها متساهلة معه، مستعدة لمساعدته، وعازمة على أخذ مقاصده على محمل الجد: إنها فضاء يتلقى صدى رغبات ك. النفسية.

في مكان رغبة كافكا المطلقة، التي عبّر عنها في نصوص سابقة، لإضاءة ما لا يدرى كنهه، يعبّر في روايته الثالثة عن رغبته في المشاركة في المجتمع. في المقاطع الأخيرة من مخطوطة «القلعة» يرتسم أنه يجوز لـ ك. أن يأمل باندماجه في المجتمع في القادم من الأيام. والمقطع الأخير يوحي بالمشاركة الاجتماعية: غرشتكر، الذي يأمل مساعدة مسّاح الأراضي له في معاملة إدارية، يطلب من ك. أن يذهب معه. يسيران معاً عبر الثلج إلى كوخ الحوذيّ حيث يستقبلهما الدفء المنبعث من نار الموقد. إنها صورة تصالح، هذه الصورة التي تأتي في آخر المخطوطة. لقد اعتاد المرء على ك.، لقد وصل، ويجوز له أن يبقى، ولو كان المرء لا يكاد يقدّره على نحو خاص. أكثر من ذلك لا يستطيع إنسان، حسب قناعة كافكا، أن يطلب.

٢٠٠٥ بيتر ـ أندريه ألت

Peter-Andreé Alt

Im Deutschen:
C Alt, Peter-André, Franz Kafka. Der ewige Sohn. Eine Biographie.
München 2008. Verlag C.H.Beck oHG

III ـ ملحق

١ ـ حديث عن كافكا
مع رئيس جامعة برلين

السيد بروفسور د. ألت المحترم،

كتابك «فرانز كافكا / الابن الأبدي» هو بالنسبة لي واحد من أفضل الكتب التي قرأتها في حياتي عن كافكا، وهي تعدّ بالمئات. لدى قراءة كتابك علّمت على مواضع كثيرة جداً قرأتها لاحقاً عدة مرات. وفي الأيام الأخيرة قرأت من جديد كامل الفصول الثلاثة عن الروايات.

كتابك واحد من الكتب التي غيّرت، في الأعوام الأخيرة، فهمي لآثار كافكا. بعد أن حاولت مدة طويلة للغاية أن أفهم آثار كافكا بعض الفهم، صدر كتابك وأقنعني (لو أعطيت بعض سنوات العمر، حريّ بي أن أترجمه).

قبل أن أسأل دار النشر، أرجو منك الآن أن تسمح لي بترجمة الفصل عن رواية «القلعة» (ص ٤٢٠ ـ ٤٥٠) إلى اللغة العربية. أحب أن أضيف ترجمة هذا الفصل إلى ترجمة الرواية، التي أنهيتها لتوّي. ترجمة هذا الفصل من كتابك وترجمة فصل «الكون البشري» من كتاب إمريش، بالإضافة إلى فصل أعددته بعنوان «نشوء الرواية» من كتاب شتاخ، أحب أن أنشرها كقسم ثان في جزء رابع من «الآثار الكاملة» لكافكا. حتى الآن نشرت أجزاء:

١ ـ الحكم، الوقاد، الانمساخ، رسالة إلى الوالد (تحت عنوان عام: الأسرة).

٢ ـ المحاكمة (الذات).

٣ ـ المفقود (المجتمع الصناعي).

هذه الكتب تُعرض في كل البلدان العربية. معظم قراء كافكا العرب كتّاب.

فصل «القلعة» في كتابك يحتاج إلى عنوان آخر في كتابي: «غريب ونظامه النفسي». أو إنني أرجوك تسمية عنوان آخر لي.

لكي تعرف الإطار الذي ينشر فيه الفصل من كتابك، أرفق لك ترجمة الغلاف الأخير للكتاب العربي. كما أرفق قائمة وضعتها أثناء قراءتي لكتابك(*).

في ملحق بعنوان «من أخبار كافكا الأخيرة وتأثيره الراهن» في الجزء الثالث قدمت كتابك في ما يقرب من ثلاث صفحات(**). هنا أذكر بعض الجمل من هذه الصفحات:

- كتاب «فرانز كافكا / الابن الأبدي» يُعتبر أهم كتاب حتى الآن عن سيرة حياة كافكا.
- قيل عن كتاب ألت إنه يعوّض عن رف كامل من كتب الدراسات عن كافكا.
- قرأ ألت سيرة حياة كافكا ببصيرة عالِم أدب، وهكذا وضع السيرة والآثار في سياق جديد.
- يرى ألت أن الوضع الرئيسي في حياة كافكا هو نموذج «الابن الأبدي» بمعنى الإنسان غير المكتمل، ناقص التكوين.
- محاولة عالِم الأدب ألت، إضاءة حياة كافكا وآثاره الفنية من زوايا متباينة، تبدو، نظراً للإبهام الذي يحيط بكافكا، المحاولة الأكثر إقناعاً.

عرضي لكتابك يحوي عناوين فصوله العشرين.

من فصليّ كتابك عن «المحاكمة» و«المفقود» أذكر هنا بعض الاقتباسات، لقرائي ولي:

من «المحاكمة»:

- مرة أخرى يساعد الأدب على فهم الحياة التي وصفها قبل أن تكون قد عيشت.
- «المحاكمة» هي كيان متناقض حتى في بنيته.
- يمكن الحدس أن الشر الذي تتحدث الرواية عنه، إنما يقع خارج مستوى الفعل.
- قصة يوزف ك. هي قصة حلم بالذنب، حلم خوف يجري انعكاساً لأوضاع نفسية.
- دراماتيكية العقل الباطن.
- ذات يوزف ك. تشكل المشهد الرئيسي للحدث.
- الاعتقال كمخيلة ذاتية، تخييل الذات.

(*) قائمة تضم القصص والروايات والمواضيع التي يعالجها في الكتاب مع أرقام الصفحات الخاصة بكل واحدة منها.

(**) الجزء الثالث من «الآثار الكاملة» لكافكا، رواية «المفقود»، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨.

ـ الاعتقال الذي يرصد للحدث النفسي أماكن وشخوصاً كإشارات على خلجات الإنسان النفسية.

ـ «المحاكمة» كصورة لمزيج نفساني.

ـ بنية العقل الباطن.

ـ انعكاس أوضاع باطنية للذات.

ـ المحكمة والمدعى عليه والمحامون يشكلون مكونات مكمّلة ضمن نظام نفسيّ.

ـ كافكا ينقل خبراته في الحقوق والإدارة على طوبوغرافية النفس وعرة المسالك.

ـ في بنية قصة «أمام القانون» يتضح علم آثار النفس البشرية.

ـ المحاكمة هي تعبير عن الرغبة التي يكبحها بنفسه في أن يدخل إلى نظام العقل الباطن الذي يماثل متاهة.

ـ لوائح تعكس البنية النفسية للفرد.

ـ صور من مستودع النفس.

ـ على غير الحال في بداية محاكمته، يدرك يوزف ك. في نهايتها أن كل ما يحدث إنما ينبع من ذاته.

الفصل في كتابك عن «المحاكمة» سأترجمه من أجل الطبعة القادمة للرواية.

في الروايتين الأخيرتين يكتب كافكا إذاً قبل كل شيء عن ذاته، عن نظامه النفسي، عن عقله الباطن وما يجري فيه، عن حياته الباطنية الحلمية وعن كتابته. هذا هو الحال.

لكنه في الرواية الأولى يكتب «في أكبر مسافة تبعد عن حياة بطله الداخلية»، عن «لا وضوح العالم التقني العصريّ».

من «المفقود»:

ـ تعرض رواية «المفقود» غير المكتملة أيضاً تقنيات مرور وأخبار، إنتاج صناعي وتبادل سلع رأسمالي، حياة يومية في المدينة وصناعة الإعلانات كسمات حياة مجتمعية تكون عناصرها في حركة لا تتوقف. والمهمة الوحيدة التي تناط بالدوران المتواصل للسلع والظواهر هي إنتاج هرميات، كما تتشكل نموذجياً في حياة العمل.

ـ تعرض الرواية الاستلاب في العمل والاغتراب عن الذات.

ـ كارل يحاول أن يتكيّف مع الظروف القائمة. هذا يشير إلى نزعة للخضوع، وهذه النزعة تماثل تدمير الذات.

ـ لا إنسانية مجتمع لا يُجزي إلا الأنانية.

ـ الدقة التي يصف بها كافكا هرميات الحياة الاجتماعية.

إذا كنت أفهمك فهماً صحيحاً بعض الشيء، فإن قرائي وكتابي وأنا سنشعر بفائق سعادة وإعلاء شأن إذا أعطيتنا، أيها السيد البروفسور والرئيس المحترم، قليلاً من وقتك الثمين وتجيب عن عدد قليل من الأسئلة، كي أنشرها في الجزء الرابع من «الآثار الكاملة» لكافكا (رواية «القلعة»): ....

مع فائق الاحترام ابراهيم وطفي

www.kafkarabic.com

السيد وطفي المحترم،

بتكليف من الرئيس أحوّل لك ملفاً من السيد البروفسور ألت من أجل إطلاعك. مع تحيات ودية. (بالتكليف) سوزانه كروبا / سكرتارية الرئيس / جامعة برلين الحرة.

السيد وطفي المحترم،

شكراً لك على رسالتك اللطيفة وعلى مبادرتك للترجمة. أرجو الاتصال بدار نشر C. H. Beck في ميونيخ وعرض مشروعك عليها. رئيسة قسم التراخيص هي السيدة سيمور، عنوانها الإلكتروني: ...

أسئلتك أريد أن أجيب عنها بإيجاز. أتمنى لك كل نجاح في كل ما تنوي تحقيقه.

مع أفضل التحيات بيتر ـ أندريه ألت

ابراهيم وطفي: لا بدّ أنك اكتشفت كافكا في سن الشباب. ماذا كان الباعث؟ كيف عثرت عليه؟ ماذا كانت الفكرة التي حركت الموضوع؟

بروفسور د. بيتر ـ أندريه ألت: اكتشفت كافكا إذ كنت في سن الرابعة عشرة. قرأت

إعلاناً عنه يقرّظه بصفته كاتباً ليس للناشئة. هكذا كان المرء يكتب عن كافكا في سبعينات القرن العشرين! وقد وجدت هذا التحذير في غاية الإغراء، فقرأت قصة «الحكم» التي وجدتها في مكتبة والدي.

وطفي: ما هي تجاربك القرائية لدى قراءة نصوص كافكا؟ وكيف انتقلت من الإعجاب إلى الأبحاث؟

ألت: القصص هي أول ما سحرني، ثم سحرتني اليوميات أكثر، وفقط لاحقاً تجرأت على قراءة الروايات. طفقت أقرأ كافكا بحذر شديد، وفي منتهى البطء، متحسساً متلمساً. في المدرسة ألقيت محاضرة عنه أمام صفي؛ هنا أضيفت بالنسبة لي لأول مرة نظرة على حياة كافكا. أثناء الدراسة الجامعية تجنبت كتابة أبحاث عنه، لكن مع ذلك اتخذته واحداً من مواضيع الامتحان النهائي، وفقط بعد حصولي على شهادة الدكتوراه شرعت في الاشتغال عليه. أولاً عن تشككه اللغوي ثم عن موضوع السوداوية.

وطفي: كيف استمر الأمر ... في الأبحاث وفي التدريس؟ ما المدة التي عملت فيها على كتابك «فرانز كافكا / الابن الأبدي»؟

ألت: تجرأت على كتابة سيرة كافكا لأنني لاحظت في أثناء مشروعي عن شيللر(*) أنه في مقدوري أن أكتب سير حياة. وقد أمضيت من ثم خمسة أعوام في كتابة سيرة حياة كافكا، لكن قبل ذلك قمت بالكثير من التحضيرات والأبحاث طوال سنوات عديدة بروفسوراً في جامعات برلين وبوخوم وفورتسبورغ.

وطفي: استطاع المرء كسبك لتقلد منصب كبير جداً. إنك رئيس جامعة برلين منذ عام ٢٠١٠، وبالتحديد منذ الثالث من حزيران ٢٠١٠ (يوم وفاة كافكا). هل تقرأ الآن أحياناً بعضاً من نصوصه أو مما يكتب عنه؟

ألت: نعم أقرأ. كما أني أكتب عنه، عندما يسمح الوقت. آخر ما كتبته هو عن مفهوم الشر لدى كافكا(**).

وطفي: كافكا يُقرأ كثيراً. يومياً تصلني عدة مقالات عنه عن طريق غوغل. يجري تبنّي آثاره

(*) كتاب «سيرة حياة شيللر» (١٦٥٠ صفحة)، الذي منح عليه جائزة شيللر.

(**) كتاب «جمالية الشر» (٧١٤ صفحة، صدر عام ٢٠١٠ وصدرت الطبعة الثانية في عام ٢٠١١، ثمن النسخة الواحدة ٣٤ يورو). يعالج فيه مفهوم الشر لدى كتّاب عديدين.

في فنون أخرى عديدة. يُدرَّس في معظم المدارس الثانوية. أين تكمن أسباب سحر كافكا؟

ألت: إنه لا ينفد، لا يدع نفسه يُفسَّر تفسيراً نهائياً. كما أنه يروي قصصاً ذات جمال وذات أسى لا نظير لهما.

وطفي: إلياس كانتّي يسمّي كافكا «خبير في السلطة». ألديك بضع كلمات مقتضبة تصادق على هذه المقولة في رواية «القلعة»؟

ألت: السلطة لدى كافكا هي ترجمة ظروف سياسية إلى ظروف نفسية. ما أعرف أن أقوله عن ذلك تجده في فصل «القلعة» في كتابي.

وطفي: في العصر الراهن يُقرأ كافكا في كل أنحاء العالم. وقد قرأه كبار كتّاب العالم المعروفين الذين أتوا بعده. أتعتقد أن كافكا سوف يُقرأ زمناً مديداً؟ كم قد يطول هذا الزمن؟ مثل المدة التي قرئ فيها غوته وما زال يُقرأ؟ أم شكسبير؟ أم ربما دانتي؟ أو حتى مدة طويلة كما قرئ الكلاسيكيون الإغريق ويقرؤون؟ ولماذا؟

ألت: من يُقرأ مثل كافكا منذ عقود في كل أنحاء العالم، يظل من «الكلاسيكيين»، ما دام أن للأدب دوراً في حياتنا.

وطفي: ما مدى أهمية تسلسل الفصول في رواية «المحاكمة»؟ أيجوز لأحدهم، عالِم أدب ومن محبي كافكا على سبيل المثال، أن يحاول مبدئياً ترتيب فصول الرواية ترتيباً جديداً؟ أم أنه ليس على المرء أن يفعل ذلك؟

ألت: طبعاً يجوز وضع فرضيات. إشفايلر لم يقنعني البتة. إنه يقرأ «المحاكمة» رواية واقعية، لذا فإنه يصل إلى استنتاجات خاطئة فيما يتعلق بتسلسل الفصول(*).

وطفي: من الجليّ أن كارل روسمان إنما يجتاز طريقاً في اتجاه انحدار. أيفعل يوزف ك. الشيء نفسه؟ أم أن التطور لديه تطور مغاير؟

ألت: كارل روسمان يجتاز طريقاً في عملية أكثر مما يسير في اتجاه انحدار. وهذا ينطبق، بمعنى حرفيّ، على يوزف ك. أيضاً. لكن لا أحد منهما يتعلم شيئاً. وهذا يفسر الهلاك في

(*) كان إشفايلر قد أرسل نسخة من كتابه «المحاكمة / بترتيب فصول جديد» إلى ألت، الذي أجابه بأن ترتيب فصول الرواية الجديد لم يقنعه كل الإقناع. وقد أعطاني إشفايلر نسخة من رسالة ألت التي تقع في صفحتين كاملتين (ا.و.).

حالة يوزف ك.، في حين أن كارل روسمان إنما يختفي في فضاء أمريكا الشاسع.

وطفي: في البداية تأرجحتُ بين الإعجاب والحيرة. قبل نحو خمسة عشر عاماً قررت الأخذ بتسلسل الفصول الذي وضعه السيد إشفايلر. كتابي يحوي فصلاً يضم كل النظريات الأخرى عن تسلسل الفصول بدقة وتفصيل، وبهذا بات القارئ العربي يملك النظريات كلها في كتاب واحد. لكن بعد هذه المدة الطويلة لم تلق نظرية إشفايلر صدى إيجابياً. وتفسيرك لرواية «المحاكمة» أقنعني بصحته. والحياة كلها هي أيضاً عملية تعلمّ. هل تنصحني بتغيير تسلسل الفصول في الطبعة القادمة؟

ألت: انظر أعلاه! احذر الإشارات التي تعتمد مثلاً على بيانات بخصوص فصول السنة! الرواية هنا تحتمل عدة معان، الكثير فيها مرآة للداخل. أنا أتبع التسلسل الذي جاء في طبعة ملكولم باسلي.

٢ ـ نبذة عن حياة كافكا وآثاره

١٨٨٣ / ٣ تموز: ولد فرانز كافكا في براغ ابناً لأسرة ذات أصل تشيكي ناطقة بالألمانية. والده هرمان كافكا نشأ في الريف في ظروف فقر مدقع. وبنشاط دائب ارتقى حتى بات تاجراً ثرياً، ومالكاً لمحل بيع بالجملة في براغ. كانت بنيته الجسدية والنفسية، وطريقة حياته العملية، مبعثاً لإعجاب من قبل ابنه مرهف الحس، كما كانت في الوقت نفسه منبعاً لنفور كبير وشعور بالغربة مؤلم. والدته يولي لوفي نشأت في براغ في أسرة عريقة ووجيهة للغاية، وذات مستوى ثقافي رفيع. كانت التناقضات بين والد كافكا ووالدته فوق كل تصور. وإذ كانت الأم تخضع لزوجها كل الخضوع، فقد انطوى فرانز الصغير على نفسه. أخواته: إلّي (١٨٨٩)، فالّي (١٨٩٠)، أوتلا (١٨٩٢).

١٨٨٩ مدرسة ابتدائية ألمانية.

١٨٩٣ ـ ١٩٠١ مدرسة ثانوية ألمانية في براغ. أول صداقة وثيقة عقدها مع أوسكار بولاك (الذي أصبح في ما بعد عالماً في تارخ الفنون)، وأسس معه ومع تلاميذ آخرين جمعية «المدرسة الحرة»، ذات الميول المعارضة. قرأ بحماس سبينوزا وداروين ونيتشه، واعتنق الإلحاد والاشتراكية. في المدرسة لم يشارك في الدروس الدينية، وبيت أهله كان يخلو من كل تربية دينية. كان شعراؤه المفضلون: غوته، كلايست، غريلبرتسر، شتيفتر.

١٩٠١ ـ ١٩٠٦ (بعد أن درس في ميونيخ فرع الأدب الألماني لمدة فصل دراسي واحد) درس فرع الحقوق في براغ، في جامعة كارل الألمانية (أقدم جامعة أوروبية أسسها ملك بوهيميا كارل الرابع في عام ١٣٤٨). إلى جانب محاضرات فرعه الدراسي استمع كافكا إلى محاضرات عالم الاجتماع ألفرد فيبر، واختاره أستاذاً فاحصاً له. كانت هذه المحاضرات تتضمن تحليلاً نقدياً للمجتمع الصناعي الرأسمالي ومخاطره. وقد شغلت كافكا كثيراً، وأثّرت في نفسه أبلغ تأثير (ظهر هذا التأثير أكثر ما ظهر في رواية **المفقود**). كما استمع إلى محاضرات في الفلسفة كان يلقيها أحد تلامذة فرانز برنتانو، وشارك كافكا في حلقة «تلامذة برنتانو» الفلسفية.

١٩٠٠ ـ ١٩٠٢ إجازات صيفية عند خاله الطبيب الريفي سيغفريد لوفي.
١٩٠٣ كتب في رواية **الطفل والمدينة**، وأشعاراً ضاعت.
١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ كتب **وصف كفاح**. منذ ذلك الوقت قرأ كثيراً: هبل، غريلبرتسر، بايرون، فلوبير، هوفمنستال، توماس مان، ستندال، شتيفتر، هرمان هسّه، دستويفسكي، تولستوي، سترندبرغ.
في صيف ١٩٠٥ أول علاقة حب. أثناء فترة دراسته الجامعية بدأت صداقة عمر مع ماكس برود. كما كان على علاقة وثيقة مع الشاعر الضرير أوسكار باوم ومع الكاتب فيليكس فلتش. كان الأربعة يلتقون بانتظام ويقرؤون نتاجاتهم بعضهم على بعض. وكان لكافكا صديق يدعى إيفالد بريبرام، أدخله ـ وهما ما زالا طالبين ـ إلى المجتمع «الراقي» في براغ.
١٩٠٦ حزيران: حصل كافكا على لقب الدكتوراه في الحقوق. من ١/١٠/١٩٠٦ حتى ١/١٠/١٩٠٧ أمضى سنة «تدريب قضائي»، أولاً لدى محكمة جنائية ثم لدى محكمة مدنية في براغ.
١٩٠٧ كتب **استعدادات زفاف في الريف** (نحو ٣٠ صفحة). في تشرين الأول بدأ العمل في فرع شركة تأمين إيطالية (جنرالي، لها فروع في أنحاء كثيرة من العالم. وما زالت قائمة حتى الآن).
١٩٠٨ نشر لأول مرة ثماني مقطوعات في مجلة. في تموز بدأ العمل في «مؤسسة التأمين على حوادث العمال». من جملة عمله كان مسؤولاً عن تقدير تعويضات العمال المصابين أثناء العمل. وقد كتب ماكس برود في ما بعد أن كافكا أعلمه ذات مرة «دهشاً»: «ما أشد تواضع هؤلاء الناس! إنهم يأتون ويتوسلون. بدلاً من اقتحام المؤسسة وتحطيم كل شيء، يأتون ويتوسلون». وكانت المؤسسة ترسله في رحلات تفتيشية إلى المصانع في مملكة بوهيميا التابعة لإمبراطورية النمسا ـ المجر. كانت المنطقة التي يعمل فيها تُعتبر آنذاك ثاني أكبر منطقة صناعية في أوروبا. بين كتّاب عصره الألمان كان كافكا الكاتب الوحيد الذي يملك تصوراً محدداً عن الظروف في المعامل ووضع العمال فيها. فمثلاً كتب ذات مرة للمؤسسة تقريراً عن إجراءات للوقاية من الحوادث لدى استخدام الفارات الآلية.

وكان كافكا ناجحاً في عمله الوظيفي، وقد ترقى بسرعة، ووصل إلى مركز سكرتير المؤسسة. وكان يُقدّر عالياً من قبل رؤسائه ومن قبل مرؤوسيه في آن. وظل يعمل في هذه المؤسسة حتى تقاعد لأسباب صحية في تموز عام ١٩٢٢. لكنه ظل طوال حياته الوظيفية يعاني أشد المعاناة من النزاع بين العمل المأجور ورسالة الإبداع.

لم يكن كافكا على اتصال بالفئة المثقفة في براغ وحسب، وإنما كان على اتصال بالشعب كذلك. وعلى عكس زملائه؛ تعلم اللغة التشيكية وأتقنها، وأقام علاقات وثيقة مع التشيكيين.

وكان غالباً يزور الاجتماعات السياسية التي يعقدها الديموقراطيون والاشتراكيون والفوضويون. وكان دائماً يقوم وحده بهذه الزيارات، وذلك لأن أصدقاءه من كتّاب اللغة الألمانية في براغ لم يكونوا يبدون اهتماماً بالحياة السياسية للشعب التشيكي.

طوال حياته كان كافكا يميل إلى الطب الطبيعي وما يرتبط به. كان نباتياً، سباحاً جيداً دؤوباً، مجدفاً، فارساً وجوالة.

كان ثمة صالون ثقافي مشهور في الوسط الألماني في براغ، يلتقي فيه كبار العلماء والنخبة الفكرية، وتلقى فيه سلسلة من المحاضرات وتناقش على أعلى مستوى، وتقام فيه حلقات علمية وفكرية دورية. وكان من ضيوف ذلك الصالون والمتحدثين فيه ألبرت أينشتاين وأصدقاء له من علماء الرياضيات والفيزياء والفلاسفة. وطوال سنوات كان كافكا يستمع إليهم بانتظام، ويشارك في نقاشاتهم. هناك فهم كافكا النظرية النسبية لأينشتاين، ونظرية الكم لماكس بلانك، والتحليل النفسي لفرويد، ونظرية الأعداد اللانهائية لكانتور، وفلسفات هيغل وكانت ونيتشه.

١٩٠٩ بدأ كافكا بكتابة يومياته، التي أصبحت بالنسبة إليه وسيلة أساسية لتصوير الذات وإيضاحها، ليس في شكل تأملات وحسب، وإنما قبل كل شيء في شكل إبداعات شعرية وصور وأمثولات وقصص.

١٩١٠ تشرين الأول: زار باريس. كانون الأول: زار برلين.

١٩١١ أمضى إجازة في شمال إيطاليا. زار زيوريخ وباريس. أقام مدة أسبوع في مصحة بالقرب من زيوريخ. أصبح شريكاً لصهره في ملكية معمل في براغ.

١٩١٢ في بداية العام كتب مسودات أولى لرواية **المفقود**. في حزيران / تموز زار فايمار، مدينة شاعره المفضّل غوته، وأمضى فيها نحو أسبوع تردد خلاله كثيراً على بيت غوته، وتعرّف ابنةَ المشرف على البيت، مارغرته كيرنشر، وأقام معها علاقة في غاية الرقة، وأصبح يناديها: غرته. زار لايبزغ.

آب: أول لقاء مع فيليس باور، التي تربطها صلة قرابة بعيدة مع أسرة برود. ليلة ١٢ أيلول كتب قصة **الحكم**، التي وجد بها أسلوبه المميز واعتبرها بمنزلة «اختراق».

تشرين الثاني وكانون الأول: كتب قصة **الانمساخ**.

كانون الأول: صدر كتابه **تأمل**. شارك لأول مرة في أمسية أدبية عامة قرأ فيها قصة **الحكم**. هموم بسبب المعمل.

من أيلول حتى كانون الثاني ١٩١٣: كتب رواية **المفقود**.

١٩١٣ زار فيليس باور في برلين ثلاث مرات. نيسان: عمل في زراعة البساتين بالقرب من براغ. أيار: صدرت قصة **الوقاد** في كتاب مستقل. حزيران: نشرت قصة **الحكم في مجلة.** أيلول: زار فيينا والبندقية وريفا. أقام علاقة مع فتاة سويسرية. مراسلات كثيفة مع فيليس. تعرّف صديقتها غرته بلوخ.

١٩١٤ عيد الفصح: في برلين. الأول من حزيران: عقد خطوبته على فيليس باور. ١٢ تموز: فسخ الخطوبة. إجازة في الدانمارك على ساحل بحر البلطيق. آب: استأجر لأول مرة غرفة خاصة به في براغ. بدء الحرب العالمية الأولى. بين مطلع آب ١٩١٤ وكانون الثاني ١٩١٥ كتب رواية **المحاكمة**. تشرين الأول ١٩١٤: كتب قصة **في مستعمرة العقاب**. كتب الفصل الأخير من رواية **المفقود**. يوم ١٩ كانون الأول ١٩١٤ وفي كانون الثاني ١٩١٥ كتب قصة **معلم مدرسة القرية** ومقطوعة **ذكرى سكة حديد كالدا**. قصة حب مع غرته بلوخ.

١٩١٥ كانون الثاني: التقى مع فيليس باور. زار هنغاريا. تشرين الثاني: صدرت قصة **الانمساخ** في كتاب.

١٩١٦ علاقة وثيقة مجدداً مع فيليس باور. تموز: إجازة معها لمدة عشرة أيام. صدرت قصة **الحكم** في كتاب مستقل. تشرين الثاني: ثاني أمسية أدبية عامة في ميونيخ، قرأ فيها قصة **في مستعمرة العقاب**. كتب عدداً من قصص **طبيب ريفي**.

١٩١٧ كتب بقية قصص **طبيب ريفي** وقصة **الصياد غراخوس**. تموز: عقد خطوبته على فيليس باور للمرة الثانية. أيلول: ثبت أنه مصاب بسل الرئة. أخذ إجازة عمل وأقام في الريف لدى أخته أوتلا. كانون الأول: فسخ الخطوبة للمرة الثانية.

١٩١٨ في الريف قرأ كيركيغارد. في الصيف عاد إلى براغ. تشرين الثاني: في قرية شيليزن تعرّف الفتاة يولي فوريتسك. كتب قصة **لدى بناء سور الصين**.

١٩١٩ في الريف. في الربيع عاد إلى براغ. صدرت قصة **في مستعمرة العقاب** في كتاب مستقل. عقد خطوبته على يولي فوريتسك. تشرين الثاني: ألغى موعد الزفاف المتفق عليه. كتب **رسالة إلى الوالد**.

١٩٢٠ إجازة مرضية في ميران في شمال إيطاليا. بدء المراسلات مع ميلينا. زارها في فيينا. أيار: صدرت مجموعة قصص **طبيب ريفي**. تموز: فسخ خطوبة يولي فوريتسك. في الصيف والخريف: عاد إلى العمل الوظيفي في براغ. كتب قصصاً عديدة، منها **بوزايدون**، **في الليل**، **حول مسألة القوانين**، **الخذروف**. منذ كانون الأول: في الريف.

١٩٢١ شباط: بدء صداقة مع طالب الطب روبرت كلوبشتوك (١٨٩٩ - ١٩٧٢). في

الخريف: عاد إلى براغ. كتب قصة **معاناة أولى**. سلم يومياته إلى ميلينا.

١٩٢٢ شباط: في الريف ثم في براغ. من نهاية حزيران حتى منتصف أيلول: في الريف لدى أخته. كانون الثاني حتى أيلول: كتب رواية **القلعة**. في الربيع: كتب قصة **فنان جوع**. في الصيف: كتب **أبحاث كلب**. أول تموز: تقاعد من عمله الوظيفي. تشرين الأول: سلم مخطوطة **القلعة** إلى ميلينا.

١٩٢٣ براغ. تموز: على شاطئ بحر البلطيق تعرّف الفتاة دورا ديامنت، وعاش معها منذ أيلول في منزل واحد في برلين.

الأحد عشر شهراً الأخيرة من حياته، التي أمضاها مع دورا، كانت الفترة السعيدة الوحيدة في حياته، بالإضافة إلى أربعة أيام كان قد أمضاها مع ميلينا في فيينا.

تشرين الأول: كتب قصة **امرأة صغيرة**. في الشتاء كتب قصة **البناء**. أعطى قصص **فنان جوع** إلى الطباعة، وصحح بروفتها قبل وفاته بأيام.

١٩٢٤ برلين. آذار: عودة إلى براغ. كتب قصة **يوزفينه المغنية، أو شعب الفئران**. مطلع نيسان: رحيل من براغ. مع دورا ديامنت وروبرت كلوبشتوك في مصحة بالقرب من فيينا.

٣ حزيران: توفي كافكا في المصحة وعمره أربعون عاماً وأحد عشر شهراً. كتب صديقه وطبيبه، الذي كان يرعاه في أيامه الأخيرة: «وجهه جامد صارم، مترفع، مثلما كان ذهنه نقياً وصارماً. وجه ملك من نسب من أكثر الأنساب نبلاً وعراقة». ١١ حزيران: شيع جثمان كافكا في براغ. تموز: صدرت مجموعة قصص **فنان جوع**.

١٩٢٥ صدرت رواية **المحاكمة**.

١٩٢٦ صدرت رواية **القلعة**.

١٩٢٧ صدرت رواية **المفقود**.

١٩٤٨ صدرت «اليوميات».

١٩٥٨ صدرت «الرسائل».

٣ ـ كافكا الهواية

حين قرأت لأول مرة «ما إن أفاق غريغور سامسا، ذات صباح، من أحلامه المزعجة، حتى وجد نفسه وقد تحوّل في فراشه إلى حشرة ضخمة»، شعرت على الفور وكأنني تلقيت على حين غرة ضربة على رأسي. قلت لنفسي في لاوعيي: «هذا هو الحال. لا، ليس هذا حلماً. إنهم ينظرون إليك في الواقع وكأنك حشرة». وتابعت القراءة وأنا في غاية الدهشة والانبهار، ولا سيما من عرض «الاتصالات الإنسانية ... التي لا تصبح ودّية قط»، والعلاقات غير الإنسانية داخل الأسرة الواحدة.

كان حباً من السطور الأولى، «من النظرة الأولى». كان ذلك في عام ١٩٥٧، وكانت قصة «المسخ» «للقاص الألماني العظيم» فرانز كافكا، ترجمة منير البعلبكي قد صدرت لتوها في «دار العلم للملايين» في بيروت كرقم ١٨ في سلسلة «كنوز القصص الإنساني العالمي».

فيما بعد قرأت عن هذه القصة: «لا يصوغ كافكا ظواهر (سوريالية)، وإنما يصوغ حقيقتنا، وذلك بأقصى درجات الصدق الفني ... الحقيقة المرعبة لهذه القصة هي الإدراك أن أجمل العلاقات بين الناس وأكثرها رقة وحناناً إنما تقوم على الخداع.»

بعد نحو نصف قرن من الزمان عشت تجربة أخيرة شعرت خلالها أن أفراداً من «أسرتي» إنما يعاملونني مثل حشرة. رفضوا طلبي بإعطائي مكان قبر لي، في مكان يريدون استثماره ... لا نفع مادي منك، فأنت إذاً زائد عن اللزوم ... أنت حشرة يمكن أن تلقى في أي مكان آخر. (طبعاً هذا الشعور هو، بالنسبة لمن لا يشعر به، شعور خاطئ، وهم، غريب، غير معقول، يدل على جنون صاحبه؛ أما إذا شعرت به، فهو شعور حقيقي، واقعي كل الواقعية، وليس شعوراً خاطئاً).

قراء ودارسو كافكا كثيرون في العالم، وكثيرون هم الكتّاب في مختلف اللغات الذين أعجبوا وتأثروا به.

الشاعر الإنكليزي ويستان أودين (١٩٠٨ - ١٩٧٣) كتب: «إذا سئلت: أي شاعر هو الأقرب إلينا بمعنى علاقة دانتي، شكسبير، غوته بعصورهم؟ فإنه عليّ أن أسمّي كافكا في المقام الأول. إنه في غاية الأهمية بالنسبة لنا، لأن مشكلاته هي مشكلات الإنسان المعاصر».

الكاتب الألماني مارتن فالزر يقول إن مصيره الأدبي قد تقرر بقراءته آثار كافكا. في عام ١٩٤٦ قرأ قصص كافكا، ومنها قصة «الانمساخ»، فبات «أسيراً». بعد ذلك كتب أطروحة دكتوراه ونشرها في كتاب بعنوان «وصف شكل/ محاولة عن الشعر الملحمي لفرانز كافكا»، يتحدث فيه عن «هذا الكيان الباطني الكامل كل الكمال» للقصص.

بدأ اهتمام غابرييل ماركيز بالرواية في المساء الذي قرأ فيه كتاب «الانمساخ» لكافكا. لقد استعاره من أحد زملائه في الدراسة إلى بيت الطلاب البائس الذي كان يقيم فيه. نزع سترته وحذاءه، واضطجع على السرير؛ فتح الكتاب وبدأ يقرأ: «حين أفاق غريغور سامسا، ذات صباح، من أحلامه المزعجة، وجد نفسه وقد تحول في فراشه إلى حشرة ضخمة». أغلق غابرييل الكتاب وقد ارتعشت أوصاله وراح يفكر: «يا للشيطان! يمكن للمرء، إذاً، أن يفعل هذا». وفي اليوم التالي كتب قصته الأولى ولم يعد يفكر بدراسته.

جواباً عن سؤال: «من أساتذتك في الأدب؟»، أجاب خوسيه ساراماغو، الحاصل على جائزة نوبل: «إذا أردت أن أرسم شجرة عائلتي الفكرية، لوضعت غوغول وكافكا وسيرفانتس.... ولكن إذا شئت اختيار كاتبي الخاص، لقلت بلا تردد: فرانز كافكا. إنه واحد من أعظم الكتّاب في تاريخ الأدب، وهو بالنسبة لي أبرز روائي في القرن العشرين. فهو أعلن ما نحن في صدد عيشه: زمن البيروقراطية المطلقة».

ميلان كونديرا كتب عن كافكا: «تنزع السلطة إلى تأليه نفسها. وبيروقراطية النشاط الاجتماعي التي حولت كل المؤسسات إلى متاهات بلا حدود، ما يؤدي إلى استلاب شخصية الفرد... تبدأ قصة يوزف ك. بانتهاك خصوصية: يأتي رجلان مجهولان لاعتقاله في سريره، كما اعتاد أبوك وأمك أن يفعلا. الاغتصاب المستمر للحياة الخاصة... لا يوجد شمولية سياسية وحسب، وإنما هناك شمولية اجتماعية وحتى شمولية عائلية وشمولية مكان العمل المأجور لكسب الرزق. لم يكن في رأس غريغور سوى الطاعة والنظام الذي تعود عليه في مهنته. إنه مستخدم... في عالم الوظيفة البيروقراطي لا يوجد مبادرة ولا ابتكار ولا حرية في الفعل؛ هناك فقط أوامر وقواعد، إنه عالم الطاعة. ثم إن الموظف يقوم بجزء صغير جداً من النشاط الإداري الكبير، ولا يعرف شيئاً عن هدفه أو آفاقه. إنه العالم الذي أصبحت فيه الأفعال آلية، ولا يعرف الناس معنى ما يفعلونه. إن الموظف يتعامل فقط مع أشخاص مجهولين

وملفات. إنه عالم التجريد... لم يتنبأ كافكا. لقد رأى فقط ما هو موجود (هناك). لقد سلط الضوء على آليات عرفها من تجربة إنسانية خاصة واجتماعية».

فلاديمير نابوكوف كتب: «إن فرانز كافكا هو أهم كاتب من كتّاب اللغة الألمانية في عصرنا».

الروائي التركي نديم غورسيل يقول إن أهم ثاني كتاب في حياته هو قصة "الانمساخ".

الكاتب صادق هدايت هو كافكا الإيراني.

في نصوص زكريا تامر الكثير من كافكا، مع أن الكاتب العربي لم يقرأ كافكا.

جمال الغيطاني كتب: «إنني أعتبر كافكا واحداً من أعظم المبدعين في تاريخ الإنسانية... إنه كاتب عظيم ومبدع كبير نحتاج إليه في كل وقت»، وهو «كاتب كبير، أكنّ له احتراماً ومحبة وإعجاباً. إنه أحد عباقرة الإنسانية».

جون أبدايك كتب: «يبدو كافكا كآخر الكتّاب المقدسين، والممثل الأنبل للمصير الإنساني في العالم الحديث».

إبداع كافكا يعالج طبيعة البشر بصفتهم بشراً وليس أعضاء في جماعات معينة. يعالج طبيعة «المجتمع البشري» وليس مجتمعاً مخصوصاً. الحديث عند كافكا هو دائماً عن «الإنسان» بعامة وليس عن أناس أية جماعة معينة. لذا فإن إبداع كافكا يُقرأ ويُفهم في سائر أنحاء العالم. «نصوصه الأمثولية تدعو ليُعمل منه مكتب استعلامات عن الوضع الأبدي أو الحالي للإنسان». هذه الجملة التي كتبها الفيلسوف أدورنو هي جملة أساسية لفهم آثار كافكا.

في عام ٢٠٠٢ أجري في النرويج أكبر استطلاع دولي لأهم مئة كتاب أدبي في التاريخ، التي تصلح لكل الأزمنة وتساعد في تشكيل الوعي الإنساني. وشارك في هذا الاستطلاع كتّاب عالميون، وأعلنت نتائجه في معهد نوبل. وكان كافكا هو الكاتب الوحيد الذي اختيرت جميع كتبه من بين هذه المئة كتاب.

ما من أحد يقدر أن يكتب مثلما كتب كافكا، وما من أحد يقدر أن يحب مثلما أحب كافكا. رسائل كافكا إلى فيليس، ورسائله إلى ميلينا، تبيّن توقه العنيف إلى الحب، وبحثه الدائب عنه، ومعاناته الشديدة بسبب غياب علاقة سليمة مثالية مع امرأة. «كثافة» هذه المعاناة وهذا التوق لا أعرفها لدى كاتب آخر.

إن رسائل كافكا إلى فيليس وميلينا هي أكثر رسائل حب في العالم «غرابة». تذكّر بكاوباتا

وماركيز اللذين أعتبرهما تلميذين من تلامذته. تشعر القارئ أن كافكا إنما هو الشاعر الأعظم للحب. ويمكن التدليل على ذلك بمئات المواضع من هذه الرسائل. في رسالة إلى فيليس يتحدث كافكا عن الحب «وطني الحقيقي». نعم، ما من وطن سوى الحب. لكن السعادة في هذا الوطن السعيد، الفردوس المفقود، لم يعثر عليها كافكا طوال حياته إلا في الأحد عشر شهراً الأخيرة من حياته... مع حبيبته دورا. وقد عبّر كافكا عن هذه السعادة في نص «البناء»، هذا الأثر الفني العظيم الذي كتبه كافكا في تلك الأيام القصيرة من سعادته. وهناك من يعتبر هذه القصة من أعظم قصص الحب في الأدب العالمي.

رسائله التي كنتُ قد قرأتها قبل عقود، أعدْتُ قراءتها الآن بروية ومتعة. (متعة القراءة هي جوهر الأدب). أن تجد كل صباح على طاولة الفطور رسالةً كتبها كافكا قبل نحو قرن من الزمان، تقرؤها وتشعر بطزاجتها وكأنها وصلت هذا الصباح... هذا شعور جميل، ومهما بدا «غرائبياً»، وكأنه من عالم آخر، فإنه شعور حقيقي، واقعي. إنه شعور «كافكاوي» بامتياز.

هذا ما كنت أشعر به طوال عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨. كنت صباح كل يوم أثناء تناولي، وحدي، طعام الفطور أقرأ، بدلاً من جريدة، رسالة أو رسالتين من رسائل كافكا.

بهذا اكتسبت عادة لم أتخل عنها بعد ذلك الوقت: مع كل تناول طعام فطور أقرأ شيئاً ما عن كافكا. من كتاب أو أقرأ، بين كتاب وكتاب، مقالات تأتيني كل يوم من محرك البحث غوغل وأنسخها على ورق. في الأشهر الأخيرة من عام ٢٠٠٨ كنت أقرأ كل يوم بضع صفحات من الجزء الثالث من سيرة حياة كافكا التي كتبها راينر شتاخ. هذه «الرواية» ضخمةُ الحجم، الساحرةُ والأكثر تشويقاً من أية رواية أخرى قرأتها. وبعدها قرأت، على سبيل المثال، كتابَ واحدٍ من أهم مفسري آثار كافكا الجدد، البروفسور توماس أنز بعنوان: «فرانز كافكا/ حياة وآثار».

لم أعرف مثل هذا التماهي مع شخص آخر أو حالة أخرى. إنني أشعر بقرابة روحية مع كافكا. قرابة في طريقة التفكير والإحساس بالأمور. إنه أقرب شخص إليّ ممن تعرفتهم طوال حياتي، شخصياً أو قرائياً. أشعر أن ثمة حالات وتصرفات أنقلها عنه: في حالات معينة تفضيل الكتابة إلى حبيبة على لقائها. رسائل عديدة مني إلى أهلي نشأت بالطريقة والأوضاع النفسية نفسها التي نشأتْ فيها «رسالة إلى الوالد». كافكا يطلب يد ابنة رجل دين يهودي، ويكتب له في الرسالة نفسها أنه، هو، ليس يهودياً مؤمناً! شخص من ذوي النفوذ يطلب مني يد ابنتي للزواج من ابنه، فأكتب للسائل أني اعتدت زيارة بيوت البغاء! لا نريد أن نكذب،

وإن كان «لا يمكن للعالم أن يستمر قائماً إلا بالكذب».

ومع كل قارئ لكافكا أشعر بقرب، بغض النظر عن البعد المكاني. وكل قارئ لكافكا العربي يستحق الذكر، ومني الشكر.

بدأتُ ترجمة آثار كافكا في عام ١٩٨٨. ومنذ ذلك الوقت حتى الآن لم يمض يوم واحد تقريباً إلا وقرأت فيه شيئاً من كافكا أو عن كافكا، أو ترجمت منه أو عنه، أو عملت فيه شيئاً ما له علاقة به. أستثني من ذلك بضعة أيام فقط من إقامة لي في غرفة العناية المشددة في مستشفى في عام ١٩٩٦. فعندما عدت أستطيع القراءة وأنا ما زلت في المستشفى طوال نحو ثلاثة أشهر، عدت إلى كافكا. وإذ رأى الأطباء أنني أصبحت على فراش الموت، قرأت كتاباً عن موت كافكا ... فشعرت بعزاء، إذ كان وضعي في المستشفى أفضل بكثير جداً من وضع كافكا في المصحة التي توفي فيها. فيما مضى لم أكن قادراً على قراءة كتاب عن الموت. لكن عندما قيل لي إن موتي قريب جداً، تغلبت على خوفي، وقرأت عن موت كافكا. قرأت الكتاب عن موته وكأنني أقرؤه من أجل الكتابة عنه أو استخدامه في ترجمتي القادمة. إذ علّمت، كما هي عادتي، على المواضع المهمة في الكتاب، وكتبت ملاحظاتي على هوامش صفحاته. وإذ لم أمت، فقد استخدمت هذا الكتاب فعلاً في ترجمتي القادمة. إنه كتاب: «سنوات كافكا الأخيرة».

عملت طوال نصف يوم في ترجمة كلمة «المحاكمة»، وطوال نصف يوم في الجملة الأولى منها، وطوال نصف يوم ثالث في الجملة الأخيرة. ترجمة كلمة واحدة وجملتين من كافكا احتاجت مني إلى عمل يوم كامل ونصف اليوم.

في المرحلة الأخيرة من إعداد وترجمة المجلد الثاني من «الآثار الكاملة» لكافكا (المحاكمة) أصبحت أخشى من انتهائي من العمل فيه. إذ طوال عملي فيه كنت أعمل وأنا أشعر بمتعة فائقة. وكنت أقدّر أنني لن أستطيع إنجاز مجلد ثالث أو أكثر. وكانت دراسة إمريش بعنوان «العالم كمحكمة» هي الدراسة قبل الأخيرة التي سأترجمها. وكنت أظن أنني سوف أوجزها في صفحات قليلة. لكنني عندما بدأت ترجمتها، لاحظت أنها تستحق الترجمة في معظمها. وهنا سررت غاية السرور، لأن عملي في ترجمة هذا المجلد سيطول نحو أسبوع أو أسبوعين، وهذا يعني إطالة متعتي.

وأثناء ترجمتي آخر دراسة، وهي «مدخل إلى عالم كافكا»، زادت خشيتي من الفراغ الذي سيعقب انتهائي من العمل في هذا المجلد. وما أعظم سروري عندما وجدت ملاحظة في مصنف ـ كنت سأبحث فيه بعد انتهائي من ترجمة آخر دراسة ـ جاء فيها أنه ما زال يجب ترجمة دراستين كتبهما فالزر عن كافكا ونشرهما ضمن كتابين يضمان مقالات له. وبهاتين المقالتين أطلت متعتي في الترجمة عن كافكا بضعة أيام.

اعتاد الكاتب (أو المترجم) على أن يترك كتابه بعد خروجه من المطبعة وراءه، ويعطي نفسه بعض الوقت للإستراحة أو يبدأ في إعداد الكتاب التالي. ما حدث لي مع كافكا هو العكس تماماً. عندما كان الكتاب يأتي من المطبعة، كنت أترك كل إنشغال آخر، وأقرأ الكتاب مثلما يقرؤه أي قارئ، أقرأه كأنني أقرؤه لأول مرة. وخاصة كتاب «المحاكمة».

كنت قد أنفقت في ترجمته نحو أربعة أعوام ونصف العام، وفي تصحيح بروفاته نحو عامين. ستة أعوام ونصف العام مع تفرغ كامل ليلاً نهاراً. وعند وصول نسخ منه تركت كل إنشغال آخر وكل قراءة أخرى، وبدأت قراءته وكأنني لم أر سابقاً كلمة منه. قرأته كاملاً من أول كلمة إلى آخر كلمة فيه. قرأته بكل هدوء وتمعّن. وكما أقرأ كل كتاب. قرأته وبيدي قلم رصاص علّمت به على كل موضع وجدته في غاية الأهمية، وإلى جانبي ورق وقلم كتبت به الأخطاء المطبعية واللغوية التي عثرت عليها في كامل الكتاب. وفي آخر صفحة دوّنت، كما هي عادتي، تاريخ انتهائي من قراءة الكتاب.

قراءتي هذه لكتاب «المحاكمة»، الذي كنت قد ترجمته بنفسي، وصححت بروفات طباعته خمس مرات، أثارت في نفسي متعة لم تثرها قراءة كتاب آخر طوال حياتي.

كنت سابقاً قد قرأت كتاب «المحاكمة» بالألمانية، وكتبت عنه دراسة في الجامعة. وفيما بعد أمضيت نحو ستة أعوام ونصف العام في ترجمته وترجمة دراسات عنه وتصحيح بروفاته؛ أي أنني قرأته نحو عشر مرات. قرأت كل كلمة فيه نحو عشر مرات.

أما قراءتي الأخيرة له (حتى الآن)، بعد خروجه من المطبعة العربية، فإنها قد أتاحت لي فهم وإدراك أقسام منه أكثر بكثير مما فهمته في كل القراءات السابقة، وذلك لأنه يحوي تفسيرات لرواية «المحاكمة» من زوايا ووجهات نظر متعددة، الأمر الذي يقتضيه كل أثر فني، ولأنني قرأته دفعة واحدة. ولا أستطيع الآن تحديد مدى حجم هذه الأقسام التي فهمتها. أي إنني سأقرأ كتاب «المحاكمة» مرات أخرى.

كما إن الحب صداقة، فإن الصداقة هي أيضاً حب. والهواية أيضاً هي حب. إنك تحب

هوايتك. وكافكا جمع لديّ بين الصداقة والهواية. إنه صديقي وهوايتي في آن. بدون هذا الشعور ما كان بالإمكان بذل هذا الجهد طوال أكثر من ربع قرن.

(بتنويع عن أدونيس): إنني موجود، وحاضر في العالم، مترجماً لكافكا خاصة. فما سيكون معنى استمراري في الحياة، إذا انسلخت عمّا أوجدني ومنحني حضوري؟

٢٠١٤ ابراهيم وطفي

٤ ـ كافكا العربي في عام ٢٠٤٩

«أنا ذاهب»، كانت آخر كلمة لكافكا يوم الثالث من حزيران عام ١٩٢٤، وكان قد بلغ من العمر أربعين عاماً وأحد عشر شهراً. لا بدّ أنه كان يوماً مظلماً لكثيرين من الناس المقرّبين إليه. ومع ذلك كان يوم انبعاث. صديقه ماكس برود، الذي كان واثقاً دائماً من موهبة كافكا الأدبية، نشر في الأعوام التالية مخطوطات كل كتب كافكا التي كانت ما زالت باقية. مع مضيّ الزمن نشأت في التحليل الأدبي الأوروبي مدرسة بحثية خاصة: اللغز كافكا. بيد أن هذا الكنز الأدبي ظل خافياً على العالم العربي مدة طويلة. الآن يمكن القول: كان العالم العربي ما زال غير ناضج.

في الأعوام والعقود الأخيرة نشأ عالم عربي جديد. جرى تطور لم يكن أحد قد رآه قادماً، وما زالت جذوره ومنابعه لم تستكشف إلا قليلاً. بمناسبة مرور ١٢٥ عاماً على وفاة الكاتب الكبير فرانز كافكا نريد أن نَصفَ تأثيرات كتب كاتب واحد لا غير على تاريخ ثقافة كاملة.

حتى أواخر القرن العشرين كانت نسبة الأميين عند العرب نسبة عالية جداً بالمقارنة بدول العالم الأخرى. كان الكتّاب والناشرون يلقون صعوبات جمة في تقدير أغلبية السكان لهم. وظلت أغلبية الآثار الفنية العظيمة التي أبدعها كتّاب عالميون دون ترجمة إلى العربية.

لكن واحداً برز وتميّز: ابراهيم وطفي، مولود في عام ١٩٣٧، ترجم طوال عقود آثار كافكا الفنية في عمل في منتهى الدقة. لدى ذلك حافظ على الجو الرهيف في إبداعات كافكا. وكان ينشد الأخذ بيد القارئ وإثارة اهتمامه. كل جزء من «الآثار الكاملة» لكافكا تضمن العديد من الدراسات التي وضعها بحّاثة أوروبيون في إبداع كافكا معروفون، هذه الدراسات أضاءت كون فرانز كافكا، هذا الكون الذي يبدو ظاهرياً وحسب مليئاً بالألغاز.

•

يحمل الجزء الأول عنواناً فرعياً هو «الأسرة»، ويحوي أربعة آثار؛ ثلاث قصص **الحكم**، **الوقاد**، **الانمساخ**، و **رسالة إلى الوالد**، مع تفسيرات لهذه الآثار الأربعة.

يحمل الجزء الثاني عنواناً فرعياً هو «الذات»، ويحوي رواية **المحاكمة** مع تفسيرات لها.

يحمل الجزء الثالث عنواناً فرعياً هو «المجتمع الصناعي»، ويحوي رواية **المفقود** مع تفسيرات لها.

يحمل الجزء الرابع عنواناً فرعياً هو «الكون البشري»، ويحوي رواية «القلعة» مع تفسيرات لها.

ينطلق وطفي في إعداده وترجمته للآثار الكاملة لكافكا من قصة «الحكم»، وذلك لأنه يرى في هذه القصة «الصورة الكافكاوية الأولى التي نشأت منها كل آثار كافكا، واللبنة الأساسية في بناء كافكا الأدبي». بذلك يقتفي أثرَ عددٍ كبير من الدارسين، ويسبق أهم كاتب من كتّاب سيرة كافكا، الذي دعا فيما بعد حياة كافكا تبدأ انطلاقاً من الليلة التي كتب فيها قصة **الحكم**، ليلة ٢٢ ـ ٢٣ أيلول عام ١٩١٢.

يبلغ حجم القصة أقل من عشر صفحات. وهي **قصيدة أكثر مما تكون قصة. وتحتاج إلى فضاء حولها**، كما يقول مبدعها. والمترجم يقول عن كتابه، إنه «محاولة متواضعة لتقديم هذا الفضاء إلى القارئ العربي». بيد أن هذه «المحاولة» تأخذ نحو ١٤٠ صفحة. لا ريب أن هذا أمر غير مألوف في ترجمات آثار من الأدب العالمي: قصة قصيرة من أقل من عشر سفحات يُلحق بها دراسات عنها تبلغ نحو ١٤٠ صفحة. ولا سيما إذا علمنا أن هذه القصة كانت قد ترجمت سابقاً مرة أولى، ونشرت أولاً ليس وحدها وإنما ضمن مجموعة قصصية لعدة كتّاب ألمان، وثانياً ليست كاملةً، وإنما ناقصة عدة مقاطع.

منذ البداية نعلم، من الكاتب نفسه، كيف نشأت هذه القصة. **هكذا فقط يمكن الكتابة، فقط في مثل هذا السياق، وبهذا الانفتاح الكامل للجسد والروح**. إن كافكا يلد هذه القصة كما تلد امرأة مولوداً. وتلد هذه القصة كافكا كاتباً مبدعاً، أي شاعراً.

ثمة، من طرف، غموض في القصة. والكاتب نفسه يقول إنه لا يمكن إيضاحها وإنها **متوحشة بعض الشيء ولا حكمة لها**، وإنه لا يعثر فيها على **أي مغزى سويّ مترابط يمكن تتبعه، وهو لا يستطيع أن يفسر شيئاً فيها**. لكنها، من طرف آخر، **تملك حقيقة داخلية**. يشير كافكا إلى هذه الثنائية الضرورية من الغموض واليقينية في قصته، ويجعل منها مثالاً على القراءات المقبلة لآثاره.

وصحيح أيضاً أن قصة **الحكم** هي «نص متواضع نوعاً ما لا يثير الانتباه بشكل غير مألوف، ولا يبدو ذا أهمية خاصة، ولا تكشف النظرة الأولى إليه أنه سيكون أثراً باقياً، كما أنه يخلو من كل رونق في الأسلوب والشكل». «ومع ذلك فقد أثارت هذه القصة القصيرة ـ من دون مبالغة ـ مئات التفسيرات، وما زالت تثير».

صحيح: لدى القراءة الأولى لا «يفهم» القارئ هذه القصة فهماً دقيقاً كاملاً. يحدس، نعم، أن فيها عمقاً. ليست قصة «مسطحة»، وإنما وراء الأكمة ما وراءها. يبغي القارئ أن يدرك أكثر، يقرؤها مرة ثانية، فلا يستشعر اقتراباً منها، وإنما أنها أبعد غوراً مما بدت لدى القراءة الأولى. يثير هذا في نفس القارئ الرغبة في محاولة تفسير هذه القصة. وكلما أعاد قراءتها، باتت عصية على «الفهم» أكثر وزاد السحر الذي ينبعث منها.

بحذر وتؤدة، بمنهج ومثابرة، بأسلوب سمته البساطة والوضوح ينأى عن التعبيرات المعقدة، وعلى مدى نحو ١٤٠ صفحة تخلو من الهوامش والحواشي على الطريقة الأكاديمية، يقود وطفي القارئَ في دهاليز عالم هذه القصة؛ فيحس هذا أنه إنما قرأ قصة غير عادية، قصة بعيدة الغور، وأنه دخل بهذا خطوةً أولى إلى عالم شاعر كبير، عالم كافكا.

لا يدعي وطفي أنه «أبدع» هذا الكتاب بنفسه. حرفياً يقول: «ليس هذا الكتاب تأليفاً بحال من الأحوال، فهو بالكاد يحتوي مقطعاً واحداً من تأليفي، وإنما هو مجرد ترجمة وإعداد فقط».

في الختام يدعو وطفي القارئَ إلى إعادة قراءة قصة الحكم من أجل «فهمها وتقدير قيمتها». ويأمل أن يكون كتابه هذا عنها «بداية رحلة كافكا إلى بلاد العرب... حاملاً معه حقائبه المليئة بالكنوز».

الأثر الأدبي الثاني في الجزء الأول من «الآثار الكاملة» هو قصة **الوقاد** (٢٢ صفحة)، وهي الفصل الأول من رواية كافكا الأولى **المفقود**. في هذه القصة أيضاً يحس القارئ لدى قراءته الأولى لها أنها قصة عادية غير استثنائية. لكن سرعان ما يتبدل هذا الانطباع. يلي القصة فصل بعنوان «إشارات وذكريات ودراسات» (٣٢ صفحة)، ويحوي تسع مقالات تقدم الأولى منها نبذة عن وضع الكاتب قبيل كتابته هذه القصة. وتتحدث الثانية عن نشوء القصة **من حقيقة داخلية**، كما يقول مبدعها، وتذكر الثالثة الطباعات الأولى للقصة في كتاب في الأعوام ١٩١٣ ـ ١٩١٨. وتقدم الرابعة حديثاً مع مربية كافكا، التي خلق منها الكاتب شخصية الخادمة التي أغوت بطل القصة ذا الستة عشر عاماً وأنجبت منه ابناً. والمقالة الخامسة تصف لقاءً لكاتبها مع كافكا. والسادسة تقدم المقالات النقدية الأولى التي كتبت عن القصة. أما المقالات الثلاث الأخيرة، التي كتبها ثلاثة من أهم دارسي كافكا، فإنها دراسات تفسيرية للقصة من زوايا ثلاث. من خلال ذلك كله يدخل القارئ إلى عمق قصة «الوقاد»، فيقدّرها أكثر بكثير مما قدّرها قبل قراءة هذا الفصل. ومن ثم يدخل القارئ خطوة ثانية إلى عالم كافكا. وهنا

يستشعر القارئ قبولاً بوجود دراسات عن أثر أدبي في كتاب واحد مع هذا الأثر، لا بل إنه يستشعر ألفةً مع وجود هذه الدراسات.

والأثر الأدبي الثالث هو القصة الأكثر شهرةً في العربية من الأثرين السابقين ومن بقية آثار كافكا المترجمة: قصة **الانمساخ**. لا، إن هذه القصة ليست مشهورة ولا حتى معروفة في العربية بهذا العنوان، وإنما باسم «المسخ». الفرق بين المفردتين يشرحه لنا المترجم على مدى صفحة كاملة (ص ٢٧٩)، ويقنعنا أن هذه القصة إنما قد «عُرفت في اللغة العربية بعنوان خاطئ طوال أكثر من أربعين عاماً». هنا نشعر بأكثر من قبول وألفة، نشعر بضرورة وجود دراسات تُلحق بترجمة أي أثر من آثار كافكا، بل لدى ترجمة أي أثر أدبي آخر.

تقع قصة **الانمساخ** في هذا الجزء في ٤٤ صفحة، يليها سبع دراسات عنها كتبها كاتبان كبيران وخمسة اختصاصيين في أدب كافكا، وأربع «إشارات» كتبها المترجم. تقع هذه الدراسات والإشارات في مئتي صفحة.

الدراسة الأولى بعنوان «إيضاحات ووثائق» (٥٤ صفحة) هي موجز لكتاب (١٧٦ صفحة) مخصص لتلاميذ المدارس الثانوية الألمانية، لا ريب أنه لا مثيل له في اللغة العربية. لا للتلاميذ ولا للنقاد!

والدراسة الثانية هي فصل من أحد أهم الكتب التي وضعت عن كافكا، ومن قبل واحد من أهم دارسيه هو فيلهلم إمريش. هذا الدارس الذي كان يقال عنه إنه كان «قوة عظمى» في مجال الأدب الألماني، وإن محاضراته إنما كانت «أسطورة»، يقدم تفسيراً للحشرة على أنها ذات الإنسان. «إن تحول سامسا هو انتقال ذاته إلى مَثَل. هناك فقط تصبح هذه الذات حقيقية، وتقوض كذب العالم البشري».

الدراسة الثالثة بعنوان «العبقري والعادي» كتبها الكاتب الروسي - الأمريكي فلاديمير نابوكوف، يخلص فيها إلى أن «أسرة سامسا، التي تعيش حول الحشرة الخيالية، ليست شيئاً آخر سوى المتوسط، العاديّ، في محيط العبقري».

الدراسة الرابعة بعنوان «سخرية خالصة» (١٣ صفحة) يبرهن فيها الكاتب الألماني الأشهر مارتن فالزر على أنه «ما من قصة أخرى تقدر أن تكون أكثر سخرية» من قصة «الانمساخ» لكافكا.

الدراسة الخامسة، التي وضعها أحد المختصين في أدب كافكا بعنوان «حوافز لقراءة الانمساخ» (١٧ صفحة)، ترى أن كافكا كان قد طُرد من أسرته ومن المجتمع، وأنه سجل في هذه القصة جراح حياته، التي كانت فاشلة، وأن غريغور سامسا أصبح ضحية حياته المتوسطة،

ولم يقم بتمرد، وعجز عن الحب وعن الحياة، وأن «ذنبه إنما يكمن في إخفاقه في التمرد والتحرر».

والدراسة السادسة (٦ صفحات)، التي وضعها مختص ثان، تجمع بين قصص كافكا الثلاث الأولى وتعتبرها «إمكانيات ثلاث لشخص واحد». ترى أن هذه القصص إنما تعرض تحالفات الأسرة مع جهات أخرى ضد الفرد.

والدراسة السابعة (١٧ صفحة)، التي كتبها أحد أهم المختصين في أدب كافكا، ترى أن القصص الثلاث هي «قصص عن الولادة»، ولادة الذات، تأسيس الذات خارج الأسرة، وأنها تصف «وحشة الأنا التابعة للأسرة وإعادة خلق هذه الأنا من الفن»، وأنها تصور مأزق هوية الذات في العصر الحديث»، وأنها «رؤيا عن البنية القسرية للمجتمع الحديث». ويرى هذا الناقد أن آثار كافكا إنما «أصبحت رمزاً للقرن العشرين»، وأنه لم يمكن حتى الآن الإجابة عن السؤال «من أين ينبع التأثير الآسر والإشعاع الساحر» لقصص كافكا وآثاره الفنية.

بعد هذه الدراسات السبع ثمة «أربع إشارات»، الأولى منها بعنوان «المسخ العربي»، وهي عن الترجمة العربية الأولى لقصة كافكا بعنوان «المسخ»، هذه الترجمة التي نشرت لأول مرة في عام ١٩٥٧، وأعيدت طباعتها مرات عدة. من هذه الإشارة لا نعلم خطأ عنوان القصة وحسب، وإنما نعلم أيضاً أن تلك الترجمة الأولى إنما تحوي مئات الأخطاء، أي في كل صفحة أخطاء عديدة. ثم إن تلك الترجمة الأولى لهذا الأثر الأدبي إنما هي «أفضل ترجمة عربية لنص من نصوص كافكا». وهذا يعني أن القارئ العربي لم يكن يعرف قبل الآن أية ترجمة سليمة لأي كتاب من كتب كافكا، «الذي يعتبر واحداً من أبرز كتاب القصة والرواية في العالم في القرن العشرين، لا بل في كل العصور». هنا نفهم لماذا أعطى المترجم الفصل الأخير في الكتاب الأول من كتب «الآثار الكاملة»، كتاب «الحكم» عنواناً بدا قبل ذلك غريباً هو «كلمة أولى بالعربية عن كافكا أو مدخل إلى مقدمة». هنا نحس مدى أهمية هذه الترجمة الجديدة ومدى ضرورتها.

والإشارة الثانية تفيد أن «الموضوع واحد في العالم كله»: موضوع الأسرة ومسخها للفرد. والإشارة الثالثة تحوي رسالة قارئ مجهول أرسلها إلى كافكا في عام ١٩١٧. والإشارة الرابعة عن مرحلتي إبداع كافكا في عامي ١٩١٢ و ١٩١٤.

مثل هذه الدراسات والإشارات تبيّن مدى ضرورتها لفهم أي أثر أدبي مترجم، بل تُظهر إنعدام جدوى ترجمة كتاب أدبي هام دون ترجمة دراسات عنه. وإلا فإن القارئ العربي سيجد نفسه لدى كل كتاب أمام «حزورة».

والكتاب الرابع في هذا الجزء الأول هو رسالة إلى الوالد. ويضم أربعة أقسام، القسم الأول هو نص الرسالة الذي يقع في ٥٨ صفحة من صفحات هذا الكتاب، وهو أول ترجمة كاملة

في جميع اللغات عن طبعة خط اليد التي صدرت في الألمانية في عام ١٩٩٤، والتي تحوي صورة طبق الأصل عن الرسالة التي كتبها كافكا إلى والده في عام ١٩١٩ وبلغت بخط يده ١٠٣ صفحات. هذه الرسالة «التي هي أهم وأشمل ما كتبه كافكا عن سيرة حياته». ويقال إنها أهم رسالة كتبها ابن إلى والده.

ويضم القسم الثاني أربع دراسات كتبها أربعة من أهم دارسي كافكا الألمان. تقدم الدراسة الأولى مقارنة بين قصة «الحكم» و «رسالة إلى الوالد»، هذه المقارنة التي تدعنا نفهم القصة والرسالة بكل يُسر، وتقنعنا بأن السمة المميزة لأسلوب كافكا إنما «هي، بالذات، الوضوح إلى أقصى درجة»، كما يقول دارس آخر.

هذا الدارس هو إمريش الذي كتب الدراسة الثانية، والتي يقول فيها إن «الإنجاز الفريد لآثار كافكا إنما يكمن في النقد الذي يمزق به حُجُب الكذب التي تغطي أشكال حياتنا وتفكيرنا». من هذه الأشكال علاقة ابن ـ أب، هذه العلاقة التي تمثل حلقة مفرغة من التسلط وكون المرء متسلَّطاً عليه، والتي هي حلقة في «تطور وُجدت بذرته منذ بداية تاريخ البشرية».

وكتب الدراسة الثالثة ناشر ومختص في أدب كافكا عاش التجربة نفسها مع والده الناشر الكبير. على مدى ٣٦ صفحة يشرح الكاتب خلفيات رسالة كافكا، هذه «الرسالة العملاقة، التي تعدّ اليوم أثراً من آثار الأدب العالمي». يبيّن أولاً أن «رسالة إلى الوالد» إنما تقف على العتبة، في تقاطع حياة كافكا وآثاره. وأنها جزء من بحث كافكا عن ذاته. وأنها، ثانياً، تمثل «مذكرة اتهام. إنها محاكمة، محاكمة يقيمها الابن للأب». وذلك نتيجة الصدام المؤلم بين عالمي القيم المختلفين بين الاثنين. وبعامة، يثبت هذا الدارس أن «السلطة، ابتداء من سلطة الأب، هي قطب الرحى في تفكير كافكا».

والدراسة الرابعة بعنوان «الأب والأدب» كانت آخر دراسة نشرت في الألمانية عن «رسالة إلى الوالد» قبيل نشر هذه الرسالة في العربية. وتشرح النزاع بين الأب والابن، بين القوي والضعيف، بين المسيطِر والمسيطَر عليه، بصفته موضوعاً مركزياً لدى كافكا، أبدعه أيضاً في قصص «الحكم» و «الوقاد» و «الانمساخ».

ويتألف القسم الثالث من الكتاب من مقالة كتبها المترجم بعنوان (لماذا **رسالة إلى الوالد**؟). أي لماذا ترجمتها إلى العربية. ويمكن اعتبار هذه المقالة مقدمةً لكتاب «رسالة إلى الوالد»، نشرت في آخره. يرى المترجم أن الأسرة «هي الخلية الأولى من خلايا السلطة». كما يرى أن المجتمع العربي إنما «اكتوى بجبروت الأب أكثر ولفترة أطول مما اكتوت به مجتمعات أخرى»؛ ويتابع قائلاً: «إن الأب في المجتمع العربي يريد أن يجبل ابنه على شاكلته. وهذا هو نوع من أنواع الاغتصاب». وتبعاً لذلك يدعو المترجم إلى تمرد الأبناء على آبائهم. «إن المطلوب هو إزالة صفة القداسة عن كل سلطة أو سيادة لأب على ابن أو ابنة (أو لأي إنسان على آخر)».

غير أن المترجم يختتم مقالته متشائماً، ذلك أن الآباء العرب لا يقرؤون، والأبناء يظلون، عندما يصبحون آباء، على سيرة آبائهم.

والقسم الرابع في الكتاب الرابع هو مقالة بعنوان «من أخبار كافكا الأخيرة (١)»، عن تلقي آثار كافكا في ألمانيا.

وينتهي الجزء الأول من «الآثار الكاملة لكافكا بكلمة ختامية تقع في ٢٠ صفحة، تبدو درساً يجري استخلاصه من قصص كافكا الثلاث الأولى ورسالته إلى والده، هذه الآثار التي كتبت قبل نحو قرن. بيد أن هذا الدرس لا يبدو مخصصاً لمجتمع محدد، المجتمع العربي مثلاً، وإنما يبدو موجهاً لمجتمع «البشرية». وليس لحاضر مثل هذا المجتمع، وإنما لمستقبل ناء، قد يأتي وقد لا يأتي أبداً.

تتألف هذه الكلمة الختامية من أربعة فصول، الأول بعنوان «الأسرة الصغيرة» للكاتب الألماني أنطون غوها. ويقدم فيه نبذة عن نشوء الأسرة في العالم وتطورها وسماتها. يرى أن الأسرة ذات بنية قمعية، تكمن أهميتها في تكييف الأطفال مع قيم المجتمع وعاداته، وأن «أول ما يجب على الطفل أن يتعلمه داخل الأسرة هو الخضوع»، ومن ثم أن «الرعية الخنوعة» إنما تتكون في الأسرة، التي «تخرّج مواطنين خنوعين وأشخاصاً مشوهين». ويخلص الكاتب إلى أن نظام الأسرة إنما يعيش في أزمة خانقة.

للخروج من هذه الأزمة الاجتماعية الكبرى يقدم عالم اجتماع ألماني، في الفصل الثاني، اقتراحاً حول «مستقبل الأسرة»، يدعو فيه إلى التخلي عن المبادئ القديمة والاستعاضة عنها بمبادئ حديثة. ويُبدي هذا العالِم تفاؤله، إذ يكتب: «ثمة أمل بالطاقة التطويرية للعقل والنفس البشريين أن يقوما بتنمية الوعي بالديموقراطية ويساهما في ابتكار بنى أسرية قادرة على التحمل».

ويتدخل المترجم مرة ثانية ويختتم المجلد بفصل ثالث بعنوان «أحلم»، وضع له كلمة لأدونيس شعاراً هو «نستأصل العائلة ونقيم الصداقة». هنا يجري تقديم «ورقة عمل» تمثل اقتراحاً عملياً لوضع بنية أسرية «قادرة على التحمل». وسيكون من شأن هذا «أن يكون بداية جديدة لدرجة تطور ثالثة، درجة الإنسان الإنساني، بعد درجة الحيوان ودرجة الإنسان اللاإنساني».

أوتوبيا؟ لا شك. لقد وضعت دائماً أوتوبيات وسوف توضع. وبدون أوتوبيا لا يستطيع الإنسان أن يتطور.

•

يضم الجزء الثاني من «الآثار الكاملة» أربعة أقسام:

١ ـ «نصوص» رواية **المحاكمة** بتسلسل فصول جديد.

٢ ـ ٢١ دراسة عن الرواية كتبها خلال نصف قرن مختصون في أدب كافكا وعدد من الكتّاب. هذه الدراسات تعالج الرواية من نواح متعددة. فالدراسة الأولى تربط «المحاكمة» بقصة **الحكم**. والدراسة الثانية تربطها برواية **المفقود**. والثالثة تقدم ما كتبه كافكا في يومياته عن نشوء الرواية منذ أول فكرة خطرت له. والرابعة عن الطبعات التي عرفتها الرواية في الألمانية. والخامسة عن تسلسل فصول الرواية المتعدد والمتباين منذ أول طبعة لها في عام ١٩٢٥ حتى اليوم. والسادسة تشرح بعض مفردات وتعابير الرواية؛ حيث يأخذ شرح معنى مفردة «المحاكمة»، على سبيل المثال، صفحة كاملة. وتمثل بقية الدراسات تفسيرات متنوعة للرواية. وقد وضع هذه الدراسات أربعة كتّاب عالميون وعشرة اختصاصيين ألمان في أدب كافكا.

٣ ـ من سيرة حياة كافكا وتلقي آثاره في العالم. يقدم هذا القسم، لأول مرة في العربية، معلومات وافية ورصينة وموثّقة عن حياة كافكا، تصحح للقارئ العربي نهائياً كل المعلومات المبتسرة والخاطئة والمزورة المتوافرة لديه عن هذا المبدع.

٤ ـ أربعة أحاديث عن كافكا: مع مفسر لآثار كافكا، مع كاتب لسيرة كافكا، عن «هذا العبث»، وعن تسلسل فصول رواية **المحاكمة**.

يضاف إلى ذلك كلمة ختامية (٧ صفحات) وضعها المترجم يربط فيها بين كافكا وشاعر عربي هو أدونيس. يرى المترجم أن «ما يكتبه أدونيس عن تعريف الشعر وماهيته، ينطبق على رواية **المحاكمة** وآثار كافكا جميعها». وهو يبرهن على ذلك بإيراد سبعة عشر استشهاداً من أقوال أدونيس مقتبسة من كتبه.

تتألف رواية **المحاكمة** المعتمدة في اللغة الألمانية، والمنشورة في طبعات عديدة ولدى عدة دور نشر، من عشرة فصول «مكتملة» وملحق ذي ستة فصول «غيرِ مكتملة». والترجمة العربية الأولى التي نشرت في أواخر ستينات القرن العشرين باسم «القضية» تقتصر على عشرة فصول.

في الترجمة الجديدة تتألف الرواية من تسعة عشر فصلاً، مرتّبة ترتيباً مغايراً، ومنها فصل واحد غائب في كل طبعة ألمانية أو غير ألمانية.

ثمة العديد من الأمور الجديدة كل الجدة في هذه الترجمة العربية:

هذه أول مرة في العالم تنشر فيه هذه الرواية بهذا التسلسل لفصولها. وهذا التسلسل الجديد ما زال غير معترف به في ألمانيا. وقد وضعه أحد مفسري كافكا الجدد في آخر القرن العشرين، وأخذه المترجم العربي عنه.

تحوي هذه الترجمة فصلاً جديداً في الرواية لا يوجد في الطبعات الألمانية ولا في أية ترجمة أخرى.

يبلغ حجم آثار كافكا الخمسة نحو ربع حجم الجزأين، في حين تأخذ تفسيراتها وسيرة حياة الكاتب نحو ثلاثة أرباع الحجم. وهذا أيضاً هو أمر جديد في الترجمة إلى العربية. عن الدراسات في هذين الجزأين كتب روائي عربي أنها «دراسات عميقة وشروح تعدّ الأولى من نوعها في ترجمة الأعمال الأدبية إلى اللغة العربية».

وكتب ناقد عربي عن أن «موضوع أديبنا العربي ابراهيم وطفي هو نقل كافكا إلى اللغة العربية، والتعريف به التعريف الصحيح والسليم بين المثقفين والقراء العرب»، وأنه «يقدم لنا نموذجاً فريداً في الثقافة العربية المعاصرة».

وفي الختام يمكن القول: من يقرأ هذين الجزأين، يعرف عن حياة كافكا وآثاره أكثر مما يعرف عن أي كاتب عربي أو مترجَم، في الماضي والحاضر.

يضم الجزء الثالث من «الآثار الكاملة» (٣٦٠ صفحة) أربعة أقسام:

١ ـ نص رواية **المفقود**.

٢ ـ عشر دراسات عن الرواية.

٣ ـ أربعة أحاديث عن كافكا: مع مخرج سينمائي، مع «ابنة» لكافكا، مع كاتب لسيرة كافكا، مع مخرجة مسرحية.

٤ ـ مقالة مطولة (٣٢ صفحة): من أخبار كافكا الأخيرة وتأثيره الراهن.

يضم الجزء الرابع من «الآثار الكاملة» (٤٠٠ صفحة) ثلاثة أقسام:

١ ـ نص رواية **القلعة** طبقاً لطبعة خط اليد الألمانية.

٢ ـ ثلاث دراسات عن الرواية (١٠٩ صفحات).

٣ ـ ملحقاً: حديث عن كافكا مع رئيس جامعة برلين، نبذة عن حياة كافكا وآثاره، كافكا الهواية، كافكا العربي في عام ٢٠٤٩.

في البداية كانت الفئة القارئة العربية مقصورة على بعض المثقفين، لكن دائماً أكثر طفق القراء في البلدان العربية يدركون من خلال قراءة كتب هذا الكاتب المبدع تناقضاتهم الخاصة بهم والتأثيرات التي تمارسها على شخصياتهم القوى النافذة داخل الأسرة، والمجتمع والدولة. راحوا

يلتهمون بكل معنى الكلمة آثار كافكا الفنية، ودراسات البحّاثة في إبداعه. جزئياً ذكّر فرط احترام وتقدير كتب كافكا بأهمية كتاب «آلام فرتر» لغوته. في القرن الثامن عشر انتحر عدة أفراد في ألمانيا لأن بطل الرواية فرتر أظهر لهم أخطاءهم وأحاسيسهم، وانتحر في نهاية الرواية. بالمثل أصبح أبطال كيوزف ك. وكارل روسمان رموزاً للمضطهَدين العرب.

وقد أعادت صحف ومجلات كبرى نشر الدراسات، فأثارت هذه الرغبة لدى القراء في المزيد. وتولد توق إلى الأدب وتشوّق إليه وإلى التبادل مع ثقافات أخرى. كان وطفي يصرّ في هذه الأثناء على نشر الدراسات المتعلقة بالأثر الفني ضمن الجزء الذي يضم هذا الأثر. كان هذا عناداً ذا جدوى للقراء كما هو لمنشورات وطفي، الدار التي تأسست من أجل نشر كتب كافكا.

كان ابراهيم وطفي أول من عمل على نحو منظّم لوضع مجموع آثار فنية لمبدع كبير في متناول العالم العربي. إن سيرة حياة وطفي الذاتية هي سيرة حياة مكتشف عربي. بعد قراءة مستفيضة لكتب كتّاب أوروبيين وأمريكيين كبار في فترة شبابه بات هو ورفاقه يحلمون بالرحيل إلى أوروبا. بالنسبة إليه كان الأمر حلماً من أجل التطور الشخصي. تطور نحو تحقيق الذات فكرياً ونحو الحرية. كان ثمة ظاهرة مميزة في العالم العربي في تلك الحقبة هي رحيل المثقفين مثل وطفي إلى أوروبا لكي يحققوا أحلامهم.

في الأعوام التالية غرق وتعمق في الثقافة الأوروبية. أقام في فيينا وهايدلبرغ وفرانكفورت وبون. طوال خمسة عشر عاماً كان يوفّر قوت يومه من أعمال صغيرة متقطعة، وراح يقرأ ويقرأ ويقرأ. ودرس في فرانكفورت، وحصل على شهادة الماجستير في الأدب الألماني. وبعدها عثر على عمل ثابت صغير في بون وفّر له تكاليف معيشته المتواضعة دون أن يأخذ منه سوى نصف الوقت، ودون أن يصرفه عن تحقيق حلمه: ترجمة الآثار الكاملة لكافكا إلى العربية.

تزوج فتاة ألمانية وأنجب منها ثلاثة أولاد. في كتابه «اعبد الحياة / رواية حياة في رسائل»، المؤلف من سبعة أجزاء صدر منها أربعة أجزاء في عام ٢٠١٠، جمع مختارات من مراسلاته في الأعوام ١٩٥٢ - ٢٠١٠. من هذه المراسلات يتوضح مدى ابتعاد الكاتب عن طريقة الحياة الشرقية وتمرّده عليها.

نشر كتبه، المؤلفة والمترجمة، في دار نشر أسسها خصيصاً لذلك وأسماها «منشورات وطفي».

بعد وفاته انتقلت ملكية دار النشر إلى أبنائه الثلاثة، الذين يعملون حتى اليوم للحفاظ على آثار كافكا الفنية وعلى كتب والدهم في العالم العربي. إنهم يبقون آثار كافكا على قيد الحياة،

آثار ليست آثاراً فريدة في الأدب وحده، بل في تأثيرها التاريخي على المجتمع العربي. آثار فنية ساعدت ملايين من العرب لإدراك قصورهم الذي كان نشوءه يعود إليهم أنفسهم.

يوم الثالث من حزيران هو يوم ذكرى كافكا. بفضل المترجم ابراهيم وطفي أضحى هذا اليوم الآن يوم مسرّة للعالم العربي أيضاً.

٢٠١٤ جبران وطفي

والدي العزيز،

اليوم يوم احتفال، اليوم السنوي لولادتك الثانية: وصولك، بتاريخ ١٩٦٣/١/٣، قادماً من الحارة الشرقية إلى الحارة الغربية من قريتنا الكونية. لولا هذه الولادة الثانية، لما عرف العرب كافكا على حقيقته!

لك مني صادق التهنئة القلبية بمناسبة عيد ميلادك هذا.

أيام عيد الميلاد هي أيام احتفال جميلة، لأنها تقدم فرصة للتأمل في الماضي والمستقبل. عن الماضي نتحدث كثيراً وغالباً. هنا أحب أن أنظر إلى المستقبل، نظرة بصفتها هدية صغيرة لك.

نكتب العام ٢٠٤٩: ٣ حزيران ٢٠٤٩، لقد مضى ١٢٥ عاماً على وفاة كافكا. صحيفة «الحياة» اليومية تنتهز هذه المناسبة لنشر هذا الملحق الخاص.

إنها مجرد واحدة من مئات احتمالات المستقبل الممكنة. بيد أنها حلم، أمل؛ وهو حلم، أمل بمجرد أن يفكر المرء فيه ويدوّنه، إنما يصبح حقيقة بعض الشيء أكثر.

تهنئة قلبية بمناسبة مرور ٥٢ عاماً على ولادتك الثانية!

٢٠١٤/١/٣ لك حبّي ابنك جبران

هنا أشكر صديقتي وزوجتي أنّي لدعمها ورعايتها لي؛ إذ لولا مساعدتها، لما نشأ هذا الكتاب (ا. و.)

Hier danke ich meiner Freundin und Ehefrau Anne fuer ihre Unterstuetzung und Fuersorge, denn ohne ihre Hilfe waere dieses Buch nicht entstanden (I. W.).

يصدر لاحقاً

فرانز كافكا

الآثار الكاملة

مع تفسيرات

٥

(البنية الجدلية للوجود البشري)

القصص

ترجمها عن الألمانية

ابراهيم وطفي

في المكتبات

اعبد الحياة

رواية حياة في رسائل

I

حب من المهد إلى اللحد

ابراهيم وطفي

في المكتبات

اعبد الحياة

رواية حياة في رسائل

II

صداقة

ابراهيم وطفي

اعبد الحياة

رواية حياة في رسائل

III

كافكا

ابراهيم وطفي

للمترجم

الكتاب	الكاتب	الناشر
١ ـ حديث عن فيتنام (مسرحية)	بيتر فايس	وزارة الثقافة/ دمشق ١٩٧٠
٢ ـ لعبة حلم (مسرحية)	أوغست ستريندبرغ	وزارة الثقافة/ دمشق ١٩٧٢
٣ ـ القضية (مسرحية عن رواية كافكا)	بيتر فايس	مجلة الحياة المسرحية/ دمشق ١٩٨١
٤ ـ الليلة التي ذبح فيها الرئيس (مسرحية)	هاينر كيبهارت	مجلة الحياة المسرحية/ دمشق ١٩٨٣
٤ ـ ليلة جمعة (المسرحية السابقة)	هاينر كيبهارت	وزارة الثقافة/ دمشق ١٩٨٤
٥ ـ أحاديث مع غابرييل غارسيا ماركيز	بلينيو ميندوزا	دار طلاس/ دمشق ١٩٨٦
٦ ـ مرتس (مسرحية)	هاينر كيبهارت	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٠ (ط٢: ١٩٩٧)
٧ ـ معركة منزلية (مسرحية)	مارتن فالزر	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٤
٨ ـ الحكم	فرانز كافكا	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٤
٩ ـ رسالة إلى الوالد	فرانز كافكا	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٥
١٠ ـ حرب الشمال على شعوب الجنوب	عدد من الكتاب	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ١٩٩٦
١١ ـ ثلاثة كتاب من الألمانية	فايس. كيبهارت. فالزر	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ٢٠٠٠
١٢ ـ ١٣ ـ الآثار الكاملة (١) [الحكم/ الوقاد/ الانمساخ/ رسالة إلى الوالد]	فرانز كافكا	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ٢٠٠٠ (ط٣: ٢٠٠٨)
١٤ ـ الآثار الكاملة (٢) المحاكمة	فرانز كافكا	منشورات وطفي/ دمشق ـ بون ٢٠٠٢ (ط٣: ٢٠٠٨)
١٥ ـ كافكا في النقد العربي (البداية)	عدد من النقاد والكتاب	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ٢٠٠٦
١٦ ـ الآثار الكاملة (٣) المفقود	فرانز كافكا	منشورات وطفي / دمشق ـ بون ٢٠١٠



هذا الكتاب

يُجمع دارسو «القارة العالمية» كافكا جميعهم على أن كتاباته هي إبداع شعري، مثلما هي مسرحيات شكسبير وروايات غوته. ويمكن للشعر أن يتخذ شكل قصيدة أو مسرحية أو رواية أو قصة أو خاطرة ويظل شعراً. وللشعر لغة خفية تكشف الباطن والمضمر. بهذا المعنى إن **القلعة** قصيدة طويلة ولوحة فنية ضخمة.

«عبر التصوير الصادم وحسب، تظهر الحقيقة الخفية على نحو مباشر وجليّ، إذ إن الخاصية المميزة لصور كافكا الشعرية إنما تكمن في أنها تطابق بشدة الحقيقة الخفية وليس الحقيقة الظاهرة خارجياً. كافكا لا يكتفي مثل المبدعين الآخرين بأن يظل في إطار الظاهريّ تجريبياً أو أن يعبّر بأحاسيس غير محدودة أو رؤى، بل إنه يحوّل هذه الحقيقة على الفور إلى صورة مجسمة، وهذه الصورة المجسمة تظهر، نفسها، كواقع تجريبي، ومن ثم ـ بالتأكيد ـ تصيب القارئ كضربة مطرقة، لا تتركه، لا تسمح له بالهرب، ترغمه على اتخاذ موقف من الحقيقة التي لا تسمح بتفسير» (فيلهلم إمريش، أهم دارس لكافكا).

«في رواية **القلعة** يخضع الزمان والمكان والجسد لقوانين التغريب، كما هو الحال في رواية **المحاكمة**. في **القلعة** أيضاً يُظهر كافكا نفسه منظّماً بارعاً يحوّل عناصر العالم الخارجي إلى ظواهر أحوال نفسية (بيتر ـ أندريه ألت أحد كتّاب سيرة حياة كافكا ورئيس جامعة برلين).

«إن كافكا معلّم كبير. نصوصه لا تشيخ أبداً ولا تصدأ، إنها تخاطب خبرات سرمدية» (راينر شتاخ، أحد كتّاب سيرة حياة كافكا).

«أعتقد أن أعظم رواية في العالم هي رواية **القلعة** لكافكا» (المخرج السينمائي الفرنسي جان ـ ماري شتراوب).

يضم هذا الجزء الرابع من «الآثار الكاملة» لكافكا:

١ ـ نص رواية **القلعة** طبقاً لطبعة خط اليد.

٢ ـ ثلاث دراسات عن الرواية.

٣ ـ ملحقاً: حديث عن كافكا. نبذة عن حياة كافكا وآثاره. كافكا الهواية. كافكا العربي في عام ٢٠٤٩.

يمثل هذا الكتاب طريقة جديدة في تقديم كاتب عالمي للكاتب والناقد والقارئ العربي. كما أنه يتطلب طريقة جديدة في القراءة.

تمثل قراءة رواية **القلعة** والدراسات عنها مغامرة قرائية لا نظير لها، وذلك لأن الرواية تبدو لأول وهلة غامضة ومفعمة بالألغاز، لكن الدراسات هي بمنزلة المفتاح الذي يفتح دهاليز مضامين الرواية ويحل ألغازها وتعقيداتها الكثيرة.